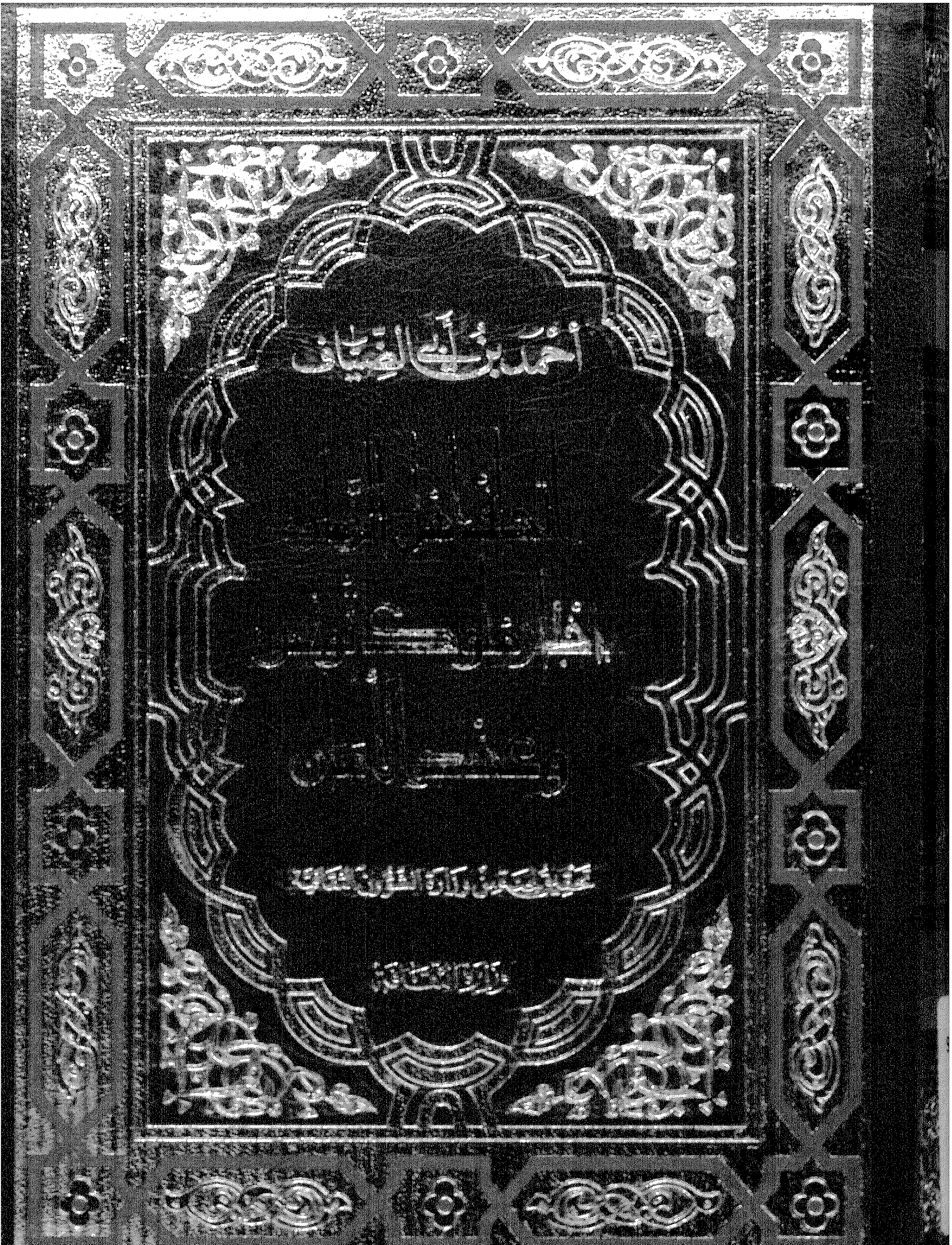

أحمد بن أبي الضياف
إتحاف أهل الزمان
بأخبار ملوك تونس
وعهد الأمان

اتحاف أهل الزمان
باخبار ملوك تونس وعهد الأمان



المجلّد الثاني
الجزء الثالث

التصميم والتنفيذ:
الدار العربية للكتاب

وزارة الثقافة

أحمد بن أبي الضياف

إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان

تحقيق لجنة من وزارة الشؤون الثقافية

تنفيذ:
الدار العربية للكتاب

- حمودة باشا الحسيني
- عثمان بـاي
- محمـود باشا باي
- حسين باشا باي
- مصطفى باشا باي



الباب الأول

في اخبار

الباي أبي محمد حمودة باشا

ابن الباشا علي باي ابن الباي حسين بن علي

مولده ليلة السبت ثامن عشر (1) ربيع الثاني من سنة 1173 ، ثلاث وسبعين ومائة وألف (8 ديسمبر 1759) ، وأمه جارية من أعلاج القرج اسمها محبوبة ، تزوج بها أبوه في الجزائر . ولما قدم مع أخيه لتونس واطمأنّت به الدار ، بعث الثقة الامين الشريف الماجد أبا عبد الله محمد القسطلّي الى الجزائر في البحر ، وأتى له بها وببقية حرمه .

واعتنى أبوه بتربيته ، فقرأ ما تيسّر من القرآن ، وضمّ اليه إمامه الفقيه العالم أبا محمد حمّودة باكير ، فأخذ عنه ما يلزم من الفقه الحنفي وعلم الكلام ، وأخذ عن العلاّمة الكاتب أبي محمد حمّودة بن عبد العزيز ، كاتب أبيه ومؤرخ دولته ، ما يلزم من النحو والحساب والتاريخ ، وتعلم اللغة التركية نُطقا وكتابة ؛ وبالجملة له مشاركة اكتسبها بالتعلّم والمخالطة .

بويع في حياة والده غرة محرم سنة 1191 ، احدى وتسعين ومائة وألف (الاحد 9 فيفري 1777) ، كما تقدم في أخبار أبيه .

ولما توفي أبوه في الثامن عشر من جمادى الثانية 1196 ، ست وتسعين ومائة وألف (يوم الجمعة 31 ماي 1782) ، تجددت له البيعة من وزراء أبيه في الحين ، وأول من بايعه ابن عمّه أبو الثناء محمود باي ؛ ومن الغد حضر العلماء وأهل المجلس الشرعي وأكابر الجند وأعيان الحاضرة ، وجددوا له البيعة العامة . وخرجت جنازة أبيه الى تربته .

وكاتب بلدان المملكة وعربانها بنعي أبيه ، وتوالت الوفود على بيعته .

وأقرّ وزراء أبيه ورجال دولته على مراتبهم وقال لهم : « اني لم أجلس في هذا الموضع بتَغَلُّب حَرَبي حتى أُحسِنَ لمن أعانني واَتَشَفّى ممن حارَبني ، وقد طلبتموني في حياة أبي ، فأطلبُ منكم أن تكونوا لي كما كنتم لابي ، والله تعالى وليّ اعانة الجميع » .

---

(1) هو 17 حسب التقويم .

وبعد بيعته بيومين أو ثلاثة ، قدم صهره ومربّيه ووزير أبيه أبو النخبة مصطفى خوجة من سفر حجّه ، وسمع بوفاة مخدومه في حلق الوادي فقال : « لو بلغني خبر موته قبل أن أركب البحر ما قدمت حتى أنظر » ، لان تبديل الدول من معاطب الوزراء للملوك الاطلاق . وتيمّن بقدوم مربّيه وشدّ به أزره ، وانتفع بمؤازرته .

وحال هذا الامير : هو عماد البيت ، وبيت القصيد ، وفريدة السّلك ، المعدودُ من مفاخر هذا القطر ، ثاقبُ الفكر ، قويُّ الحزم ، صادق العزم ، ثابت الجنان ، أبي الضّيم ، [وكان] غيورا على الوطن ، محبًّا لاهله ، عارفا بمنازلهم ، متألفا لهم ، يغلب عقله هواه ، لا يأنف من المراجعة ، يُقيل العثرةَ ويعفو عن الزلّة ، جمّاعا للمال ، متلافا له في أوقات الحاجة ، بعيدا عن السّرف متجافيا عن دواعيه ، مُولَعا باستكثار الجند من الترك والالتحام بهم والتودُّد اليهم ، عظيمَ المَهابة في قلوب الناس ، ومع ذلك يتواضع لهم حتى أشْربوا حبّه ، واستماتوا في المدافعة عنه ، طامحَ النفس الى قُنَن المعالي من أخلاق الرئاسة ، من غير اعجاب ولا جهل بمقدار نفسه ، ولُوعا بالنظر في مقدّمة كتاب ابن خلدون ، رأيت نسخةً عليها توقيفات كثيرةٌ بخطّه ، كما ترى بسط ذلك في بقية أخباره ان شاء الله تعالى .

وافتتح أمره بالنظر في شأن المال ، اذ لا سلطان الا بمال ، فجمع رجال دولته وأطلعهم على مخلّف أبيه من المال الناضّ ، وكان نزرا لا يفي بمرتّب الجند ، لان أباه شديدُ الشفقة على الرعية ، غيرُ مجحف بهم في أموالهم ، واذا دعته الحاجة يأخذُ من العمّال ، على حسب ثروتهم واتساع أعمالهم ، على صورة هدية ، ومن قصّر منهم يقع الغضُّ من جنابه ، وربّما يُومِىءُ الوزير ، بطرَف خفيٍّ ، الى بعض أهل عمله ، فتقعُ الشكاية بتعدّيه في الجباية ، ويناقَشُ في حسابها ، فاذا أنكرهم أثبتوا ذلك عليه باستفاضة منهم ، وربما حلفوا على صدق دعواهم ؛ يباشر ذلك الكاتب المعيّن للمحاسبة ، فيؤخذ منه ذلك الزائدُ للدولة لا لاربابه . وبذلك جرى عملهم ، وربّما يعاقب بالمال والسجن زيادة عن العزل . فلأجل ذلك تراهم اذا رأوا موضع متصرّف باشرته الدولة يتسارعون بالهدايا ويتنافسون فيها . وهذا الحال ربما يُتَمَحَّلُ له وجهٌ ، وذلك أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه شاطر بعض عمّاله في أموالهم ، وهُمْ مَنْ هُمْ رضي الله عنهم . وشهادة المأخوذ منهم ربّما تكون كشهادة المسلوبين على المحاربين ، مع شاهد

الحال واليمين والاستفاضة ، فقال لوزرائه : « هذه طريقة سلكها أبي ، والرأي أن ننظر أصلحَ منها ، مع مراعاة أسباب النموّ في الجباية . وأمهلهم للنظر في ذلك .

ولولا ملك الاطلاق لكان الجواب من الكتاب والسنة وأقوال الحكماء ، قال الله تعالى : « لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً الاّ وُسْعَهَا (1) » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اُنْظُرْ الى من دونَك ولا تَنظُرْ الى من فوقَك » ، وقالت الحكماء : « اُمْدُدْ رِجْلَك على قدر كسائك ، ولا تطمَعْ في كل ما تسمع ، والتقدُّمُ للغاية تأخرٌ عنها ، والزيادةُ على الكفاية نقصانٌ منها ، ومن اشترى ما لا يحتاج اليه باع ما يحتاج اليه ، ومن سعادة جِدِّك وقوفُك عند حدِّك » ، الى غير ذلك مما لا يأخذه الحصر .

ونُمُوُّ الجباية لا سبب له الا نموُّ العمران ، ولا ينمو الا بالعدل ، ومع ذلك فقد كان هذا الامير يوازن خَرْجَه بدَخْله :

وأتعب خلق الله من زاد هَمُّه وقصَّر عمّا تشتهي ال[illegible] وَجْدُه

وبعد استقرار هذا الامير ، سافر بالمحلّة المعروفة بمحلة ([illegible] بَيّات) عند أهل المملكة . وذلك أنه سافر بأخويه أبي عمرو عثمان باي ، وأبي عبد الله محمد المأمون باي ، وابني عمه أبي الثناء محمود باي ، وأبي الفداء اسماعيل باي ، وسافرت معه والدته . واستخلف على الحاضرة الوزير أبا النخبة مصطفى خوجة ، فباشر الامور في مغيبه بسياسة ولين ، يجلس كل يوم أمام باب المحكمة لتلقّي ما يعرض من الامور ، فيوقف أشياء لقدوم مخدومه ، ويكاتبه في أخرى مستشيرا ، ويفصل الخفيف وما ينشأ عن توقفه ضرر ، مع ما عنده من التفويض .

ومهّد الباي بهذه المحلة الوطنَ ، وأمّن السُّبُلَ ، وغلّ أيديَ المعتدين ، وأرهب العُمّال ، واستوفى الجبايةَ وقفل راجعا لقصر ملكه . وبعث لوزيره الذي أنابه أن لا يخرج لتلقّيه ، وبقي بمكانه أمام باب المحكمة حتى وصل مخدومُه ، فتلقّاه في آخر الدروج(2) ، ودخل الباي المحكمةَ من بابها المعدّ لدخول العامة ، وجلس على كرسيّه ، ووقف الوزير بين يديه في موقف وزارته ، وأتته وفود التهنئة على اختلاف أصنافهم ومراتبهم .

---

(1) س 2/آ 286 - 2) هى الدرج باللهجة المحلية .

وقد كـان الوزير اسماعيل كـاهية يخشى بادرة هذا الباي ، زيادةً على ما تتوقعه الوزراء من ملوك الاطلاق ، لوحشة بينهما من الصغر توغّر بها صدر كـل واحد منهما ، من أيام الباشا علي باي ، ولم يزل خائفا يترقب ، مستوفِزا للفرار ، فلاقاه يوما أحمد الكـافي ، أحد الاعيان المقرّبين من أولاد جُوَيْن ، فأشار له بالنجاة ، فرماه بسبحة كـانت في يده محلاّةٍ بالجوهر ، فتناولها أحمد الكـافي وعلم أنه فهم الاشارة ، وبادر بالفرار ، ولما بلغ ذلك للباي قال : « ان اسماعيل كـاهية أساء بـي الظنّ ، والعذر له ، والملام عليّ ، حيث لم نُؤَمِّن خوفَه بالعهود التـي يثـق بها » . وبقيت زوجته ، وهـي أخت الباي ، في دارها حاضنة لبنتها منه تحت كـفالة أخيها ، وبقـي أخوه علي بوزغاية في الخدمة ، منكرا هروبَ أخيه ، فاستدناه الباي ورفـع منزلته .

وتقلب الوزير اسماعيل كـاهية في الخُطط بمصر والشام ، وله عقب باسلامبول ، ولم يصدر منه بعد هروبه الا ما يزين العِرض ، ويدلُّ على عزة النفس وفضيلة الوفـاء ، كـما تـرى في ترجمته .

وفي سنة 1198 ، ثمان وتسعين ومائة والف (1783 م) ، وقع بالمملـكـة طـاعــون جارف ، وهو المعروف عند أهل الحاضرة بالوباء الـكـبير ، مات بسببه أعيان من الحاضرة، وأثّر في عمران البلاد نقصا فادحا . وفي أول ظهوره صدر أمر من الباي بحرق ثيـاب الموتـى وكسوة بيوتهم وغلْـقِـها ، وغَسْلِ الغرباء بالمقابر ، وسَجْنِ مرضاهم بمخازن القلاّلين . وصدرت في ذلك مقالات في أراجيز لبعض الادباء أحسنها :

وقـال أهــل الفضــل والعرفـــان نفــوِّض الامـر الى الـرحمـــان
الخـــالـق المصـــور القديـــر ليـس لفعــل غيــره تـأثيـــر
أمـرنــا بالذكـــر والـدعـــاء وهـو الـذي ينجـي مـن الـوبــاء

وبقيـة المقـالات بطـالات وأضحوكـات .

وضجَّ الناس من حرق ثيابهم ، والباي مجتهد في ذلك ، فـكـلّمه الشيـخ المفتـي العالم ، الذي لا تأخذه في الله لومة لائم ، أبو العباس احمد البرانسي ، والعلماء ، بأن لا يجمع على الناس مصيبتي النفس والمال ، والواجب الاستسلام لقضاء الله وقدره ، ومن ورثة هؤلاء الاموات أيتامٌ وأراملُ ، وإن رأيت ذلك من الطبِّ فَلِورثةِ الموتى أن يطلبوا

ثمن ما حرق لهم . واشتدّ النكير عليه في ذلك ، وكرروا مراسلته مع شيخ المدينة المأمور بحرق الثياب ، ولما اتسع الخرق رجع عن أمره ، ومن المقدور لا يغني المحذور .

وفي محرم سنة 1199 ، تسع وتسعين ومائة وألف (نوفمبر 1784 م) ، توفي أبو عبد الله محمد المأمون باي ، شقيقُ حمّودة باشا ، بمرض أصابه ، وكان شابا حسن الاخلاق باديَ العفّة . ودفن بتربة أبيه .

وفي أوائل دولة هذا الامير وقعت ولاية العُمّال بمشارطة مالية ، وكانت العادة السابقة أن الملك ، برأيه أو باشارة بعض وزرائه ، يقدّم من يستكفي به من العمّال لقَوْدِ طاعة الرعية ، وخلاصِ أموال الجباية ، من غير أداء شيء ظاهر ولا خفي للدولة ، ويتوجه العامل لعمله بهدايا لمشايخه (1) وعرفائه وهم الهواديك (2) ، ويستخلص بذلك من أهل العمل مقدارا من المال يسمّى « الضيفة » ، مأخوذ في مفهومها الرضى ، يكثر ويقلّ بحسب العمل ، توزعه المشايخ على اخوتهم بحسب تفاوتهم في الثروة ، ويكون لهم وللعرفاء سهم من تلك الضيفة ، يختلف باختلاف حالات العمّال .

وكانوا يعاقبون على الذنوب الخفيفة بالمال ، لكن على قدر الكسب لا على قدر الذنب . واذا عاقبت الدولة بمال ، فالعامل هو الذي يباشر الخلاص ويزيد عليه العشُرَ وهو المسمى بالخَلاَص . وجميع ذلك موكول لامانة العامل ، وأين الامين ؟

وكان قُوّاد العرب يركب الواحد منهم مرةً في السنة ، ويتخلّل خيام الاعيان من حيّه ، فينزل في البيت تارةً ، وأخرى يقف أمامها مسلّما ، ولما يرجع لمخيّمه يأتيه كل من نزل بيتَه أو وقف بفنائها بشيء من مال أو حيوان أو طعام ، يسمّون ذلك « وَهْبة » ويقولون : « خرج القايد يستوهب » ، ويعطي من ذلك للمشايخ ، لانهم جوارح صيده، وتارة تخرج معه أعيان منهم حين يستوهب ؛ الى غير ذلك من وجوه الدخل الذي آلتُهُ الرّهبة ، ويسمون هذا الدخل في اصطلاحهم « بالهوى » ، والملوك يغضّون الطرف عن

---

(1) ج شيخ وهو فى العرف الادارى نائب السلطة فى القرى والارياف .

(2) ج هيدوك وهى كلمة مجرية (Hayduk) وصارت بالتركية (Haydut) استعملت فى المجر والنمسا وبعض بلاد البلقان في اوقات مختلفة ، بمعنى اللص والصعلوك والراعى والخادم والشاوش ورسول المحكمة والجندى ، ثم اطلقت على بعض متطوعة البلقان الذين قاوموا الحكم التركى ، فكانها دخلت تونس مع الاتراك فشاع استعمالها بمعنى عريف .

ذلك ، لا سيما اذا لم ترفع لهم الشكاية ، لما يأخذونه من العمّال عند الحاجة ، كما تقدم ، ولا شك أن ما يؤخذ منهم نزر يسير بالنسبة لما يتأثّلونه من أموال الرعايا ، فتجدهم لاجل ذلك يتقربون لرجال الدولة ، ويستميلونهم بالهدايا ، فيذكر كلُّ واحد صاحبَه بالنجابة والامانة .

واتفق أن عامل الوطن القبلي ، رجب بن عياد ، باع غلّة زيتون الدولة على العادة ، وكان من أصحاب الوزير مصطفى خوجه ، وهو أكثر الجماعة أصحابا وقتئذ ، فأتى بزمام البيع وطفق يثني على العامل بالنجابة والامانة ، ويَلْمِزُ من كان قبله ، والوزير الكاتب أبو محمد حمّودة بن عبد العزيز ساكت سكوتَ إنكار ، فقال له مصطفى خوجة : « لم لا تتكلّم ؟ » فقال له : « لعلمي بخلاف ذلك » ، فأجابه بأن « الامر محسوس ، وذلك أن هذا الزيتون نفسه باعه المتولي قبل هذا في عام خِصب ، كادت أعواده أن تنكسر بكثرة الغلة ، وهو في هذا العام دون ذلك ، وثمن الغلة في العامين واحد ، » فقال له الوزير الكاتب : « ثمن الغلة تابع لثمن الزيت بالسوق ، فاذا كانت الغلة كثيرة يكون الزيت كثيرا فينقص ثمنه ، واذا كانت الغلة قليلة يقلّ الزيت فيزداد ثمنه ، فمشتري الغلة يعتبر ثمن الزيت ، وان أردت تحقيق ذلك فانظر الى أزِمّة (1) سوق الزيت في ذلك العام وفي هذا العام » ، فوجم الوزير .

وقال الباي لوزرائه : « قد طلبت منكم تدبيرا في شأن الجباية يناسب الوقت والحال ، وأنا أنتظره منكم » ، فقال له الوزير الكاتب : « هذه المملكة كالبقرة ، والناس تتوارد على حَلْبِها على اختلاف أنواعهم ، وأنت آخِذٌ بِقَرُونها ، ولا يشك مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر في خيانة سائر العمّال ، فيما يرجع الى المال ، وانما تتفاوت بالكثرة والقلة ، بحسب حال العامل في الخوف وعدمه ، باعتبار من ينتسب اليه ، وجميعنا يأخذ الهدايا من العمال ، فواحد يأخذها ذهبا وفضة ، وآخر يأخذها حيوانا وثيابا وطعاما ، وجميع ذلك في التحقيق لاربابه أو لبيت مال المسلمين ، فالرأي أن تعتبر دخلَ عُمّالك ، وتوليهم على مشارَطَةٍ مالية ، ووراءهم نظرُك » ، فقال الوزير منكرا عليه — وهو بشهادة الله موضع انكار — : « يكون ذلك على يدك أيها الشيخ ؟ » فقال له : « لا يكون على يدي لمنافاته خُطّتي ، ولا على يدك ، وانما يكون سرًّا على يد من يثق به سيّدنا في

(1) ج زمام : سجل ، دفتر .

ذلك ، ليتدرب على سياسة الاعمال والعمّال ، ولا يتولىّ عامل الا على يده » ، وأشار بالوزير أبي المحاسن يوسف خوجة صاحب الطابع ، فصادف الاذن الواعية ، لشدة ميل الباي الى اظهار ترقّيه ، فاتفق الرأي على تقديمه .

وبعد ذلك أذن له الباي في الركوب الى حلق الوادي أو غيره من بساتينه ليجتمع بالناس ، ويبلّغ للباي ما يتلقّاه منهم . ونبّهه الشيخ بن عبد العزيز الى رجال يطلبون الولايات ويبذلون الاموال ، وآزره في ذلك أياما ودرّبه على هذه السمسرة . ويسمى هذا الدخل « بالاتفاق » ، للفرق بينه وبين الالتزام في الصورة الظاهرية ، لان الالتزام يكون بالمزايدة على عيون الاشهاد بالمحكمة ، وهذا يقع سرا بين الوزير والطالب . وحدث بعد ذلك مال لهذا الوزير المباشر لهذه الخدمة ، يسمّى « اللفظية » يأخذه الوزير لنفسه مثل الخدمة ، ويعلم به الباي . وجمع صاحب الطابع من ذلك أموالا عظيمة للدولة ، يعطي حسابها بزمام مخصوص ، يعرف من ذلك العهد بزمام الصرايا (1) ، ولا يدخل ذلك في أزمّة بيت خزنه دار ، ولا في أزمّة الجباية عند الشيخ باش كاتب . الا أن هذا الاتفاق وان كان جسرا لظلم الرعية ، الا أنه مشروط عادةً وعرفا بحدٍّ معلوم وهو ضجيج أكثر الرعية ، فيضطر العامل الى مصانعة بعضهم وتلوين ظلمه بما لا يقتضي شكاية ، ومصانعة المشايخ وأهل الإبابة بالهدايا والتشريك معه فيما يأخذه ، ليسدّوا أفواهَ العامّة ، وهذا هو السبب في أن المشايخ والعرفاء لا يحبّون ما يحبه الله من العدل في عباده ، خشية أن يفوتهم ما اعتادوه من هذا السُّحت الذي لا سبيل اليه الا بجور العامل . وصدق صلى الله عليه وسلم ، على ما رواه الامام السيوطي في جامعه : « لكلِّ قوم عرفاء ، والعرفاء في النّار » . وعلى كل حال اذا وقعت شكاية من أكثر أهل العمل ، يسمعها الباي ويعزل العامل ، وتارة يعاقبه مع العزل بالسجن والمال ، تارة بعد محاسبته وأخرى بدونها ، على حسب ما يقتضيه الحال ، واذا شكوه بعد العزل بأنه أخذ منهم مالا ، يقال للمشتكي في المحكمة : « القايد ذهب وذهبت حسائفه » ، كلمة معروفة في مثل هذا . كما أن العامل إذا استظهر بدين لنفسه على أحد أهل عمله ، تُمزّق حجّته ، ولا يجاب لدعواه ، ولو بلغ ما بلغ ، ويقال له : « أنت قايد لا تاجر » ، غير أن هذا الحكم نُسِخ في هذه الازمنة المتأخرة ، اذا شاطر العاملُ الدولةَ في هذا الدَّيْن أو جاعلَها . وقد مزق

---

(1) الصرايا : السرايا

الباي أبو النخبة مصطفى باشا في منتصف هذا القرن ، رسومَ دين يُنيف على مائة وخمسين ألف ريال لابي العباس أحمد المنستيري أيام ولايته الاعراض ، مزّقتها بين يديه وهو ينظر ، لمّا أتى ورثته يطلبون ذلك . وسيأتي لمثل هذا مزيد بيان في موضعه .

*

ولما باشر صاحب الطابع هذا الامر وهرعت الناس اليه ، تجنّف عنه أصحاب الوزير مصطفى خوجة ، فقيّض لهم من زاد عليهم في الاتفاق ، فاشتدّ حَنَقُ الوزير وصار ينكر ذلك ، وهو بديهيٌّ الانكار ، ويوسف صاحب الطابع يتحمّل ويتجاوز له لشيخوخته ومكانته في الدولة ، وكان الحاج فرج الجوز عاملا بباجة ، وله استناد قوي للوزير مصطفى خوجة ، فامتدت اليه يد يوسف صاحب الطابع ، فأتى الوزيرَ يستشيط غضبا ، فقال له : « ان أردت الولاية فهذا سبيلها ، وان أردت التخلّيٍ فأنت في سعة ، هكذا دبّر الحاج حمّودة بن عبد العزيز » ، فعظم على الحاج فرج ذلك ، وكان له ابن أخ فاتكٌ داعر ترصّد للحاج حمّودة ، وضربه بالرصاص ، مُنصَرَفَه من باردو ، أمام سيدي عبد الله الشريف ، فحمل الى داره مَغشياًّ عليه ، الا أن الضربةَ لم تصب مقتلا ، ولا هشمت عظما ، ويقال إن الضارب أغراه عمّه الحاج فرج باشارة من الوزير مصطفى خوجة ، والله أعلم بالواقع ، وعظم موقع ذلك عند الباي ، ولما قُبِض على الضارب ، وحضر بين يديه ، أمر به أن يُوثَقَ كِتافا ، ويُحمَلَ الى الوزير الكاتب الشيخ حمودة بن عبد العزيز ليحكم فيه بما يراه من العقوبة ، فصادف أن كان الشيخ في معاناةِ ألمِ الجرح ، فحكم بتكسير يديه ورجليه ، وإلقائه ببطحاء القصبة حتى يموت ، فَفُعِل به ذلك بمطارق الحدّادين ، وألقي بالبطحاء ، فرقّ له تركي من الجند فأجهز عليه ، وكانت هَنَةً على هذا العالم ، وقُبْحَ أحدوثة في دار الدنيا ، ولما بلغ هذا الامرُ الفظيعُ الى الباي ، غضب وندم ، ولات حينَ ندم ، وهي هنة محسوبة عليه أيضا . ولما برىء الشيخ ، وأتى باردو على عادته ، غضّ الباي من جانبه ، وتنكّر له ولم يجد ما كان يعهده ، وأدبر إقبالُه ، ورمقته أعينُ الانتقاد ، وسلقَتْه الالسُنُ الحِدَادُ ، الى أن أزعجته يد المنية الى اللّحاق بطالبه إثر ذلك ، سنة 1202 ، اثنتين ومائتين وألف (1787 م) ، كما يأتي في خبره .

وكان قلم الترسيل مقصورا على هذا الشيخ ، فزُوحِم فيه بالعلاّمة شيخ الشيوخ أبي محمد حسن بن عبد الكبير الشريف ، وسَلّمَ (1) فيه ، فأبدل الله درهمه دينارا .

وهذه الحكاية عن هذا الشيخ سمعتها من شيخ شيوخنا ، علامة العصر ، أبي الفداء اسماعيل التميمي .

*

وشأن هذا الاتفاق معروف عند شيوخ الدولة ، ومرسوم في دفاتر الصرايا ، وقد كتب فيها والدي مدة وزارة أبي المحاسن يوسف صاحب الطابع ، وكتب ابنه العبد الحقير مدة وزارة أبي محمد شاكير صاحب الطابع ، ولم يزل العمل بذلك مستمرًّا الى سنة 1272 ، اثنتين وسبعين ومائتين وألف (1855 م) ، تاريخ منشور الاعانة .

*

ولما تمهدت المملكة وانسدل بُرْدُ العافية ، رأى الباي حمّودة باشا أن مباشرة السفر بالمحالّ لا داعي لها ، وربما تضيع بسببها مصالح أهمُّ منها في الحاضرة ، فجعل السفر بمحلتي الصيف والشتاء للكاهية . وأول من سافر بها سليمان كاهية الاول ، خديم أبيه ، ولم يفوّض له أمرَ الولاية والعزل الا في المشايخ للعربان ، اذا اشتكى منهم إخوتُهم فانهم يقدمون من يرتضونه ، بتذكرة منه ، مضمونها : « اننا وافقنا العرش الفلاني على اختيار فلان للمَشْيَخ (2) حتى يُرفع الامر لمن له النظر » ، ولما يرجع بالمحلّة يطلب لهم من الباي أوامر الولاية ويسترجع تذاكره ، وذلك أن المشايخ عرفاءُ اخوتهم ، كالوكلاء عنهم ، لا يتولّى أحد منهم الا عن رضاهم .

وصار المسافر بالمحالّ مأمورا كأعيان الوزراء والامراء ، وحسبه خلاص (3) الجباية على اختلاف أنواعها ، والغصبُ عليها ، وتأمينُ السُّبل ، وردعُ أهل الحِرابة والفساد ، ولذلك رُخص له في قتل المحارِب بمحل جنايته ، ردعا لغيره ، واستمرّ هذا الحال .

(1) سلم فى الشيء : تركه او تنازل عنه (عامية تونسية) .

(2) اى وظيفة الشيخ .

(3) خلاص : استخلاص (عامية تونسية) .

وفي سنة 1204 ، أربع ومائتين وألف (1789 م) ، وقعت الاسباب المفضية لحرب الفَنَيسْيَان (1) ، وذلك أن تجّارا من تونس حملوا سلعهم في مركب فَنَيسْيَان ، من الاسكندرية الى تونس ، فوقع في أهل المركب مرض الوباء ، فدخل الرايس بهم الى مالطة ، وأنزل السلع بها ، فصدر الحكم من نُظّار الكرنتينة بحرقها ، فطلب التجارُ أموالَهم من الرايس لانهم وضعوها في أمان صنجق مركبه ، على أن يبلغها لتونس ، وطال النزاع ، وأفضى الى منابذةٍ وحرب ، وخرجت مراكبُ تونس تأخذ ما تقدر عليه من مراكب الفَنَيسْيَان ، على العادة في ذلك العصر ، فتَقَدَم اسطولُهم الحربي الى حلق الوادي ، ورَمَوْه بالمدافع ، ثم توجهوا الى سوسة ورمَوْا سُورَها بالمدافع والبونْبَة ، ثم أتوا صفاقس ، وهي بعيدة المرمى ، لما في بحرها من المدّ والجزر كل يوم ، وآل الامر الى الصلح ، وكان في رمضان سنة 1206 ، ست ومائتين وألف (افريل ـ ماي 1792 م).

وفي السادس عشر من جمادى الثانية سنة 1206 ، ست ومائتين وألف (الجمعة 10 فيفري 1792 م) ، رام بعض غلمان من مماليك هذا الباي الفتكَ به ، لولا لطف الله . وذلك أنه كان مرهَفَ الحدّ ، شديدَ البأس في تربيتهم وتأديبهم من غير رأفة ، يعاقب على سوء الادب بعقاب الجناية ، ويأخذ البريء منهم بالمذنب ، وكان لا يبيح لهم التكلم بالعربية ، خشية أن تكون اللغة ذريعةً للخلطة ، ولا يكلمهم الا باللغة التركية خشية أن ينسّاها ، الى غير ذلك مما يجرّىءُ الضعيف ، ولما اشتد الحال على بعضهم (2) مع حداثة السن وجنون الشباب ، تواطأ ثلاثة منهم على قتله ، اسم أحدهم دالي باش . وكان ينام بحجرة ومماليكه في البيت خارجها ، فلما جنّ الليل ، واستغرق في النوم ، عمد اليه ثلاثتهم ، وباشر أحدهم ذبحه ، فاستيقظ ولوى عنقه ، وضغطه بظهره الى الحائط ، فصار يحزّ في فكّه الاسفل ، ظانّا أنه رقبته ، فهجم الآخر ، فدافعه بالقبض على يده ، وصاح بوزيره يوسف صاحب الطابع فلبّاه ، وكان من النائمين في البيت ، فأخذ الذي جرحه ، وأخرجه ورمى به ، ودخل سليمان كاهية الثاني ، ويوسف باش مملوك الذي صار كاهية بدار الباشا ، فأخرجا البقية ، فضربوا يوسف صاحب الطابع بالرصاص ، وجرح كتفه ، وضربوا يوسف باش مملوك بالرصاص في لحم فخذه ، وسجنوا

---

(1) هم اهم فينيزيا (Venise)

(2) بهامش ق ص 67 : ويقال ان الباي اكرههم على ما لا يناسب المروءة فلم يتحملوا ذلك .

في بيت ، فتواطأ اثنان منهم على قتل أنفسهما ، فجعل كل منهما مكحلته (1) في صدر الآخر ، وصرخا ، فخرّا ميتين ، وقتل الآخر في الحين . وأصبح الباي جالسا ببيته ، بعد أن عانى الطبيب التئامَ جرحه ، وأذن للناس في الدخول عليه حتى تحققوا سلامته ، وأن الجرح غيرُ مَخُوف ، ولما برىء بقي أثره باديا بوجهه .

وفرح أهل المملكة بعافيته ، وأظهرت الحاضرة سرورها بزينة حافلة ، وهنّأته الشعراء.

وفي السنة 1206 اجتاز بالحاضرة مولانا اليزيد ابن السلطان مولانا محمد ، ابن السلطان مولانا عبد الله ، ابن السلطان مولانا اسماعيل الشريف العلوي ، قاصدا أداء فريضة الحج ، فاهتز الباي لمقدمه ، وتفنّن في إكرامه ، وأنزله بقصره من بساتين مَنُّوبَةَ ، وأتاه مسلّما عليه ، وطلب منه أن يزورَ محلّه ببَارْدُو فأسعفه ، وبالغ في إكرامه لِمَا بين الدولة الحسينية وهذه السلطنة الشريفة من المحبّة والوُصلة . وبقي أياما يأتي الحاضرةَ ، ويرجع الى منزله بمنّوبة ، الى أن تسنّى له السفر للحج .

وتولى هذا الشريف السلطنة بعد وفاة أبيه ولم تطل مدّته ، ورام استرجاع سَبْتَةَ فمات في حربها جريحا بحَبِّ الرصاص .

ولهذا الشريف شجاعة وولوع بالرِّماية ، لا سيما صناعة البونبة ، مرَّ يوما برُمَاتِها ، وهم يتعلّمون أمام باردو على عادتهم ، فوقف راكبا وأمر الرامي بما ظهر له من تحريكها ، وهو يشايع النظر لاصابة المرمى ، ثم أمر بتسريحها ، فصادفت قاعدة الهدف وهو خباء ، ثم سار .

وفي غرة ربيع الثاني من هذه السنة 1206 ، (الاحد 28 نوفمبر 1791 م) ، ولد للباي ابنه محمد من زوجه بنت الشيخ الامام المفتي أبي عبد الله محمد ابن الشيخ الامام المفتي أبي عبد الله الحاج حسين البارودي .

⁂

وفي ذي الحجة من سنة 1207 ، سبع ومائتين وألف (جويلية — أوت 1793 م) ، قدم لتونس أبو الحسن علي باشا بن محمد باشا بن أحمد باشا قرمانلي ، باني بيت ملكهم بطرابلس ، لمّا استولى علي بُرْغُل على مدينة طرابلس .

(1) تجمع على مكاحل . وهى البندقية (لهجة تونسية) .

وذلك أن علي باشا هذا ساءت حاله ، وانحلّت عُرى مملكته ، لحروب بينه وبين ابنه بالمِنْشِيَّة ، انحجر بسببها في المدينة ، وطالت مدة الحصار ، والحربُ قائمةٌ على ساقها ، وجرت عادة الله أن الاختلاف اذا وقع في آل بيت واحد لعدم تسليم الرئاسة لصاحبها ، يؤدي الى خروجها من البيت .

ولما تحقق علي برغل ضعف المملكة باختلاف وُلاتِها ، وخروج الكثير من أهلها فرارا من الفتن وغوائلها ، توثّب على المملكة ، وكان ذا رتبة بالجزائر ، وخرج منها بذخائره وأمواله في البحر ، فأتى القسطنطينيةَ على عهد السلطان سليم خان ، فوجد أخاه كاهية لقبطان باشا ، فتوسَّل به ، وأخبر الدولة بحال طرابلس ، من خروج أهلها واختلاف وُلاتها ، والفتنِ المُفْضِيةِ الى سفك الدماء وخراب ذلك الصُّقع ، وطلب من السلطان أن يكتب عهدا بولايتها ، ويتوجه لاستنقاذها ، ولا يكلف الدولة مالا ولا عسكرا .

ولما حصل على عهد الولاية ، جمعَ عسكرا من متطوِّعةِ الترك ، أكثرهم أرْنَؤُوطْ ، واكترى مراكب لحملهم ، وجهَّزهم بما لزمهم من الاقوات والسلاح ، وأتى بهم مدينة طرابلس على حين غفلة ، فنزل البرَّ ، وأخبر الناس ، وهم في خَنْقِ الحصار ، أن بيده فرمانا سلطانيًّا بالولاية ، والمدد العثماني وراءه ، فأفرجوا له ، ورأوه من الفرج بعد الشدة ، فتمكّن من حصون المدينة وقلاعها ، وأنزل آلته وذخائره ، فخرج علي باشا فارًّا بنفسه ، وبقي ابناه أحمد باي ويوسف باي بالمنشية ، يحاربان علي برغل ، الى أن ضعف أمرهما ، فالتحقا بأبيهما الى تونس .

وقد كان حمّودة باشا لمّا بلغه وصول علي باشا قرمانلي ، أركب أعيانا من رجال دولته لتَلَقِّيه ، ولما وصل عظّم مقدمه وأكرم نُزُلَه ، وأسكنه قصرَ العبدلِيَّة الكبرى بالمرسى ، وأجرى له ما يناسب مقامه ، وبالغ في إكرامه وإكرام بنيه وأتباعهم ، بما ينبغي لعزيزِ قومٍ .

وقد كان الوزير مصطفى خوجة أشار على الباي ، لمّا ظهر دُخَان الفتنة بين آل قرمانلي ، أن يرسل جندا لاطفائها قبل تَطَايُر شررها الى أطراف المملكة التونسية ، فلم يفعل ، لان همَّه اذ ذاك الجزائرُ .

ولما استولى علي برغل على طرابلس ، وصفا له جوّها من أولاد قرمانلي ، تحدث مع رجاله في الاستيلاء على مملكة تونس ، ووزّع أعمالها بينهم ، ومنهم قاره محمد التركي ، وعده بولاية جربة ، فقال له : « البِدارَ البِدارَ للفرصة ، هذه جربة قريبة منا وعسكرنا حاضر مستعدٌ للقتال » ، فوجّهه بألف مقاتل من جند الترك في سبعة مراكب ، فوصلها خامس ربيع الاول تسع ومائتين وألف ، سنة 1209 ، (الثلاثاء 30 سبتمبر 1794 م) ، فأرست المراكب بها قرب برج ٱغْيِيرْ من مرسى الرملة ، ونزلوا للبرِّ ليلا فتلقّاهم من وَاطأهُم من أهلها ، ومنهم خليفةُ العامل ، وكانت ليلةٌ مظلمة ، وهجموا على الجزيرة صباحا ، ففرَّ عاملها أبو العباس حميدة بن قاسم بن عيّاد ، بعد أن وضع حَرَمَهُ في زاوية الشيخ أبي زيد ، وأتوا منزل القايد ، فنهبوا سائر ما فيه ، وقتلوا بعض خُدّامه ، وظهرت له الخيانة في وجوه أتباعه الراكبين معه ، فأمرهم بنهب حارة اليهود ليشغلهم بها عن نفسه ، ونجا للبرج وما كاد ينجو ، ونادى قاره محمد في الناس بالامان ، وفتح مكتوبا زعم أنه من السلطان ، والله أعلم بما فيه . ثم ان العامل حميدة بن عيّاد خرج من البرج الى ساحل البحر في حيرة ، فأتاح له القدر شَقْفا من شُقُوفه خرج للغزو ، فنجا اليه في زورق ، وأتى صفاقس ، فتلقاه عاملها أبو الثناء محمود بن بكّار الجلّولي ، وطيّر الخبر للباي ، فأتاه به الوزير مصطفى خوجة وقال له : « كيف ترى إضاعة الحزم ؟ ان جربة أخذها علي برغل ، وعامله قاره محمد فيها الآن ، وعاملك نجا بنفسه الى صفاقس » ، فجمع رجال دولته بمسجد الباشا ، وأخبرهم الخبر ، ولم يقع اتفاق على رأي . ومن الغد جمعهم بالمسجد صباحا ، فقال له الوزير صاحب الطابع : « إنّا أضعنا الحزم في أول الامر فلا نُضَيِّعْهُ الآن ، وقد كان توقُّفُنا في إنجاد علي باشا قرمانلي ، لمّا أتى لتونس ، إنما هو للأدب مع السلطنة العلية ، على أن ما يدّعيه علي برغل من الفرمان غير محقق عندنا ، لاننا لم نره ، ولا سمعنا بخبره ممن يوثق به ، ويحتمل انه ثائر ، ولمّا تعدّى واستولى على قطعة من بلادنا ، وجبت علينا المبادرة بارسال محلة لطرابلس ، وإرسال عسكر في البحر لافتكاك جربة من يد قاره محمد » . واتفق الرأي على ذلك ، واستشار الباي في هذا الامر شيخَ الاسلام أبا عبد الله محمد بن حسين بيرم ، فأشار عليه بأن « هذا أمر سياسي ، أنفع الاشياء فيه استعانتُك بأهل الرأي ورؤوس الجند وأكابر الدولة ، وأما العلماء فلا تجدُ عندهم فائدةً لك ، ولا تُؤَمِّلْ منهم فتوى تعتمدها في الحرب بين المسلمين ، وبيعةُ السلطان منعقدةٌ بأعناقنا ، واذا توقّفَ العلماءُ في الفتوى وشاع ذلك ،

ربّما يكـون سببا في وَهَنٍ » ، فاستحسن رأيـه ، ولما خـرج قـال للوزيـر : « انـه نصحنـي » ، ولما عزم ، بعد الاستشارة ، أمر باحضار المحلة وتعمير المراكـب ، وعـزم على السفر بنفسه ، وأسرّه لعَيَيْبَةِ سرّه يوسف صاحب الطابـع ، فعارضه بأن « الجيش معرّضٌ للنصر وضدّه ، فاذا انهزم الجيش وأنت أميرُه ، انهزمت المملكـة ، بخلاف ما اذا انهزم أمير من أمرائك وأنت في قاعدة ملكـك » ، فقال له : « من يقوم مقامـي والحالة هذه ؟ » فقال له : « هذا الاعرج القادم » ، وكـان الوزير مصطفى خوجة قادما متوكّئا على عصا لنِقْرِس كـان به ، ولما وصل قال له : « يا أبـي ، ان يوسف أشار علي بسفرك في المحلّة لطرابلس ، على ما بك من المرض » ، فقال : « انـي باعانة الله حاضر لكـل ما تريد ولو أكـون على مِحَفَّة ، والموت بالاجل ، وان حضر فلا أشرف عندي من الموت في خدمتك » . ثم جمع رجال دولته واستشارهم في سفره بنفسه ، فأجابوه على لسان واحد : « بأن خروجك من الوطن لا سبيل اليه » ، فقال لهم : « من يكـفينـي هذا المهمّ ؟ » فقالوا له : « الوزير مصطفى خوجة ، وإن عاقـه المرض فكـاهية المحالّ »، فقال لهم الوزير : « ان ما هو قائم بـي من المرض المعاشر لا يمنعنـي » ، فوقع الاتفاق على سفره ، وأن يخرج بشارات باي مطلق التصرف ، وهو من الحزم في الحروب ، لان توقّفـه على المشورة ربما تفوت به الفرصة .

وفي الثاني والعشرين من ربيع الاول من السنة 1209 (الجمعة 17 اكتوبر 1794 م) ، خرجت محلـة زواوة ومعها بعـض عروش ، وأميرهـا أبـو الحسن علي اللـوح بـاش حانبه ، مقدمةً لمحلّة الوزير ، وفيها أبو المحاسن يوسف باي بن علي باشا قرمانلي ، ثم خرجـت محلـة الوزير مصطفى خوجـة يـوم الاحد الثـامن من ربيـع الثـانـي من السنـة 1209 (الاحد 2 نوفمبر) بصنـاجق البـاي والنّوبة وشاوش السلام ، وبها عسكـر الترك والمدافع والمخازنية وسائر المزارقية والفرسان من عروش الاعراض ، بعد أن زاد الباي في مرتب الجند ، وأفاض العطاءَ في الناس ، وعيّن عشرة آلاف بعيـر ، تحمل الاقـوات والعلفة والآلات ، غاديةً رائحةً بين تونس وطرابلس ، دون ما بعثه من الذخائر في البحر لصفاقس وقابس .

وسار الوزير بالمحلة ، ومعه أبو العباس أحمد باي بن علي باشا قرمانلي ، وأراح الجند في المنازل الطيبة ، بحيث لم يلحقهم ضجر ولا ملل .

ووصل طرابلس يوم الجمعة الخامس والعشرين (1) من جمادى الثانية (16 جانفي 1795 م) . ولم تزل أعيان القبائل من طرابلس ، يتعرّضون بهداياهم لابناء قرمانلي ، وكلما أتى وفد منهم أكرمه الوزير مصطفى خوجة ، وكساه وشكره على حسن الوفاء ، الا قبيلةً تسمى الجراجرة طلب يوسف باي من الوزير الاغارةَ عليهم لفسادِهم وتلَكُّئِهم في الطاعة ، فجرد لهم الوزير أربعة آلاف فارس ، أمَّر عليهم الكاهية أحمد بالضياف، فهزمهم واتبع أثرهم وخضد شوكتهم ، وقُتِل الكاهية في حربهم .

ولما وصلت المحلّة الى طرابلس يوم الجمعة كما تقدم ، انتظر الوزير قدومَ أهل المنشية ، لظنه أنهم من حزب أحمد باي قرمانلي ، فلم يقدم منهم أحد ، فعبَّأ لهم جيشا من جند الترك والمخازنية ، ووجق الكاف وقبيلة المثاليث ، وأصحبهم المدافع ، فهجموا عليها ، وصابروا القتال ، فأخذوها يوم الاحد السابع والعشرين (2) من جمادى الثانية ، (19جانفي) ، وتملكوا حصونَها وأتراسَها ونهبوها ، ووجَّه بقية العسكر في اليوم لقتال المدينة ، فدافع أهلُها بما في قِلاعها من المدافع ، ومات كثير من عسكر تونس ، وفي يوم الاثنين عبّأ الجند لقتالها أيضا ، فوجدوا أبوابها مغلقة ، وأهلها على الاسوار مستأمنين ، وأُخبِروا بفرار علي برغل ، وقد بلغ الوزيرَ في الليل خبرُ هروبه في البحر ، وأبَوْا من فتح الابواب الا اذا أتاهم الوزير بنفسه وكلَّمُوه ، فأتاهم فطلبوا منه الامانَ فأمّنهم ، وطلبوا منع العسكر من دخول المدينة للنهب ، فأجابهم لذلك ، ووعدهم الجميلَ ووفّى ، ولاَنَ لهم في الخطاب ، ففتحوا الابواب ، ودخل الوزير بالاخوين أحمد ويوسف ، ونزل بقصر الامارة ، فأتاه النذيرُ بأن علي برغل وضع فتيلا طويلا يتصل بخزنة البارود ، ولم تزل النار سارية فيه ، فأمر بازالته في الحين ، وشكر الله على لطفه بعباده ، ثم أحضر العلماء وأعيانَ الجند ووُجوهَ البلاد فبايعوا الباي أحمد قرمانلي ، وأحضر يوسف وعقد له على العربان ، والخروج بالمحالّ ، وأعلنت المدافع بالسرور ، ورجع الوزير الى محلّته ، وصار العسكر التونسي حارسا للبلاد وأهلها ، لا يدخلها أحد الا للصلاة أو قضاءِ وَطَرٍ بغير سلاح . وطيّر بخبر النصر الى الباي ، فوصله يوم الاربعاء سابع رجب السنة 1209 (28 جانفي1795 م) .

---

(1) هو 24 حسب التقويم ــ 2) هو 26 حسب التقويم

وأما علي برغـل فانه نجا لارض الحجاز ومات بها .

ولما رأى أهل طرابلس انكـفاف أيدي العسكـر التونسي عن النهب ، أهدَوْا لهـم مائة ألف محبوب من الذهب ، تحمَّلَ بها أغنياؤهم طوعا ، ولما وصلت الوزيرَ وزَّعها في العسكـر على أيدي كـبرائهم ، وأعطاهم الوزيرُ إحسانا أربعين ألف محبوب من عنده ، رأيتها مقيّدةً ومفصّلة في دفتر مصروفه ببيت خزنه دار .

ولما تمهد الوطن لاولاد قرمانلي ، واستقام أهلها على جادّة الطاعة ، وانسدل سِتـر العافية والامان ، لَوَى الوزير عنانَ الأَوبة الى تونس ، وشيَّعه يوم رحيله أولادُ قرمانلي وأعيانُ طرابلس ، وكـان وصوله الى الحضرة يوم الخميس الحـادي والعشـرين (1) من شعبان السنة 1209 (12 مارس) ، في موكـب حافل ويوم مشهود ، وتلقّته الاعيان ورجال الدولة ، وقَبِله الباي في ديوان المحكمة ، ولما قبَّل يدَه وقف في موقف وزارته ، وأقبلـت وفود التهنئة .

وبعد ذلك طلب علي باشا قرمانلي الرجوعَ لوطنه وأولاده ، فجهزه الباي حمودة باشا وهاداه ، وأركبه البحر في مركب حربي ببقية بنيه وآلـه ، وأركب الاعيـانَ من رجال الدولة لمشايعته ، ووصل بلاده آمنا مسرورا . هذا خبر محلة طرابلس .

وأمـا خبر جربـة فلمّا تمّ تجهيز الاسطـول التونسي ، خرج من حلـق الوادي بأربعين مركـبا ، ما بين حربية وحمولة للعسكـر والآلات والذخائر ، وأميره الحاج علي الجزيري ، في أربعة آلاف مقاتل ، انتخبهم الباي من أبطال الجند ، وكـان سفرهم في الرابـع عشر من ربيع الثانـي من السنة 1209 (السبت 8 نوفمبر 1794 م) ، ووصل جربة في الخامس والعشرين من الشهر .

واتفق أن وصل لجربة مركـبان ، أحدهما بالحجّـاج ، والآخر بالسلـع لتونس ، ولا علم لهما بأن جربة في تصرف قاره محمد ، عامل علي برغل ، فجعل عليهما عسّة لاخذ ما فيهما ، فخلصهما الاسطول التونسي ، وأرسلهما لصفاقس قبل ابتداء الحرب .

ونزل الحاج علي بعسكـره الى البر ، وبنى الاَتراسَ للمدافع والبونبة ، وتَتَرَّسَ قاره محمد أيضا ، ونشبت الحرب بينهما نهارا واحدا ، زال زواله بزوال عسكـر قاره محمد ،

(1) هو 20 حسب التقويم .

فانهزم وفرّ هاربا الى الساحل القبلي ، فوجد بمرساه مراكب مشحونة بالمدد من الميرة والعُدّة ، بعث بها علي برغل من طرابلس ، فركبها فارًّا بنفسه الى طرابلس .

واستولى الحاج علي الجزيري على جربة تاسع جمادى الاولى من السنة 1209 (الثلاثاء 2 ديسمبر 1794 م) ، وأرسل بخبر النصر الى الباي ، وبعث له أربعمائة جندي من عسكر طرابلس أخذهم أسرى واستبقى عليهم ، فقبلهم الباي بجزيل الإنعام ، وأثبتهم في ديوان جنده ، وترقّى بعضهم الى منصب الداي ، وغيره من المناصب .

ولما استقرّ الحاج علي بجربة ، وعلم مواطأةَ بعض أهلها لقاره محمد ، أمر العسكر بنهب سوقها وزواياها ، حتى زاوية الشيخ ابراهيم الجُمَّني رضي الله عنه ، وشدّد وطأته على أهلها .

وبعد أيام أتى العامل حميدة بن عيّاد ، ومعه جموع من فرسان الاعراض ، وعلى مقدمته مولاه أحمد قُرجي ، فوجد البلاد بيد الحاج علي ، فسرّح من معه من الفرسان ، وبقي بجربة ، والتصرف للحاج علي .

ولما وفد أهل جربة على الباي ، عاتبهم على تسليم بلادهم ، فاعتذروا بأن الامر وقع فَجأةً ، ومنازلهم متفرقة ، وشكَوْه جور العامل ، فعزله وأولى عوضه مصطفى بن حسن الكبيِّر ، وعسف العمّال انذار بخروج الاعمال ، وعفا عن أهل جربة ، كما هو الواجب بعد القدرة ، وغضّ الطرفَ وتجاهلَ سياسةً ، مع علمه بأعيانٍ من أعوان قاره محمد ، ونبذ النازلةَ ظهريًّا ، وتركها نِسيا مَنْسِيًّا .

ولما استقرّ أولاد قرمانلي بدار ملكهم ، وانتزعت جربة من يد قاره محمد ، كثُرت الاراجيفُ بأخبارٍ عن الدولة العلية ، فجمع الباي وزراءه وأعيان دولته ، وقال لهم : « بلغني أن السلطان سليم خان أنكر عدم الارسال من تونس لتهنئته بالولاية على العادة ، وانتظر ذلك سنينَ ، مع محاربتنا لعلي برغل وإخراجه من طرابلس ، والظنّ أن فعلَه لا يصدر الا عن إذنٍ من الدولة ، وربما ترى الدولة فعلنا هذا عصيانا وخروجا من الطاعة ، ولا طاقة لنا بعواقبِ ذلك ، اذ لا حاميَ لنا غيرُ الدولة العثمانية ، فالرأي أن نبعث من يهنّىءُ ويعتذرُ » ، فوافقوه . ثم تكلموا فيمن يُستَكفَى به في هذا الامر المهمّ ، والحالة هذه ، فقال له الوزير مصطفى خوجة : « هذا هو المستَكفَى به ، ولا تجدُ

غيره » ، وأشار الى الوزير يوسف صاحب الطابع ، ووافقه كل من حضر ، فقال صاحب الطابع : « لم أرَ نفسي أهلاً لذلك ، وحيث ارتضيتموني فأرجو الله أن أكون كما ظننتم ، ولكن نطلب أن نُضايِقَ سيدَنا ليتوسَّع في الهديّة ، ليكونَ عِظَمُ المقدار، معينا على الاعتذار » ، فأجابه البعض وخالفه الجلُّ ، ومنهم الوزير ، فانه قال : « نرى الوقوف عند ما اعتدناه » ، وكانت الهديّة المعتادةُ في ذلك العصر ، من نفائس نتائج المملكة ، كالخيل والسروج المحلاّة وسُبَحِ المَرجان والعنبر والطيب والاسلحة المرصعة بالمَرجان ، وثياب جربة والجريد ، والشواشي ، ورقيق السودان ، والطّواشية ، وغرائب وحوش الصحراء ، وأنواع التمر ، وزيتون زغوان ، والسّمن والشّمع ، وأعظمها الصّنجق المحلّى بالفضّة ، المكتوبُ في نسجه آياتٌ من القرآن ، وبعض أسماء الله ورسوله وأبيات من البردة ، ولا يصنع في غير تونس من بلدان الاسلام في ذلك العصر .

وشرع الباي في إحضار الهديّة ، وتوسّع فيها ما شاء ، ممّا اقتضته مذاهب الحضارة، من أسلحة الذهب والتحف المرصعة بأنواع اليواقيت والجواهر ، وجمعها في بيت ، وأذِنَ لرجال دولته في الاطلاع عليها ، وأطلع عليها أهلَ المجلس الشرعي ، وبعضَ الاعيان من الحاضرة ، كأميني التجار والشّوّاشيّة والعشرة (1) الكبار . ويسأل الوزيرُ من يطلع عليها ، فاذا استحسنها واستعظمها يقول له : « هدايا أمثالنا للدولة العلية انما هو اظهار للطاعة فقط ، وقد ضايقْنا البلاد وأجحفنا بها ، ولا يعظم أضعاف هذا عند الدولة العثمانية » .

وسافر بها الوزير يوسف صاحب الطابع في ذي القعدة من السنة 1209 (ماي — جوان 1795 م) في سفينة حربية كبيرة بصنجق دولة السويد ، لوقوع حرب بين تونس وبعض الدول ، وشقوفُهم في البحر مترصّدةٌ لمراكب تونس . وسافر معه كاتبه الحاج بالضياف والد العبد الحقير ، وأبو النخبة مصطفى بن حمزة ، وأعيان من خواصه ، ولما وصل بوغاز القسطنطينية وجد به الاسطول العثماني ، وكان ناشرا صنجقَ تونس بأعلاه ، إشارة لمقام الراكب به ، المعبَّرَ عنه في عرف أهل البحر بالفُرْص (2) ، فأتاه زورق من قبطان باشا يأمره بازالة الصنجق ، وان لا يمُرَّ به على حالته أمام الاسطول العثماني ، فوقف صاحب الطابع وبعث مصطفى بن حمزة الى قبطان باشا يقول له : « ان هذا

(1) رئيس مجلس التجارة ومعه عشرة اعضاء يسمون العشرة الكبار ، ولا يجتمعون الا في مهم (الصفوة 2 : 3)
(2) الفرص : العلم الصغير (دوزي) .

صنجق إسلامي في سفينة أجنبية ، وفي تنزيله هَضِيمَةٌ ، والله لا أزيلُه الاّ بـازالـة رأسي ، أو أرجعُ من حيث جئت ، وأنا رسول » ، فَبَانَ أن رسول قبطان باشا لم يفهم ما أُمِرَ به ، وانما طلب نقله من محل الى آخر في السفينة خشية الالتباس ، ودخل بصنجقه في محلِّه الى مرسى حاضرة الاسلام ، وكـان قبطان باشا يومئذ كـشلك حسين باشا ، ولما أرْسَى تَلَقَّته الدولة العلية بصنوف إحسانها ، وجزيل اكـرامها ، على عادتها مع الوافدين من الاقاصي ، ووقعت الهدية موقعا حسنا من السلطان ورجال دولته ، وإنْ رأى حامِلُوها في خزائن الدولة ما أخجلهم عن استعظام هديتهم .

وحضر صاحب الطابع بين يدي السلطان ، وأنزلته الدولـة بدار حسنـة قـريبة من صرايا برون ، والمباشر له كـشلك حسين قبطان باشا . وظهر كـرم يوسف صاحب الطابع ، وعلَّق أياديَه في أعناق رجال الدولة .

ولما انفتـح باب التخاطب ، قال له قبطان باشا : « يقول لـكـم مولانا السلطان ، انـي جلست على سرير السلطنة ، وأتتني وفود التهنئة من أقاصـي الاجانب ، وأنتم من المسلمين وجزء من ممـالـكـي ، ولا حاجة لي منكـم بالهدية ، وانما الحاجة في وصل حبل الاسلام الذي أمرنا الله بالاعتصام به » ، الى غير ذلك من الملام ، ثم قال : « ألم تعلموا أن أولاد قرمانلي ، أثارت أغراضهم نِيران الفتن بايالة طرابلس ، وأهلكـوا الحرث والنسل ، حتى فرَّ الكـثير من أهلها ، وليتكـم اذ أخرجتم علي برغل ، جعلتم فيها أمير جيشكـم ، حتى لا تـكـونوا أزلتم فسادا بفساد » .

فقال له صاحب الطابـع : « ملام السلطان مسموع ومقبول ، ونطلب من فضلـه العفو والصفح والرضى ، لـكـنّه لو اطلع على كُنْهِ السبب ، نقل الملام لوزرائه ، أما سمعتم حربَنا مع الفَنِسْيان ، وانتقالَ اسطوله من ثغر الى ثغر ؟ أما تعلمون ضعف هذا الثغر الاسلامـي عن مقاومة الحروب الاجنبية ؟ هلاّ وصلتم حبل الاسلام باعانتنا ولـو بالاعتذار عنّا لمولانا السلطان ، وبيان سبب التأخر الواضح للعيان ؟ وأما علي برغل فاننا لم نبدأه بحرب حتى فاجأنا بها ، وتعدّى على بلادنا ، واستولى على جزيرة جربة ، ومع ذلك فلنا أن ننجد علي باشا قرمانلي على عادة الاوجاق ، فان الحروب بين تونس والجزائر بمرأى منـكم ومسمع » ، الى غير ذلك ... « وأما ولاية أمير الجيش الذي توجّه لطرابلس ، فأراه

لا يرضى بولايتها ، ولو فعلنا ذلك ، ربما يقال ان المراد توسعة مملكة تونس بزيادة وطن ، والباي انما دافع عن ولايته ، وأنجد من استنجده » .

وطلب من قبطان باشا أن يبلغ ألفاظه للحضرة العلية السلطانية ، فقال له : « نبلغ ما يناسب إبلاغُه » ، فألحّ عليه بأن يبلغ مقالته كما سمعها ، فقال له : « سبحان الله ، كيف أبلغ شكايةً من رجال أنا أحدُهم ، بل أنا أولى منهم بالملام ؟ » وكان قبطان باشا اذ ذاك هو الذي يتولّى مباشرةَ رُسُلِ الاوجاق ، فقال له : « أمانتكم تقتضي ذلك » .

وبعد أيام اجتمع به ، وقال له : « بلغت مقالتك لمولانا السلطان ، وهو يقول لكم : « عفا الله عما سلف ، وانما المراد وُصلةُ اللُّحمة الدينية ، وحمّودة باشا لم يكن عندنا بموضع تهمة ، ولو طلبتم الاعانة أعنّاكم » ، فعند ذلك طلب من الدولة الفرمان السلطاني ، ولباس الولاية لاحمد باشا قرمانلي وأخيه يوسف ، فوقعت الاجابة من غير توقف.

ولما حضر ذلك توجه به رسول الدولة الى طرابلس ، ومعه مصطفى بن حمزة والحاج بالضياف الكاتب ، وبعد وصولهم لطرابلس ، أتى الحاج بالضياف لتونس برسالة من صاحب الطابع للباي ، وكان عند سفره من اسلامبول أصحبه سفيرُ الدولة الانكليزية كتابا للقنصل بتونس ، ولما قرر للباي ، بمحضر الوزير مصطفى خوجة ورجال الدولة ، ما وقع لهم من الاكرام والقبول الحسن ، وما وقع بين صاحب الطابع والوزراء من الكلام والجدال ، استراب الوزيرُ الخبرَ ، وحمله على المبالغة في مدح صاحبه ، فقال له : « هل أتت مكاتيب من التجار لتونس ؟ » فقال له : « لا أدري ، غير أن سفير دولة الانقليز أصحبني مكتوبا للقنصل بتونس ، وأعجلني القدومُ الى باردو عن إرساله ، وهذا هو » ، فأخذه الوزير ، وبعث به فورا لدار القنصل ، وكانت بينهما صحبة .

ومن الغد حضر الشيخ بالضياف بين يدي الباي بمحضر رجال الدولة ، فأمره الباي باعادة الخبر ، فأعاده ، ولما استتمّه قال له الوزير : « قد استرَبْتُكَ بالامس ، وفي مكتوب القنصل ما يؤيد خبرَك وزيادة » ، وسافر بعد يومين لطرابلس بمكاتيب التهنئة من الباي لاولاد قرمانلي ، وأقام بها يوما وليلة ، وسافر لاسلامبول ، فاجتمع بصاحبه وأخبره بانتظار الباي لقدومه .

ولما تهيّأ له القدوم أمر السلطان باحضاره لديه وقال له : « سلّم على الباشا » ، ودعا له وقال له : « قد أمرنا قبطان باشا باعطاء مَدَد من التّرسخانة لتونس ، فاقبَلْه واحمِلْه معك » ، فشكر ودعا . وهو كرويطة حربية معمرة بجميع لوازمها ، وسميت « الاسلامبولية » ، دامت مدة وانكسرت مع ما انكسر من السفن سنة 1236 ، ست وثلاثين ومائتين وألف (1820 م) ، واثنا عشر مدفعا من النحاس ، وجانب وافر من الخشب لصنع المراكب ، وألفا قنطار من البارود ، وجانب من الكُور والقُلُوع والحبال ، وغير ذلك من آلات السفن .

ووصل صاحب الطابع للحاضرة أوائل سنة 1210 ، عشر ومائتين وألف (1795 م) ، ناجحَ المسعى ، مشكورَ الوجهة ، ومعه مراكب تحمل المدد الذي أتى به ، وناول سيده دفترَ المدد المذكور ، فكان أضعافَ قيمة الهدية . وسمعت من والدي كاتبِه أنه أنفق في هذه الوجهة سائر كسبه المنقولِ ورجع مدينا ، لما فيه من كرم النفس وعلو الهمة .



وفي السنة 1210 عصى رجل من سَراة أولاد مساهل من ماجر ، اسمه حامد بن شريفة من أولاد الفرجاني ، واعصَوْصَب بأولاد مساهل ، وكانوا زُهاءَ ألفِ بيت ، ولاذ به من يطلب الرزق بسيفه وسِنَانه ، وأفسد الزرع ، وأخذ الماشية ، وعطل الطرق ، وعاذ به كل من فيه إباءَة من ضيم الجباية ، فتغافل عنه الباي ، وأعمل الحيلة في القبض عليه بغير حرب ، خشية هروبه ، كما هو الشأن في أمثاله ، فدبّر في ذلك مع الكاهية رجب بو نمرة ، وكان من ثقاته وأعيان رجاله ، وتمت له الحيلة وهو بالمحلّة ، فتقبّض عليه ، وأركبه الادهم ، وطيّر به ليلا الى سجن باردو ، وأوصى الموكّلين به ، اذا لحقهم جمع من قومه ، أن يقتلوه ، وقدم في أثره ، ولما وقف بين يدي الباي قال له : « يا سيدي عريبي من أجلاف البادية جنّ وأتى به سعدك وهو الآن في محبس باردو » ، فقال له : « لعله حامد ؟ » فقال : « نعم » ، وأومأ الى الشفاعة ، فقال له : « لا شفاعة في مثله » ، فقبل رِجْلَه وقال له : « ان الرجل ينسب الى شرف ، وأعيذ سيفك أن يتلوّث بدم شريف » ، فعفا عنه من القتل وسجنه ، وأعمل في غزو قومه ، فجرّد لهم خمسمائة فارس اختارهم ، وخرج بهم سليمان كاهية ، وهو يومئذ آغة باجة ، بعد أن فرّق فيهم البارود والرصاص ،

وملأ مخلاةَ كل واحد بالشعير والبشماط ، ولا علم لاحد من الفرسان بالوجهة ، فطوى الارض ، وأحيا الليل ، وصبّح ناجعة أولاد مساهل ، فأخذهم في مضاجع خيامهم ، ومات من مات منهم ، وامتلأت أيدي السّريّة من نهبهم ، واستاق ما لهم من الظهر والانعام ، وأتى باعيانهم فاعتقلهم مع صاحبهم حامد سنين ، ثم سرّحهم على ان ينزلوا ضواحي القيروان والحاضرة ، وانكسرت شوكتهم ، وزالت وطأتهم ، وخاف أمثالهم ، وتمهدت العافية بتلك الجهة .



وفي السابع عشر من رجب سنة 1213 ، ثلاث عشرة ومائتين وألف (الثلاثاء 25 ديسمبر 1798 م) ، وقع انتقاض الصلح بين الفرنسيس وتونس ، وسببه ان الفرنسيس لما أخذ مصر في محرم السنة 1213 (جويلية 1798) من أيدي المماليك المتغلبين عليها المعروفين بالغزّ ، وكانت مناخ الحاجّ لقربها من الحرمين الشريفين ، كاتبت الدولة العثمانية سائرَ ممالكها في ذلك ، خوفا على بيت الله وحرم رسوله ، بعد أن نقضت الصلح معه ، ومنهم حمودة باشا ، فأجابت الدولة بما حاصله « ان الخلطة بين أهل تونس والفرنسيس في المتاجر كثيرة جدا ، لا يمكن فصلها الا بعد زمن يطول ، والقادم منهم لبلادنا انما قدم بأمان صلح لا يخفى . وندخل فيما دخل فيه المسلمون من الحرب معهم ، غير أننا لا نأخذ مراكبهم المتجرية في هذا البحر ، لان ما بها من المتاع غالبه لاهل تونس » ، وكانت مُشْريةً يومئذ ، فصارت شقوف التوانسة اذا لاقت شقوفَ متجر الفرنسيس ، لا تتعرّض لها بوجه ، حتى صار بعض مراكب المحاربين لتونس ، اذا التقوا بمركب تونسي أظهروا صنجق الفرنسيس .

ولما انتقض الصلح ، بعث الباي لازالة علامته وزيرَه مصطفى خوجة ، فأتى بنفسه لدار الفرنسيس وأزال عود الصنجق ، وقال الباي للقنصل : « ان أردت الاقامة بتونس فأنت على احترامك الانساني ، كآحاد الفرنسيس ، ولا تعتَبِرْ خُطَّتَك لارتباطها بالصلح ، وقد ظهر انتقاضه ، وان شئت السفر فلك ذلك ، ورعايا الفرنسيس في أمان الصلح الذي دخلوا به ، وأنا الحامي لإتمام عهدته ، حتى يجمعوا أموالهم ويستوفوا ما لهم وما عليهم من أسباب متاجرهم » . وتوجهت عنايته بهم في سائر أحوالهم ، وقوّى لاجل

ذلك حراسة باب البحر ، خرفا عليهم من عدوان الجاهلين ، حتى قال بعض عقلائهم : « نحن الآن بدون قنصل خير منا بوجود قنصل » . ومن يريد السفر منهم يسافر بأمواله ، في أمانه .

وتحرّج وزراء الدولة العثمانية من هذه المعاملة ، وصار بعض ألاعيان من مراكبها ، يلمز رؤساء مراكب التوانسة بمواطأة الفرنسيس .

وكان هذا الباي يقول علّنا : « ان القوم دخلوا بلادنا بأمان صلح ، وللصلحيّ ما شرط ، ولم نر منهم الآن — والحالة هذه — ما يقتضي نقضه ، وان اقتضت شريعة الاسلام غيرَ هذا فلا نخالفه » .

واستمر الحال هكذا الى أن خرج الفرنسيس من مصر ، بحرب اعتضدت فيها الدولة العلية العثمانية بالدولة الانقليزية ، فوقع الصلح ، ونصبت علامته بدار القنصل ، يوم الخميس التاسع والعشرين من شوال سنة 1216 ، ست عشرة ومائتين وألف (4 مارس 1802 م) ، في يوم حافل حضره أعيان من رجال الدولة التونسية بدار الفرنسيس .

ويقال ان نبليون الاول ، سلطان الفرنسيس ، يذكر هذا ويعدّه من جميل صنع هذا الباي ، وكانت بينهما مهاداة ووُصلة ، وكان يعرف ما للسلطان نبليون من المآثر والحزم والشجاعة ، ويقول في مجالسه : « ليت للمسلمين سلطانا في شجاعة نبليون وأوصافه » . سمعنا ذلك عن غير واحد من رجال دولته .

⁂

وفي هذه السنة 1213 جهز القبطان محمد رايس للغزو في ثلاثة مراكب ، فهجم على جزيرة سنبيرة الراجعة يومئذ لسردانيا ، وأنزل عساكره للبر ، وقبض من سكانها على زهاء ألف نسمة ، وأتى بهم أسرى ، ففرّق منهم الباي جمعا على رجال دولته ، واستعمل القادرَ منهم في أبنية حلق الوادي ، وبناء قصره بمنّوبة . ومن هذا السبي أمّ المشير أبي العباس أحمد باي ، أتِـيَ بها صغيرةً في حجر أمها .

وفي التاسع عشر من ربيع الثاني سنة 1214 ، أربع عشرة ومائتين وألف (الجمعة 20 سبتمبر 1799 م.) ، أمر بقتل حسن باي ، بن اسماعيل بن يونس باي . وخبره أنه لما

توفي أبوه بالجزائر ، بعد أن شرده الباشا علي باي من جبل وسلات ، كما تقدم ، خشي حمّودة باشا قدومه الى المملكة ، وأن يتخذه أهل الفساد ذريعة لايقاد نار فتنة من رمادها ، فدسّ له من تحيَّل على الاتيان به ، وهما محمد النوري البوبكري باش شاوش وجق الصبايحية التوانسة ، وأحمد الوسلاتي السايس ، باعانة ومواطأة من الحاج محمد البرادعي وكيل الجزائر بتونس ، ولما وصل أكرمه وعيّن له علوا يسكنه بالبرج ، وصار يركب معه كأقاربه ، وعيونه مع ذلك ترقبه ، وكانت أمه من بنات أحد الاعيان بالجزائر ، يكاتبها وتكاتبه ، ثم عثر على مكتوب منه لبعض الاعيان بالجزائر ، فأغضى له عنها واحتفظها ، وكان لهذا الشاب إقدامٌ وجُرأةٌ ، فأتاه يوما محمد بن مهنية ، أحد أحفاد بنت علي باشا ، وكان مُسِنًّا وجيها ، يلي المناصبَ النبيهةَ في الدولة كالقمرق ، وكلمه في رَيْع حبسهم بما أغضبه ، فلطمه وشتمه ، فدخل ديوانَ الباي بالمحكمة باكيا شاكيا مكشوفَ الرأس ، فبدرت منه بادرةُ غضب أثارها ما احتفظه عليه من المكاتيب ، وأمر بخنقه في الحين ، فخُنِق بمحله على حين غفلة ، ودفن بتربة جدّه ، فاحترقت أمّه ولاذت بصاحب الجزائر ، وتحقق مُداخلةَ وكيله الحاج محمد البرادعي في التحيّل على قدومه لتونس ، فتنكّر له ، وبعث يأمره بالقدوم اليه بالجزائر ، فارتاع وأيقن بالهلاك ، وامتنع من التوجه للجزائر ، ولاذ بمقام الولي سيدي أبي سعيد الباجي رضي الله عنه ، وألحّ صاحب الجزائر على الباي في إشخاصه اليه ، فأجابه بتعذُّر اخراجه من حرم الولي ، وتوقّع الحربَ ولم يكن مستعدًّا لها يومئذ ، فبعث له من اغتاله في مهربه ، وهو الحاج أحمد بن عمار باش حانبه ، ومعه الحاج علي الفرجاوي الاُضَه باشي ، وباتا عنده ، وقتلاه بكيفية لا يظهر أثرها في البدن كلّ الظهور ، ولم يخف ذلك على الناس ، وأشاعا أنه مات فجأة ، وسمعنا ذلك من الحاج أحمد باش حانبه ، بعد موت هذا الباي بسنين .

وفي شوال من السنة 1214 (مارس 1800 م) أمر بازالة الدكاكين من الاسواق أمام أبواب الحوانيت ، وذلك أن أربابها اتخذوا جانبا من الطريق العامة ، وبنوا به دكاكين أمام حوانيتهم ، للانتفاع بها ، في وضع السلع وجلوس المشتري . وضاقت الاسواق على المارين ، وهو من الغصب العام ، وثقل ذلك على غير المنصف منهم ، وتعنّتوا بدعوى الحوز ، ولاذوا بالمفتين ، فأجيبوا بأن الضرر لا حوز فيه ، وكلما طالت مدته كثر ذنبه ، وأن فعلهم من التعدي على حق العامّة . وأمَرَ أن كل من يتأخر عن ازالة دكانه يهدم عليه غصبا ، ويلزمه أجر الهادم ، واخراج المهدوم من السوق .

وفي الخامس والعشرين من محرم سنة 1215 ، خمس عشرة ومائتين وألف ، (الاربعاء 18 جوان 1800 م) ، توفي ابن الباي حمودة باشا المتقدم ذكر ولادته ، واسمه محمد ، وهو طفل لم يبلغ الحلم ، وتأسف على فقده ، واشتد حزنه ، وامتنع من الطعام ، وخاف عليه رجال دولته ، وكان محببا لهم ، بل وللرعية ، فبعث وزيرُه أبو المحاسن يوسف صاحب الطابع لعالم العصر وشيخ الشيوخ أبي الفلاح صالح الكوّاش ، وكان بليغ العبارة ، حاضر الجواب ، لا يبالي ، وطلب منه وعظ الباي وتسليتَه ، وأدخله اليه . ولما دخل استرجع وقال له : « سَلِّم لحكم الله ، فما بك ابْتَدَا ، ولا عليك اعتدى ، فان صبرت فحبّذا ، والا فانطح ذا وزِدْ ذا » وأشار الى الحائط ، ثم قال له : « هل أنت على يقين بأن هذا الطفل لو عاش يكون فيه ما تؤمّله ؟ » فقال : « لا » ، فقال : « وما يدريك أن الله أكرمك بموته ؟ وفي الحديث الشريف : ما من مصيبة الا وعند الله أعظم منها » ، فنشط في الحين من عِقال حُزنه ، واسترجع واستغفر الله تعالى وطلب الطعام . سمعت هذه الحكاية من والدي ، وهو الرسول للشيخ .

وفي السنة 1215 ، بعد موت ابنه ، مرض بالحمّى ، وبقي خمسة عشر يوما في بُحْرَانها مغمّى عليه ، فجمع الوزيرُ رجالَ الدولة ، وأخذ ختْمَه ، وجعله في صندوقٍ مفتاحُه عنده ، وجعل الصندوقَ في صندوقٍ آخر مفتاحُه عند الوزير أبي عبد الله محمد الاصرم باش كاتب ، وجعلهما في خزانةٍ مفتاحُها بيد الوزير أبي المحاسن يوسف صاحب الطابع ، وصاروا يجتمعون كل يوم لمباشرة ما يرد من الامور ، وما يتّفق عليه رأيهم يكتبونه باسم الباي ويختمونه بختمه ، ويقيّدونه بدفتر بمحضر الحاج أحمد بن عمّار باش حانبه ، وبقية رجال الدولة .

ولما عوفي عرضوا عليه جميع ما وقع في مرضه ، فاستحسنه وشكرهم ، بحيث لم يتعطّل شيء من أمور المملكة .

وفي أيامه انتقض الصلح مع دولة الدانمرك ، وأزيلت علامته من دار القنصل ، خامس صفر السنة 1215 (السبت 28 جوان 1800 م) ، وأخذ في إحضار الشقوف والاستعداد ، ولم تطل مدة ذلك ، وتوسط الوزير يوسف صاحب الطابع في أسباب الصلح لمّا يعلم من عزم الباي على حرب الجزائر ، وهو الاهمّ وقتئذ ، وانعقد الصلح في جمادى الثانية من سنة 1216 ، ست عشرة ومائتين وألف (اكتوبر — نوفمبر 1801 م) .

وتوفي الوزير مصطفى خوجة عصر يوم الجمعة الثاني والعشرين (1) من جمادى الاولى سنة 1215 ، خمس عشرة ومائتين وألف (10 اكتوبر 1800 م) ، ودفن بتربته في الحاضرة ، وحزن الباي لموته .

وفي سادس صفر من سنة 1216 ، ست عشرة ومائتين وألف (الاحد 29 جوان 1801 م) ، وقع حريق في خزنة السلاح بباردو ، وسرى اللهيب ، وتعسر إطفاؤه بسرعة ، ووقع الخوف من وصوله الى خزائن البارود ، فخرج الباي بحرمه وآله ليلا الى منُّوبة راجلين، ورجع لمعالجة إطفاء النار ، ولم يكن لاهل المغرب استعداد بآلات اطفاء النار ، لندور ذلك فيه ، ودام الحريق نيّفا وعشرين ساعة ، ولطف الله باطفائها ، فرجع آله الى باردو .

وفي سنة 1217 ، سبع عشرة ومائتين وألف (1802 م.) ، أمر بتجديد سور بنزرت ، لما وقع فيه من خراب المدافع والبونبة المتقدم ذكره ، وتم في أقرب زمان .

وفي السنة 1217 أبطل ما كان يُعمَل ليلة عاشوراء المعروف بقعيد (2) العاشوراء ، وهو أن بعض الرّعاع من العامة يحملون شبه رأس انسان ويدورون به في الازقة والحارات بمشاعل وهم يصرخون (3) المكاحل والمحرقات تكسّبا ، فأفتى بعض العلماء بأن هذا من فعل الشيعة من أهل البدع ، يتذكرون به مصرع سيدنا الحسين رضي الله عنه بكربلاء في عاشوراء ، وقد كان ذلك في دولة بني عبيد من أبناء علي وفاطمة رضي الله عنهما . وليته أفتى بابطال ما هو أقبح من هذه البدعة في بيوت الله تعالى ، ولله درُّ بعض الادباء في حسن تعليله سُنّة الاكتحال في عاشوراء :

ولائمٍ لام في اكتحال ... لمّا أراقوا دم الحسين
فقلت دعني ، أحقُّ شيءٍ ... فيه بلبس السواد عيني

وفي الثامن والعشرين من ذي القعدة سنة 1219 ، تسع عشرة ومائتين وألف (الخميس 28 فيفري 1805 م) ، ظهر من الداي ابراهيم بوشناق عنف وشدة مع أصحاب المروءات من أهل البلاد ، فضَرب بعضَ أعيان الشوّاشية من أولاد غربال ، وذلك أنه حنق على

---

(1) هو 21 حسب التقويم .
(2) كذا في خ و ق وفي ع : بعيد العاشوراء .
(3) يطلقون (انظر Lacoux)

أحدٍ من صنّاعه المأجُورين فشتمه وضربه ، ظنّا منه أنه له أن يفعل ذلك مع صنّاعه ولا حرجَ ، فاشتكى المضروبُ للداي ، فأحضر الضاربَ ورام الصلحَ بينهما ، فقال له الضارب بعنف : « احكم ، احكم » ، يعني في المشتكي ، « والا فالبلاد فيها مولاها »، فقال له الداي : « حيث طلبت الحكم ، فالحكم ان من اعتدى بالضرب يضرب » ، وأمر بضربه بين يديه ، وشدّد عليه ، بحيث كان على قدر الغضب ، لا على قدر الذنب، ولما بلغ البايَ ذلك ، مع شيء في نفسه عليه ، عزله وأولى عوضه الداي محمد قاره برنلي ، وكان ليّن العريكة عارفا بمنازل الناس .

وتوفي العالم الفقيه أبو محمد حمّودة باكير ، امام هذا الباي وشيخه وامام أبيه ، فوجد عليه كما وجد على والده ، ومشى في جنازته راجلا باكيا ، من داره بتونس الى مدفنه ، وعُدّ له من الوفاء .

الخبر عن الحرب بين الجزائر وتونس واسبابها

قد تقدم التجاء محمد باي وأخيه علي باي الى الجزائر ، بعد مقتل والدهما ، واقامتهم بها المدةَ الطويلة ، واستعانتُهم بملوكها وعساكرها حتى ردّهم الله لوطنهم ، ولذلك صار للجزائر إدْلاء (1) آل الى تغلّب ، لما عندهم من الزّبون (2) على أولاد الباي حسين . وكان الباشا علي باي يعاني من مداراة ولاة الجزائر وقسنطينة ، ويتجرع من مرارة مَنّهم وتغلُّبهم وتعلُّلهم ، ما يستفزّ غضب الحليم ، ولا تحتمله النفوس الانسانية ، لا سيما وعندهم يونس باي الطالب لثأر أبيه ، وله في هذا الوطن صاغية من آذان أهل الفساد ، كما تقدم من انقسام المملكة يومئذ الى باشية وحسينية .

ولما توفي علي باي واستقلّ ابنه الباي أبو محمد حمودة باشا ، أرادوا ابتداء الامر معه من حيث انتهى أبوه ، ولم يكن من أخلاقه احتمال الضيم . ومن وزراء أبيه من يسلّيه ويهوّن عليه الاحتمالَ في حقير الامور ، وما درى ان الحقير يَعْظُم ، والصغير يكبر .

---

(1) لعله يريد : ادلال .

(2) تكرر ورود هذه اللفظة فى ابن خلدون وتاريخ ابن ابى الضياف وغيرهما من تواريخ المغرب ، واللفظة سريانية ، وكأن المراد بها هنا نوع من المساومة ووسائل الضغط ، او نوع من الـ (Chantage)، وانظر دوزى مادة (ز ب ن)

فعزم على حربهم ، وأعمل الحيلة في جلب حسن بن اسماعيل بن يونس باي ، وقتَلَه كما تقدم ، بعد أن التفت الى تحصين البلاد ، بازالة ما يُتَوقَّع منه كَمين الضرر كالاوساخ المطروحة على شاطىء البحيرة ، حتى صارت ربوةً يتقي بها المحارب ويقاتل عليها ، فأمر بازالتها في محرم من سنة 1216 ، ست عشرة ومائتين وألف (ماي — جوان 1800 م) ، ووزع مصروف ذلك على مالكي أبنية البلاد ، ومنهم أبنيته . ثم شرع في بناء السور يوم الاحد رابع (1) ربيع الاول سنة 1217 ، سبع عشرة ومائتين وألف (4جويلية 1802 م) ، وابتدأه ببرج باب الخضراء والبرج الملاصق به ، ويعرف ببرج صاحب الطابع لانه أشار به ، وعارضه الوزير أبو عبد الله محمد العربي زروق بالاستغناء عنه ، فأمر ه ببنائه من خاصّ ماله من أوله الى آخره ، وعمّره بالمدافع ، وجميع لوازمه من ماله أيضا . ثم برج سيدي يحيى السليماني لانه قرب زاويته وجامعه . ثم برج باب سيدى عبد السلام ، وبرج باب سعدون ، وبرج باب خالد ، ويعرف ببرج سيدي قاسم الجليزي . ورسم برج السيدة المنوبية ولم يشرع فيه . ومهما تمّ برج عمّره بمدافعه وحماته من العسكر . وكتب على أبواب الابراج تواريخها باللغة التركية ، سياسة مع جند الترك ، وهم الشوكة يومئذ . ومحصّل المكتوب ان الآمر بها هو السلطان سليم ، وان الباني هو حمودة باشا ، كما تراه على غالب أبوابها ، ولفظها شعر باللغة التركية . وكان يأتي غالب أيامه بنفسه ليرى العملة في بناء السور والابراج ، مبالغة في الحث على العمل . واستعان في ذلك بأبي عبد الله محمد العربي زروق ، وشكر مؤازرته في هذه المهمات ، وحصّن حلق الوادي وصرف له العناية بحفر البوغاز ، وبنى جوانبه ، وجعل الجابية داخل السور لحفظ المراكب الحربية ، وبنى الطُّبّخانات الارضية وشحنها بمدافعها ، وبنى الترسخانه وخزائن مهمّاتها الموجودة الآن ، ولم يجد مَن بعدَه ما يزيد في حلق الوادي ، باعتبار حالة البلاد ، الا أبنية للسكنى . وأمر ببناء القشل الخمس لسكنى عسكر الترك ، وهي قشلة البشامقية ، وقشلة العطارين ، وقشلة الزنايدية ، وقشلة سوق الوزر . ووكّل على بناء كل قشلة واحدا من أعيان البلاد ، وهم الحاج محمد بوثور ، والحاج علي الشفي ، والحاج محمد المبزّع ، والحاج أحمد القسنطيني ، والحاج محمد بن الامين وخرط في سلكهم الحاج أحمد بن عمّار باش حانبه ، وكّله على بناء قشلة سيدي عامر ، قرب سوق البلاط ، فتمّت في أسرع وقت وعمّرها بالجند .

(1) هو 3 حسب التقويم .

وفي هذه المدة احتبس الغيث ، ووقع قَحْط شديد ، وتعسر الاتيان بالميرة لوقوع الحروب يومئذ ، فوجّه شيخنا العلامة المحقق أبا اسحاق ابراهيم الرياحي سفيرا عنه الى السلطان الشريف أبي الربيع مولانا سليمان بن مولانا محمد سلطان المغرب ، وذلك سنة 1218 ، ثمان عشرة ومائتين وألف (1803 — 1804 م) ، فسرّح له الشراء من مملكته ، وحملها في مراكب بصنجقه ، وأكرم الشيخ ، وهادى الباي بجانب وافر من النحاس أذابه مدافع بالحفصية ، يُنيف عددها على المائة مدفع .

وكان يأتي الحفصية بنفسه أيضا ، تحريضا للعملة بها . وكانت تذكرة شاهد الحفصية ، وتذكرة أمين الترسخانة ، لهما من القوة في بيت خزنه دار مثل تذاكر الباي ، خشية التعطيل ، ولو ساعات .

ثم بعث وزيره أبا عبد الله محمد العربي زرّوق الى الكاف في غرة ربيع الثاني من 1221 ، احدى وعشرين ومائتين وألف (الاربعاء 18 جوان 1806 م) ، فجدد قصبتها وحصونها وسورها ، وملأها بالميرة والاقوات وآلات الدفاع وخزائن البارود .

وفي هذه السنة رتب الخبز للعسكر القاطنين بالقشل ، وقد كانوا يأكلون من مرتبهم وكدّهم في الحِرَف ، وألزم بذلك سائر الناس من الزوايا وغيرهم ، لدفع أعشار حبوبهم بالرابطة ، ولم يستثن الا أهل المجلس الشرعي فقط .

وضرب صفحا عن السّرف ونعيم الحضارة ، وعوّد نفسه تحمّل المشاقّ ، ومناعة الحرّ والقرّ ، ما بين الابراج والسور وحلق الوادي . وكان يركب الى بستانه بالمرناقية ويرجع على سرجه . ولم يرخص للمخازنية في ركوب البغال ، أحرَى ما يُجرّ بالعجلات المسمى بالشَرْيُول ، ولم يرخص فيه الا لافراد عواجز من غير أهل الدفاع ، كالكاتب أبي عبد الله محمد شرف الدين ، والتاجر الوجيه الحاج يونس بن يونس الجربي ، وأمين التجار أبي عبد الله محمد العروسي ونحوهم . اما الكرّوسة التى تجرّ بأربع عجلات فهي من شعار منصبه ، لا يركبها غيره وقتئذ ، ومع ذلك لا يركبها ، ويقول هي للنساء .

ومالت الناس في أيامه الى أخلاق البداوة والشدة والمدافعة ، وأنفوا من أخلاق الحضارة حتى في ملابسهم .

ولمّا أحس من قوّته القدرة على دفع الضيم ، صار يتعلل على أهل الجزائر ، وأخذ في ازالة ما اعتادوه من التعدي ، الذي منه أن صاحب الجزائر أو قسنطينة يشتري الانعام ويبعثها الى البيع بتونس بثمن يلوّح بالاشارة اليه ، فتَتَعطَّل أهل البلاد عن بيع أنعامهم حتى يباع ما أتى من الجزائر أو قسنطينة ، والذي يموت من تلك الانعام في الطريق تدّعي رُعاتُه أنه سرق منهم في أرض تونس ، فيُزاد ثمنُه على الثمن المطلوب .

ومنه أن أهل الجزائر يطلبون مؤاخذة القريب بقريبه ، ويدعون السرقة والنهب على أهل المملكة ، ويطلبون عقوبتهم بمجرد الدعوى .

وكانت رسلهم تنزل بباردو وبدار الضيوف بتونس ، ويلاقي المأمورون بهم من شدة التعسف والعنف ما يستفز طبع الحليم . وحمودة باشا في خلال ذلك يتجرع الغُصَص ويجرّعها لرعيته ، واذا اشتكت العربان من عسف الجزيريين يقول لهم : « لم أجد من أتحزم به منكم على دفع هذا الضيم » ، فتنفعل نفوسهم ، حتى توغّرت صدورهم ، واشتَمَلوا على بغض الجزيريين . والظالم مبغوض بالطبع ، والله لا يحب الظالمين .

وفي أثناء ذلك وفد الحاج مصطفى أنقليز ، باي قسنطينة ، طريدا بعد عزله ، ومعه ابنه علي ، فأحسن الباي قبوله ، وأكرم نزله ، وأعطاه بستانا بمنوبة ، ووعده الاعادة لولايته ؛ فغاظ ذلك صاحبَ الجزائر ، فتعلّل بارسال عدد من البقر يطالب بيعه بتونس ، وعيّن الثمن في كتابه ، بصيغة صريحة في الإمرة ، على غير الاسلوب الذي اعتيد منهم ، من لطف الخطاب ، وتلوين الامرة بمقتضيات المحبة ، فأنِف لذلك وامتلأ حَوْضُه ، وضعف تجلّده ، وجمع رجال دولته وكلمهم في هذا الامر ، فقال له وزيره رئيس الكتبة أبو عبد الله محمد الاصرم : « نساعد أحوالنا ولا نقطع سياستنا ، فانها أحسن من حرب » ، فقال له الوزير يوسف صاحب الطابع : « عظُم الامر واتسع الخرق ، والمساعدة هي [التي] أوصلتنا لهذه الدرجة من المعرّة ، فان سيدنا سمسار لصاحب الجزائر ، وليته وقف عند السمسرة ، بل هو محكوم عليه بأداء مال معيّن ، ودفعُه بظلم رعيته كدفعه من خزانته »، فأجابه الشيخ رئيس الكتاب بقوله : « أي شيء يفعل سيدنا ؟ أترى أن يخاطر برأسه ؟ » فقال له صاحب الطابع : « سيدنا لا يخاطر برأسه ، وأنا لا أخاطر برأسي ، وأنت لا تخاطر برأسك ، ونكون آلة ظلم الجزائر لاهل تونس ، ولا يخفاك أن الظلم من أقوى الاسباب على الجرأة ، فنخشى أن الرعية تنظر لنفسها حاميا يقيها ، ووجوه النظر كثيرة ،

منها أن تسلم نفسها لصاحب الجزائر ، واذا انتظمت في سلك رعيته ، كان لها ما لهم ، وعليها ما عليهم ، فانظر لنفسك وبنيك أيها الشيخ ، وأما أنا وأمثالي فلي قدرة على حمل مكحلة أكون بها كواحد من الجند ، وليس ورائي من يثقّل ظهري » .

وانفض الجمع على غير طائل لوقوع الكلام فيه بالحماسة من الجانبين . سمعت ذلك من والدي ، ومن الوزير أبي الربيع سليمان كاهية الثاني ، وقد حضرا الموطن .

ثم استشار رجال دولته أفذاذا على اختلاف طبقاتهم ، وأجمع أمرهم على ترجيع الحاجّ مصطفى أنقليز لمحل ولايته قسنطينة ، وأمر شيخ المدينة أن يأتي الشيخ القاضي ليعيّن عدلين للشهادة على بيع ذلك البقر بالسوق ، وأن لا يمنع أحدا من بيع بقره في خلال المدة ، وأمر العدلين بدفع الثمن لمن أتى بالبقر ، فامتنع ، فقال له الباي : « احمل الثمن ، وأنا أكتب لك مقداره ، وان أبَيْتَ فانه يبقى أمانة على نظر الشيخ القاضي » ، فقبضه ، وكتب الباي لصاحب الجزائر : « ان البقر أمرنا ببيعه على يد عدلين ، وتجمّع من ثمنه كذا ، وتولّى قبضه رسولكم بأمرنا ، وان أرسلتم بعده شيئا للبيع فليكن خطابكم في ذلك لوكيلكم ، وحالُه في ذلك كعامة أهل البلد من غير فرق ؛ وقد كنا نرى أن فعلنا معكم سابقا انما هو ثمرة محبة ، وحيث رأيتموه واجبا فلا نسلّم هذا الوجوب » .

وأعلن بالحرب ، وأخذ في إحضار موادّها من العدد والعدة .

وأمر أهل الجزائر بالرجوع لوطنهم .

وسافرت المحلة لقسنطينة يوم السبت منتصف ذي القعدة سنة 1221 ، احدى وعشرين ومائتين وألف (24 جانفي 1807 م) ، وأميرها وزيره وثقته أبو الربيع سليمان كاهية الاول ، وخرج معه الآغة أبو العباس أحمد الجزيري ، ومعه علي ابن الحاج مصطفى أنقليز ، والكاتب الفقيه أبو عبد الله محمد المسعودي . واقتصر الباي في هذه المحلة على عسكر الترك والمخازنية من الصبايحية والحوانب ، وقبيلة دريد خرجت بنسائها على عادة العرب في أسفارها ، وانتدب للسفر فرسانا من عروش ونيفة ، بعد أن ملأ خزائن الكاف بالقمح والشعير والزيت وسائر ما يلزم المحلة .

ثم أمدّه بمحلة ثانية لنظر أبي الربيع سليمان كاهية وهو يومئذ آغة وجق باجة ، ومعه الحاج مصطفى أنقليز .

ثم أمدّه بمحلة من فرسان الاعراض لنظر عامله أبي العباس حميدة بن عيّاد .

والكل في إمرة سليمان كاهية الاول ، وكان مغفّلا ، بعيدا عن الحزم ضعيفا عن حمل ثقل العهدة ، يتوقف في أقل الامور على المشورة ، وأضاع بذلك التوقف فرصا كثيرة ، مع ديانته وأمانته .

ولما وصلوا قسنطينة ، عاثوا في نهب عربانها ، وأخذوا بمخانق حصرها ، وألحوا عليها بالمدفع والبونبة حتى أشرفوا على أخذها ، فأتت لنصرتها محلة من الجزائر ، وقد ملّ القوم من طول أمد الحصار في محل واحد ، وأشدُّهم مَلَلاً دريد ، فانهم يختارون الاخذ الوبيل على المُقام الطويل . سمعت من بعض أعيان المحلة أنهم تمنّوا الهزيمة ، ورأوها أخفّ عليهم من ملل المُقام بمكان واحد .

وقد كان الباي عيّن لهم مددا بأربعمائة جندي اختارهم ، وزادهم من البونبة . وقبل وصول هذا المدد وقعت مناوشة حرب بين الفريقين ، أثارتها معركة بين رِعاء من الرِّعاع ، هرب فيها بعض فرسان دريد ، ففرّ الذي أمامه ، والذي أمامه ، حتى انهزم سليمان كاهية ومن معه بالمحلة ، فلم يسعه الا الفرارُ ، حتى كأن الهزيمة وقعت بتدبير . وكان ذلك يوم الاحد الخامس والعشرين (1) من صفر سنة 1222 ، اثنتين وعشرين ومائتين وألف (3 ماي 1807 م) ، [وبقي أناس من دريد بنسائهم وأولادهم ، احتوت عليهم محلة قسنطينة وعربانها ، ولم يقدروا على التخلص منهم ، وأنزلهم باي قسنطينة أرضا تسمى الآن بحيرة دريد ، وتملكوا بها الى وقتنا هذا] (2) ، ورجعوا الى الكاف وتسللوا للحاضرة ، وكل من يصل من أعيان المحلّة يعيّره الباي ويأمر بسجنه ، وكان ممن أتى حميدة بن عياد أمير محلة الاعراض ، ولما وقف بين يديه عيّره وأمر أبا محمد حمودة الاصرم خوجة زواوة بايصاله الى السجن ، فحاذاه وماشاه ، فانتهره الباي وقال : « ضع يدك عليه مثل المسجونين ، وحسبه من الاحترام أن أمرتك بايصاله ، ولم نبعثه مع أحد الأُضه باشية » .

(1) هو 24 حسب التقويم .
(2) ما بين معقفين موجود بنسخة ع ، وهو ساقط من خ و ق .

ولما أتى سليمان كاهية [أميرُ] المحلة وقف بين يديه باكيا أسيفا ، فقال له : « لا أعتقد فيك خيانة ولا جبنا ، ونعلم ما أنت عليه من الغفلة ، فاضاعة الحزم — والحالة هذه — مني ، وقد خدمتَ أبي وحملتَني صغيرا على عاتقك ، والحياء يمنعني أن أفعل بك ما فعلت بأمثالك ، فالمناسب أن تستريح بمحلك على احترام ما سلف من خدمتك »، فرجع لداره وتوفي أواخر رجب السنة 1222 (أوائل اكتوبر 1807 م) .

وأولى عوضه سليمان كاهية الثاني (1) لِـمّا ثبت عنده وعند الناس من صبره وإقدامه ، وأنه يوم الهزيمة عرّض نفسه للموت مرارا فدافع عنه الأجل .

ولما سافرت هذه المحالّ لم يشكّ أحد في أخذهم قسنطينة ، وأمر الله وراء ذلك.

ولما بلغَ الباي َ خبرُ الهزيمة ، قبل وصول المنهزمين ، وأن محلة الجزائر قادمة في أثرهم للحاضرة بقوتها وما ازداد لها من المدافع والخيل والابل وغير ذلك من آلات محلة تونس ، أصبح حزينا خائفا يترقب . فالتفتت عليه رجال دولته ، وأول من كلمه في ذلك أبو الثناء محمود بن بكّار الجلّولي ، قال له :

— « الغنيمة هي سلامتك ، وما مضى فات ، واستقبِلْ الامر بالحزم والثبات» .

فقال : « المحلة قادمة للحاضرة ولا بدّ من دفعها قبل الوصول ، وليس عندنا خِباء ولا ظهر » .

فقال : « عندي ما تريد من الاخبية والظهر لحملها » .

ورجع لتونس في الحين فاشترى مواد الاخبية في اليوم ، وبعث في شراء الظهر . اشترى ذلك بما طلب أربابُها ، وأحضرها له في أسرع وقت .

وبعث له حميدة بن عياد من مَحْبَسِه بأن « عندي من الخيل والبغال والابل ما ينفعك الآن » ، وبعث بها اليه . وكانت البلاد اذ ذاك في شباب عُمرانها وثروتها .

ولما حضرت المحلة ، جمع وزراءه ورجال دولته ، وكلّمهم في سفره بنفسه ، فأبوا عليه بلسان واحد ، فصمّم وقال :

— « لا بد أن أخرج بنفسي » .

(1) كلمة الثانى : ساقطة مرح ، مثبتة فى ع و ق .

فقال له رجب بونيمْرة كـاهية وجق الصبايحية بالحاضرة :

— « أنت لا تملك أمر نفسك ، والمالك لامرك المصلحة للبلاد ، والمصلحة أن تكون في مركز ولايتك رِدْءا لمن تُرسله ، فاذا انهزم لا تنهزم البلاد ، بخلاف ما اذا خرجت بنفسك » .

فقال له : « من أسباب هزم المحلة توقفُ أميرها على المشورة في غالب الامور ، واذا كنتُ بالمحلة لا تتوقف حتى تضيع الفرصة » .

فقال له : « وما يمنعك أن تعطي هذا التفويض لامير المحلة ما دام بها ؟ » .

فقال : « أعطيتُ ذلك لسليمان كـاهية فلم يعمل به » .

فقال له : « أنت أعلمُ منّا بحال سليمان كـاهية ، والذي تفوِّض له الآن ، يعلم ما وراءه من الانتقاد » .

وأرسى الحال على تقديم الوزير يوسف صاحب الطابع للسفر بالمحلة .

وخرجت في الحين الاوامر لقدوم المزارقية والعروش والوسالتية وأهل القلعة الكبرى وغيرهم ، فقَدِموا ، وكلما أتى وفد يقول لهم : « القتال الآن في الدفع عن الحُرَم والنفس والمال ، وأردتُ السفر بنفسي ، لاكون كواحد منكم ، فمنعني هؤلاء — ويشير الى الواقفين من رجال دولته — وطلبوا أن نبقى هنا لنكون لكم رِدْءا ومُعينا ، وهذا بمنزلة نفسي — ويشير الى الوزير يوسف صاحب الطابع — فمن أطاعه فقد أطاعني ، ومن عصاه فقد عصاني ؛ هذه وصيتي اليكم » .

فيجيبونه بالسمع والطاعة والموت دونه ، الى غير ذلك مما يقتضيه الحال ، ويسرِّحهم.

وكان من الوافدين عرش شارِن ، فقال له شيخ مُسِنٌّ في أُخْرَيَات القوم : « لا تعتمدنا في حربك ، واستعدَّ للعدوِّ بمثل عُدَّته ، فان العسكر لا يقابله الا مثلُه من العسكر ، والمدفع لا يقابله الا المدفع ، وحسب العربان اتباع الهارب للنهب ، وربما هجموا اذا رَأَوْا غنيمة » .

ولما خرجوا قال لجماعته : « لم يَصْدُقْني من هؤلاء الوفود غيرُ هذا الشيخ » .

ولما دخل عليه وفد الوسالتية وقال لهم ما قال لغيرهم من التحريض على طاعة أمير المحلة ، أجابه عبد الرحمان الجلّولي وعيسى بن عمّار ، من أعيانه :

— « نطيعه ما دام في طاعتك » .

فقال لهما : « أطيعوه ولو أمركم بعصياني والخروج علي » . وكررها لهم على رؤوس الملا بالمحكمة .

وفي أقرب وقت حضرت المحلة ، وكان بين الهزيمة وعَوْدِ الكَرَّة بالمحالّ ، نحو الاربعين يوما .

فخرج الحاج أحمد بن عمار باش حانبه في مقدمة الجيش بمحلة زواوة ، في الحادي والعشرين من ربيع الاول سنة 1222 ، اثنتين وعشرين ومائتين وألف (يوم الجمعة 29 ماي 1807 م) ، وخرج الوزير أبو المحاسن يوسف صاحب الطابع خامس ربيع الثاني (الجمعة 12 جوان 1807) ، ومعه سليمان كاهية ، ومعه الحاج مصطفى أنقليز ، الذي كان باي قسنطينة ، وابنه علي .

وقبل سفره بثلاثة أيام زار مقامات الصالحين بالحاضرة ، وجبل المنار ، ومقبرة الاشراف بمرسى الجراح . وزار شيخَ الاسلام أبا عبد الله محمد بيرم الثاني ، وشيخَ الفتوى أبا عبد الله محمد المحجوب ، والداي قاره بُرْنَلِي لوُصلة بينهما ، وسياسةٌ مع جند الترك ، وهو الذي سنّ زيارة الاولياء قبل الاسفار . وأفاض الصدقات .

وسافر معه جماعة من المشهورين بالفضل والصلاح ، كالشيخ أبي الحسن علي ابن صالح ، أحد أعيان الصالحين بالكاف ، وزاويته مشهورة به ، وأبي الحسن علي المارغني ، والشيخُ الذاكر السالك أبو المحاسن يوسف بوحجر ، وزاويته بالكاف مشهورة ، والشيخ عبد الملك الحمادي ، وغيرُهم .

وسافر معه أعيان من رؤساء البحر، منهم عزيز رايس واسلام رايس وكشك محمد الارنروط .

وخرج أبو محمد حَمُّودة الاصرم خوجة زواوة بمحلة من زواوة أيضا في الحادي والعشرين من ربيع الثاني (الاحد 28 جوان 1807) .

وفوّض الباي للوزير يوسف صاحب الطابع ، ونَشّر عليه ألْوِيتَه ، وأصحبه النَّوبة وشاوش سلام ، وأركبه من منتهى دروج البرج ، واشترط عليه بمحضر وزرائه أن لا يتوقف على مشورته ، فيما يراه من المصلحة .

وكان عدد من معه من الفرسان زُهاء أربعين ألف مقاتل ، من المخازنية والمزارقية وفرسان القبائل ، وسبعة عشر ألف راجِل من زواوة وجند الترك ، ومدافعية وطبجية ، والوسالتية وأهل القلعة الكبرى .

وتأدب سليمان كاهية بين يديه ، ووقف موقف المأمورين ، وهو مع ذلك يجلّه ، ويَغْصِبه على الجلوس بمحضره ، ويقول لوجوه العرب وأعيان المحلة : « أنا ضيف أتيت لقضاء حاجة في هذه الوُجهة ، وهذا صاحبكم » ويشير الى سليمان كاهية ؛ ويستشيره في المهمات ، كما يستشير غيره من كبراء المحلة ووجوه العربان .

وجعل الباي يظهر للناس أثرَ تفويضه ليوسف صاحب الطابع ، ويأمر المتظلمين برفع شكاياتهم اليه .

أتاه رجل من ضواحي منّوبة شاكيا بأن فرسه سرقت ليلا ، واتّهم بها عربانا ، فقال :

— « ارفع شكايتك الى صاحب الطابع ، فان يده خارج الحاضرة كَيَدِي .

فقال له : « أخشى أن لا يسمع شكايتي ، فاكْتُبْ له بذلك » .

فقال له : « لا يحتاج الى الكتابة ، وان لم يسمع شكايتك فارجِعْ اليّ شاكيا منه » .

فخرج الرجل متعجبا ، ولَحِقَ صاحب الطابع الى الكاف ، ورفع قضيته اليه . فسأله عن موضع نُزُله ، فقال قرب منّوبة ، فقال له :

— « هلاّ اشتكيت لسيّدنا وهو قريب منك ؟ » .

فقال له : « اشتكيت وأمرني أن أرفع أمري اليك ، فقلت له أخشى أن لا يسمعني ، فقال لي ان لم يسمعك فارجع الي شاكيا منه .

ففطن لمراد الباي ، وسأله عن صفات فرسه وعمّن كان نازلا قربه ، فقال له أنفار من جلاص ، فبعث لقائدهم ومشايخهم ، — وكانوا معه بالمحلة — وبيّن لهم صفة

الفرس وأجّلهم لاحضارها بعينها ، وان لم تحضر بعد مُضِيِّ الاجل يأخذ فرسا من أعزّ خيلهم ويدفعْها للرجل . وأنزله بخباء الضيوف . فجاؤوا بها من الغد ، وادّعَوْا أن رجلا من إخْوتهم وجدها شاردة ، فدفعها لربّها وأغْضَى لهم .

ورجع الرجل بفرسه ، ومرّ على الباي ، وهو بسبيل القبة الحمراء قرب باردو ، فلما رآه عرفه وبعث له ، ولما حضر بين يديه قال له :

— « قد أمرتك بالشكاية لصاحب الطابع فلم تفعل » .

فقال له : « فعلت ، وهذه فرسي ، وقد أنزلني بخباء الضيوف حتى أتاني بها » .

وبمقتضى هذا التفويض : ظهر له تخاذل من أولاد يعقوب ، فسجن فرسانهم ، وَوَسَم خيولَهم بِسِمَة الدولة ، ووجّه سَرِيَّة أخذت ناجعتَهم . وكاتب الباي مخبرا بعد نفوذ ما اقتضته المصلحة . وسدّ بذلك بابا كاد أن ينفتح ، وكان ذلك بموافقة أعيان المحلة .

وسار بجموعه محتفظا على ما يمرّ به من زروع المملكة وأنعامها ، وكان العامر يومئذ أكثرَ من الغامر ، حتى أنه يأمر بفساد نظام الصفّ خشية ضرر الزرع ، يشدّد النكير في ذلك ويبالغ في العقوبة على فعله .

رأى رجلا من فُرسان الصبايحية ، خلفه شيء من السُّنْبُل لعلف فرسه ، فأحضره وقال له : « ألك زرع في هذه الجهة ؟ » فقال : « لا » ، فقال : « ولم أخذت سنبل الناس ، وقد خرجنا لدفع الضرر عن أنفسهم وأموالهم ؟ » وأوقف الصفّ والصناجق ، وأوجعه ضربا بمحضره ليرى مُبْصِرٌ ويسمع واعٍ ، وأمر بسجنه . وصار فرسان المحلة يتّقون حمى الزرع ، خشية الوقوع فيه ، لما يتبعه من شديد النّكال العاجل .

وبعد أن أراح بالكاف أياما ارتحل فقطع وادي سَرّاط وصيّره وراءه .

والتقى الجمعان بمحل يعرف بسلاطة ، يوم الاثنين ثامن (1) جمادى الاولى (13 جويلية 1807 م) ، وحمي الوطيس ، وأظلم الجوّ ، وأبلى الشيخ عبد الملك الحَمادى في

(1) هو 7 حسب التقويم

ذلك اليوم البلاء الحسن ، بمرأى ومسمع من الناس ، حتى عُدَّت له كرامةً . وحمل الجزيريون على التونسيين حملة المستميت حتى أوصلوهم قرب أطناب المحلة . ورأى الوزير الهزيمة ، فقال لمن حوله : « ما التدبير ؟ » فقالوا له : « الصبر ، ولهذا اليوم ما بعده » ، فقال لهم : « بأي وجه أدخل تونس ، وبأي عين أرى حمّودة باشا ؟ الموت هنا ولا بدّ »

هذا ، وسليمان كاهية واقف بالصناجق يحرض الجند تارة ، ويهجم أخرى ، غير مكترث .

فأمر الوزير بتسريح المدافع ، فقال له الحاج مصطفى أنقليز : « ننتظر اجتماع الهاجمين ليظهر أثر المدفع في مجموعهم » ، ولما صرخ المدفع ولّوْا وتفرقوا أيدي سَبَا ، حتى ان المدفع الحادي عشر لم يصب أحدا منهم . وانهزموا وكرَّت عليهم الخيل آخذةً بأعقابهم الى أوتاد محلتهم ، فدافعت عنهم مدافعُ المحلة ، وسترهم ظلام الليل ، وسكنت الحرب .

ولما رجعوا قال الوزير : « من يخرج لحراسة المحلة بالليل ؟ » لان الكاهية محمد ابن علي بن عمر جرح وقتل ابنه ، فقال سليمان كاهية — بعد ما أبلى طول نهاره — : « أنا أخرج للحراسة » ، فقال له الكاتب الحاج بالضياف ، والد العبد الحقير : « لا يمكن ذلك ، لاننا لم نتحقق حال القوم ، وربما يخرجون للقتال غدا ، فمن يخرجُ بالصناجق والعسكر ؟ » ثم قال لهم الكاتب : « أترضَوْن بخروجي ؟ » فخرج بعد نوبة العشاء في مائتي فارس من المخازنية ، وأربعمائة فارس من قومه أولاد عون ، وجعل يدور بالمحلة .

ولما عسعس الليل قَرُب من محلة الجزائر ، فلم يسمع أصوات العسّة ، فأنكر ذلك ، وجعل يقرب منها شيئا فشيئا ، فحذّره بعض من معه ، فقال له : « هل تسمع صوتا ؟ » ولما وصلها وجد كثيرَ الاخبية بلا سراج ، وليس فيها الا الجرحى ، وتحقق هروبَهم . ووصل الى وطق الآغة فوجده خاويا فارغا ، مصابيحُه تضيء ، فنزل به وقال لمن معه — لمّا أرادوا النهب — : « لا يفوتكُم ما تريدون » . وبعث للوزير مخبرا بهروب القوم ، وطلب منه القدوم ، ليرى الوطق والاخبية ، فأجابه بأن « ليس من الحزم أن أخرج من محلتي ليلا ، خشية أن يظن الجاهل هروبنا» ، ففي الحين أسقط الوطق ، وقعد يحرسه

بنفسه ، وكان ذلك آخر الليل ، وتسامع العربان بخبر هروبهم فتنادَوْا للنهب ، واعتورت السيوفُ تلك الاخبية .

وفي الصباح استولى الوزير أبو المحاسن يوسف على أثقال المحلة من مدافع وسلاح وإبِل وغير ذلك من الآلات . واستشاره فُرسان العرب في اتباع الهاربين ، فمنعهم .

وأركب مملوكه وابن تربيته أبا عبد الله حسين خوجه بشيرا للباي ، فعظم السرور بالحاضرة ، وأعلنت بالبشارة والسرور أفواهُ المدافع من سائر أبراج الحاضرة .

واستراح الوزير بالمحلة أياما ، وسرَّح أبا محمد حمودة الاصرم بمحلته الى جبل الرَّقبة لاستيفاء جبايته ، ولَوى عِنان الاوْبة الى الحاضرة منصورا مشكورا ، فوصل يوم الخميس ثاني (1) جمادى الثانية من السنة 1222 (6 أوت 1807 م) ، وكان يوما مشهودا .

وخرج لتلقيه أهل المجلس الشرعي ، وأعيان الدولة ، ووجوه الحاضرة . وممن خرج لتلقّيه شيخ الشيوخ وعلاّمة العصر أبو محمد حسن الشريف ، فوافاه راكبا أمام الصناجق ، فبعث اليه مع والدي بأن لا يَنْزِل عن مركوبه ، اذ لا يمكن — بمقتضى العادة — أن ينزل من سار بالصناجق ، فحلف الشريف ، بمقتضى ما ورثه من خلال آله وتواضعهم صلوات الله عليهم ، أنه ينزل ولا بدّ ، وحلف على الوزير أن لا ينزل . فأوقف الصفّ واجما ، ولما وصل الشريف حلف بأن يناوله يده فقبّلها . وكان يقول : « مهما نرى سيدي حسن الشريف نتذكر ذلك الموقف ونَسْتَحي » .

ودخل بعده الحاج أحمد بن عمار باش حانبه بمحلته .

ولما وصل من لم يستطع الهروب من عسكر الجزائر ، خيَّرهم الباي بين الثبات في عسكر تونس ، أو الرجوع لبلادهم ، فاختار أكثرهم الرجوع الى الجزائر ، فوجههم في البحر وأكرمهم . والمراكب التي بلّغتهم ، رجعت بعسكر تونس الذين أخذوا في محلة قسنطينة ، وكان وصولهم في شعبان السنة 1222 (اكتوبر 1807 م) .

(1) هو غرة الشهر حسب التقويم .

وظهر بعد ذلك من الداي محمد قاره برنلي خروج عن حدّه ، ومخالفة اقتضت أن الباي وجه له الحاج أحمد بن عمار باش حانبه بسمٍّ ساعة (1) ، ولما سقاه ، جلس عنده حتى فاضت روحه .

وأولى عوضه الداي أحمد الباوندي في السادس من ربيع الثاني سنة 1223 ، ثلاث وعشرين ومائتين وألف (الاربعاء 1 جوان 1808 م) ، وكان وكيلا بقرنبالية .

ولما أتاه الرسول مبشرا ، استبعد ذلك وظنّه غلطا ، ولم يتحقق الولايةَ الا بعد لُبسه . وكان مُسِنًّا مغفّلا ، اذا أشكل عليه الامر في نازلة يسجن الخصمين ، وله في الحاضرة حكايات .

وفي السنة 1223 (1808 م) بلغ البايَ أن الجزيريين استجمعوا لعود الكَرّة وحرب تونس ، فجهز محلة بها مائة خباء من العسكر ، وجمع الفرسان من المخازنية والمزارقية وفرسان العروش ، وخرج بها الوزير أبو المحاسن يوسف صاحب الطابع ، ومعه سليمان كاهية ، يوم الاثنين التاسع عشر (2) من ربيع الثاني (13 جوان 1808)م ، وقطع وادي سرّاط .

ولما تحقق الجزيريون كثرة العسكر رجعوا من الطريق .

وانتظرهم الوزير خشية أن تكون مكيدة ، حتى تحقق رجوعهم لبلادهم ، فاستأذن الباي ورجع ولم تقع حرب .

وفي الثامن والعشرين من ربيع الثاني سنة 1224 ، أربع وعشرين ومائتين وألف ، (الاثنين 12 جوان 1809 م) ، ورد البشير لتونس بولاية السلطان محمود خان ، وأتى بسيف مع الخلعة السلطانية ، فجمع البايُ الدايَ ، وأهلَ المجلس الشرعي ، وكبراءَ الديوان ، ورجالَ الدولة ، وأعيانَ البلاد ، بصحن البرج لقراءة الفرمان ولُبس شعار الولاية ، وذلك يوم الخميس غرة (3) جمادى الاولى (15 جوان 1809 م) ، وأمر بتبَاشير المدافع سبعة أيام ، من سائر قلاع الحاضرة صباحا ومساء .

وفي هذه السنة زاد الباي في جند الترك مائة دار ، عدد رجالها ألفان وخمسمائة ، أكثرهم من أولاد البلاد أبناء الترك ، والبقية من متطوعة الترك .

(1) سم ساعة : سم يقتل لساعته (اقرب الموارد) .
(2) هو 18 حسب التقويم .
(3) هو الثاني حسب التقويم .

وفي غرة رجب من سنة 1225 ، خمس وعشرين ومائتين وألف (الخميس 2 أوت 1810 م) ، توفي الولي الصالح المجذوب أبو النور عثمان بن كرم ، ودفنه الوزير يوسف صاحب الطابع في تربته بجامعه قبل إتمامه ، وصُلِّيَ عليه بجامع الزيتونة . وكانت جنازته في يوم مشهود .

ثم بلغ البايَ أن صاحب الجزائر يريد غزو تونس في البحر . فجهز أسطولا به أربعة عشر مركبا حربيا ، وشحنها بالعسكر ، وأمَّر عليها القبطان محمد رايس المُورَالي ، فخرج ليلة الثلاثاء الرابع عشر من ربيع الثاني ، سنة 1226 ، ست وعشرين ومائتين وألف (7 ماي 1811 م) ، وكان يومئذ أكثرُ رؤساء المراكب من الارْنَؤُوط ، فأنِفوا من تقديم محمد المُورَالي عليهم . ولما التقى بمراكب الجزائر خذّلوه وأسلموه ، فدافع عن نفسه أسطولَ الجزائر وحده ، ومراكبُه تنظر اليه لم يُعِنْه أحد منهم بشيء ، فاستمات للقتال حتى عطبت فرقاطته ، وجُرِح ، وأسَرَه الجزيريون بفُرْقَاطَتِه .

ورجعت بقية الشقوف لحلق الوادي ، بعد أن أسلموا أميرَهم ليد العدوّ ، ولما أتوا باردو دخل قبلهم الى الباي رجلٌ شابٌّ اسمه محمد الاَزْمِرْلي — أدركناه — من سكان قليبية — وكان من عسكر المراكب — فبكى ، وقال : « ان هؤلاء الرؤساء كسونا معرَّةً لا تحتملها النفوس ، فسرِّحْني أرجِعْ لبلادي » . وقص عليه الخبر ، وتحقق الباي ذلك من بقية العسكر ، وشاهد الحال يصدِّقهم ، لان مراكبهم أتت سالمةً كما خرجت ، فأحضرهم وقبّح صُنْعهم ، ونفاهم لقُرى تونس ، مرموقين بعين احتقار ومذلّة موسومين بخيانة .

⁂

وفي هذه السنة قدم سلطان المغرب مولانا سلامة ابن مولانا محمد ابن مولانا عبد الله ابن مولانا اسماعيل الشريف ، وقد بويع بالسلطنة بعد وفاة أخيه مولانا اليزيد ، وخلَعَه أهلُ فاس ، وقدموا للسلطنة أخاه مولانا سليمان ، فخرج إثْرَ خلعه ، وجَابَ في الآفاق ، وأقام مدة بالديار المصرية ، واجتمع فيها بنبليون الاول أمير جيش الفرنسيس قبل ولايته ، ووقعت بينهما المهاداة .

وكـان هذا الشريف منصفا ، يذكـر ما شاهده من حزم نبليون وشجاعته وثقـوب فكـره ، وإخباره بما آل اليه حال المسلمين ، وأسبابه العقلية من الانغماس في النعيـم والتعمق في الحضارة ، واستعمال السرف في مذاهب الترف ، حتى ان أثقال أمراء الجيوش توازي أثقال الجيش أو معظمه ، والحال أن بيت هذا الامير بمصر تحتوي على فـراش منامه وموضع جلوسه ، وأمامه مائدة عليها دواة وقراطيس ، وأرائك لجلوس من يأتيه ، لا غير .

واتفق أن كـان ، يومَ قدوم هذا الشريف ، الشيخُ علي الباهـي بحلق الـوادي ، فقال للكـاهية : « عجّل بارسال الشوانـي لنزول الشريف فورا » ، فقال له : « نتوقف في ذلك على اذن خاص من الباي » ، فقال له : « أنا رسوله اليك في هذا الشان » . وأتى الشيـخ الباهـي الى الباي بباردو ، وكـان مقرّبا عنده ، فقال له : « انني افتتُّ عليك في أمر يزيدك فخرا » ، وقصّ عليه الخبر وقال : « اشكـر الله حيث لم يكـن الامـر بالعكس » ، فشكـر صنعه ، وعظّم مقدم الشريف وأكـرم نزله ، ورتّب له جـراية كـجراية أخيه ، وعيّن له منزلا . وبقـي بتونس معظما مكـرما ، مرموقا بما يجب لمقامه الدينـي والدنيوي . وتزوج عقيلة من بيت الشيـخ القصري ، أولدها ذكـرا توفي صغيرا .

وكـان آية الله في الكـرم . زاره شيخنا العلامة أبو اسحاق ابراهيم الرياحـي ، ولما أراد الخروج قال له : « لا أسرّحك في حرّ الشمس ، والزمه أن يتغدى عنده ويَقيل . ولما أراد الرجوع عشية أنشده :

ولما نـزلنـا في ظـلال بيوتكـم أمِنّـا ونلنا الخصب في زمن المَحْل
ولو لم يَـزِد احسانكـم وجميلكـم على البِرّ من أهلي حَسِبتكمُ أهـلي

فقال له الشريف : « انك أتيتَ أخي ومدحته وأجازك ، وهو سلطان وأنا غريب ... » وقد كـان باصبعه خاتم ثمين نزعه من خِنصره وناوله الشيـخَ ، فأخذه الشيـخ وضمّه الى صـدره وأنشد :

نظـرت لخـاتـم قد جـلّ قـدرا تَحـقّ لـه الجـلالـة والكـرامـه
فقلت له : شرفتَ ، وأيّ فضـل حـويـتَ بلبس مـولانـا سلامـه

وقال له : « ان خاتمك شريف ، والشريف لا يُستَعمَل ، وقد أجازنـي أخوك في الدنيا ، وجائزتـي منك في الآخرة ، وأنتم رجال الدنيا والآخرة » ، ووضعه بين يديه ، فامتنع

الشريف من قبوله ، فقال له الشيخ : « لا تَحرمني من جائزة الآخرة فهي خير وأبقى ، والاعمال بالنيّة » ، فتركه الشيخ بين يديه وخرج .

وله في الايثار والسماحة أخبار .

ثم اعتراه في آخر عمره جذب احتقر به مقامه السلطاني ، والدنيا القليلَ متاعُها الفاني ، فكان يأخذ من الاغنياء ، ويناول الفقراء ، الى أن لبّى الى الدار الآخرة ، بهذه الحُلّة الفاخرة ، في منتصف جمادى الثانية من سنة خمسين ومائتين وألف (الاحد 19 اكتوبر 1834 م) ، ودفن بزاوية سيدي علي عزُّوز بالحاضرة ، بموكب شَهِده الديوان والاعيان ، كجنائز ملوك الحاضرة ، رحمه الله .

***

الخبر عن ثورة الترك
بحاضرة تونس

كان للباي أبي محمد حمودة باشا شغف بجنده ، ومزيد ميل لعسكر الترك ، يؤثرهم بالاحسان والمودة والقرب ، ويرى أنهم بِطانته ووقايته ، شأن الملوك مع حاميتهم . وبالغ في الالتحام بهم حتى إنه اتخذ لنفسه بيتا في قِشْلة البشامقية ، يأتيها اذا كان بتونس ويتوضّأ بها مثل اختيارات (1) القِشَل . ولهؤلاء الاختيارات غِلْمان من الجند لا يقدرون على حمل السلاح ، يسمّون « أولاد القشلة » ، يخدمونهم ، ويحسن كل اختيار الى من يخدمه ويتأنق في كسوته ، وربما باهى بعضهم بعضا في ذلك . فاتخذ هذا الباي من جملتهم غلمانا يعمرون بيته في القشلة ، وأظهر في ملابسهم المحلاّة والمرصّعة ما لا يمكن لغيره من الاختيارات .

وأظهر سكان هذه القشلة الشُّفوف (2) والترفع على غيرهم من بقية الجند ، فتوغرت صدورهم ، ولا زال ذلك ينمو ، مع هو كامن في نفوس القوم ، من الميل الى كون الامر دولة في أهل العصبيات منهم ، يتلقفونه بينهم تلقّف الكرة ، مثل ولاة الجزائر

---

(1) الاختيار : صنف من رؤساء الجند فى الاصطلاح التركى .
(2) الشفوف : التفوق (دوزى) .

كما تقدم ، لا سيما وقد أشرك معهم في الخدمة الجندية عددا كثيرا من أبنائهم المولودين في البلاد ، بل وغير أبنائهم ، فكان اذا رأى شابا قويّ الجسم من سواد البلاد يقول له : « أبوك تركي ومات ولم يرسم اسمك في الزمام ، وأنت لم تأت لرسم اسمك مع اخوتك هروبا من مشقة الخدمة » ، فيقول له : « يا سيدي أبي فلان وجدّي فلان » ، فتكذبه رؤساء حوانب الترك ، ويشهدون بأن أباه « أزُن محمد » أو « دالي باش » أو « كور علي » ، وغير ذلك من الالقاب التركية ، فيُعْمِل شهادتهم ، ويثبته في ديوان الجند . وهم يأنفون من أبناء اخوتهم الترك ، فضلا عن غيرهم ، ويرون ذلك تضعيفا للعصبية . فأجمع أمرهم ، لذلك ولغيره ، على الفتك به في يوم معيّن لمّا يقدم لتونس ، وان لم يقدم يثورون في الليل . واتفقوا مع بعض نوبات الحصون القريبة ، مثل حلق الوادي ، على الثورة في تلك الليلة . وبلغ خبر ذلك سرًّا لابي العباس أحمد الجزيري باش آغه من مملوكه ، فأودع المخبر في السجن بدار الباشا ، وأتى في الحين للوزير يوسف صاحب الطابع ، وكان بعلُوّه في الحلفاوين قرب جامعه ، وأسرّ له بالخبر ، فأمره أن يتوجه فورا الى باردو ، ويعطّل الباي عن الركوب لتونس بما يمكنه ، بعد أن يقص عليه الخبر ويخبره « بقدومي على الاثر » . ولما وصل باردو وجد الخيل مسرجة تنتظر خروج الباي من قصره ، فدخل ، وأنكر البايُ قدومَه في غير وقت معتاد ، فقال له : « ان صاحب الطابع في أثري » ، تهويلا للامر ، ولما بلّغه الخبرَ جزم باستحالته ، وقال : « لا نسمع مثل هذا في جندي » ، وصمّم على الركوب لتونس ، ولا بدّ ، والقوم في الطريق يترقّبونه فُرادى وثُناءَ ، فحلف عليه أحمد الجزيري يمينا مغلظة يلزمه فيها لازم شرعي إنْ ركب ، فغضب وأمر بردّ الخيل . وأتى يوسف صاحب الطابع فوجده مغتاظا فقال له : « هذا الخبر يحتمل الصدق والكذب ، فان كان كذبا لم يفتك ما تريده من سياسة التحبُّب لجندك ، لان الذي أتى بالخبر في سجن دار الباشا ويحصل مرادك بعقوبته ، وان كان صدقا لم يفتك الحزم ، ولا دواء لاضاعته » .

ولمّا فات القومَ ما دبّروه من الفتك ، حيث لم يقدم تلك العشية ، ثاروا بالليل وفاء بعقدة الاتفاق . واجتمعوا ببطحاء القصبة ، ونهبوا أسواق المدينة ، وكسروا أبواب الحوانيت، وحرقوا بعضها . وطيّر شيخ المدينة ، الحاج حميدة الغمّاد ، بالخبر الى شيخ ربض باب سويقة علي مهاود ، فبعث به الى الباي من الخندق ، وكان ذلك ليلة السبت الثاني

والعشرين (1) من شعبان سنة 1226 ، ست وعشرين ومائتين وألف (11 سبتمبر 1811 م) . وثار في تلك الليلة جند حلق الوادي ، ونهبوا منزل الكاهية به ، ولاذ بالاختفاء فارًّا بنفسه . وثارت نوبة الحمّامات والكاف ، وكانت أخبية المحلة مضروبة بالملاّسين للسفر .

ولما تحقق الباي الخبر ، أركب الوزير يوسف صاحب الطابع الى تونس بمن حضر من عسّة المخازنية بباردو ، وأمره بجمع من بتونس من المخازنية ، وبعث لآل بيته فأتاه جميعهم ، وأخبرهم الخبر ، وانه بادر بارسال يوسف صاحب الطابع الى تونس ، فقال له ابن عمه ابو الفداء اسماعيل باي ، وكان يتكلم بغير روية ، وفي قلبه شيء على الوزير، : « الشك عندنا في هذا الذي بعثته » ، فقال له : « ان القوم ثاروا يطلبون رأسي ، والمطلوب يدافع بما يراه نافعا له ، وقد ظهر لي هذا الرأي ، فان نجح فهو المراد ، وان تحقق ظنّكم وأخذ رأسي فلا يضيع دمي وأنتم أولياؤه ، ومن يقوم مقامي يفعل ما يراه من المصلحة » ، فوجموا .

ولما خرج صاحب الطابع أتى الربض من الخندق ، وتلقاه شيخه علي مهاود ، فأذنه بكسر قفل باب الخضراء ، لان مفاتيح أبواب البلاد تبيت بالقصبة عند الآغة ، وأتى باب قرطاجنة فكسر قفله أيضا ، ودخل المدينة وأتى بطحاء رمضان باي ، ووافته فرسان المخازنية من الحاضرة — والترك في شغل بنهب الحوانيت — وجمّع زواوة ، ولما انبلج الفجر دخل سائر الترك الى القصبة وأغلقوا بابها ، وصرخوا على البلاد ثلاثة مدافع بالكور ، اعلانا بالثورة ، فسرَّ الوزير بكفِّ عاديتهم عن البلاد ، وانحجارهم بالقصبة ، وليس بها من القُوت والبارود ما يكفي لحصر يومين .

وأصبحت أبواب المدينة مغلقة ، عدا باب قرطاجنة . وبعث الوزير الى الباي يبشره بأن القوم سجنوا أنفسهم بالقصبة ، وطلب منه ارسال السلاح والبارود لاهل ربض باب السويقة، فأمر وزيره أبا عبد الله محمد العربي زروق أن يتوجه لاهل ربض باب السويقة بالبارود والسلاح ، ويفرقه فيهم ، ويمسك به .

وشرع الترك من أسوار القصبة يرمون المارّين من أهل البلاد .

---

(1) يوم 22 شعبان 1226 هو يوم الاربعاء لا يوم السبت (التقويم) .

وعمّر الوزير أبراج الحاضرة والجبل الاخضر بزواوة ، ورمى القصبة بالمدافع والبونبة ، وأنكى فيها برج سيدي قاسم الجليزي ، وجعل به في اليوم بنجرا (1) جديدا داخل الباب ، ووضع به مدفعا كبيرا عظمت به النكاية على القصبة ، وهو الذي كسر صنجقها . ودام الحرب يوم السبت وصباح يوم الاحد ، وعند زواله خرج من القصبة نحو الخمسمائة رجل بسلاحهم ، اضطرّهم الجوع ونفاد البارود ، وخرج بقيتهم يتسللون .

وأسرع الوزير بالرجوع الى باردو بعد اطفاء لهيب الفتنة . وأمر الباي باتّباع الهاربين الاولين ، وأركب خلفهم كاهية وجق الصبايحية بتونس ، أبا عبد الله محمد الخماسي ، في خمسمائة فارس ، فأدركهم قرب وادي الطين ، من عمل ماطر ، فأدار بهم الخيل وقتل جميعهم صبرا ، فذهبوا كأمس الدابر ولم ينج منهم أحد ، وأخذوا سلاحهم وأسلابهم ، وتَرَكَ أشلاءهم للوحوش . والى الآن شيء من رميم عظامهم في مصرعهم المعروف .

ولم تسافر المحلة في هذه السنة ، بعد أن بقيت أخبيتها منصوبة خمسة وأربعين يوما.

وعفا عن بقية الثائرين ، وندم على ما صدر منه من تخصيص بعض الجند بزيادة العناية ، وضعف وثوقه بالترك ، وأشرك معهم زواوة في الخدمة .

⁂

وقد عانى أهل المملكة في أيامه من وطأة جند الترك ما عاناه أهل اسلامبول من الينجرية ، لمبالغته في التجاوز عن مسيئهم ، حتى كادت أن تتعطل صلاة الصبح والعشاء بالجوامع في الحاضرة ، لان بعض الفُتّاك منهم يخطفون برانس المصلّين في تلك الظلمة ، ومن دافَعَ يَخشى ضرر النفس .

هذا ولا كأتراك الجزائر ، فان وطأتهم أفظع وأشدّ .

ولاهل حاضرتنا في ذلك حكايات مأثورة . يحكى أن أحد البلكباشية وقع بينه وبين الشيخ العالم الفقيه أبي العباس أحمد بوخريص نزاع أفضى الى تشاجر ، الى أن أغلظ البلكباشي على الشيخ في القول ، فردّ عليه الشيخ ، فأنف من ذلك واشتكى للباي ، فبعث الى الشيخ مع شيخ الربض وحضر البلكباشي ، فقال الباي للشيخ : « يجب أن يكون لاعيان الجند مقام محترم ، وهذا يسمى في الديوان بالاختيار ، من

(1) من الفارسية بمعنى نافذة وثقب .

باب التسمية بالمصدر ، ولا بد لهذه التسمية من معنى يقتضي عدم الردّ عليه ، وانهاء الشكاية به الينا » ، فقال له الشيخ : « هو اختيار وانا اختيار أيضا » ، فقال له : « وانّى لك بذلك ؟ » فقال له الشيخ « هو اختيارك وأنا اختياري ربي ، اختارني لحمل القرآن العظيم وبث العلم الشريف ، واهتدى بي عدد كثير من أمثال هذا ، الى معرفة دينهم » ، فَوَبّخ البلكباشي ، وانصرف الشيخ بسلام .

وكاد الباي أن يقصر الوكالة على الجوامع والمدارس والزوايا وأمناء الصناعات على كبرائهم البلكباشية ، كأن لم يكن في البلاد أمين سواهم ، حتى أن الشاوش اذا صار اختيارا يأتيه طالبا لوكالة ونحوها . الى غير ذلك من ايثارهم ، وميله اليهم كلّ الميل .

ومن شدة عنايته بهم ، أنه في شهر رمضان تخرج منهم طائفة بالليل بمشاعل ولعب يسمّى في البلاد « غولة رمضان » ، فيأتون باردو ويبقى بابه مفتوحا الى خروجهم ، ويحسن اليهم بمال . ويأتون منازل الاعيان من أهل الحاضرة ورجال الدولة بذلك اللّعب ، ويدفع لهم رب المنزل شيئا من المال ، ظاهره احسان وهم يعتقدونه ضريبة ، فأبطلها على الناس من هذه الثورة ، وبقي يدفع ما اعتاد اعطاءه في كل رمضان ، من غير اتيان لباردو ، الى غير ذلك مما هو معروف لدى شيوخ الحاضرة .

وفي يوم الجمعة الحادي عشر (1) من جمادى الاولى سنة 1227 ، سبع وعشرين ومائتين وألف (22 ماي 1812 م) ، توفي الشيخ علي البكري المستحق امامة الجامع الاعظم بنسبه ، وترك ابنه أبا الغيث صغيرا لا نبات بعارضَيْه ، وهو كأبيه ، لا يحسن قراءة ولا معرفة بفرائض الصلاة ، وتكلم الناس في تقديمه عوض أبيه ، لان الامامة بقيت في البيت البكري أكثر من مائة سنة . وأول الايمة منهم تاج العارفين البكري ، ولي سنة 1034 (1624 م) ، أربع وثلاثين وألف ، واستمرت الامامة في بيتهم غيرَ معتبر فيها الا هذا النسبُ ، الى وفاة هذا الشيخ . فقال الباي : « لا تبقى امامة جامعنا الاعظم ملعبة بين الجهّال والاطفال ، وأقدّم من لا يتكلم في تقديمه مسلم ، وهو شيخ الشيوخ ، الجامع بين شرفي النسب والاكتساب ، أبو محمد حسن ابن الامام الشيخ عبد الكبير الشريف » ، فوجم كلٌّ من سمعه ، وأعطى القوس باريها ، وقدم للمحراب صاحبه ، وللمنبر فارسه .

---

(1) هو 10 حسب التقويم .

وفي الثالث عشر من رجب السنة 1227 (الخميس 23 جويلية 1812 م) ، أتـى أسطول حربي من الجزائر لمرسى حلق الوادي محاربا ، عدده تسعة عشر مركبا ، فأركب الباي وزيره أبا المحاسن يوسف صاحب الطابع الى حلق الوادي ، فأخرج لمدافعتهم الشواني ، وكانت يومئذ مائة وخمسة وسبعين ، على كل واحد منها مدفع ، ومنها ما عليه مدفعان ، وانعطبت مراكبهم ، وتعسر عليهم وصول الاثر من مدافعهم الى القلعة ، فأقلعوا بالخيبة ، وصاروا يأخذون ما قدروا عليه من مراكب التجار التوانسة .

حدثني الرئيس الكيس أبو محمد حسونة بن يوسف المورالي ، أنه لما استتمّ حملَ الرُّخام لجامع الوزير يوسف صاحب الطابع ، أعطاه الوزير المركبَ الذي حمل فيه ذلك ، فاتخذه لمعاشه ، وكان يرأسه بنفسه ، فالتقى بمركب حربي للجزائر فأخذه ، اذ لم تكن له قدرة على مدافعته ، وحَمَلَه أسيرا ، وبعث بالمركب الى الجزائر . واتفق أن الماء نفد من مركبهم الحربي ، فالتقوا بفرقاطة للمَرِكان فقصدوها لطلب الماء ، ولا معرفة لهم باللغة ، وأسيرهم حسونة يحسن لغات ، فقدموه مترجما ، وهم يحرسونه ، قال لرئيس الفرقاطة بلغة الانقليز :

— « أنا في أسر هؤلاء القوم ، وقد أخذوا مركبي بما فيه وبعثوا به الى بلادهم ، وبقيت أنا وصندوقي وخديمي ، سهمَ الرئيس من الغنيمة ، وقد نفد ما عندهم من الماء ، فهم يطلبونه منكم ، وأنا أطلب من ذلك الصنجق الحريةَ » .

فعند ذلك طلب المركان طلوعَ المترجم الى مركبه ، فأبوا ، فآذَنَهم بحرب ، فما وسِعَهم الا تسليمُه ، وطلب منهم صندوقه وخديمه ، فسلموهما أيضا ، وبعد ذلك أعطاهم الماء .

ثم ان الرئيس المركان قال له : « نوصلك الى بلادك » ، فاكتفى منه بأن يوصله الى أقرب أرض لها صلح مع تونس ، فأبى الا ايصالَه لبلاده ، وأتى به الى مرسى غار الملح . ولما وصلها هاداه بشيء من صندوقه ، فأبى القبول وأنف من ذلك ، وأنزله ووقف ريثما رآه في البر ، والناس يسلّمون عليه ، وسافر لحينه .

وكان رحمه الله يقول : « أعظم أماني الدنيا عندي ، أن أقابل هذا الرئيس مرة ثانيـة » .

وفي يوم الثلاثاء عاشر (1) شعبان السنة 1227 (18 أوت 1812 م) كَسَّرَ الحجر الذي كان بشاطىء بحر سيدي أبي سعيد المعروف بكرسيّ الصّلاّح ، بفتوى العالم المفتي أبي العباس أحمد البارودي ، وحضر كسره بنفسه ، لان الجهّال كانوا يذبحون به ، ويلقون المذبوح في الماء ، ومنهم من يشترط عدم التسمية . وكان ذلك في عنفوان هرج الوهّابي .

وفي ربيع الثاني من سنة 1228 ، ثمان وعشرين ومائتين وألف (افريل 1813 م) ، توفي الحاج مصطفى أنقليز باي قسنطينة ، وكان في بستانه بمنّوبة . وأمر الباي رجال دولته بشهود جنازته ، وأسف على موته قبل أن يوفّي له بما وعده من رجوعه الى قسنطينة .

وفي المولد النبوي من سنة 1229 ، تسع وعشرين ومائتين وألف (الجمعة 12 ربيع الاول — 4 مارس 1814 م) ، أقيمت صلاة الجمعة بجامع الوزير يوسف صاحب الطابع بالحلفاوين ، وهي أول صلاة أقيمت به ، شهدها الباي ووزراؤه ، وأهل المجلس الشرعي (2) . وأول خطيب به شيخنا العلامة أبو عبد الله محمد ابن العالم المفتي أبي عبد الله محمد ابن العالم المفتي أبي عبد الله محمد بن حسين بيرم . وأول امام به للخمس شيخنا العلامة أبو العباس أحمد الأُبِّي . وأول المدرسين به امام الخمس المذكور ، وشيخ شيوخنا العلامة المحقق أبو عبد الله محمد الفاسي ، ابدأ به تفسير القاضي البيضاوي وشرح السعد للعقائد النفسية ، وشيخنا العلامة الصالح أبو اسحاق ابراهيم الرياحي ، ابتدأ به شرح القسطلاني لصحيح البخاري والمختصر الخليلي ، والفقيه أبو العباس أحمد العوّادي وشيخنا أبو عبد الله محمد بن الخوجة ، درس به تذكرة القرطبي . وأول وكيل به الوجيه الخيّر أبو الحسن علي الباز . وأول شاهد على أوقافه شيخنا الفقيه العالم أبو عبد الله محمد المنّاعي . وأوقف به أربع خزائن من الكتب ، اثنتين لنظر امام الخمس واثنتين لنظر شيخ المدرسة . ودفع ناضًّا للوكيل ما يلزم الجامع من المصرف عامين ، وكان هذا الزائد (3) سببا في اصلاح غيره من الجوامع . واشترط أنه في كل عام يحضر الخطيب وامام الخمس وشيخ المدرسة وشاهد الوقف لحساب الوكيل على جميع الدخل والخرج ، وسيأتي لذلك مزيد بيان في ترجمة هذا الوزير ان شاء الله تعالى .

⁂

(1) هو 9 حسب التقويم .
(2) في ع و ق بزيادة : وصلوا به العصر .
(3) كذا في خ ، وفي ع و ق : الفائد .

وفي الرابع والعشرين من جمادى الثانية سنة 1229 ، تسع وعشرين ومائتين وألف (الاثنين 13 جوان 1814 م) ، ورد البشير من الدولة العلية العثمانية ، بأخذ الحرمين الشريفين من يد الوهابي ، وأعلنت مدافع الحاضرة سرورا بذلك .

ولا بأس أن نلمّ بخبر هذا الوهابي :

وهو أن رجلا يقال له محمد بن عبد الوهاب ، من تلاميذ الشيخ ابن تيمية الحنبلي ، منع زيارة القبور ، حتى قبور الانبياء ، ومنع التوسّل بهم الى الله تعالى ، والبناء على قبورهم وصرّح بكفر من يفعل ذلك وسمّاه مشركا ، زاعما أن الزيارة والتوسل عبادة ، وهي لا تكون الا لله تعالى . وترامت بهذا الرجل الاسفار الى أن استقرّ بالدرعية من أرض نجد ، فصادف بها آذانا واعية ، وقلوبا من العلم خاوية ، وألقى لكبيرهم سعود هذا المذهب ، واستدلّ له بظواهر آيات وأحاديث اغترّ بها عامتهم حتى استباحوا قتال المسلمين . ولم يزل هذا المذهب ينمو الى أن أفضى الامر لسعود بن عبد العزيز بن سعود ، القائم الاول ، فعظم الامر في زمنه ، ونصب حرْبا للمسلمين عموما ، ولاهل الحجاز خصوصا ، وصدهم عن بيت الله الحرام ، وزيارة قبر سيد الانام ، وعاث في أهل الحجاز ، وأطلق يد القتل والنهب فيهم . واستحكم هذا المذهب في قلوب أتباعه ، والتحموا بهُ التحام النسب . واشتدت عصبيتهم وقويت ، فطلبوا غايتها وهي الملك والسلطان . وأقاموا دعاة يدعون الناس الى مذهبهم ، مع رسائل وجّهوها لآفاق المسلمين ، فوصلت منها رسالة للقطر التونسي نصّها :

بسم الله الرحمن الرحيم ، نستعينه ونستغفره ونعوذ به من شر أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهدِ اللهُ فلا مضلّ له ، ومن يُضْلِلِ اللهُ فلا هاديَ له ، ونشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله . من يطعِ اللهَ ورسولَه فقد رَشَد ، ومن يعص الله ورسوله فقد غَوَى ، ولا يَضُرُّ الا نفسَه ولا يَضُرُّ اللهَ شيئا . أما بعد ، فقد قال الله تعالى : « قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » (1) . وقال الله تعالى : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ

(1) س 12/آ 108

ذُنُوبَكُمْ » (1) . وقال الله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » (2) . وقال الله تعالى : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينا » (3) ، فأخبر سبحانه أنه أكمل الدين وأتمّه على لسان رسوله صلىّ الله عليه وسلم ، وأمرنا بلزوم ما أتى به الينا من ربنا ، وترك البدع والتفرّق والاختلاف . وقال تعالى : « اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ » (4) . وقال تعالى : « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيما فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » (5) .

والرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبر بأن أمّته آخذةٌ ما أخذه الامم قبلها شبرا فشبرا وذراعا فذراعا . وأخبر في الحديث أن أمته ستفترق ثلاثا وسبعين فرقةً كُلُّها في النار الا واحدةً ، قالوا : « من هي يا رسولَ الله ؟ » قال : « مَن كان على مثل ما أنا عليه اليومَ وأصحابي » .

واذا عرفت هذا ، فمعلوم ما عمّت به البَلْوَى من حوادث الامور التي أعظمها الإشراكُ بالله ، والتوجّهُ الى الموتى ، وسؤالُهم النصرَ على العدَى ، وقضاءَ الحاجات ، وتفريجَ الكُرُبات التي لا يقدر عليها الا ربُّ الارض والسموات ؛ وكذلك التقربُ اليهم بالنذور ، وذبح القربات ، والاستعانةُ بهم في كشف الشدائد وجلب الفوائد ، الى غير ذلك من أنواع العبادة التي لا تصلح الا لله تعالى .

وَصَرْفُ شيء من أنواع العبادة لغير الله كصَرْفِ جميعها ، لانه سبحانه أغنى الاغنياء عن الشركاء ، ولا يقبل من العمل الا ما كان خالصا لوجهه ، وأخبر أن المشركين يَدْعون الملائكةَ والانبياءَ والصالحين ليقرّبوهم الى الله زُلْفَى ، ويشفعوا لهم عنده ، وأخبر أنه لا يهدي من هو كاذب كَفّار .

وقال تعالى : « وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الارْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » (6) ، فأخبر

(1) س 3/آ 31 — 2) س 59/آ 7 — 3) س 5/آ 3 — 4) س 7/آ 3 — 5) س 6/آ 153 — 6) س 10/آ 18

أن من جعل بينه وبين الله وَسَائِطَ لاجل الشفاعة فَقَدْ عَبَدَهُمْ وأشرك بهم ، وذلك أن الشفاعة كلّها لله كما قال تعالى : « قُلْ للهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعا » (1) و « مَنْ ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بِإذْنِهِ » (2) وقال تعالى : « يَوْمَئِذٍ لاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إلاَّ مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً » (3) . وهو سبحانه لا يرضى الا التوحيدَ ، كما قال تعالى : « وَلاَ يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى » (4) . فالشفاعة حق ، ولا تطلب في دار الدنيا الا من الله ، كما قال تعالى : « وَأنَّ المَسَاجِدَ للهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللهِ أحَداً » (5) . وقال تعالى : « وَلاَ تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إذاً مِنَ الظَّالِمِينَ » (6) . فاذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سيد الشفعاء ، وصاحب المقام المحمود ، وآدَمُ فَمَنْ دونه تحت لوائه ، لا يشفع الا باذن الله ، ولا يشفع ابتداء ، بل يأتي فيخرُّ لله ساجدا ، فيحمده بمحامد يعلّمه اياها ، ثم يقول له : « ارفع رأسك وَسَلْ تُعْطَ واشفَع تشفَّع »، ثم يَحِدُّ له حدًّا فيُدخلهم الجنة ، فكيف بغيره من الانبياء والاولياء ؟ وهذا الذي ذكرنا لا يخالف فيه أحد من علماء المسلمين ، بل قد أجمع عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين والايمة الاربعة وغيرهم ممن سلك سبيلَهم ودَرَج على منهاجهم . وما حدث من سؤال الانبياء والاولياء من الشفاعة بعد موتهم ، وتعظيم قبورهم ببناء القباب عليها وإسرَاجِها والصلاةِ عندها وجعلِ الصدقةِ والنذور لها ، فكل ذلك من حوادث الامور التي أخبر بوقوعها النبي صلى الله عليه وسلم أمَّتَه وحذَّر منها ، كما في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تقوم الساعة حتى يَلْحَقَ حيٌّ من أمتي بالمشركين وحتى تَعْبُدَ أقوام من أمَّتي الاوثان » .

وهو صلى الله عليه وسلم حَمَى جانبَ التوحيد أعظم حماية ، وسدَّ كلَّ طريق موصل الى الشرك ، فنهى أن يجَصَّصَ القبرُ ويبنى عليه ، كما ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر ، وثبت فيه لفظ : أنه بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأمره أن لا يَدَعَ قبرا مشرفا الا سوَّاه . ولذلك قال غير واحد من العلماء: «يجب هدم القباب المبنية على القبور» ، لانها أسِّست على معصية الرسول صلى الله عليه وسلم .

---

(1) س 39/آ 44 — 2) س 2/آ 255 — 3) س 20/آ 109 — 4) س 21/آ 28 — 5) س 72/آ 18
(6) س 10/آ 106

فهذا هو الذي أوجب الاختلاف بيننا وبين الناس ، حتى آل الامر الى أن كفّرونا وقاتلونا واستحلّوا دماءنا وأموالنا ، حتى نصرنا الله عليهم وظفرنا بهم ، وهو الذي ندعو الناس اليه ونقاتلهم عليه ، بعد ما نقيمُ عليهم الحجة من كتاب الله وسنة رسوله واجماع السلف الصالح من الايمة ، ممتثلين لقوله تعالى : « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلهِ » (1) . فمن لم يُجِب الدعوةَ بالحجة والبيان ، دعوناه بالسيف والسِّنان ، كما قال الله تعالى : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ ، وَأَنْزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ » (2) .

وندعو الى اقامة الصلاة وايتاء الزكاة وصوم شهر رمضان وحجِّ بيت الله الحرام ، ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، ولله عاقبة الامور .

فهذا ما نعتقده وندين الله به ، فمن عمِل على ذلك فهو أخونا المسلمُ ، له ما لنا وعليه ما علينا .

ونعتقد أيضا أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم لا تجتمع على ضلالة ، وانه لا تزال طائفةٌ من أمته على الحق منصورة ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ، حتى يأتيَ أمر الله ، وهم على ذلك . انتهى .

ولا يخفى أن هذا الرجل ، بنى شُبهته على أن التوسل الى الله ببركة الانبياء فمَنْ دونَهم عبادة ، والعبادة لا تكون الا لله ، ومن فعل ذلك فقد أشرك بالله . وما درى أن العبادة الشرعية هي التكاليف التي اشتملت عليها الشريعة ، سواء كانت معقولة المعنى أو تَعَبُّدِيّة ، وأن ما خرج عن التكاليف الشرعية ليس من العبادة في شيء . ولم يفرّق بين البدعة الموصلة الى الكفر ، المقتضي للقتال ، واستباحة الدماء والاموال ، وبين غيرها ، وانما قصد ملكا يريد الحصول عليه بعصبية دينية .

ولما شاعت هذه الرسالة في القطر التونسي ، بعث بها الباي أبو محمد حمودة باشا الى علماء عصره ، وطلب منهم أن يوضّحوا للناس الحقّ ، فكتب عليها العلاّمة المحقق ، نسيجُ وَحْدِهِ ، أبو الفداء اسماعيل التميمي ، كتابا مطوّلا بديعا ، يدل على يد طُولى

(1) س 8/آ 39 — 2) س 57/آ 25

وسعة اطّلاع ، سماه « المنح الالهية في طمس الضلالة الوهّابية » ، وأجاب عنها العلامة المحقق فخر عصره أبو حفص عمر ابن المفتي العلامة فخر المذهب المالكي أبي الفضل قاسم المحجوب ، برسالة بديعة مشتملة على الردّ عليه ، في قصده الذي صرح به والذي أشار اليه ، وهي المطابقة لمقتضى الحال ، نذكرها عوض ما أضربنا عنه من المقامات ، وأشعار التكسّب التي لا تفيد الا التقربَ للممدوح . ونصُّها :

رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (1) ، رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (2) . يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ، إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (3) . يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلاَئِدَ وَلاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ (4) .

أمّا بعدَ هذه الفاتحة ، التي طلعت في سماء المفاتحة ، فانك راسلتَنا تزعُم أنك القائم بنُصرة الدين ، وانك تدعو على بصيرة لِمَا دعا اليه سيّد الاولين والآخرين ، وتحثّ على الاقتفاء والاتّباع ، وتنهى عن الفرقة والابتداع ، وأشرت في كتابك الى النهي عن الفرقة واختلاف العباد ، فأصبحت كما قال اللهُ تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الارْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ (5) .

وقد زعمت أن الناس قد ابتدعوا في الاسلام أمورا ، وأشركوا بالله من الاموات جمهورا ، في توسلهم بمشاهد الاولياء عند الازَمات ، وتشفّعهم بهم في قضاء الحاجات ، ونذر النذور اليهم والقربات ، وغير ذلك من أنواع العبادات ، وان ذلك كله اشراك برب

(1) س 7/آ 89 — 2) س 10/آ 85 و 86 — 3) س 5/آ 105 — 4) س 5/آ 2 — (5) س 2/آ 204 و 205

الارضين والسموات ، وكفر قد استحللتم به القتال وانتهاك الحرمات ، ولعمر الله أنك قد ضلَلْتَ وأضْلَلْتَ ، وركبت مراكب الطغيان بما استحللت ، وشنّعت وهوّلت ، وعلى تكفير السلف والخلف عوّلت ، وها نحن نحاكمك الى كتاب الله المحكَم ، والى السنن الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

أما ما أقدمت عليه من قتال أهل الاسلام ، وإخافة أهل البلد الحرام ، والتسلط على المعتصمين بكلمتي الشهادة ، وأدمتم اضرام الحرب بين المسلمين وايقادَه ، فقد اشتريتم في ذلك حُطام الدنيا بالآخرة ، ووقعتم بذلك في الكبائر المتكاثرة ، وفرّقتم كلمة المسلمين ، وخلعتم من أعناقكم ربْقة الطاعة والدين ، وقد قال الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا إذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إلَيْكُمُ السَّلَمَ لَسْتَ مُؤْمِنا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ » (1) ، وقال عليه الصلاة والسلام : « أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله — أي محمد رسول الله — فاذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم ، الا بحقّها ، وحسابهم على الله » .

وحيث كنت لكتاب الله معتمدا ، ولعماد سنته مستندا ، فكيف بعد هذا — ويحك — تستحلُّ دماء أقوام بهذه الكلمة ناطقون ، وبرسالة النبي صلى الله عليه وسلم مصدّقون ، ولدعائم الاسلاَم يُقيمون ، ولحوزة الاسلام يحمون ، ولعبدة الاصنام يقاتلون ، وعلى التوحيد يناضلون ، وكيف قذفتم أنفسكم في مهواة الالحاد ، ووقعتم في شقّ العصا والسعي في الارض بالفساد ؟ .

وأما ما تأوّلته عليهم من تكفيرهم بزيارة الاولياء والصالحين ، وجعلهم وسائطَ بينهم وبين رب العالمين ، وزعمت ان ذلك شنشنةُ الجاهلية الماضين ، فنقول لكم في جوابه : معاذ الله أن يعبد مسلم تلك المشاهد ، وأن يأتي اليها معظما تعظيم العابد ، وأن يخضع لها خضوع الجاهلية للأصنام ، وأن يعبدها بسجود أو ركوع أو صيام ، ولو وقع ذلك من جاهل لانتهض اليه ولاة الامر والعظماء ، وأنكره العارفون والعلماء ، وأوضحوا للجاهل المنهج القويم ، وهدوه الصراط المستقيم .

---

(1) س 4/آ 94

وأما ما جنحت اليه ، وعولت في التفكير عليه ، من التوجه الى الموتى وسؤالهم النصرَ على العِدى ، وقضاءَ الحاجات ، وتفريجَ الكربات ، التي لا يقدر عليها الا ربُّ الارضين والسموات ، الى آخر ما ذكرتم ، مُوقِدا به نيرانَ الفُرقة والشتّات ، فقد أخطأت فيه خطأ مبينا ، وابتغيت فيه غير الاسلام دينا ، فان التوسل بالمخلوق مشروع ، ووارد في السنة القويمة ليس بمحظور ولا ممنوع ، ومشارعُ الحديث الشريف بذلك مفعَمة ، وأدلّته كثيرة محكمة ، تضيق المهارق عن استقصائها ، ويكِلُّ اليَراع اذا كُلف باحصائها ، ويكفي منها توسلُ الصحابة والتابعين ، في خلافة عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، واستسقاؤهم عام الرمادة بالعبّاس ، واستدفاعُهم به الجدبَ والباس ؛ وذلك أن الارض أجدبت في زمن عمر رضي الله عنه ، وكانت الريح تذرو ترابا كالرماد لشدة الجدب ، فسميت عام الرمادة لذلك ، فخرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالعباس بن عبد المطلب يستسقي للناس ، فأخذ بِضَبْعَيْه ، وأشخصه قائما بين يديه ، وقال : اللهم إنّا نتقرب اليك بعمّ نبيّك ، فانك تقول وقولك الحق : « وأمّا الجِدارُ فكانَ لِغُلامَيْنِ يَتيمَيْنِ في المَدينَةِ وكانَ تَحتَهُ كَنْزٌ لَهُما وكانَ أبُوهُما صالِحا» (1) ، فحفظتَهما لصلاح أبيهما ، فاحفظ اللّهُمَّ نبيّك في عمّه ، فقد دنونا به اليك مستغفرين ، ثم أقبل على الناس وقال : استغفروا ربّكم انه كان غفّارا ؛ والعباس عيناه تنضحان يقول : اللهم أنت الراعي لا تُهْمِلِ الضالّةَ ولا تدَعِ الكَسيرَ بدار مَضْيَعة ، فقد ضرع الصغير ورقّ الكبير وارتفعت الشكوى ، وأنت تعلم السر وأخفى ، اللّهم فأغِثْهُم بغياثك قبل أن يقنَطوا فيَهْلَكوا ، انه لا ييأس من رَوْحك الا القومُ الكافرون ، اللهم فأغِثْهم بغياثك فقد تقرّب القومُ إليك بمكانتي من نبيك عليه السلام » ، فنشأت سحابة ، ثم تراكمت ، وماسَتْ فيها ريح ، ثم هزّت ، ودرّت بغيثٍ واكِفٍ . وعاد الناس يتمسّحون بردائه ويقولون له : هنيئا لك ساقيَ الحرمين .

فأخبِرْني — يا أخا العرب — هل تكفُرُ بهذا التوسل عمرَ بن الخطاب أميرَ المؤمنين ، وتكفّر معه سائرَ من حضر من الصحابة والتابعين ، لكونهم جعلوا بينهم وبين الله واسطةً من الناس ، وتشفّعوا اليه بالعباس ، وهل أشركوا بهذا الصنيع مع الله

(1) س 18/آ 82

غيرَه ، وما منهم الا من أنهضته للدين القويم غَيْرَة . كلاَّ والله ، وأقسم بالله وتالله ، بل مكفِّرهم هو الكافر ، والحائد عن سبيلهم هو المنافق الفاجر ، وهم أهدى سبيلاً ، وأقوم قيلاً . وقد قال عليه الصلاة والسلام : « اقتدوا بمن بعدي ، أبي بكر وعمر » . واذا قدحت في هذا الجمع من الصحابة الذين منهم عثمان بن عفان وعلي ابن أبي طالب وغيرُهما ، فمن أين وصل لك هذا الدين ، و[من] رواه لك مبلغاً عن سيد المرسلين ؟ ثم ما تصنع يا هذا في الحديث الآخر الذي رواه مسلم في صحيحه مرفوعا للنبي صلى الله عليه وسلم في أوَيْس ، وأنه أخبر به عليه الصلاة والسلام وهو من أعلام النبوءة ، وأمر عمر بطلب الاستغفار منه ، وأنه طلب منه ذلك واستغفر له . وقد قال الله تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام : « يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ » (1) .

فالزائر للأولياء والصالحين اما أن يدعو الله لحاجته ، ويتوسل بسرِّ ذلك الولي في إنجاح بُغيته ، كفعل عمر في الاستسقاء ، أو يستمدَّ من المَزُور الشفاعةَ له وإمدادَه بالدعاء ، كما في حديث أوَيْس القَرَنِيِّ ، اذ الاولياء والعلماء كالشهداء أحياء في قبورهم ، انما انتقلوا من دار الفناء الى دار البقاء .

فأيُّ حرج بعد هذا يا أيها القائم للدين ، في زيارة الاولياء والصالحين ؟ وأي منكر تقوم بتغييره ، وتقتحم شَقَّ العصا وإضرام سَعِيره ؟ ولعلك من المبتدعة الذين ينكرون أنواعا كثيرة من الشفاعة ، ولا يثبتونها الا لاهل الطاعة ، كما أنه يلوح من كتابك انكار كرامات الاولياء ، وعدم نفع الدعاء ، وكلها عقائد عن السنّة زائغة ، وعن الطريق المستقيم رائغة .

وقولكم ان ما قلتموه لا يخالف فيه أحد من المسلمين ، افتراء ومَيْن ، والحاد في الدين ، لان أهل السنّة والجماعة ، يثبتون لغير الانبياء الشفاعة ، كالعلماء والصلحاء وآحاد المؤمنين ، فمنهم من يشفع للقبيلة ومنهم من يشفع للفِئَام من الناس ، كما ورد أيضا أن أويس القرني يشفع في مثل ربيعة ومضر . وأما المعتزلة فانهم منعوا شفاعة غير النبي صلى الله عليه وسلم ، وأثبتوا الشفاعة العظمى من هول الموقف ، والشفاعةَ للمؤمنين المطيعين أو التائبين في رفع الدرجات ، ولم يثبتوا الشفاعة لاهل الكبائر الذين لم يتوبوا ، في النجاة من النار ، بناء على مذهبهم الفاسد من التكفير بالذنوب ، وأنه يجب عليها التعذيب .

(1) س 12/آ 97

وأما ما جنحت اليه من هدم ما بُنِيَ على مشاهد الاولياء من القباب ، من غير تفرقة بين العامر والخراب ، فهي الداهية الدهياء والعظيمة العظمى من الظلم ، التي أضلك الله فيها على علم ، « وَمَنْ أظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أنْ يَدْخُلُوهَا الاَّ خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » . (1)

وكأنك سمعت في بعض المحاضر ، بعض الاحاديث الواردة في النهي عن البناء على المقابر ، فتَلَقَّفْتَه مجملا من غير بيان ، وأخذته جُزافا من غير مكيال ولا ميزان ، وجعلت ذلك وَلِيجَةً الى ما تقلدته من العسف والطغيان ، في هدم ما على قبور الاولياء والعلماء من البنيان . ولو فاوضت الايمة ، واستهديت هداة الامة ، الذين خاضوا من الشريعة لُجَجَها ، واقتحموا ثَبَجَها ، وعالجوا غِمارَها ، وركبوا تَيَّارَها ، لاخبروك أن محلَّ ذلك الزجر ، ومطلع ذلك الفجر ، في البناء في مقابر المسلمين ، المعدَّة لدفن عامّتهم لا على التعيين ، لِمَا فيه من التحجير على بقية المستحقين ، ونبش عظام المسلمين. وأما ما يبنيه المسلمون أو الكفّار في أملاكهم المملوكة لهم ، ليَصِلوا بمن يُدْفَن هناك حبلَهم ، فلا حرج يلحقهم ، ولا حِرْمة ترهقهم . فكما لا تحجير عليهم في بناء أملاكهم دُورا أو حوانيت أو مساجد ، كذلك لا حرج عليهم في جعلها قبابا أو مقامات أو مشاهد .

ثم ليتك اذ تلقفت ذلك منهم ، ووعيته عنهم ، أن تعيد عليهم السؤال ، وتشرح لهم نازلة الحال ، وهل يجوز بعد النزول والوقوع ، هدم ما بني على الوجه الممنوع ، وهل هذا التخريب محظور أو مشروع . فاذا أجابوك أنه من معارك الانظار ، ومحل اختلاف العلماء والنُّظّار ، وأن منهم من يقول بابقائه على حاله ، رعيا للحائز في اتلاف ماله ، وأن له شبهة في الجملة تحميه ، وفي ذلك البناء منفعة للزائر تَقِيه . ومنهم من شدد النكير ، وأبى الا الهدم والتغيير . فاذا تحقق عندك هذا ، فكيف تقدم هذا الإقدام وتخوض مزالق الاقدام ، وتطلق العنان في هدم كل مقام ، من غير مراعاة إِلٍّ في الدين ولا ذمام . فاذا انفتحت لك هذه الابواب ، نظرت بنظر آخر ليس فيه ارتياب ،

(1) س 2/أ 114

وهو أن المنكـر الذي اقتضى نظرُك تغييرَه ، ليس متفقا عليه عند أهل البصيرة ، وأنه من مدارك الاجتهاد ، وقد سقط عنك القيام فيه والانتقاد . ثم بعد الوصول الى هذا المقـام ، أعد نظرا في ايقاد نار الحرب بين أهل الاسلام ، واستباحة المسجد الحرام ، واخافـة أهل الحرمين الشريفين ، والاستهوان لاصابة لعنة الله والملائكـة والناس أجمعين ، فسيتضح لك أنك غيَّرت المنكـر في زعمك ، وبحسب اعتقادك وفهمك ، وأتيت بجمل كثيرة من المناكـر ، وطائفة عديدة من الكـبائر ، آذيت بها نفسك والمسلمين ، وابتغيت بها غير سبيل المؤمنين ، وتعرضت بها لاذاية الاولياء والصالحين ، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام ، في حديث رواه البخاري والامام ، قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله عز وجل قال من عادَى لي وليًّا فقد آذنني بحرب » ، فكـفى بالتعرض لحرب الله خطرا ، وقذفا في العَطَب وضررا .

واما إنكـار زيارة القبور ، فأي حرج فيها أو محظور ، وأي ذميمة تطرقها أو تعروها ، مع ثبوت حديث « كـنت نهيتكـم عن زيارة القبور فزوروها » ، فان هذا الحديث ناسخ لما ورد من النهي عن زيارتها ، وماحٍ لما في أول الاسلام من حماية ألامة من أسبـاب ضلالتها ، لقرب عهدها بجاهليتها ، وعبادة أصنامها وآلهتها . وكـيف تمنع من زيارتها ، والنبي صلى الله عليه وسلم قد شرعها ، وسَامَ رياضَها وأرْبُعَها ، فقد ثبت في حديث عائشة أم المؤمنين ، أنه صلى الله عليه وسلم زار بقيع الغَرْقَدِ واستغفر فيه لموتى المسلمين ، وثبت أيضا أنه زار قبر أمه آمنة بنت وهب واستغفر لها .

وأخذ بذلك الصحابة والتابعون ، ودرج عليه العلماء والسلف الماضون ، فقد ثبت في الاحاديث المروية عن أيمة الهدى ، ونجوم الاقتداء ، أن فاطمة سيدة نساء العالمين زارت عمها سيد الشهداء ، وذهبت من المدينة الى جبل أحد ، ولم ينكـر من الصحابة أحد ، وهم اذ ذاك بالمدينة متآمرون ، وعلى اقامة الدين متناصرون . أفتجعل هؤلاء أيضا مبتدعين ، وأنَّهم سكـتوا عن الابتداع في الدين ؟ كـلا والله ، بل يجب علينا اتّباعهم ، ومن أدلة الشريعة إجماعُهم .

وقد مضت على ذلك العلماء في جميع الاقطار ، وانتدبوا بأنفسهم للاستمداد من قبور الصلحاء ، وقضاءِ الاوطـار ، وخلّدوا ذلك في كـتبهم ومؤلفاتهم ، وسطـروه في

دواوينهم وتعليقاتهم ، وقسموا الزيارة الى اقسام ، وأوضحوا ما تلخص لديهم بالادلة الشرعية من الاحكـام .

وذلك أن الزيارة ان كانت للاتعاظ والاعتبار ، فلا فرق في جوازها بين قبور المسلمين والكفار ، وان كانت للترحم والاستغفار من الزائر ، فلا منع فيها الا في حق الكافر ، فان الشريعة أخبرت بعدم غفران كفره ، وعليه حملوا قوله تعالى : « وَلاَ تُصَلِّ عَلَىَ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ » (1) . وان كانت الزيارة لاستمداد الزائر من المزور ، وتوخي المكان الذي فضله مشهور ، والدعاء عند قبره لامر من الامور ، فلا حرج فيها ولا محظور ، بل هو مندوب اليه ، ومرغّب فيه ، وانه مما تشدُّ المطيُّ اليه ، ومن خالف في هذا الحكم سبيل جمهورهم ، واتّبع من الشبهات مخالف منشورهم ، فقد شدد العلماء في النكير عليه ، وسددوا سهام النقد اليه ، وأشرعوا نحوه رماح التضليل ، وأرهفوا له سيوف التجهيل ، واتفقت كلمتهم على بدعته في الاعتقاد ، وثنوا اليه عنان الانتقاد ، « ومَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ».

وأما النهي الوارد في شد المطيّ لغير المساجد الثلاثة فانما هو بالنسبة لنذر الصلاة فيها ، فانه لا يختلف ثواب الصلاة لديها .

وأما المزارات فتختلف في التصريف مقاماتها ، وتتفاوت في ذلك كراماتها ، وذلك لسرٍّ في الاستمداد والامداد لا تطّلع عليه ، وضُرِبَ بسُور له باب بينك وبين الوصول اليه ، وقد أوضح ذلك حجّة الاسلام ، ومن شهد له بالصدّيقيّة العلماء والاولياء العظام .

وأما ادماجكم لقبور الانبياء في أثناء النكير ، والتضليلُ لزائرها والتكفير ، فهو الذي أحْفَظَ عليكم الصدور ، وأتْرَعَ حِيَاضَ الكراهة والنفور ، وسدد اليكم سهام الاعتراض ، وأوقد شُوَاظ البغض والارتِمَاض .

فقل لي — يا أخا العرب — هل قمت لنصرة الدين أم لنقض عُرَاه ، وهل أنت مصدق بالوحي لنبيه أم قائل: إنْ هو الاّ إفْكٌ افتراه ؟ وما تصنع بعد اللّتَيَّا والتي ، في حديث « من زار قبري وجبت له شفاعتي » ؟ وأخبرني هل تَضَلَّل سليمان بن داود

(1) س 9/ آ 84

في بنائه على قبر الخليل ، ومن معه من أنبياء بني اسرائيل ؟ وما تقول — ويحك — في الحديث الذي رواه جهابذة الرواة ، وصحّحه المحدّثون الثقات ، وهو أنه صلى الله عليه وسلم قال : « لمّا أسري بي الى بيت المقدس ، مرّ بي جبريل على قبر ابراهيم عليهما السلام ، فقال لي إنزل فصلّ هنا ركعتين ، فان ههنا قبرَ أبيك ابراهيمَ عليه السلام» ؟ وعنه صلى الله عليه وسلم في الحديث الآخر أنه قال : « من لم تُمْكِنْه زيارتي فليزُرْ قبر ابراهيم الخليل عليه السلام » . فأين تذهب بعد هذا يا هذا ؟ وهل تجد لنفسك مدخلا أو معاذا ؟ وهل أبقيت بعد تضليل جميع الانبياء ملاذا ؟ « رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إنَّكَ أنْتَ الوَهَّابُ » . (1)

وأما تلميحكم للاحاديث التي تتلقفونها ، ولا تحسنونها ولا تعرفونها ، فَهِمْتُم بسبب ذلك في أودية الضّلالة ، ولم تَشِيمُوا بها الا بُرُوقَ الجهالة ، وسلكتم شِعابَها من غير خبير ، ونَحَوْتُم أبوابَها بلا تدبُّر ولا تدبير ، فان حديث « لا تتخذوا قبري مسجدا » ، مَحْمَلُه عند البخاري على جعله للصلاة متعبّدا ، حفظا للتوحيد ، وحماية للجاهل من العبيد ، لان المصلّيَ للقبلة يصير كأنه مصلٌّ اليه ، فحمى صلى الله عليه وسلم حِمَى ذلك من الوقوع فيه . وأما قصده للزيارة والاستشفاع ، والاستمداد ببركته والانتفاع ، وقصد المسلمين اياه من سائر البقاع ، فما يسعنا الا الاتّباع .

وكذلك ما لوّحْتَ به الى شدّ الرّحال ، فانك أخطأت في الاستشهاد به في نازلة الحال ، وذلك أن الحصر في المساجد ، دون سائر المشاهد .

وكذلك ما لمحت اليه من حديث تعظيم القبر باسراجه ، فانك أخطأت فيه واضح منهاجه ، مع بهرجة نقده في رواجه ، ومَحْمَلُه — على فرض صِحّته — على فعل ذلك للتعظيم المجرّد عن الانتفاع للزائرين ، أما اذا كان القصد به انتفاعَ اللائذين والمقيمين ، فهو جائز بلا مَيْن .

وأمّا ما تدّعونه من ذبح الذبائح والنّذور ، وتبالغون في شأنها التغيير والتنكير ، وتصف ألسنتكم الكذب ، وتثيرون في شأنها الهرج والشغب ، فكون الذبائح المذكورة مما أهِلّ به لغير الله مكابَرةٌ للعيان ، وقذفٌ بالافك والبهتان ، فانّا بلونا أحوال أولئك الناذرين ، فلم نر أحدا منهم يسمّي عند ذبحها اسم وليّ من الصالحين ، ولا يلطّخ

(1) س 3/آ 8

الضّرائح ، بدم تلك الذبائح ، ولا يأتون بفعل من الافعال ، الحاكمة على تحريم الذبيحة والاهلال .

وأما نذرها لتلكم المزارات ، فليس على أنها من باب الديانات ، ولا أن من لم يفعل ذلك يكُنْ ناقص الدين في العادات ، وانما يقصدون بذلك مقاصد الرُّقَى والنُّشُر(1) ، والانتفاعَ في الدنيا بسرٍّ في التصدق بها استتر ، ولم يدر منها الا ما اشتهر .

والواجب علينا وعليكم الرجوع في حكم نذرها الى العلماء الاعلام ، المتضلعين من دراية الاحكام ، المقيمين لقسطاسها ، المسرجين لنبراسها ، الناقبين على أساسها ، ومن لديهم محكُّ عَسجدِها ونحاسِها .

فان كنتم للحق تقيمون ، ومن مخالفة الشريعة تتجرمون ، « فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ » ، « وَلاَ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ » ، فانهم يهدونكم السبيل ، ويفتونكم في هذه المسألة بالتفصيل ، وأنَّ هذا الناذرَ ان نذر تلك الذبائح للوليِّ المعيَّن بلفظ الهدي والبَدنة ، فقد جاء بالسيئة مكان الحسنة . ولكن ما رأينا من خلع في هذا المحظور رَسَنَه ، ولاَ من اهتَصرَ فَنَنَه ، وإنْ نذر تلك الذبائح لمحل الزيارة ، بغير هاته العبارة ، وكان من الذبائح التي تقبل أن تكون هديا ، فهل يلزمه أن يسعى به لذلك المزار سعيا ، أو لا يلزمه الا التصدق به في موضعه رعيا ، خلاف في مذهب مالك شهير ، قرره العلماء النحارير . وان كان ذلك النذر مما لا يصح إهداؤه ، فالقاصد للفقراء الملازمين بمحل الشيخ يلزمه بعثه وإنهاؤه ، والقاصد للوليِّ في نذره وتشرعه (2) ، لا يلزمه الا التصدق به في موضعه .

واذا اتضح لديك الحال ، فأي داعية للحرب والقتال ؟ وهل يتميز المشروع من هذه الصور بالمحظور ، الا بالنيات التي لا يعلمها الا العالم بما في الصدور ؟ والله انما كلفنا بالظاهر ، ووَكَلَ اليه أمرَ السرائر . ولم يقيّض بالخواطر نقيبا ، ولا جعل عليها مهيمنا من الولاة ولا رقيبا .

---

(1) النشرة بضم النون : ضرب من الرقية والعلاج ، يعالج به من كان يظن ان به مسا من الجن (النهاية لابن الاثير)

(2) تشرع : اتبع شريعة او دينا (دوزى)

وإذا التزمت سدّ الذريعة بالمنع من المشروع ، خوفا من الوقوع في الممنوع ، فالتزم هذا الالتزام ، في سائر العبادات الواقعة في الاسلام ، التي لا تفرقة فيها بين المسلم والكافر ، الا بما انطوت عليه الضمائر . فان المصلي في المسجد يحتمل أن يقصد عبادة الحجارة ، بمثل ما احتمل صاحب الذبائح والزيارة ، والصائم يحتمل أن يقصد بصومه تصحيح المزاج ، أو المداواة والعلاج ، والمزكي يحتمل أن يقصد مقصداً دنيويا ، أو معبودا جاهليا ، والمحرم بحجٍّ أو عمرة ، يحتمل أن ينوي ما يوجب كفره .

وإذا وصلت الى هذا الالتزام ، نقضت سائر دعائم الاسلام ، والتبس أهل الكفر بأهل الايمان ، وأفضى الحال الى هدم جميع الاركان ، واستبيحت دماء جميع المسلمين ، وهدمت صلواتهم ومساجدهم وصوامعهم أجمعين .

فانظر أيها الانسان ، ما هذا الهذيان ، وكيف لعب بك الشيطان ، وماذا أوقعك فيه من الخسران . فارجع عن هذا الضلال المبين ، وقل ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمْنا لنكونن من الخاسرين .

وأما ما جلبتم من الاحاديث الواردة في تغيير النبي صلى الله عليه وسلم للقبور ، وأنه أمر علي بن أبي طالب رضي الله عنه بطمسها وتسويتها ، فقد أخطأتم الطريق في فهمها ، ولم يأتيكم نبأ علمها ، ولو سألتم عن ذلك ذويه ، لاخبروكم بأن محمله طمس ما كانت الجاهلية عليه ، وكانت عادتهم اذا مات عظيم من عظمائهم ، بنوا على قبره بناء كَأُطُمٍ من آطامهم ، مباهاة وفخرا ، وتعاظما وكبرا ، فبعث صلى الله عليه وسلم من يمحو من الجاهلية آثارها ، ويطمس مباهاتها وفخارها ، والا فلو كان كما ذكرتم ، لكان حكم التسنيم (1) كحكم ما أنكرتم .

وإذا استبان لكم واتضح لديكم ، انقلبت الحجة التي أتيتم بها عليكم ، وكيف تجعلون تلك الاحاديث حجة قاضية ، على وجوب كون القبور ضاحية (2) ، والفرق ظاهر بين البناء على القبور ، وحفر القبور تحت البناء ، فالاول من فعل الجاهلية الوارد فيه ما ورد ، والثاني هو الذي يعوزكم فيه المستنَد ، ولا يوافقكم على تعميم النهي احد .

(1) تسنيم القبر خلاف تسطيحه ، وقبر مسنم اذا كان مرفوعا عن الارض (اللسان)

(2) الضاحي من كل شيء البارز الظاهر (اللسان)

وأما ما نزعتم اليه من التهديد ، وقرعتم فيه بآيات الحديد ، وذكرتم «أن من لم يُجب بالحجة والبيان ، دعوناه بالسيف والسنان» ، فاعلم يا هذا أننا لسنا ممن يعبد الله على حرف ، ولا ممن يفرُّ عن نصرة دينه من الزحف ، ولا ممن يظن بربه الظنون ، أو يتزحزح عن الوثوق بقوله تعالى : « فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ » (1) ، ولا ممن يميل عن الاعتصام بالله سرًّا وعلنًا ، أو يشك في قوله تعالى : « قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا » (2) ، وما بنا من وهن ولا فشل ، ولا ضعف في النكاية ولا كسل ، ننتصر للدين ونحمي حماه ، وما النصر الا من عند الله .

وأما ما جال في نفوسكم ، ودار في رؤوسكم ، وامتدت اليه يد الطمع ، وسوّلته الاماني والخدع ، من أنكم من الفئة الذين هم ومن حالفهم ، لا يضرُّهم من خالفهم ، وأنكم من الطائفة الظاهرين على الحق ، وأن هذه المناقب تساق اليكم وتحقُّ ، فكلاّ وحاشا أن يكون لكم في هذه المناقب من نصيب ، أو يصير لكم ارثها بفرض أو تعصيب ، فان هذا الحديث وان كان واردا صحيحا ، الا أنكم لم تُوَفُّوا طريقه تنقيحا ، فان في بعض رواياته « وهم بالمغرب » وهي تحجبكم عن هذه المناقب ، وتبعدكم عنها بعد المشارق من المغارب .

فانفض يديك ، مما ليس اليك ، ولا تمدّنّ عينيك ، الى من حُرِّمت عليك ، فانكاح الثّريا من سهيل ، أمكنُ من هذا المستحيل .

أما أهل هذه الاصقاع ، والذين بأيديهم مقاليد هذه البقاع ، فهم أجدر أن يكونوا من اخواننا ، وتمتدُّ أيديهم الى خوّانها ، لصحة عقائدهم السُنيَّة ، واتباعهم سبيلَ الشريعة المحمّدية ، ونبذهم للابتداع في الدين ، وانقيادهم للاجماع وسبيل المؤمنين .

وقد أنبأتنا في هذا الكتاب ، وأعربت في طيِّ الخطاب ، عن عقائد المبتدعة ، الزائغين عن السنة المتّبعة ، الراكبين مراكب الاعتساف ، الراغبين عن جمع الكلمة والائتلاف ، فالنصيحةُ النصيحةُ ، أن تنزع لباس العقائد الفاسدة وتتسربل العقائد الصحيحة ، وترجعَ الى الله وتؤمن بلقاه ، ولا تكفِّرَ أحدا بذنبٍ اجتناه . فان تبتم فهو خير لكم ، وان توليتم فاعلموا أنكم غير معجزِي الله .

(1) س 7/آ 34 — (2) س 9/آ 51

وزبدة الجواب وفذلكة الحساب ، انك ان قفوت يا أخا العرب نصحك ، وأسوت بالتوبة جرحك ، وأدملت بالانابة قرحك ، فمرحبا بأخي الصلاح ، وحيهلا بالمؤازر على الطاعة والنجاح ، وجمع الكلمة والسماح ، وان أطلت في لجة الغواية سبحك ، وشيدت في الفتنة صرحك ، واختلت عارضا رمحك ، فان بني عمك فيهم رماح ، وما منهم الا من يتقلد الصفاح ، ويجيل في الحرب فائز القداح .

والله تعالى يسدد سهام الامة الساعية فيما يحبه ويرضاه ، ويخمد ضرام الفئة الباغية حتى تفيء الى أمر الله . والسلام .

وبعث حمودة باشا بهذه الرسالة الى القائم الوهابي فلم يجب عنها . ولج في حروبه وقتاله ، الى أن كانت الهزيمة آخر حاله ، على يد رجل الدنيا وواحدها الطائر الصيت في جهات المعمور ، من رد الله به مصر الى شبابها ، رد شباب امرأة العزيز ليوسف الصديق ، وهو أبو عبد الله محمد علي باشا ، عزيز مصر ، رحمه الله .

***

رجع

الى أخبار الباي أبي محمد حمودة باشا

كان عزيز النفس ، ثاقب الفكر ، ومع ذلك لا يستغني عن مشورة رجال دولته في جليل الامور وحقيرها ، ولا يأنف من الرد عليه ، ويقول : « الخطأ مع الجمهور أحب الي من الاصابة وحدي » . وكثيرا ما ينشد قول القائل :

الرأي كالليل مسود جوانبه   والليل لا ينجلي الا باصباح
فاضمم مصابيح آراء الرجال الى   مصباح رأيك تزدد ضوء مصباح

فهو في هذه الحالة كملوك القانون مع أنه من ملوك الاطلاق ، وكان يعاني من وزيره أبي المحاسن يوسف صاحب الطابع مرارة الرد عليه ، ويقول له : « يا يوسف انك لا تعيش مع غيري نصف سنة » ، فكانت كالجفر (1) .

(1) علم الجفر يسمى علم الحروف ، وهو علم يدعى اصحابه انهم يعرفون به الحوادث الى انقراض العالم (اقرب الموارد)

ومما اتفق له في محاذاة ملوك القانون ، أن والده لما كان بالجزائر ، نذر أن يبعث شيئا من الزيت لمقامات الصالحين بها ، ووفى بنذره مدة حياته ، وكان صاحب الجزائر يأخذ أكثره ، وهو يتغافل عن ذلك .

ولما توفي انقطع النذر بوفاة الناذر ، ولم يبعث ابنه حمودة باشا شيئا من ذلك ، فطلبه صاحب الجزائر فأبى ، فشكاه الى الدولة العثمانية بما محصله : « ان صاحب تونس كان يبعث مقدارا من الزيت لاعانة عسكر المسلمين بالجزائر ، والآن إبْنُه امتنع » . وكان الزيتون قليلا في الجزائر يومئذ لقلّة آمال الناس لسبب العدوان على أموالهم ، فبعث السلطان رسولا مخصوصا في النازلة من أهل القلم ، بمكتوب يحرض فيه على وصل الأُخوّة الاسلامية بالتعاون على البر ، فقال للرسول : « ان أهل المملكة أبَوْا ذلك ، وأنفوا منه ، ورأوه ضريبةً ، ونجمعهم لتسمع جوابهم » ، فجمع من الغد رجال الدولة ، وأعيان الجند ، في بيت الباشا بباردو ، وأحضر الرسول ، وقال لهم بحضرته : « لا بأس باعانة اخواننا المسلمين بشيء من الزيت ، وهو لا يضرُّنا ، لا سيما وقد نَدَبَنا مولانا السلطان لذلك ، وهذا رسوله » ، فأجابه أبو الحسن علي بلهوان ، من أعيان الجند ، وكان يومئذ خلياً عن خطة : « لا يقع ذلك أبدا ، وان كان لك زيت يخصّك فافعل به ما شئت ، أما هذا الزيت فهو للبلاد ولا نظر لك فيه الا بالمصلحة ، وأي مصلحة في اخراج شيء من بلادنا لقوم يرونه ضريبةً علينا ، والسلطان أولى منا باعانة المسلمين » . فأعاد عليهم الكلام ، فأجابوه على لسان واحد بالامتناع ، فأعاد عليهم الكلام فقالوا له : « السلطان أولى منّا باعانة المسلمين ، ونحن منهم ، لا غناء لنا عن اعانته » ، وعلت أصواتهم ، فقال له الرسول : « لا فائدة في اعادة الكلام ، الا إلجاؤهم الى سوء الادب ، وحسبك أن تكتب للدولة بامتناع الناس ، وعلي أن أبلّغ ما وقع بمحضري » .

ومن أخباره أنه يكره السرف في غير مصلحة معتبرة ، حتى نسب الى شُحٍّ ، ولا شك أنه من الامانة ، لان ما في يده من المال هو في الحقيقة لمصالح العباد والبلاد ، لا لشهواته ، ويقول في مجالسه غير مرة : « ندمت على بناء دار القصبة — وهي الدار المنتفع بها الى الآن — وعلى بناء قصر منّوبة اذ لا يعود على البلاد منهما نفع ، بجلب مصلحة أو دفع مضرة ، سوى ما يظهر للرائي من فخامة المبنى وحسن المنظر » . ولقد كان يوما في قصر منّوبة يتنزه ، فجمع مشترِي ثمرِ النارنج الحلو مقدارا كثيرا بالبطحاء

قبل جعله في الاحمال ، فأعجب بكثرته اعجابا كثيرا ، فقال له وزيره سليمان كاهية ، منكرا عليه كثرة الاعجاب : « اذا أتانا العدوّ نرميه من مدافعنا بهذا البردقان » ، فتنفس الصّعداء وقال : « والله لولا قبح الاُحدوثة في الجمع بين خسران البناء وخسران الهدم لهدمته الآن » .

ومن أخباره في ذلك أنه صنع وليمة لختان أبناء أخيه وأخته ، وباشر بعضَ لوازمها نسوةٌ من اليهود ، ولما حان دفع أجرهن قالت له أمه — وكان بارًّا بها — : « هؤلاء اليهوديات خدمن في دار التُّومي الشوّاشي ، وأخذن أجرَهن ثلاثمائة ريال » ، فقال لها : « لسنا مثلَ دار التُّومي » ، فقالت له : « نعم ، أنت باي البلاد ، والتُّومي رجل من أهلها » ، فقال لها : « ليس هذا مرادي ، وانما المراد أن التومي يتصرف في ماله كما يحب لانه ثمرة عمله ، وتِلاد آبائه ، والمال الذي تجول فيه أيدينا ، ليس لنا ، بل هو للمملكة وأهلها ، ونحن وكلاء ، فليس لنا الا ما للوكيل من التصرف بالمصلحة » .

ومن أخباره الدالة على وفور عقله ، أنه لا يفتح أذنا لاطراء المادحين ويقول : « من مدحك بما ليس فيك ، جدير أن يذمّك بما ليس فيك ، وأنا أعلم منه بنفسي ، وحالة بلادي ، وتصرُّفُ الملوك تابع لحال المملكة ، ويقبح بالانسان أن يجهل مقداره ويتعدّى أطواره » .

كلّمه وزيره يوسف صاحب الطابع في مصلحة ، واستدل عليها بعمل اسلامبول ، فقال له : « أنت عندي أعقل من هذا ، تونس تونس ، واسلامبول اسلامبول ، أعطني عُشُرَ دخلها ، وأنا أُرِيكَ كيف أصنع ، ومن شرط القياس المساواة » .

وكلّمه مملوكه مريان في أمر له تَعَلُّقٌ بنبليون الاول ، فقال له : «أنا أعلم منك بمقام نبليون ، وما يجب في سياسته ، وعلى كل حال فأنا الآن لا أخشاه ، لانه مشغول بما هو أهم عنده وأعظم منّا ، ولا تصلنا النوبة الا بعد أن يتهنّأ من دولة آل عثمان ، وأين تونس من الممالِك المتصدي لحربها نبليون ، وأنا لا أجهل قدري ولا أغالط نفسي ، وهو أعظم من أن يظنّ بنا عدم الاكتراث به » .

وله في حب الوطن ، وهداية أهله الى طرق النجاح ، آثار مشهودة ، منها أنه لا يتباهى الا بعمل البلاد ، من لبس نسجها شعارا ودِثَارا ، كنسج سوسة والحمّامات والجريد وجربة ، وما يصنع بالحاضرة من نسج الحرير الصرف والمختلط .

ولقد أصبح في يوم عيد بموكبه على سرير إمرته ، وعلى رأسه طيلسان من عمل جربة ، فكلّمه خاصّتُه في ذلك فقال لهم : « هو عندي أفخر من الكشمير المجلوب، لان ثمنه لم يخرج من البلاد » .

ولما رآه وزيره رئيس الكتبة أبو عبد الله محمد الاصرم ، اختفى حتى نزع طيلسانه الكشمير ، واستعار طيلسان الشيخ أبي الحسن علي الغزّاوي شيخ مدرسة باردو ، لانه من نسج جربة .

ودخل عليه في اليوم أعيان التجار والشوّاشية يهنّئونه بالعيد ، فخجلوا حين رأوه ، والناس على دين أميرهم ، وعلموا غور الرجل .

ولم يلبث أن اقتفى الناس اثره في ذلك ، سمعت من أبي الربيع سليمان بن الحاج ، وكان من أعيان عمّاله ، قال : « دخلت المحكمة في مبادىء خدمتي بكسوة ثمينة وحزام محلّى ، فنظر إليّ نظرَ غَضبٍ ، وكرّر النظر إليّ ، فتحيّرت ، ولما انفضّ الديوان تقدمت اليه وقلت له : يا سيدي انك نظرت الي اليوم نظر غضب ، ولم أعلم ذنبا ، وها أنا بين يديك ، فقال لي : ذنبك سوء تدبيرك لنفسك ، فلو لبست ما يقيك ولا ينافي مروءتك ، وجعلت فضل زينتك هذه في تجارة أو فلاحة تكسبك ثروة تتجمل بها بين أقرانك . والحلية للنساء لا للرجال ، وحلية الرجل ماله وأعماله » . فخرج يردّد النصيحة ، وبالغ في العمل بها الى أن توفي من الاغنياء .

ومن أخباره أنه يقول في مجالسه علنا ، ويشتهي أن يُنْقَل عنه : « لا أبغض احدا من أهل بلادنا الا البطّال الذي لا نفع فيه للوطن ، ولو برعي البقر » .

ويكره التصدق على الفقير القادر على التكسب ببدنه ويقول : « ان طلب الرزق بالاسباب الممتهَنَة لا يكسبه معرّة ، ولا مذلّة توازي مذلّة السؤال » .

وكان يباشر الفلاحة بهنشير المرناقية ، ويركب غالبا في كل أسبوع ، ليقتدي به غيره في مباشرة أموره ، لا للتكسّب ، بل ربّما وسّع بها على الضعفاء من أهل تلك الجهة ، فكان يبيع لهم الحبوب والانعام لآجال واسعة ، بقيمة الحال ، ويسلّفهم عند الاحتياج .

وأقبلت الناس في دولته على الفلاحة والمتاجر والصناعات ، وكثر العمران ، ونمت الاموال ، وظهرت الثروة .

وكانت البطالة في أيامه سُبَّة . سمعت من الوجيه الرئيس أبي محمد حسونة المورالي وكان من أعيان جند البحر ، قال : « استأذنت حمّودة باشا في السفر للتجارة ، وسافرت في مركب أملكه ، فتعرض لي مركب أنقليز فأخذني ، ولم يكن بينهم وبين تونس حرب يومئذ ، وألقونا على ساحل البحر ، فرأينا الحياة غنيمة ، فأتيت دار ملكهم لندرة ، وطلبت حقي ، ولم أعلم اسم الرئيس الذي أخذني ولا صفته ، وغاية ما علمت اسم المركب ، وكان مكتوبا في مؤخره ، وأن الصنجق أنقليز ، فكان من عدل هذه الدولة ان قدّمت وكيلها للمناضلة عن حقي في مجالس الحكم ، وبعثت الى سائر أماكنها التي تصنع فيها السفن ، تسأل عن اسم هذا المركب ، ولمن صنع وفي أي تاريخ ، واستعملت سائر الطرق الموصلة لاظهار الحق في النازلة ، والقوم من أهل الانصاف، فظهر أن هذا الرئيس توفي ، وثبت صدقي ، وألزموني يمينا على مصحف من القرآن العظيم ، في مقدار ما ضاع من المركب وما فيه ، فتحريت وحلفت ، وأخذت من مخلّفه قيمة ما ضاع لي ، وما صرفته لاظهار حقي ، وهذا شأن دول العدل . ثم خدمت مترجما في عسكر الانقليز لما توجّه لمصر ، وطالت مدة غيبتي . ولما رجعت أتيت الباي حمودة باشا ليأمر لي بمكتوب في مرتّبي من يوم قدومي ، على العادة ، ولما وقفت بين يديه قال له الحاج أحمد بن عمار ، باش حانبه : ان هذا غاب مدة في خدمة النصارى ، وأتى الآن يطلب تسريح مرتّبه ، فاستفهمني الباي ، فحكيت له القصة على طولها ، فأثنى على هذا العدل من هذه الدولة . ثم قلت له : يا سيدي ان ظهر لك طرحي من الجند فاني أتيت بأربعة عشر ألف ريال دُورُو عَيْنا ، دون ما معي من السلعة ، وهو فوق الكفاف ، فقال لي : لا نطرح أمثالك ، وقال للحاج احمد باش حانبه : لا تعيّر الرجال بالخدمة ، انما العار بالبطالة . وأمر لي بمكتوب في سائر مرتّبي مدة مغيبي ، وكان مبلغا وافرا . وقال لي : هذا ليس بعادة ، وانما نفعله معك ومع أمثالك من رجال الدنيا . وهبك خدمت النصارى ألست بمؤمن ؟ فقلت له : خدمتهم وأنا مؤمن ، ولا زلت مؤمنا والحمد لله » .

ومن أخباره أن له عناية بمعرفة أفراد الحاضرة بأسمائهم ، وصناعاتهم ، وحالاتهم ، بل مساكنهم وحوانيتهم ، ويتمدح بذلك . أتاه رجل من العطارين شاكيا بأن العشّار لم يقبل منه عُشُرَ قمحه ، وتعلل بأنه مَعيب ، فقال له : « انه من عين ما رزقني الله من الصابة » ، فامتنع . فقال له باش حانبه : « ان هذا من العطارين » ، فقال له : « نعرفه » ، وسمّاه وعيّن حانوته ، وهي الثالثة من رأس السوق . وبعثَ للعشّار من يقول

له : « لا تتسبَّبْ في مَسْلك الغيث عنّا ، واقبَلْ العشر من الصابة على أي حال كان » . والعشّار يومئذ من خواصّه المقرَّبين ، مصطفى الارْنَوُوط . الى كثير من أمثالها .

ومن مآثره أنه يحتمل الهفوة ، وتؤثر فيه كلمة الحق . سمعت من أبي أن رجلا يقال له الحاج عتيق ، من أهل الدَّخلة بالوطن القبلي ، وكان ذا مال ، اقتضى ما نُسِبَ اليه من الذنب عقوبةً ماليةً قدرها خمسون ألف ريال ، فعيّن من اختاره من الحوانب لاستيفائها منه ، وكتب بذلك أمرَه ، وأمر باحضاره من السجن فقال له : « قد سرحتك ، وتوجّهْ الى خلاص ما عليك مع الحوانب المأمورين بالخلاص منك » ، فقال له : « ان كسب أمثالنا أنعام وحبوب ، وسُوقُها في هذا الشتاء كاسدة ، فأَنْظِرْني الى زمن الربيع لابيع فيه كسبي وأخلّصك ، ويبقى لي ما يسدُّ رمقي » ، فقال له : « لا بدّ من الخلاص الآن » ، فقال له الحاج عتيق : « لا اله الا الله ، أنا صابر عليك الى يوم القيامة ، وأنت لا تصبر لي ثلاثة أشهر ، فقال له : « وكيف ذلك ؟ » فقال له : « لا بدّ أن تُسأل يوم القيامة عن أخذ مالي ، وعدل الله لا يضيعني » ، فاسترجع وخاف سطوة القاهر فوق عباده ، وأمر والدي ، وكان واقفا بين يديه لختم تذاكر بيت خزنه دار : « ضع التذاكر ، واكتب له أمر إسقاط » ، فكتبه في الحين والرجل واقف ، فأخذه وختمه بنفسه وناوله اياه من غير واسطة ، وقال له : « ان عدت لمثل فعلك تكون العقوبة بدنية » . فخرج شاكرا داعيا .

ومن مآثره ، أن الفقيه أبا عبد الله محمد الصفار ، شيخ القراء بحزب السبع (1) في جامع الزيتونة ، خرج لبيع غلة زيتونه بالوطن القبلي ، ولما رجع بالثمن ومرّ بحمّام الانف ، وجد أفرادا من جند الترك يترقبونه ، فقاموا اليه ، وأنزلوه عن ظهر بغلته باجلال ، ومعه عبد له على حمار ، وأخذوا ما يحمله من المال ، ثم أركبوه وقالوا له : « ان فُهْتَ بكلمة قتلناك » ، فأتى الحاضرة بعد الغروب ، وكان أبيَّ الضيم ، فبات يتقلب على جمر الغضا ، وأصبح بين يديه شاكيا . وكان من عادة أمثاله الاعيان تقبيلُ يد الامير عند الدخول عليه ، فلم يفعل ذلك ، ووقف في موقف أمثاله المتظلمين . فقال له باش

(1) قراء الحزب الكبير المعروف بالسبع الذى يقرأ بمحراب جامع الزيتونة بعد صلاة الصبح ويختم فيه القرآن العظيم ختمة فى كل جمعة ، وهم يزيدون على المائه ، منقسمون الى سبع طوائف ، كل طائفة لها يوم من ايام الاسبوع (الباشى)

جانبه : « تكلم أيها الشيخ ان سيدنا يسمعك » ، فقال له الشيخ : « سيدك أنت ، أما أنا فلا سيادة له عليّ حتى يكون حاميا لديني ونفسي ومالي ، أينهبني جنده قرب الحاضرة ، وأدين له بالسيادة ؟ » ، ثم قص شكايته ، وقال له في آخرها ، لما يعلم من ميله لجند الترك : « ان لم تنصفني فورائي من ينصفني ، وهو الله الذي أقعدك هذا المقعد ، ونحن خلقه وعبيده » ، فتغيّر وقال له : « امكث بمحلك حتى نبعث اليك » ، وأخذ يفكر في المتّهمين من الجند ، وبعث الى الاختيارات بالقشل يسألهم عمن خرج للصيد في ذلك اليوم ، وحضّ جواسيسه ، واستعمل غاية الحزم والجهد ، حتى ظفر بهؤلاء المحاربين ، واستخلص منهم المال بعينه . وقتل من تكرر ذلك منه ، ونفى آخرين ، وضرب واحدا وسجنه ، وكان صغيرا ، وتوفي لقريب من هذا العهد ، وبعث الى الشيخ الصفار قبل مُضيّ أسبوع ، ولما وقف بين يديه قال له : « أن أمانتك في بيت خزنه دار ، فامض لقبضها » . ولما عدّها وجدها تنقص ستين ريالا ، وكانت أربعة آلاف ريال . فرجع له وقال : « بقي من مالي ستون ريالا » ، فقال له : « اعترف صاحبك بصرفها وقد قتل » ، فقال له : « خلصني من مخلّفه » ، فقال له : « أنا ندفع عنه ونتولى مخلّفه » ، وأمر له بها في الحين . ولما قبضها قال له مباسطا : « أتدين لي بسيادة الآن ؟ » قال : « نعم ، أدين بها لوجود شرطها » .

ومنها أنه حضر بين يديه متظلم من عامل فتغافل عنه ، وكانت عادته أن يتغافل عن شكاية المتظلمين ، ثم يأمرهم باعادتها ، ليستدل على قربها من الصدق باعادتها على نسق واحد ، من غير تناف ولا اضطراب ، وذلك من قرائن الاحوال . ثم أمر المتظلم باعادة الشكاية وتغافل عنه . وفي الثالثة ضرب الرجل سارية بالمحكمة وقال لها بأعلى صوته : « اشهدي لي أيتها السارية بين يدي ربي أني رفعت شكايتي لحمودة باشا فتغافل عنّي »، فارتاع واغرورقت عيناه وقال له : « أُدْنُ مني » حتى أجلسه أمامه مجلسَ نَجِيٍّ ، فرفع الرجل صوته بظلامته ، شأن كل مظلوم ، فقال له : « إخفِضْ من صوتك فها أنا أسمعك ، ووضع يده على رأسه وهو يقول له : « ها أنا أسمعك وهذه يدي على رأسك » ، حتى قرر قصته ، وفهمها ، وأنصفه . ولما خرج تابعه النظرَ حتى تجاوز السارية ، فقال له : « ارجع الى السارية وأشهدها بما عندك كما أشهدتها أولا » ، فرجع وضربها قائلا : « اشهدي عليّ ان حمودة باشا أنصفني » .

ومن مآثره رحمه الله أنه كان شديدا على العمال ، وغالبهم في هذا القطر التونسي موضع للشدة ، بشهادة الله . يأخذ في الشكاية منهم بالظِّنَّة ، وشواهد الحال ، والقرائن الحافّة ، كأصحاب التّهم ، لتعسّر الثبوت على طرقه الشرعية . يباشرهم بسياسة تخرج الحقّ منهم ، ويستدل بفعل عمر رضي الله عنه .

وطلب من شيخ الاسلام أبي عبد الله محمد بن حسين بيرم أن يؤلف له كتابا في السياسات الشرعية ، فألف له رسالته المشهورة .

وهو مع ذلك يوليهم على مشارطة مالية ، المسمّاة بالاتفاق كما تقدم ، الا أنه لا يغفل عن مقداره ، ومقدار ما يبلغه من أخذ العامل . ولكل عامل شيعة في عمله ، وهم المشايخ والهواديك ومن على شاكلتهم ، يجعل لهم طُعمةً مما يأخذه ، سهمَ الكلب من المائدة ، فتجد هؤلاء يمدحونه بما ليس فيه ، الا أنه لا يلتفت الى مدحهم ، ويقول : « انه رطّب لهم السير » ، كنايةً على ما يجعل لهم من الطعمة .

وجلوسه انما هو لسماع الشكايات من العمّال الذين لا تمتدُّ اليهم يد غيره فيما يتعلق من (1) مباشرة أعمالهم ، ونوازل التعدي من الحرابة وقطع الطريق والسرقة وما أشبه ذلك .

أما نوازل المعاملات بين الناس فلا يسمعها بوجه ، لان نظرها للقضاة ان كانت بين المسلمين ، وللاحبار ان كانت بين اليهود .

ونوازل المتجر نظرها للعشرة الكبار ، وهو مجلس التجارة .

ونوازل الفلاحة لامنائها .

والجنايات الخفيفة يباشرها الداي بالحاضرة ، وله الرخصة في سجن الجاني بالكراكة(2) أو ضربه ثلاثمائة فقط ، واستمرّت هذه العادة .

وكاهية دار الباشا يباشر ما خفّ من الامور بضواحي الحاضرة الى وادي مجردة .

ويباشر آغة القصبة الغصب على الحقوق الثابتة بالرسوم ، مثل الديون عند مَطْلِها ، وكذلك آغة العسكر المعروف بآغة الكرسي ، فانه يخلّص الدين الثابت بحجة ، ولا يسمع من المطلوب بحجة جوابا ، لما يأخذ على ذلك من الاجر المسمى بالخلاص .

(1) كذا في خ و ع و ق

(2) الكراكة : كلمة تركية بمعنى سجن في ميناء يسجن فيه المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة (دوزي)

ولا يرفع لحضرة الباي الا ما تقصر عنه أيدي هؤلاء ، مع قلة جلوسه في المحكمة ، لانه يرى الامر وراء ذلك ، بخلاف من جاء بعده ، فان غالبهم يرون الجلوس بالمحكمة هو معنى الولاية وشعار الملك وأُس ّ السياسة .

وكان رحمه الله يعزل العمّال على غير ذنب ، اذا اتفق أهل العمل على الشكاية منه ، ويقول للعامل اذا طلب بيان ذنبه ، مقالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « أما يكفيك انهم شكوك وأنت اسمك قائد أي تقود بالسياسة القلوب الى الطاعة ، واذا لم تقدر على سياستهم لنفسك حتى اشتكوا ، فكيف تقدر على سياستهم لي » . أما اذا اختلف أهل العمل بين قادح ومادح ، عمل بقول الاكثر منهم . وأكثر عمّاله على أعراب الخيام من الشُّوّاش (1) والاضة باشية الذين يقفون بين يديه في المحكمة ويسمعون شكايات الرعية من العمّال ، ويرون شدّته عليهم .

وكان له في غالب العروش أعيان من مشايخهم وأبناء زواياهم ، يعرف أشخاصهم وأسماءهم وأحسابهم ، ويسميهم في جموعهم كمحمد بن السبوعي في جلاص ، وقطوم ابن محمد ، مَشْوَى القِرَى ورجل الفراشيش ، وأمثالهم ، يسترشدهم في مصالح قبيلهم ، حتى يرى القائد أنهم شبه العيون عليه .

ولهؤلاء الاعيان منزلة عند الوزير ، يستبطن بهم أحوال العمال والرعية ، ويكسوهم ويحسن اليهم ، فتجدهم لا يكتمون النصيحة ولا تؤثر فيهم الطعمة ، خوفا من سقوط منزلتهم .

وكان لا يعزل شيخا الا اذا شكاه الاكثر من اخوته ، ولا يعزله بقول العامل انه غير صالح ، ولا يوليه الا باتفاق الاكثر من اخوته . فالعامل يحرس الرعية من تعدّي المشايخ ، والمشايخ يحرسونها من تعدّي العمّال . واذا اتفق القايد والشيخ بسبب تلك الطعمة ، صاحت الرعية ، فتجد الاذن الراعية .

وقد أولى على عرش أولاد عون حانبه من عجم الترك اسمه أحمد الليالي ، فأحسن السيرة فيهم ، وبقي بمخيّمه بين أظهرهم بضع عشرة سنة ، وتخلق بأخلاقهم البدوية ، وساسهم للعمل في الارض ، وحضّهم على التكسب المعقول ، ومحا من رؤوسهم أنفة الكبر ، حتى أحيَوْا مَوَات وطنهم ، وربط وَادِيَهم ، وكان يعمل فيه بنفسه ، وربما

(1) ج شاوش وهي من التركية : جاوش ، ويكتبها المصريون جاويش وشاويش (دوزى)

تبعه بعض العقلاء من المشايـخ فزرعوا على مائه البقول والمقاثـي والثمار ، حتى تمرنوا وذاقوا حلاوة الكسب . وغصب أهلَ الصحّة على الاعمال البدنية ، فقلّت الجرائم وقلّت بقلّتها العقوبات المالية التي كـان للمشايـخ سهم منها . وغضّ طرفه عنهم وعمّن كـان على شاكـلتهم ، فغصُّوا منه بالريق ، لما يألفونه من طعمة العمّال . وهو لم يأخذ زائدا من أهل العمل حتى يطعمهم منه ، وحسبه الفلاحة والاستعانة بالرعية على أعمالها برضاهم ، مع إطعامهم الطعام . ويقرض الحبوب للضعفاء منهم في المساغب وعند الحاجة . فلاذ المشايـخ باخوتهم وأفسدوا رؤوسهم وقالوا لهم : « ان هذا الرجل اتخذكم أجراء لعمـل فلاحته ، وألبسكم معرّة بين العروش » ، الى غير ذلك من شر الوسواس الخنّاس ، حتى حنّوا الى ما تخلّقوا به ، والرجوع الى الاصل بأدنى سبب ، فصاحوا بالشكـاية منـه مع المشايـخ ، فقال الباي للمشايـخ : « لا بدّ من بيان ذنبه » ، فأجابوه على لسان واحد : « لا ذنب له سوى أننا ملِلْناه وملّ منّا » ، فتقدم التركـي وقال للباي : « ان القوم ربحتُ منهم وربحوا مني ، ولا بد من الفراق في الدنيا ، وأحسنه ما كـان على وجه جميل ، ولا أجمل من اعترافهم في هذا الديوان بأن لا ذنب لي ، وقد سلّمت في ولايتهم » . وقبّل يدَ الباي ، ورجع فوقف بصفّ الحوانب .

وتولى عليهم غيره ، فأخذوا القهقرى ، بعد أن كـانت قبيلتهم تركـب نحو الالفـي فارس ومع كـل فارس راجل ، وجميـع سلاحهم محلّىً بالفضة . وفقدوا الخيل المسوَّمة والانعام والحرث . والله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وسمعت من بعضهم أن والدي قال لبنـي عمه منكـرا عليهم : « بشّروا قومنا بالندم والخيبة ، ومن كـفر النعمـة استوجب النقمة » .

وبهذا ترى أن مشايـخ العربان والعرفاء منهم ، لا ربـح لهم الا مع جور العمّال ، لاجل تلك الطعمة التي يشغلهم بها العامل عن حراسة اخوتهم . وسمعت من أعيان بعض المشايـخ أنهم لا يعيشون الا اذا كـان العامل جائرا .

فانظر أسبـاب الخراب والنقصان في أهل هذه الاقطار من المسلمين .

ومن أخباره أنه لا يولي على القبيلة عاملا منها ، لانه يُوثِـر قرابته ، وتتقـوى بهم شيعته مع المشايـخ والهواديك . وقد طلبه سعد المِجْهِـد ، وكـان سايسا (1) وجيها حظيـّاً عنده ،

(1) اى سـائسـا

أن يُوليّه عمل أولاد عيّار ، فقال له : « انظر غيرها ، فلا أوليك على قبيلة أنت منها » .

ومن أخباره أنه يمنع العمال من السكنى في غير أعمالهم ، ولا يفارق العامل عمله ، ولو للحاضرة ، الا باذن خاص محدّد بمدة ، عدا عمل الاعراض ، فان صاحبها يسافر اليها بمحلة في كل عام ، ويقيم بها ثلاثة أشهر فأكثر ، حتى يستوفي خلاص الجباية ، وعملَ الوطن القبلي لقرب بلدانه من الحاضرة ، وان كانت قاعدة العمل بنابل ، وصاحبه يخرج اليه في كل صيف وشتاء ويقيم بنابل ، وعامل الوسالتية والطرابلسية ، اذ لا وطن لهم لتفرقهم في البلدان والقبائل .

وبقيت هذه العادة الى حدود سنة ستين ومائتين وألف 1260 (1844 م) .

ومن مآثره عنايته بفرسان الجند من الحوانب والصبايحية والمزارقية بالعروش ، وكانت أوجاق الصبايحية في دولته أربعة فقط ، وجق بتونس وعليه باش آغة وكاهية وباش خوجة ، ووجق بالقيروان وعليه آغة وكاهية وخوجة ، ووجق بالكاف مثله ، ووجق بباجة ، على شرط أن كلّ كاهية يسكن ببلد وجقه على أهبة ، ويمرون أمامه فارسا فارسا في كل عام ، ولا أقلّ من خمسمائة فارس في كل وجق . وكان في سنين الجدب يزيد صاعا في علفة كل فرس ، ويقول : « لا تطيب نفس الفارس أن يعشي فرسه ، وأهلُه بالجوع ، وتتعسر عليّ عقوبته ان رأيت فرسه هازلا » .

وأما المزارقية : فله في غالب العروش فرسان عددهم بنسبة عدد القبيلة ، يسمّون مزارقية نسبة للمِزْرَاق وهو عود السنّان . ولهم نزر من المرتب يأخذونه من جباية اخوتهم ، ولا جبايةَ عليهم . ودفتر أسمائهم وأعدادهم بيد الشيخ باش كاتب ، ويعرضون أهبتهم وخيلهم وسلاحهم في كل شتاء على كاهية المحلّة . وهم أشبه بالصبايحية ، يستنفرهم مهما عرض له حرب ، فيأتون ومع كل فارس منهم ترّاس (1) في خيامهم ، ولا يتكلف لهم المؤنة ولا العلف . والقائم فيهم مقام كاهية الصبايحية هو قايد ذلك العرش ، وهم حاميته وأعوانه في عمله ، محترمين احترام الصبايحية . وبهؤلاء دافع أهلَ الجزائر عن الحاضرة ، وطوّع العاصي وخافه القاصي لانه بالمرصاد منهم ومن خيلهم . وكان يعرف خدمتهم وينيلهم من عنايته بمقتضاها .

---

(1) تراس : راجل ، عسكر تراس : العساكر المشاة (دوزى وبوسيه)

اشتكى بعض أعيان العمّال المقربين لديه من دار ابن عياد فارسا من الحوانب أساء عليه الادب ، وقال في شكايته : « يتجاسر عليّ وأنا خديمك » ، والمشكو حاضر ، وكرر المشتكي قوله « وأنا خديمك » . فقال له : « وهو أيضا خديمي » ، فقال العامل : « منزلته عندك كمنزلتي ؟ » فقال له : « نعم ، وهو أنفع ، لانه يبيت في حراستي تحت أديم السماء ، وأبعثه الى الموت فينبعث ، وأنت أشبه الناس بتاجر يشتري الغلّة في أشجارها ، ان رأيت ربحا قدمت والا تأخرت ، وهو الحارس للشجر مثمرا أو غير مثمر » ، وقال للحانبة : « على كل حال لا بدّ من تأديبك لسوء الادب » ، وسجنه . وفي اليوم تشفع فيه المشتكي فسرّحه . سمعت ذلك من الوجيه أبي عبد الله محمد بن حميدة بن عيّاد .

وبذلك تمرّن خدّامه على سياسة الاعمال ، وكثر عددهم . فكان الحانبة في دولته يصلح أن يستكفى به في سياسة عمل ، أحرى مَن فوقه ، لانه يعلم أن النجابة تقدّمه وعدمَها يؤخره ، اذ لا سبب للتقدم في دولته لنيل الرتب والحظوة الا الاهلية لان دولته طالبة للتقدم ، ومطلوبة من الجزائر ، كما أشار لذلك (1) وليّ الدين ابن خلدون في مقدمة كتابه (2) .

وله في أزمنة المساغب آثار مأثورة ، وحسنات مشكورة ، وعنايات مذكورة ، من جلب الميرة من أقاصي البلدان ، وبيعها بأقلّ من ثمنها ، دون ما يعطيه للعاجزين من الفقراء بلا ثمن . وكان يخفف عن العربان في الجباية ، وربما يسقطها في سنين الجدب . وبهذا وأمثاله دانت له قلوب الناس وأُشْرِبوا حبّه .

وفي دولته رجع للمملكة عمرانها ، بل زاد ، بعد تلك الحروب المتقدمة زمن أبيه وجدّه ، وما وقع من نهب البلاد واباحتها مرارا ، كما تقدم تفصيل ذلك .

ومن مآثره احترام الاحباس مطلقا ، لا سيما أحباس الحرمين الشريفين . فقد كان يؤتى له بفاضل دخلها ، وله صندوق معَدٌّ له ، في محلٍّ على حدة يباشر وضع المال فيه واخراجه منه بنفسه ، ويراه خدمة لحرم الله ورسوله ، ولمفتاح هذا الصندوق ظرفٌ أخضر . واتفق أن لزم الوزيرَ صرفُ مال ، ولم يكن حاضرا عنده ، فقال للباي : « نتسلفه من صندوق الحرمين ونردّه اليك بعد عشرة أيام » ، فاقشعرّ بدنه وقال له : « سألتك بالله أن

---

(1) اى لهذه النظرية

(2) خـل : 328

تزيل هذا الخاطر من فكرك ، وترك هذه المصلحة الضرورية التي أقدمتك على طلب السلف من مال الحرمين أهون عليّ ، وأنا أتحرج من سكنى الداي بالدار المعدّة لامثاله ، وهي من أوقاف الحرمين ، بأجر معيّن لا يزيد ، وقد حالت الاسواق وزادت اجارات العقار » ، فكفّ الوزير عن ذلك .

ورأيت في حاشية العلامة المحقق شيخ الشيوخ أبي محمد حسن الشريف على شرح لامية الزّقّاق ، عند ذكر صرف فواضل الاحباس ، بعد استقامتها ، في وجوه البرّ ، ونقل جواب العُقْباني المرجّح لذلك ، اعتمادا على قول أصْبَغ وابن الماجَشُون ، وبه أخذ القاضي ابن رشد ، ما نصه : « ولقد بلغني عن الامير أبي الحسن علي ابن الامير حسين أنه أخذ من وفر حبس الجامع الاعظم سبعة آلاف ريال ، وذلك بسعاية وكيله أبي الحسن علي وِيْشكَة الاندلسي ، كما بلغني عكس ذلك عن ابنه الامير أبي محمد حمّودة باشا ، فقد أتى اليه وكيل السيد الصاحب بسبعين ألف ريال من وفر أحباس السيد المذكور ، فامتنع من قبولها وأمر بمصرفها في سبيل الخير . فجزاه الله خيرا وكفاه ضيرا » . اهـ .

وفي أيام هذا الباي وقع في أطراف الحاضرة خراب سببه الاوبئة والقحط ، فأمر أرباب العقار باصلاح الخراب أو البيع ان عجزوا ، وغصبهم عليه لدفع الضرر ، فتحيّل بعضهم بتحبيسه ، فاحتْرمه احترام الاحباس ، وأمر القاضي الحنفي بنهي الشهود عن كتب تحبيس في عقار الا عن اذنه . فصار من يريد التحبيس يطلب اذنا من الباي للقاضي ليأذن العدول بكَتْبه ، بعد أن يَثبت لديه أن العقار لا خراب فيه ، وأنه على الحالة الكاملة المنتفَع بها .

ومن مآثره تعظيم الشريعة المطهّرة ، والوقوف عند حدودها في المعاملات . فأقام وكيل الخصام ببيت المال وكيلا عنه ، طالبا أو مطلوبا ، يأتي المجالس الشرعية ، ويساوي الطالب للباي في التناصف ، اقتداء بأبيه وجدّه . وقد كان الملتزمون لهناشر الدولة يتعدّون على مجاوريهم بالاستيلاء على أطراف أرضهم ، بدعوى أنها للدولة ، ولاقى الناس من ذلك ضررا ، فصاروا يطلبون وكيله ويحاكمونه وينتصفون منه ، وهو ينظر ، مسلّما غير متحرّج .

ومنها أنه حكّم المذهب المالكي في ثبوت أهلّة الشهور . وكان يشقّ على المته من مقلديه تقليدُ المذهب الحنفي ، حتى كانوا يصومون أو يفطرون سرًّا ، اذ ا

ثبوت ذلك على مذهبهم ، وهم السواد الاعظم . فقال : « كلّهم على هدًى من ربّهم ورحمة ، ويسعنا تقليد امام دار الهجرة ، لاسيما وأهل مذهبه أكثر أهل المملكة » ، فأمر القاضي المالكي أن يباشر ذلك ، ولم يزل هذا الامر ليومنا هذا .

وأخبار هذا الباي مشهورة منشورة مشكورة ، هي سمر شيوخ المملكة وعجائزها . واستقصاؤها يستدعي كتابا مطوّلا . وما وقع في دولته من الحرب ، انكشف عن تفريج كرب ، وتأمين سرب .

ولم تزل المملكة في أيامه ينمو عمرانها ، ويكثر سكّانها ، وتتقوى أعوانها ، وتظهر أعيانها ، ويعظم شانها ، الى أن فجعت بموته فجأة ، ليلة الجمعة ، عيد الفطر من سنة تسع وعشرين ومائتين وألف 1229 (16 سبتمبر 1813 م) .

فكانت مدة ولايته ثلاثا وثلاثين سنة ، وثلاثة أشهر وأياما ، مرّت كليالي السرور ، وهي تمام سن الشباب في هذه الدولة .

وحزنت المملكة لفقده ، وبكته العيون ، وساءت الظنون ، ولاذ الناس بنعشه يحملونه على رؤوسهم ، يتمنّون فداءه بنفوسهم .

ودفن بتربة أبيه ، وانطلقت ألسن الشعراء في مراثيه ، وتعداد مآثره ومعاليه .

وطار المبشر بخبر وفاته لصاحب الجزائر ، فقال له : « هل مات يوسف صاحب الطابع ، وسليمان كاهية ، وهل تبدلت رجال دولته ؟ » فقال : « لا » ، فقال له : « لم يُفقد الآن من تونس الا شخصُه ، ولا يموت مثله ، الا اذا تبدلت رجاله الذين قارَعنا بهم » . هكذا يقال ، من تلوين المقال ، والله أعلم بالحال .

وكل نفس ذائقة الموت . رحمه الله وغفر له ، وتقبل عمله .

الباب الثاني

في دولة

أبي النور عثمان باي

ابن الباشا علي باي بن حسين باي بن علي

مولد هذا الباي ليلة الجمعة الرابع عشر من ذي القعدة سنة ، ست وسبعين ومائة وألف 1176 (27 ماي 1763 م) ، وأمه جارية ، ونشأ في حجر أبيه وأخيه من بعده ، فكان يركب معه ويقف بين يديه وقوف غلمان الخدمة ، على العادة المقررة في هذا البيت من وقوف الصغير عند أمر الكبير .

ولما توفي أخوه فجأة ، ليلة عيد الفطر من سنة تسع وعشرين 1229 ، كما تقدم ، ورجال الدولة مجتمعون بباردو على العادة في ليالي الاعياد ، ودهمهم ما لامردّ له ، وطاشت عقولهم ، وكان ممن حضر تلك الليلة الشيخ المفتي أبو العباس أحمد البارودي خطيب جامع باردو ، والوزير أبو عبد الله محمد العربي زروق ، والوزير أبو عبد الله محمد الاصرم رئيس الكتّاب ، ورئيس الحوانب أحمد بن عمّار ، والقائد حميدة بن عياد ، وغيرهم من أهل الحل والعقد ، وعمتهم المصيبة ، وأدهشهم الحزن على بغتة ، قام الشيخ المفتي البارودي — وكان ثابت الجنان — وأتى الوزير يوسف صاحب الطابع ، وهو جاثم عند أقدام سيده ، يبكي ، فقال له : « ان هذه الامة وديعة الله عندك في هذه الساعة ، والله يسألك عنها ان حدث بها حادث فتنة ، والشوكةُ بيدك . والصحابةُ قدّموا الاجتماع على إمامٍ قبل مُواراة جسد المصطفى صلوات الله عليه . ولِلْبُكاءِ والحزنِ أمدٌ طويل » . وأخذ بيده وأقامه ، واجتمع عليه رجال الدولة ، ومن في باردو من الجند ، فبعث الى سائر آل سيده ، صغير وكبير ، وأدخلهم مسجد بيت الباشا ، وعزّاهم ، ثم قال لهم : « اختاروا من أنفسكم من يتقدم للبيعة ، اذ ليس لنا ولي عهد » ، فوجموا ، وفيهم أبو الثناء محمود باي بن محمد باي ، وهو أكبرهم فقال لهم : « الامر واضح » يعني من تقديم الاسنّ ، « والخيار لكم فيمن تقدمونه لانفسكم » ، فقال الوزير صاحب الطابع : « الميّت يرثه أخوه » ، وقام الى عثمان باي ، فبايعه ، وتابعه الناس .

وَأَلْقَى جسدَه على كرسيٍّ في وسط بيت الباشا ، وأخوه وراءه مُلْقًى في موضع منيّته ، ودعا الحاضرين لبيعته .

وبعث من رجال الدولة أعيانا باتوا بالحاضرة ، وبعث الى الداي وأعيان الجند .

ومن الغد أجلسه بصحن البرج ، وبايعه الناس البيعة العامة ، وسليمان كاهية يومئذ مسافر بالمحلة لباجة .

وأقر رجال الدولة على أسماء مراتبهم ، وزاد في مرتب الجند .

واستكان ابن عمّه أبو الثناء محمود باي ، ولم يدرِ سرّ العدول عنه ، مع سنّه وعدم كفاءة من قدّموه ، فصبر على داء دفين ، وبقي يتربص إمكانَ الفرصة ، ولم يكن لمن قدّموه من الخلال المقتضية للامارة سوى أنه ابن علي باي .

واستبد به الوزير أبو عبد الله محمد الاصرم رئيس الكتّاب ، وباش حانبه الحاج أحمد بن عمار ، لتدبير ملكه وتنفيذ أمره بالمحكمة ، لانه ممن يرى أن الجلوس بها هو معنى الملك ، شأن المستضعفين من الرجال .

واصطفى الشيخ الامام الفقيه أبا الثناء محمود بن باكير ، وأشركه في مشورته ، لصحبة بينهما من المسجد أيام أخيه .

ولازم الجلوس ببيت الباشا ، واتخذ لبابها ساترا ، لا يدخل عليه أحد الا اذا رفع ذلك الستر ، عدا من استبدّ به ، شأن المستضعفين في تغليظ الحجاب ، اذ لا ساتر لهم سواه .

واذا أتى المحكمة يجلس ساكتا لا يفوه ببنت شفة ، وستر السكوت كستر الحجاب ، وباش حانبه يسمع ويلقي اليه ويأمر ، وإذْنُ الباي صَمْتُهُ .

ثم عتق مماليك أخيه ، وخيّرهم بين المُقام معه بباردو أو الانتقال الى الحاضرة . فخرج منهم من خرج مثل سليم خوجة ، وبقي من بقي عند الوزير يوسف صاحب الطابع مثل أبي النخبة مصطفى صاحب الطابع ، فانه اختار الخروج ومنعه الوزير اغتباطا به . وأضافه لخدمة ابن المتولي أبي الفلاح صالح باي ، وحظي عنده .

وفي السادس عشر من شوال (السبت 1 اكتوبر 1814 م.) قدم الوزير سليمان كاهية بالمحلّة ، وبايع الباي ، وامتزج به وبابنه صالح باي ، وقرّباه واعتضدا به .

وفي الثامن عشر من الشهر (الاثنين 3 اكتوبر 1814 م.) ، ظهر للباي أن يقدّم الوزير يوسف صاحب الطابع لخطة خزنه دار ، وألبسه شعارها على عهد أبيه ، فوليها كرها ، لانه تقريب وتنويه في الظاهر ، وتبعيد في نفس الامر .

وقد كان أخوه حمودة باشا أبطل اسم هذه الخطة ، وباشر مسمّاها بنفسه مع وزيره أبي المحاسن ، كما أبطل اسم كاهية دار الباشا ، وأقام فيها الحاج حسن آغة

مباشرا لمسمّاها ، توفيرا وحفظا لمال المملكة عن اضاعته في خطط لا احتياج لها ، شأن أهل الحزم في الاعتناء بالمسمّى لا بالاسماء والالقاب الفارغة ، فذلك من شأن المستضعفين.

وفي الشهر بلغه أن أناسا اتّهموه باستعمال الدخان الاخضر ، وهو المعروف في بلادنا بالتكروري ، فأمر باحراق جميع ما في الحاضرة منه بشاطىء البحيرة ، وباشر ذلك الحاج أحمد باش حانبه ، وضاعت به أموال على أربابها ، وكان ذلك بموافقة رئيس الكتّاب . وبعد احراقه ، فيما زعموا ، أتى الوزير يوسف صاحب الطابع لهذا الباي ناصحا منكرا ، وقال له بمحضر صاحبيه : « يا سيدنا اتّبِعْ سيرة أبيك أوْ سيرةَ أخيك ، أو اجتهد في سيرة توافق المصلحة ، وبَيِّنْها لنا ، لتكون خدمتنا على مقتضاها . ونخشى أن الناس اذا لم يكن لهم منهج مسلوك ينظرون لانفسهم ، والعامة اذا قدرت أن تقول ، قدرت أن تفعل ، وان حرق التكروري ليس كابطال الخمر الذي فعله والدك في آخر أمره ، لانها أمُّ الخبائث باتفاق المسلمين ، ولمّا رأى الناس لا يتحاشون دخول الحانات ، وهي من أملاك الدولة ، أبطل بيعها علَناً في الحانات ، وهو يعلم أن الخمر لا يمكن اجتثاث أصلها ، كيف وهي عند اليهود والنصارى ، وفي ديار بعض المسلمين تعصر وتستقطر ، وكان الاولى أن تنهى الناس عن زرع هذه الحشيشة بارض المملكة ، ومن زرعها بعد النهي فقد تعدّى ، فأحْرقْ بضاعتَه حينئذ ، أمّا أربابها الآن فقد ضاع كسبهم ، من غير شعور عندهم بنهي ، ولا فائدة لك في ذلك ، وفائدة ذلك انما حصلت لباش حانبة ، لان من يعطيه الدراهم يتغافل عنه ، ومن لا يعطيه يحرق متاعه . وابعثْ من تثق به الى الحاضرة تجدْ مخازن مملوءةً منه ، وأنا أعيِّنها له الآن ، والحال أنه أخبرك بأن لم يبق منه شيء بالحاضرة . وهلا اقتفيت سيرة أبيك في اجتماع المجلس الشرعي لديك في كلِّ أسبوع ، لانه كان يتأثّم من فصل النوازل برأيه فيجعلها للشريعة ؟ ولِمَ لَم يرشدك الشيخ باش كاتب لهذه المنفعة التي بها دوام الملك ، كما حسَّن لك حرقَ التكروري ، قياسا على ابطال أبيك لحانات الخمر ؟ » . فسكت حَياءً ، ولم يجبه .

وفي الرابع والعشرين من الشهر (الاحد 9 اكتوبر 1814 م) ، توفي الشيخ الامام المفتي أبو العباس أحمد البارودي ، فأمر بجمع المجلس الشرعي في غرة ذي القعدة ، وأولى شيخنا العلاّمة أبا العباس حميدة ابن الخوجة مفتيا ثانيا ، بعد أن كان قاضيا ، وشيخنا العلامة أبا عبد الله محمد بن محمد بن محمد بيرم مفتيا ثالثا ، وأولى القضاء بالمذهب الحنفي

للشيخ أبي النخبة مصطفى دِنْقِزْلِي ، وأولى الفقيه أبا الفضل قاسم ابن الشيخ الفقيه القاضي المختار المنَكّبي خطة القضاء بباردو ، وسلّم فيها بعد أسبوع ، فأولى عوضه الفقيه أبا النجاة سالم المحجوب . وصار المجلس يجتمع بباردو كل يوم أحد ، على العادة السابقة .

وهذه المعارضة من هذا الوزير أبي المحاسن ، سهل بها الطريق الى السعاية به من المقرّبين للباي ، الا أنهم لم يقدروا على إزالته ، لرسوخ قدمه في الدولة ورجالها ، وانما قدروا على تبعيده ، وتعطيل النفع به ، حتى صار ينكر على رجال الدولة الاتيانَ لمحلّه ويقول لهم : « ان إتيانكم الي يضرُّكم ، واني على يقين بما عندكم » .

وممن عُزل ومنع من الدخول الى باردو في هذه الدولة ، عبد الوهاب بن يوسف الشارني الاضه باشي ، لمكان وُصلته من الوزير ، سافر بين يديه بالمحلّتين بوظيفة باش حانبة ، وكان حمّودة باشا يؤثره من بين أقرانه ، وقدّمه في المحكمة نيابة عن الحاج أحمد بن عمّار باش حانبه ، أيام اشتغاله ببناء القشلة ، وغصّ من ذلك الحاج أحمد بن عمّار باش حانبه ، ولما خلا له الجوُّ وَشَى به ، لامتزاجه بأبي عبد الله حسين باي بن محمود باي ، وانه يُخشى منه ، الى غير ذلك مما يروج عند المغفّلين .

ولم يكن عند هذا الباي من السياسة الا الاقتداء بظاهر سيرة أبيه ، حتى في لباسه ولباس رجال الدولة . وغيّر الزيّ الذي كان على عهد أخيه ، ولم يحرّك فكره في شيء من مواقع القياس ، ولا في ما تقتضيه الحال ، شأن المستضعفين في جمودهم على التقليد المحض . فان أخاه أخا السياسة حمودة باشا ، لمّا تقدم على ابن عمه محمود باي ، أتاه الى داره وقال له : « ان الولاية لك وأنت الاحقُّ بها ، وضعف بدنك عن مشاقّ الاسفار هو الذي قدّمني ، وعلى كل حال ، فأنت بمنزلة أبي ، أعتضد بك ولا أتّهمك في نصح ، واذا لم تَعضُدْني أخشى خروج هذا الامر من بيتنا » . وبالغ في اكرامه وتعظيمه ، وتبنّى أبناءه ، وهم أبناء أخته ، وآثرهم على أبناء أخيه ، وأسند اليهم ظهره ، الى غير ذلك من الاخلاق التي تقود القلوب ، وتوصل الى الامل المطلوب ، مع ما فيه من الاهلية القاضية له بالتقدم ، بشهادة ابن عمه .

وهذا ، لمّا تمّ له ظاهر الامر ، غفل عن ابن عمه وأهمله ، ورآه مثل صغار البيت ، ولم يخصّه بمزية ولو قوليةً ، بل أخرجه من دار سكناه ، التي هي دار علي باي المعروفة

في باردو بالدار الكبيرة — وكان حمودة باشا آثَرَ بها أخته ، زوجَ ابن عمه محمود باي ، وكان يأتيها كل يوم ، صلةً للرحم — فانكسر قلب أخته مع بنيها . وليته اذ أخرجها أسكنها بمحل يأويها ، بل أخرجها من سعة الى مضيق ، وفقدت ما اعتادته من صِنْوِها الشقيق ، ورأت حالتها الفظيعة ، مقدمة جيش القطيعة ، حتى قال عالم المالكية وصدر الفتوى أبو عبد الله محمد المحجوب ، منكرا خروج بنت علي باي من دارها : « لو ثار محمود باي كنت أوّل ثائر معه بما أقدر عليه » ، اذ لا داعي لذلك الا تقليد أبيه في سكنى الدار ، مع ما فعل من تشريد خاصة أخيه وابعادهم ، وان لم يضرَّ أحدا منهم في نفسه ولا ماله ، بل كان يجاملهم في الظاهر .

وقَصَرَ أمورَ الدولة على رجلين ، وترك بقية رجال الرأي والنجدة والبسالة في زوايا الاهمال ، فاشتغل كل واحد بخُوَيْصَّة نفسه كأنه من عامة الناس ، ونفرته قلوبهم ، وزهدوا في التقرب اليه .

واشتغل ابنه الاكبر بالركوب للمرناقية وغيرها ، ومعه سليمان كاهية ، لانه كان ممنوعا من الخروج من باردو الا مع عمه (كذا) .

وظهر الانحلال في دولته قبل استحكام روابطها ، وصار الناس لا يتحاشون من الكلام فيه والاعتراض عليه .

واختار أناسا لمسامرته ومجالسته ، ليسوا من أهل العلم ولا من أهل السياسة ، وان كانوا من أماثل الحاضرة . وكان أبوه يسامر العلماء وأهل النجدة والرأي من ذوي الخطط .

وفي غرة محرم من سنة ثلاثين 1230 (الاربعاء 14 ديسمبر 1814 م) ، مرض بدمّل في قفاه ، وكان المرض مخوفا ، فأتى ابنه أبو الفلاح صالح باي ، وكلّم الشيخ باش كاتب وباش حانبه ، في شأن العهد له من أبيه ، لما أحس بموته ، مع ما يعلم من استجماع محمود باي للوثوب ، فقالا له : « لا بدّ أن يكون معنا سليمان كاهية » ، فقال لهما : « قد وافقني في ذلك » ، فقالوا للباي : « الرأي أن تقدم ابنك سيدي صالح باي للسفر بالمحالّ ليكون وليّ عهدك ، وتقرَّ عينك وعيوننا بتقديمه في حياتك ، كما فعل أبوك مع أخيك » ، فقال سليمان كاهية : « نعم الرأي هذا ، الا انه لا يتمُّ الا بموافقة الوزير يوسف صاحب الطابع واعانته » . ولم يجبهم المريض لاشتغاله بمعاناة مرضه . فاحضروا

الوزير صاحب الطابع ، وتكلموا معه في ذلك بأسلوب يقتضي تسليم المتولي ، وولاية ابنه من الآن ، فأجابهم بأن هذا الامر لا يتم الآن ، وقبل الاستدلال على جوابه عاجله سليمان كاهية بقوله : « يتمُّ بالسّيف » ، فخاشنه الوزير يوسف ، وأغلظ له في الردِّ ، وقال له : « ما كل موضع تستعمل فيه الشجاعة ، ومن الامور ما لا يحصل الا بالسياسة ، كهذا الامر ، ولو استعملنا السيف في كل أمر ، قامت الحرب على ساقها واضطرم نارها ، وعاقِبتُها مجهولة ، والآذان صاغية ، وجواسيس الجزائر بالحاضرة ، يترقبون ناعق فتنة ، يطلب هذا الملك ، فراجِعُوا أفكاركم ، وغاية ما يحصل لنا الآن ، أننا خلعنا أميرنا في حال مرضه ، ارضاءً لابنه وبايعناه ، ولسنا على ثقة من حصول المراد ؛ فالواجب أن يبقى ما كان على ما كان ، فان برىء سيّدنا قام بخطته ، ويرشح ابنه شيئا فشيئا كما فعل أبوه ، وان كانت الاخرى يرثه ابنه » ، ثم دنا من المريض وقال له : « أترضى أن تخلع نفسك لابنك ، ويمكن أن يكون فعلك سببا لفتنة في مملكتك ، ومملكة أسلافك ؟ » فقال : « معاذ الله أن أرضى بذلك » . وانفضّ الجمع على غير طائل .

وخرج الوزير مشفقا على نفسه ، وحكى ذلك لكاتبه وصاحب سرِّه الحاج بالضياف والد العبد الحقير ، وفاوضه في الهروب لمنجاة نفسه ، فثبطه الكاتب بأن « العجلة من الشيطان ، وهذا الباي سليم الصدر ، غير مقدام على الظلم ، ولا غنى للدولة عنك » ، فأجابه الوزير بما محصله : « انك صاحب أهل وأولاد يتعذر عليك فراقهم ، ولا تدري ما يقع بهم ، وأنا توفي أعزُّ ما عندي وهو حمّودة باشا ، وليس ورائي ما أخاف عليه » ، فقال له الكاتب : « أما هذا فلا ، فانـي والله أولُ رفيق لك ان صمّمت على الهروب ». ويقال ان الوزير كان يقول بعد ذلك لاصحابه : « هذا هو الذي تعرَّض لي في الهروب» ، ويشير الى الكاتب . وبقي بعد هذا الفكر ، يقدِّم رجلا ويؤخّر أخرى ، لسابق قدر محتوم .

ونمى هذا الخبر الى أبي الثناء محمود باي ، مع علمه بانحلال الدولة وتفرِّق الحامية ، ولم تكن يومئذ حامية من الجند لذات الملك ، سوى عسّة الحوانب والصبايحية والمماليك بالسقيفة . وقد كان دبّر في الفتك بالباي مع الوزير أبي عبد الله محمد العربي زروق ، وآجَرَ أفرادا من زواوة وغيرهم ، وكمَّنهم بداره ، والوزير يعلم ذلك هو وغيره . ونمى خبرُهم لصالح باي ، فأتى أباه ، وأخبره الخبر ، فاستبعده بل استحاله ، فقال له : « مُرْني أن أدخل الدار لاحقق الخبر » ، فمنعه .

ولما بلغ ذلك محمود باي ، انتهز الفرصة ، وخرج ليلا من داره بمن معه ، ومعه أبناؤه ، ولم يمرّ على مواضع العسة . وكان ذلك ليلة الاربعاء تاسع محرّم سنة 1230 ، ثلاثين (21 ديسمبر 1814 م) . واقتحم على الباي عثمان بيته ، وهو في فراش مرضه ، فضربه بالرصاص وخرج ، فبلغه أنه لم يمت ، فبعث ابنه أبا النخبة مصطفى باي فأجهز عليه . وخرج لمن يدافع عنه بصحن البرج ، فقال لهم : « ان صاحبكم قد مات ، ولا سبب للقتال بعد موته ، وعليكم أمان الله ورسوله » . وكان يومئذ للامان اعتبار وأي اعتبار ، لانه آخر حيلة للملوك الاطلاق .

وممن دافع عنه الوزير سليمان كاهية بمن معه في بيته ، والوزير مصطفى صاحب الطابع ، يضربون الناس من كوى بيوتهم ، وماتت منهم أفراد .

وفي هذه الليلة أبلى أبو عبد الله حسين باي البلاء الحسن ، وظهر صبره وتجلّده لحبّ الرصاص ، ودافع عنه الاجل ، وكان من الشجاعة بمكان .

سمعت من شقيقه الباشا أبي النخبة مصطفى باي ، قال : « لمّا خرجنا ليلا وصرنا بالممشى ، طرقني مرض الخفقان المصاحب لي ، فوقفت وأسندت ظهري الى الحائط ، فرجع لي أخي ، وكان في أول الجماعة مع أبي ، وقال لي : ما بالك ؟ فأخبرته بما اعتراني من مرضي ، فلطم خدّي بضربة زال بها ما كنت أحسّه ، وقال لي : تقدّم الى الموت عزيزا خير من ميتة الذُّلّ . وساقني أمامه حتى كان ما كان » .

ولما لم يقدم سليمان كاهية من بيته ، بعث له محمود باي بسبحته وكتاب دلائل الخيرات ، زيادة في التوثق لتأمينه ، فأتاه وقال له : « يا سيدي قد فعلت ما يجب علي ، ولو لم يمت سيدي أقاتل عنه حتى أموت دونه ، كما أقاتل عنك » . وزوجه بنته ليلتئذ .

هذا كله ، والوزير يوسف صاحب الطابع منحجر في علوّه المعروف بعلو مصطفى خوجة ، بصحن البرج ، وبابه مغلق كأنه لم يسمع شيئا من البارود . فقال العربي زورق لمحمود باي : « لا يثبت لك ملك ، ولا يتمّ لك أمر ، الا ببيعة يوسف صاحب الطابع ، اذ الدولة طوع يده ، ولا تعتمدني الآن في شيء من الامور » ، فقال له : « توجه اليه بنفسك ، ومعك سبحتي ودلائل الخيرات » . ولما أتاه وجده مستعدا للاجابة .

ولما حضر بين يديه قال له : « البركة فيك ، وأنتم أولى الناس بصلة رحمكم » ، يشير الى الاستبقاء على بنيه .

ثم دعا بالكرسي من الغرفة ، وأجلسه عليه وبايعه ، ووقف حذوه ، وكان الناس في مرج ، فقال بأعلى صوته : « يقف كل واحد في موقفه يمينا أو يسارا » ، فما استتمّ قوله حتى استوى الصفّان ، وبايع سائر الحاضرين من المخازنية والعسّاسة . وبعث الى حراسة الحاضرة ، وأعلم الداي .

وقام الوزير بأعباء هذه البيعة في تلك الليلة ، وفيها زوّجه محمود باي من بنت عمّه المتوفّى عنها مصطفى خوجة .

وفيها قتل مريان النصراني من مماليك حمّودة باشا ، كان مقرّبا عنده ، مؤتمنا على نفائسه بالغرفة ، وطبيبه المسمّى بمحمد المملوك ، لتهمتهما بسمٍّ حمودة باشا عن إذن ابن أخيه صالح باي ، لمكان الخلطة بينه وبينهما . وهي تهمة يبعدها العقل وتُحيلها العادة ، لانه مبتلىً بمرض مصاحب له في القلب ، أنذرت الاطباء بأنه من أسباب الموت فجأة . وانما قيل ذلك ، ليكون خروج محمود باي ، في طلب ثأر ابن عمّه ، لا تعديا ولا بغيا . وراج ذلك عند بعض الجهّال . والسبب هو ما قدمناه من تأخير الكبير وتقديم الصغير ، مع عدم السياسة . ولا حاجة للملوك الاطلاق بأمثال هذه المخارج والتمحّلات .

ومن الغد بويع البيعة العامة .

وفي تلك الليلة هرب ابنا الباي عثمان وهما أبو الفلاح صالح باي وأبو الحسن علي لانه دهمهما الخبر فجأة بقتل أبيهما وهما في فراش منامهما ، فخرجا مذعورَيْن فارَّيْن بالنفس ، فاقتحما سور باردو وخندقه ، وأعانهما باش طبجي بآلات ذلك ، فأتيا من الخندق ربض باب السويقة ليلا راجلَيْن بثياب منامهما ، فالتقى بهما رجل صنعته بيع الدجاج ، ومشى أمامهما لدور المخازنية مثل خليفة العوسجي ، وعلي المكي ، ويوسف ابن فرحات ، وعلي العبدلي وأمثالهم من الاضة باشية ، فقالوا لهما : « حسبنا الدفاع عنكما بأنفسنا ، وما عسى أن يصنع عددنا القليل » ، فأتيا الشيخ بلغيث البكري فقال لهما : « أمدّ كما بالدعاء وطلبة الزاوية » ، فأتيا القائد سليمان ابن الحاج وطلباه في السلاح والمال ،

فقال لهما : « ما لي وللسلاح وأنا رجل من عمّال الجباية ولست من رجال الحرب، وأما المال فقد دفعت بالامس ما علي ، والموجود عندي الآن لا يغني » . وباتا ليلتهما يجوسان خلال الديار ، وأفراد من همج العامّة وراءهم ينظرون ، وصالح باي يقول : « يا رسول الله ، نضيع في بلاد مثل هذه » .

وتكلما مع جند الترك من وراء باب السويقة ، ووعدوا بالاموال فلم يجبهم أحد ، وكثيرهم على السور ينظرون قائلين : « الذي يصبح على الكرسي هو أميرنا » . لان محمود باي أحكم معهم الربط على يد العربي زروق وصهره الحاج مصطفى التركي .

وبعث وراء الباب الى الحاج أحمد باش حانبه فخرج من داره ، وبلغ خبره الداي أحمد الباوندي ، فتمكّن عليه ، وأودعه السجن ، خشية إثارة فتنة بالمدينة .

وبعثا الى الشيخ باش كاتب فلم يخرج من داره .

ولما انقطع أملهما توجها في البحيرة الى حلق الوادي قرب الفجر ، فتلقاهما الكاهية أبو عبدا لله محمد خوجة وقال لهما : « لا بدّ من وقت لاحضار مركب ان أردتم الخروج ، وان أردتم التحصن بحلق الوادي ، فأمر ذلك بيد آغة النوبة من الترك ، ولكم النظر » .

ولم يفتح الآغة البرج . وقد عَمِيَ خبرهما بباردو ليلتئذ ، ووقع البحث عنهما في دور باردو وغيرها ،فأتى عبد الوهاب الى باردو عند الفجر في أفراد من المخازنية ،وأخبر بتوجّههما لحلق الوادي ،فطار أبو عبد الله حسين باي لاحِقا بهما في عقد من خيل العسّة المخازنية ، وأمامه عبدالوهاب . وجدّ السير ، ودخل حلق الوادي من باب رادس ، فوجدهما به في المحاورة مع الكاهية ، ففرّا راجلَيْن الى راس الساس ، فاتبعهما وأدركهما . وتوقف في قتلهما على إذْن والده ، فقال له عبد الوهاب : « ما هذا التوقف ؟ اقطع الراس تنشف العروق (1) » ، فأمر حانبة من الترك اسمه جولك (2) ، ممن ركب معه من باردو ، بقطع أعناقهما ، فقال له الحانبة : « ان سيفي لا يعمل في مثل هذين ، وان أردت ناولني سيفك الذي معك » ، فناوله اياه ، فضرب به أعناقهما .

(1) هو مثل لا يزال كثير الاستعمال في تونس ، ويراد بـه الحث على ازالـة الشر باقتلاعـه من اصله .
(2) كـذا في خ ، وفي ع و ق : جـواك .

ورجع حسين باي في الحين لابيه ، ولم ينزل عن مركوبه بحلق الوادي . وأمر أن يؤتى بهما الى بطحاء القصبة ، ووضعا بها على نعشين مع نعش أبيهما ، حتى تحقق الناس موتهم . وبعد الغروب قبروا في تربة آلهم ، رحمهم الله .

وفي رجوع حسين باي من حلق الوادي ، مرّ برجل يمشي راجلا قرب سيدي فتح الله ، فقال له بعض من معه : « هذا الذي كان يدلُّ بهما الطريق لديار المخازنية ، وأتى معهما لحلق الوادي » ، فأمر بضرب عنقه في موضعه ، قبل أن يكلمه أو يستفهمه ، وتركه صريعا بمكانه كأنه حيوان لا مالك له . هذا كله وهو في سرعة السير لابيه ، ولمّا وصله أخبره بموتهما .

الخبر عن حال عثمان باي وابنيه

كان خيّرا عفيفا سليم الصدر كثير الحياء ، حتى أفرط ، يعيبه أخوه بذلك ويقول : « ليتني أسمع أخي يتكلم » . يتأثم من قتل النفس ولو في حق ، لم تسفك في أيامه القليلة محجمة من دم انسان ، حليما متواضعا خمولا ، قانعا بما قسم الله له من الرزق ، لان أخاه لم يجعل له الا ما يسدُّ الخلّة فقط ، بحيث إن اخواته البنات أقرب الى الثروة منه ، لان والده حبّس أملاكا على بناته وأولادهم ، دون الذكور من بنيه . والسياسة يومئذ تمنع أمثاله من تعاطي الغنى ، خشية الخروج ، لان الغنى أعون شيء على ذلك ، قليلَ الحاشية والاتباع ، يعظّم الصالحين والعلماء ، ملازما لمسجد بيت الباشا يؤم به الحاضرين ان تخلّف الامام ، وتطيب النفوس بالصلاة خلفه . ويحضر لقراءة صحيح البخاري أيام ولايته وقبلها ، يبالغ في احترام الاحباس ، ويذكر في ذلك ما يؤثر عن القصّاصين في العصفور الذي توعّد نبي الله سليمان بن داوود عليهما الصلاة والسلام ، يتمرغ في تراب حبس وينفض ما تعلّق بريشه في ملك سليمان فَيَخْرَب . سمعنا ذلك من الشيخ الكاتب الوجيه أبي الثناء محمود الاصرم في خبر صمته ، قال : « لم أسمع منه في مدة ولايته الا هذا المعنى بألفاظ بربرية » ، مع أنه اذ ذاك من الكتّاب بين يديه .

وأتاه وفد المعاوين الى البيعة ، يقدمهم الشيخ الصالح المجذوب السيد عمر بن اسحاق ، فقال له بحضرته في المحكمة : « أين الباي ؟ » ، فقالوا له : « هذا » ، وأشاروا اليه ،

فقال : « لم أره » ، ثم قال : « من ولاّك ؟ » فقال له باش حانبه : « أولاه الله تعالى » ، فقال المجذوب : « انا لم نُوَلّه » ، فلطمه باش حانبه بحضرته ، فأنكر عليه ذلك ، وقال له بصوت خفي : « الامر بيد الله ، وهذا رجل مجذوب ينبغي احترامه » ، بحيث أن كلماته في مدة ولايته كادت أن تكون معدودة .

وعلى ما فيه من حسن الخلال ، فهو ضعيف العارضة في السياسة ، وفيما يلزم الرئاسة . وما كل ما تقدم للمحراب ، يصلح أن يتقدم لسرير الملك .

وأما ابناه فأكبرهما ، وهو أبو الفلاح صالح باي ، قد كان شهما مقداما حازما ، حسن الاخلاق والمحاضرة ، عزيز النفس ، تائقا لمراقي الرفعة ، جيد الفكر . سمعنا ذلك من الوزير أبي النخبة مصطفى صاحب الطابع ، لان الوزير أبا المحاسن أضافه اليه ، فامتزج به في تلك المدة . ولم تكن له ولا لابيه رخصة في الخلطة مع الناس ، حتى تكون تراجمهم معلومة ، كما هو مقتضى السياسة . وكان عمّه حمّودة باشا يتوقع منه بادرة ، ويتدرّع له بحفيده حسين باي بن محمود باي . سمعت ذلك منه ، رحمه الله ، في معرض توثق خاله به ، وانه التفت يوما فلم يجده وراءه ، فخلا به وعذله على ذلك .

وأما شقيقه أبو الحسن علي باي فكان حييًّا ، قليل الكلام ، أشبه الناس بأبيه ، متعففا لم يذكر بقبيح ، على حرارة شبابه .

هذا ما يلوح عليهم لمن عرفهم . ودولتهم ثلاثة أشهر وأيام ، كانت أيام مطر وخصب ، رحمهم الله .

الباب الثالث

في دولة

أبي الثناء الباي محمود باشا

ابن محمد باي بن حسين باي بن علي

مولده ليلة السبت الثاني والعشرين (1) من شوال سنة سبعين ومائة وألف 1170 (9 جويلية 1757 م) ، وأمه جارية .

بويع البيعة العامة يوم الاربعاء تاسع (2) محرم سنة ثلاثين ومائتين وألف 1230 (21ديسمبر 1814 م) . وتبنّى أبناء ابن عمّه القتيل عثمان باي ، وأسكنهم معه في بيته ، وهم صبية صغار .

وزاد في مرتب الجند من الترك ، وأحسن لكل واحد منهم بخمسة محابيب .

وفي يوم ولايته جمعت زوجه ، بنتُ عمه ، ابنيها منه ، وهما أبو عبد الله حسين باي ، وشقيقه أبو النخبة مصطفى باي ، وأحضرت لهما المصحف ، وتعاهدا عليه في وفاء كل منهما لاخيه ، ومعرفة الصغير لحق الكبير في التقدم ، وتبرأت ممن نكث منهما ، ودعت عليه وهي مكشوفة الرأس . سمعنا ذلك مرارا منهما .

ووقائع دولة هذا الباي منسوبة في الحقيقة لاكبر بنيه ، أبي عبد الله حسين باي .

وأقر وزراء ابن عمّه حمودة باشا ، ورجال دولته على مناصبهم ومراتبهم ، وقال لهم : « انما خاطرت بنفسي ، على كبر سني ، وبأولادي ، لِمَا تعلمون من الحيف الذي وقع علي بتقديم مَنْ دوني ، وقد سلّمت لمن قبله ، وان كان أصغر مني ، لما لا ينكر عليه من الحزم والكفاءة . ومع ذلك فقد كان يجاملني ، ويأتي داري ، ولا يقطع أمرا مهمّا دوني ، ويثق بأولادي ، ويختصهم بما لا يخص به أبناء أخيه . أما هذا فانه غضّ الطرف عني ، وعاملني معاملة صغير البيت ، وأخرجني من داري ، حتى رام ابنه التقدم علي ، وطلب عهدا من أبيه ، ولولا البعض من عقلاء الرجال لتمّ له ذلك — يشير الى صاحب الطابع — ، وأنا الآن قد كبر سني ، وأقعدني المرض ، فلا حاجة لي بالملك الا لاولادي . وقال للوزير أبي المحاسن يوسف صاحب الطابع : « انك باشرت هذه المملكة مع سيّدك ، وعلمت ما يضرّها وما ينفعها بالمباشرة والتجريب ، وأنا لم أباشر شيئا لاني كنت جليس بيتي ، متفاديا عن الخليط والحاشية والاتباع ، راضيا بذلك ، فافعل ما كنت تفعله أيام ابن عمي حمّودة باشا ، ولا تتوقّفْ في المصلحة على أمرى ،

(1) هي 21 حسب التقويم — 2) هو 8 حسب التقويم

وأنا أتوقف على رأيك » . وقال لاولاده : « أنْزِلوا هذا الرجل منزلة أب ، وتوقفوا على مشورته حتى في ركوبكم (I) » ، في كلام هذا محصّل معناه . سمعناه من شيوخ الدولة ، ومنهم سليمان كاهية ، على أنحاء تدور على هذا المعنى ، فأخذ الوزير الكلام على ظاهره ، وركض في ميادين المصلحة طلقَ العنان .

وفي اليوم الثاني من يوم البيعة العامة ، جمع الباي أبو الثناء محمود المجلس الشرعي ، وعقد للوزير أبي المحاسن يوسف صاحب الطابع على بنت عمه ، وللوزير سليمان كاهية على بنته ، ولابي المحاسن يوسف كاهية على بنت اسماعيل كاهية ، ولخير الدين آغة على أختها ، وأمّهما بنت الباشا علي باي . وخطيب العقد شيخنا أبو الفداء القاضي اسماعيل التميمي ، وكان يوما مشهودا .

وبعد أيام عُزِل الفقيه الامام ابن الامام أبو الثناء محمود بن باكير عن امامة مسجد بيت الباشا ، لمكان قربه وامتزاجه بعثمان باي ، ونقل الوُشَاةُ عنه أنباء الانكار على قتله ، فرحل الى داره بالحاضرة ، وقُدِّم للامامة عوضه الفقيه أبو الحسن علي الدرويش .

وأقبل الوزير أبو المحاسن يوسف على لوازم البناء بزوجته ، وصار يأتي كل يوم لتفقد إصلاح دار سكناه ، وما يلزم للوليمة من الاوطار ، والقدر يقول له : « الدار الآخرة هي الدار » .

الخبر عن

مقتل الوزير أبى المحاسن يوسف صاحب الطابع

واسباب ذلك

لمّا فوّض الباي لهذا الوزير وقرّبه نَجِيّا ، أخذ الامرَ على ظاهره ، من غير تدبُّرٍ في عاقبة ملك الاطلاق ، وأقبل على مصلحة المملكة من حيث هي مصلحة ، غيرَ مُبَالٍ بشيء ، على عادته مع صاحبه الاول ، فقد كان يجاهره بالنصيحة ، ويعارضه بما لا يسوِّغه الا فرط الصَّفْوِ في المحبة ، أو غلبةُ العقل على الهوى ، حتى كان يقول له : « يا يوسف لا تعيش بعدي نصف عام » ، كنايةً عن شدته ، وانه لا يتحمّلُه سواه ، فكانت كالجفر . وملك الايالة مطلق التصرف بلا حدٍّ ، كما تقدم في العقد الاول ؛

(I) اى خروجكم راكبين

وقد كـان محمود باي رشح أخاه أبا الفداء اسماعيل باي لسفر المحالّ ، وأخذ في الاستعداد لذلك ، فقال له الوزير أبو المحاسن : « لا يخفى عليك حال أخيك ، واسترسالُه في شهواتـه ،مع عدم المبالاة ، ورفض جلباب الوقار، معلومٌ في الحاضرة ، مع كِبَرِ سنّه ، ولا بدّ من وقار يحفظ مقام الدولة ، لا سيما مع العربان ، وقد كـان ابن عمّك يقدم للمحالّ نائبا يقف عند الامر والنهي ، ويخشى عقاب المخالفة ، وهذا أخوك وقسيمك في النسب ، ان فوّضت له فحالتُه لا تحتمل التفويض ، وربما يكـون سببا في جُرْأة الرعيّة ، والازدراء بالدولة ، وان قصّرت يده لا يرض ويراها نقيصة ، وبالامس ، أيام بني مراد وأيام جدّك ، كـان باي المحالّ هو المتصرف ، وحسب الباشا سياسة الحاضرة ، وهو يعلم ذلك ، ويعلم سبب خروج علي باشا على عمّه ، فالاولى أن تقدّم أكـبرَ بنيك ، على حدٍّ تجعله له لا يتعدّاه ، وابنك لا يأنف من الوقوف عند أمرك ، ويرى نفسه بين يديك كحالة الاتباع » .

فوجد من الباي الاذن الواعية ، وحبُّ الولد طبيعي في البشر ، فقـال لاخيه : « أنـا وأنت قد شِبْنَا ولا نستطيع فراقـك ، فالاولى أن لا تفارقني ولا أفارقـك كما تربّينـا من الصغر ، وأولادنـا يباشرون السفر ، وسنُّهم يحتمل المشقة » ، فاحتملها اسماعيل باي ، وازداد توغّر صدره على الـوزير .

ومن الاسباب أنه ثَقّل على ولدَيْ الباي ، لانهما في عنفوان الشباب المثير لسلطان الشهوة ، والوزير يسلك بهما مسالك الشيخوخة ، من تقديم ما يقتضيه العقل على ما تقتضيه الشهوة ، وقد كـانا مع أبيهما في شبه اعتقال ، منحجرين في دارهم ، والعيون وراءهم على من يخالطهم أو يخدمهم ، حتى إن أغلب الناس لا يعرف أشخاصهم ، شبهَ الحالة في آل عثمان قبل الولاية . وثقل عليهم انفراده بالدولة ، وقصر الناس على بابه ، وسيرهم خلف ركـابه .

ومنها أنه تحدث مع الباي بأن « هؤلاء الناس الذين قاموا معك في هذه الثورة ، يجـب إقصاؤهم وقطع آمالهم ، حتى لا يكـون قربهم ذريعةً لمثلها ، وتتجاسرَ الناس على المنصب الواجب احترامه . وأيضا لا تَعْظُمُ في عيونهم لانهم يرون لانفسهم يدا عليك ، بأنّهم أولوك وخاطروا بدمائهم . وقد رأيتَ ما عاناه عمّك من الذين غَرّبُوا معه [للجزائر] (1) ،

(1) الـزيـادة عـن ع .

حتى قال ، لما توفي رئيس الكتبة الوزير أبو العباس أحمد الاصرم ، : اليوم توليت الملك . وهذه عادة الدنيا ، ومن أضاع الحزم ندم » ، الى غير ذلك .

ولما بلغ هذا الحديثُ للوزير أبي عبد الله محمد العربي زرُّوق ، وهو متولِّي كِبْر الثورة ، علم أنه المعنِيُّ بهذا النصح ، فأخذ يحتاط لنفسه . وحقق له ذلك أن أبا عبد الله حسين باي ابنَ المتولي أعطى سكينا مرصَّعَ الغِمْد والقبضة ، كان صنع لحمودة باشا بتونس ، وربما حمله في حزامه ، لابي عبد الله محمد ابن الوزير العربي زرُّوق ، فلما رآه الوزير متحليا به قال له : « من أين هذا ؟ » فقال له : « أعطانيه سيدي حسين باي » فقال له الوزير : « ان مثل هذا لا نحمله أنا ولا أنت ، انما يحمله أهله » ، وأخذه من حزامه بعنف ، وجعله في حزام اسماعيل باي ، بمحضر الباي محمود ، رائما أن يمحو بهذه ، ما دبّره في تأخيره من السفر بالمحالّ ، فأحس العربي زرُّوق بمبادىء الشر ، وقوِيَ ما فهمه من الحديث السابق ، ولا يخفى ذلك عن مثله . لكن الاقدار تحجب الافكار .

وفي هذا الحال أتاه أولاد الباي ، وكان خالهما من الرضاعة ، لا تحتجب منه أمّهما ، وشاكَوْه من الضرب على أيديهما ، وقيد الحجر ، وأن الوجوه مصروفة لجهة يوسف صاحب الطابع ، وقالوا له : « أي فائده لنا في هذا الملك الذي بعنا فيه رؤوسنا ، اذا بقينا على حالنا السابق ؟ » ، الى غير ذلك ، فقال لهما : « أما القدوم على عقوق أبيكما ، أو القدوم على شيء يغاير رضاه ، فهو من المستحيل ، ولا يسعفكم على ذلك أحد ، ولكن نغزل له غزلا يقتضي أن والدكما يتنكر له ويبعده » ، وداخلهم الحاج حسن خزنه دار ، مملوك مصطفى خوجه ، الذي كان يباشر عمل كاهية دار الباشا وهو آغة ، وكان له حنق على هذا الوزير .

وأحكموا التدبير في قتله ، وباشر ذلك العربي زروق ، فدسّ الى ابن الداي أحمد الباوندي ، ودسّ الى أنفار من الجند أتوا الداي بمحابيب في أيديهم ، وقالوا له : « إن يوسف صاحب الطابع أرسل لجميعنا هذه الدراهم ، لنثور معه على الباي وأبنيه وأخيه » ، فقال لهم : « خذوا الدراهم ولا تفعلوا » ، فأتاه ابنه وقال له : « يجب عليك الآن أن تخبر الباي والا كنت خائنا » . وكتب على لسانه مكتوبا بختمه ، وكان هذا الداي مغفّلا طاعنا في السن ، وبعث المكتوب مع الترجمان . وقبل وصوله أتى الحاج حسن خزنه دار وطلب الخلوة بالباي وقال له : « اقتلني الآن ، فلأن أموت على أمرك خير لي

من الموت على أمر يوسف صاحب الطابع ، ممـلوك مثـلي » ، فاستفهمه الباي ، فقال له : « ان الرجل يريد الفتك بك وبابنيك وأخيك ، ويقعد على كرسي الملك ، وجند الترك معه وأعيانهم ، وآغة باب باردو في يده ، وتواعدوا معه على ساعة من الليل يفتح لهم الباب ، وأنه لا يقفله قفلا حقيقيا » . وامتد الحاج حسن بين يدي الباي مثل الميت ، مادّاً عنقه للذبـح .

سمعت من المشير أبي العباس أحمد باي رحمه الله قال : « كـنت صغيرا بيـن يدي جدّي ، وأنا أتعجّب من استلقاء هذا الرجل ، وحرصه على القتل ، وهو من ذوي الهيـْآت ، وكـأنـي الآن أراه » ، فلاطفه الباي وقال له : « نصيحتك مسموعة ، ونبحث عن هذا الامر » . ولمّا خرج جاء للباي مكـتوب الداي يعلمه بما أخبره به بعض الجند ، فتحيـّر . وفي إثْرِ ذلك جاء ابنه أبو عبد الله حسين باي وقال له : « بلغنـي ما حيـّرنـي »، وقصّ عليه خبر الثورة المغزولة من الهواء ، وقال له : « انـي بعثت عينا لتونس يرقب لنا حال الرجل ومن يأتيه » ، لانه كـان بعلُوِّه في الحلفاوين وقتئذ ، فقال له أبوه : « هـذا مـكـتوب الداي أتانـي الآن في ذلك » . وبعث الى العربـي زرُّوق وسأله ، فصدّق الخبر وقوّى التهمة . وبعث الى أبـي الربيـع سليمان كـاهية ، فقال له : « والله لم يبلغنـي شـيء من هذا الخبر ، وانـي أستبعده ، ولو رام هذا الامر لنفسه ليلة وفاة حمودة باشا ما صعب عليه » ، فقال له حسين باي : « لا نلق بأنفسنا » . فقال له : « نعم يا سيدي ، لا نلق بأنفسنـا ولا نعجلْ ، والرجل بين أيديـكم ، يلقى اليه ما بلغـكم ، وينظر في جوابه ، وتُـحرَّر هذه الاخبار ، وينظر باب باردو بعد أن يقفله الآغة ، الى غير ذلك ، فان ثبت عليه ما يقوِّي التهمة فأنا أول من يغمس سيفه بدمه ، وان كـانت الاخرى فلا تضيـع رجالنا بالظنون » ، فراج هذا الـكـلام عند الباي ، وابنه أبـي النخبة مصطفى باي ، ورأيا التثبت واحضاره لسماع جوابـه .

ثم أتى الوزير يوسف الى باردو بعد الغروب ، ودخل الى الباي وحادثه ، ثم استأذنه وخرج لمسكـنه ، ولا إحساسَ له بشـيء ممـا وقع ، فدخل على الباي ابناه وأخوه والمتحدّثون معهم في شأن هذا الوزير ، ولم يزالوا به حتى أمر باحضاره ، وقال لهم : « ستندمون ان قتلتموه » ، فأتاه محمد كحل العيـون ، رئيس المماليك ، وقال له : « ان سيدنا يدعوك » ، فقام ، ولما وصل باب بيت الباشا ، وكزه كحل العيون وشتمه ، فالتفت ، وكـانت بيده موسى دقّه بها في وجهه ، والـكـاتب عبد الله الجندوبـي كـامن له داخل البيت ، فضربه بسيف على عرقوبيه ، فخرّ مناديا : « يا أهل بدر » ،وتشهد ، فاعتورته السيوف ، وذهب كـأمس الدابر .

وهكـذا تموت الوزراء لملوك الاطلاق في الاسلام .

وجيء اثر ذلك بكـاتبه الحاج بالضياف ، وكـان يبيت معه من ليلة وفاة حمودة باشا ، فصدر الامر بقتله .

ولما جرّد للسيف ، وكـان المباشر لتجريده محمد طوشانلي باش حانبة الترك ، ساق له الاجل المقدّر العربي زرّوق ، فصاح بهم أن ارفعوا أيديكم ، ان مات هذا الآن ضاعت أموال صاحب الطابع ، لانه العالم بزمامه . فأودعوه السجن .

وكـان والدي يقول : « أنا صنيعة العربـي زرّوق » .

وكـان ذلك ليلة الاثنين الثانـي عشر (1) من صفر سنة 1230 ، ثلاثين ومائتين وألف (29 جانفي 1815 م) .

ومن الغد أصبـح شلو صاحب الطابـع ، بل صاحب الخيرات ، طريحا بين جامعه وسبّالته . وأتى بعض السفهاء ، وكـان جزّارا ، فقطع عورته . وصلب هذا الفاسق بعد سنين ، لـكـفر صدر منه ، وثبت بالمجلس الشرعـي . وأتى آخر فقصّ من لحمه وشواه وأكـله . وعاثت أيدي السفلة واليهود في بدنه المكـرّم ، وجرّوه مثل جيف الدوابّ الى الكـنيسة ، خارج باب قرطاجنة ، وعبثوا به .

وبلغت تلك الشناعة للباي فأرسل الحوانب من باردو ، لاستنقاذ ما بقـي من جسده ، وزجر أولئك الاراذل .

ولم يجد غاسله ما يغسل ، وانما صب الماء على لحم مبدّد بـدم :

تَرَدّى ثيابَ المـوت حُمْـرا فما أتـى   لها الليل الا وهي من سُنْدُسٍ خُضْرْ

ودفن بتربته في جامعه ، حذو الوليّ سيدي عثمان بن كـرم .

وأرّخه عالم العصر وبركـة المصر ، شيخنـا أبو اسحاق ابراهيم الريـاحي ، كما تراه في ترجمته .

وحصّل ، رحمه الله ، مع الشهادة أجر ما ارتـكـبه غيره من الوزر .

---

(1) هـو 11 حسب التقـويم .

وبقيت هذه الاحدوثة الشنعاء هناة وشينا في وجه هذه الحاضرة ودولتها ، لان معروفه وإحسانه المشاهَد ، عمّ جميع سكّانها عموما وخصوصا ، وان وقع مثلها في الاسلام كما تقدم ، لكن هذه أشنع باعتبار حال القتيل .

ومن الغريب أن كل من سعى في ضرر هذا الفاضل ، عوقب في الدنيا على قدر سعايته ، والله سريع الحساب .

وسيأتي له ذكر ان شاء الله تعالى في هذا الكتاب عند ذكر ترجمته .

وبعد موته شمل أصحابَه وأتباعَه الاعتقال ، والنكباتُ الثقال ، من قتل ونفي وسجن وأخذ مال .

فقتل صبيحة موته محمد اظربير (1) التركي آغة بيت المال ، ونفي حسن باش خوجة باردو ، ونفي حسن آغة الباب ، وسجن حسن ململّي وأخوه سليمان . وأما محمد اللوز الصفاقسي ، وقاسم البوّاب ، والشيخ علي مهاود ، وكاتبه الحاج بالضياف والد العبد الحقير ، فانهم مع السجن الطويل ، استصفيت أموالهم من جليل الاشياء وحقيرها ، بحيث لم يبق لاحدهم قوت يوم . وأخرجوا حرمهم من ديارهم ، وعاشوا أمد حبسهم ، بخبز المرحوم علي باي . وكنت يومئذ صبيا مميّزا ، رأيته بدارنا عيانا ، وسمعت مثله في دور أمثالنا . لكن الشدة يتبعها الفرج .

وأصبح الساعون في نكبة هذا الوزير أمام الباي ، فدخل الكاتب أبو البقاء خالد الزهاني لتقبيل يد الباي على العادة ، فقال الحاج حسن خزنه دار : « وهذا بالامس رأيته في علوّ صاحب الطابع » ، فتوقف الباي كالمستفهم ، فقال رئيس الكتّاب الوزير أبو عبد الله محمد الاصرم : « يا سيدنا ان هذا المقتول وزير ، وفي مفهوم الوزير إتيان الناس اليه ، فان أردت مؤاخذة من أتاه لمحلّه ، فآخِذْ جميع الناس ، حتى العربي زرّوق ، فانه ربما يلزمه الاتيان له ، الا أنا والحاج أحمد بن عمّار باش حانبه ، لشيء بيننا وبينه » ، ثم قال للحاج حسن : « ان خالد الزهاني ليس من عظماء الدولة ، ولا من رجال الفتنة ، والوجوه التي تقتضي إتيانه للوزير كثيرة ، وأما أنت فلأي سبب أتيت

---

(1) كذا في خ ، وفي ع : « أظرمير » وفي ق : « أضرمير »

محل الوزير حتى رأيت هذا ، مع أنك من رجال الدولة ، ومرتب الجند يعطى على يدك ، فأنت أقرب للشك والتهمة » ، فعندها غضّ الباي طرفه .

وأقبل على جمع أموال الوزير وأصحابه ، وتوسع بها ، وأغنته برهة من الزمن .

*

وفي ذلك اليوم تولّى الحاج حسن كاهية بدار الباشا مع خطة خزنه دار ، وتولّى الاجلّ الوجيه فيضي آغة بيت المال ، وتولّى عوضه آغة بالقصبة عمر التركي ، وصار كل واحد منهم دايا بعد ذلك .

وفي يوم الاثنين رابع (1) ربيع الاول من السنة 1230 (13 فيفري 1815 م.) سلّم الحاج حسن ، بيده لا بيد عمرو ، في خطة خزنه دار ، وبقي في خطة دار الباشا ، وتولّى عوضه الوزير أبو عبد الله محمد العربي زرّوق خزنه دار .

وفي عاشر ربيع الاول من السنة 1230 (الاثنين 20 فيفري 1815 م.) سافر بمحلة الشتاء أبو عبد الله حسين باي ، ووصل الجريد واستوفى الجباية ، ورجع .

ثم سافر بمحلة الصيف ، ثم سافر بمحلة الشتاء يوم الخميس ثالث (2) ربيع الاول سنة احدى وثلاثين 1231 (1 فيفري 1816 م.) ، على طريق الساحل ، في يوم شديد البرد كثير المطر ، وأقام بالمحلة في شوشة رادس ثلاثة أيام . وصحبه في أسفاره الوزير سليمان كاهية ، وفوّض له أبوه ، فكان مطلق اليد ، نافذ التصرّف ، جاريا في ميادين الإمرة ملءَ عنانه .

واحتفل أهل تلك الناحية لتلقيّه ، وتنافسوا في مهاداته . فمرّ على بلدان الساحل وصفاقس ، وأتى وطن الاعراض ، وعامله أبو العباس حميدة بن عيّاد ، فتفنّن في الاحتفال به بما لم يسمع نظيره ، وهاداه وأرضى من معه ، حتى خدمة الخيل . وسمعت منه ، رحمه الله ، جميل الثناء على هذا القايد ، حتى قال ان ابنه بالنسبة اليه لا يظهر .

(1) هو 3 حسب التقويم - 2) هو 2 حسب التقويم

ومن الاعراض أتى الجريد ، ثم آب محمود السيرة ، مملوء الحقائب والاحمال . وكانت المملكة يومئذ على غاية الثروة والعمران بحسب حالها . ووصل باردو في موكب مشهـــود .

وفي ربيع الثاني من سنة 1230 ، ثلاثين ومائتين وألف (مارس — افريل 1815 م.) ، قدّم الباي لخطة القضاء بالحاضرة شيخ الشيوخ العالم أبا العباس أحمد بوخريص ، وقدم للفتوى العلاّمة أبا الفداء اسماعيل التميمي ، ثم رجّعه لخطة القضاء لانعكاس نور بصر القاضي الى بصيرته بعد أشهر .

وفي ذي الحجّة من السنة 1230 (نوفمبر 1815 م.) توفي الحاج حسن كاهية دار الباشا ، وتولّى الخطّة عوضه أبو المحاسن يوسف آغة .

وفي يوم الخميس الثامن عشر (1) من رجب سنة 1231 ، احدى وثلاثين (13 جوان 1816 م.) ، تخلّى حسين باي عن السفر بالمحالّ لاخيه أبي النخبة مصطفى باي ، وخلع عليه أبوه الولاية ، وركب الى الحاضرة يوم ولايته ، ومعه الوزير أبو عبد الله محمد العربي زرّوق ، ورجال الدولة من الكواهي والاغوات وغيرهم ، ودار في البلاد وأسواقها. وقام حسين باي بين يدي أبيه مؤازرا له ، مباشرا لاموره ، خاطبا رضاه ، مثابرا على طاعته ، متزودا من دعواته ، ولابيه المرتبة الظاهرة وهي أعظم بغيته . وكان يقف عن يمينه بالمحكمة ، ويباشر الكلام في النوازل بمرأى ومسمع من أبيه ، ويحضر أخوه اذا كان في الحاضرة ، واقفا تِلْوَه . واذا تعذر على أبيه الخروج لمرضه ، جلس للنيابة عنه في بيت الباشا . ويكتب الاوامر باسم أبيه ، ويدخل بها اليه ليمضيها ، ويتأدب عن الجلوس بالمحكمة ، وكانوا يرونها هي الملكَ وسرَّه وشعارَه . وكان حمودة باشا يفعل بمخزن المراكيب ما يفعله بالمحكمة .

⁂

وفي هذه الايام وفدت على الحاضرة زوجة سلطان الانقليز في غرض النزهة والجولان في الاقطار ، فاحتفل لقدومها محمود باي على مقتضى مقامها ، وتفنن في تعظيم مقدمها

(1) هو 17 حسب التقويم

واكرامها ، بما لا عهد به ، حتى أنه قيّض أولاده على التناوب ، يركبون معها للاماكن التي تشتهي معرفتها .

وافتدت من مالها سائر من بالحاضرة من أسارى أهل الملّة النصرانية ، على اختلاف أجناسهم ، وبذلت في ذلك أموالا عظيمة حتى لم يبق في المملكة من النصارى الا من اختار المقام بها برضاه .

وسرّح لها الباي أسارى الدولة من غير فداء ، اكراما لها .

ثم سافرت ، وبعث الباي لتشييعها ابنه أبا النخبة مصطفى باي ، فشيعها الى حلق الوادي .

⁂

وفي التاسع عشر من جمادى الاولى سنة 1231 ، احدى وثلاثين ومائتين وألف (الاربعاء 17 افريل 1816 م.) ، كتب الباي للدولة الانقليزية بأنه اذا وقع حرب بينه وبين دولة من الدول ، فان أسارى الحرب لا يملكون ، ويعاملون معاملة المسجونين برفق ، حتى تضع الحرب أوزارها ، فيسرّحون من غير فداء .

وقد وقع فداء أسرى من النصارى على يد الانقليز ، أواخر دولة حمّودة باشا .

ولما ترشح أبو النخبة مصطفى باي للسفر بالمحالّ ، بلغه أن عمه اسماعيل باي تأثر من ذلك ، وقال ان أخي قدم أكبر بنيه للولاية بعده ، وقدم ابنه الصغير للسفر بالمحالّ ، ولم يعتبرني في الولاية ، فأخبر أباه بذلك ، فقال له : « لا تفتح أذنك لما يفسد ذات بيننا » . ثم تقوّى الخبر ، ثم فشا أن اسماعيل باي جمع طائفة من زواوة وغيرهم ، وكمّنهم في داره ، ليفتك بأخيه وابنيه ، وتقوّى هذا الخبر ، فقال الاولاد لابيهم : « لا نَموتُ ببيوتنا على حين غفلة [ولا بدّ من ازالة هذا الشك بطروق دار عمّنا ليلا على حين غفلة] (1) ، فان وجدنا مصداق الخبر دافعنا عن أنفسنا ، والا فاعتذر أنت لاخيك » ، فقال لهما : « يدخل أحدكما الدار على صورة زائر ، ويبقى الآخر خارج الباب بمن معه ، فان وجد شبهة ، يخرج لاخيه ، ويدخلا معا ، بمن معهما من عسّة المخازنية

(1) الزيادة عن ق .

باردو » ، ففعلا ، ودخل مصطفى باي لانه أكثر من أخيه تردّدا على دار عمّه ، وفهم عمّه مراده ، فرحّب به ، ودار معه في سائر أماكن الدار ، ومظانّ الاختفاء ، وأخوه خارج الباب ينتظر . ولما لم يجد ما يريب ، خرج لاخيه وأتيا والدهما ، فلامهما على سوء الظن . ومن الغد جاء اسماعيل باي لائما متغيّرا متوجّعا ، وقال له : « أي شيء ظهر مني حتى تطرق داري ؟ » فاعتذر له أخوه بأن الاولاد تخوّفوا ، والنسج الذي بلغهم كان على منوالنا بالامس ، ولاطفه واسترضاه .

وحال اسماعيل باي من ضعف البنية وضعف الفكر ، يحيل هذه السعاية .

ولما تسامع جند الترك بهذا الخبر ، رأوه بارقة التخاذل المفضي الى زوال الدولة ، فانتهزوا الفرصة بالثورة .

الخبر عن
ثورة جند الترك
على الباي ابى الثناء محمود باشا

كانت هذه الثورة مدبّرة الاحكام ، وثيقة الإحكام ، طليعتها التظلم بالكلام .

وذلك أن الترك لمّا ثاروا في سنة ست وعشرين (1) ، ونهبوا أسواق البلاد ، وانحجروا في القصبة ، وألجأهم المدفع والجوع الى الخروج ، وأحاطت بهم الخيل ، وبقيت أشلاؤهم نهبة المفترس ، وعظامهم عبرة المعتبر ، تحدث الناس في شأنهم بأن الترك لم تحصل لهم الا عداوة أهل البلاد ، وتشدّق أهل البطالة في الاعتراض على صنيعهم ، وفي المقدمات المنتجة لو فعلوها ، فاهتمّ لذلك كبراؤهم وأهل الرأي منهم . والذي تولّى كبرها أبو العباس أحمد حافظ الازمرلي ، كاهية باش خوجة الديوان ، لمكان وجاهته في الجند وكرمه . وكان أهل النجدة من أعيانهم يسامرونه ، وحديث سمرهم الاعتراض على أفعال الدولة وحفظ مساوئها ، وتسفيه رأي الثورة الاولى . ومطمح أنظار القوم حال الجزائر يومئذ من تلقّف الامارة دولا بين أنجادهم كما تقدم . ووجدوا السبيل بقتل الوزير يوسف صاحب الطابع ، وما وقع بشلوه من الافعال المنكرة الشنيعة ، وقتل أظرْبير ، وغيره

(1) 22 شعبان 1226 على عهد حمودة باشا

ممـا تقدم ، وتسريـح الاسارى من غير فداء ، إكـراما لـرجيـنـّة الانقليز ، مع ما لاح لهم من بوارق التخاذل بالشك في حال اسماعيل باي وتفتيش داره ، وانكـسار زجاجة قلبه ، الى غير ذلك من الاسباب . واستقرّ رأيهم على ثورة أحكموا عقدها .

ولما كـانت ليلة الاربعاء رابـع (1) جمادى الثانية من سنة احدى وثلاثين ومائتيـن وألف 1231 ، (1 مـاي 1816 م.) تنادوا ليلا واجتمعوا بحانوت في أعلى سوق الترك ، وبعثوا الى أهل المجلس الشرعـي وأعيان رجال الدولـة الساكـنين بالمدينة وأعيان البـلاد ، ولم يتخلف من المجلس الشرعـي الا شيـخ الاسـلام أبـو عبد الله محمد بن محمد بيـرم لمكـان عجزه ، فدخل اليه أعيانهم وقالوا له : « تدخل فيما دخل فيه الناس » ، فأجابهم لذلك ، ولم يشددوا عليه في الحضور ، لما في النفوس من تعظيمه والتبرك به . وبعثوا الى محمد طوشانلي باش حانبة ، وكـان من حزب الباي ، فأزعجوه من داره ، فأنـكـر عليهم وقال لهم : « مقتلتـكـم بالامس لم ينشف دمها فأردتم أخرى» ، فقتلوه بالطريق ، وأتوا برأسه ، ووضع أمام الجماعة . وتـآمروا بأعلى صوت أنّ من يخالفهم ، كـائنا من كـان يـكـون رأسه هنا مع رأس طوشانلي . والذي تولى كـبرها مباشرة دالي باش ومحمد الشوبان ، وكـانا من أعيان حوانب الترك بباردو .

ولما تحقق خبر الثورة عند شيـخ المدينة الحاج حميدة الغماد ، طيـّر به ليلا الى ربض باب السويقة ، وشيخه يومئذ قاسم قرداح ، وكـان مغفلا بعيدا عن الحزم ، فتوقف ، فأتاه علي مهاود ، صاحب الخطة قبله ، وقال له : « ما سبب توقـّفك ؟ » قال : « لانه خبـر سوء » ، فانتهره وقال له : « ابعث الآن الى باردو واجمع المخازنية من ديارهم ، ومرهم بأخذ سلاحهم ، وركـوب خيلهم الى باردو ، وكسر قفل باب البلاد ، ليخرجوا منه الى باردو ، وتوعـّد من تخلـّف بالسجن » ، ففعل .

ولما بلغ الخبر للباي ، تحيـّر على ابنه حسين ، وكـان يتنزه بالمرناقية . فأركـب الوزير سليمان كـاهية بمن في باردو من العسـّة . ولما خرج ، وجد المخازنية الذين بعثهم شيـخ الربض أمام باردو ، فطار بهم الى المرناقية ، وأتى بابن الباي على غير الطريق المسلوك ، لانه خشـي أن الترك يبعثون له طائفة تترصده في الطريق ، ففعلوا ونجـّاه الله منهم .

---

(1) هـو 3 حسب التقـويم

ولما وصل باردو بعث السلاح الى علي مهاود ، وأمره بتفريقه على القادرين من أهل الربض ، وبعث الوزير أبا عبد الله محمد العربي زرّوق بصناديق البارود ، وأمره أن يمكث في الربض .

ولما أصبح الصباح نادى دالي باش : « يا أهل البلاد ، أنتم اخواننا ولا حرب بيننا وبينكم ، وكلامنا مع المتولي في مصلحتنا ومصلحتكم ، وعليكم الامان ، فافتحوا أسواقكم ولا توقفوا بلادكم » .

وبعث لكل سوق طائفة من الجند لحراسته ، وأمرهم بالدوران في البلاد على التناوب ، وحراسة حارة اليهود ، حتى أن جنديا اختطف خبزة من محطّ خبّاز ، فأُتـِيَ به اليه ، فسجنه ودفع للخباز أضعاف قيمة الخبزة .

وأبواب المدينة مغلقة ، عدا باب قرطاجنّة .

ولما اجتمع الاعيان منهم مع أهل المجلس الشرعي ، ومن في المدينة من رجال الدولة ، قالوا لهم : « ان هذه البلاد بلاد السلطان العثماني ، ونحن عسكره ورعيته ، وهذا الباي وابنه أهملا البلاد ، وقدّما من لا يستحق التقديم ، وعاثوا في الدماء والاموال ، وأعطوا أسارى أريقت فيهم دماؤنا ، ولم يكترثوا بنا » . ونسبوا لهم أمورا رسمت في مكتوب الخلع ، لا حاجة لنا بها الآن ، و« نطلب ولاية اسماعيل باي وابن أخيه مصطفى باي ، ونرفع في ذلك أمرنا بعرض حال لمولانا السلطان » . وانما اختاروا اسماعيل باي لاستضعافه وعجزه عن القيام بأعباء الامرة . وكان المؤازر لدالي باش في السرّ العدل علاّلة ابن الخوجة الحنفي ، ولم يحضر المجلس . ولما قال لاهل المجلس : « اكتبوا ذلك ليرفع لمولانا السلطان » ، توقّفوا . فقال لمن معه من أعيان الثورة : « لا يتمّ لنا أمر بدون اضافة رؤوس كبار الى رأس طوشانلي » ، يشير الى عمائم الفقهاء . ثم قال للقاضي اسماعيل التميمي : « اكتب أنت » ، فاعتذر بمرض يشهد له حاله ، وقال : « يكتب غيري وأنا أملي عليه » ، فباشر الكتابة الشيخ الفقيه أبو العباس أحمد بن سلامة ، شاهد الحرمين الشريفين ، باملاء الشيخ القاضي ، وختم المكتوب بطوابع سائر الحاضرين على اختلافهم . ثم قال للقاضي اسماعيل : « لم لا تطبع ؟ » فقال له : « علماء المالكية لا طوابع لهم » ، ثم لقّنه سرًّا علاّلة بن الخوجة الى أن الخنفوسة ، وهي العلامة ، تقوم مقام الطابع ، فأتاه وقال له : « اضربوا خنفوس » ، فوضعوا عقودهم .

واختار الجند الشيخ أبا عبد الله محمد ابن الشيخ الامام عبد الكبير الشريف ، وكان شاهد الديوان ، فبعثوه بالمكتوب الى باردو ليراه اسماعيل باي وابن أخيه ، بعد أن قال له دالي باش : « دارك — وأولادك معنا بالمدينة ، فأسرع بالرجوع » ، فتوجه بالمكتوب الى باردو ، وقرأه على الباي وأخيه وابنيه ، وكشف لهم ما علمه من حال القوم ، من أنّ مرادهم ايقاد نار الفتنة في البيت ، فقال له اسماعيل باي : « أنا أموت بين يدي أخـي ، وأولاده أولادي ، ولا أقبل هذا الاختيار » . وقال مصطفى باي : « الموت أهون علي من عقوق أبـي وأخـي » ونهض بأمر أخيه الى أبراج الجبل الاخضر وأبراج البلاد ، وتكلم مع زواوة وبيّن لهم مكيدة القوم .

ورجع الشريف للترك بما آسفهم وقطع آمالهم ، بعد أن قال للباي : « يبقى هذا المكتوب عند سيادتكم ، خشية الاحتجاج به » ، فتخوفوا على الشيخ من سطوتهم ، وقالوا له : « يمكن لهم ، والحالة هذه ، كتب غيره ، ولا نأمن عليك الضرر منهم » .

ولما بلغهم خروج مصطفى باي للأبراج وكثرة من معه ، سقط في أيديهم ، ورأوا أنهم قد ضلّوا .

ثم نهض دالي باش من سوق الترك بجميع من معه من أهل المجلس والاعيان الى ديوان المدافعية ، وكان أمام باب القصبة ، ولم يسرّح أحدا منهم ، والشوبان بين يديه مؤازرا له . فبعثه الى الداي وقال له : « أنت شيخ كبير ولا نتعبك للحضور معنا ، فكن بمحلك آمنا ، الا اذا ظهر لنا خلاف منك ، فان رأسك يكون على السبّالة مع رأس طوشانلي » . ثم أمر أبا محمد حمّودة الاصرم ، خوجة زواوة ، أن يأتي الابراج ، ويخبر من بها من زواوة « بأنكم عسكر مثلنا ، ولا يسعكم الخروج عن عهدة اخوانكم ، فافتحوا لنا الابراج ليعمرها من الترك مثل عددكم » ، وبعث معه طائفة من الجند ، فكلّمهم فأبوا . ويقال انه قال لهم برطانتهم ، وكان يعلم شيئا منها : « اثبتوا في محلكم ولا تفتحوا أبوابكم ، فأنتم خارج المدينة ، ومددكم من باردو ومن الرّبض » . وقالوا له : « نفتح لك من الباب ما يدخلك الى البرج وحدك ، لتفهمنا المقصود » ، فمنعته الطائفة المعيّنة معه ، وتخوف هو على داره وأولاده بالمدينة . ولما رجع الى دالي باش ، اتّهمه واغتاظ عليه وأمر بقتله ، فقال له الفقهاء والاعيان : « لا وجه لقتله ، وقد أعطيتم الامان لسائر الناس عموما وخصوصا ، الا من خالفكم ، وهذا لم يخالفكم ، وللأمان

في الدنيا اعتبار حتى عند الخوارج والثوار » ، فرفع عنه السيف وسجنه بحبس القصبة حتى يستثبت حاله .

ووقت الظهر أمر بأهل المجلس الشرعي أن يتوجهوا الى الداي ، ويكونوا معه في علو داره ، اجلالا لهم . ولما قاموا قام معهم الشيخ محمد الاصرم باش كاتب ، فأمر بردّه وقال له : « أنت من المخازنية لا من أهل المجلس الشرعي » ، ثم وجّهه مع سائر المخازنية الى معتقل القصبة .

وجلس على كرسي بسلاحه أمام ديوان المدافعية ، وجعل يشرب في مستقطر الخمر ، متجاهرا بها . ولما انتشى صار ينادي : « أنا باي ، أنا داي ، أنا باشا » ، وجعل يكررها بمحضر الشوبان ، وقد كان الاتفاق بينهما على أن يضرب معه بسهم في هذه المراتب ، لان الشوبان له عصبية من الترك ، فأتاه وقال له : « يا سيدي ، ليس هذا وقت شرب ، وحاجتنا الآن بعقلك لا بشجاعتك » ، فانتهره . ولما رأى الحاج حميدة الغماد ، شيخ المدينة ، وكان مع الجند في البطحاء ، بارقة انحلال ، مع علمه بأن عقلاء الجند انما أتوا خوفا ، داخل أعيانهم كأبي العباس أحمد آغة الذي توفي دايا ، ومصطفى بلهوان الذي توفي آغة بيت المال ، وغيرهما ، ووعدهم الامان والاماني ، وقرّر لهم أن حال الرجل تفضي الى سفك دمه ودمائهم ، ولا زال يسرّ بذلك الى العقلاء .

ثم أتاه الشوبان وقال له : « اما أن تكفّ عن الشرب ، والاّ فانا فارّ بمن معي لمحل نجاتي » ، فانتهره وعيّره بالجبن ، وكان ذلك قرب الاصفرار ، فأخذ صنجقا وصاح بشيعته : « ان الرجل قاتل نفسه وقاتلكم ، ومن أراد النجاة فليتبعني » ، فتبعه نحو الاربعمائة ، فأتى شيخ المدينة لاحمد آغة وقال له : « انتهز الفرصة فان الامر انحلّ » فأتى الى دالي باش ووقف عند كتفه يلاطفه وهو في عربدته ، وخاتله حتى اختطف سلاحه من حزامه ، وتقبض عليه ، وألقاه الى الارض . فصاح الحاج حميدة الغمّاد ببقية الجند : « عليكم الامان من سيدنا ، وان وقع عليكم شيء فأنا وداري وأولادي في وسطكم ، وكلنا في القيام سواء ، انصرفوا الى قشلاتكم آمنين ، وجميع الناس يعلمون أن رأس طوشانلي هو الذي أتى بنا وبكم حتى كتبنا ما كتبنا» ، فتفرّقوا الى أماكنهم . وأمر أحمد آغة بسجن دالي باش ، ومعه مصطفى قاره قلقجي ، في محبس القصبة ، وسرّح سائر المخازنية المسجونين ، وطار الخبر الى الباي .

ولما بلغ ذلك أهلَ المجلس الشرعي ، قاموا الى ديارهم بغير استئذان من الداي .

وبات الحاج حميدة الغماد مع عقلاء الجند يحرسون البلاد ليلتهم كلها .

وفي الصباح بعث الباي الحوانب الى دالي باش ومصطفى قاره قلقجي ، وأوقفهما بين يديه ، بمحضر أخيه وابنيه ، وسألهما عن سبب قيامهم ، واستدعى بحالة الاطناب في الجواب ، ليعلم ما دار في رؤوس القوم من جهات الانكار ، وتجلّد لسوء الادب باشارة نصحائه .

فتكلم دالي باش بما دلّ على ثبات لبٍّ وحضور قلب ، وعدّد للباي ما نقمه الجند من الاستكفاء بغير أهل النجدة والكفاية ، وصرف أموال المملكة فيما لا يعني ولا يعود بنفع ، واحتقار الجند حتى أن الاسارى الذين تحصلوا بدمائهم تسرحوا ، ولم يكن لاحد من كبرائهم شعور ، وقدح في وزراء الباي وبطانته بما عدّده عليهم من المساوىء بمحضرهم ، وأفحش في المقال المقذع ، وقال لسليمان كاهية : « يا دُمُزْ (أي خنزير) ، أنت السبب في منجاة حسين باي من المرناقية ، وسيكون جزاؤك القتلَ ، والجرّ الى الكنيسة مثل صاحبك » . ولم يتلعثم في مقاله ، وأنياب المنيّة كاشرة في وجهه . ثم قال : « أين تريدون أن أذهب الى الخنق ؟ » ودار وحده . فأمر الباي بخنقه ، وخنق صاحبه قاره قلقجي ، في بيت حوانب الترك . وسجن العدل علاّلة بن الخوجة ثم نفاه الى باجة .

سمعت ذلك من الوزير سليمان كاهية وغيره ممن حضر الموطن ، وسمعته أيضا من شيخنا أبي الفداء اسماعيل التميمي ، وقد شهد الموطن من حين استدعائه الى أن أتى مع الجماعة علوّ الداي .

وأولى الباي في اليوم احمد آغة باش حانبه ، عوض طوشانلي ، واستخلصه وأدنى منزلته وحفظ مزيته ، وبعثه في اليوم الى قشلات العسكر ، جبرا لقلوبهم وتأنيسا لوحشتهم .

وبلّغ لهم عنه ما اطمأنّوا به ، واستعمل الصفح الجميل على من ثار أو دبّر أو أعان أو استحسن ، كأن لم يبلغه شيء . وطوى بساط النازلة بما فيه ، سياسة نَفَعَتْه ، والى القلوب حبّبَتْه .

وفي اليوم أولى الشريف علي باش حانبه بدريبة الداي ، لكفايته وحزمه والوثوق به في حراسة البلاد .

وأولى علي مهاود شيخ ربض باب السويقة ، عوض قاسم قرداح ، والحاج علي بوعصيدة شيخ ربض باب الجزيرة ، عوض محمد الغفاري .

وأما الشوبان فانه لما أخذ الصنجق وتبعه من تبعه ، قصد حلق الوادي ، لما يعلم أن به خمسة مراكب حاضرة لسفر الغزو . وبعث الى ديار الرؤساء ، ومنهم أبو عبد الله حسن المورالي ، وأكرههم على الخروج ، وساروا أمامه راجلين ، ولا تمرّن للمساكين على المشي ، فكان الواحد منهم اذا أجهده نقل الخطى ، يخرّ الى الارض جاثيا على ركبتيه، فينخسه الموكّلون به ، بذباب سيوفهم . ودخلوا حلق الوادي من باب رادس ، وعاثوا في منزل الكاهية بالنهب ، وأخذوا من خزائنه لوازم السفر ، وسمّروا المدافع ، ولاذ الكاهية بالاختفاء . وركبوا تلك المراكب الحاضرة ، وأقلعوا ليلة الجمعة السادس من جمادى الثانية (السبت 4 ماي 1816 م.) ، قاصدين الدولة العثمانية ، ومعهم ذلك الكتاب المصحّح من أهل المجلس الشرعي وأعيان رجال الدولة والعسكر ، يحمله رأس عصبتهم الشوبان .

وانقشع سحاب هذه الثورة عن أمان لسائر أهل البلد من العسكر وغيرهم ، حتى إن أبا عبد الله حسين باي نهى عن التحدث بها ، وبما يتعلق بها في مجالسه ، ونبذها ظهريا ، وجعلها نسيا منسيا .

وبعد الثورة بنحو الاسبوع ، سافر أبو النجاة سليم خوجة بمكاتيب للدولة العلية في تقرير الحال ، وللاتيان بالمراكب التي هرب فيها الشوبان ومن معه . فأعطته الدولة العسكر ليرجع بهم ، فأبى الا القدوم بالمراكب وبحريتها والرؤساء فقط ، وشردت الدولة تلك الطائفة . وقدم سليم خوجة بالمراكب منتصف شعبان السنة 1231 (الخميس 11 جويلية 1816 م.) .

واستكثر الباي محمود باشا من جند زواوة ، وجعل لهم المرتب ، واعتنى بشأنهم ، واعتضد بشوكتهم ، وأقامهم شجّى في حلق الترك ، فكانوا عند الظن .

وقبيلة زواوة من أعظم قبائل البربر وأشدهم بأسا ، حتى أن جبلهم لم تصله يد الترك بالجزائر ، وفيه ما يحتاجونه من الضروريات والمزارع والسلاح والبارود ، ولهم تعظيم

قوي لاهل الشرف والفضل والصلاح ، حتى إن زوايا سيدي البشير بتونس هي مناخ رحالهم ، ومحط أثقالهم ، والواحد منهم اذا حلف بحق سيدي البشير لا يكاد يحنث ، وسبحته الى الآن يتبركون بها ويتعاهدون عليها ، الا أنهم أبعد الناس عن أخلاق الحضارة من السياسة وحسن الترتيب وطاعة الامراء ، مع أن شجاعتهم لا يستطيع المنكر جحدها .

وبعد هذه الثورة بأيام قدم الحاج مصطفى التركي من اسلامبول ، ومعه رسول الدولة العلية ، بالفرمان السلطاني والحلة الملوكية ، فاحتفل الباي لقبولها بديوان حافل وموكب مشهود ، حضره أهل المجلس الشرعي والداي وأعيان الجند من الترك وزواوة وغيرهم ممن يشار اليه ، وكان يوما مشهودا بصحن البرج من باردو .

وبعد خمسة أيام لبس ابنه حسين باي حلّة التشريف الواردة له في صحن البرج ، مثل ديوان أبيه ، وكان ذلك أواسط جمادى الثانية من السنة 1231 (اواسط ماي 1816 م.)

ثم جمع الباي هدية حافلة للدولة العلية ، توجّه بها أبو عبد الله محمد أمين باش خوجة الديوان ، ومعه أعيان من جند الترك ، وأبو الحسن علي بن حمزة ، وكان سفرهم في شعبان السنة 1231 (جوان — جويلية) . فوصلوا القسطنطينية ، وقابلتهم الدولة بجزيل العناية ووافر الاكرام ، وأتوا بعدد وافر من متطوعي الترك للخدمة بالجند عوض الفارّين .

وابتدأ أبو النخبة مصطفى باي السفر بالمحالّ ، وأول سفره لباجة ، وكان يوم الاثنين عاشر (1) شوال السنة 1231 (2 سبتمبر 1816 م.) . ولم يزل يسافر بالمحالّ الى وفاة أخيه ، واقفا عند الامر والنهي .

وتوفي أبو الفداء اسماعيل باي يوم الاحد الثالث عشر(2) من ذي الحجة موفى سنة 1231 ، احدى وثلاثين ومائتين وألف (3 نوفمبر 1816 م.) ، ودفن من الغد بتربة عمّه في موكب مشهود ، وكانت وفاته بمرض أصابه ، قوّاه الهرم .

وفي سنة 1232 اثنتين وثلاثين (1816/17 م.) ، أتى الوزير أبوعبد الله محمد العربي زرّوق الى جامع الزيتونة ، بعد أن وصّى بحضور أعيان المدرّسين ، وبعد صلاة العصر

(1) هو 9 حسب التقويم — 2) هو 12 حسب التقويم .

دخل مقصورة الامام ، وهو يومئذ شيخ العصر أبو محمد حسن الشريف ، وقال له : « ان سيدنا يقرئك السلام ويقول لك : هذا الجامع الاعظم هو وجه الحاضرة ، ومحط رحال الوافدين لطلب العلم ، ودروسُ العلم به قليلة ، وأعيانُ العلماء يدرِّسون بجامع صاحب الطابع ، وهو في طرف الحاضرة ، بعيد عن مدارس الطلبة ، فلو ندبتهم لنقل دروسهم لهذا البيت العتيق لكان أولى ، لا سيما ولهم فيه مرتب من الجزية » ، فقال له الشيخ الامام : « ان المشائِخ هنا ، فتكلّم معهم » ، فبعث لهم ، وقام لاجلالهم وخاطبهم برسالته ، فأجابه الشيخ العلامة أبو عبد الله محمد الفاسي بالامتناع ، وقال له : « لا يحلّ أن أفعل ذلك ولا تحتمله المروءة ، فان هذا المحبّس رفع من شأني ، ولم تزل دنانيره أنفق منها ، وأرجو الله أن يكون تمامها بتمام عمري ، (وصدق الله رجاءه فمات في ربيع الثاني من السنة 1232 (فيفري — مارس 1817 م.) نعم ، أقرىء بالجامع الاعظم بقدر مرتّبي فيه ، ولا أنقل دروسي من جامع صاحب الطابع ، ولسيدنا أن يعزلني عن أخذ مرتبها ، ويعطيه لمن يدرِّس بالجامع الاعظم ، لكن ليس له أن يمنعني من بث العلم في مسجد لله » . وقال له شيخنا العلامة أبو العباس أحمد الأُبِّي : « أنا إمام الخمس بجامع صاحب الطابع ، ويتعذر عليّ نقل دروسي الى الجامع الاعظم ، نعم ، أقرىء به درسا في مقابلة مرتبي ، ثم ان صاحب الطابع أظهرني من زوايا الاهمال ، وملأ يدي ، وغالب ما علي الآن من الثياب صلة من صِلاته ، وأرجو الله أن تصحبني ملابسه الى قبري » . وحقق الله رجاءه ، فكان عنده طيلسان أبيض من أعزّ الكشمير ، وهو من صِلات الوزير ، غُطِّيَ به جسده على نعشه الى قبره لما توفي في رمضان من سنة 1274 ، أربع وسبعين ومائتين وألف (افريل — ماي 1858 م) . وقال له شيخنا أبو اسحاق ابراهيم الرياحي : « أنا رجل مكثت بهذه الحاضرة عشرين سنة حتى عزمت على الخروج منها لابتغاء رزقي ، فقيّدني بدار وأهل وأولاد ، ولم أزل أتقلب في نعمته ، ولولاه ما عرف الباي اسمي ، واني شيخ مدرسة الجامع وداري قربه ، وأي فائدة شرعية في هذا النقل ، والعلم يؤتى اليه ولا يأتي ، مع الاجر لطالبه على قدر خُطاه ، وان أردتم إطفاء ذكر هذا الرجل فلك ذلك بمقتضى المنافسة في الرئاسة ، لكن لا يكون ذلك الا بخراب أكثر المباني في هذه الحاضرة ، والأَوْلَى أن المنافسة تنتهي بالموت، هذا ما يليق بشرفك ، وعلي أن أقرىء درسا بالجامع الاعظم ، مع بقاء دروسي في محلّها ، أخذت عليها المرتب أو لم آخذ » ، فقال لهم الشيخ الامام الشريف : « جزاكم الله عن الوفاء

خيرا ، وهو المظنون بكـم » . وقال للوزير : « حصل مراد سيدنا ، حيث التزموا بالتدريس في الجامع الاعظم » . وكـان شيخنا رحمه الله يذكـر هذه الحكـاية ، وسمعتها منه .

وفي العشرين من ربيع الثاني 1232 (الاحد 9 مارس 1817 م.) تأخر الفقيه أبو النخبة مصطفى دنقزلي عن خطة القضاء بالمذهب الحنفي ، لعجزه عن القيام بأعبائها ، وبقي إماما بجامع يوسف داي ، وتولى القضاء عوضه الشيخ الفقيه أبو الحسن علي الدرويش ، وتولى عوضه إمامة مسجد بيت الباشا الشيخ أبو العباس أحمد ابن الشيخ الامام المفتي محمد ابن الشيخ الامام المفتي الحاج حسين البارودي .

وفي ذي القعدة من السنة 1232 (سبتمبر 1817 م.) توفي الشيخ العالم الفاضل أبو العباس أحمد سويسي المفتي ، وله من العمر ما يقرب من مائة سنة ، وشهد أبو عبد الله حسين باي جنازته في موكب مشهود . وقام مقامه في خطة الفتوى الشيخ الامام العلاّمة أبو محمد حسن الشريف .

وفي هذه السنة وفد على الحاضرة النحرير الفهامة أبو العباس أحمد السناري ، مهاجرا لطلب العلم . وهو ابن أخي أمير سنار ، من أرض الحبشة .

حكي أنه كان والعا بالقنص والخيل والرماية ، مستغرق الاوقات في ذلك ، فقال له عمه يوما : « اذا افتخر الناس بما حصلوا في الدنيا من المزايا ، تفتخر أنت بعدد ما اقتنصته من الصيد ، وأخلاق ما ركبته من الخيل ، واصابتك الهدف في الرماية ، أين أنت عن العلم الذي هو الفخر ؟ » ، فصادف ذلك سويداء قلبه ، ورفض ما كان فيه ، ورحل لطلب العلم ، وأعانه على ذلك اليسار ، ونعم العون على المروءة الجدة . وأتى مصر وأخذ عن مشيختها وفضلائها ، وتاقت نفسه الى كيفية التدريس بتونس ، وملأ سمعه خبر شيخنا العلامة أبي اسحاق ابراهيم الرياحي ، فأتاه من مصر ومعه حرمه ، وقال له : « ما قادني لهذه الحاضرة الا اسمك ، فاختر لي من طلبتك من يؤنس غربتي بالمذاكرة معه » ، فاختار له تلميذه شيخنا أبا عبد الله محمد البحري بن عبد الستّار ، فاكترى له دارا قرب داره ، ولازمه ورافقه في دروسه ، وانتفع كل منهما بصاحبه ، ونبّهه الشيخ ابراهيم الى مشائخه ، فأخذ عن الشيخ الامام أبي محمد حسن الشريف مقدارا صالحا من صحيح مسلم بشرح الابّي ، وعن الشيخ اسماعيل التميمي مقدارا وافرا من شرح

المحلّـي لجمع الجوامع ، وأخذ عن الشيـخ الطاهر بن مسعود شرح القطب على الشمسية ، وأخذ عن الشيـخ الذي قصده شرح السعد عليها . وله يد طولى في علم الكـلام . وخالط علماء تونس وامتزج بهم ، شأن الاذكـياء ، وأعجب بتونس وبأخلاق أهلها مع الواردين اليها . وكـان شافعـيّ المذهب ، سُنّـيّ العقيدة ، مع تشيّع في حب آل البيت .

اتفق أن كـانت عنده مكحلة غريبة الصنع ، وبلغ خبرها للوزير أبـي عبد الله محمد العربـي زرّوق ، فبعث اليه تابعـه المسمى ونيس ذهب ، الاضة باشـي ، وقال له : « ان الوزير يسلـّم عليك ، ويطلب منك أن تبيـع له المـكحلة — ووصفها له — بما يرضيك من الثمن » ، فقال له : « سلم عليه وقل له انـي أتيت بلادكم طالب علم لا طالب دنيا ، ولست بتاجر ، وان احتقرتم سوادي فالمرء بأصغريه قلبه ولسانه » . وبقـي متغيرا ، وشاكـى الشيـخ البحري ، فقال له : « لم يقصد احتقارك ، وانك قدمت لهذه الحاضرة كـعامة الراحلين في طلب العلم ، ولذلك لم تقصد ملـكـها كـعادة أبناء الملوك ، وهذا الوزير شريف النسب وله في أهل العلم محبة وتعظيم » ، فارتاع لما سمع لفظ الشريف ، وقال : « أخشى أن يبيت هذا الشريف وفي قلبه وحشة منـي » . وطلب من الشيـخ البحري أن يحضر له رسولا ، وكـاتبه متلطفا معتذرا ، وبعث له بالمـكـحلة وأخرى معها هدية ، على شرط أن لا يجازى عليها الا بالرضى ، فوصل اليه الرسول وقبل الهديّة . ومن الغد أتـاه زائرا ، وجامله وشكـر صنعه ، وأحاله على ثواب الله ورسولـه ، وان هاداه بعد ذلك .

ولما بلغ خبره لابـي عبد الله حسين باي ، هاداه بمركـوب وسرج محلّى ونفائس من الثياب والطيب ، على يد كبير الطّواشية ، سرور آغة ، فقبل الهدية وهادى الباي بأضعافها ، من سلاح وقطع من التبر ، وأوانٍ من الذهب ، صنعها بمصر .

ولم يجتمع به لما علم أنه لا يقوم لتلقيه على عادة البلاد يومئذ .

وسافر الى القيروان فزار السيد الصاحب رضـي الله عنه ، وتبرّك بـآثار الصحابة رضـي الله عنهم ، وأخذ عن عالمهـا أبـي عبد الله محمـد بن بـكـّار صـدّام ، واستجـازه فأجازه ، ثم رجع الى تونس .

وكـان عالي الهمـّة ، كـريم النفس ، حسن اللقاء ، ممتع المحاضرة ، حديد الفهم ، صائب السهم ، فصيـح اللسان ، قوي الجنان ، له شغف بمعالي الامور .

استضاف أعيانا من العلماء بداره ، واحتفل في ضيافتهم احتفال الملوك . واشترى غالب التآليف التونسية ، وبذل في أثمانها الاموال الجزيلة . وهاداه بعض الطلبة بشرح التسهيل لعلي باشا بن محمد ، فأثابه بصرّة من التّبر .

ثم سافر ، وسافر معه من أذكياء الحاضرة أبو العباس أحمد بن محمد الزهاني ، وافترقا من مصر .

وكان شيخنا سيدي ابراهيم اذا رأى شهامته وإقدامه ، يقول : « يغلب على ظني أن هذا الذكي يموت قتيلا » . وصدق ظنّه ، فانه لما رجع لسنار استعان به عمّه في أمره وبعثه أمير جيش في حرب انجلت عن قتله . واجتمعت به وأنا في مبادىء التعلم عند شيخنا البحري ، وحفظت ترجمته من شيخنا المذكور . وكانت بينهما مكاتبات ودادية الى أن توفي ، رحم الله الجميع .

وفي محرم من سنة 1232 ، ثلاث وثلاثين (نوفمبر — ديسمبر 1817 م.) ، كثرت الشهود المتصبون للشهادة بالبلدان ونواجع الاعراب ، وعمّت البلوى بأهل الزور منهم ، لانّ ولايتهم بالشفاعة مرة ، وبالرشوة أخرى ، فوقع التثبت في انتخاب الاشبه ، وعزل المجروح منهم . ووقعت منافسة من أجل ذلك بين العلاّمة الحافظ أبي محمد حسن الهدة كبير المفتين بسوسة ، والشيخ الفقيه أبي عبد الله محمد الريغي القاضي بها ، وكادت أن تتعطل الاحكام الشرعية بتلك الجهة ، فأمر الباي أبو الثناء محمود باشا أن يصدر لهما مكتوب من أهل المجلس الشرعي عن إذنه ، فصدر ذلك من انشاء العلاّمة الاكتب أبي الفداء القاضي اسماعيل التميمي ، ونصه بعد صدره : أما بعد فان المنافسة التي وقعت بينكم قد تفاقم أمرها ، وعظم على الناس ضررها ، وعمّ أهل عملكم شررها ، فتعطل بينكم الانصاف ، وكثر بسبب ذلك الاعتساف ، وصار من يطلب حقّه متطلبا لما هو أعزّ من الابلق العقوق ، وأمنع من بيض الانوق . ولقد كنا عاجلناها من قبل هذا بصلح فلم ينجع ، وأمهلناكم عسى أن تراجعوا أنفسكم فلم ينفع . وما ذاك الاّ لصَغْوِكم لسماسرة الفتن وأهل الوشاية ، وعدم احتراسكم من عقارب السّعاية ، حتى أوبقوكم خبالا ، وضرب الناس بكم أمثالا ، بينما نحن نتدبّر في حسم ذلك ، واغلاق أبواب تلك المسالك ، باقامة ثالث يكون ناظرا للشريعة ، اذ فجأنا أمر هذه الواقعة الاخيرة الشنيعة . فتبيّن لولي النعم ، ومنصف المظلوم ممّن ظلم ، سدّد الله أحواله ، وبلّغه من

نصرة دعوة الاسلام آماله ، بعد أن تحقق أمرها ، وعرف عجرها وبجرها ، أن الخرق اتّسع ، وأن السكوت عن ذلك لا يسع ، اذ قد انقسمتم طائفتين ، وتفرّقت عدولكم شعبتين ، وجاوز الحزام الطِّبْيَيْن ، وصارت الخطّتان في المعنى شاغرتين ، وتعسّر تمييز الحق من ضدّه . فاتّبع الطريق الاقوم ، وحاد عمّا يفضي الى التحكم . وتوجّهت همّته الزكية ، وفكرته القدسية ، الى حسم هذه القضية ، باقامة غيركم للأحكام الشرعية ، أداء لما يجب عليه لاقامة المراسم الدينية ، قائلا ان من لا ينقاد اليها ، كيف يؤمّن عليها ، أم كيف يتيسّر له اجراؤها في مجاريها . ودبّر أيّده الله في ذلك فأصاب، لولا أن الله تداركـكم بمفاوضة مع جماعتنا وقعت ، وشفاعات منهم بعد التي واللتيّا قبلت . فانثنى عمّا همّ به عزمه ، وغلبه والحمد لله حلمه . فاختار أيسر الطريقين ، لعلّ الله يصلح بين الفريقين . وتقدم لكم بالانذار ، مبالغة في الاعذار . فأمركم على لساننا أوامر يساعدها الشرع ، ويوافقها الطبع ، منها أن تلزموا أن لا تعودوا الى ما نهيتم عنه ، وأن يقوم كلٌّ بخطّته ويعرف ما ولي عليه ، فلا يتجاوز ذلك ولا ينتزي أحدكم على ما في ولاية الآخر . وأن تجتنبوا الخلاف المذموم الذي لا سبب له الا اتّباع الهوى ، فاذا اختلفتم في شيء فردّوه الى الله ورسوله عليه الصلاة والسلام ، بمراجعة موادّ الاحكام ، فان اهتديتم في ذلك والا فاعرضوه علينا ، عساكمَ أن تجدوا جوابه بنعمة الله لدينا . وأن تلتزموا حضور مجلس يوم الخميس على الوجه القديم ، ولتعطوا المجلس ما يستحقه من التعظيم ، فلا يباشر أحدكم صاحبه ، الاّ بما يقتضيه مقامه ويلائم منصبه . وأن تصرفوا الوشاة عن أبوابكم ، وتحرسوا من عقارب السعايات حوزة أعتابكم ، الى غير ذلك من الصفات المناسبة لمقامكم . اللهَ اللهَ في أنفسكم بادروا علاجها ، وأصلحوا مزاجها . فاتقوا الله وأصلحوا ذات البين ، وقابلوا تلك الاوامر المطاعة ، بالسمع والطاعة . فان رجعتم الى الحقيقة ، واستقمتم على الطريقة ، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا ، والا فربّما يسبق السيف العذل ، ويقع على الوجه الشنيع البشيع العزل ، بلا شفاعة شافع ، ولا يصغي اليه سامع . ويعود الامر الى ما كان ، وما شاء الله كان . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وكتب في ربيع الانور سنة 1233 (جانفي — فيفري 1818 م.) .

وفي شوال من السنة 1233 (اوت 1818 م.) ، وقع في الحاضرة طاعون . وأول من تنبه له حكيم من مسلمة الافرنج اسمه رجب الطبيب . ولما أخبر الباي بذلك ، أمر بضربه

وسجنه كالمجرمين ، فامتحن بسبب علمه . ولم يلبث أن فشا خطبه . ومات به أعيان من أهل العلم . ووصل عدد الموتى به في الحاضرة ، أكثر من الالف في بعض الايام ، ودام نحو العامين . وفيه استغاثة شيخنا :

يا الاهـي وأنـت نعـم اللّجـاء — عافِنـا واشفِنـا فمنك الشفـاء
ان هـذا الطاعون نـار تلظّـى — لقلـوب التوحيـد منهـا اصطـلاء
كم جمـوع تمزقـت وكبـود — وسـرور طـارت بـه العنقـاء
ذاك من ذنبنـا العظيـم كمـا قـد — جـاءنـا عـن نبيّنـا الانبـاء
يغضـب الله بالـذنـوب فتسطـو — حيـن تطغـى بوخـزها الاعـداء
هـو لا شكّ رحمـة غيـر أنّـا — يـا قـوي عـن حملهـا ضعفـاء
كم وكم رحمة لديك وتعطيهـا — بـلا محنـة اذا مـا تشـاء
ربّنـا ربّنـا اليـك التجـأنـا — مـا لنـا ربّنـا سـواك التجـاء
بـافتقـار منـا وذلّ أتينـا — مـا لنـا عـزّة ولا استغنـاء
نقـرع البـاب بالدعـاء ونـرجـو — فَلَنِعْـمَ الـدُّعـا ونعـم الرجـاء
ضـاق أمـر الـورى وأنـت المرجّـى — وسطـا ذا الـوبـا وعزّ الـدواء
والكتـاب العـزيـز بشّر باليسريـن — في عسـرنـا ومنـك الـوفـاء

وهـي طويلـة ، نحا فيهـا مناحـي الشاذلي رضـي الله عنه فيمـا اختـاره من خزائن الدعـاء .

وافترق الناس في هذا الطاعون الى قسمين : قسم يرى الاحتفاظ وعدم الخلطة بالعمل المسمى بالكرنتينة ، وربما ساعدته بعض ظواهر من الشرع ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « لا عدوى ولا طيرة » و « فِرَّ من المجذوم فرارَك من الاسد » ، أي لا عدوى مؤثرة ، نفى تأثيرها فبقـي أصلها ، مع دليل التجربة ، فان غالب من تحفّظ حفظه الله . مع اعتقاد أن المؤثّر هو الفاعل المختار الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يـريد سبحانه . وكأن هذا ينظر الى رأي عمر بن الخطاب رضـي الله عنه . وعلى هذا جماعة كشيخنا أبـي عبد الله محمد بن محمد بن محمد بيرم . وقسم لا يرى هذا الاحتفاظ ويرى التسليم الى مجاري القدر ، ومن المقدور لا يغنـي الحذر ، كشيخنا الكـاتب العالم أبـي

عبد الله محمد بن سليمان المنّاعي . وهذا رأي أبي عبيدة عامر بن الجرّاح ، عارض به رأي عمر رضي الله عنهما .

وألّف كل منهما رسالة حافلة في الاستدلال على رأيه بالنصوص الفقهية .

ومن القسم الثاني أبو عبد الله حسين باي ، فقد كان يسخر بأصحاب الكرنتينة ويقول لهم : « لا مفرّ من القدر » ، ويدور أزقّة الحاضرة وحارة اليهود ، لكثرة المرض بها . وقوّى بذلك قلوب سكّان البلاد .

وممن أصيب بهذا الوباء العلامة الصالح الامام الشيخ الطاهر بن مسعود ، أصيب في صلاة الصبح وهو بالمحراب وبقي ثلاثة أيام ، وتوفي في السادس والعشرين من صفر سنة أربع وثلاثين ومائتين وألف (يوم الجمعة 25 ديسمبر 1818 م.) ، وصار لجنازته موكب حافل بعد العهد بمثله ، بحيث لم يتخلف عن الجنازة من المسلمين الا من أقعده عذر البدن . وتقدم الشيخ الفقيه الشريف أبو الثناء محمود ابن الامام سيدي علي محسن اماما ثالثا بالجامع الاعظم بعد وفاته .

وهذا الطاعون هو أول التراجع الذي وقع في هذه الايالة بعد وفاة المرحوم أبي محمد حمّودة باشا ، لانه نقص به من الايالة قدر النصف ، وبقيت غالب المزارع معطلة لا أنيس بها .

وفي ربيع الثاني من السنة 1234 (جانفي — فيفري 1819 م.) ، قدّم الباي للحسبة أبا الربيع سليمان مَلَمْلّي ، وهي من الخطط الاسلامية التي زال مسمّاها وبقي اسمها . ودار مساجد الحاضرة ، ومعه مشايخها الثلاثة ، وعدول وأمناء ، ووقفوا على سائر عقار الاحباس العامة بالحاضرة ، وميّزوا مستقيمها ومهملها ، وأحصوا ما على المساجد وأمثالها من الاحباس رَبْعا وعقارا . ودفعوا دفتر ذلك الى الباي ، فأمر الوكلاء باقامة غير المستقيم ، وأمر القاضي بحساب الجميع على يد المحتسب .

وفي شعبان من السنة 1234 (ماي — جوان 1819 م.) تمّ انشاء الكرويطة التي ابتدأ عملها أبو محمد حمودة باشا في أواخر أمره ، وحضر أبو عبد الله حسين باي يوم جذبها للبحر في أبّهة (1) ملكيّة . وكان يوما مشهودا وموكبا معدودا ، وسماها المحفوظة.

(1) كذا في خ ، وفي ع وق : اهبة .

وفي ليلة السبت الثامن والعشرين من ذي القعدة من السنة 1234 (18 سبتمبر 1819 م.) توفي عالم العصر وشيخ الشيوخ ، الجامع بين شرفي النسب والاكتساب ، أبو محمد حسن ابن الشيخ الامام عبد الكبير الشريف ، امام الجامع الاعظم ، بمرض الوباء . وحزن المصر لفقده ، وحضر جنازته أبو عبد الله حسين باي وأبناؤه ورجال دولته وسائر أهل الحاضرة . وتزاحمت الاكابر على حمل نعشه بالتناوب ، وأكثرهم حملا حسين باي ، ونزل الى قبره بنفسه ، وحمل جسمه الشريف عند مواراته . وتولى عوضه اماما أولا بجامع الزيتونة أخوه الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد الشريف . وقام مقامه في خطة الفتوى عالم المالكية أبو الفداء اسماعيل التميمي ، وقام مقامه في خطة القضاء الشيخ أبو النجاة سالم المحجوب ، وذلك يوم عيد الاضحى . وقام بخطة القضاء باردو الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد السنوسي الكافي ، وكان قاضيا ببنزرت فَأُتِيَ به ، وتولى عوضه فيها الفقيه عبد القادر التميمي .

وفي سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف 1235 (1819/20 م.) ، جاء نعي أبي العباس أحمد خوجة كاهية بنزرت ، وكان عالما فقيها ذكيا ، وجّهه الباي سفيرا عنه للشريف مولانا سليمان سلطان المغرب ، فتوفي بفاس ، وأولى أخاه عوضه في بنزرت .

وفي محرم من السنة 1235 (اكتوبر — نوفمبر 1819 م.) ، ظهر للباي الزام أهل الساحل بأداء العشر على زيت زيوتهم .

وقد كانوا يؤدون على كل شجرة منه نزرا يسيرا من النواصر (1) ، أثمر أو لم يثمر ، يسمى القانون . وذلك على عهد عثمان داي . وعدّ سائر شجره ، وكل ما غرسوه بعد القانون لا قانون عليه . وبذلك كثرت الشجرة المباركة في الساحل ، وبها نما عمرانه ، فضجّ أهل الساحل من العشر ، وتعللوا بما لا يجوز شرعا ولا عقلا ، فأمر باحضار أعيانهم ، وألزمهم الحجّة بأن لا فرق بين الصلاة والزكاة في الملّة الاسلامية . وكتب لهم أوامر من انشاء شيخنا الكاتب أبي عبد الله محمد المنّاعي ، نصّها : « الى من يقف على أمرنا هذا من العلماء الاعلام ، والفقهاء الكرام ، والمفتين والقضاة ، والكواهي والاغوات ، والقواد والمخازنية ، والمشايخ والرعية ، والخاص والعام ، من ذوي الاحكام ،

---

(1) ناصري ج نواصر : « الناصري الذي هو جزء من تجزئة الريال الى اثنين وخمسين » ، الصفوة 2 : 59 .

سدّد الله أحوال الجميع ، ووفّق الكلّ لصالح العمل وحسن الصنيع . وبعد فاننا أسقطنا عن كافّة أهل سوسة وكافّة عملها القانون المرتّب على الزيتون بغابة سوسة والغيّب (1) التي بوطنها ، بحسب كل زيتونة أربعة نواصر ، في مقابلة عشر الزيت الذي التزموا بأدائه ، لنصرفه في مصارفه الشرعية ، التي بيّنتها الآية الكريمة وأوضحت تفاصيلها السنّة المحمدية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية ، نيابة عن المسلمين، لان الله سبحانه قلّدنا أمورهم وكلّفنا النظر في مصالحهم ، والقيام بحماية حوزتهم ، واقامة الفروض الشرعية ، واحياء المعالم الدينية ، اسقاطا تامّا ، فلا يطالبون بشيء من القانون المذكور . وأذنّاهم يلتقطون حب الريح ويعصرونه ولا يؤدّون لنا عشره ، وانما يؤدّون ذلك بأنفسهم لمستحقّيه ، موكول ذلك لامانتهم وديانتهم كزكاة العين ، الى أن يدخل شهر أكتوبر الاعجمي ، فاذا دخل اكتوبر فلا يلتقطون شيئا من حب الريح ، ويلحق بغير حبّ الريح . وأذنّاهم يتصرفون في غابتهم كعادتهم السابقة ، بحيث يحتطبون منها الحطب ، وتسرح فيها مواشيهم ، ودوابّهم ترعى العشب النابت بها . وحكمنا لهم بأنهم يأخذون البلبّة والفيتورة (2) ، بعد أن يعصر الزيت ، ويعطوه حقّه في العصر ، ولا يتعرض لهم أحد في ذلك ، وبأن قايد الوطن لا يتعاطى شيئا من أحوال العشر ، ولا يدخل فيه بوجه من الوجوه ، وانما أمر العشر مفوض لمن نوكّله على قبضه منهم وجمعه ، وعلى رعي مصالحه ، فهو الذي يدفعون له العشر ، ويتولّى قبضه منهم ، ولا يأخذ منهم أجرا على ذلك ولا خدمة ، لا قليلا ولا كثيرا ، لاننا نحن نعطيه أجره على جمعه لذلك ، لان أجر العامل على الزكاة من الزكاة أو من بيت المال ، حكما تامّا أمضيناه ، وألزمنا كلّ من يقف عليه العملَ بموجبه ومقتضاه ، وعليه لا يخالف سبيله ولا يتعدّاه ، والامر كلّه بعد هذا وقبله لله ، والسلام . وكتب في موفى ثلاثين من محرم الحرام سنة 1235 ، خمس وثلاثين (18 نوفمبر 1819 م.) .

وسترى ان شاء الله تعالى في هذا الوضوع ، ما طرأ على هذا الزيتون من الحوادث المتنوعة ، وبه ترى عيانا أسباب الوهن والنقص في الممالك الاسلامية .

---

(1) غيب : غابات (دوزى)

(2) البلبة : تفل الزيتون المعصور بانيد (Marc) والفيتورة : التفل الذى يحصل عند ما يسحق الزيتون بالمعصرة ويعصر منه الزيت (Grignon)

وفي الثامن والعشرين من جمادى الثانيـة من السنة 1235 (الاربعاء 12 افريل 1820م) صنع الحاج أحمد باش حانبة ضيافة لابـي عبد الله حسين باي في بستانه بالعبدلية ، وبالغ في السرور والاحتفال ، ولما رجع في العشـيّ طاحت به الـكـروسة ، وكـان معه فيها وزيره حسين خوجة باش ممـلوك ، وحفـتّهما الالطاف ، وفرحت البلاد بعافيته ، وكـان محبّبا الى أهلها ، وزيـّنت أسواقها ، وتنافس الناس في ذلك .

وفي هذه السنة كـان نبأ امتحان عالم المالـكـية الشيـخ المفتـي أبـي الفداء اسماعيل التميمي ، بسبب أن بعض الوشاة نقل عنه أنه استخرج من جفر أن دولة الباي قـــرب انقراضها ، وأنه يطعن فيما لا يوافق الشرع من تصرّف الدولة .

ولما بلغ هذا النبأ للباي من قائله ، عزم قبل التبيـّن على نـكـبته .

فلما كـان يوم الاحد الحادي عشر من ذي القعـدة سنة 1235 (20 أوت 1820 م) أتى الفقهاء للمجلس ، واجتمعوا في بيت الضيفاف على العادة ، ينتظرون الاذن في الدخول ، ولما خرج لهم باش حانبة بالاذن ، أوصاه الباي أن لا يُدخل معهم الشيـخ اسماعيل ، ويُبقيه في البيت .

ولما أتاهم قاموا ، والشيـخ من جملتهم ، فقال له باش حانبه : « لا اذن لك في الدخول ، واجلس هنا » .

ودخل أهل المجلس ، فقرر لهم الباي ما بلغه عن الشيـخ ، ولم يعيـّن الناقل ، ولا طلب من المدّعى عليه بهذا الذنب الموبق جوابا ، وأمر بنفيه الى بلد ماطر .

فوجم أهل المجلس ، ولم يفه واحد منهم ببنت شفة . وأحضرت له كـريّطة فركـبها من باردو الى محلّ نفيه ، وهو بلد ماطر . ونفي العدل الذي كـان يستعين به في الـكـتابة ، وهو الفقيه الموثق أبو عبد الله الحاج محمد بن يونس ، الى منزل تميم . وسجن أتباع هذا العالم بالـكـرّاكـة ، وكـانوا من أماثل الناس ، وهم محمد العوفي ، والحاج محمد القلاّل ، وحسن الطبّاخ ، والحاج حسن بن عياد وشقيقه محمد ، وتشفع المجذوب الشريف أبو عبد الله محمد بن المهدي في شقيقه العربـي . وتسرحوا بعد ثلاثة أيام من السجن ، ولا سبـب لسجن هؤلاء الا اتّباع الشهوة المطلقة الملـكـية .

وتقدم لخطة الفتوى بعد هذا العالم ، الفقيه أبو عبد الله محمد ابن الشيخ المفتي أبى عبد الله محمد المحجوب .

وبعد هذا ندم الباي ، ولات حين ندم ، وسرّح الشيخ من نفيه في الثامن عشر من ذي الحجة (الثلاثاء 26 سبتمبر) ، فكانت مدة نفيه شهرا .

ورجع لاولاده وآله ، رافلا في الذاتيّ من كماله . وأقبلت العلماء والمدرسون على الاخذ عنه في علوّ داره . وصار بابه مناخ طالبي العلوم ، بعد أن كان مجمع تشاجر الخصوم . وزاده النفي رفعة ، والهضم سمعة ، ولله درّ القائل :

ان الامير هو الذي يضحي أميرا بعد عزله
ان زال سلطان الولاية فهو في سلطان فضله

وفي هذه السنة 1235 (1819/20 م.) أمر الباي باصلاح ساقية الجبل الاحمر ، ووصّل الماء من عين قصة لسقايات تونس كما كان . وأمر يهود الحاضرة بتنظيف فسقية الملاّسين ، وألزمهم الخدمة فيها بأنفسهم ، وجيههم وخاملهم ، والعاجز في بدنه يدفع عوضا للقادر منهم .

وقدّم لمباشرة ذلك الفقيه الوجيه ، مؤدب حفدته ، أبا محمد حسن ابن الفقيه العدل أبي عبد الله محمد التطاوني .

ودام العمل فيها مدّة ، واليهود في شدة ، لتخصيصهم بمباشرة العمل ، ومشاركة غيرهم في الانتفاع بالماء .

وما هكذا شأن ذمة الاسلام التي أخبر الصادق صلوات الله عليه بأن انتهاكها مؤذن بالذلّ والصغار .

ومن أسباب ذلك ضعف القوة ، ومن أسبابه ضياع الحامية وآلات الدفاع . ومصداق ذلك أنه في محرم من سنة 1236 ، ست وثلاثين ومائتين وألف (اكتوبر — نوفمبر 1820 م.) أمر الباي باخراج المراكب الحربية من مرسى غار الملح ، لوقوع ردم بباب البوغاز ، فجذبت بمشقّة ، وكادت أن لا تخرج .

ولما وصلت لحلق الوادي ، وقد أثّر فيها الجرّ خللا ، أمر باصلاحها وشحنها بالآلات والعسكر ، وكانت ثمانية : الفرقاطة الزهراء ، والفرقاطة الهجينة ، والفرقاطة المحرزية ،

والفرقاطة الاسلامبولية ، والكرويطة الجديدة ، والكرويطة الاسبنيورية ، والبريك الكبير ، والسكونة الكبيرة . وأمير الاسطول المذكور أبو النخبة مصطفى رايس ، والرؤساء محمد لازاغلي ، ومصطفى تكرور ، ومحمد رايس ، وسليمان رايس الارنووط ، ومراميش رايس ، ومصطفى قاره قلقجي ، وكشلك محمد ، ومحمد رايس طاطسز .

وكان استعدادها لحرب الجزيريين لمّا نكثوا الصلح المنعقد في سنة 1232 ، اثنين وثلاثين (1816/17 م.) ، بأخذ مراكب لبعض تجار تونس في رمضان سنة 1235 ، خمس وثلاثين (جوان — جويلية 1820 م.) . ولما تم تعميرها ، ونشر الرايةَ أميرُها ، أقلعت للجزائر . فردّها الريح الى حلق الوادي ، وأرست أمامه .

ولما كان يوم الاربعاء الرابع من جمادى الاولى في السنة 1236 (7 فيفري 1821 م) الموافق للسادس والعشرين من يناير (1) ، في الايام المعروفة عند العامة بالعزارة ، قوي الريح الشرقي ، وتعذّر عليها الخروج ، فألقاها الى ساحل حمّام الانف ، ولم ينج الا كشلك محمد ، لصغر مركبه ، وحزمه وتحيّله على الخروج في المبادىء ، وأصبح الاسطول صريعا بحمام الانف ، وتوالت أيدي الامواج في فصله بعد وصله ، فأركب الباي وزيره أبا عبد الله محمد العربي زرّوق ، وخير الدين آغة وغيرهم من الاعيان ، وطارت بهم عقبان الخيل في ذلك المطر ، وحملوا الثياب وما يلزم لنجاة من يخرج بالسبح ، ونصبوا أخبية على ذلك الساحل . فسلم من دافع عنه الاجل المقدّر ، ومات ما ينيف على خمس عشرة مائة . وانكسر أكثر ما بحلق الوادي من مراكب التجّار ، ودامت هذه الريح أيّاما ، ورعود الامواج تسمع بالحاضرة من ثمانية عشر ميلا كأنّها عند سور البلاد . وضاع هذا الاسطول بما فيه من المدافع والسلاح وآلات الدفاع ، وحصل لتونس أمام الجزائر ذل وصغار .

ثم ان الدولة العلية العثمانية وجّهت رسولا لعقد الصلح بين الجزائر وتونس ، فانعقد يوم الثلاثاء منتصف جمادى الثانية (20 مارس 1821 م) ، على رد جميع ما أخذ للتونسيين ، ونادت باعلانه أفواه المدافع في يومه صباحا ومساء ، وكفى الله المؤمنين القتال . وكان ذلك في السنة 1236 . وارتجل بعض الادباء في اليوم قوله مؤرخا : « لَمْ يُلْفَ في الحسن تاريخ كتاريخه (2) » .

(1) اى ينساير العجمي
(2) كـ تـ ا ر يـ خـ ه = 1236 بحساب الجمل

ولما ضاعت هذه الشقوف بما فيها ، وانشاء عوضها بحلق الوادي يستدعي طول زمان ، وجّه الباي الرئيس أبا محمد حسونة المورالي وأبا العباس حميدة عزيز لانشاء شقوف بمرسيلية ، في هذه السنة التي خرج فيها القريق عن طاعة الدولة العثمانية في زمن معيّن ، تآمروا فيه للثورة في كل بلد ، وحمى الله قاعدة الاسلام ، وانكشف أمرهم قبيل الزمن المعيّن بيسير ، وقتل أكبر البطارقة بالقسطنطينية .

وفي هذه الحرب وجّه الباي أسطولا ممّا حضر بمرسيلية ، ومما اشترى به سبعة مراكب حربية ، أميره أحمد قبطان المورالي ، اعانة للدولة .

وركب أبو عبد الله حسين باي الى حلق الوادي يوم خروجها ، وكان في غرة محرّم من سنة 1237 ، سبع وثلاثين ، (الجمعة 20 سبتمبر 1821 م) وأردفه بمركبين حربيين .

وفي هذه الحرب كاتبت الدولة سائر ممالكها الاسلامية في التحريض على حماية الدين وجمع عصابة المسلمين ، وكاتب علماؤها علماء الاسلام ، فأتى الباي محمود باشا مكتوبٌ من الدولة ، ومكتوب من شيخ الاسلام الى رئيس المجلس الشرعي بتونس أبي عبد الله محمد بن أبي عبد الله محمد بيرم وجميع العلماء .

وكان هذا المكتوب باللغة التركية ، وعرّبه الكاتب صالح خوجة بيت المال ، وأجاب عنه الشيخ بيرم بما نصه :

« رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِين. ان أحسن ما تشرّفت به الامة المحمدية ، وتجمّلت به العصابة الاحمدية ، اتّباع أوامر الله ونواهيه ، وبذل الجهد في اعلاء هذا الدين وتشييد مبانيه ، اقتداء بصدرها الاول ، وعملا بسنّة نبيّها المرسل . ولعمري ان هذا في العبارة وان كان سهلا بيّنا ، ففي ابرازه للوجود ليس هيّنا ، لتوقفه على إمدادات الاهية ، وهداية ربّانية ، وداع الى الله بلسانه ، وعامل عليه برمحه وسنانه . وقد تطابقت جملة الانباء في سائر البلاد ، من جميع العباد ، ان القائم بهذا الشان ، والحائز قصب السبق في هذا الميدان ، ومجدّد الدين بعد الاندراس ، ومظهر أعلامه بعد الانطماس ، هو الدولة العثمانية ، أعلى الله منارها ، وضاعف اقتدارها ، وأنام الانام في ظلّها ، وأعاد عليهم من فضل فضلها ، فلم تخل — والحمد لله — من أمام يهدى الى الحق والى الصراط المستقيم ، ناهجين في نصح العباد مناهج الاصفياء . وقد

ورد علينا من حضرة مولانا شيخ الاسلام ، وامام العلماء الاعلام ، ومرجع الحكّام في الاحكام ، لا زالت أقلامه في بحار العلم سابحة ، ومواعظه للقلوب جارحة ، وتجاراته عند الله رابحة ، كتاب كريم ، هادٍ بأوامره ونواهيه الى الصراط المستقيم ، لا يقابله كلُّ مؤمن الا بالقبول والتسليم ، وكيف لا ؟ وقد جاء بالذكرى التي تنفع المؤمنين ، المأمور بها في الكتاب المبين ، حاثّا على الجهاد ، والتشمير عن ساق الاجتهاد ، بتعاطي أسبابه، وطرح الامور الصارفة عن بابه . فاجتمع لقراءته أعيان بلدنا من العلماء وغيرهم بمحضر الامير جمعا ، وفتحوا له قلبا وسمعا ، وتلقّوه بالقبول ، والمبادرة الى امتثال وعظه بالفعل والقول . والله تعالى يؤيد مولانا السلطان بمدد نصره ، ويجعل أعداء الدين تحت قهره ، ويعلي رايته الشامخة في البر والبحر ، ويكتب على صفحاتها سورة الفتح والنصر . والسلام اللائق بجلالكم من العبد الفقير محمد بيرم » . نقلتها من خطه رحمه الله .

ثم ان الشيخ أمر خوجات الجوامع الحنفية بالدعاء جهرا عقب كلّ صلاة بما نصّه : « اللهمّ أيّد سلطاننا بالنصر والفتح المبين ، وانصر عساكر الاسلام الموحّدين ، على أعدائنا القوم الكافرين ، بحرمة سيد الاولين ، صلّ اللهم وسلّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين » ، ثم يؤمّن على الدعاء .

واستمرت هذه العادة من يومئذ الى يومنا هذا .

وأيمّة المالكية يدعون سرا بالمحاريب اذ لا خوجات بها .

وأقول ان جواب الشيخ هو ما يقتضيه حال الوقت . وانظر قوله في شأن الاقتداء بالصدر الاول : « ان هذا في العبارة وان كان سهلا بيّنا ، ففي ابرازه للوجود ليس هيّنا » ، تر الاشارة الى الواقع . وليت هؤلاء « العلماء العاملين ، ورثة الانبياء ، الناهجين في النصح مناهج الاصفياء » نصحوا سلطانهم ، والدين النصيحة لله ورسوله وأيمة المسلمين وعامتهم ، بما يجب من الرعي لذمة الاسلام ، ووصاية المرسل لهدي الانام ، من النظر في أهل الذمّة بما أمر الله به من العدل في عباده ، بسائر أرضه وبلاده ، سواء في ذلك المسلم وغيره . ومن النصح أن يبيّنوا لهم ما بَيْن صَغَار الجزية والظلم من الفرق ، اذ بينهما ما بين الغرب والشرق . والصّغار ربّما يقود الى الجنة بالايمان ، والظلم يلجيء الى نار الفتن والخروج على السلطان . وقد وقع من التواتر ما أفاد اليقين وملأ البقاع ، ما كان عليه هؤلاء اليونان أيام عسكر الينجرية من العسف والضرر والبؤس ، وسلب الاموال

واتلاف النفوس ، لا سيما أوقات خلاص الجزية والخراج ، فان الشدة تقوى بما ينبو عنه الطبع وينفره السمع وتقشعرُّ منه الجلود ، وهو الذي ألجأهم الى القاء أنفسهم في نار الحرب، واستعذبوا فيها طعم الموت . وللمسلم أن يدافع عن نفسه وماله أخاه المسلم ، ولو أدّى الى القتل ، وان مات فهو من الشهداء . وغير المسلم اذا اضطرّ ، يلجئه الطبع البشري الى ما يلجئه ، والله لا يظلم مثقال ذرّة ولا يهدي القوم الظالمين .

ولقد سمعت في اسلامبول من بعض علمائها العالمين بالشريعة تحقّقا لها واتّصافا بها ، أقسم بالله أنه كان يتوقع ما وقع ، لان الحال يقتضيه ، وأقوال الرسول واردة فيه ، والامر لله وحده .

هذا في ذلك الزمان ، أما هذا الزمن الذي أشرق والحمد لله بالتنظيمات الخيرية ، والتسوية التي هي بجلب المصالح ودرء المفاسد حريّة ، والتكاليف مشروطة بالامكان ، ولا يكلف الله نفسا الا وسعها ، وفي غزوة الحديبية ما يوسع المضيق ، ويهدي الى الطريق ، فالخروج — والحالة هذه — غير متعيّن ، بل هو ظلم بيّن ، لما ينشأ عنه من إتلاف النفوس وضياع الاموال وتعطيل موادّ الاعمال بين الفريقين ، والله لا يصلح عمل المفسدين .

وفي الرابع من محرم سنة 1237 ، سبع وثلاثين ومائتين وألف (الاحد 1 اكتوبر 1821 م) ، عجز الداي أبو العباس أحمد الباوندي عن القيام بالخطّة لعجز الكبر ، ولزم تأخره . وقدّم الباي للخطة الداي فيضي ، وكان خيرا عفيفا حازما ، ليّن العريكة، ممتزجا بأهل البلاد ، عارفا بمنازل الناس ومقامات أعيانهم ، محبّبا فيهم ، محمود السيرة الدالة على حسن السريرة . تنقّل في الخطط ، وتقدم عوضه في بيت المال الحاج مصطفى التركي . وتوفي أحمد الباوندي بعد تأخّره بخمسة أيام .

وفي ربيع الاول من هذه السنة 1237 (نوفمبر — ديسمبر 1821 م) ، كانت ولائم أعراس أبي الفداء اسماعيل كاهية ، وكان يومئذ آغة ، على حفيدة الباي بنت ابنه أبي عبد الله حسين باي ، وأبي الحسن علاّلة قايجي ربيب الباي حسين ، على أختها ، والعقد على أختها لابي عبد الله حسين خوجة .

وفي غرة محرم من سنة 1238 ، ثمان وثلاثين (18 سبتمبر 1822 م.) ، وجّه الباي هدية من خيل البلاد وفارِهِ بغالها وجيّد نسجها ووحوش فلاّتها ، الى عزيز مصر أبي

عبد الله محمد علي باشا ، مع الكاتب باللغة التركية أبي العباس أحمد حافظ خوجة ، فقابلهم العزيز باكرام واحتفال وإقبال .

الخبـــر عن

مقتل الوزير أبى عبد الله محمد العربى زروق خزندار

السبب في نكبة هذا الوزير أنه كان مُدِلاً على الباي باعانته على الفتك بابن عمّه عثمان باي ، كما تقدم ، حتى امتطى صهوة الولاية . ويمُتُّ لاولاد الباي بخُؤُولة الرّضاع . وكانت له نفس أبيّة ، ورام السير على قدم من تقدّمه حذوَ النّعل بالنعل . وحجب القدر بصيرته عن سبب نكبة السابق ، وأتى ما كان ينقمه على غيره ، فتوجهت الآمال الى بابه ، معرِضةً عن غيره ، وانفرد بأمر المملكة ، وكَبَحَ عنها من سواه . وازدرى بأولاد الباي ، لِمَا يمتّ به اليهم ، مع أن أكبرَهما هو الباي حقيقة ، ونسبة الامور الى والده نسبةٌ مجازية . وثقل ذلك عليهما وآسفهما ، كما آسفهما حالُ يوسف صاحب الطابع ، فاجتبى أبو عبد الله حسين باي صهرَه وثقتَه المقرَّبَ حسين خوجه باش مملوك ، أحدَ مماليك الوزير يوسف صاحب الطابع وابنَ تربيته ، وأرخى له عنان التصرف في مشارطة العمّال والمداخيل التي كانت تقيّد بزمام الصرايا ، وأعان شراعه بنواسم عنايته ، فسار في لجج الرئاسة ، وزاحم الوزير الشريف حتى غصّ به ، وصارت تصدر منه فلتات تدلّ على تنغّصه ، الى غير ذلك مما تنتجه قضايا الغيرة والمنافسة بين المتعارضين من الاكْفَاء . وظهر للعيان ميلُ حسين باي الى حسين خوجة . ومع هذا فلم يزل الوزير العربي زروق يدعو حسين خوجة باسمه مثل ما يدعو ابنه ، غيبة وحضورا ، على ما اعتاده حالَ صغره ، وهو بين يدي سيده صاحب الطابع ، وباش مملوك يتنفّس الصعداء من ذلك ويراه تنقّصا وازدراء . وبذلك وجد حسّاد الوزير العربي زروق السبيل الى الوشاية به ، والتزلف لضدّه بما يذكرونه من مساوئه ، لِمَا يجدون من الاذن الواعية .

ووجد حسين خوجة الفرصة لطلب ثأر سيّده والانفراد بالرئاسة ، فأعمل الفكر في نكبته ، وأسرّ الى سيّده أبي عبد الله حسين باي ، ما يسمعه من الوشايات التي منها أن الوزير بالغ في استمالة جند الترك على يد صهره الحاج مصطفى ، وكان من أعيان

الترك . وأذكى العيون على باب داره بالحاضرة ، فأخبروه أن أعيان الجند يأتون لمسامرته . وأُتِيَ برجل من طرابلس يزعم أن عنده أثارةً من علم الرّمل ، ونقل عنه أن العربي زرّوق يسأله عن أمد انقراض الدولة ، الى غير ذلك من حديث خرافة .

وحسين باي لا يكتم شيئا عن أخيه مصطفى باي ، فأتيا والدَهما وأخبراه الخبر ، مع ما في نفوسهما على الرجل من معارضته شهوتَهما ، ونظرهما بالعين التي كان ينظرهما بها أيامَ الصغر ، وما في نفس الباي من نكيره على ابنه الكبير ، وهو الذي فوّض له في التصرف ، وحبُّ الولد طبيعي في كل حيٍّ ، فقال لهما : « نعلم أكثر من هذا وكما قام معنا لاخذ الملك يقوم مع غيرنا » . وأمر ابنه باعتقاله حتى تقوم عليه حجّة .

ولما كان يوم الاحد الحادي عشر (1) من صفر السنة 1238 (27 اكتوبر 1822 م)، أمر حسين باي يوسف كاهية دار الباشا أن يقف عند باب النحاس ، وقال له : « اذا مرَّ العربي زرّوق خارجا لداره ، فتقبَّضْ عليه واسجنه في بيت المماليك » . واستحيى أن يواجهه بذلك مشافهة .

ولما خرج تعرَّض له يوسف كاهية وقال له : « ان سيدنا أمرني بسجنك في بيت المماليك » . وكان ذلك على حين غفلة ، من غير تشاور ، ولا احضاره للجواب عمّا نسب اليه ، شأن الملك المطلق ، فتوجه للسجن وحده والكاهية خلفه ، ولم يتغير من وقاره ولا من حاله شيء .

وانما أخّر قتله رجاءَ أن يتقرب أحد بما يقوّي شبهة التهمة ، فلم يأت أحد .

ولما كانت ليلة الثلاثاء الثالث عشر (2) من صفر 1238 (29 اكتوبر 1822 م) ، أمر الباي بقتله ، فأتاه يوسف كاهية دار الباشا بعد العشاء ، ومعه رجال من أعيان المماليك بالسرايا بسلاحهم ، وأخرجه من محبسه ، فأخذ طريق السرايا ، ظنّا منه أن المراد إحضارُه بين يدي الباي ، فردّه يوسف كاهية ، فعلم المراد ، وتقدّم ماشيا ، وبيده سُبحة من المرجان يسبّح بها ، ولم يزل ماشيا بوقاره وقِناع تجمّله . ولما وصل الزندالة عدل وحده الى موضع الخنق ، وجلس على حصير به ، وجعل حبل المنية بيده في رقبته ، وقال

(1) هو 10 حسب التقويم
(2) هي 12 حسب التقويم

متعجبا : « الله أكبر ، أي شيء فعلت ؟ » فقال له يوسف كاهية ، على غلظته ، : « أنت تعرف ما فعلت » ، فقال له : « ليس الخطاب معك يا رأس البغل » . ونفذ فيه أمر الله ، وذهب مع أمثاله كأس الدابر .

وبعث الباي بشلوه الى تربته بالجلاّز ، فغسل بها ودفن ، خشية عبث السفهاء بجسده الشريف ، كما وقع لابي المحاسن يوسف صاحب الطابع .

واعتقل ابنَه واستصفى أموالَهما ، وعمّت النكبة أصحابه وأتباعه (1) ، كالفقيه أبي العباس أحمد بن رجب ، لتهمته بأنه ينظر له في النجوم ، والقائد الوجيه أبي العباس أحمد العيّاري ، فضربا خمسمائة سوط ، وسجنا بالكرّاكة . ونفى صهره الحاج

---

(1) بهامش ق ، ج 2 ص 139 بخط مغاير ، صورة خطاب من العربي زروق الى صهره الحاج مصطفي عشي باشي ، هذا نصه :

الحمد لله — وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وسلم . حفظكم الله تعالى ورعاكم ، وكان لكم بمنه وكرمه وتولاكم . المكرم الاجل المرعى المبجل الامثل الاكمل الموقر المحترم ، صديقنا وصهرنا سيدى الحاج مصطفي عشي باشي ، اكرمه الله ورعاه ، وحفظه ووقاه . السلام الاتم ، الطيب المبارك الاعم ، عليكم ورحمة الله وبركاته ورضوانه وسعادته . وبعد فالواجب به اعلامكم خيرا ، هو أنك لما سافرت من عندنا ، تركتنا عندنا بعض تشويش ، وعندك علينا الخشية من مكر يوسف خوجة الذى كان خزنه دار ، وقد زاد بعدكم فى التشديد واظهار المكائد ، ويتلون بكل وجه من وجوه الخديعة ، وسعى بنا للموت مرارا فلم يساعده القدر ، وحاق به ما كان به فكر ، وظهرت عليه الخيانة والسعي بالفساد ، فى العباد والبلاد . وانكشفت سريرته لساداتنا ولاة افريقية المحميين بحماية الواحد الحى ، الكهف مولانا وسيدنا محمود باشا باى ، ولابنائه الرشداء ، وانجاله السعداء ، وان مراده يستقل بالملك دونهم ، فخسر الدنيا والآخرة . ولما تبين لهم ، أدام الله سعادتهم ، تحقيق مكره وغائلته بوجه لا شك فيه ، بلغهم من عدة طرق ، أقواها جواب من السيد الدولاتلى ، خديم مقامهم الشريف ، أجمعوا على قتله . فكان أول من باشره بضد ما كان يامله فينا ، العبد الفقير وابننا سيدى محمد صهركم . وأثقلناه جراحا ، وذبحناه صراحا ، بحضرة ولى النعم المولى محمود باشا أعزه الله . وأرسلناه لتونس فى شريول ، فكان من قدر الله أن سلط الله عليه العامة وأخرجوه من الشريول غصبا ، وجروه عريانا طافوا به مدينة تونس ، من غير اختيار لاحد . وبعد هذا وشبهه من تلويث حاله ، تفضل علينا المولى الاعز ، سيدنا نصره الله ، بولاية وظيف خزنه دار ، عوضا عنه ، وألزمنا لذلك حتما علينا . وألقى علينا حله الولاية ، ونظر بعين الرضا التام الذى كان فى حياة المصاب يخفيه . وقامت لنا أهل البلاد عامة وخاصة بالبشائر . أدام الله علينا هذا الفضل العظيم ، بمنه وكرمه آمين . والسلام من صهركم محمد العربى زروق خزنه دار ، عفى عنه ، آمين . فى 14 ربيع الاول سنة 1230 (الجمعة 24 فيفرى 1815 م.)

استدراك مبارك ان شاء الله : ان داركم ودارنا وابننا وجملة الاحباب كلهم بخير ، يسلمون عليكم . وايضا فان جميع تباعه ، مثل اللوز ومن له به علاقة ، أحطنا بهم اخذا ونهبا لديارهم وأموالهم ، ولا زالوا الآن مسجونين ، مطلوبين فى المال والرقاب ، والله شديد العقاب . والمؤكد به عليكم أنك تصنع لنا طابع (كذا) عظيم القدر ، فى حجر يمانى جليل الوصف ، تكتب فى دوره أسماء أهل الكهف ، وفى وسطه محمد العربى زروق خزنه دار ، وتاتي به فى يدك ان شاء الله تعالى ، واليكن (كذا) مثمن الشكل ، قدر دورته فى مقدار دورة المرحوم بالله سيدنا حمودة (باشا) باى ، المسمى طابع الشون ، وتصلكم تذكرة بها الطابع المذكور ليقاس عليه . وأيضا تأتى لنا بمحبرة آبنوس عظيمة ، شغل اسلامبول ، عمل أهل الظرف منهم ، أطرافها فضة ، لكاتبنا الفقيه سى محمد المسعود ، وهو يسلم عليكم كثيرا . ولا زائد الا خيرا . والسلام ختام .

(هذه نسخة مطابقة لاصلها المختوم بختم صاحبه)

مصطفى آغة بيت المال الى القلعة الصغرى ، وتولى آغة عوضه انجا باش حانبه ، وتولّى باش حانبة عوض انجا مصطفى البلهوان ، وتولى وكالة أبنية باردو زهير أحد مماليك اسماعيل باي ، وكان وكيلا بقرُنْبالية . وتنوعت بخواصّه النكبات ، وتفنّنت الحساد بعد موته بمقالات يتزلفون بها الى الباي والوزير بعده ، حتى إنهم نسبوه الى الكفر ، وادّعَوْا أنهم وجدوا صليبا في عمامته ، وهو لوح من فضة به حروف ، صنعه له بعض من يدّعي سرّ الحرف في طالع الزهرة ، ورأيته عند الوزير أبي عبد الله حسين خوجة بعد موته ، حتى قال بعض جهّال المماليك لحسين باي ، بمحضر جمع من الاعيان : « لا يبعد في حق هذا الرجل أن يقوم على دولة ، لانه يعرف كلّ حاجة ، حتى العوم في الماء » ، وصار يكرّرها ، ووجد الاذن الصاغية لهذا الهذَيان ، الذي عُدّ من الادلّة على ثبوت ما في نفسه من القيام ، الى غير ذلك من مقالات يستحيي الناقل من ذكرها ، حتى قال بعض الناس : « الاعتماد على عفو الله ورحمته بالقدوم على نفس محرّمة شريفة بالقتل ، وأخذ المال عمدا وعدوانا لغرض الشاهية ، والتجاهر بذلك أنسب من التعلق بهذا الهباء المنثور ، من الافك والزور ، ولا سيما في الملك المطلق الذي لا يسأل صاحبه عمّا يفعل الاّ في الآخرة » .

وسيأتي ، ان شاء الله تعالى ، لهذا الوزير مزيد خبر في ترجمته .

ولما مات أوصى الباي بكتمان موته عن أخته من الرّضاع ، السيدة آمنة زوج الباي وأم أولاده وبنت عمّه ، لمرضها المخوف . وقد كانت تواليه ويتوجه معها للتداوي بحمام الانف ، مع وجود مَحْرَمها زوج بنتها أبي الربيع سليمان كاهية . وتوفيت بعده بنحو الخمسة والاربعين يوما ، ليلة الثلاثاء ثالث ربيع الثاني من السنة 1238 (18ديسمبر 1822 م) . وحزن لفقدها أولادها حزنا لم يعهد مثله ، ووضعت على النعش أمام باردو ، وأولادها وراءها راجلين الى تربة أبيها . وأُعتِق عليها ما يُنيف على المائتي رقبة ، وسار نعشها مظلّلا بصحف حرّيتهم . وأفاض زوجها الصدقات ، وسرّح المساجين . وحزنت لفقدها المملكة سنة كاملة ، لكمالها الذي صيّرها في الحاضرة بمنزلة الام الشفيقة الرفيقة . وكان أخوها حمّودة باشا يَبَرّها بُرور أمّه . وهي من المعدودات في أفراد النسوة من جهة حسب النسب ، أبوها الباشا علي باي ، وجدّها باني البيت حسين بن علي ، وعمّها وحموها محمد باي ابن حسين باي ، وأخواها حمّودة باشا وعثمان باي ،

وزوجها الباشا محمود باي ، وولداها الباشا حسين باي والباشا مصطفى باي . والى ذلك يشير شيخنا العلاّمة أبو اسحاق ابراهيم الرياحي في تاريخها بقوله :

سكنتْ فسيحا في الجنان ظليلا   وقطوفها قد ذُلِّلت تذليلا
لا تحسبوها في الثرى ومَقيلها   يهوى الثريّا أن يكون مَقيلا
سِرّ الهمام ابن الحسين عليّ الـ   ـملك الذي اتّخذ الصّلاح خليلا
أم الملوك وأختهم وكفى بمحـ   ـمودٍ أميرِ المؤمنين حليلا

وفي يوم الاحد الثامن والعشرين (1) من جمادى الاولى من السنة 1238 (9 فيفري1822م)، رسم الباي برجا جديدا قرب مقام السيدة المنّوبية ، في الموضع الذي اختاره حمّودة باشا وذكره في رسم حبسه على الابراج ، مع برج الموضع المعروف بالمنيْزه ، خارج باب الخضراء ، وعاقته المنية عن بنائهما . وكان في موضع هذا البرج الذي رسمه ، مطحن يدور بالريح ، لابي الثناء محمود الجلّولي . وأشرف هذا البرج على التمام ، ولم يبق فيه الا جعل الابواب والمدافع ، وهو على حالته الى الآن ، لتطيّر بعض الملوك الاسلامية باكمال ما ابتدأه غيره ، ولا دليل على ذلك في خبر ولا أثر .

وفي منتصف شعبان السنة 1238 (الاحد 27 افريل 1823 م) ، توفي الداي فيضي ، ودفن بتربة ابراهيم داي ، قرب سيدي علي بن زياد رضي الله عنه ، لانه خدم معه باش حانبة ، وساء أهلَ البلاد موتُه . وولي عوضه عمر داي ، وكان آغة القصبة ، وتولى كاهية عوضه ، وتولى حسن كاهية له .

وفي الثاني عشر من شوال السنة 1238 (الاحد 22 جوان 1823 م) ، منع أبو عبد الله حسين باي أولاد عثمان باي من الخروج ، وحبسهم مع أمّهم بالمحل المعدّ لاعتقالهم بالدار الكبيرة ، وذلك لمّا توجّه والده للنزهة بالعبدلية ، وقد كانوا عنده بمنزلة الابناء .

وفي هذه السنة 1238 (1822/23 م) ، سقط جدار متداعٍ على امرأتين بالطريق فماتتا ، وتداعى أولياؤهما مع رب الجدار الى الحكم الشرعي ، فادّعى صحة الجدار وأنه لم يُتقدّم له بانذار في شأن تداعيه ، فأمر الباي أمناء البناء بالحاضرة بالدوران فيها مع

(1) هو 27 حسب التقويم

المشايـخ وعدلين ، فاذا وجدوا حائطا يُخشى سقوطه ، وضعوا عليه علامة بطين المَغْرَة ، وأمروه بازالة الضرر . وتلك العلامة هـي التقدم بالانذار ، بحيث تلزمه دية من يموت بسببه . واستمرّ هذا العمل من يومئذ الى يومنا هذا .

وفي الثانـي عشر من ذي الحجة 1238 (الاربعـاء 20 أوت 1823 م) ، ظهرت مراكـب من القريق في سواحل ثغور تونس ، تقطع الطريق على مراكـب المتجر ، وهـي المسماة بالزبنطوط (1) ، أي عارية عن النسبة . واشتدت وطأتهم بأخذ الاموال ، والتمثيل بقتل أصحاب المراكـب وتغريقها ، وتعطلت التجارة بسبب ذلك ، فجهّز الباي ثلاثة مراكـب حربية ، أمّر عليها حسونة المورالي ، فشرّدهـم من بحـار المملـكـة . وقطـع الله عمـوم ضررهم بسطوة الدول العظام .

وفي يوم عيد الاضحى من السنة (الاثنين 18 أوت 1823 م) ، عين الباي أميـرا على الحجّاج ، وهو السيد الشريف الماجد أبو عبد الله محمد بن عبد الملك العوانـي القيروانـي ، وضرب التارية في صحن جامع الزيتونة ، بعد صلاة العيد ، وطلع بها الى باردو ، ودار بها الاماكـن المعظمة ، ومعها صناجق من مقامات بعض الاولياء . والتارية في العرف طبل من نحاس على شكـل قصعة ، يضربه الضارب بعقال بعير ، ويترنم بنغمة حجازية بأبيات موزونة ، في التشوق الى بيت الله وحرم رسوله ، ويذكـر تلك المعالم المعظمة والمنازل الكـريمة . فاذا سمعها من لبّى عند أذان الخليل صلوات الله عليه ، يحنّ ويشتـاق ويستعدّ للحج ، ان استطاع اليه سبيلا . ولما سمعها الباي وأبناؤه ، ظهرت عليهم الـرقّـة والخشوع ، وذرفت عيونهم بالدموع ، كـغيرهم من الناس ،والاعمـال بالنيـات .

وهذه عادة قديمة في هذا القطر ، حين كـانت المشقّة في سفر البحر ولا وجـود للسفن البخارية . فكـان الغني من أهل المملـكـة اذا أراد السفر لقضاء فرضه في البـر ، يستأذن الباي ، ويكـتب له منشورا في إمارته على رفقته . فيضرب هذا الطبل تشويقـا للناس ، لتكـثر رفقته . وتوجهت هذه التارية الى الباشا أبـي الثناء محمود باي ، وهو في

(1) زبنطـوط من الايطـاليـة Sbandito : المنفى ، المبعد . وتوسع فى استعمالها فصارت تطلق على المتشرد ، والصعلوك ، واللص ، والقرصان (دوزى) . وتستعمل فى العـاميه التـونسيـة بمعنى الفقيـر المعـدم .

منتزهه بالعبدلية . وشأن هؤلاء الاغنياء في شيخوخة (1) ركاب الحاج ، اعانة الضعفاء من الحجّاج ، وحمل كلّهم ، ومواساتهم مما رزقهم الله ، ترغيبا في الحج . ومنهم من يحج بما يأخذه من الاجر على عمل بدنه في الطريق . ومنهم من يموت فيأتي أمير الحج بمخلّفه لورثته ، الى غير ذلك مما يلزم له الوازع .

وقد خرج صالح زيد أميرَ حجٍّ من تونس ، وخرج معه العالم الحاج حمّودة بن عبد العزيز قاضيا (2) . وخرج الحاج عمر المرابط أميرَ حجٍّ أيام الباشا علي باي ، وذلك في رجب من سنة ثمانين ومائة وألف (ديسمبر 1766 م) ، كما رأيته في منشور ولايته بخط الوزير العالم الاكتب أبي عبد الله محمد بوعتّور .

وسافر الشريف العواني الى الحجاز بالركب ، وقضى بمن معه من المسلمين فريضتهم ، وتوفي بالمدينة المنوَّرة خامس محرَّم من سنة أربعين (الاثنين 30 أوت 1824 م) ، ودفن بالبقيع في حمى جدّه صلوات الله عليه .

وفي محرم من سنة 1239 ، تسع وثلاثين ومائتين وألف (سبتمبر 1823 م) ، أمر الباي عدول الحاضرة المنتصبين للشهادة بلبس عمائم (3) الفقهاء والتزيّي بزيّهم ، وتوعّد من خالف هذا الامر بالعزل والعقاب ، ومن العدول شبّان وجهلة ثقُل عليهم هذا الزيّ ، ورأوه من التمثيل بهم ، باعتبار حالهم .

ويوم المولد النبوي من السنة 1239 (الاحد 16 نوفمبر 1823 م) ، قتل الباي أبو عبد الله حسين باي ، نيابة عن أبيه لمرضه ، نصرانيا بالسيف في بطحاء القصبة . وامرأة بالغرق في ماء البحيرة ، ومُكاريا على حماره بالشنق في المشنقة ، قتل ثلاثتهم في يوم واحد . والسبب أن المزوار (4) اشتكى بأن حمّالا حمل امرأة على حماره الى نصراني بالمرسى ، وبذكر المزوار أمر باحضارهم وقتلهم . وقال له بعض الجهّال : « هنيئا لك

---

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : مشيخ ، ويعبر بهذه الصيغة ـ هنا وفي مواضع اخرى ـ عن منصب الشيخ ووظيفته .

(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : شبه قاض

(3) كذا في خ ، وفي ع و ق : عمائم مثل المفتين والقضاة

(4) كذا في ع و ق ، وفي خ : « المزوال » ، وهو تحريف . فقد جاء في « الذيل » لحسين خوجة ص 186 ان المزوار هو صاحب الشرطة . وفي دوزي انها من البربرية « أمزوار » . أما المزوال فهو من وظائف الحفظة بجامع الزيتونة انظر الرزنامة التونسية 1320 هـ تاليف محمد بن الخوجة ص 65 .

يا سيدنا ، غيّرت هذا المنكر في هذا المولد الشريف » ، فالتفت الى شيخنا الكاتب أبي عبد الله محمد المنّاعي كالمستفهم ، فقال له : « يا سيدنا ان شريعة صاحب هذا المولد لا تبيح قتل واحد من هؤلاء الثلاثة ، بل أمرت في مثل هذا بالستر » ، فعارضه بعض الجهلة بأنه حد من حدود الله ، فقال له : « أين شروط اقامة الحد في مثل هذا ؟ على أن الكافر لا يقام عليه الحدّ ، لانه لم يدخل في الملّة ، وحسبه التعزير بما دون الحدّ . وأي حد على الحمّال صاحب الحمار ؟ » ، فاستحى وقال : « حملتني الغيرة لدين الله »، والله الغفور الرحيم .

وهذه خطة المزوار في الحاضرة ، كانت على عهد الملوك من بني أبي حفص ، وهي الحِسبة على تغيير المنكر ، ثم صارت الى ضدها في زمن الترك ، يتولاها الواحد على مشارطة مال معلوم ، ويحصي عدد العاهرات ويسرّحهن للتزوج بأنفسهن ممّن يرتضينه ، على بعض فتاوى المذهب الحنفي ، وفي اختلافهم رحمة . ثم اتّسع الخرق على الراقع وتفاحش الامر ، حتى أبطل هذه الوظيفة الشنعاء الباشا أبو النخبة مصطفى باي لمّا آل الامر اليه ، كما تراه في الباب الخامس ان شاء الله تعالى .

وفي الخامس والعشرين من ربيع الاول(1) (السبت 25 ربيع الاول 1239 ـ 29 نوفمبر 1823م) ، توفي الولي المجذوب صاحب الكرامات المتواترة (2) أبو المحاسن يوسف عريفات ، ودفن بمقام الولي سيدي مصطفى الجزيري ، على يسار الداخل من باب جامع صاحب الطابع . وهرع أهل الحاضرة للتبرّك بمشهد جنازته ، وتبركوا حتى بماء غسله . وكان هذا السيد على درجة من الزهد ، يمشي حافيا مكشوف الرأس حليق الذقن والشارب ، يميط الاذى عن الطريق ويأخذ الدراهم من الناس ويفرّقها على الصبيان والفقراء ، يلتحف برداء صوف ليس بينه وبين بدنه شيء ، صادقا في المعاملات يشتري السِفساري (3) نسيئة بعشرين ريالا ويقطعه ثلاث قطع أو أربع ، يبيع القطعة لعملة البرادع ونحوهم بريال فأقلّ ، ويقول : « المتجر يقطع سلاسل الفقر » ، حتى صار حاله مثلا في البلاد لمن يجهل حال التجارة ، ويقولون : « هذا متجر سيدي عريفات » .

---

(1) فى ع بزيادة : « من السنة » ، وفى ق بزيادة : « من السنة 1238 »

(2) فى ع و ق : الشائعة

(3) سفسارى ج سفاسر : رداء من قطعة واحدة غير مخيط تلتحف بـه المرأة اذا خرجت من البيت .

ويدفع ثمن السفساري لربّه بما اشتراه ، الى غير ذلك من حالات المجاذيب ، ولله في خلقه أسرار . سمعت من العالم الصالح بلسان الشرع ، أبي المحاسن يوسف بن ذي النّون الزوابي (1) الشريف ، وكان يسكن ببيت في صحن جامع يوسف صاحب الطابع ، منقطعا لعبادة الله ، وكان هذا المجذوب يبيت غالبا في صحن هذا الجامع تحت أديم السماء ، أنه سمعه يتلو القرآن داخل الجامع ، أمام المحراب في جوف الليل ، من حفظه بترتيل وأداء . ولما وقف عليه ، ناشده الله في كتمان ذلك ما دام حيّا ، ولما توفي نشر هذا الخبر . وأهل الحاضرة يذكرون له من الكرامات عددا كثيرا . والله يخلق ما يشاء ويختار . وهو من أبناء جند الترك المتأصلين في الحاضرة ، رحمه الله .

وفي رجب من السنة 1239 (مارس 1824 م) ، رجع العلاّمة أبو الفداء اسماعيل التميمي لخطّة الفتوى ، وتقدم على الفقيه أبي عبد الله محمد ابن الشيخ أبي عبد الله محمد المحجوب .

هذا ما تتوق له النفس من الحوادث في دولة الباشا أبي الثناء محمود باي .

حال هذا الباي

كان غرًّا كريما ، والمؤمن غرٌّ كريم ، حليما ذا همة عالية ونفس ملوكية .

سمعت من ابنه أبي النخبة مصطفى باي ، قال : « قبضت دراهم من جهة سراح (2) زيت وكانت ذهبا ، فجعلتها على مَعَدٍّ وشرعت في عدّها في بيتي ، فدخل والدي وأنكر علي ذلك وجعل يقول : أولاد حسين بن علي متاع عقاب الزمان (3) ، يعدُّون الدراهم بأيديهم على المعدّ مثل القُبّاض » (4) بهذا اللفظ ، وجعل يكرر ذلك مبالغة في الانكار .

[وكان] رقيق القلب ، سخيّ الطبع ، فكانت العملة من البنّائين والنجارين والخدمة يفرحون اذا كان له عمل بداره ، لكثرة ما يعطيهم من الذهب ، ويصنع لهم

(1) كذا فى خ ، وفى ع وق : الزوالى

(2) سراح ج سراحات : الاداء على ما يخرج من القطر من الحبوب والزيت والتمر والصوف والصابون (الصفوة 2 : 56)

(3) متاع عقاب الزمان : أهل آخر الزمان (فى طور انحطاطه وفساده) عامية تونسية

(4) كذا فى ع وق وفى خ : بأيديهم مثل القابض .

ألوانَ الاطعمة الفاخرة ، ويأمرهم بالراحة اذا مرَّ عليهم في الخدمة زمن من النهار . وكان وزيره أبو عبد الله محمد العربي زرُّوق يقول له : « أفسدت علينا الخَدَمة يا سيدي » ، فيقول له : « الشأن أن المحتاج حقُّه أن يفرح بالخدمة في أماكن الملوك » .

له مشاركة علمية اكتسبها أيام عمّه من الشيخ الامام أبي محمّد حمودة باكير. وربما نظم الشعر ، وكان ابنه حسين لما أتم العمل في بيته الكبرى بداره ، مدحها بأبيات بقي في حفظي طالعها ، وهو :

علوت يا بيت كل البيوت وحزت من بينها كل زين

يحب الخير لسائر عبيد الله عموما ولرعيته خصوصا ، ويتغافل عن مسيئهم ويُقيل عثرته ، ويتمدح باحتمال الهفوة .

وله شغف بأهل الحاضرة حتى إنه كان يتوجه للنزهة في الصيف بالعبدلية الصغرى (1) وقصره بها مشرف على الصفصافة ، موضع نزهة العامّة (2) من أهل البلاد ، فكانوا يتحاشون الجلوس والاجتماع والالعاب (3) من حيث يراهم ، إعظاما له ومهابة ، فبعث اليهم قائلا : « إن لم تفعلوا ما اعتدتم فعله من اللعب بالنرد ونحوه (4) وسماع آلات الطرب واستعمال الدخان ، رحلت من هذا القصر . لانّي أتيت للنزهة بالبحر ، وأعظم منها نزهتي بسروركم . وبودي أن أكون معكم ، لولا مانع المنصب » .

يغلب عليه الخير في أحواله ، حتى إن ابنه اذا عاقب أحدا بذنب ، يبعث له ويطلب منه أن لا يدعو على ابنه ، وربما تحلّله بالمال سرا .

يحبُّ الطِّيب واظهار نعمة الله عليه . ربّى نفسه ، زمن شبابه في دولة ابن عمّه ، بالانكماش في بيته ، فتطبّع بذلك ، حتى في أيام ولايته لا يخرج الا لحاجة . وكان لمحبّته في الطّيب يشغل نفسه باستخراج أرواح الرياحين ، وتصعيد أبخرتها وخلط بعضها ببعض ، وبرع في ذلك . وفي حاضرتنا عطر يسمّى « الفَشْوُش » ، هو الذي اخترعه وسمّاه .

---

(1) « الصغرى » ساقطة من غ ، مثبتة في ع وق .
(2) « العامة من » ساقطة من غ ، مثبتة في ع و ق .
(3) « والالعاب » ساقطة من غ ، مثبتة في ع وق .
(4) « بالنرد ونحوه » ساقطة من غ ، مثبتة في ع وق .

وله من المباني الانيقة ، البيت المعروف ببيت البلاّر (1) في قصر باردو ، وأبدع فيها (كذا) ما شاء من كسو حيطانها بالمرمر ، وتزيين سقفها بالصنعة المعروفة « بالعربي » مثل النقش ووراءه مرائي البلار ، ولطخ أخشابها بخالص الذهب . رأى أحد الموكّلين بالعملة يفتش في ثياب أحد الخدمة ، فقال له : « ما تفعل ؟ » ، فقال له الموكل : « أخشى أن يكون سرق من أوراق الذهب » ، فقال له : « عليه بالسرقة وعليك بالعسّة ، واذا لم يسرق من هذه الدار فمن أي دار يسرق ؟ » ، ونهى عن تفتيش الصنّاع وهتك أستارهم . وجعل مصاطب هذا البيت مثل سقفه . وهي موجودة الى الآن من أفخر البيوت بباردو ، وهي الآن المعدّة لقبول أهل المجلس الشرعي والمدرّسين يوم العيد ، وقناصل الدول وأعيان الناس .

وهذا الباي هو الذي فتح باب السرف في الترّف من الملابس والحلل وغير ذلك مما تتعلق به الشهوات الملوكية ، غافلا عمّا يقتضيه حال المملكة . ووزيره أبو عبد الله محمد العربي زرّوق يعاني شدائد السياسة في معارضته ومعارضة بنيه ، حتى كانت من أسباب نكبته .

أتاه فقير الى المحكمة يطلب صدقة ، فاستدناه وقال له : « أنا فقير مثلك ، ولو أعطوني أعطيتك » ، فأعطاه ابنه مصطفى باي . وخرج الوزير فأتاه بزمام القبض والدفع ، وقال له : « صدقت يا سيدي في أنك فقير ، وزمامك يشهد لك في قدر المقبوض والمصروف » ، فلم يلتفت للزمام ولا نظره . وكان الحال مستورا بمخلّف الوزير يوسف صاحب الطابع ، من النّاضّ والاموال المفرقة عند الناس للقراض وغير ذلك ، وبما غنم من أموال أتباعه ، وبكسب العربي زرّوق لمّا صاح به صائح الدهر .

وفي هذه السنة اشتد بالباي أبي الثناء محمود باشا مرض موته النقرس المصاحب له ، مع مرض السن (2) ، ولزم الفراش . وقبل وفاته بثلاثة أيام دفع خاتمه لابنه حسين باي ، فبكى وامتنع من قبوله ، إكبارا لابيه ، فقال له : « آمنني حمله في مضجعي ، ولا نأمن عليه غيرك ، فاحتفظ به » .

(1) بلار : بلور (دوزي)

(2) كذا في ق وع ، وفي خ : واشتد به مرض النقرس المصاحب له مع السن الخ ....

ولم يزل هذا الباي محبّبا الى الناس ، على اختلاف الاجناس ، يرفل في حلل الثناء الضافية ، والمملكة في مهد أمن وعافية ، وثروة كافية ، وأبناؤه يتسابقون في طاعته ، الى آخر ساعته . وكانت ليلةَ الاحد الثامن والعشرين من رجب سنة 1239 ، تسع وثلاثين ومائتين وألف ، وإمامه في الصلاة عند رأسه يتلو القرآن ، وهو يتشهّد . واتفق أن كان ابنه مصطفى باي غائبا بمحلّة الجريد ، لم يشهد وفاته . ودفن كأمثاله في تربة عمّه ، وما عبس المحزون بدفنه حتى تبسّم بولاية ابنه .

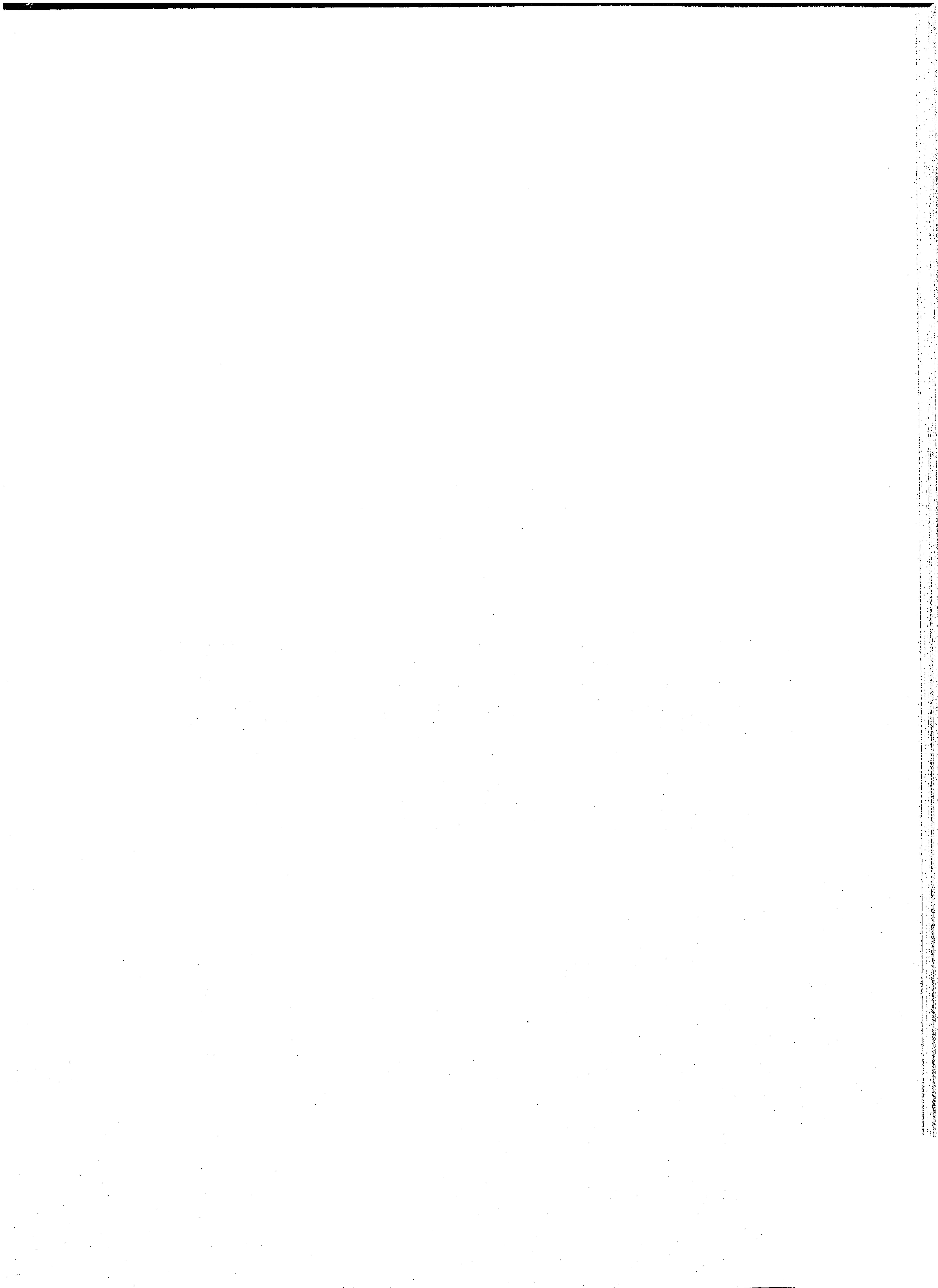


الباب الرابع

في دولة

الباي أبي عبد الله حسين باشا

ابن محمود بن محمد بن حسين بن علي



مولد هذا الباي يوم الخميس الثاني عشر (1) من ربيع الثاني سنة ثمان وتسعين ومائة وألف 1198 (4 مارس 1784 م.) ، وأمّه بنت عمّ أبيه المتقدم ذكر وفاتها .

بويع البيعة العامة صبيحة يوم الاحد الثامن والعشرين (2) من رجب سنة تسع وثلاثين ومائتين وألف 1239 (28 مارس 1824 م.) ، وطيّر لاخيه بمحلة الجريد (3) بنعي والدهما ، وأمره بأخذ البيعة عن الناس ، وسدّ ذرائع الفساد والفتن ، وتأمين السبل ، واستعمال الحزم . فقام بامتثال أمره ، وتمّم خلاص الجباية ، وقفل راجعا . وكان وصوله يوم الخميس السادس عشر (4) من شعبان السنة (15 افريل 1824 م.) . وقال لاخيه : « أنا لم أفقد بوجودك أبي ، فأنت الآن أبي » . وذهب الى التربة فزار قبر والده . وقام بطاعة أخيه ، واقفا عند أمره ونهيه . وكان بينهما من المحبة والالفة والوصلة ما لم يسمع بمثله ، أحكمت عَقْدَ ذلك أمّهما .

وافتتح الباي أمره بالعفو عن المذنبين ، واطلاق المسجونين والمنفيين . فسرح الشريف أبا عبد الله محمد ابن الوزير أبي عبد الله محمد العربي زرّوق من اعتقاله ، بعد أن لبث في السجن عاما ونصفا ، ثم رجّع اليه ما بقي من رَبعه وعقاره ، وقد فات المنقول . ورجّعه لوكالة أبنية باردو ، واختصه لمؤانسته ومجالسته ، وأدنى منزلته .

وسرّح الحاج يونس بن يونس وابنه من السجن ، لتهمتهما بضرب السكة . وسرح الحاج مصطفى التركي من النفي .

وأقرّ رجال الدولة والعمّال على مراتبهم ، وهم في الحقيقة رجاله وشيعته ، لان دولة أبيه محسوبة من دولته ، كما تقدم . وأيامه أيام صفو وراحة وأمن وسرور .

ووزيره أبو عبد الله حسين خوجة هو القائم بأحوال مملكته ، واقفا عند أمر سيده ونهيه ، محترسا من ذنب المراجعة لانه رأى نتيجتها . ومع ذلك لم يستغن الباي عن آراء بقية الوزراء ، كأبي الربيع سليمان كاهية ، وأبي عبد الله محمد الاصرم باش كاتب

---

(1) هو 11 حسب التقويم

(2) هو 27 حسب التقويم

(3) « بمحلة الجريد » ساقطة من خ ، مثبتة في ع و ق

(4) هو 15 حسب التقويم

[وكانا يعارضانه بابداء رأيهما] (1) ، وأبي عبد الله محمد خوجة أمين (2) الترسخانة ، وعبد الوهاب باش حانبة وغيرهم . ثم أردفه بالوزير شاكير صاحب الطابع .

وفي الخامس والعشرين من صفر سنة أربعين ومائتين وألف 1240 (الثلاثاء 19 اكتوبر 1824 م.) ، توفي آخر ذرية علي باشا بمحبسه ، واسمه يوسف ، ودفن بتربة جدّه الباشية قرب مدرسته . وقد زاره هذا الباي في محبسه ولاطفه وآنسه ، وأهدى له أنواعا من التحف والطيب ، وقال له : « المنافسة زالت بزوال أجدادنا ، ومهما أردت لقائي فلك ذلك » ، فقال له وكان شيخا مسنا : « قد ألفت هذا المحلّ [وتأنّست فيه بالعزلة] (3) مع ما ترى من ضعف البدن » . وكان يقضي حوائجه ويجيب مطالبه ، [ويهاديه بأنواع المطاعم في رمضان والمواسم ، قبل وفاة أبيه وبعدها] (4) .

وفي آخر ربيع الثاني من السنة 1240 (الثلاثاء 21 ديسمبر 1824 م.) ، فرّ الى جبل باجة رجل من حوانب الترك اسمه علي بن مصطفى ، معروف بتونس ، وادّعى أنه من ذرية الباشا علي بن محمد ، فالتفّت عليه أوغاد الجبل ، وانضمّ اليهم من يطلب الرزق بالفتنة ، وشنّوا الغارات ، واستاقوا الانعام من مراتعها ، وقتلوا من دافع عن ماله . فجهّز الباي محلة بالعسكر والمخازنية ، ومحلة بعسكر زواوة ، لنظر أخيه أبي النخبة مصطفى باي، وكاتب سائر المزارقية بالعروش ان يلتفوا على المحلة . وكانت المملكة يومئذ على قوّتها وثروتها بما يقتضيه حالها .

وخرجت المحلة يوم الخميس الثامن (5) والعشرين من ذي القعدة (14 جويلية 1825 م) . وسار مصطفى باي بجنوده ، والتفّ عليه المزارقية ، وقصد الجهة التي بها علي ابن مصطفى من الجبل ، وأنكى في القائمين بدعوته ، ودوّخ الشيحيّة وماكنة وعمدون وغيرهم ، حتى شرّده ومات بالجزائر طريدا .

وأغرم الجبلَ أموالا استاق فيها أنعامهم ، وخضد شوكتهم . وأبلى في هذه الواقعة زواوة والمخازنية بما بَعُد العهد بمثله من الصبر والشجاعة واقتحام الاوعار . وظهر فيها من ثبات خير الدين آغة ومصطفى صاحب الطابع ما لا يستطيع الجاحد جحده .

---

(1) هذه الجملة ساقطة من خ ، مثبتة فى ع و ق

(2) فى خ : « أمين » وفى ع و ق : أمير

(3) هذه الجملة ساقطة من خ ، مثبتة فى ع و ق .

(4) هذه الجملة ساقطة من خ ، مثبتة فى ع و ق .

(5) فى خ : الثانى ، وفى ع و ق : الثامن ، وهو الموافق لما جاء بعد ذلك عن تاريخ رجوع المحلة ومدة مغيبها .

ورجع مصطفى باي بالمحلة مظفّرا منصورا ، في الثامن والعشرين من صفر سنة احدى وأربعين ومائتين وألف 1241 (الثلاثاء 12 اكتوبر 1825 م) ، وكانت مدة مغيبه ثلاثة أشهر.

وفي أواخر ربيع الثاني من السنة 1241 (أوائل ديسمبر 1825 م.) ، وجد يهودي في حفرة قربَ الدبّاغين ، ينتظر أفرادا منهم له عليهم دين ، وبالقرب منه عجوز شوهاء مختلطة العقل لا إرْبَة (1) فيها ، فتمكن (2) المدينون بغريمهم اليهودي ، واتّهموه بأنهم وجدوه مع هذه العجوز ، قياما لله ، وهو قيام لمصلحتهم في ضياع دين اليهودي . ولما رجعت (3) النازلة بالمحكمة أمر بقتل اليهودي في ذلك الموضع ، فأسلم فلم يدرأ عنه اسلامه ذلك القتل الذي سمّي حدًّا . وجرُّوه من ذلك الموضع الى حارة اليهود ، وورثه بيت المال . وقتلت المسكينة المختبلة العقل بالغرق في البحيرة .

ولما اشتد النكير على الباي من بعض وزرائه في الاستعجال بالقتل من غير تأنٍّ ، والعجلة من الشيطان ، رام استفتاء العلماء في ذلك ، فثبّطه الوزير أبو عبد الله محمد خوجة أمين الترسخانة سرًّا ، فقال له : « سبحان الله ، لا يغار المؤمن لله ولدين الاسلام ؟ » فقال : « لا يغار بأكثر مما غار الله تعالى » .

وفي رجب من سنة 1240 (فيفري — مارس 1825 م.) ، اقتضى حال المملكة وقتئذ تبديل السكة بتنقيصٍ من فضتها ، لان التجار اذا لم يساعدهم شراء نتائج المملكة ، يُخرجون أعيان السكة . وبسبب ذلك قلّت في المملكة ، مع ما في تبديلها من ربح عاجل للدولة يؤول إلى ضررها بنقص ثروة المملكة الذي هو عمود الجباية . لان التجار لا يعتبرون في تجارتهم الا الريال الدُّورُو (4) الخالص . فجمع الباي ما أمكنه من ريالات المملكة ، وأعاد ضربها على هذا الوزن الموجود الآن ، وهو تنقيص ثُمُن أوقية من فضة الريال وإبداله بالنحاس .

وكانت زِنَة الريال خمسة أثمان الاوقية ، منها ثلاثة من خالص الفضة واثنان من النحاس ، فصار ثلاثة أثمان من النحاس وثمنين من الفضة . وضرب الريال الذي صرفه

(1) كذا في خ و ع ، وفي ق : لا ادب فيها للرجال .
(2) تمكن به : قبض عليه (عامية تونسية) .
(3) كذا في خ ، وفي ع و ق : رفعت .
(4) من الاسبانية Duro ، ومنه Douro الفرنسية .

ريالان ، ولا زال يتبع السكة السابقة ، وحَجَّر على أهل المملكة بيعَها للتجار ، ولا زال مُحَجِّرا في دولته ، حتى إن محمد بن احمد بن يوسف الوِسْلاتي ، أحد التجار من أعيان الوِسالتية بتونس ، باع ريالات كانت عنده لغير الدولة ، ووقعت السعاية به أيام تصرف الوزير شاكير صاحب الطابع ، فعوقب بالضرب المبرح .

وهذا التبديل في السكة لم يحصّل به الباي من ظاهر الربح العاجل الا نزرا يسيرا لا عبرة له ، وغايته أنه أدخل ضررا عظيما على المملكة بضياع مقدار وافر من رؤوس أموالهم ، ذهب من حيث لا يشعرون . وصار بعض التجار من الافرنج يضربونها خارج المملكة ويأتون بها ، لارتفاع حرمة السكّة عنها وصيرورتها بضاعة متجر .

وسمعت من شيخنا عالم العصر وبركة المصر أبي اسحاق ابراهيم الرياحي ، أن أوّل ضرر عامٍّ وقع في الاسلام غلث السكّة ، وقال : « ان السبب في نقش اسم السلطان عليها ، أو صورتِه عند غير الاسلام ، قائم مقام الشهادة من السلطان بخلوصها ، فلا يحتاج قابضها الى تعيير نقدها » . وانظر مدن العمران تجد سكّتها في غاية الخلوص ، بحسب الحال . وقد تقدم الكلام على ذلك في العقد الاول من المقدمة .

وفي السنة 1240 (1824/25 م.) ، قدم أحمد قبطان المورالي ، وقد وجّهه سفيرا للدولة العثمانية ، فأتى بحلّة سلطانية وفرمان الولاية وخنجر مرصّع ، فاحتفل الباي لذلك ، وجمع موكبا حافلا بأهل العلم والداي وأعيان العسكر والبلاد بصحن البرج ، وقرأ باش خوجة(1) الفرمان على رؤوس الاشهاد على العادة ، ولبس الحلّة فوق فروته . وذلك يوم الخميس خامس (2) شعبان 1240 (24 ما س 1825 م.) ، وأعلنت المدافع بالسرور ثلاثة أيام .

وفي دولة هذا الباي قدم للحاضرة أبو عبد الله محمد ابن الولي العارف بالله صاحب الطريقة المسلوكة أبي العباس سيدي أحمد التجّاني رضي الله عنه ، مجتازا الى الحج ، ونزل بدار العلامة أبي اسحاق ابراهيم الرياحي ، لمكان تقدمه في الطريقة . وعظّم الباي مقدمه ، الا أنه لم يجتمع به . وسافر للحج ، وبعد أداء الفريضة رجع لتونس . وبلغ صاحب الجزائر خبرُه ، وكان يتربص به وبأخيه ، فكاتب الباي يطلب اعتقاله

(1) « باش خوجة » ساقطة من خ ، مثبتة في ع و ق .
(2) هو 4 حسب التقويم .

بتونس أو إرساله الى الجزائر ، فأنف لذلك (1) ، وبعث بهذا الخبر الى ابن الشيخ التجاني ، مع خاصته عبد الوهاب باش حانبه ، وقال له : « لا بأس عليك ، امكث بتونس ما شئت ، ومهما أردت السفر فعليّ أن نبلّغك الى مأمنك محروسا معظما مكرما » ، فاختار تعجيل السفر ، وبعث معه عقدا من الخيل ، وكاتب أعيان الهمامّة وقفصة والجريد وغيرهم ممن يمرُّ بهم ، باجلاله واكرامه ، الى أن وصل لزاويته بعين ماضي بتماسين ، وذلك في أواسط السنة 1240 (أوائل سنة 1825 م.) .

وفي هذه السنة (1240) وقع احتفال بباريس لتتويج سلطانهم من آل البُربُون ، واستدعى حضور أعيان من أحبابه الملوك ، ومنهم الباي ، فاختار لهذه السفارة أبا الثناء محمود ابن الوزير أبي عبد الله محمد خوجة كاهية حلق الوادي ، فسافر في رجب 1240 (فيفري — مارس 1825 م.) ، ووقع له إكرام ، وشاهد موكب التاج ، ونزّه بصره في عجائب فرانسة ، ورجع مكرما في فرقاطة فرنسيس أواخر ذي الحجة (أواسط أوت 1825م)

وفي جمادى الاولى من سنة احدى وأربعين ومائتين وألف 1241 (ديسمبر 1825 — جانفي 1826 م.) ، وقع في المملكة نزول ثلج بعد العهد بمثله ، ودام أياما ، ونشأ منه خصب في الحبوب والزيتون ، يؤرخ به عامة المملكة ، يقولون : عام الثلجة (2) .

وفي السادس والعشرين من شعبان السنة 1241 (الاربعاء 5 افريل 1826 م.) توفي العلامة الفاضل المفتي أبو العباس حميدة بن الخوجة ، وقام مقامه في خطة الفتوى الفقيه الماجد أبو عبد الله حسين ابن الشيخ المفتي الحاج حسين البارودي .

وفي الثامن والعشرين من رمضان 1241 (السبت 6 ماي 1826 م.) توفيت خالة الباي ، زوج الوزير يوسف صاحب الطابع الذي عاقه عن البناء بها محتوم الاجل ، ودفنت بتربة أبيها بموكب مشهود . وحزنت البلاد أياما لموتها ، وارتفع الحزن يوم الخميس الثامن عشر (3) من شوال (25 ماي) ، لما توجه الباي في أبهة وفخامة لحلق الوادي في البحيرة ،

---

(1) في ع و ق : فابت همته هذا الصغار .

(2) بهامش ق توجد الزيادة الآتية بخط مغاير : « وجد بدفتر الدولة احسان لخدمة السطوح يوم الثلج في جمادى الثانية سنة 1241 ريالات 18 ، واحسان لزوج حوانب عساسة ليلة الثلج ريالات 20 » .

(3) هو 17 حسب التقويم .

والنوبة تدق خلفه [والرؤساء يجذبون زورقه بالمقاذيف] (1) ، وَجَذَبَ كرويطةً من الترسخانة الى الجابية ، وكان يوما مشهودا .

وفي أيامه رفعت شكاية من أهل المجلس الشرعي بقاضي الحضرة أبي النجاة سالم المحجوب بعدم رجوعه الى أقوال أهل العلم المفتين ، وتصميمه على ما يظهر له وان خالف النص . ومن لفظ مكتوب الشكاية : « هذا وان قاضيك الذي قدّمته لفصل الخصام ، قد غيّر الاحكام ، تارة عمدا وأخرى لاتّباع الاوهام ، وحسبنا إنهاء ذلك لحضرتكم والسلام » . فعزله رابع ذي القعدة من السنة 1241 (السبت 10 جوان 1826 م.) ، وأولى عوضه العالم الفاضل الشيخ الشاذلي ابن الامام الشيخ الحاج عمر بن المؤدب .

وجهّز هذا الباي أسطولا لاعانة الدولة العلية العثمانية على حرب القريق ، أميره الاجل كِشلك محمد ، وكان من أعيان دولته . وأقلع ثالث محرّم فاتح سنة اثنتين وأربعين ومائتين وألف 1242 ، (الاثنين 7 أوت 1826 م.) ، وركب الباي بفخامة الملك لشهود اقلاعه ومشايعته . واتفق أن هرب من مماليكه اثنان ومعهما نصراني في ذلك اليومَ ، بأسلحة وأمتعة لها بال . وبعث الباي في أثرهم ، فدافع احدهم عن نفسه وهو النصراني فقُطع رأسه وأُتِيَ به وبالباقين ، فأمر بقطع رؤوسهما أمام باردو من الغد . وتطيّر الناس بسبب السفك لهذه الدماء المحرّمة اثر سفر الاسطول ، لان الله المرجوّ منه النصر ، أمر بقطع يد السارق لا رأسه . فاتّفق أنه حُرِقَ بتمامه مع مراكب الدولة في واقعة أورين (2) المشهورة ، ولم ينج الا أمير الاسطول ومن دافع عنه الاجل ، وقليل ما هم .

ولهذا الباي شغف بالبحر لو ساعده البخت فيه .

وفي يوم الاحد الثالث عشر من ربيع الانور من السنة 1242 (15 اكتوبر 1826م.) وقع العقد لابناء الباي ، وجمع لذلك مشهدا حضره المجلس الشرعي والوزراء والاعيان ، وعقد فيه لابنه أبي عبد الله محمد باي على بنت شيخ الاسلام أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد بيرم ، ولابنه أبي عبد الله محمد الصادق باي ، ملك هذا العصر ، على ابنة خاله أبي العباس أحمد المنستيري ، ولابنه أبي محمد حمّودة باي على جارية تبنّاها

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

(2) كذا في خ ، وفي ع : آرين ، وفي ق ، كانت (ارين) فشطبت وكتب فوقها : « نافارين » ، وهو الصواب.

أبوه أبو الثناء محمود باي ، وعلى بنته لوزيره شاكير صاحب الطابع . وخطيب العقد أبو الفداء الشيخ اسماعيل التميمي ، والقاضي الشيخ الشاذلي بن المؤدب ، وكان ذلك مخصوصا بالفُقهاء المالكية . ووقع لذلك احتفال ، وتوسّع في الانفال ، وعيون الدهر نائمة ، والآمال في مراتع السعادة سائمة .

وفي عشية يوم الجمعة ، الخامس والعشرين (1) من شعبان سنة 1242 (23 مارس 1827 م.) ، توفيت زوجة الباي وأم بنيه وطليعة يمنه ، حفيدة عثمان داي صاحب القانون المتقدم ذكره في العقد الثاني من المقدمة ، بمرض أصابها عقب الولادة ، ودفنت من الغد بموكب عظيم في التربة (2) . وحزن الباي لفقدها ، ورؤية صغار ولدها من بعدها ، وزعزع المصاب طود ثباته ، ورآه من فجائع الدهر ونكباته . ولبس هو ورجال دولته ثياب الحزن عاما . ويحقُّ لها ذلك ، فقد كانت من الكرم وعلوّ الهمّة وجلب القلوب لمحبة زوجها بالمكانة المكينة ، ترى نفسها كعامة نساء المدينة ، توقر الكبير ، وترحم الصغير ، وتجهز الايتام ، وتعين على النوائب وتعرف للناس أقدارهم . اذا وقعت وليمة عند أحد من أعيان الحاضرة ولم يبعث اليها في استعارة مصوغ ونحوه مما يلزم عادة في الولائم ، تبعث اليه بعد تمام الوليمة احدى خَدَمَتِها مهنِّئةً ، وتقول له : « عادة بلدنا أنّ صاحب الوليمة يستعين بأقاربه في لوازمها ، ويقال في المثل : « صاحب التاج يحتاج » ، وساءني حيث لم أحرُك في وليمتك بشيء » ، الى غير ذلك من الكمال المنظوم في مثل هذا الاسلوب ، المالك لاحرار القلوب . ترى الفضل لمن زارها ، وأمّ دارها . قابلها الله بجزيل إحسانه ورحمته .

وفي أوائل شوال من هذه السنة ، 1242 (أواخر افريل 1827 م.) ، نظمني الباي ، على كره من أبي ، في ديوان الانشاء بمحكمته ، واختصني بكتابة سرّه ، مضافا للوزير شاكير صاحب الطابع على صغر سن وضعف في البضاعة :

ولكن البلاد اذا اقشعرّت   وصوّحَ نبتها ، رعي الهشيم

وفي السابع عشر من شوال السنة 1242 (الاثنين 14 ماي 1827 م.) ، توفي العالم الولي السالك العارف بالله الشريف الحسني سيدي البشير ، وغسله القاضي الشيخ الشاذلي

(1) هو 24 حسب التقويم .
(2) كذا في خ ، وفي ق و ع : في تربة عم ابيه .

وصلى عليه ، ودفن بزاويته التي بناها له هذا الباي ، ذات المسجد والبيوت (1) للطلبة ، المعروفة الآن باسمه . وحضر جنازته الباي وبنوه ورجال الدولة ، وتبركوا بحمل جسده الشريف . ولهذا الباي وأبيه وآله في هذا الولي محبّة واعتقاد . وكان يقول : « ان والدي حجرني (2) مع أخي لسيدي البشير » . وكاد أن لا يتخلف عن جنازته أحد . وأخباره رضي الله عنه في ألسن الحاضرة ، تحسن بها المحاضرة . وسيأتي لترجمته بسط ذكر .

وفي غرة ربيع الاول من سنة ثلاث وأربعين ومائتين وألف 1243 (السبت 22 سبتمبر 1827 م) ، أبطل الباي حزر الزروع ، وتقدير زكاة حبوبها بالحدس ، وجعل بالبلدان وكلاء يستخلصون الجزء العاشر من كل فلاّح بمكيال أُدخل في ظرفه ما اعتيد من توفية الكيل ، ويسمح المكيال بعد امتلائه . ونادى مناديه بذلك في [أسواق] (3) الحاضرة ومجامعها ثلاثة أيام ، وهو شاوش القبجية بدريبة (4) الداي ، ولفظ المنادى به : « يا فلاّحة ، أمر سيدنا أن لا تؤدوا من زرعكم الا العشر » اهـ . وأصدر مناشيره بذلك في بلدان المملكة من انشاء العبد الفقير ، ونصّها : « أما بعد فان الله استرعانا جماعتكم، ووهب لنا طاعتكم ، أفنرضى اضاعتكم ؟ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيته » . والراعي اذا لم يقصد بسائمته المراعي الطيّبة ، وينتجعْ مساقط الغمامِ الصيّبة ، ويصلحْ خللها ، ويداوِ بالعدل عللها ، قلّ عددها ، وعدمت (5) غلّتها وولدها . وقد نظرنا في زكاتكم فوجدناها على غير وجهها الشرعي ، حسبما أفتانا بذلك من تعيّن للفتوى من الراسخين في العلم ، وهما الشيخ العلم ، وركن العلم المستلّم ، محبّنا الشيخ سي اسماعيل التميمي ، والشيخ العلاّمة المحقق الفاضل محبنا سي محمد بيرم ، وسطر كل واحد منهما فتواه برسالة مفصحة بأن الله لم يشرع خارصا (6) ولا حازرا للحبوب ، وانه بدعة ومنكر يجب على من قام بأمور المسلمين تغييره فورا ، مع ما ينضمّ الى ذلك من جهل القيّاسة (7) واتّباعهم لاغراضهم ،

(1) يستعمل لفظ البيت في تونس بمعنى الغرفة والحجرة .
(2) حجره لـ.... : جعله في كنفه وحمايته وحفظه .
(3) « اسواق » ساقطة من خ ، مثبتة في ع و ق .
(4) الدريبة : المحكمة .
(5) عدم : فسد ، تلف ، هلك (عامية تونسية) وانظر دوزى .
(6) الخرص : التقدير بظن ، يقال : كم خرص ارضك وكم خرص نخلك ؟ فاعله خارص والجمع خراص — لسان العرب —
(7) قياسة مفردة قياس ، اى قياس الاراضي .

فربّما كـلّفوا الفقير فوق طوقه ، ونقّصوا للغنـي من حقّه ، وحابَوْا أرباب المناصب والهيـآت ، ونغّصوا على الضعفـاء الحيـاة . فبعث الله منّا نفسـا بحكـم الشرع سامحـة ، ولامتثال أوامره جانحة ، وحكمنا بابطال هؤلاء القيّاسة ، حكما أوثق الحقُّ أساسه ، وزيّن فصوله وأجناسه . ولنقدّم لاخذ العشر من تُرضى ديانته ، وتُعلم أمانته ، يأخذ الجـزء العاشر ممـا يتحصّل لدى كـلّ واحد من فلاحته ، تطهيرا وزكـاة لساحته ، بكـيل عدل لا حيف فيه ، ولا مظلمة تعتريه ، بالوَيْبَـةِ التـي أمرنا بانشائها . ولا يُقبَل المـكيلُ بها الا مرطـا (1) ، ولا يأخـذ من الفلاّحـة شيئا ولو قلّ ، وأجـره من عندنا ، وأمرنا (2) له بمقدار يأخذه من العـامل .

والزكـاة من قواعد الاسلام ، لا يمتنع المؤمن من أدائها ، لانها وجبت عليه في ماله ، بوصف الايمان لا بغيره ، فعليه أن يوفي حقّ الله شـكرا على خيره » ا هـ .

وبذلك ألزم سائر سكـان المملكـة من قاص ودان أداء العشر من غير استثناء . ورام رحمه الله ، اخراجه من حيّز المَغرم الى حيّز الزكـاة الشرعية ، لانّ المغرم لا تدين له جفاة الاعراب ، لا سيما سكـان الاطراف ، ويحاشى منه أهل الفضل كـالعلماء والصالحين .

وقبل إتمـام هذا الترتيب في غـالب المملكـة ، رجـع المكـيال الاول على عادتـه السابقة في ذي القعدة من سنـة أربـع وأربعين 1244 (ماي 1829 م.) ، بحيث إن غـالب عروش المملكـة لم يصل اليها هذا المنشور . ولا أقول كما يقولون ان سبب ذلك انعدام الامانة ، فالخير لا ينقطع من هذه الامة الى قيام الساعة ، وانما أقول لعدم تقديم الامناء ، لانهم تقدموا باختيار العمال ، والعامل لا يختار الاّ من يعين على سلب الاموال . فجعلوا ذلك المكـيال أصلا وزادوا عليه تطفيفهم ، وويـل للمطفّفين . ورجع جور العشر الى معتاده ، وأخذ التطفيف في ازدياده ، وما ربك بغافل عمّا يعمل الظالمون من عباده . وهذا من أعظم أسباب نقص العمران ، في كـل مكـان وزمان .

وفي ربيـع الثانـي من السنة 1243 (اكـتوبر — نوفمبر 1827 م.) ، توفي الوزيـر الشيـخ أبو عبد الله محمد الاصرم باش كـاتب ، وتقدّم للرئاسة كـاهيته وأخوه أبو الثناء

(1) اى مملوءا الى اصبـاره (Mesure rase)

(2) بهامش ق : « فى المحرم سنة 1244 أنشا هذا الباى دار السكة وصرف عليها ريالات 12613 » .

محمود الاصرم ، واغتبط الباي بوزارته ، وقرّبه نجيّا وفتح الاذن ظاهرا (1) لتدبيره واشارته . وتقدم كاهية له ابن أخيه الاديب الكاتب المشارك أبو عبد الله محمد بن محمد الاصرم ، متخطيا أعناق من تقدّمه من الكتبة كالشيخ العالم الفاضل أبي عبد الله محمد بن سليمان المنّاعي .

وفي غرة شوال من السنة 1243 (الاربعاء 16 افريل 1828 م.) ، توفي العالم الفقيه الحافظ ، صدر المالكية أبو عبد الله محمد ابن صدر المالكية أبي الفضل قاسم المحجوب ، وتولى عوضه رئاسة الفتوى بالمذهب المالكي العالم المحقق المجتهد أبو الفداء اسماعيل التميمي . وانتقل الشيخ العالم الشاذلي بن المؤدب من خطة القضاء الى خطة الفتوى ، وانتقل شيخنا العالم المحقق أبو عبد الله محمد البحري بن عبد الستار من خطة القضاء بالمحلّة الى القضاء بالحاضرة ، وتولى عوضه قاضيا بالمحلة الفقيه الاديب أبو العباس أحمد زرّوق الكافي .

وحضر الباي جنازة الشيخ المحجوب ، وحمل نعشه ، وأعتق عنه أربع رقاب .

وفي صفر من سنة أربع وأربعين 1244 (أوت — سبتمبر 1828 م.) ، امتحن الوجيه الحازم الخليق للرئاسة أبو عبد الله محمد العروسي الاندلسي ، أمين التجّار والشواشية وسجن ، ولم يسرّح إلا بعد التزامه بأداء مال على يد الوزير شاكير صاحب الطابع . وعزل وبعزله أخذت هذه الخطة في القهقرى . وتولى عوضه في مجلس المتجر الوجيه أبو عبد الله محمد التومي ، وفي أمانة الشوّاشية الوجيه الحاج حمدان سيضّة ، وفي مشيخة الاندلس الوجيه أبو عبد الله محمد شلبي ، وكان لمشيخة لاندلس في هذه الحاضرة شأن .

وفي رجب من السنة 1244 (جانفي — فيفري 1829 م.) ، وقعت سرقة من بيت خزنه دار ، والباي بحمام الانف ، وامتحن بسببها جمع من الناس بالضرب المؤلم ، ولم يظهر منها شيء . وكانت في عدد قليل ، نحو العشرة آلاف ، وعظّمها التجاسر على المحل .

وفي شوال من السنة 1244 (افريل — ماي 1829 م.) ، وقع إمساك في الغيث جزعت بسببه الناس وطاشت أفكارهم ، فأمر الباي علماء العصر بقراءة صحيح البخاري في

(1) كذا في خ ، وفي ع وق : « وفتح آذنه لسماع تدبيره » .

الجامع الاعظم ، جامع الزيتونة ، وفرقوا أسفاره في جماعتهم ، وختموه في يومهم ، وذلك يوم الاحد آخر شوّال (28 شوال — 3 ماي 1829 م.) . ورحم الله عباده ببلل من قطر .

وفي هذه السنة الشهباء ، شمّر الباي عن ساعده واستجلب الميرة في البحر من خالص ماله ، وباعها لاهل المملكة بأثمان لا تجحف (1) ، ولم يربح فيها سوى ما أمّله من كرم الله . وكان ذلك على يد خديمه المقرّب جوزاب رافو ، سرّا بينهما . وذلك أنه دفع له تسعين ألف محبوب ، سكة مصر ، وطلب منه أن يرجعها له من تلك السكة ، ولا يبتغي في الحبوب ربحا . فأراد جوزاب أن يكتب خطّه في ذلك ، فانتهره الباي ولم يقبل ذلك منه . فعند ذلك طلب رافو مكتوبا في يده في المقدار وشرط عدم الفائدة ، [فأمرني بكتابته] (2) ، واجتهد في الاتيان بالقمح على يد التاجر الصادق الوجيه ، صهره جومين . ورجع له الدراهم بعد أن فرّج الله عن عباده ، وكانت من أعزّ حسناته.

وفي صفر من سنة خمس وأربعين 1245 (أوت 1829م) ، توفي الشيخ المجذوب المعروف بالشبعان ، وبنى له الوزير أبو عبد الله حسين خوجة زاوية بجبل المنار مطلة على البحر .

وفي جمادى الاولى من السنة 1245 (اكتوبر — نوفمبر 1829 م.) ، توفي الشيخ الفقيه أبو حفص الحاج عمر بن المؤدب ، الامام الثاني بجامع الزيتونة ، وتقدم عوضه للامامة الشيخ الشريف الفقيه الذكي أبو الثناء محمود محسن ، وتقدم اماما ثالثا الشيخ المفتي الشاذلي بن المؤدب .

وفي ثامن شوال السنة 1245 (الجمعة 2 افريل 1830 م.) ، توفي الشيخ الحاج محمد الصفّار ، امام التراويح وشيخ القرّاء بالجامع الاعظم ، وتولى عوضه الشيخ القارىء المعلم ، أبو محمد حسن بن عمر .

[حرب الفرنسيس للجزائر]

وفي ذي القعدة من السنة 1245 (افريل — ماي 1830 م.) ، قدم لحلق الوادي طاهر باشا ، لما وقع بين الفرنسيس وصاحب الجزائر حسين باشا من أسباب حربها وأخذها .

(1) كذا في خ ، وفي ع وق « باقل من اثمانها عند التجار » .

(2) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

ولابأس بايضاح النازلة . وقد سمعت مضمونها (1) ممن باشر الترجمة في النازلة بين الداي والقنصل وغير واحد من أهلها .

ومحصّل (2) ذلك أن أحد أعيان اليهود من أهل الجزائر اسمه بقري بوجناح ، له خلطة مع تجار من أهل فرانسة في قمح ، وبقيت له عند التجار أموال من جرّاء ذلك ، وهم يدّعون عليه بأموال وخسائر وغير ذلك . وتكلم الباشا في حق رعيته ، وآل الامر الى الصلح بين الفريقين برضاهما على عدد من المال تدفعه التجار الفرنسيس لبقري . ثم ان تجّارا آخرين من الفرنسيس استظهروا بدين على بقري ، عرقلوا بمقتضاه دراهم الصلح حتى يقع الخلاص . وقد رام الباشا أن يستولي على تلك الدراهم ، لانها مال رجل غني يهودي من رعيته ، وقد كانت العادة القهرية يومئذ تسوغ هذا وأعظم منه . ولما وقع تعرّقيلها (3) آسفه ذلك ، ورآه مالا ضاع من يده ، فكلّم القنصل ، طالبا رفع التعرّقيل ، وان هؤلاء الغرماء يتبعون ذمة بقري ، فأجابه القنصل بأن مال الصلح من حقوق بقري لا محالة ، وللغرماء وجه في إيقافه ، لاحتمال إفلاسه ، الا اذا وجدوا ضامنا مليّا يرضون بذمّته ، فأعرض عن القنصل ، وكاتب الدولة الفرنساوية في ذلك ، فبعثت الدولة نسخة ذلك المكتوب الى القنصل وأمرته بالجواب عنه . واستبطأ الباشا الجواب ، فأتاه القنصل في غرض من الاغراض ، فكلّمه في جواب مكتوبه ، فقال له القنصل : « ان نسخة مكتوبك عندي ، وأنا المأمور بالجواب ، وتربّصت أنتظر وقتا مناسبا » ، فقال له : « لِمَ لَمْ تجبني الدولة ؟ » ، فاعتذر القنصل بكلام فهم منه الباشا احتقارا وعدم اكتراث ، وكانت بيده مِنَشّة يطرد بها الذباب ، فضربه بها على وجهه ، وقام وشتمه وطرده ، وكان هذا القنصل على ما قيل ، يتكلم باللغة التركية ، فخرج ، وبقي الباشا على عُتُوِّه ، آسفا على ما فاته من مال بقري ، معجبا بنفسه ، وما درى المسكين أنه في جهالة بالوقت ، مع أن عصبيته انحلّت ، وأيّامه أدبرت وولّت ، بسكناه في القصبة وشحنها بما يلزم من العدّة للمدافعة ، وانفصاله من التحام الجند ، وتوغّر صدورهم .

(1) « مضمونها » ساقطة من خ ، مثبتة في ع و ق .
(2) كذا في ع و ق ، وفي خ : ومضمون .
(3) التعرقيل : العرقلة (عامية تونسية بمعنى الايقاف والتأخير) .

وكاتب القنصل دولته بالخبر ، فأنفت لمقامها ، لكنّها مع ذلك لم تترك السياسة (1) التي كادت الافرنج أن تنفرد بها . فبعثت رجلا من الاعيان في مركب حربي ، يستفهم من الباشا حال النازلة ، فاعترف بفَعْلته . فقال له الرسول : « ان الغلط من لوازم الانسان ، والغضب من لوازم الطبيعة البشرية ، ولعل القنصل أساء الادب بما حرّك غضبك . وحسم المادّة ان شئته سهل ، وهو أن ترفع صنجق الفرنسيس ، وتطلق عليه مائة مدفع ومدفعا ، وتبعث أعيانا من عندك الى دولة فرانسا ، يبلغون على لسانك أنك لم تقصد بضرب القنصل إهانته ولا الاستخفاف بدولته ، ويطلبون التجاوز عن هذا الغلط » ، فقال له : « ننظر في ذلك » ، فخرج الرسول وحمل القنصلَ من البلاد الى مركبه .

وجمع الباشا اعيانه ورجاله وشاورهم ، فقالوا له بلسان واحد : « هذا لطف من الله ، والواجب أن نفعل ذلك » ، فاستهزأ بهم وسفّه أحلامهم ووصفهم بالجبن ، فقالوا له : « لا قدرة لنا الآن على الحرب ، وأحوال عسكرنا لا تخفاك ، فانك بسكنى القصبة أفسدت قلوبهم ، وصيّرت زوالك مرغوبتهم ، ونحن بطانتك النصحاء » ، فلم يلتفت لرأيهم ، لامر قدّره الله ، وقال لهم : « ان الصبنيول أتى الجزائر ونزل أرضها وخرج منها مهزوما »، فقالوا له : « ليس حال الصبنيول في ذلك الوقت كحال الفرنسيس الآن ، وليس حال الجزائر في ذلك الوقت كحالها الآن ، وان عزمت على الحرب ولا بدّ ، فحصّن البلاد واجعل العدّة في الاماكن المخوف منها ، وتألّف العسكر وأهل المملكة » ، فانتهرهم وعيّرهم بالجبن ، فخرجوا متوقعين قضاء الله .

وبعث الى رسول الفرنسيس يأمره بالاقلاع ، وأن لا جواب له . فتأخّر ينتظر طيب الهواء ، فأطلق عليه مدفعا بالكور ، اشارة الى أنه ان لم يقلع يتوالى عليه الكور من البرج . فسافر بالخبر للدولة ، فاستعدت لقتال الجزائر . لكنها لم تترك السياسة أيضا ، على مقتضى الشروط العثمانية . فكاتبت الدولة العثمانية بذلك ، وبأنها ان لم تحصّل على جزاء ، تطلب حقها بنفسها ، وبذلك لا يكون الفرنسيس متعديا على مقام الدولة ولا رافضا لشروطها . وأخبرت الدولَ بأنها أحضرت أسطولا يحصر مرسى الجزائر ، وأعلمت بذلك أبا عبد الله الباشا حسين باي صاحب تونس ، وفي إعلامها [حذرته وخوفته وقالت

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « سياسة التأني » .

له] (I) : « ان أردت الامان على بلادك فكن في هذه النازلة حبيبا للفريقين ، وان أعنت الجزائر من البرّ تَكُنْ حربا لنا مثلها » .

وخرج الاسطول لحصرها ، وفي خلال ذلك أتى لتونس طاهر باشا في جفن (2) حربي عثماني ، ورام النزول الى البرّ ليتوجّه الى الجزائر لخلع الباشا ، وبزواله تزول النازلة في رأيه ، فبالغ الباي في إكرامه وتعظيم مقدمه ، واعتذر له بمانع الكرنتينة ، فبقي بجفنه .

وكان هذا الباشا خوجة بالجزائر ومن أعيان رجالها ، يتكلم بالعربية ذا رأي وحزم وشجاعة ، ثم لحق بخدمة الدولة العلية العثمانية وترقّى في مناصبها الى أن صار معدودا لان يكون قبطان باشا (3) في ذلك الوقت .

ثم ان الباي جمع رجال دولته واستشارهم في نزول هذا الباشا للبر ليتوجه الى الجزائر ، وهي محصورة بمقدمة جيش الفرنسيس ، وبقية الجيش في أثره ، فأجمعت كلمتهم على أنه لا ينزل الى البر ، واختلفوا في سبب ذلك . فقال الوزير شاكير صاحب الطابع ، وهو زعيم الدولة يومئذ : « ان هذا الرجل في منصب باشا يأنف من تقبيل يد سيدنا عند ملاقاته ، ولا يمكن أن سيدنا يقوم له ويتقبله قبول الاكفاء » ، اعتبارا للعادات في ذلك الوقت ، وهو عذر أوهى من بيت العنكبوت . وقال الوزير محمد كاهية : « ان هذا الرجل يريد السفر في البر ، ولا يمكن ارساله في مهامه القفار بدون حامية على قدر مقامه ، وأقلها محلة صغيرة ، وبذلك ربما يظهر للفرنسيس أنها إعانة بتحيّل » . وقال الوزير سليمان كاهية ، العالم بأخلاق الاعراب : « نخشى أن عربان البلاد اذا سمعت بباشا من برّ التّرك ، يقع فيهم خبال يكون سببا في الهرج والنهب ، لا سيما والجهة الغربية مضطربة » . ولعمري إنه أصاب المرمى ، لان آذان الرعايا للملوك الاطلاق سمّاعة ، لما عسى أن يكون سببا لفتنة وعصيان . أما القبطان حسونة المورالي فانّه قال : « هذه الاسباب معقولة ، والمناسب الاذن له في النزول الى البر ، واكرامه والاحتفال لضيافته ، والاعتذار له بما ظهر لكم من الاسباب ، ولا ينقص من مقام سيدنا ان قام وتعرّض للقائه ، اكراما لشيبته ، وهو ضيف وعن قريب سيكون قبطان باشا ، واصطناع الرجال

(I) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .
(2) جفن ج جفون وأجفان : سفينة كبيرة (دوزى) .
(3) قبطان باشا : القائد الاعلى للاسطول وحاكم الايالة .

مما لا غنى للملوك عنه » ، فعنّفه الوزير شاكير وازدرى برأيه . وبعث له الباي من اعتذر له ، وبيّن له الاسباب المقررة ، وأجزل في مهاداته واكرامه . فسافر في البحر الى الجزائر ، وتعذر عليه اتمام ما أراد ، ولا رادّ لامر من له في خلقه المراد . ولا زالت في نفسه ، حاقدا بها على الباي ، يرددها لكل من يأتي من تونس ، سمعتها منه مشافهة باسلامبول وهو يومئذ قبطان باشا ، قال لي : « ما يكون جوابكم لله عن تعطيلي الذي عطلتم به مصلحة جمهور من المسلمين ؟ لكن المقدّر كائن » ، فأجبته بما لم يقنعه .

ثم ان الفرنسيس أتى الجزائر بجنود لا قِبَل لهم بها ، ونزل من مرسى سيدي فرج [بلا تعب] (1) ، وشقوفه تحمي بمدافعها النازلين ، حتى تمّ نزولهم وحصّنوا مضربهم . هذا ، والباشا لم يعظم عنده نزولهم للبرّ ، وسوّلت له الاطماع أخذهمْ بلا مشقة ، كما سولت لغيره مع الصان لويز المتقدم ذكره في العقد الثاني من هذا الكتاب (2) ، واغترّ بحصون الجزائر ، ولله درُّ القائل :

اذا صدق الحسام ومنتَضِيه فكلُّ قرارة حصن حصين
وما ليث العرين بذي امتناع اذا لم يحمه الاّ العرين

وما درى المسكين أنه في جمع قِلّة ، وعُصبة منحلّة ، وطاعة مختلّة . لان أهل الجزائر وأعرابها ، وهم السواد الاعظم ، سئموا سطوة جند الترك . وبلغ السّيل الرُّبى (3) ، وزهّدهم ذلك في الوطن ، وضاق منهم العطن . والمظالم الفظيعة ، ربما تفضي الى مخالفة الشريعة . وجند الترك لما انحجر الباشا في القصبة وحصنها ، سقط ما بأيديهم من تداول ملكها لمن غلب ، فكان همّهم بزوال الباشا أشدّ منه بالمدافعة عن الدار . وبذلك سهل على الفرنسيس التقدُّم من مَتَعَة الى أخرى ، وكل مَتَعة ينزلها يُحكم حصنها . وناوشه بعض المسلمين القتال ، ملقين بأنفسهم ، الى أن نزل بربوة مطلّة على البلد وجعل بها المدافع ، فأيقن أهل البلاد بالاخذ ، فبعث لهم أمير الجيش الفرنساوي ، وهو الجنرال مرمون (4) ، بالانذار والاعذار ، ومحصّله : « ان ألقيتم القياد وسلّمتم البلاد ، فلكم

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .
(2) انظر صفحة 162 ج 1 .
(3) كذا في خ و ع و ق ، والمعروف الزبى (بالزاي) .
(4) كذا في خ و ع و ق ، والمراد : (Bourmont)

الامان على أنفسكم وأموالكم ، اذ لا حاجة لنا في سفك الدماء ، وفيها الصبيان والنساء ، ولا في هدم الابنية . وان كانت الاخرى ، فقد ألقيتم بأنفسكم وعرّضتم بلادكم للهدم ، فاني لا أنفكُّ عن ضربها أو تصيرَ دكّا » . فهرعوا الى الباشا فوجدوه أسرعهم الى الاجابة ، فكتب لهم أمير الجيش الامان ، ودخل البلاد ، ووفّى لهم وللباشا بأمانه ، كما هو الواجب عقلا وشرعا في كل ملة ، وذلك يوم الاثنين ثالث عشر (1) محرم فاتح شهور سنة ست وأربعين ومائتين وألف 1246 (5 جويلية 1830 م.) . وركب الباشا بأهله وماله في مركب فرنسيس الى فرانسا ، ثم الى الاسكندرية ومات بها ، وكان أمر الله قدرا مقدورا .

وهذه ثمرة اضاعة الحزم وتنافر القلوب بين الراعي والرعية . رأيت مضمون ذلك مقيّدا في كنّش (2) لبعض أعيان الجزائر ممن شهدوا الواقعة . وكان الباي قد وجّه مركبا حربيا الى مرسى الجزائر فيه القبطان حسونة المورالي ، وأمير آلاي سليمٌ ، وأمره أن وجد تونسيا يريد الرجوع الى وطنه يحمله . فرجع الشقف يوم الخميس الرابع والعشرين من محرّم السنة (15 جويلية) ، وهو الذي حقّق الخبر في تونس .

فانظر أيها المعتبر الى حال هذا الباشا ، وقد أتى الجزائر جنديا من عامّة الجند ، كان أبوه ببلد شنا قلعة يحترف بغسل الاموات ، وترقّى بعصبيته الى منصب الباشا ، ولم يكن له في البلد منزل ورثه من أبيه ، ولا مقبرة لسلفه وذويه ، ولا ما يقتضي حبَّ الوطن وبنيه ، ولا سياسة يعرف بها نفسه والحال وما يقتضيه ، كيف لم يفكّر أولا في عاقبته ، ولما ناداه المدفع أسرع الى اجابته ، وكان الامان على ماله ، أوّل آماله . لانه دخل البلاد صفر اليدين ، وخرج منها فائزا بغنيمة النقدين . ولو كان من أبناء ترابها ما سهل عليه ذلك ، ولا استهان بطرق المهالك . ولذلك كانت بيوت الملوك في البلدان لها التأثير النافع في مصلحة الحوزة والاحتفاظ عليها غالبا . والله يرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين .

وبعد أخذ الجزائر أتت مراكب حربية من أسطول الفرنسيس ، وفيها رسول من عظمائهم ، لزيادة في الشروط المؤسسة بين فرانسا وتونس ، التي منها ان الدولة التونسية لا تتّجر ولا تختص بمتجر في شيء [بحيث تكون التجارة مباحة لكل أحد] (3) ، وان

(I) هو I4 حسب التقويم .

(2) كنش وكناش وكناشة (بتشديد النون فى الجميع) ج كنانيش : هو عند المغاربة مجموعة (دفتر) تدرج فيها قواعد وفوائد (دوزى) .

(3) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

التجار الفرنسيس يتعاملون (1) في البلاد معاملة أهلهـا التوانسة ، وابطـال القـرصان عـلى شقوف المتجر مطلقا ، وابطال ملك الاسرى ، وما اعتيد من الهدايا ، وغير ذلك كما هـي محرَّرة بين الباي وكـارلو العاشر سلطان فرانسا ، على يد المفوض له في ذلك ، الكـوليير (2) ماتيو دي لسبس (3) ، القنصل العام والمكـلف بأمور سلطان فرانسا بتونس ، وذلك في السابـع والعشرين من صفر السنة 1246 (الثلاثاء 17 اوت 1830 م.) ، وهـي مكـتتبة باللغة العربية ، وما قبلها من الشروط باللغة التركية .

وبعد أن تمـّم الباي هذا العقد ، سَجَّل وأَوْدع بـأنه مغصوب على إتمام ما أريد منه [بالقوة على حين غفلة] (4) ، وبعث بذلك المكـتوب أبا عبد الله محمد [بن حميدة] (5) ابن عيـّاد الى الدولة الفرنساوية ، فوجد سلطانها خلعه قومه ، لانه رام بأخذ الجزائر أن يكون ملكـه مطلقا قهريـّا (6) ، وغفل عن كونه في فرانسا ، ولسان الحال يقول له : « لا تطمع في كـل ما تسمع » . ولما لاحت بوارق ضميره ، نادت الناس باقتلاعه من سريره ، وأقاموا من توسـّموا فيه حبَّ الحرِّيَّة ، وهي بعمران الاوطـان حَرِيَّة . وحادثة خلعه أوضح بيانها الفاضل الالمعي الشيـخ رفـاعة الطهطاوي في رحلتـه « تخليص الابريز » ، وقد أبـدع في تقريرها ، وبه تعلم ما طبع عليه هذا الجنس من اباءة الضيم والحرية ، [وسبحان الذي خصّ من شاء بما شاء ، وهو اللطيف الخبير] (7) .

[ثم ان الدولة الثانية] أوقفت (8) بعض أمور بَانَ لها ضررها في العاجل ولا تضرُّ بعموم المتجر . ورجع ابن عيـّاد مكـرَّما في بريك قرصان (9) فرنسيس .

ومن أسباب هذه الشروط أنه لما ترتّب العشر على زيتون الساحل في سنـة خمس وثلاثين كما تقدم ، وازداد بذلك في دخل الدولة [وان اقتضى نقصانا من جهة أخرى] (10) ، اقتضى النظر أن جعل الباي وكـلاء لشراء الزيت بالساحل على وجه السَّلَم ، يدفعون ثمنه

(1) اى يعاملون .
(2) الكولونيل . (3) Mathieu de Lesseps
(4) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .
(5) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .
(6) فى ع و ق : « رام الاستبـداد على ديـوان مشـورته » .
(7) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .
(8) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع وق ، وفى خ : فاوقفت .
(9) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « بريك حربى » والبريك نوع من المراكب (Brick)
(10) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

قبل حصوله لمن يريد البيع برضاه . ثم صار الوكلاء يغصبون الناس على أخذ السّلَم ، وتارة يكون أكثر مما يحصل من زيتونهم ، فتجد آخذ السّلم ، بعد أن يدفع ما تحصّل عنده ، يشتري الزيت بسعر الحاضر ، ويدفعه للوكيل ، تكملة لما عليه . كما ان الذي في ذمّته السّلم اذا فضل عنده شيء من الزيت يشتريه وكيل الدولة بالسعر الواقع في الحال ، والسعر الواقع مآله الى ما يظهر للوكيل ، اذ لا يشتري الزيت غيره الا للقوت ونحوه ، [شأن توالد المظالم] (1) ، والدولة هي التي تبيعه للتجار الذين يخرجونه من المملكة ، ولا تأخذ منهم شيئا على اخراجه ، بل تدمجه في الثمن ، لان الجميع للدولة . وأصاب أهلَ الساحل بذلك ضيق في مكاسبهم ، بل كادت أن تطير من أيديهم ويلتصقوا بالتراب ، بعد أن كان لهم شيء من الثروة . وحصل للتجار توقف في متاجرهم لانفراد البائع ، وهذا مخالف للحكمة العقلية الشرعية ، فما ربِحَ والٍ اتّجر في رعيته ، وكيمياء الملوك العمارة ، ولا تصلح بهم التجارة . وأثّل الوكلاء من ذلك الاموال الجزيلة بغير كلفة ولا مشقة ، وان امتحنوا في أخذها منهم .

وهذا الزيت كان يباع للتجار على يد أبي الثناء محمود الجلّولي ، ويكتب اسمه في أوامر الشراء ، ونشأت بذلك مضرة للدولة . وذلك لما أنه وجد الدخل من هذه الجهة ، تساهل في الصرف الامير والوزير ، وكثرت مذاهب الترف والحضارة ، على مقتضى حال ذلك الوقت . والتعمق في ذلك من غير نظر في الموازنة بين الدخل والخرج ، يقتضي ضيق الحال لا محالة ، اذ ليس للسرف حدٌّ يقف عنده . ولذلك صار الوزير يبيع الزيت بأبخس ثمن ، لانه هو الراغب في البيع ، والمشتري يظهر عدم الحاجة ، حتى اتفق أن باع الوزير للتجار أكثر مما يفي به زيتون الساحل ، كما اتفق أن الزيتون المباع زيته لم يثمر في ذلك العام . فطلب التجار زيتهم ، والاوامر التي بأيديهم حالّة ، لم يذكر أن الزيت فيها من الصابة ، كما ظهر للجلّولي ، لانهم امتنعوا من الشراء بهذا الشرط . وتوقفت الدولة ، [وطلب التجار زيتهم أو ثمنه باعتبار الحال ، وأساؤوا في التقاضي ، ولصاحب الحقّ مقال] (2) ، واشتد الحال ، وضاق ذرع الباي من ذلك ، ورجع بالملام على وزيره أبي عبد الله حسين خوجة ، وتكالبت عليه النقّاد ، وانطلقت على سيرته ألسن الحساد ، وهو في الحقيقة عبد مأمور مقاد مأسور ، لكن عادة ملوك الاطلاق تبيح هذه الامور .

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .
(2) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

فأجمع الرأي على تأخيره وتقديم الوزير شاكير صاحب الطابع لهذا الامر المهم ، فامتنع من القبول ، فأُلزم لذلك ، فاشترط أن ينفذ رأيه في دخل المال وخرجه ، وفي رجال الجباية ، والاقتصادَ في المصرف بقدر الامكان ، وغيرَ ذلك مما كان سبب حتفه . وقبل الباي شروطه والتزم بها ، وفوّض له ، وذلك سنة خمس وأربعين . فشمّر عن القدم والساعد ، وساعده البخت المساعد ، واحتسب على الباي حتى في نفقة داره . وطلب أكبر أولاده تبديل سرجه ليركب به يوم خروج الباي لحمّام الانف ، وكان هذا اليوم من أيام مشاهد الزينة ، فقال له : « يا سيدي ان سرجك هذا يكفي » ، ولما شاحّه ، قال له : « ان أباك مدين للتجار ، والزينة هي النظافة من وسخ الدين » . ولم يزل يبالغ في تنقيص المصاريف ، مقتصرا على الضروري الذي لا بدّ منه . وضرب على أيدي الناس في أموال الدولة بما أوغر صدورهم .

ولما رأى أبو النخبة مصطفى باي هذا الحال ، وهو يعلم أنه لا بدّ منه ، قصر يده على التصرف في الحال ، وقد كانت يده قبل ذلك قريبة من يد أخيه ، إيثارا لرضى شقيقه .

واستعان الوزير في ذلك بأعيان من رجال الدولة كأبي الثناء محمود الجلولي ، وأبي عبد الله محمد بن عيّاد ، وأبي الربيع سليمان بن الحاج . وبعث أبا محمد حسونة المورالي ، والمقرب جوزاب راف الى قنصل الدولة الفرنساوية ، لان أكثر هذا الزيت لتجار الفرنسيس . وكان القنصل يومئذ ماتيو دي لسّبس ، من عقلاء الرجال وأفراد السياسة ، شهد مع نبليون الاول حروبا ، حنّكته التجارب ، وله في فصل هذه النازلة أثر جميل صالح للجانبين ، فوقع الاتفاق على أن الوزير شاكير يشتري هذا الزيت من أربابه بثمن لا اجحاف فيه على البائع ولا كبير ضرر على المشتري . ووقع الاتفاق عليه ، ويدفع لهم ثلث المال حالاً والبقية على أجلين . وانبرم هذا الاتفاق ، وتنفس الخناق . وأقبل الوزير شاكير على جمع المال ، فأخذ من مال خاصّة الباي مبلغا ، وتبرّع أبو عبد الله محمد بن عيّاد بنحو المائتي ألف (1) ريال ، وتابعه أبو الثناء محمود الجلّولي وأبو الربيع سليمان بن الحاج . ويقال على لسان الحسدة ان كثيرا من هذا الزيت لمحمد بن عيّاد وابنه عبد الرحمان ، بأسماء تجّار ، والله أعلم .

(1) كذا في غ ، وفي ع و ق : « نحو الثلاثمائة الف » .

وفي أثر ذلك توجه الوزير شاكير الى سوسة والمنستير والمهدية وصفاقس ، وجمع منها ومن عربان تلك الجهة أموالا بغير غصب ظاهر ، وفي البلاد يومئذ بقية ثروة ، وكنت ممن سافر معه في هذه الوجهة . وتم خلاص هذا المال في إبّانه على أحسن حال ، وكانت للوزير بهذه الخدمة يد تشكر ونصح يذكر ، لولا أنه شاب ذلك بمرارة غطّت الحسن ، وأنبتت الاحن . وكان مبلغ هذا المال الذي توقفت فيه الدولة التونسية [وبلدان الساحل] (1) نحو الخمسة ملايين ريالات تونس ، مفصّلة في زمام بخطّ أبي وبخطّي ، لا يزال موجودا .

وفي خلال المدة السابقة اقترض الوزير حسين خوجة أموالا من تجار يستحلّون الفائدة ، ورهن في ذلك نفائس ما عنده من المصوغ المرصّع ، رام أن يوزع ذلك المال في أرباب الزيت ، تسكينا لهم ، قبل كشف الغطاء ، وأمل من الوزير شاكير صاحب الطابع أن يفكّ ذلك الرهن بدفع المال ، فامتنع محتجّا بأن المال انما اقترضه حسين خوجة لخاصّة نفسه لا للدولة ، بدليل أنه لم يدفعه للغرماء . وبقي المصوغ بيد مرتهنه الى أن فني في فائدته .

ثم ان قُوّاد الساحل من آل الجلّولي وابن عيّاد وغيرهم ، امتدت أيديهم في أموال الرعايا امتداد المالك في ملكه ، والوزير شاكير صاحب الطابع يغضي لهم عن ذلك ، وربما أعانهم نظرا لما دفعوه من المال اعانة للدولة في قضية الزيت ، ولانه شارطهم في ولاية الخطط بضعف ما كان ، لان إبطال دخل السّلم ومشترى الزيت أجحف بالجباية ، وامتداد أيدي العمال اضطرّ الرعايا من أهل الساحل الى بيع الزيت على وجه السلم ، وباعوا من ذلك مبلغا عظيما لتجار الفرنسيس وغيرهم ، وكتبوا رسوم ذلك على جموعهم ، بمعنى أن كل بلدة من بلدان الساحل قدمت جماعة من أعيانها وتحمّلوا بذلك على جميعهم ، والحاضر يدفع على الغائب ، والموسر يدفع على المعسر . وقبض القوّاد ثمن الزيت في دور القوّاد . ومن التجار من باع لافراد الناس الا أن عقدة البيع وقعت بدار القايد ، بحيث إن البائع يقبض الثمن أمام العدول ، حتى يشهدوا عليه بالمعاينة ، فاذا غاب عن عيان العدول ، تلقّته زبانية القايد فأخذوا منه ما قبضه . وعناية الوزير لم تزل تلحظهم .

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

وتوقّف أهل الساحل في دفع الزيت عند حلول أجله ، لان المبلغ كثير ، فرفع التجار شكايتهم الى الباي على يد قناصلهم ، وجنس الفرنسيس أكثرهم زيتا . فجاء قنصلهم ، الرجل المشهور بالعقل والسياسة ، ماتيو دي لسّبس ، واجتمع بالباي في بيته بالصّرايا ، وتكلّم معه كلاما نفيسا محصّله : « ان هذه المملكة دار أبيك وأجدادك ، ولبيتكم فيها أساس راسخ يزيد على المائة سنة ، ولاهلها محبة في آلكم ، وتراها أخذت القهقرى في طريق الاملاق والخراب ، ووبال ذلك عائد عليك لا محالة . فاذا افتقرت مملكتك ، جاء الفقر لك بالضرورة ، لان دخلك منهم ، فاذا عدموا عدم الدخل . والسبب في ذلك هو أنك فوّضت في أمر المال لوزيرك ، وهو فوّض للعمّال [الذين لا يرون الا مصلحة أنفسهم] (1) ، يأخذ منهم في مشارطة العمل ضعف ما كان ، ويخلّي بينهم وبين الرعايا ، بل يعينهم ولا يسمع منهم شكاية [وجميع حركاته سريّة ، وهذا دليل أنها غير مستحسنة ، لان الحَسَن مطلوب اشهاره بالطبع ، بخلاف القبيح] (2) . وان هذا الزيت الذي اشتراه التجار لا يشك أحد في أن القوّاد أخذوا ثمنه ، فهم يطلبون الآن أموالهم من القوّاد لا محالة . ونقف الآن عند هذا الحدّ ، ووراء أموال الفرنسيس شروطهم وحماية دولتهم . وحملني على هذا الكلام ، الذي ربما يظهر أن بعضه فضول ، محبتي لك ، ومحبتي لخير بلادك التي أعجبني حسنها ، وطاعة أهلها لاميرهم ، وامتزاجهم بالواردين عليهم . ونقول هذا الكلام لوزيرك بأشدّ من هذا » .

فشكره الباي على نصحه ، ووعده الجواب . وهو أول قنصل تكلم مع الباي بالنصح فيما ليس له أن يتكلم فيه . وعظم ذلك على الباي في نفسه ، وان لم يجد جوابا ، وللحق صولة لا تدفع .

وكان الوزير وقتئذ بسوسة ، فقال الباي للعبد الفقير : « قيّد ما سمعته من القنصل [وكان يتكلم بالعربية] (3) ، واركب الآن من باردو الى سوسة ، وبلّغ الموطن للوزير وما شاهدته من الحال ، وائتني بالجواب عاجلا » ، فركبت من فوري وأصبحت بسوسة ، فأخبرت الوزير بمقال القنصل ، وقلت له ان الناس يتكلمون في ذلك . فاستفهمني ، فقلت له : « يقولون لولا اعانتك للقواد ما قدروا على أقل من هذا ، واعانتك لا تكون

(1) ما بين القوسن ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .
(2) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .
(3) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

الا بجُعل (1) » ، ففكّر في ذلك وقال : « ان كلام القنصل متّجه ، وسأكاتب مولانا بما نراه » ، فاستأذنته في الرجوع بكرة ، فأمر أن يفتح لي الباب قبل وقته ، وودّعته . ولما عسعس الليل ركب مختفيا في نحو ثلاثة من الفرسان ، وسبقني الى باردو ، وتكلم مع الباي بأنه يفصل النازلة على وجه لا ضرر فيه ، واعترف للباي بغلطه . ولما وصلت باردو ، بلغني سرًّا وصول الوزير . ولما قابلت الباي ، سألني عن الجواب ، فدنوت منه وقلت له : « ان صاحبك بدارك » .

ثم رجع الوزير مختفيا ، ففتح نظره وراء تصرُّف العمّال ، ورأى الامر الفظيع ، والظلم الذي يمسك الغيث ، وان الساحل شاحت (2) ثروته ، وبدت عورته . فضرب على أيدي القيّاد (3) ، وكبح شكائمهم ، وخلّص التجار [على وجه جميل . وهذا أيضا من أسباب النقصان في عمران هذه الايالة وثروتها] (4) . ويقال على ألسنة الحسّاد إن هذا السّلم أيضا كثير منه بأموال القواد ، تستّروا فيه بأسماء التجار ، وربك أعلم .

وأقبل الوزير شاكير على أهل الساحل (5) بالعناية والاعانة ، فسلّفهم الاموال على وجه القرض تارة ، والقراض أخرى . وعاد حالهم في نحو العامين الى أحسن حال ، ووافاهم الخصب حتى ان عامّتهم يؤرخون ذلك بصابة شاكير . وأباح لهم ما كان ممنوعا ، وهو الشكاية من تعدّي العامل ، المسمى في ذلك الوقت بالفساد ، ويعاقب صاحبه بالسجن وغرم المال . بل بلغ الامر الى غاية لا تعقل ، وهو أن أحد عمّال سوسة بعث شاكيا من فساد رجل بعملها ، وصدر الامر بازعاجه الى باردو ، وتقييد خطية (6) عليه ، وكَتْبِ أمرٍ للقايد يستخلصها منه والرجل في داره ، وكان ذلك بالمحكمة ، فأتاني باش حانبة بحجّة الفساد ، لنكتب مضمونها في الزمام ، مع مقدار الخطية على العادة ، فتصفحت الحجّة فاذا هي شهادة نَقْلٍ عن أفراد ، الله أعلم بوجودهم ، يشهدون بأن هذا الرجل همّ أن يشتكي بالقايد لسيّدنا ، فتوقفت وعرضتها على رئيس الكتاب وقلت

---

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « برشوة » .
(2) شاح : جف ، يبس ..
(3) قايد : قائد ج قياد وقواد : عامل ج عمال .
(4) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .
(5) « على اهل الساحل » ساقطة من خ ، مثبت في ع و ق .
(6) خطية : غرامة مالية .

له : « كيف أكتب أن الهمّ بالشكاية لسيّدنا ذنب يقتضي العقوبة بالمال ؟ » ، فقال لي منكرا : « اكتب مضمون الحجّة فهمتها أو لم تفهمها » ، فكتبتها كما أمرني ، وهي في زمام المحكمة بخطي الى الآن ، والله يعفو عن السيّئات . وأزعج ذلك الرجل المسكين من داره على حين غفلة الى ظلمة السجن ، ولم يتسرح حتى دفع العدد وخدمته للقايد ، وهو زيادة عشرة للقايد ، الى غير ذلك مما يزيل العمران ، ويحث على الخروج من الاوطان .

ولم يزل الوزير يداوي جراح الساحل . وشكَرَه بعض المدّاحين على صنيعه ، فقال له : « ان مضرة الساحل على يدي ، ويلزمني دواء ما جرح بسببي » . وزال ما كان يعتقده من أمانة العمّال . وتتبع أحوالهم تتبّع الناقد البصير .

وفي خامس جمادى الثانية من السنة 1246 (الاحد 21 نوفمبر 1830 م.) ، سافر الوزير أبو النخبة مصطفى صاحب الطابع الى الجزائر في فابور حربي فرنسيس ، ومعه الكاتب الفقيه أبو الربيع سليمان المحجوب ، لاسباب سياسية ، منها أن الفرنسيس لما استولى على الجزائر ملك ثغورها البحرية وبقيت قسنطينة واعرابها قائمة ، وانضاف لهم أعراب تلك الجهة . وقام بأمرهم الحاج أحمد باي قسنطينة ، مشاغبا للفرنسيس ، يشنّ الغارات على أطراف الثغور ، والفرنسيس يتغافل عنه ويتربّص به الدوائر . وظهر (1) للباي حقن دماء أولئك المسلمين ، فكاتب علماء البلاد وأعيانها بما محصّله : « ان الجزائر لمّا حلّ بها ما حلّ ، وكان أمر الله قدرا مقدورا ، أصبحتم فوضى ، وعرضة لكل ذي حدٍّ أمضى ، لا تأمنون نزاعا ، ولا تستطيعون دفاعا . وبقاؤكم على هذه الحالة يفضي الى تشتيت الكلمة ، واستئصال أمة مسلمة . وان الجيش الفرنساوي لا قِبَل لكم به ولا طاقة . فالواجب أن تنضمّوا الينا وتتركوا القتال ، لانه إلقاء باليد الى التهلكة في هذه الحال ، والمؤمنون كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضا ، الى آخر المكتوب ، وكان من انشاء العبد الفقير .

فأجابه الحاج أحمد باي بما حاصله أنّه قادر على افتكاك الجزائر من غير استعانة . ودلّ كتابه على غلظ واعجاب ، وعقل قاصر (2) بحجاب .

(1) ظهر له : رأى ، اراد ، عزم .
(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : « وعقل مغطى بحجاب » .

ووقع في عربان تونس شيء من مقدمات الهرج ، فبعث الباي هذا الوزير الى أمير الجيش الفرنساوي ، وهو يومئذ المرشال كلوزيل ، يكلّمه في هؤلاء العربان وسفك دمائهم ، اذ لا حاجة له بهم ، انما حاجته أخذ الثار من صاحب الجزائر وقد وقع . واضطرام نار الحرب بوطن الجزائر ربّما يطير شرره الى الوطن التونسي ، الى غير ذلك مما اقتضته المصلحة في ذلك الوقت . فطلب منه أمير الجيش ، المرشال كلوزيل ، أن يقبل الباي وهران ، على ضريبة معينة من المال ، يدفعها باي تونس منجّمة لاعوام معيّنة ، وعند تمامها يقع التجديد أو حلّ العقدة ، بشرط أن يوجّه لها الباي أحدا من أعيان بيته ، [على شروط مقيّدة] (1) . فاغتنم الباي هذه الفرصة في وهران ، حقنا لدماء المسلمين ، وحفظا لوطنه من هرج الفساد ، وطمعا في فائدة ، لو تمّت له أسبابها ، مع اياسه من قسنطينة :

وأتعب الناس ذو حال تُرَقِّعها   يدُ التجمّل والاقتار يخرقُها (2)

فجمع الباي أخاه ووزراءه وأعيان دولته ، وكان بحمّام الانف ، وكلّمهم في ذلك ، فأجابوا على لسان واحد بأن لا حاجة لنا بوهران ، لبعدها عن وطننا ومباينة طباع عربانها لطباع عرباننا ، الى غير ذلك . وممن شدّد النكير ، وكاد أن يصرّح بالتكفير ، الوزير أبو الربيع سليمان كاهية . وللباي غرض في ذلك ، وساعده الوزير أبو عبد الله محمد كاهية . وكان الوزير شاكير صاحب الطابع غائبا بالساحل ، والمكاتيب تتردد بينه وبين الباي في ذلك ، ولم يُستفد منه ميل الى رأي الباي ولا معارضة صريحة ، فظهر للباي أن يوجّه اليها ابن اخيه ، أبا العباس أحمد باي ، لانه أكبر الابناء في البيت ، مع نجابته المعروفة ، فكلّم أخاه في ذلك ، فقال له : « أنا أطوع أمرك ، وسائر الابناء بنوك ، وأنا أكبرهم ، فان رأيت أن توجهني بَدَلَه ويبقى هو بين يديك ، فاني حاضر » ، فصعب عليه فراق أخيه ، وقال له : « تكلّم مع الابن » ، فقال له : « الابن ابنك وغدا نرسله اليك ، فمُره بما شئت » .

ومن الغد أتى أحمد باي فكلّمه عمّه ، فأطرق ثم قال : « هذا أمر يجب علي امتثاله أو أتكلّم ؟ » فقال له : « تكلّم » ، فقال : « اذن لك لا يكون الا بثلاثين الفا من العسكر بما يلزمهم ، وعدد من آلاف الآلاف ريالات ، لان ثغر وهران بيد

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .
(2) البيت ساقط من خ ، فثبت في ع و ق .

المستولي عليها الآن ، وسائر أعرابها قائمة على ساق ، وهم يعلمون ان ولايتي فيها انما هي لفائدة من يحاربونه ، حتى تتم طاعتها ، وتنقاد جماعتها . ولذلك كانت الولاية مؤقتة ، ولا يُظَنّ حصول هذا المراد الا بشوكة عسكرية ، وقوة مالية ، للترهيب والترغيب » ، فبُهت الباي وقال له : « لا تحب السفر ؟ » ، فقال له : « ان أمرتني ان أتوجه لاموت ، فانـي أتوجه الآن طاعة لامرك » .

وقد ظن أحمد باي أن مراد عمّه ابعاده ليصفو الجوّ له ولابنائه ، وظنّ بعض الناس ذلك ، والسرائر يعلمها الله .

[وأما مطلب أحمد باي فانّه واجب متعيّن ، اذ لا بدّ للولاية من المال والرجال ، ولم يشطّط في الطلب لان الحال لا يقتضي أقلّ من هذا المقدار] (1) .

وأتى الوزير شاكير من مغيبه ، ووقع الاختيار على ارسال خير الدين آغة ، وهو ممن لا يرى هذا الرأي ، فسافر على كره ، في الفابور الفرنساوي ، ومعه الكاتب أبو محمد حسن بوكاف وأبو محمد حسونة المورالي وقليل من الحامية ، وذلك في خامس شعبان السنة 1246 (الاربعاء 19 جانفي 1831 م.) وأمدّه الباي بعد أيام بثلاثمائة من عسكر زواوة والمخازنية مع محمد شولاق ، من أعيان المماليك .

ولما وصل خير الدين انحجر في قصر الامارة في وهران ، يخلّص المكوس والضرائب على الاشياء التي تخرج في البحر على قلّتها . والاعراب تناوشه القتال ، مستحلّين دمه (2) والوزير شاكير صاحب الطابع يكاتبه بالملام على عدم ارسال المال ، خشية أن يحلّ نجم الدفع ، الى غير ذلك من الخيالات التي لا مستند لها الا التمنّي ، وهو رأس مال المفلس . ورسوله سليمان الزواوي يتردّد بين تونس ووهران برسائله [التي يجاب فيها بنقيض مقصوده] (3) .

ولما ضاق ذرع خير الدين ، كاتب الباي بأن ثلاثمائة من العسكر لا تعمل في ألوف من العربان ، وكلّما طلبت من وزيرك الامداد بالمهمّات والرجال ، يجيبني بارسال المال .

(1) هذه الفقرة ساقطة من خ ، مثبتة فى ع و ق .
(2) كذا فى خ ، وفى غ و ق : « وآهل الزوايا والاعيان وعامة المسلمين بذلك الوطن يقاتلونه ، مستحلين دمه ودم تلك الشرذمة التى معه ، لا مانع لهم من استئصال شافته الا السور والمدفع ، شبه المحبوس » .
(3) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

ولما كـانت العقدة تقتضـي الفسخ اذا وقع العجز ، أذن له الباي في الرجوع ، فرجع في ربيـع الثانـي من سنة سبـع وأربعين (سبتمبر — اكـتوبر 1831 م.) ، صفر اليدين ، مثقلا بالدّين . ولم يجد أحد وجها لملام خير الدين .

وبقـي الحاج أحمد باي في قسنطينة ، عائثا في دمائها وأموالها ، الى أن أخذهـا الفرنسيس في رجب من سنة ثـلاث وخمسين 1253 (اكـتوبر 1837 م.) ، وهـرب خشية أن يسلّمه أهل البلاد ، وقد تواطؤوا على ذلك . وهذا أقل ثمرات الجور ، المفضـي الى المحظور . سمعت من بعض علمائها في ذكـر الحاج أحمد باي وعسف جوره ، وختـم كـلامه بقوله : « ولا زلنا في أسر هذا الظلوم الغشوم ، حتى رحمنا الله باستيلاء الفرنسيس ».

وفي هذه المدة وقع الارجاف بأن الدولة العلية العثمانية عزمت على حرب المملـكـة التونسية ، لسبب خروجها من الالتحام الاسلامـي ، وكـأنها رأته حربا شرعيا . وفشا ذلك في العـامة ، وكـنت [لجهـلي بحال هذه المملـكـة] (1) ممّن يحسّن رأي الباي في شأن وهران ، ولا نراه معارضا لقواطع الشريعة . فأجمع رأي الباي ورجال دولته على ارسال العبد الفقير بمـكـتوب مخصوص لسر عسكـر ، وهو يومئذ خسراف باشا ، ومثله لقبطان باشا ، وهو يومئذ خليل باشا ، ان وقع الكـلام في نازلة وهران ، وان لم يقع نرجع بالمكـاتيـب التـي مضمونهـا احالة نقل الجواب على عهدتـي ، وارسال أبـي النخبة مصطفى البلهوان باش حانبـة بمكـاتيب للـدولـة في طلب الاذن لعمـل عسكـر نظامـي ، وطلب لبـاس التشريف ، ليكـون هذا الاذن قوة للباي ، خشية الفساد ممـا بقـي من جند الترك . واذا سئل عن أمر وهران يحيل الجواب علي . وفي الصورة الظاهرية كـنت أشهد على مصروفه ، لان عناية الوزير بتدبير المال أشدّ منها في غيره .

وركـبنا مركـبا متجريا صغيرا ، وشقوفنا بالجابية ، لان تعمير شقف منها أكـثر من كـراء شقف متجـري .

وسافرنا أوائل ذي الحجة من السنة 1246 (أواسط ماي 1831 م.) ، فوجدنا السلطان محمود بأسطوله في البوغاز على بلد قلبولي ، فأرسينا ، ومن الغد أرسل لنا قبطان باشا فأحسن اللقاء ، وناوله مصطفى البلهوان مكـاتيبه ، فقال لنا : « ان السلطان سيرجع قريبا الى

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

اسلامبول ، فتوجهوا لها » . وأصحبنا بمكاتيب لخسراف باشا ولكاهيته . ووصلنا اسلامبول فبالغت الدولة في اكرام نزلنا ، على عادتها في اكرام الضيف . وجاء السلطان بعد أيام ، فأرسل لنا الوزير خسراف باشا ، بمحضر قبطان باشا ، وسألنا عن شأن وهران ، فقال له مصطفى البلهوان : « أنا رجل جندي ، رسالتي هي ما في مكاتيبي . وهذه نازلة دينية سياسية ، هذا رسولها » ، فعند ذلك ناولته المكاتيب التي بيدي ، وكان يتكلم باللغة العربية . ولما قرأها ، سألني عن سبب تأخيرها ، فقلت له : « لم تطلب مني جوابا ، ولما سألتني يجب أن نقدم حجة الاذن لي في الكلام » . وأجبته بالاسباب المقتضية على الاجمال ، وأعظمها حقن دماء المسلمين ، وان التفويض لصاحب تونس على بعدها ، يقتضي أن يسعى في توقيف ضرر حالٍّ ، من غير توقف على اذن من الدولة . وبعد ذلك استدعانا بمحضر رجلين من العلماء ، وأعدت الجواب موضحا . وهو يدور على ارتكاب أخف الضررين ، والضرورات تبيح المحظورات ، ودرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة ، واصل ذلك صلح الحديبية . فكتبه أحدهما ليطّلع عليه شيخ الاسلام. ثم قالوا لنا : « أحسن الباي في صنعه كله ، الا في عدم قبول طاهر باشا » ، فقلت لهم : « لو أذن له في النزول وبعثه في جمع ، لادّى ذلك الى حرب » ، فقال : « يرى الشاهد ما لا يراه الغائب » .

ولما يسّر الله قضاء الوطر ، وزال ما كان يظنّ من الخطر ، رجعنا في جمادى الاولى سنة سبع وأربعين (اكتوبر — نوفمبر 1831 م.) ، بعد أن لبسنا هناك زيّ العسكر النظامي . وجاء معنا رسول بالشعار الملكي النظامي ، فلبسه الباي في ديوان حافل على العادة . [وأخذ الوزير اللباس من يد الرسول وهو الذي باشر وضعه على الباي ، وقد كانت العادة السابقة أن ترجمان الداي هو الذي يأخذ اللباس من يد الرسول ويضعه على الباي] . ولما وصلنا [وطالت مدتنا في البحر ذهابا وايابا] ، وجدنا خير الدين أتى من وهران [في مركب بخاري] (1) قبل وصولنا بأيام .

وفي شعبان السنة 1246 (جانفي) ، شرع الباي في ترتيب العسكر النظامي . وذلك أنه جمع شبّانا من أولاد الجند الثابتين في ديوانه ، أكثرهم طبّجية ، وضمّ لهم آخرين من أولاد البلاد ، وأسكنهم المحمدية ، وجلب لهم معلما من فرانسا لصناعة الرمي بالمدفع

(1) ما بين القوسين في هذه الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

والمكحلة ، على الترتيب النظامي . ثم كثر عددهم شيئا فشيئا ، وأثبت من القيروان والساحل عددا ، جعل مقرّهم سوسة ، وجعل لهم معلما . وتقدم في ترتيب هذا العسكر متأنّيا ، مراعاة للجند السابق الذين هم الحامية يومئذ ، وبيدهم حصونها في الحاضرة والبلدان ، متوقعا منهم ثورة . والعسكر لنظر وزيره شاكير ، وقدّم لمباشرتهم الامير آلاي سليم بالمحمدية ، والامير آلاي قاره محمد بسوسة ، ومرجعهما للوزير ، حتى كان ينسب هذا العسكرَ لنفسه ، وبحث بذلك عن حتفه بظلفه ، كما يأتي ان شاء الله .

وفي رمضان السنة 1246 (فيفري — مارس 1831 م.) ، وقع ترتيب المحصولات بفندق الغلّة بباب البحر وهو أول التراتيب في الحاضرة جرى على قانون في أوله ، [ورتب الباي على سائر ما يباع من الثمار ونحوها ضرائب مجحفة ، بل أخذ من بعضها الربع ، شأن الدول عند الضعف والحاجة] ، وجمع منه الوزير مالا وافرا [ربما سدّ الخلة] (1) ، ثم صار التزاما في شوال سنة أربع وخمسين (ديسمبر 1838 م. — جانفي 1839 م.) .

وفي السادس عشر من جمادى الاولى من سنة سبع وأربعين (الاحد 23 اكتوبر 1831 م.) ، توفي شيخ الاسلام الرجل الصالح أبو عبد الله محمد ابن شيخ الاسلام أبي عبد الله محمد بن حسين بيرم ، وتغيرت البلاد لوفاته ، ولم يتخلف عن جنازته الا من عاقه العجز ، وحضر الباي وبنوه وسائر رجال الدولة ، وتبركوا بحمل نعشه ، ودفن بتربة أبيه قرب داره . وتقدم ابنه شيخنا العلامة أبو عبد الله محمد لرئاسة الفتوى ، وتقدم ابنه صاحبنا الفقيه المحقق أبو عبد الله محمد لخطة الفتوى .

وفي الثاني (2) والعشرين من رمضان سنة سبع وأربعين 1247 (الجمعة 24فيفري1832م)، انعقدت شروط بين الباي وسلطان سردانيا ، [الذي هو الآن سلطان أهل ايطاليا] (3) كارلو ألبيرتو ، بواسطة قنصله المفوض له في ذلك ، الكنت فليبّو ، وهو من رجال السياسة وأعيان قومه . وبعد عقد الشروط سافر من تونس لخطة أعلى . والشروط باللسان العربي .

(1) ما بين القوسين في هذه الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

(2) كذا في خ و ع ، وفي ق : « الثامن والعشرين » .

(3) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

وفي الحادي (1) والعشرين من شوال سنة سبع وأربعين 1247 (السبت 24 مارس 1832 م)، توفي الداي عمر ودفن بتربته ببير الحجار ، وتقدم بعده للولاية الداي حسن الذي كان آغة باب باردو ، وامتحن في نكبة الوزير يوسف صاحب الطابع ، ثم صار كاهية آغة القصبة . وهو خيّر وجيه أَلْحَى لم ترمق عيني في بلادنا أطول من لحيته ، أعجوبة في ذلك .

وفي يوم الاثنين ثامن (2) ربيع الثاني سنة ثمان واربعين 1248 (3 سبتمبر 1832 م) توفي هذا الداي حسن فجأة ، وقدّم الباي عوضه مصطفى داي أحد أعيان جند طرابلس الذين قدموا لتونس مع مصطفى خوجة ، وكان قبل ذلك وكيل أملاك الدولة بالحاضرة ، وكاهية آغة القصبة .

وفي رجب من السنة 1248 (نوفمبر — ديسمبر 1832 م.) وقعت وحشة بين الباي ودولة سردانيا ، سببها أن رايس شقف صغير وسق من غير المرسى شيئا ممنوعا الا بالسراح (3) ، وذلك بساحل غار الملح . فنمى الخبر الى الكاهية محمد ابن الكاهية أبي العباس أحمد ابن الوزير الكاهية محمد خوجة ، أمين الترسخانة ، فجعل عسّاسة عليه فأراد أن يلقي ذلك في البحر ، فأذن الكاهية بالطلوع الى الشقف ، فنشر الرايس صنجق دولته وترك شقفه ، وادّعى أن به أشياء ضاعت له ، مع اعترافه قبل هذه الدعوى بأنه لم يَضِع له شيء ، ووجودِ الشيء الممنوع في شقفه . والعادة الجارية أن من يُطْلِع شيئا ممنوعا ، يؤخذ ذلك الممنوع والشقف بما فيه . واستعجل القنصل بمكاتبة دولته في ذلك ، قبل اتمام المفاوضة بينه وبين الباي ، [كأنه يريد تعظيم النازلة] (4) ، فأتى منها أسطول طلب أميره أمورا أولها عقاب الكاهية على تعدّيه ، الثاني رفع صنجق السردانيز واطلاق واحد وعشرين مدفعا عليه ، الثالث غرم ما لزم الرايس من المصاريف والضرر ، الرابع مصروف الاسطول ، والا فالحرب .

وعيّن لذلك أجلا ، فجمع الباي أهل المجلس الشرعي ورجال الدولة وفاوضهم في ذلك ، وكان جانحا الى الحرب والوزير مثله . وجنح بعضهم الى السلم ، كالوزير أبي عبد الله محمد خوجة كاهية حلق الوادي ، فانه قال للباي : « يا سيدي ، ان سردانيا

---

(1) كذا فى خ و ع ، وفى ق : « الخامس والعشرين » .
(2) هو 7 حسب التقويم .
(3) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « الا باذن خاص بعد اداء السراح » .
(4) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

وجنوة ليستا كما كنا نعهد ، وتقدّمتا في العمران والقوة بقدر ما تأخرنا ، فلا تخاطر ببلادك والحالة هذه » ، فجمع الباي المجلس الشرعي ورجال الدولة ، وأمرني بقراءة مطالب أمير الاسطول ، تهييجا لحميّتهم ، فقال له رئيس المجلس شيخنا أبو عبد الله محمد بيرم : « ان كنت تسأل عن الحكم الشرعي ، فالتكليف بقدر الامكان ، ولا يكلف الله نفسا الا وسعها ، وعلم ذلك مرجعه اليك والى وزيرك ، فان تحقق عندك قوتنا على المدافعة فتوكل على الله ، والا فالتربّص أولى » . وسأل الوزيرَ عن حال القوة فقال له : « ليس عندي ما يقاوم قوتهم » . وعارضه شيخنا عالم العصر ، وكأنه نسبه الى الخوف ، ظنّا منه أن سردانيا الآن هي سردانيا في الزمن السابق . واتفق الرأي على التأني وعدم المسارعة الى الحرب ، الا اذا لزمت ضرورة ، فأجاب الباي عن المطالب : « بأن الكاهية استوجب الادب ، وقد عزلناه لانه بلّغ الينا أكثر من الواقع ، واستعجل في أمر لا يفوت لو قوّى العسّة . وأما رفع الصنجق واطلاق المدافع عليه ، فاننا لم نقصد والحالة هذه ما يناقض احترام الصنجق ، ولذلك نشهر هذا القصد ونعلنه باطلاق المدافع ، حتى يعلم الخاص والعام مرادنا . وأما خسائر صاحب الشقف ، فقد اعترف بأنه لم يَضع له شيء ، والشهادة قائمة عليه بذلك ، وقد وجدنا الشيء الممنوع في شقفه ، وبذلك يمكن لنا الاستيلاء عليه ، على عادة بلادنا المعروفة ، [وعادة الدنيا المعقولة ، وهي أن كل من أتى بلدا تمضي عليه أحكامها] (1) ، ومع ذلك لم نأخذه ، وانما أوقفناه فقط ، حتى يتم الكلام بيننا وبين القنصل في ذلك . وأما مصروف الاسطول الذي جاء لسبب هذا التعدّي ، فأيّ تعدّ وقع والحالة هذه ؟ بل التعدي من صاحب الشقف على قوانين البلاد وأحكامها . فأي داع لدولتكم في ارساله قبل أن يقع الكلام بيننا ويعلم كل منا قصد صاحبه فيرجع أحدنا الى الصواب » .

وانفصلت النازلة على هذا الوجه ، وأطلقت المدافع على الصنجق ، وعزل الكاهية .

وقبل قدوم هذا الاسطول توجه الوزير شاكير الى حلق الوادي وأحكم حصونه ، وجعل متارس أرضية بالرمل . واستخدم في ذلك يهود الحاضرة [دون غيرهم ، ولم يظهر سرّ التخصيص] (2) . ولما تمّت عمّرها بالمدافع ، واستنفر الباي الوسالتية وفرسان الاعراب وغيرهم ، واستعدّ للمدافعة ، فكفاه الله ذلك بالصلح الذي هو خير .

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .
(2) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

وفي رمضان من السنة 1248 (جانفي — فيفري 1833 م.) وقعت وحشة بين الباي ودولة النَّبْلُطَان ، بسبب أنفار من نَابُلي مستخدمين في صرايته لتنظيفها ومناولة سكانها ما يلزم لضرورياتهم [يسمون المشاشوات أي الصغار] ، غلبهم النوم في ليلة من ليالي رمضان ، فلم يسمعوا علامة السَّحور ، وأيقظتهم علامة الامساك ، فلم يهيّئوا موائد السحور للمماليك حتى حان وقت الفجر وأمسكوا بلا سحور . فاغتاظ عليهم رئيس المماليك بالصراية ، وهو أبو النخبة مصطفى باش مملوك ، فأمر بضربهم . وعاثت في أرجلهم أيدي الضرب المبرح ، ففزعوا الى قنصلهم بحرارة ما نالهم . فلم يسعه الا القدوم الى الباي ، وانتظره في صحن البرج ، ولما خرج الى المحكمة تلقّاه في الصحن وقال له : « هل بلغك ما حلّ بالانفار المخدَّمة في صرايتك من النبُلُطان ؟ » فقال له : « بلغني ، وقد غفلوا عن واجب خدمتهم ، وكل من غفل عن واجبه يلزمه الادب » ، فقال له: « ليس هذا ضرب أدب ، وان شئت فانظر الى أرجلهم وما حلّ فيها من الاثر » . ثم أن المقرّب جوزاب راف قال للقنصل [اذ هو المترجم في النازلة] : « ليس هذا موضع الكلام ، وانتظر سيدنا حتى يخرج من المحكمة وتلاقيه في محل مناسب لكما » ، فرجع منتظرا [ولاطفه جوزاب راف] ، ولما خرج من المحكمة اجتمع به القنصل ، وأعاد له خطاب التحنن وما يقتضيه الحق ، لان هؤلاء لما تسرّحوا من رق الملك ، اختاروا المكث في البلاد [بمحل مربّاهم] (1) أُجَرَاءَ ، وليس للمستأجِر أن يضرب أجيره ، قصارى الامر فسخ الاجارة وطرده . وبالغ في حسم النازلة قبل انتشارها ، والباي يقول له : « عادة بلادنا تأديب خدَمتنا بالضرب وغيره » ، فقال له : « يا سيدي ، يمكن فصل هذه النازلة بتوبيخ رئيس المماليك بما تراه ، وارضاء الشاكين » ، فلم يُصْغِ له الباي ، ورجع . فخلا الباي بوزيره شاكير وبعض رجال دولته ، وفاوضهم في النازلة ، فأشار بعضهم بتصويب رأي القنصل ، وأن لاَ تَسَلُّطَ للمستأجر على أجيره بالضرب . وكدت أن أمتحن في النازلة ، لولا لطف الله وصفاء باطنة هذا الباي ، [لانه نظر إليّ وهو حَنِق ، مع أخلاق الصائمين ، وقال لي : « ما تقول ؟ » فقلت له : « يا سيدي] (2) الضرب غير مدخول عليه في الاجارة ، لانه أمر مجهول ، وهؤلاء أحرار » ، فعظم عنده ذلك ، وقال : « يقال بحضرتي لفظ حرّ ؟ » ، وجعل يكررها وينقمها علي . ونادى أبي وقال له :

(1) ما بين القوسين في الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

(2) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق ، وفي خ : « لاني قلت له » .

« هذا كيف تربّى ؟ » فقال له : « نعلم أنه لا يصلح للخدمة ، وقلت لك ذلك فاستخدمته على كره منّي ، فدونك واياه » ، فقال : « يقول « هؤلاء أحرار » ، فقال له أبي : « هذا من جهله وعدم تخلقه بالسياسة » . وغلبه حلمه رحمه الله وسكن غضبه . وقال الوزير شاكير : « ان مثل رئيس المماليك لا يوبّخ ولا يلام لاجل هؤلاء الاسافل »، فقال له جوزاب راف : « ان استرضاءَهم هيّن عليّ ، فمرني بذلك » ، فقال له : « لا تفعل ذلك » . ثم ان الوزير أرسل الى القنصل ليقول : « هؤلاء الخدَمة من أراد منهم الخدْمة في الصراية فليتجلّد لكل ما يرد عليه ، على العادة ، ومن لم يرد ذلك فهو مطرود » ، فقال له القنصل : « قد تركوا الخدمة قبل طردكم ، وهم الآن يطلبون حقهم ممن تعدّى عليهم وأوجع أبدانهم بالضرب الشديد ، ولم يتعمدوا ذنبا ، والنوم ضروري للحيّ » .

وكاتب القنصل دولته فأتى منها أسطول به البرنجبي الكولير كراشلو ، فطلب عقاب المتعدي على هؤلاء بالضرب ، ونَشْرَ راية دولة نابلي ، وإظهار احترامها باطلاق واحد وعشرين مدفعا ، حتى يظهر للعيان أن احترام الدولة لم يَمَسَّه شيء ، والاعتذار عن هذا الخطأ بالكتابة ، وما لزم الدولة من مصروف الاسطول .

وترددت الرسل بين الباي والبرنجبي ، وآل الامر الى أن الدولة غير مضطرة لارسال مراكبها والحالة هذه ، ورئيس المماليك وقع توبيخه ، ومنع من الخروج شيئا من الزمن ، لما صدر منه من الخطأ ، وتعظيم الراية بالمدافع اعتراف بالخطأ . وكاتب الباي البرنجبي بمكتوب محبة واحترام ، في الثاني من ذي الحجة 1248 (الاحد 22 افريل 1833 م.) .

ووقع لبعض هؤلاء الخدَمة ندم ، وبقي قليل منهم في الخدمة . واضطر أهل الصراية الى من يخدمهم ، فقال بعض عقلاء المماليك : « نحن في هذا الموضع عسة على ذات الملك ، يخدم صغيرنا كبيرنا » . ولم تكن يومئذ عسة عسكرية على الملك . وقال آخرون : « نحن خاصة الملك ، وصغيرنا له اعتبار ، لا يخدم الكبيرَ الا برضاه ، لا بالغصب ، ولا بد من خدَمة مأجورين للصراية » . ولما بلغ الباي هذا الكلام ، جنح اليه ضرورة ، لان المملوك اذا لم يرد الخدمة ويطلبُ حريته ، تحميه قنصلاتو الانقليز أو الفرنسيس ، حبَّ الباي أم كره . فعند ذلك آجر الباي أناسا من أبناء المملكة الذين لا مهرب لهم منها الا اليها وقتئذ ، واستخدمهم بالصراية [عوض المشاشوات من النصارى] (1) ،

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

يُشَجُّ أحدهم فلا يرثي له أحد ، ولا يؤمل الا غَيْرةَ الواحد الاحد . وكانوا أول الامر يُستخدمون برضاهم ، طمعا في التقدم للخطط ، الذي لا سبب له في الملك المطلق الا محبة الملوك ، وان لم يحصّلوا الا الاماني ، ثم انقلب الامر الى استخدامهم كرها .

وفي الخامس عشر من جمادى الاولى سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف 1248 (الاربعاء 10 اكتوبر 1832 م.) توفي عالم الامة ودستور المالكية ، أبو الفداء الشيخ اسماعيل التميمي رئيس الفتوى ، وحضر جنازته الباي وأبناؤه ورجال دولته ، وحمل نعشه ، وصلى عليه الشيخ الامام أبو عبد الله محمد الشريف بجامع الزيتونة ، أمام باب البهور . وتقدم لرئاسة الفتوى تلميذه شيخنا عالم العصر ، وتقيُّ المصر ، ومن تعز مناقبه عن الحصر ، أبو اسحاق ابراهيم الرياحي ، وكاد أن لا يقبل الولاية ، وذلك أن الباي استقدمه على لسان ثقته المقرب أبي عبد الله محمد ابن الوزير العربي زرُّوق . ولما وصل قام له الباي وأجلسه حذوه ، وقال له : « ان سيدي حمودة باشا اختارك لخطة القضاء فهربت منه ، وأنا أرجو أن لا تمتنع الآن من رئاسة الفتوى ولا تهرب مني » ، فقال له : « الاحسن أن تتركني للتدريس لانه أنفع للمسلمين ، وتقدم لهذه الخطة من حصل له التمرُّن فيها من أهل المجلس » . فأومأ اليّ الباي أن أعارضه ، فقلت له : « يا سيدي ، ان الامر تعيّن عليك ، وصار واجبا شرعيا في حقك ، وحاشاك أن تترك واجبا » ، فقال لي : « أتشهد بذلك ؟ » فقلت : « نعم ، أشهد به » فقال : « ومن يشهد معك ؟ » فقلت له : « تلميذك الشيخ محمد الاصرم ، كاهية باش كاتب » ، وكان جالسا أمام الباي ، فقال : « أشهد بذلك وأدين الله به » . وقال الحاضرون : « جميع الناس يشهدون بذلك » ، فقال للباي : « أقبلت شهادة هؤلاء ؟ » فقال له : « نعم ، وأنا معهم » ، فقال : « ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن » . وقبل الولاية وأُلبس حلّتها بحضرة الباي .

ولما خرج قال له محمد زرُّوق : « هذا الوزير شاكير صاحب الطابع جالس في بيته ، وهي في طريق مرورنا ، فلا بأس أن تدخل اليه » ، وحسّنت له ذلك ، ففعل . ولما دخل قام له الوزير ، وأكبر مقدمه ، وأجلسه في موضعه ، وجلس بين يديه متأدبا ، وهنّأه وعامله معاملة لم تُعهد منه مع عالم ولا وليّ . وباسطه في الخطاب ثم قال له : « يا سيدي ، أيسوغ لي أن أخلّص من الناس عشرين ، يعني الخمس في الزكاة ، عند

ضيق الحال ؟ » ، فالتفت اليّ مبتسما وقال لي : « هذه مسألة عز الدين بن عبد السلام » (1) ، وقال للوزير : « نعم ، وتخلص أكثر من ذلك ، بشروطه التي منها الحساب لمعرفة الدخل والخرج وطرح ما لا يلزم شرعا من المصاريف ، فانه من مال مَن صرّفه ، واليمين » ، فقال له : « وكيف اليمين ؟ » ، فقال : « يحلف الامير في الجامع ، مستقبل القبلة قائما ، بالله الذي لا اله الا هو ما خان ولا بدّل ولا غيّر ، فعند ذلك يسوغ لك أن تأخذ من الناس ما تدفع به عنهم الضرر المحقّق ، غير مقيّد بمقدار معين » . ثم خرج وشايعه الوزير وبالغ في إجلاله ، ولم ينفعل من مقالته ، لانه لا يرى السرف في المصرف ولا الاجحاف بالرعية . وقال لي : « اذكر هذا الكلام لسيدنا ، لسرّ له في ذلك » .

وفي سنة تسع وأربعين ومائتين وألف 1249 (1833/34 م.) ، وقعت محنة أهل القيروان بالخَطيّة (2) .

وذلك أن هذه المدينة الصحابية المؤسسة على التقوى ، كانت مأوى لابي عبد الله حسين باي بن علي ، وقامت بدعوته ، وتجلدت للحصر خمس سنين ، وذاقت لباس الجوع والخوف ، وتهدم سورها ، وطمست معالم أبنيتها ، واستولى السيف والشنق على أعيانها ، ونالهم في دولة الباشا علي باي بن محمد المذلة والهوان ، وقتل النفس وأخذ المال والجلاء من الوطن ، ما تحدثت به الركبان وسار مسير الشمس ، حتى منّ الله عليهم بولاية أبي عبد الله محمد باي ، ابن صاحبهم حسين بن علي ، فأقام سورها وأظهر نورها وأصلح أمورها ، وأجراها على ما اعتادته من الاحترام . وجرى آل بيته في هذا السَّنن ، واكتسب أهلها احتراما أعانهم على ما يسدّ الرمق من الثروة ، بالنسبة الى حالها ووضعها . لان الصحابة رضي الله عنهم ، راعَوْا في اختطاطها مصلحة إبلهم التي هي أقوى عُدَدهم يومئذ ، ولذلك لم تنفق فيها أسواق المتاجر لبعدها عن البحر وعن الانهار المنبتة للاشجار ، وهي الى الآن أقرب للسذاجة من الحضارة ، ولذلك كانت أقل ثروة من بلدان افريقية .

ولما احتاجت الدولة الى الاعانة في الزيت الذي بيع للتجار كما تقدم ، وتوجه الوزير شاكير صاحب الطابع الى الساحل ، أمّل من أهل القيروان إعانة . فداخل عاملها سرّا ،

---

(1) انظر طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ج 5 ص 83 (القاهرة ط 1)

(2) الخطية : الغرامة المالية .

وهو يومئذ عثمان ابن الحاج عمر المرابط ، فداخل أعيانها سرًّا واستفاد منهم أن أهل القيروان حسبهم الاعانة بالدعاء والفاتحة ، إدلاءً بمحبتهم وعظيم منزلتهم (1) ، الا أن العامل أساء في التبليغ ، لما له في ذلك من المصلحة . فتوغّر عليهم صدر الوزير ، وتحققوا ذلك .

واتفق أن أنفارا من مساكن لاذوا بحرم أبي زمعة البلوي ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعث الوزير من سوسة في إخراجهم من الحرم ، فقام رجل حائك من عامتها اسمه سعد اللوز ، ونادى : « يا أهل القيروان ، هكذا يهتك حرم السيد الصاحب وحرم القيروان ؟ » ، فلبّاه جمع من غوغاء الرّعاع ، وانضاف اليهم آخرون ، واجتمعت العامة ، وعجزت الخاصة عن ردّهم ، وافتكّوا الهاربين قهرا . ثم حملوا السلاح وأتوا أعيانها يشيرون الى الواحد منهم بالسلاح ويقولون له : « ترضى هتك حرم السيد الصاحب ؟ » ، ولا بدّ أن يقول لا ، فاذا قالها قالوا له : « أنت معنا حينئذ » ، فيقول لهم ، وهو ينظر الى السلاح الموجه نحوه ، : « نعم » . ثم يأتون الآخر ، وهكذا . وبُوس السباع بأيدي الضباع .

واختفى الموجّهون من الوزير لاخراج الهاربين ، خوفا على أنفسهم من القتل ، وركبوا أدهم الليل الى سوسة ، وأخبروا الوزير بما رأوه من ضجيج العامة ، فغضب وكاتب الباي وهوّل له الامر بأن القيروان عصت وجاهرت بالبغي ، ولا بدّ من تلافي هذا الامر قبل سَرَيانه ، فوجّه الباي كاهية وجق الصبايحية بتونس صالح بن بلقاسم ، وكان من أعيان الدولة ، في عقد من الخيل ، وأمره أن يأتي سوسة أولا ليأخذ رأي الوزير في وجهته ، فأتاه وأوصاه وتحقق منه ان سائر أهل البلاد على اتفاق واحد .

ولما قارب القيروان بعث عينا لاستكشاف الخبر ، فتحقق أن البلاد على عادتها ، وأهلها في أهبة إكرام نزله ، فسار ، ولما وصل ضواحيها تلقاه جمع من أهلها بصناجق الاولياء ، فدخلها وتمكن على من أثار الهرج من العامّة ، وطلب من مجلسها الشرعي وأبناء زواياها وأعيانها أن يسيروا الى الباي ، فساروا معه على أمن وخجل من فعل العامّة . ولما دخلوا المحكمة ، يتقدّمهم الفاضل العالم رئيس الفتوى أبو عبد الله محمد ابن الشيخ بكار صدّام ، عذلهم الباي وبالغ في لومهم ، فقالوا له : « ان أهل القيروان يرون أن زلّتهم عند أولاد حسين بن علي مغفورة » ، الى غير ذلك مما يسكّن الغضب ، فأمر

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « ادلاء بسالف خدمتهم وتشيعهم » ويقصد : ادلالا .

بضرب الرؤوس من العامّة خمسمائة (1) ، وكانوا نيفا وتسعين رجلا . ودام الضرب فيهم من الضحى الى العصر ، الا أنه ضرب هداية وتأديب لا ضرب قتل بتعذيب ، وذلك أنه لما أمر بضربهم قام من المحكمة وأمر أضه باشي المماليك ، الرجل الخيّر محمد الطبرقي ، بالتخفيف والرفق ، [وقال له : « اضرب ضرب تربية لا ضرب انتقام » . وكان ذلك علنا] (2) . وسجنهم بالكرّاكة ، وقال لاعيان البلاد : « لا بدّ من [خطية، يعني] (3) عقوبة مالية ، على كافة أهل القيروان » . والظن أن يخلّص شيئا ويترك شيئا ، اذ المقصود التربية . وأمرهم بالمسير الى سوسة لملاقاة الوزير ، ظنا منه أن ذلك يسكّن غضبه . فتوجهوا اليه ، ولما وصلوا بابها منعهم العسّاس من الدخول وأوقفهم زمنا طويلا ، ثم أذن لهم فدخلوا دخول أسرى حرب . ولاقى الوزير مقدّمهم وعاملهم بعنف وشدّة ، وقال : « الواجب في مثلك أن يقطع رأسه » ، وان صار يعظّمه بعد ذلك ، ثم عرّفهم بمقدار المال الذي قيّده الباي عليهم ، وهو خمسمائة ألف ريال ، وأنه قادم على الاثر لخلاصه ، ولا يحاشي أحدا . وأمرهم بالانصراف فانصرفوا .

وبعد ذلك ركب الوزير بمن معه الى القيروان ودخلها ، لا يقبل من محسنهم ولا يتجاوز عن مسيئهم . وقيّد سائر سكان البلاد ليوزع الخطية على قدر أموالهم لا على قدر ذنوبهم ، [لم يستثن من ذلك أحدا من الاشراف وأبناء الاولياء] (4) . ثم ثاب اليه فكره فحاشى أهل المجلس الشرعي .

يقال بالقيروان ، والله أعلم ، أن القايد يوسف بيشي اليهودي مباشر قبض الاموال في بيت خزنه دار ، قال له : « انا نرى في كتبنا أن إزالة احترام العلماء مؤذن بزوال القوة والتسلط ولم يُستَثْنَ غيرهُم » .

كما يحكى بها أن معلم صبيان نابه من الخطية خمسمائة ريال ، فأتاه مستعطفا ، فقال له : « بلغني أن على باب دارك شبّاكا ، ومن له دار هكذا يقدر على هذا العدد » ، فقال له : « لا أملك دارا ، ومسكني بالاجارة في دار بوديدح ، وهذا عقد الاجارة ، وان

(1) « خمسمائة » ساقطة من غ ، مثبتة فى ع و ق .
(2) الزيادة فى ع و ق .
(3) الزيادة فى ع و ق .
(4) الزيادة فى ع و ق .

ثبت لي ملك بالقيروان فهو لك ولو جاوز ثمنه هذا المقدار » ، فلم يلتفت له ، فشرع المسكين في بيع ثيابه وألواح مكتبه ، آيسا الا من رحمة ربه ، لان القوم في زلزلة ساعة ، سكارى وما هم بسكارى . وكل من تقاعد عن الدفع يعيّن له المخازنية ينزلون داره ويسيئون جواره .

وخلّص منهم خدمته على أصل الخطيّة ، بحيث لم يقف على عددها عند حدّه ، بل زاد النصف فيما يقال .

ورحل بعد أن خلّص أكثر ذلك ، وأناب في خلاص النزر الباقي . وباع أهل القيروان في ذلك نفائس أمتعتهم وأملاكهم بأبخس الاثمان ، وأصبحوا لا ظهر فيركب ولا لبن فيحلب ، وأرهقتهم الديون .

وآسف أهلَ المملكة ما حلّ بمدينة الصحابة ومدفن شعرات المصطفى صلوات الله عليه ، وأبناء الاشراف والصحابة والتابعين ، ونشأت فيهم غيرة دينية كما يغار المؤمن لحرم الله ورسوله ، وانتظروا إغارة الله .

ومن ذلك ابتدأ أمر هذا الباي في التراجع ، ووقع الكلام فيه ، وهو ذريعة للتحزب والحرب عند ذوي النفوس الزكية الابية .

ولما بلغ الوزيرَ ذلك داوى الجرح بمكاتبة الباي بأن هذا المال يدفع في ثمن المراكب الحربية التي تعيّن لانشائها بمرسيلية أبو محمد حسونة المورالي (1) ، لتحمي الثغور الاسلامية .

وقبل تمام هذه الشقوف ابتدأ مرض الباي ، ووقع في نيته قرب منيته ، فازداد حزنه ، وأقبل على قراءة دلائل الخيرات ، ولازم الصّمت .

وفي أوائل شعبان السنة 1249 (أواسط ديسمبر 1833 م.) ، احتفل الباي لعرس الوزير شاكير صاحب الطابع ، واستدعى أعيان البلاد على اختلاف أنواعهم لها (2) .

---

(1) بهامش ق توجد هذه الزيادة بخط مغاير : « فى جمادى الاولى سنة 1249 ، توجه السيد حسونة المورالى ورديان باشا ، الى مرسيليا لانشاء فرقاطة وكرويطتين كان المصروف عليها ريالات (2.036.622) ، ورجع فى صفر سنة 1251 ، واخذ عند سفره احسانا قدره ريالات 3000 ، وعند ايابه ثلاثة آلاف ايضا دون مرتبه الشهرى ، وقدره خمسون ريالا . وكان تفصيل المصروف يدفع على يد جوزابين باش قزق . وفى التاريخ قدم مع المذكور اعلاه مهندس فرنساوى لاختبار حال البوغاز ، واخذ احسانا قدره ريالات 2000 » .

(2) بياض فى خ و ع و ق .

موكب مشهود ، وأسكنه بداره أمام بيته . وبعده أَوْلَمَ لابنه أبي عبد الله مَحمد باي على زوجه الثانية ، ابنة شيخنا أبي عبد الله محمد بيرم ، بأقلّ من الاول .

وفي شوال من السنة 1249 (فيفري — مارس 1834 م.) ، احتيج الى أعمدة لشدّ شقف كان يصنع بالترسخانة ، فظهر للوزير أن ذلك يكون من السرول (1) النابت بسواني (2) مرناق ، اذ لا حاجة به الا لتحسين المنظر ، فأمر بقلعه وهو مملوك لاربابه في أرضهم ، وأخذه بلا ثمن . وجُذب هذا المركب للبحر بعد موت الباي .

وفي الثاني والعشرين من صفر سنة خمسين ومائتين وألف 1250 (الاثنين 30 جوان 1834م)، توجه أبو النجاة سليم ، أمير آلاي العسكر النظامي بقشلة الحاضرة ، في شقف حربي الى طرابلس . وسببه ما وقع في بيت قرمانلي من قيام الاخوين على عمّهما أبي المحاسن يوسف باشا قرمانلي ، واستولوا على المِنْشِيَّة ، وانحجر عمهم في المدينة محصورا ، فاستنجد البايَ بمكتوب محصّله : « ان اقامة بيتنا كان على يد بيتكم ، ولكم علينا منّة وفضل ، والآن تداعى ذلك البناء ، فالمطلوب من فضلكم تلافيه قبل أن يخرّ ، بما يظهر لكم من الاعانة » . وجمع الباي رجال دولته لذلك ، فاشار عليه أبو الربيع سليمان كاهية ، وأبو عبد الله محمد كاهية وغيرهما ، بأن هذا الامر يجب الاعتناء به قبل أن يتفاقم الحال ، ويلزَم الدولةَ العليةَ العثمانيةَ اطفاءُ نار الفتنة في الاسلام ، وربما يسري الفساد من طرابلس الى الاعراض بسهولة . وعارضهم الوزير شاكير صاحب الطابع بأن دولتنا والحالة هذه في ضيق ، ولا نضايق أنفسنا ليتّسع غيرنا ، الى غير ذلك ، حتى قال بعض حسّاده من أكْفَائه : « انه لا يتأتى له السفر بنفسه ، لخدمته المانعةِ له ، ويخشى إن سافر غيره ربما يكون له بذلك شفوف (3) ووجاهة » ، وربكَ أعلم بما تكنُّ صدورهم وما يعلنون . وتمّ رأيه ، وغضّ الباي الطرف [عن هذا المطلب] (4) . ثم ان حصر المدينة اقتضى أن كل ما يرد اليها من صغار المراكب تأخذه جماعة المنشية . فأخذوا مركبا للجرابة (5) بما فيه ، فرفعوا شكايتهم للباي ، فوجّه الامير

(1) السرول : شجر السرو (دوزى) .
(2) سانية ج سوان : حديقة — بستان (دوزى) .
(3) الشفوف : التفوق (دوزى) .
(4) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .
(5) الجرابة : سكان جزيرة جربة ، مفرده جربى .

آلاي سليم الى الباشا بطرابلس ، لانه لا يعرف حاكما بطرابلس وعملها غيرّه ، وان عجز يتوجه الى أبناء أخيه بالمنشية ، فان ردّوا ما أخذوه والا آذنهم بحرب . فتوجه وأجابه يوسف باشا بالعجز وأنه ينتظر الاعانة من تونس ، فتوجه الى المنشية وطلب من أبناء أخيه ردّ ما أخذوه ، وأن الباي بتونس لا يعرف الا صاحب مدينة طرابلس ، ولا يعرف الثوار ، وله أن يعين الباشا على الثائرين ، فامتثلوا وردّوا ما أخذوه ، والتزموا أن لا يتعرضوا لشقوف تونس . ورجع السفير بمطلب الباي ، وتردد [الكاتب] (1) ديوان أفندي من طرف قبطان باشا بين طرابلس واسلامبول وتونس ، لحسم موادّ الفساد بطرابلس .

وفي جمادى الثانية من السنة 1250 (اكتوبر 1834 م.) ، ورد للباي مكتوب من أولاد قرمانلي وكافّة أهل المنشية ، شاكين من علي باي بن يوسف باشا قرمانلي ، لان أباه خلع نفسه وقدّمه للولاية ، وهم لا يحبونه وانما يحبون أبناء أخيه الذين معهم بالمنشية ، وطلبوا من الباي إنهاء حالهم الى الدولة العلية العثمانية ، وان الفتنة أبادت قواهم وشتّتت شملهم ، فاقتضى نظر الباي أن وجّهني بالمكتوب الى أهل المجلس الشرعي ، بعد أخذ نسخة منه . فاجتمعوا بدار شيخ الفتوى أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد بيرم ، وقابلوا النسخة علّيّ بأصلها ، وصحّحوا (2) بخطوطهم ، وكتبوا ما بلغهم بالتواتر عن حال طرابلس من الفتنة . وكان ذلك في الحادي عشر من رجب السنة 1250 (الخميس 13 نوفمبر 1834 م.) . وبعث المكاتيب الى الدولة العلية مع ديوان أفندي .

وكان الوزير يؤمل من ذلك أن الدولة العثمانية تضيف طرابلس الى مملكة تونس .

ودامت الفتن في طرابلس نحو العامين ، حتى منّ الله عليها بالفرج بعد الشدة ، واستوفت دولة آل قرمانلي ما قُدّر لها من المدة . وسيأتي مزيد بيان لذلك .

ومن مآثر هذا الباي تجديد برج المنستير ، وقشلة العسكر النظامي بالمركاض البديعة الشكل ، وكانت مصلّى للاستسقاء على عهد أبي زكرياء الحفصي ، سنة سبع وعشرين وستمائة ، وبناءات حمام الانف وأتمها سنة 1244 ، أربع وأربعين (1828/29م.) ومعصرة القصبة لعصر تفل الزيتون الذي كان يطرح لوقد النار ، وأبنية ضخمة بباردو ،

(1) « ساقطة » من غ ، مثبتة فى ع و ق .

(2) صحح : امضى ، وقع .

ودار البارود بالقصبة ، ومنع الناس من صنعه بحيث لا يشترى الا من المحل الذي عيّنه لبيعه ، اتقاءً لضرره .

وله اعتقاد في الولي سيدي عيّاد الزيات الكائن ضريحه قرب سيدي عبد الرحمان المناطقي ، بنى عليه قبّة وزاوية تمّت في ربيع الانور سنة 1248 ، ثمان وأربعين (أوت 1832 م.) ، وكان يأتي لزيارته .

وهذا الولي هو أبو هلال عيّاد بن مخلوف التميمي الزيات ، المتوفّى خامس ربيع الاول سنة 650 ، خمسين وستمائة (1252 م.) ، على عهد السلطان أبي عبد الله محمد المستنصر ابن أبي زكرياء الحفصي .

والقنطرة العظمى على وادي مجردة ، بطريق بنزرت ، أشرف على اكمالها ، وأتمّها ابنه . وأبنية بمقام السيدة المنّوبيّة . وزاوية سيدي البشير ، خارج باب الجزيرة ، ومسجدها وغير ذلك . وضايقه الاجل عن إتمام برج المنّوبية .

حال هذا الباي

كان رحمه الله نيّر السعد ، سليم الصدر ، يغلب على طبعه الجدُّ ، والمؤمن غرٌّ كريم ، من الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيّئا ، مؤثرا للطريقة الجادة لا يتلوّن بلون الوقت ، متين الدين ، محافظا على الصلوات في أوقاتها والاذكار ، ونيّة المؤمن خير من عمله ، يميل الى الخير بطبعه ، آية الله في الوفاء والحنان والشفقة ، اذا نظر الى مصاب بكى ، قنوعا بما أعطاه الله ، غير متشوف الى ما ليس في وسعه ، بعيدا عن الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، ليّن العريكة ، حليما صبورا ، نازعا الى أخلاق التوكل والتسليم الى الله ، تؤثّر فيه الموعظة ، معظما للأولياء والعلماء ، غافلا عن عيوب الناس ، يشدّد النكير اذا ذكر أحد في مجلسه بعيب ، ويقول لو اشتغلنا بعيوب أنفسنا لم نجد وقتا لذكر عيوب غيرنا ، قوي البدن مع شجاعة مشهورة ، لو تعلّم شيئا من العلم ، مع ما في طبعه من أخلاق الكمال ، ما جاراه أحد من آله . يحب الخير والعافية والهناء للمسلمين . اقتاد بطبعه محبّات القلوب من عامة المملكة وخاصّتها ، ينسبون السيئة لوزيره والحسنة له ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ولم تزل المملكة في أيامه ،مع ما طرقها من النقص ، باسمة الثغور ، تجرّ ذيول العافية والسرور ، الى أن طرقه المرض في شعبان السنة 1250 (ديسمبر 1834 م.) وهو بحمّام الانف ، بذات الجنب ، مع ما كان عنده من مرض حمّى الدِّقّ الموروث من جدّه . وتأثّم من الفطر في رمضان ، والاطباء ينكرون عليه ويقولون لرجال دولته ان سيدكم قاتل نفسه لانه يرى أن قوة البنية مانعة من الفطر ، وما درى أن الصوم مثير للحمّى المهلكة ، ودين الله يسر ، الى أن أفتاه أهل العلم بوجوب الفطر ، وأن صومه والحالة هذه كفطر الصحيح ، [حرام واعراض عن رخصة الله] (I) .

ورجع الى باردو ، ثم ظهرت فيه مخايل عافية ، وفرحت البلاد وتزيّنت واهتزت وَرَبَتْ ، وبشكر الله أعربت . ورام منع ذلك فقال له وزراؤه : « لا تقطع سرورا على أهل بلدك » ، فقال : « جزاهم الله خيرا ، لكنّني أعلم أنـي أموت بهذا المرض » .

وكنت أسلّيه في مرضه بما يناسب حال المريض ، وإنْ حَالَ الجريضُ دون القريض .

وبعث الى مشاهد الصالحين بالقيروان بالصدقات والطّيب والصناجق وغير ذلك ، وسرَّح المسجونين من أهلها ، وان كانت كرامة الخوف دائرة ، وكرامة العدل متكاثرة .

نظر الي يوما وبكى وقال : « لا يغرنّكم اني أمشي على قدميّ ، فاني أرى أني أموت من حيث لا تشعرون » . وكان كذلك . فلازم الفراش أياما قليلة ، وتدخل له الاعيان من رجال دولته كل صباح فيخبر عن حال ليلته ، الى أن دخلنا عليه صبيحة يوم الاربعاء الثالث والعشرين (2) من محرم سنة 1251 ، احدى وخمسين (20 ماي 1835م) فوجدناه متّكئا يحادث أخاه ، وأخبر عن حاله وسأل عن أشياء ، وخرجنا وخرج أخوه الى داره ، وجلسنا في سقيفته ، وصهره ووزيره شاكير صاحب الطابع معه ، فلم يَرُعْنا الا باكية نعيه ، فقدم أخوه فوجد نفسه المطمئنة ، راحت ان شاء الله رَوْحَ الجَنَّة ، رحمه الله .

ودفن من الغد حذو أبيه بالتربة .

وفي يوم وفاته طلبت الناس أخاه للبيعة .

(I) الزيادة من ق .

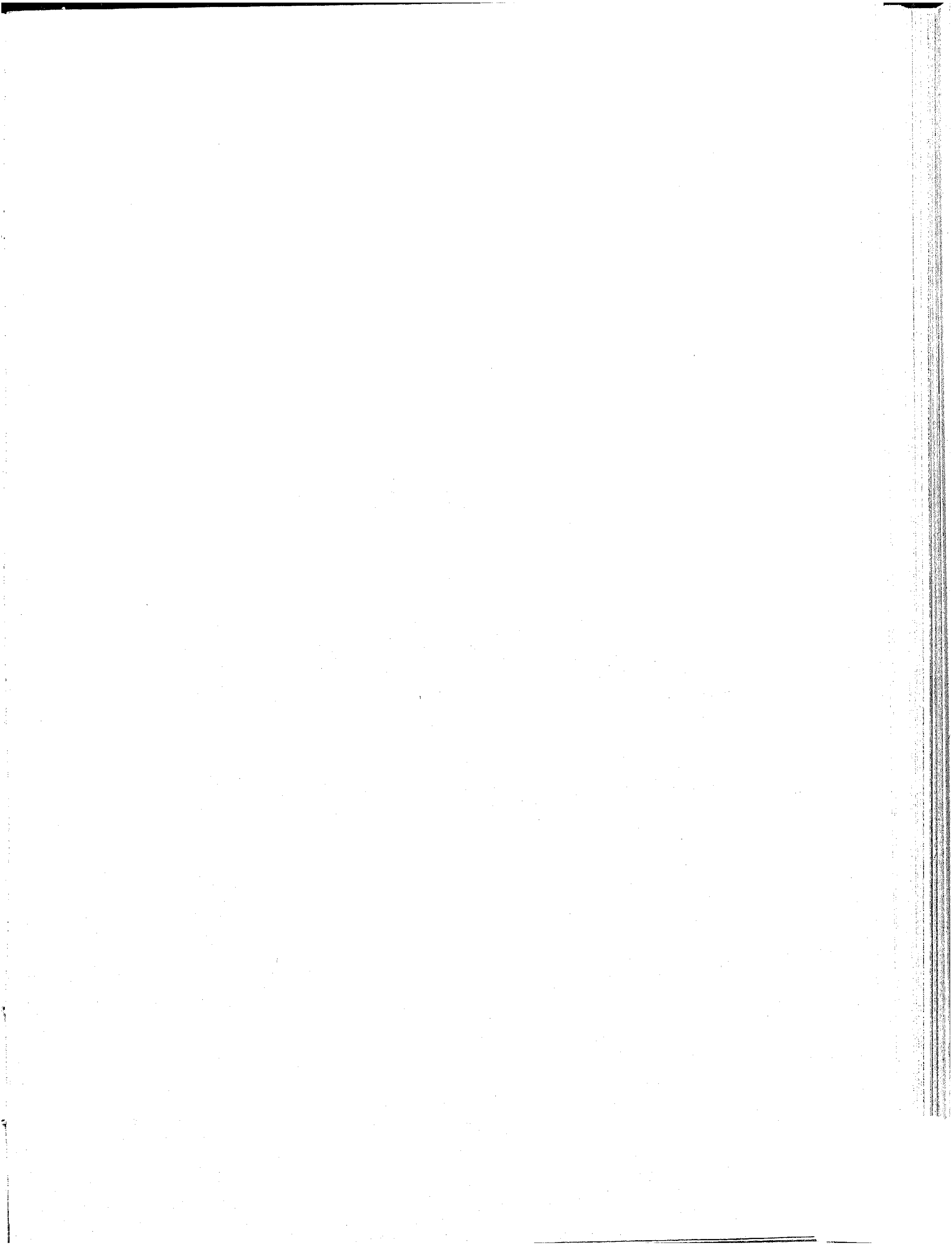
(2) هو 22 حسب التقويم .

الباب الخامس

في دولة

الباشا أبي النخبة مصطفى باي

ابن محمود باي بن محمد باي بن حسين باي بن علي



مولد هذا الباي في شوّال من السنة الاولى بعد المائتين وألف (جويلية — أوت 1787 م) وأمه بنت علي باي المتقدم ذكرها .

بويع البيعة الخاصة ضحى يوم الاربعاء الثالث والعشرين (1) من محرم ، فاتح شهور سنة احدى وخمسين ومائتين وألف 1251 (20 ماي 1835 م.) ، بصحن البرج على الكرسي المعدّ لذلك .

وأول من بايعه الوزير أبو الربيع سليمان كاهية ، ثم الوزير شاكير صاحب الطابع ، ثم ابن أخيه ، وغيرهم من رجال الدولة .

ولما تمّت البيعة قال للحاضرين : « ان هذا الملك لم نأخذه بحرب ، وانما اقتضى نظركم تقديمي ، وأحسب نفسي نائبا عن أخي ، وخدمتكم له خدمة لمجموع دارنا ، فهي محسوبة عندي . وكل من له أمل يستحقّه من أخي فعلي وفاؤه . وليس في قلبي حقد على أحد ، ولا أقصد بضُرٍّ الا من قصدني بمضرة ، فاني أدفعها بما استطعت » . ثم اختنقته الغصة وسالت دموعه وزهق بالبكاء ، ورأيت بعيني في ذلك المشهد معنى حنان الاخوة . وقال : « والله ان ملك الدنيا عندي لا يوازي فراق أخي » .

ومن الغد بويع البيعة العامة [من العلماء والجند وقادة العسكر وأعيان الحاضرة] (2) على العادة ، وأقر الوزراء ورجال الدولة على مراتبهم وأعمالهم ، وفسح لهم في آمالهم ، بحيث لم تفقد الدولة الا شخص أخيه .

وأتته وفود البيعة من البلدان والعربان .

وقدّم ابنه أبا العباس أحمد باي للسفر بالمحالّ ، فسافر صيفا وشتاء .

ثم قدم ابن أخيه أبا عبد الله محمد باي ، جبرا لخاطره . وبالغ في الحنوّ على أولاد أخيه بحيث يزورهم كل يوم ويتفقدهم فردا فردا ، وهو الذي رقّى أكبر أولاد أخيه من حال الاطفال الى حال الرجال ، وأحضره على صغره في مجالس المشورة والرأي .

اتفق أن الوزير شاكير صاحب الطابع أتاه ليكلمه في أمر ، فقال لابن أخيه وقد كان واقفا بين يديه : « سامحني يا سيدي ، أريد أن أكلم سيدنا » ، فقال له

(1) هو 22 كما تقدم .
(2) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

الباي : « إن سامح هو فاني لا أسامح في حقي منه ، وأي سرٍّ نخفيه على ابن أخي الذي هو الآن أعزُّ علي من ولد صلبي ؟ وبأي شيء يتربّى اذا لم يحضر لمشاهدة أحوالي ؟ » ، فخجل الوزير .

وفي شهر ولايته قدم القبطان أبو محمد حسونة المورالي من مرسيلية بالشقوف التي أُمِر بانشائها من مال القيروان ، [وتذكر الباي بقدومه أخاه ، وتجددت أحزانه] (1) ، ومعه مكتوب من وزير الدولة الفرنساوية مضمونه أن الدولة أسقطت القمرق على اخراج آلات الشقوف المذكورة ، اعظاما لجناب الباي ، فأجاب بالشكر على ذلك . وبَلِيَتْ هذه الشقوف في قليل من الزمن .

وفي طبع هذا الباي حبٌّ التصرف المقيّد بقانون شرعي أو عقلي ، وذلك أنه افتتح أمره باعادة المجلس الشرعي بحضرته يوم الاحد على العادة السابقة . وله فطنة يشارك بها أهل العلم ، ويفهم تطبيق الحكم الشرعي على النازلة .

وقدّم لخطة القضاء بالمذهب الحنفي شيخنا العلاّمة المحقّق أبا عبد الله محمد ، ابن العلامة [المفتي] (2) أبي العباس أحمد بن الخوجة . وقدّم لخطة الفتوى الفقيه أبا الحسن علي الدرويش .

وفي السابع عشر من أشرف الربيعين من السنة 1251 (3) (الاثنين 13 جويلية 1835 م.) ، بعث الوزير شاكير صاحب الطابع الى الدولة العلية العثمانية لطلب الفرمان والتشريف السلطاني على العادة ، ومعه أبو النخبة مصطفى آغة ، ونور الله باش خوجة المحكمة ، وأبو العباس أحمد آغة وغيرهم ، وذلك على عهد السلطان محمود خان . ولما وصل وجد طاهر باشا الذي قدم الى تونس ومنع من النزول الى البر باشارته ، هو قبطان باشا ومن أعظم الوزراء ، فقابله بجفوة ناشئة عمّا يجد عليه ، وتعلل عليه باشتراط أمور لا اذن له في شيء منها ، فامتنع من القبول اذ لم يكن بيده ما يقتضي التفويض ،

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .
(2) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .
(3) فى هامش ق ، وبخط مغاير ما نصه : « وفى هاته المدة ، بنيت قبة الهواء بالعبدلية (المرسى) على يد مسيو ماتيو دولسبس ، وطلب ابنه جول عن ذلك ريالات 3700 ، وصولح بألفين بمقتضى مكتوب مؤرخ فى 7 يولية 1835 (الثلاثاء 11 ربيع الاول 1251) وتوصيل فى 15 منه .

وغاية ما عنده أنه يبلّغ الهدية ويطلب الفضل فيما جرت به العادة من اظهار العناية السلطانية ، فقال له طاهر باشا : « ان الولاية موقوفة على ذلك » ، فقال له شاكير : « ان مصطفى باي تركته بتونس قاعدا مقعد أخيه ، وفي أعناق المسلمين بيعته ، وقلوب المملكة ملتفّة عليه ، فان أردتم وصل حبل المسلمين فأَجْرُونا على عادتنا ، والا فافعلوا ما بدا لكم » . وبعد ذلك أجيب لمطلبه على العادة المألوفة والحالة المعروفة . وفي مدة اقامته باسلامبول وقع منه للفقيه (1) نور الله خوجة ما اقتضى أنه سلم في خطته ولم يرجع .

ثم قدم شاكير بالعناية العثمانية ، فوصل حلق الوادي صباح الثالث من شعبان السنة 1251 (الثلاثاء 24 نوفمبر 1835 م.) ، وأتاه الباي وهو بالكرنيتنة ، ولمّا تمّ زمنها خرج لتلقّيه أعيان الدولة ووجوه الجند .

وأتى بنيشان وسيف للباي ، وتفضلت الدولة عليه بنيشان أمير آلاي ، ونيشان قايمقام لرفيقه أبي النخبة مصطفى آغة .

ولبس الباي النيشان في موكب حافل على العادة ، [حضره الداي وأهل المجلس الشرعي وأعيان العسكر والبلاد] (2) ، وذلك يوم الاحد الثالث والعشرين (3) من شعبان (13 ديسمبر 1835 م.) .

وجاءت معه جماعة استوجبوا النفي لجرائم ، فطلب منه قبطان باشا حملهم الى تونس في مركب عثماني ، وبعد أيام قليلة طلبوا التسريح ، فاستراحوا واستريح منهم .

ولما قدم الوزير شاكير أتى برسالة على لسانه من الدولة العلية أمر بتبليغها للباي ، ومضمونها توظيف شيء من المال على مملكة تونس في كل سنة . فبلّغ الرسالة وجمع الباي ابنه وابن أخيه وشيخ الدولة أبا الربيع سليمان كاهية ووزيره أبا النخبة مصطفى صاحب الطابع وغيرهم ، وكنت ممن شهد ذلك ، وقال للوزير شاكير : « أَعِد على الجماعة رسالتك » ، فأعادها ، غير جانح لموافقة ولا مخالفة ، فقال له سليمان كاهية : « ما ظهر لسيادتك ؟ » ، فقال له : « الرأي عندي الموافقة ، لتقوية التحام المسلمين ، وندفع

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : للكاتب .
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) هو 22 حسب التقويم .

للدولة في كل عام مالا يضرنا [وهو أخفّ من هذه الهدايا] (1) » . وكان حريصا على التحام المسلمين ، لم يحجب بصيرته حجاب الاعجاب عن حقيقة قدره ، فتقدم اليه ابنه وقال له : « لا يكون هذا ولا ترضى به المملكة ، وان سمحت نفسك بذلك فلا تتسبب لوهن في آل بيتك » ، فوافقه جميع من حضر ، فعند ذلك قال للجماعة : « اني عرضت ما لاح في فكري ، وحيث توقعتم الضرر فلا أكون بحول الله سببا في مضرة ». وكاتب الدولة متلطفا معتذرا بأن المملكة فقيرة ، تستمطر فضل الدولة العلية عند الحاجة ، وأكثر أهل المملكة عربان لا تسمح نفوسهم بذلك ، الى غير ذلك . وكان المكتوب باللغة التركية . وهذا أول ما وقع في هذا المطلب من الكلام .

وفي هذه الايام ورد عليه مكتوب الشريف مولانا عبد الرحمان ابن مولانا هشام ابن مولانا محمد سلطان المغرب ، في غرض التعزية والهناء ، ونصّه :

« المقام الذي قلّدته السياسة عِقْدَها ، وأعطته السعادة عهدها ، وخفقت عليه ألوية النصر والتمكين ، والجلال الذي زاحم الكواكب بالمناكب ، وحمى بالقواضي القواضب ، حوزة الاسلام والمسلمين ، مقام محبنا الصدر الرئيس الشهير ، والفرد الذي عزّ له النظير ، ومن اذا رفعت راية لمجد تلقاها باليمين ، مَن رفع رايات السباق ، على أعلام الآفاق ، فأصبح كل سَرِيٍّ لاعلامها مونس ، أبو المكارم السيد مصطفى باشا باي اقليم تونس ، وباسط العدل والتأمين ، وَصَلَ اللهُ علاء قدره ، وخص بالسعود كامل بدره ، وأمدّه باسمه القوي المعين . أما بعد سلام تام ، شامل عام ، ينتظم في جيد الايام سلكا ، ويفوح شذاه على الدوام مسكا ، وتحية تود الدّراري الزُّهر أن تكونَها ، تعمّ حركة الجسوم وسكونها ، فانه وافى حضرتنا الشريفة كتابكم بخبر المصاب الذي عظم على النفوس موقِعُه ، وأنكى القلوب موجِعُه ، وهو وفاة أخيكم الصفيّ ، وصنو مجدكم الوفي ، السيد حسين باشا باي ، جدّد الله عليه سحائب رُحْمَاه ، وجعل الجنان مأواه ، وجعلكم منه علم هدى يهتدي به الاعلام ، ويشدّ بولايتكم عضد الاسلام . فياله من حادث كدّر الشّرب ، وروّع السّرب ، لولا ما تدارك الله به من خلافتكم ، وجدد من رفعتكم وإنافَتِكم . وياله من فقيد شكت فقده العلياء ، وبكته الخاصة والدّهماء . فانا لله وانا اليه راجعون ، تسليما لما قدّر وقضى ، ومقابلة لمراد الله بالرضى ،

(1) الزيادة عن ع و ق .

فقد رزئنا منه صفيّا وفيّا ، وخليلا برّا حفيا ، ومحبّا كبيرا ، ومعينا على الخير وظهيرا ، فلئن سبقتنا في العزاء اليه ، فما سبقتنا في التفجّع عليه ، ولئن فزت ببرور اخائه ، فما زاحمتنا في ولائه ، وان أغمد القبر منه حدّ صارم ، فقد أحياه ما غرس من المكارم ، فما أعظمه رزءا أذلّ مصون الدموع ، وأكنّ الاشجان في منحنى الضلوع ، لكن لم يَتّسعْ معه الا التسليم ، لما قضاه الحكيم العليم ، ومثلكم ثبّت الله فؤادكم ، وخفّف ما آدكم ، يستمسك بحبل الله الاقوى ، ويسلك في احتساب الاجر باحتمال الصبر مسلك أهل التقوى ، ويتلقّى الحوادث بجُنّة الرضاء ، ويلبس جلباب السكون تحت مجاري القضاء ، ويرفع راية التفويض أيّة سلك ، ويعلم أن لله ما أخذ وله ما ترك ، ويتيقّن أن هذه الدار ، محل الاقذاء والاكدار ، اقبالها غرور ، وزهرتها زور ، ووصالها هجر ، ووفاؤها غدر ، تسحر بزبرجها وتغرّ ، وتفجع بما به تسرّ ، فنعيمها بوس ، وبشرها عبوس ، وصحيحها للسّقام ، وحيّها للحمام ، ومن شاء متجلّدا ، فلينظر هل رأى حيّا مخلّدا . وفيكم ، حفظكم الله ، من أخيكم الذي سلف ، بقية خير وخلف . فقد قام الهناء بكم ، مقام العزاء لكم ، وقاوم الحزنَ لفقده ، سرورُ ما قرّرتم من ولاية عهده ، وإصفاقُ الخاص والعام على بيعتكم من بعده . فلعمري لقد أعطوا القوس باريّها ، وأنزلوا الدار بانيّها . فلئن غاب نيّر فقد طلع نيّر ذو ائتلاق ، وان صار الى الله حسين فأخوه مصطفى والحمد لله باق . ملك تردّد في عنصر فضل مبين ، وخاتم انتقل من يمين الى يمين . فلكم الهناء بطالع ملك جديد ، والبشرى بطلوع فجر سعيد . فلئن ساهمتمونا في التعزية ، فما فاتنا السرور بالتهنئة ، اذ المحبة قاضية بمساهمتكم فيما ساء وسرّ ، أحلى وأمرّ ، ومحبتنا في روض المودة راسخة الاعراق ، وآية صفائنا في فَلَك الوفاء دائمة ولاشراق ، والعهد لا يزال بحول الله جديدا ، ولا يزيده القدم الا تأكيدا ، وكيف لا وقد عقدته الاوائل عقدا محكما ، وألبسته الرعاية بُرداً مُعْلَما . والله سبحانه يديم سعودكم ، ويحرس وجودكم ، ويعينكم على ما قلّدكم ، ويعرّفكم من نصره وتأييده أضعاف ما عوّدكم . وعلى عليّ مقامكم سلام أبهى من قمر التمام ، وأذكى من مسك الختام . في 21 ربيع الثاني سنة 1251 » (الاحد 16 أوت 1835 م.) .

وبأعلى المكتوب طابع ختمه الشريف .

ولما قرأت هذا المكتوب بين يديه ، تذكّر مأتم أخيه وبكى .

وفي هذه السنة تمّت قشلة المركاض ، وكان بناؤها على يد الأجل الوجيه أبي عبد الله محمد بن علي قاسم . وكتب بعض الشعراء تاريخها باسمه ، فأنكره وقال : « معاذ الله أن أنسب لنفسي حسنة غيري » ، فأبدل باسم أخيه ، وان الاتمام وسكنى العسكر بها أيام الموجود ، كما هو على بابها . وحضر يوم دخول العسكر لها وكان أول داخل ، ودار بيوتها وهنّأ العسكر بمنزلهم .

وفي هذه السنة اشتد الحرب الاهلي في طرابلس ، وذلك أن أبا المحاسن يوسف باشا قرمانلي لما انتقلت دولته من طور الشبيبة الى طور الشيبة ، استهان بأهل المملكة ، واغترّ بظاهر الطاعة المُمَرَّضة من أهلها ، وحمّلهم بمقتضى ما كان له من اطلاق التصرف من مصاريف شهواته وألوان لذّاته أكثرَ من طاقتهم ، حتى آل الامر الى فاقته وفاقتهم ، فباع من شقوفها الحربية ، وسكّ من مدافعها النحاس فلوسا ، وأرخى عنان التصرف لاصهاره وأقاربه ، الى غير ذلك مما نقم من أعماله ، وأدّى الى زواله .

يحكى أن صهره ونصيحه مصطفى قرجي ، صاحب الجامع بطرابلس ، قال له يوما : « يا سيدي ، ان سيرتك قاضية بالانحلال » (1) ، فنظر الى شيبته وقال له : « قد طاب زرعك يا مصطفى » ، اشارة الى الفتك به ، فقال له : « والله أرضى أن تقتلني وتستقيم » .

وهكذا شأن الدول في ابتداء انقراضها ، بمزمن أمراضها . وقالت الحكماء : يستدلّ على ادبار الملك بخمسة أمور ، أحدها أن يستكفي الملك بالاحداث ومن لا خبرة له بالعواقب ، الثاني أن يقصد أهل مودّته بالاذى ، الثالث أن ينقص خراجه عن قدر مؤونة ملكه ، الرابع أن يكون تقريبه وتبعيده للهوى لا للرأي ، الخامس استهانته بنصائح العقلاء وآراء ذوي الحنكة . [وقد توفرت هذه الامور كلها] (2) . وقالوا : « أربعة ترتفع الرحمة عنهم اذا نزل بهم المكروه ، من كَذَّبَ طبيبَه فيما يصف له من دائه ، ومن تعاطى مالا يستقلّ بأعبائه ، ومن بذل ماله في لذّاته ، ومن أقدم على ما حذر من آفاته » .

ولما أمتلأ كيله ، وطما بالسوء سيله ، ثار عليه أهل المنشيّة ، لائذين بطاعة ابن أخيه أبي عبد الله محمد قرمانلي ، وحجروه في المدينة وأطالوا حصره ، فخلع نفسه ، وسلم

(1) في ع و ق : « تفاقم الامر ، وسيرتك هذه موصلة الى الهلاك لا محالة » .
(2) الزيادة عن ع و ق .

الامر لاصغر بنيه أبي الحسن علي باي ، كما تقدم في خبر مكتوبهم لابي عبد الله الباي حسين باشا ، فازدادت بذلك نفرتهم ، والتفّت عُصبتهم ، وقويت شوكتهم ، وانعدم الامان ، واختلّ العمران ، فلزم الدولة العلية ، والحالة هذه ، اطفاء نار الفتنة .

وأتى الوزير طاهر باشا في الاسطول العثماني الى طرابلس لاصلاح الامور ، فاقتلع علي باي من روض منبته الى اسلامبول . ووجه له الباي من تونس صهره وثقته أبا النخبة مصطفى آغة بهدية ، تعظيما لمقدمه . وكان ذلك أواخر شعبان (1) السنة 1251 (ديسمبر 1835 م.) ، ورجع في ذي الحجة (مارس — افريل 1836 م.) .

وطلب الوزير طاهر باشا الاعانة بالمراكب والخيل فوجّه له الباي الوزير شاكير صاحب الطابع في ثلاثة مراكب حربية — فرقاطة وكرويطة وبريك . وتوجه معه أبو النخبة مصطفى آغة ، وأبو النجاة سليم أمير آلاي ، ومعه تسعة مراكب متجرية (2) مشحونة بثلاثمائة من الخيل . وكان سفرهم يوم الجمعة السادس عشر (3) من ربيع الثاني سنة اثنتين وخمسين ومائتين وألف (29 جويلية 1836 م.) .

وقاتل الوزير طاهر باشا أهل البغي والفساد الى أن كان بطرابلس ما كان ، ورأت عواقب اطلاق العنان ، وكما يدين الفتى يدان .

وانقرضت بيت آل قرمانلي وتفرقوا أيدي سبا . والله يؤتي الملك من يشاء ، وينزعه ممن يشاء ، ويعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء ، وهو على كل شيء قدير .

وهذه ثمرة ضعف الالتحام ، والتحاسد بين ذوي الارحام ، والتصرف بالشهوات ، وغض الطرف عن الغوائل والآفات ، واستعمال الشدّة في مواضع المداراة .

وفي خلال هذه المدة وقع الارجاف بتونس أن قبطان باشا يريد القدوم بأسطوله الى تونس ليلحقها بطرابلس .

وأتى في خلال ذلك الاسطول الفرنساوي وأرسى بحلق الوادي ، لما بلغه أن الاسطول العثماني يريد أن ينزل عساكره بتونس ويتوجه في البر الى الجزائر ويستنفر العربان ،

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « اواخر شوال » .
(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : « مراكب بالكراء » .
(3) هو 14 حسب التقويم .

فجمع هذا الباي رجال دولته وكلمهم في الارجاف الواقع بتونس ، وكان ممن يخشى الله في عباده ، وقال لهم : « قد بلغني أن قبطان باشا قادم بأسطوله الينا ، ولم ندر سبب قدومه . فان كان لحربنا فلا أرضى أن تسفك لاجلي دماء المسلمين ، ولا أحبُّ ملكا بسفك الدماء ، راضيا بحكم الله » . فقال له شيخ الدولة وكبير وزرائها أبو الربيع سليمان كاهية : « ان هذا الامر ليس بيدك ، والمملكة انما بايعتك لتحفظ حقوقها وعوائدها القديمة ، ولم تبايعك لخصوصية في ذاتك ، فان تأثّمت فقدِّم غيرك من بيتك ممن لا يتأثم بدفع التعدي ، لاننا والحالة هذه في عافية وأمن ، راضين بأميرنا ، وأي ذنب لنا يبيح الحرب في الاسلام ؟ » ، ثم التفت الى الجماعة وقال لهم : « ما تقولون ؟ » ، فأجمعوا على رأيه .

وقال له ابنه أبو العباس أحمد باي : « ان سلّمت ربما يؤول الامر الى حرب أهلي ، كما وقع بطرابلس ، والعربان لا يتحملون بطباعهم سطوة التّرك ، فلا محيص من سفك الدم » .

فعارضهم بأن التسبب في فُرقة الاسلام وَعيدُه شديد ، واستنطقني بذكر الوعيد ، فقلت له : « ان المتسبب في الفرقة هو من يحارب أمة تقرُّ لله بالوحدانية ولمحمد بالرسالة ، راضية بأميرها الناشئ بين أظهرهم ، ورضى الامة هو الاصل الديني في الامارة » .

وقال له ابنه : « نحذِّركم من خروج هذا الخبر ، فلو بلغ جفاة الاعراب كان سببا في هرج وحيرة » .

ولما رأى تصميم القوم سكت ، فقال له وزيره الغائص (1) على دقائق السياسة أبو النخبة مصطفى صاحب الطابع : « انك لا تسمع من القوم وممّن وراءهم الا ما سمعته الآن ، والواجب والحالة هذه استعمال السياسة مع الدولة العلية حتى لا يكون سبيل للحرب في اليوم وما بعده ، ويبعد في حق الدولة وعظمة مقامها أن تقدم على سفك دماء المسلمين بغير سبب ظاهر شرعي تعتمده ، غير أن أسطول الفرنسيس في مثل هذا الوقت بمرسانا ربما يكون سببا في قول قائل ان الشقوف أتت بطلب منا ، ولا بدّ من دفع هذا الوهم بمكتوب الى القنصل ، وهذا المكتوب ان لم ينفع فلا يضرُّ » ، فاستصوب الجماعة

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « القابض » .

رأيه ، فكاتب الباي القنصل بما لفظه : « أما بعد فان جناب الدولة الفرنساوية وجّهت أجفانها الى مرسى عمالتنا على مقتضى المحبة والمودة ، وقابلناهم باكرام لان شقوفنا في مراسي الفرنسيس كأنها في مراسي عمالتنا ، فكذلك شقوف الفرنسيس عندنا . وأمّا اقامة الاجفان في هذا الوقت بحلق الوادي ، ودونالمة (1) مولانا السلطان بقربنا ، وفيها السيد قبطان باشا ، ربما تنتج لنا مضرة في الحال أو في المستقبل من جهة الدولة العثمانية أدام الله وجودها ، لانها ربما تظن في جنابنا (2) ظنا يضرُّ بنا . ومعلوم أننا تحت طاعة مولانا السلطان في أمره ونهيه ، وباسمه نخطب في جوامعنا وعلى سكّتنا ، فلا يخطر ببالنا أننا نعصيه أو نخالف أمره أو نعارضه بشيء . فالمراد أن تعرّف الاميرال بهذه المضرة التي نتوقعها . والاعتماد على كمال عقلكم في حسن التبليغ . وشقوف الفرنسيس مهما تمرُّ بنا أو تأتي الى مرسانا فمرحبا بها ونقبلها بالاكرام على مقتضى قوانين المحبة . ولا زائد الا الخير والعافية . وكتب في 11 جمادى الثانية سنة 1252 (الجمعة 23 سبتمبر 1836 م.).

وأجاب القنصل بما نص تعريبه : « انه بلغنا ووصلنا المكتوب الذي تشرفنا به من عند السيادة ، وأعلمنا به الاميرال (3) لالند (4) ، وعلمنا جميع ما تضمّنه ، وجوابنا عليه هو ما سنذكره ، وهو أن جنابكم العليّ بريء وأجنبيّ وخارج من الاتفاق الذي اقتضاه نظر الدولة الفرنساوية في ارسال هذه الدونالمة الى سواحل تونس . وأنتم لا يمكن لكم أن تمنعوا دولة الفرنسيس من ذلك ، وهو ارسال شقوفها الى سواحل تونس . ولاجل ذلك لا يتوجه عليكم لوم ولا عتاب من جناب الدولة العثمانية ، لانه لا وجه لذلك . وجناب الدولة الفرنساوية تعلم تحقيق حالتكم مع الدولة العثمانية ، وحاشا جناب دولتنا أن ترضى بما يوجب لكم غيارا مع دولتكم ، وانما مراد الامبراطور أن تبقى جناب دولتكم مع الدولة العثمانية على العهد القديم السابق ، من غير تبديل ولا تغيير . ولكن الدولة العثمانية لا يمكن لها أن تخترع أمرا جديدا تضرُّ به مصلحة الفرنسيس في الناحية التي تحت يده في الابركة (5) . ولاجل أن يمنع ما عسى أن يقع من المضرة ، أرسل الامبراطور دونالمة

---

(1) دونالمة : من التركية دونانمه بمعنى اسطول (دوزى) .
(2) كذا فى خ و ع ، وفى ق : « جانبنا » .
(3) فى ع و ق : « الامرال » ، وفى خ : « الارمرال » .
(4) فى خ ، و ع و ق : « للندن » ، والمراد (L'Amiral Lalande)
(5) كذا فى خ و ع ، وفى ق كانت كذلك ثم غيرت الى « الافركة » وكتب فوقها : « يعنى افريقيا » .

الى تونس يمنع بها قدوم قبطان باشا لاجل التصرف بما هو مأمور به . والاميرال لمّا بلغه أن قبطان باشا أتى الى طرابلس ، وأعلم بأن مراده الاتيان الى تونس ، في ذلك الحين أرسل الاميرال جفنا من الاجفان التي تحت حكمه هنا ليعلم قبطان باشا بأن حبيب السلطان الصافي وهو سلطان الفرنسيس لا يمكن له أن يتحمّل هذا التعدي بوجه من الوجوه في المملكة التي تحت يده في الابركة ، لان قدوم دونالمة المسلمين الى تونس يتقوى بها قلب باي قسنطينة الذي عندنا معه في التاريخ مكالمة ، وربّما حرب بيننا . فلأجل ذلك نعلم قبطان باشا أنه لا يقدم ، ويرجع الى المحل الذي جاء منه . فان صمّم وعزم على القدوم ، فان الاميرال واجب عليه أن يصدّه ويمنعه بالمدافعة القهرية بالقوة . ا هـ . هذا لفظ معرّبه الذي لا يحسن التراكيب العربية . ولما بلغ هذا الجواب للباي بعثه الى قبطان باشا بطرابلس .

وهذا القنصل اسمه شويبل ، وكان شيخا حنكته التجارب ، عاقلا منصفا . وهو أول من امتنع من تقبيل يد الباي ، وذلك أنه لما قدم من دولته ، جلس الباي بالمحكمة لتلقّيه ، [وهيأ له كرسيا] (1) على العادة . ولما دخل كشف رأسه ، وخضع [بالانحناء](2) وقال للباي : « هذه تحيتي لسلطاني » ، فأغضى له الباي ، ولم يعط يده لغيره من القناصل بعدها . وقال : « تحية المسلمين السلام » . وطوى في النازلة بساط الكلام ، ولكل مقام مقال ، ولكل زمان رجال ، وللعقول تضرب الامثال .



واستمرّ الوزير شاكير يتصرف في الوزارة ، واستعان بالوزير أبي النخبة مصطفى صاحب الطابع ، وكان أطوع له من بنانه . ثم بدا له أن يتوجه بعياله لسكنى المحمدية وساءت ظنونه من نجابة أبي العبّاس أحمد باي ، ابن صاحب الترجمة . واستبدّ بالتصرف في الساحل والاعراض والسواسي والمثاليث ، بمقتضى ولاية عملية مخصوصة . ومدّ يده في متجر الزيت ، وكاد أن يستبدّ به كما كان . فقام التجّار على ساق ، ورفعوا أمرهم الى الباي على يد قنصلهم . واستقرّ الحال أن الدولة لا تتّجر ، أما غير الدولة

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .
(2) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

من أتباعها فهم مثل عامة الناس . وفي الحقيقة ان متجر هذا الوزير سببه اعانة أهل الساحل ، والتخفيف عنهم من الربا [الذي لا حدّ له] (1) ، وبيع الدّين بالدّين ، وغير ذلك مما يمحق المكاسب في شرعنا . وبائعها وان حصلت له فائدة فهي غير مقصودة .

وفي الرابع من ربيع الانور سنة 1252 ، اثنتين وخمسين (الاحد 19 جويلية 1836 م.) ، أبطل الباي وظيفة المزوار (2) ، وكان أصله النهي عن المنكر ، فآل الى الاعانة عليه . ودخله ينيف على العشرين ألف ريال في السنة . وكتبت ذلك بخطي في زمام المحكمة . وطرد متولي هذه الخطة الرذيلة ، وتقدم الكلام في شأنها . عامله الله بفضله وجزيل احسانه .

وفي السنة 1252 (1836/37 م.) ، أشار الوزير شاكير باثبات طابور في عسكر النظام من السودان المعتوقين ، واستحسن الباي هذا الرأي . وفي الحين أمر الوزير الامير آلاي سليم بتنزيل (3) ألف رجل من السودان المعتوقين . ولم يأذنه بكيفية أخذهم ، ولا بكونه في اليوم . فاخترع الأمير آلاي كيفية أنتجها فكره ، وهو أنه أتى قشلة الحاضرة وجمع العسكر وأمرهم بالدوران خلال البلاد وضواحيها ، وأن يأتوه بكلّ أسود اللون من حرٍّ ومملوك وورقلي وحمرونـي وفزّاني ، وأتوا ببعض الحوانب والبوّابة ، حتى أتوا بسائس مراكيب الباي . وكل من يؤتى به يوقفه الامير آلاي بالقشلة ، حتى المخازنية الذين يعرفهم قال لهم اذا سرحتكم الآن يرجعونكم . وتوجهوا الى منّوبة وغيرها ، وأتوا بساتين الباي وغيره ، وأخذوا المماليك والخدمة منها . ووقعت في البلاد هيعة غلقت بسببها كثير من الحوانيت ، حتى تمكّنوا بأنفار سمر (4) خدمة بدار قنصل الفرنسيس ، فأرسل القنصل الى الباي في الحين ، يستكشف خبر ذنبهم ، لانهم أُخذوا خارج داره . وتواردت عليه الشكايات في الحين من أرباب المماليك بباردو وأرباب البساتين فوجم ، لانه كان يظن أنه يتوقف امضاء اذنه على كيفية معقولة يعلمها قبل وقوعها . هذا ، ورسول القنصل بباب دار الباي في باردو ، فلم يسعه الا ارسال وزيره مصطفى صاحب

---

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

(2) مزاور : بوليس الآداب ، من البربرية « أمزوار » بمعنى شيخ ، مقدم ، رئيس (دوزى) .

(3) تنزيل : تجنيد .

(4) فى خ : « سمر » وفى ع و ق : « وارقلية » .

الطابع في الحين الى القشلة ، لان الوزير شاكير بالمحمدية ، وأمره بتسريح من بها من السودان .

وحملني الوزير معه ، فأتى القشلة فوجد الامير آلاي على كرسي أمامها ، شامخ الانف كأنه استولى عنوة على مدينة مات في حربها أكثر جيشه ، والقشلة مملوءة بالسودان [على الارض كأنهم أسرى حرب] (1) ، والعساكر لم تزل قادمة بهم ، جماعةبعد جماعة كالسوائم ، فقال للامير آلاي بلطف : « ما هذا الصنع ؟ » فقال له : « لا يتأتى الجمع بغير هذه الكيفية ، ولما يجتمع من بالحاضرة من السودان ، يأتي تمييز المملوك من المعتوق » ، فقال له : « هل أحضرت لهذا العدد العشاء ؟ » فأعرض عن جوابه . وأمر بتسريح جميعهم ، وخرجوا كالحمر المستنفرة ، وغص بهم الباب .

ثم قال لعرفائهم وقوّادهم : « ان سيدنا يطلب منكم ألف وصيف (2) من المعاتيق، يصلحون للخدمة العسكرية ، فأحصُوا عدد المعتوقين بأسمائهم واعرضوه على حضرة سيدنا » . ورجع الى باردو وقت الغروب . وبقي الامير آلاي يصوّب غلطته ويستحسن عجلته .

ومن الغد جاء الوزير شاكير من المحمدية ، وقال : « لم نأذن الامير آلاي بهذه الكيفية ، ولا أمرته بأن يكون جمعهم في يوم » . وتحدث الناس بها أياما .

وبعد ذلك ظهر للباي أن جلب العسكر على هذه الكيفية ينافيه العقل ، وان المناسب احصاء من في المملكة من الصغار القادرين على حمل السلاح ، ويطرح منهم من له مانع ، ويؤخذ القدر المحتاج اليه من الباقي بالقرعة (3) ، كما هو الشأن المعقول في بلدان الدنيا التي لا تسلّم المشيئة المطلقة الا للواحد الحكيم الخبير سبحانه .

وبدأ بالحاضرة ، فأمر مشايخ المدينة والربضين باحصاء سائر من في الحاضرة من الشبّان بأسمائهم في دفاتر ويعرضونها عليه . فجمعوا مشايخ الحومات (4) ، وشرع كل واحد يقيّد من في حومته . وكان ذلك اثر هيعة السودان ، فهاج بعض ضعفاء العقول

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .
(2) وصيف ج وصفان : زنجي ، عبد أسود ، مؤنثه وصيفة او خادم ج خدم .
(3) « بالقرعة » ساقطة من خ ، مثبتة في ع و ق .
(4) حومة ج حومات : حارة ، حي .

[من الارباض] (1) وقالوا ان أهل الحاضرة لا يؤخذ منهم العسكر ، وأبناء الترك هم العسكر لثبوتهم في ديوان المرتّب ، وأي حاجة لكثرة العسكر الذي يزداد بهم مصرفنا ويقلّ بهم دخلنا ، لان من يثبت في العسكر تتعطل عن البلاد منفعته ويثقل عليها نفقته ، ونحن مسلمون وكل مسلم عسكري عند الحاجة . وهذا الزّي لم يأمر الله به ولا تتوقف عليه المدافعة ، الى غير ذلك من الاقوال .

واجتمع كثير [من هؤلاء] بمقام الولي سيدي محرز بن خلف رضي الله عنه ، وشربوا من حوضه وتعاهدوا على نصر بعضهم (2) ، وشرعوا في تكثير عددهم . وكل من يوافقهم يأتون به الى مقام سيدي محرز فيشرب من بوقال مملوء بماء حوضه [وتسمّوا « جماعة البوقال »] . ثم أتَوْا ديار أهل المجلس الشرعي وقالوا لهم : « أنتم الامناء على ديننا وأيمتُنا في صلاتنا ، [ولكم أولاد مثلنا في هذه الحاضرة ، يجوز عليهم ما يجوز على أولادنا] ، نطلب منكم خطاب الباي على لساننا ، بأنه لا طاقة لنا على اعطاء أولادنا ، تمضي أعمارهم في السعي ، وهم ، بموضع واحد كدوابّ المطاحن [لا يؤمّلون غير ذلك ، وهم اعانتنا على المعيشة] ، كما لا نتحمّل عادة لم تجر على أوائلنا [من أوائلك ، وعسكر تونس ترك وزواوة] » . والباي في خلال ذلك يسمع (3) ، ويأتي الحاضرة ويدور بها ، فاذا مرّ بطائفة من هؤلاء يضجّون بالدعاء له بالنصر ويقولون : « أجْرِنا على عادتنا مع أسلافك » . وهو يتبسم ويدعو لهم بالهداية . (4)

ولما كثر هذا اللّغَط بعث لهم مع شيخنا القاضي أبي عبد الله محمد البحري بن عبد الستّار ، وكان مقربا عنده وسافر معه قاضيا بالمحلّة ، فبعث لافراد منهم ليتكلم معهم ويوضح لهم المقصد ، فأتوه وقالوا له : « من أراد الكلام معنا فليأت الى الجامع الاعظم ، جامع الزيتونة » ، فهمّ الباي بالمشي للجامع ، وثبّطه الوزير سليمان كاهية بأن ذلك غير مناسب ، وربما يتجرأ بذلك السفهاء على المنصب ، والمناسب أن تأذن الداي بسجن الرؤوس منهم ، ومنع اجتماع أمثالهم بموضع واحد . واذا سجن افراد منهم

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .
(2) كذا في خ و ع و ق ، وهو تركيب عامي ، والمراد : نصر بعضهم البعض .
(3) في خ : « يسمع » ، وفي ع و ق : « يتجاهل » .
(4) ما بين القوسين في هذه الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

انحلّ ربطهم ، فقال الوزير شاكير صاحب الطابع بمحضر رجال الدولة ، وكان بشهادة الله شديدا على أهل الحاضرة ، كأنه ينسبه الى جبن : « ان هذا أمر عظيم لم يُعهد مثله في هذه البلاد ، وفيه من الجسارة ما لا يخفى ، فأعطني اربعمائة من العسكر أكون بهم في دار القصبة ، ونخلّص من كافة أهل الحاضرة اضعاف ما خلصته من أهل القيروان ، سواء في ذلك المسيء لإساءته والساكت لعدم نهيه » ، فارتاع لسماع هذه المقالة [وتغير لونه] (1) ونبَا عنها سمعه وطبعه ، وكان قويّ المحبة في أهل الحاضرة ، وقال : « أموت قبل ان يصدر هذا مني او يُتَحدّث به عني ، أعمد إلى أهل بلادي ونأخذ أموالهم مع انه يمكن التأديب بدون ذلك ؟ » . وأمرني في الحين بمكتوب للشيخ البحري القاضي يستقدمه في الحين ، واجتمع به في داره فقال له : « أخبر أهل البلاد بأنني عفوت عن هؤلاء وصفحت عن سوء أدبهم ، مع أنني لم أعرفهم » . وبعث الى مشايخ البلاد بترك التقييد وتمزيق الازمّة ، فقال له القاضي : « أحق الناس بالعفو أقدرُهم على العقوبة ، وأحق الناس بالجزاء اقدرهم على المثوبة » ، ودعا له ورجع الى الحاضرة . وبعث الى رؤوس هذه الجهالة وبلّغ لهم الرسالة ، فسكن مِنهم القلب وزال الوجل ، لكن خلفه الندم والخجل ، حتى تمنّوا حضور الاجل .

وبعد أيام أتى الحاضرة وتمشى في خلالها ، كأن لم يقع شيء من جهّالها ، والناس بالدعاء له يجأرون ، وفي بحر حنانه يسبحون ، ومن حبّه يتضلّعون . مَنْقَبَة صدع بها غريبة في الزمن ، لا تسام بمال ولا ثمن . وكان حاله في النازلة كما قال القائل في وصف معاوية بن أبي سفيان ، أول الملوك في الاسلام :

وَنُغْضِبُه لِنَنْظُرَ حَالَتَيْهِ ... فَيُولِي جَهْلَنَا حِلْما وَلِينَا
نَمِيلُ عَلَى جَوَانِبِهِ كَأَنّا ... نَمِيلُ إِذَا نَمِيلُ عَلَى أَبِينَا

وما أومأ له الوزير به من الخوف ينافيه الحال وشاهد العِيَان ، لانه سافر بالمحلّة الى جبل باجة ، كما تقدم في خبر علي بن مصطفى ، واقتحم أوعاره ، وساقه الى جادّة الطاعة قهرا ، وظهر من صبره وثباته ما تحدث به أهل الجبل وغيرهم .

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

وفي شعبان من السنة 1252 (نوفمبر — ديسمبر 1836 م.) ختم شيخ الشيوخ العلامة أبو اسحاق ابراهيم الرياحي تفسير القاضي البيضاوي بجامع صاحب الطابع ، وأبدع ما شاء ، رضي الله عنه ، في ذلك الختم . وحضر الباي في الدرس يوم الختم ، ومعه وزراؤه وخاصّته ، وجلس حذو الشيخ كآحاد الطلبة .

وفي رمضان من السنة 1252 (ديسمبر 1836 — جانفي 1837 م.) ، وقع من بعض أهل مالطة القاطنين بتونس هرج كاد أن يفضي الى سفك دماء ، لولا لطف الله ، فكاتب الباي قنصل الانقليز بنفي المالطية من الايالة ، فأتاه القنصل ، وهو سار طوماس ريذ (1) وكانت فيه شدة عسكرية ، بعين المكتوب ، وقال له : « ان النفي عقوبة ، والعقوبة لا تحق الا لمن جنى او قويت عليه التهمة . وكيف يسوغ نفي البريء مع المجرم ، الا اذا اردت حربا مع برطانيا » ، فاسترجع منه المكتوب للتأمل في النازلة ، وآل الامر بعد المكالمة الى أن ارباب الصنائع والحرف لا يُتَعرَّض لهم الا اذا صدر منهم ذنب وتعدٍّ ، ومن لا صناعة له تتسرّى له التهمة ، اذا طَلَبَ حكمُ المملكة إخراجَه فلا مانع . وان كان اهل مالطة الآن كأهل البلاد ، بسياسة القنصل في التاريخ وهو ريشارد هود (2) ، لانه من افراد الرجال في محبة الحق .

وفي هذه السنة 1252 (1836/37 م.) ، تاقت روح الباي الى أداء فريضة الحج وزيارة المصطفى الشفيع صلوات الله عليه ، وتعذر عليه ذلك ورأى نفسه غير مستطيع . وفي المذهب الحنفي جواز النيابة في ذلك ، ويحصل الثواب لفاعله . فعند ذلك أناب عالمَ العصر وتقيَّ هذا المصر ، شيخنا ابا اسحاق ابراهيم الرياحي ، وقام بسائر ضروريات سفره ذهابا وايابا من ماله الخاص (3) ، وتحرّى في ذلك . وأركبه الفرقاطة الحسينية ، وأمرني أن أكتب على لسانه مكتوبا يحمله الشيخ معه ويلقيه بالروضة النبوية المشرّفة ،

(1) Sir Thomas Reade

(2) Richard Wood

(3) بهامش ق وبخط مغاير يوجد هذا التعليق : « قوله وقام بسائر لوازمه ذهابا وايابا من ماله الخاص به وتحرى الحلال الى آخر ما تكرر ذكره في هذا المعنى ، بلا مستند . على أن مصاريف هؤلاء الامراء كلها جليلها وحقيرها خارجة من خزينة الدولة ، حتى انك تجد بها حتى تفاصيل نفقات المطبخة كل يوم ، وتجد مصاريف الانكحة من الصداق وتفاصيل التشوير الى ما يعطى للحنانة بتفصيل كراته ، والعشاقة ، والمبشرة ، وما أشبه ذلك . وفي هذه الوجهة أعطى للشيخ عشرة آلاف ريال من خزينة الدولة مع احسانات أخرى لداره . ثم وجد مقيدا بدفتر مصاريف الدولة عدد 823 ريالات 10.000 لتجهيز سيدى ابراهيم الرياحي لسفره للحج في محرم 1253 ، وريالات 14.000 » ثمن دار له ، في شعبان 1254 » .

ونصّه : « الى حضرة عين الرحمة ، وشفيع الامة ، امام ملائكة السماء ، وآدمُ بين الطين والماء ، صاحب اللواء المنشور ، في يوم النُّشور ، والمؤتمَن على سرِّ الكتاب المسطور ، ومُخرِج الناس من الظلمات الى النور ، نكتة العالم وفائدة الاكوان ، والمتقدم بفضل السابقة وإن تأخر بالزمان ، وحجة الله المؤيَّدة بالبرهان ، وخاتم النبيين وناسخ الاديان ، المحرز من شأن الكمال وكمال الشان ، ما لا يأخذه التقدير ولا يحصره الحسبان ، صاحب المعجزات الثابتة بالمشاهدة والحسّ ، لدى الجنّ والإنس ، من جماد يتكلّم ، وجذع لفراقه يتألم ، وقمر له ينشقّ ، وشجر يشهد ان ما جاء به هو الحقّ ، وهلمّ جرًّا مما تواتر ذكره ، وفاح على الاعصار نشره ، المخصوص بمناقب الكمال وكمال المناقب ، المسمّى بالحاشر العاقب ، امام المسلمين ، وملاذ الخلق أجمعين ، أبو القاسم ، سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ، رسول الله الى كافّة الخلق ، وغَمَامُ الرحمة الصادقُ البَرق ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه النجومِ الزُّهْرِ ، صلاة تتأرج عن شذا الزّهر ، وتتردد بين السرِّ والجهر ، وتستغرق ساعات اليوم وأيام الشهر ، وتدوم بدوام الدّهر . من عبدِ طاعته ، وعتيق شفاعته ، لاثِم تُربه ، ومؤمِّلِ قُربه ، ورَهينِ حبّه ، المتوسِّل به الى رضى ربّه ، مصطفى بن محمود بن محمد بن حسين بن علي ، جعلهم الله من أهل شفاعتك ، ولا حرمهم أجر محبتك وطاعتك ، القائم بمصالح أمتك في قطر تونس بجهد الاستطاعة ، والباذل وسعه في حفظ ملّتك من الإضاعة ، وهذه الحال ، هي العائقة عن شدّ الرِّحال . كتبته يا رسول الله ، وقد اصفرّ من الخجل وجهُ يَراعي ، وعقم ميلاد إنشائي واختراعي ، عن قلب بالبعد قريح ، وجفن بالبكاء جريح ، وتأوُّه عن تبريح ، كلّما هبّ من أرضك نسيم ريح ، وانكسارٍ ليس له الا جبرُك ، واغترابٍ لا يؤنسه الا قربك . وما أسعدَ من أفاض من حرم الله الى حرمك ، وأصبح بعد أداء فريضة الله ضيفَ كرمك ، وعفّر الخدّ في معاهدك ومعاهد أسْرَتك ، وتردد بين داريْ بعثتك وهجْرتك ، وقد عاقني يا رسول الله عن زيارة حضرتك ، ما تراه من خدمتي في مصالح جمٍّ من أمّتك ، وان كانت هذه المعذِرَةُ غير مرعية ، وان لم يكن لي عمل مرضيٌّ فلي نيَّة ، وعبدك بهذا القطر في طائفة من أمتك وطّنوا على الصبر نفوسهم ، وجعلوا التوكّلَ على الله والتوسُّل بجاهك لَبُوسهم ، ورفعوا الى الاستنصار بك رؤوسهم ، ينتقلون في هذا الزمان من شدة الى أخرى ، ويرومون وهم الفئة القليلة دفاعَ مثل جموع

قيصر وكسرى ، وأنت ترى يا رسول الله قلادة الاسلام بان انتثارها ، والملة كادت ان تهتك أستارها ، إلا أن الاسلام بهذه الجهة المستمسكة بحبل الله وحبلك ، المهتدية ما استطاعت بأدلة سبلك ، سالم من افتراق ، ودم يراق . وكتابي هذا يطير من الشوق اليك بجناح خافق ، ويسعد من نيتي برفيق موافق ، يؤدي عن عبدك أفضل الصلوات ، وأكمل التسليمات ، ويقول يا غياث الامة ، وغمام الرحمة ، ارحم غربتي وانقطاعي ، وتغمد بطولك قصر باعي ، وقابل بالقبول نيابتي ، وعجل بالرضى إجابتي . وهذا عالم امتك في هذا المصر ، وشيخ اهل العصر ، الشيخ ابراهيم الرياحي أنبته يحج البيت عني ، ويحمل لروضتك هذا المكتوب مني ، وأنت قلت الاعمال بالنيات ، والله المطلع على الخفيات . ووافق سفره إثر ختمه لتفسير كلام الله معجزتك ، وكان يومه مشهود الجمع من أمتك ، ورجونا أن كنت حاضرا معنا في ذلك المكان ، وان لم يشاهد جمالك العيان ، وبعثنا معه حقوق اهل الحرمين المرعية ، من تونس المحمية ، ورسول الله خبير ، باسباب التأخير .

اللهم يا من جعلته اول الأنبياء بالمعنى وآخرهم بالصورة ، وجعلتني من أمته المجبولة على حبه المفطورة ، وشوقتني الى معاهده المبرورة ، ووكلت لساني بالصلاة عليه ، وقلبي بالحنين اليه ، فلاتقطع عنه أسبابي ، ولا تحرمني في حبه أجر ثوابي ، وتداركني بشفاعته يوم اخذ كتابي .

هذه يا رسول الله وسيلة من بعدت داره ، وشط مزاره ، ولم يجعل بيده اختياره ، فان لم تكن للقبول أهلا فأنت للاغضاء أهل ، وان كانت ناقصة فجنابك للقاصدين سهل . فلا تنسني وأهل وطني من أمتك ، المتمسكين بشريعتك وسنتك ، فنحن بهذه الجهة وديعة تحت أقفالك ، نعوذ بوجه ربك من اغفالك ، ونستنشق من ريح عنايتك نفحة ، ونترقب من محيا قبولك لمحة ، ندافع بجاهك ما لا نطيق ، ونعالج بعنايتك سقيم أمرنا فيفيق . فأجرنا ممن ناوأنا أو طغى علينا وبغى ، ولا تنله فينا ما ابتغى . ولا تفردنا ولا تهملنا ، وناد ربك فينا ربنا لا تحملنا . وطوائف أمتك حيث كانوا عنايتك تكفيهم ، والله يقول لك وقوله الحق : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » . والصلاة والسلام عليك وعلى ضجيعيك وصديقيك وحبيبيك ، ورفيقيك خليفتك في أمتك ، وفاروقك المستخلف بعده على اهل ملتك ، وعلى صهرك ذي النورين المخصوص ببرك وتجلتك ،

وابن عمك ، وباب مدينة علمك ، سيفك المسلول وبدر سماء أهلتك . من تونس حاطها الله بعنايتك ووقاها ، وحفظ بها كلمة الاسلام وأبقاها . في اواخر شعبان 1252 ».

وسافرت الفرقاطة بالشيخ والحجاج وامانة الحرمين ثاني رمضان السنة (الاحد 11 ديسمبر 1836 م.) ، وانتظرته الفرقاطة بالاسكندرية حتى رجع بها في الثالث عشر من رجب سنة ثلاث وخمسين ومائتين وألف (الجمعة 13 اكتوبر 1837 م.) ، بعد وفاة منوبه بثلاثة أيام .

وكان سفر الشيخ إثر وحشة وقعت بينه وبين تلميذه القاضي شيخنا أبي عبد الله محمد البحري بن عبد الستار .

وذلك أنهما اختلفا في يتيم تزوجت أمه فانتقل الحق في حضانته الى جدته من الام . وقضى به القاضي بناء على المشهور في المذهب ، وطلب عمه ان يكون الابن في حضانته ، والتزم بالنفقة عليه من ماله الى ان يبلغ الاشد ويأخذ إرثه من أبيه [كاملا] (1) ، فقضى له بذلك الشيخ ابراهيم ، اعتمادا على غير المشهور ونظرا لمصلحة اليتيم .

[وحاصل الخلاف : هل المعتبر في الحضانة مصلحة اليتيم ، أو صرفها الى اقاربه من جهة الام تعبدي ؟ وهل الحضانة حق للحاضن ، وهو المشهور ، أو حق للمحضون أو حق لهما ؟ خلاف في ذلك بين العلماء] (2) .

فانتصر هذا لرأيه وهذا لرأيه ، ووقع بينهما اختلاف في المجلس ، آل الامر فيه الى أن القاضي أتى بكتب تحملها الاعوان وجعلوها بين يديه ، وطلب من الباي أن يأمر احد الكتاب بقراءة محل الحاجة من كل كتاب ، فغضب شيخنا سيدي ابراهيم وقال لتلميذه المذكور في المجلس : « قصر يا قليل الحياء » ، وانفصل الموطن ، فسلم الشيخ ابراهيم في الخطة فلم يقبل الباي تسليمه ، وألزمه القيام بخطته ، فكتب ما نصه : « المنة لله الذي اصطفى لنصر الدين وإعزاز الملك سيدنا مصطفى ، ووصل به رحم الشريعة بعد القطيعة والجفا ، فها هو في رفع قواعدها كالساعي بين المروة والصفا ،

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .
(2) هذه الفقرة ساقطة من خ ، مثبتة في ع و ق .

لا زالت موارد اعدائه في كدر وموارده في صفا ، آمين . أما بعد تقبيل يد القدر العليّ ، بشفاه الإجلال الصفيّ ، والحب الوفيّ ، فان معظّم قدركم لم يطلب الإقالة إلاّ لمّا عيل صبري ، وضاق ذرعا أمري ، فانني منذ توليتُها وأنا حزين الفؤاد ، رهين الندم والانكاد ، ومن يقوم بحقّ الله وحق العباد ؟ حتى وهن العظم منّي ، واشتدّ ضعف الكبر في سنّي . وهذا القدر من الاعتذار كاف ، في تفضلكم عليّ بالاسعاف . كيف وقد انضمّ الى ذلك ما لا صبر لاحد عليه ، وهو مواجهتنا على رؤوس الاشهاد ، باساءة الادب في ذلك الناد ، ممن كنا نلقمه ثدي التعليم ، ويرعانا بعين الاجلال والتعظيم . ثم انه لم يقنع بسنان لسانه ، حتى شرع الينا رُمْحَ بَنانه . فهل بعد هذا التعدّي من إذلال ، وماذا بعد الحق الا الضلال . فاذا تفضل علينا سيدنا دامت معاليه ، وسعدت أيامه ولياليه ، برفع اليد عن رضًى منه ، فقد اطّلع في شأننا على الكنه ، ومنّ عليّ بالإعتاق ، بعد شدة الوثاق ، وان رضي بالاخرى وأنا لها كاره ، فرضاه جنة الدنيا وحُفَّت الجنة بالمكاره . والدعاء لكم ببلوغ المرام ، ختام الكلام .

فأجابه الباي بأن هذا الامر مّتعيّن عليك شرعا ، والمعارضة في العلم ليست من سوء الادب ، وإلاّ سُدّ باب المشورة . والاجدر بمثلك ومثله ان تكون قلوبكم متعاضدة ، وأنفاسكم على الخير متواردة . وقد رضيتُ لك ما سمّيتَه جنّة الدنيا ، وان حُفّت بالمكاره، فاقبلها وأنت لها كاره ، لا سيما وأنت في عدة سفر لبيت الله وحرم رسوله . فادع الله للجميع بالهداية ، والسلام .

وكان الباي منتصرا للشيخ البحري . [واكبر قولَ الشيخ لتلميذه بمحضره في المجلس يا قليل الحياء] (1) .

ولما وصل الشيخ الى الحرم النبوي انشد عند باب السلام :

إليك رسول الله جئت من البعد — أبثّك ما في القلب من شدة الوقد
بغى وطغى مستكبر متشبّث — بوَهْم يقود الناسَ (2) للخطإ المُردي
وصار رقيبا مبغضا متجسّسا — يقصر طول الليل بالردّ والنقد
وعبدك ، يا خير البرية ، غافل — ظننتُ به خيرا لما مرّ من ودّ ي

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مُثبت فى ع و ق .
(2) كذا فى ع و ق ، وفى خ : « يقود النفس » .

ترفّع للدنيا بِخَفْضِيَ جاهدا (1) مُسعانا بجهّال عَرِيِّين عن رُشْد
وبالغ في خَفْضِي إلى أن غدا على رؤوس الورى يُتْلَى جهارا بلا جَحْد
ولم يَرْعَ أيامًا يراني شَيْخَه ومرشدَه الهادي ومنعمَه المُهْدي
ولا خاف لوما في القطيعة لا ولا عقابا من المولى على ناكث العهد
فهذا ، رسولَ الله ، إجمالُ مَكْرِه وتفصيله يا سيدي ليس في جُهْدي
ألا يا رسول الله هذا تذلّلي اليك، فخُذْ بالثار يا منتهَى قصدي
الا يا رسول الله ضيفك سائل فهل ضيفُ أهلِ الجود يُكرم بالطرد
ألا يا رسولَ الله بَرِّدْ جوانحي بدائرة تسعى إليه بلا بُعْد
عليك صلاة الله يا منتهى الرجا وأزكى سلام دونه فَوْحة النّدّ
وآلك والاصحاب طُرًّا وتابع وبَعْدُ فَذا ذُلِّي لِجَدْواك يَسْتَجْدي

نسأل الله ان يجمعهما في صعيد واحد ويقول لهم تَحالَلُوا مظالم كانت بينكم ، ويغفر لهما وهو الغفور الرحيم . وما ضرّ الشيخ البحري لو راجع شيخَه بلطف ، أو سأله عن مستنده كما كان يسأله ، او نقل له ما في تلك الكتب ، أو بعث بها اليه ؟ وأي داعٍ الى كُتُب بأيدي صفٍّ من الاعوان في ذلك المشهد الا تبريد شيخه أو نسبته الى المكابرة ؟ والحال أن شيخه لم يخالف إجماعا ، ولا قاطعا من النصوص ، ولا قياسا جليا ، بل القياس الجليُّ في النظر لليتيم هو حفظ ماله حتى يبلغ الاشُدَّ . ولا معرّة تلحقه اذا أنفق عليه عمُّه ، فعمُّ الرجل صِنْوُ أبيه ، وللعمِّ حقٌّ في الحَضَانة بعد غيره لانه من العَصَبَة . ومصلحة اليتيم في حفظ ماله توافق فتوى الشيخ . والاصل في الاحكام الشرعية ان تكون معقولة المعنى ، والنازلة مناط اجتهاد . وما ضرّ الشيخ ، رضي الله عنه ، لو صبر وغفر وكان أجره على الله ؟ رحمهما الله .

وتوفي الشيخ البحري بعد قدوم الشيخ ابراهيم بنحو ثمانية أشهر .

وفي السنة 1252 (1836/37 م.) تم إحياء جامع الطراز بمحجج دريبة الداي . وذلك ان الباي مرّ به يوما فرآه معطّلا مغلق الباب [وقد مدّ الخراب له يديه ، وظنّه دارا] (2) ،

(1) في ع و ق : « جاهلا » .
(2) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

فسأل عنه فقيل له ان الناس يستغنون بجامع حمودة باشا عن الصلاة فيه ، فأحياه ورتب فيه مُجوِّدا يتلو كل يوم حزبا من القرآن العظيم ، وإماما يقيم به الخمس ويروي شيئا من صحيح البخاري ، وهو الفقيه أبو عبد الله محمد بن مصطفى البارودي ، وحضر له يوم الختم في رمضان .

وفي الثامن والعشرين من محرم سنة 1253 ، ثلاث وخمسين (الخميس 4 ماي 1837 م.) ، خرج الوزير شاكير صاحب الطابع بمحلة من عسكر النظام والمخازنية وبعض المزارقية الى جبل ماطر وبجاوة وسببها ان الشيخ الحسين ، من اولاد الشيخ عبد الرحمان اقوطال صاحب الزاوية الشهيرة في بجاوة ، كانت له مع الدولة خلطة ، والتحم بأبي الحسن علاّلة بن قاجي محمد ، صهر حسين باي وربيبه ، وحصل بتلك الخلطة جاها زائدا على امثاله من ابناء الزوايا . ولما استبدّ بالوزارة شاكير صاحب الطابع ، وتقلّص ظلّ الاحترام عن سائر الرجال ، ولم يجد ما كان يألفه ، أنف من الركون الى الوزير ، فمقته وصار يتتبع مساوئه ، وهو يُدلّ بنسبه وقربه ، وكان من الفرسان المشهورة . وآل الامر الى ان لاذ بقومه وأهل الجبل (1) ، فاعصوصبوا عليه ، وشنّوا على الهناشر الغارات ، وأخافوا السبل حتى لزم دفع الضرر . فسافر الوزير بهذه المحلة ، ومعه الامير آلاي سليم ، والامير آلاي قارة محمد ، والآغة محمد شولاق . وتطوع ابو عبد الله محمد خزنه دار مملوك الوزير بالخروج معه ، ملقيا بنفسه الى الموت لما ناله من عسف الوزير الذي سببه الغيرة ، فقاتلهم وخضد شوكتهم وأباح ساحتهم . وضُرِب في هذه الواقعة محمد خزنه دار وانكسرت رجله . ويقال ان محمد شولاق ضربه باغراء من الوزير ، وربّك أعلم .

وأتى الوزير برؤوس الفتنة عند انجلاء غيهب الحرب ، ومثّل بأبدانهم من الضرب المبرّح ، وعبث بأجسادهم قارة محمد عَبَثَ الصبيان بالحيوان من قطع الآذان وتأليم الابدان وغير ذلك مما لا يبيحه شرع ولا عقل ، بعد القدرة ، وأغرمهم ألف رأس من البقر . ورجع الوزير بالمحلة أوائل ربيع الثاني من السنة (أوائل جويلية 1837 م) ، وألزم أهل المملكة شراء ذلك البقر .

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « أهل جبل ماطر » .

وفي الشهر توجه الباي الى بستان جَدّه بمَنّوبة المعروف بقبّة النحاس ، بعد أن أحكمه وزخرفه وزاد فيه أبنية . وأناب ابنَه أبا العباس أحمد باي بباردو يباشر الاحوال (1) ويستأمره في المهمّات . وحمل معه ابن أخيه ورجال دولته الى بساتين مَنّوبة ، وهو (2) البرج الكبير المسمّى بسانية السراية .

وفي آخر هذا الشهر توفي الوزير الكاتب ابو الثناء محمود الاصرم ، وقدم الباي لرئاسة الكتّاب عوضه ابنَ أخيه وكاهيتَه أبا عبد الله محمد بن محمد الاصرم ، وقدّم عوضه كاهية أبا الربيع الفقيه الكاتب سليمان المحجوب .

الخبر عن
مقتل الوزير شاكير صاحب الطابع

لما تاه هذا الوزير بما أتيح له من الانفراد بالرئاسة ، معرضا عما يلزمها من السياسة ، واستبد بالعسكر ، لا سيما عسكر الساحل ، وقد سافر بهم ومازج كبراءهم ، أنف لذلك احمد باي وقال لابيه : « قد سافرتُ بمحاتي الشتاء والصيف كما أمرتني ، وأنت الآن عازم على تقديم ابن عمّي للسفر ، وفاءً بوعدك ، فأيُّ خدمة أباشرها أنا ؟ لا جائز ان اكون معك كما كان عمّي مع جدّي ، لانّك بحمد الله مضطلع بأمرك معافى في بدنك ، ولا جائز أن تسلّم لي ، ولا اقبل ذلك ، ولا أرضى لنفسي هذه الاحدوثة . فان رأيت ان تقدمني على العسكر ، تجدني سميعا مطيعا » ، فصادف من الباي أذنا واعية . سمعتُ ذلك من احمد باي رحمه الله ، لانه ثقل عليه إدلالُ (3) الوزير وتحكّمه فيما يتعلق بالمال ، مستندا الى ما التزم به سيّدُه الاول ، وقد زال السبب ومات الملتزم . ولم يكن استيلاء الوزير في امور العسكر بولاية مخصوصة ، وانما توصل الى ذلك من جهة المصرف .

ففي اوائل جمادى الاولى من السنة 1253 (أوائل اوت 1837 م.) ، جلس الباي صباحا بالصرايا (4) ، وأتى ابنه احمد باي لتقبيل يده على العادة ، ووقف في موقفه ، فقال

---

(1) في ع و ق : « يباشر الحكم » .
(2) في ع و ق : « وأنزلهم بالبرج الكبير » .
(3) في خ و ع و ق : « ادلاء » .
(4) وردت في النسخ المختلفة ، وفي النسخة الواحدة : صرايا وسرايا وصراية وسراية .

له أبوه : « يا احمد ، قد أوليتك النظر في امور العسكر النظامي ، بحيث لا أقبل مطالبهم العسكرية الا على يدك ، وأنت المسؤول عن سائر أمورهم » ، فتوقف (1) ابنُه سياسةً مع الوزير ، فانتهره وقال له : « تقدَّم وقبِّل يدي مثل اهل الخطط ، فاني لا أسلّم لك في رتبتي ما دمت حيا مستطيعا » ، فتقدم وقبّل يده . وأمرني ان اكتب عهد الولاية ، ولم تحضرني الآن نسخته . وقال للجماعة : « هذه الخطة لم يكن لها وجود في السابق حتى يقال اني نقلتها من يد صاحبها المخصوص بها ليد ابني » ، فأجابوه على البديهة بالاستحسان ، لما فيه من سدِّ باب الغيرة المثيرة للفتنة بين الاقارب . وقال للوزير : « هذا أخوك ، ولك معرفة بأحوال العسكر ، فأعِنْه وأشِرْ عليه بما يُستَحسَن من الفعل »، فظن الوزير ان الامر لم يزل بيده ، وان الاسم لاحمد باي والمسمّى له ، وما درى ان الصمصامة أعطيت لساعدها .

فخرج احمد باي لعلوِّه ومعه الوزير ، فطلب منه زمام اسماء العسكر ، واذن بقدوم عسكر سوسة . وتوجه في اليوم الى قشلة المركاض ، ولبس زيَّ العسكر ، وأتى بعسّة من العسكر لمحلّه ببياردو على التناوب . إلا أن الوزير لم ييأس كلَّ الإيآس من الدخول (2) في العسكر ، وكان في ذلك كالباحث عن حتْفه بظلفه .

وفي يوم الخميس التاسع عشر من الشهر ، سافر أبو عبد الله محمد باي بمحلة الصيف بجند الترك والمخازنية ، واحتفل عمّه لسفره بما لم يَحتفل لابنه ، وأمر باش حانبه عبد الوهاب أن يسافر معه . وسافر معه إسماعيل مملوك الوزير شاكير بخطة صاحب الطابع ، والآغة محمد شولاق ، وأركب الوزراء والاعيان لمشايعته .

وشرع احمد باي في ترتيب احوال العسكر ، وباشرهم بنفسه ، لا يغيب عن القشلة. وأمر مماليكه وأهل صرايته بتعلّم الحركات النظامية ، يخرجون لذلك غالب ايام الاسبوع ، وامتزج بهم أي امتزاج .

وفي إثر ولايته توفي الامير آلاي سليم ، وحضر احمد باي جنازته ، واختار للولاية عوضه القائمقام سليم فأولاه الباي ، وهو الآن أمير أمراء ورئيس الضبطة .

(1) توقف : تردد .

(2) الدخول : التداخل (عامية تونسية) .

واما قاره محمد فقد تجنف (1) عن احمد باي ، بما لاح من حاله ، وانحاز الى الوزير شاكير . وحفظت عنه كلمات نقمت عليه ، وكان لا يبالي بما يقول .

ولم يزل أحمد باي معتنيا بأحوال العسكر ، حتى دانت له قلوبهم وأشربوا حبّه . وتحدث الناس بتقدمه ، وتقربت له الاعيان والعقلاء ، وانضاف اليه ابو الثناء محمود بن محمد بن عيّاد وغيره ، لما في طباع الناس من الانحياز الى المقرَّب ، ولا اقرب من الولد لوالده . وكل من يتقرب الى احمد باي يتنكر له الوزير ، مع توغّر الصدور عليه لثقل وطأته .

وفي هذه الايام طولب محمود بن عيّاد بدين عليه لبعض تجار الفرنسيس ، وله ولابيه دَيْن قِبَل الدولة ، فقال احمد باي لابيه : « ان هذا الرجل من أعيان الدولة ، ولا وفاء له بما عليه من الدّين ، فان كان له حق قِبَل الدولة فلا وجه لفضيحته ، وماله قِبَلنا » ، فقال له الوزير مصطفى صاحب الطابع : « لا بدّ من الكلام مع الوزير شاكير في ذلك » . ولما اتى من المحمدية وعلم الخبر ، تعلّل بأن ما طلبه ابن عيّاد انما هو ثمن اشياء أتى بها هدية ، فأجاب ابن عيّاد بأن : « الهدية ما نأتي به من تلقاء نفسي ، أما الاشياء التي نؤمر بشرائها بمكاتيب الوزير ، أو دراهم نؤمر بدفعها وحججها بيدي ، فهي خارجة عن سنن الهدايا » .

ولما بلغ الوزير هذا الجواب اغتاظ وقال : « ندفع سائر ما على ابن عياد من الديون، وسلّموه ليدي » ، فقال له الباي : « أي عقل وأي شرع يسوّغ ذلك ؟ » وأمر بدفع المال واخذ الحجج منه ، وكان اكثر من ثلاثمائة ألف ريال ، فاشتد حنق الوزير على الدولة ، وقال لمصطفى صاحب الطابع جهارا [بعنف على رؤوس الحاضرين] : « أنا أجمع المال [ليكون خزنة البلاد] ، وانتم تبدّدونه [في اغراضكم واغراض اولادكم] (2) ، واذا احتجتم ترجعون على مالي » .

---

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « تجنب » ، ولعل المراد جانفه اي انفصل عنه على بغض .

(2) ما بين القوسين في هذه الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

وأطلق لسانه ، فتحمل مصطفى صاحب الطابع جفوته ، ولاطفه حتى سكّن غضبه ، ثم [خلا به وأحضرني] (1) وقال له : «كمالك لا يقتضي صدور هذه المقالات منك بمرآى من الناس ، وفيهم من يحسدك فيزيد عليها ويبلّغها على وجه السعاية بك . وهؤلاء السادة لهم علينا حقوق ، وأياديهم في أعناقنا ، لانهم اشترونا صغارا ، وتربينا في نعمتهم ، وقدّمونا الى مصاهرتهم وعظائم خدمتهم ، حتى صرنا كجزء منهم ، لا يَمُنُّ أحد منّا عليهم بخدمة . ولولا حرمتهم ما نلنا حُظْوة ، ولا نقلنا في التقدم خُطْوة . وفي اعيان البلاد من الكتّاب والمخازنية من يقوم مقامنا وزيادة . ولو أن القائد يوسف اليهودي القابض أعْطِي نصف حرمتك ، لفعل ما لا يخطر ببالنا ، أحْرَى غيره ، وان الكفّ لا يقوم مقام العنق . وإن ابن عيّاد تعلّق بابن الباي وله حق في الظاهر ، مع ميل الباي الى إرضاء ابنه » ، فقال له الوزير : « لولا غفلتُك وتفريطُك ما تعلق ابن عيّاد بابن الباي ، ولاي سبب يتعلق به ؟ » ، فقال له مصطفى صاحب الطابع : « بأي وجه نُحَجِّر على الناس مُداخَلة أولاد الامراء ؟ وبأي وجه نحجّر على ابناء الملوك قبول خدّام آبائهم ، وهم في سنّ الرجولية ؟ والالحاح في امثال هذه الامور يؤدي الى رفع جلباب الحياء » ، الى غير ذلك مما هذا معناه واكثر منه .

وقصد الوزير مصطفى صاحب الطابع ان يكون ذلك بحضوري كالإيداع . وانفصل الموطن على غير طائل . وخرج الوزير الى المحمدية حَنِقا . وقبض ابن عيّاد دراهمه ، وامرني الوزير مصطفى صاحب الطابع برسمها في صفحة المصروف بزمام الصرايا ، وكان يومئذ بيدي . ويقال ان ابن عيّاد أهدى الى احمد باي نصف هذا المال .

ولما وقع من هذا الوزير ما وقع من كثرة الادلال والشدة ، توقع الشر وحاول النجاة ، فبعث الى اعيان العسكر بسوسة وأتوه سرا ، وتعاهد معهم اذا أتاهم يقومون بحمايته وانه يقدم إليهم بأبي عبد الله محّمد باي ابن حسين باي ، وقدّر انه يطاوعه في ذلك وهو من أشد الناس تجنّفا عنه . وحسّن له هذا الرأي الامير آلاي قاره محمد ، وصوّر له نتيجة هذا القياس العقيم . ومن تعاظم على الزمان أهانه . وبقي يفكّر منتظرا قدوم محّمد باي بالمحلة . واستشار في ذلك الشيخ العالم السالك ، شيخنا ابا عبد الله محمد بن ملوكة ،

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

فوعظه ونهاه ومحضه النصيحة ، لو صادفت قريحة ، وقال له : « من سلّ سيف بغي قتل به ، ومن أضرم نار فتنة احترق بها » ، الى غير ذلك مما سبق القدر بعدم سماعه . فصمّم على رأيه ، فتأثم الشيخ ابن ملوكة من كتمان هذا الامر ، وفيه سفك لدماء المسلمين وشحناء بين أقارب ، فأسرّ بالخبر لاحمد باي ، وأتى بعضُ من عاهدهم من العسكر الى اميرهم المحبّب لهم احمد باي ، وأخبره بهذا السرّ الذي كتمانه خيانة .

وقويت القرائن يعضد بعضُها بعضا ، فبعث الباي الى الوزير أبي الربيع سليمان كاهية ، والى أبي محمد خير الدين كاهية ، واجتمع بهما في قصر منوبة ، وقصّ عليهما الخبر وسنده [وما حفّته من القرائن الحالية] ، فلم يستبعدا ذلك ، وأشارا عليه بدفع الضرر عنه وعن المسلمين [وان لا يتواني في مثل هذا الامر] (1) فأوصى البايُ ابنَه ان يعتقله اذا قدم لباردو ، ويطيّر له بالخبر .

ولما كان يوم الاثنين الحادي عشر (2) من جمادى الثانية من السنة 1253 (11 سبتمبر 1837 م.) ، بكّر الوزير شاكير من المحمدية الى الباي بمنّوبة ، ووقف بين يديه على العادة ، وقال له سرًّا : « لا يخفى سيادتكم ان الناس تبغضني لنصحي في خدمتكم [ووقوفي في مصلحتكم] (3) ، لا سيما ابن عياد . وأخشى ان يبلّغوا عنّي ما أنا بريء منه » ، فقال له الباي : « دَعْ هذا الوسواس من فكرك ، فأنت بمنزلة ابني أحمد » ، ثم وقف قليلا ، واستأذنه في التوجه الى باردو لملاقاة أحمد باي ، فأذن له ، فأتى باردو وطلع الى الصرايا ، وعيون احمد باي ترقُبه .

ولما تحقق وصولَه ، بعث في الحين الى والده بمنّوبة مع خديمه المقرّب تونين بوقو(4)، وأمر ابا الربيع سليمان باش آغة ان يجلس بسقيفة باب باردو ومعه عسّة الباب ، يمنع الخارج منه كائنا مَن كان ، ولا يمنع الداخل . وانما فعل ذلك خشية أن يطير الخبر الى المحلّة (5) على غير وجهه .

---

(1) ما بين القوسين في هذه الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .
(2) هو 10 حسب التقويم .
(3) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .
(4) Antonio Bogo — Ganiage p. 118
(5) في خ : « الى المحلة » ، وفي ع و ق : « الى المملكة » .

واتى الصرايا فوجد شاكير في انتظاره . ولما قابله قال له : « ان سيدنا أمر بأن تكون في صرايتي حتى يقدم الآن » ، فارتعد وكاد ان يسقط ، فاكتنفه ابو العباس احمد امير لواء الخيالة ، وابو المسرة فرحات القايمقام ، وأوصلوه من الممشى الى بيت (1) أعِدَّت له ، ولم تقع له فضيحة ولا هتك ستر . ووقفت عسّة عسكرية أمام باب البيت .

ولما وصل الخبر الى الباي بمنوبة ، ركب مسرعا وأمر ان لا يتخلف عنه أحد . ولما دخل باردو عدل الى صراية ابنه ، وانتظر مَن وراءه من الناس ، وكل من يصل الى البطحاء يقال له (2) ان الباي في صراية ابنه ، فيدخل فيجد الباي جالسا واجما ، وابنه قائم عند رأسه (3) .

ولما تمّ اجتماع الناس قال لهم : « هل لحقكم ضرر منّي او نقمتم علي أمرا منذ وَليتُ أمركم ؟ » فقالوا : « لا ، بل أحسنت الينا ولم تغيّر (3) أحدا منّا » ، فقال لهم : « أتَرْضَوْنَ ان شاكير صاحب الطابع يخضب هذه الشيبة بدمي ، ويوقد فتنة في داري وبين أبنائي ؟ » .

وقص عليهم الخبر ، فتكلم كل واحد بمقدار مَوْجِدَته على الوزير ، وتفنّنوا في تقرير حاله . ثم قال لهم : « انه هنا مسجون » ، فقالوا له : « الامر اليك ، ونطلب منك قطع مادة الفساد عن بلادنا » ، فعند ذلك أمر ابنه احمد باي بخنقه ، فخرج وأمر بذلك .

ولما دخل عليه الاضه باشي محمد الطبرقي والمماليك واقعدوه بمصرعه ، لم يزدد روعه ، وأمرهم بدهن الحبل بالصابون ليغوص في رقبته ويموت بسرعة . ثم استأذنه ابنه في قارة محمد ، فقال له : « هو أحقر من ان يُقتَل ، انزعْ عنه ثياب العسكر واسجنه حتى يتهيأ شقف للسفر فيُنفَى فيه » . وأمره بالاحتفاظ على كسبه ليحمله معه . ثم وجّهه الى برج حلق الوادي فسجن به الى ان جمع كسبه وسافر منفيا . وخدم في العسكر

---

(1) بيت : غرفة ، حجرة (استعمال تونسي) .

(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : « يقول له بيتباشي العسة » .

(3) كذا في خ ، وفي ع و ق : « قائم بين يديه » .

(4) غيره : أساء اليه ، آذاه (عامية تونسية) .

باسلامبول امير آلاي ، ومات قتيلا بديوان عسكري [في مصر] (1) لخيانة ثبتت عليه ، على ما بلغ متوترا .

ثم أمرني الباي ان اكتب لابن أخيه بخبر الواقعة ، وهو بالمحلة في باجة ، وأمره بارسال محمد شولاق واسماعيل صاحب الطابع ، وان يجعل محمد علي آغة بالمحلّة . وكتب بذلك أيضا الى عبد الوهاب باش حانبة ، وطيّر بالمكاتيب ابا النخبة مصطفى البلهوان باش حانبة الترك ، وأبا محمد بهرام ، وخرجا في الحين .

وبعد ذلك سرّح الناس للخروج من باردو . ثم قال : « احملوا جثة هذا الانسان الى داري بتونس فيخرج منها نعشه » ، فقال له بعض الحاضرين : « ان هذا الرجل وزيركم وصهركم ، ولا ننسى ما وقع بالامس في جثة ابي المحاسن يوسف صاحب الطابع ، وهو مَن هو ، وهذا الرجل مبغض الى الناس » ، فقال له : « جزاك الله خيرا ، ذكّرتني » . ثم أمر بعض أعيان المماليك ان يتوجه به في تابوت وكرّيطة الى الدار ومعه الحوانب ، فتوقف . ثم أمر الكاتب الفقيه ابا عبد الله محمد بوخريص ان يتوجّه به ، فأوصله الى دار الباي [بالحاضرة قبل الزوال] ، وبقي بالدار والمخازنية معه . [وبعث الى شيخ المدينة باحضار ما يلزم لدفنه] ومن الغد خرجت جنازته [صباحا] بما يناسب مقامه على عادة البلاد . ودفن بزاوية السيّدة بركة ، بربَض باب الجزيرة ، وكان هذا الباي بناها للولي المجذوب السيد حسن ولد مسكة ، بطلب منه (2) .

وفي اليوم أمر الباي ابن أخيه ابا عبد الله محمد الصادق باي ملك هذا العصر أن يتوجّه الى المحمديّة ، ويأتي بأخته وابنها وأتباعها الى دار أبيها بباردو .

وفي اليوم ، اثر قتل الوزير ، أولى الباي ابا محمد صالح زيد كاهيةً بالكاف ، وابا محمد رشيد امير آلاي بعسكر سوسة وعاملا بها ، وابا محمد حسن ساقسلي عمَلَ المنستير ، وابا عبد الله محمد الجلولي عمل صفاقس ، وابا عبد الله محمد بن عباس عمل المثاليث . وأمرهم بسرعة التوجّه الى محلّ أعمالهم ، لحزم رآه في ذلك . ووجدنا أوامر ولايتهم مكتوبة ، موقوفة على الختم بالطبع . وخرجوا في اليوم .

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

(2) ما بين القوسين فى هذه الفقرة ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

ولما وصل مكتوب الباي لابن اخيه بالمحلة ، وسمع محمد شولاق الخبر ، حمل سلاحه وقال : « لا اتوجّه الى الموت حتى اقتل اثنين او ثلاثة » ، وكان متهورا . واذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه . فقال له الباي : « وما عسى ان تفعل وأنت رجل واحد ؟ ان لم تتوجه طوعا بعثت اليه برأسك ، لا سيما وقاره محمد لم يُقتَل » . وأجاب عمّه من إنشاء الاكتب الاديب ابي عبد الله محمد بن محمد المنّاعي بما نصّه ، بعد صدر بليغ براعة استهلاله : « المقام الذي بِرُّه واجب مفترض ، والبِدارُ الى طاعته لا يقدّم عليه غرض الخ ... اما بعد تقبيل ايديكم التي أحِنُّ الى تقبيلها ، وأداء ما يرضي الله من واجبات برّكم وتكميلها ، فقد اتّصل بنا جوابكم (1) الكريم الوفادة ، السافر عن السعادة ، صحبة ولدنا مصطفى البلهوان باش حانبه ، وابننا بهرام . فاستفدنا منه أولا سلامة ذاتكم التي هي غاية أمانينا ، ومن أهمّ مقاصدنا ودواعينا . فقابلنا نعم الله بشكره وحمده ، وسألناه لكم مزيد رِفْده . وما عرّفتنا فيه عن شاكير الناشيء في نعمتكم ، المتغذي بلبان حُرمتكم ، حتى قويَ بجاهكم بعد أن لم يكن ، بأنه (2) مُنطَوٍ لكم على ضغائن وإحَن . فحدثته نفسه الخبيثة كفران النعمة ، وظهرت عليه أمارات الغدر وهتك الحرمة . فبادرتَ إلى حسم الداء قبل استحكامه ، وحلّه دون انبرامه . فلله المنّة ومزيد الشكر حيث مكّنكم من ناصيته ، جزاءً لمعصيته . فأنا أول مؤازر لكم على محو آثار شرّه وتعفية ساحته لو بدا لي منه ما ثبت لديكم وظهر للعين ، بعد أن سبرته بميزان عقلك الرزين . وما أمرتنا أيّدكم الله بأن نوجّه اليكم محمد شولاق واسماعيل صحبة حاملَيِ الجواب المذكورَين ، فلما اتصل بهم الامر المطاع ، بادروا بالامتثال والاتّباع ، وطلبوا منّا ان نسترهم من فضيحة التعيين (3) ، ويتوجّهون لحضرتكم بأنفسهم طائعين ، وللحكم منكم منقادين راضين . فأسعفناهم بطِلْبتهم لمّا ظهرت منهم مخايل الصدق ، وكتبنا جوابا بأيديهم للسيادة . وقد اقمنا ابننا محمد علي مُقام محمد شولاق كما أمرتم بذلك . والله يصل لكم عوائد الإنعام ، وعزة لا تؤذن بانصرام ، ويجمعنا بكم في اسعد الايام ، ويعيننا على القيام بما لكم من الحقوق العظام . وكتب في 12 جمادى الثانية سنة 1253 (الاربعاء 13 سبتمبر 1253 م.) .

(1) جواب : خطاب ، رسالة .

(2) كذا في خ و ع ، وفي ق : « أنه » .

(3) التعيين : الاحضار الى المحاكمة بواسطة عون المحكمة .

ولما قدم محمد شولاق أتي الى الصرايا ، وعدل اسماعيل لدار القنصل ، فبعث الباي الى القنصل بما محصّله : « ان هذا الرجل غير مطلوب في رزقه (1) ولا في دمه ، وانما المراد ايقافه حتى يجمع كسبه ويسافر » ، فأمره القنصل بالخروج ، فخرج الى برج حلق الوادي الى أن جمع كسبه . وسافر بعد ان طلب منه الباي طلاق بنت أخيه ، وهي في عصمة عقده . فطلّقها قبل البناء بها ، وسافر لاسلامبول . [وخرج منها منفيا] (2) ، وساءت حاله ، فرجع الى تونس على أسوأ حال الى ان توفي بها .

واما محمد شولاق فصدر له الإذن بأن يكون عند الوزير أبي الربيع سليمان كاهية في بستانه بالمرسى . فمكث أياما ، وصدرت منه بوادر لا يحتملها طبع الوزير المذكور ، فنُقِل الى برج حلق الوادي بطلب من الكاهية . ولما جمع كسبه ، سافر الى الاسكندرية ومصر وتزوّج . ونَبَتْ به الاوطان فكاتب المشير أبا العباس احمد باي يستأذنه في القدوم فلم يأذن له . وتو في بطرابلس فجأة عن غير عقب . وأوقف الوكيلُ بها مُخلّفَه ، لما للدولة فيه من حق الوّلاء الشرعي ، فأمره أحمد باي بدفع سائر مخلّفه لزوجته ، [ويرسل حجة في توصلها بذلك ، ففعل] (3) .

ولما قدم أبو عبد الله محّمد باي من المحلة واجتمع بعمّه ، برّأ نفسه . وثبتت عند عمه براءتُه وانه لم يسمع شيئا مما دبّره شاكير وقاره محمد .

ولم يُسمَع في الملك المطلق بوزير مات بشبهة حقّ قبل شاكير ، بمقتضى ما قامت عليه من القرائن والشهادات وفلَتات اللسان ، ولم ينقص الا عرض ذلك عليه وسماع جوابه . ومع ذلك لم يتتبع كسبه بالفضيحة والتقييد كامثاله ، [وان أخذ منه ما أخذ ، ولا مَسّ أحدا من اتباعه بسوء] (4) .

وبعد موته رجع الباي الى باردو من مَنّوبة ، وابتدأه مَرَضُ موته بدُمّل نبت في قفاه . قال بعض الاطباء سببه الانزعاج وطلوع الدم الى أعالي البدن في نازلة شاكير ، وعالجه بالشق (5) . وفي خلال مرضه يسأل وزيره أبا النخبة مصطفى صاحب الطابع :

(1) كذا في ق ، وفي خ و ع : « رقبه » .
(2) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .
(3) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .
(4) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .
(5) شق ، وشقان : عملية جراحية .

« هل قدم الشيخ ابراهيم من الحج ؟ » ، وتاقت نفسه لرؤيته . وابنه احمد باي يخرج كل يوم لمباشرة المظالم [في بيت الباشا] نائبا عن أبيه . وكان في مرض موته يوصيه بصلة الرحم والرفق ، وان لا يبطل المجلس الشرعي [بحضرته] ؛ وان لا يخصّ أحدا من قناصل الدول بصحبة ذاتية ، وانما يخالطهم بقدر الحاجة على احترام مناصبهم ودولهم . سمعنا ذلك من ابنه مرارا ، ومن وزيره أبي النخبة مصطفى صاحب الطابع (1) .

وعند فجر يوم الثلاثاء عاشر رجب من السنة 1253 (10 اكتوبر 1837 م.) ، اشتد به المرض ، وشاهد طلائع المنية ، تقصده من كل ثنية ، فطلب من ابنه ووزيره ان يُحضرا له إمامه الشيخ الفقيه الخيِّر أبا العباس احمد البارودي ، وكاتبَه الفقيه الشريف أبا الربيع سليمان المحجوب ، فدخلا عليه .

وقال لابنه : « احفظ وصيتي واخرج في وديعة الله » ، فغنمها وخرج الى الباب ، فلاقى ابن عمه محَمد باي ، فقال له : « ان عمك محتضر ، وهذا الامر إليّ بعد وفاته ، ولك بعد وفاتي » .

وحضر لهما الوزير أبو النخبة مصطفى صاحب الطابع ، وطلب منهما التعاهدَ على الوفاء [ومن نكث فالله حسبه] (2) .

وخلا الباي بنفسه يذكر الله [بكلمة التوحيد] ، ويصلّي على النبي صلى الله عليه وسلّم ، وإمامُه [عند رأسه] (3) يتلو سورة ˮيسˮ .

ورفض الآمال الممدودة ، وأقبل يستكمل الانفاس المعدودة ، الى ان رجعت بفضل الله نفسُه المطمئنة الزكيّة ، الى ربها راضية مرضية . فلم يَرُعْنا إلا باكية نعيه بالدار .

وخرج الإمام والكاتب باكيَيْن ، وعزّيا ابنَه وآلَ بيته . وكل نفس ذائقة الموت وانما تُوَفَّوْنَ أجوركم يوم القيامة .

(1) ما بين القوسين فى هذه الفقرة ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .
(2) ما بين القوسين فى هذه الفقرة ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .
(3) ما بين القوسين فى هذه الفقرة ساقط من خ ، مثبت ع و ق .

ودُفِن من الغد حذو أبيه . وعتَق عليه ابنُه وغيرُه عددا كثيرا من الارقّاء ، وان لم يتبعوا نعشه بالقصب التي بها صُحُف العتق ، على العادة . وقال ابنه : « ان العتق لله سبحانه ، لا للمباهاة بكثرة المعتوقين » . ومنه نسخت تلك العادة ، حتى منّ الله على عبيده بالعتق العام على يد ابنه [وارث ملكه] ، كما سيأتي ان شاء الله تعالى [في بابه قريبا] (1) .

وقصر مدته اقتضى ان لا تكون له آثار مبنية ، وان كانت آثاره المعنوية اعظم من الآثار الحسيّة .

حال هذا البـاى

كان رحمه الله حليما كريما ، سليم الصدر ، حسن اللقاء ، طلق المحيّا ، فصيحَ اللسان ، يحب الرفق والتأنّي ، عارفا بنفسه ، ومن عرف نفسه فقد عرف ربّه ، واقفا عند حدّه ، بعيدا عن الاعجاب ، لا تحرّكه الانباء الا بعد التبيُّن ، متثبّتا في العقوبات لا سيما الدماء ، مراقبا لله في تصرفه ، كثيرَ الادب مع الاحكام الشرعية ، بحيث لا يحكم في نوازل المعاملات الا الضروريات (2) . وهو أوّل مَن حلّف المنكرين بين يديه في المحكمة .

يصفح عن الزلّة ويتغافل عن العيوب ، جانحا للستر . آية الله في صلة الرحم والحنان وحبِّ اهل المملكة لا سيما الحاضرة ، معظّما للعلماء ، ألمعيَّ الفهم ، له مشاركة علمية اكتسبها بالمحاضرة ، مع جودة ذهنه . يميل الى مطالعة الكتب ، ويشتهي النظر في « سمط اللال » للشيخ قويسم ، لانه من علماء الحاضرة . عزيز النفس ، عالي الهمّة ، ما شئت من نفس طامحة للكمال ، وأخلاق اشهى من بلوغ الآمال ، وسياسة استعان بها في عظائم الاعمال ، وملك بها القلوب على التفصيل والإجمال . ولم يزل نيّر السعد ، لم يُسمَع لعظائم الفتَن في أيامه صوتُ رَعْد ، إلى أن أتاه الوعد ، ولله الامر من قبل ومن بعد .

---

(1) ما بين القوسين فى هذه الفقرة ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

(2) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « ... الا فى غصب الملد » (فى ق : الملك) .

فهرس الموضوعات

للمجلد الثالث من كتاب

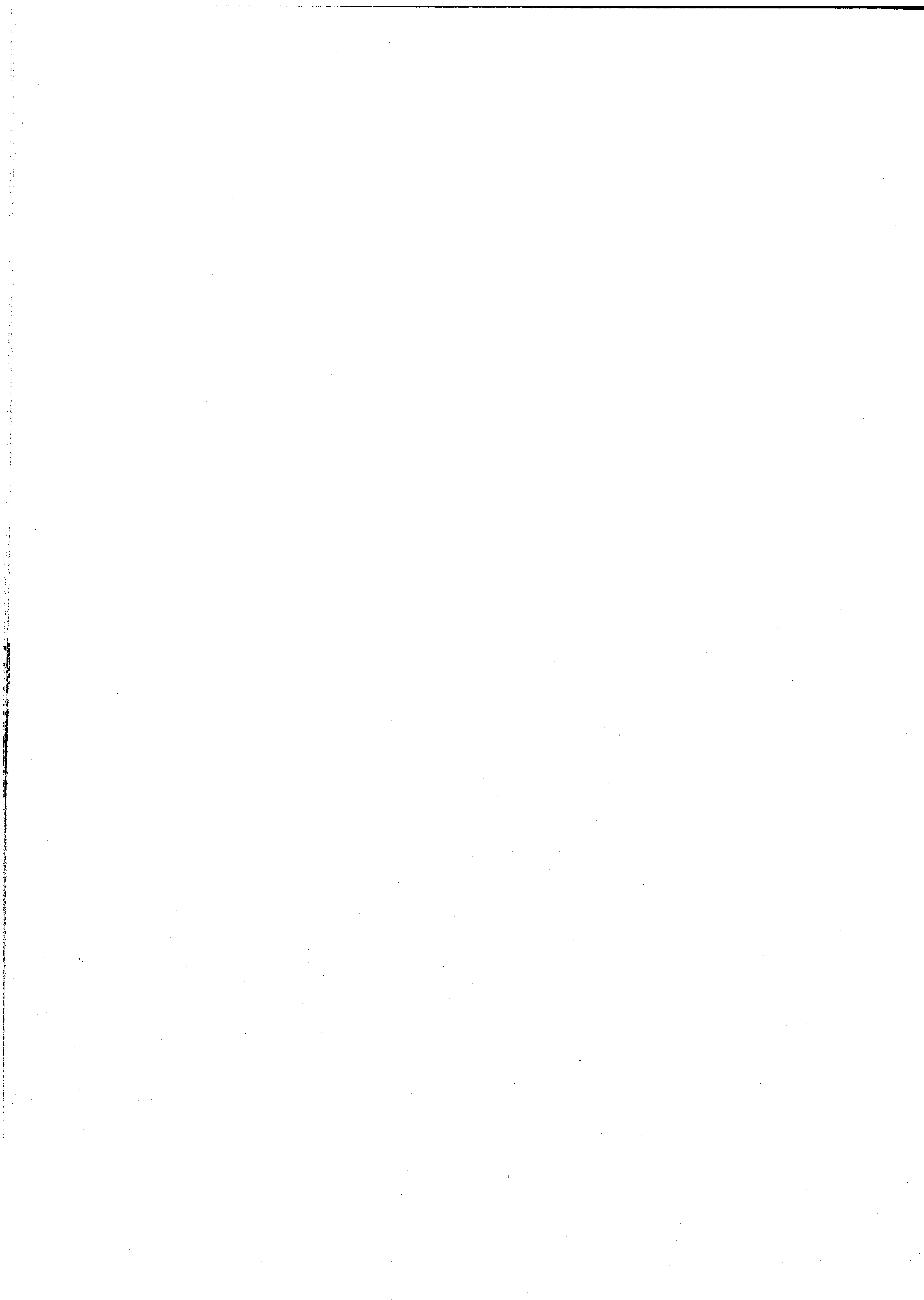
« اتحاف أهل الزمان، بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان »

2) عثمان بـاي

3) محمود باشا بـاي

4) حسين باشا بـاى

5) مصطفى باشا بــاى



اتحاف أهل الزمان

باخبار ملوك تونس وعهد الأمان

المجلّد الثاني

الجزء الرابع

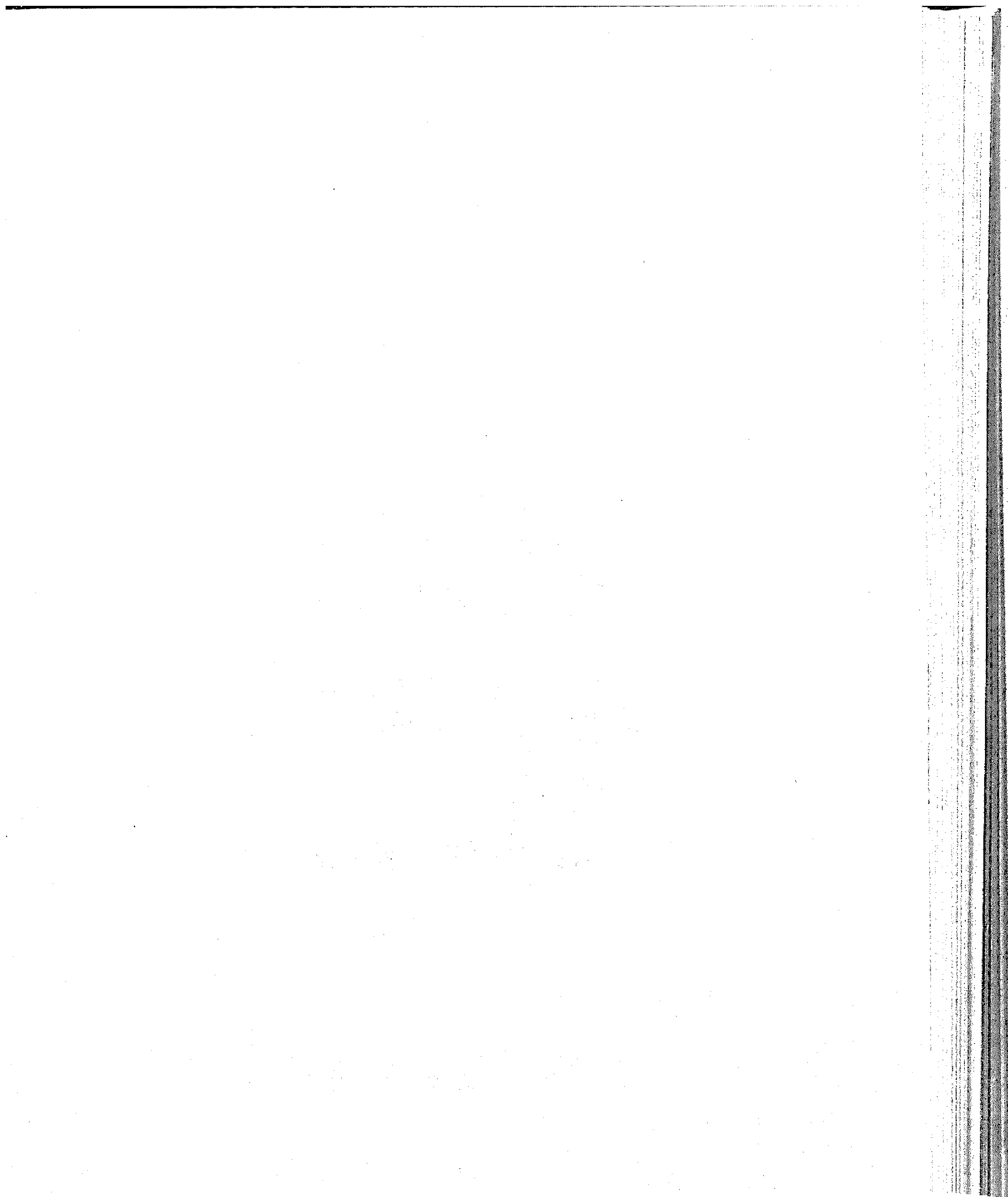
وزارة الثقافة

أحمد بن أبي الضياف

إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان

تحقيق لجنة من وزارة الشؤون الثقافية

تنفيذ:
الدار العربية للكتاب



• المشير احمد باشا باي

- الاكثار من الجند
- انشاء المدرسة الحربية بباردو
- تأسيس « المكتبة الأحمدية »
- ترتيب التدريس بجامع الزيتونة
- عتق المماليك
- الرحلة الى فرنسا
- الاعانة الحربية للدولة العثمانية

• المشير محمد باشا باي

- تنظيم المحاكم الشرعية
- منشور الفلاحة
- قانون عهد الأمان
- التنقيص من العسكر

الباب السادس
في دولة
الباشا المشير أبي العباس أحمد باي
ابن الباشا مصطفى باي ابن الباشا محمود باي بن محمد ابن حسين باي بن علي

مولد هذا الباي في الحادي والعشرين من رمضان سنة 1221 ، احدى وعشرين ومائتين وألف (الثلاثاء 2 ديسمبر 1806) . وأمه جارية من سبـي سنبيرة (1) ، جاءت صغيرة مع أمها وأختها ، وتربـّت بدار جدّته لابيه المتقدم ذكـرها .

واعتنى أبوه بتربيته وتهذيبه على ما يقتضيه حال الوقت يومئذ . فقرأ القرآن على الشيـخ الصالح الفقيه الخطيب أبـي العبـّاس أحمد السنـّان . وتعلم اللغة التركـية نطقا وشيئـا من الـكـتابة ، وتعلـّم لغة ايطاليا نطقا فقط (2) . ولازم الشيـخ الفقيه الاديب ابا عبد الله محمد الحـكـيم سيالة (3) . وخالط غيره من الناس .

وكـان في عنفوان شبابه يتزيـّا في عمامته بزِيّ الترك ، والمهابة مع ذلك لا تفارقه في سائر أحواله ، وتخلق بها من صغره .

وأبو تربيته الوزير الناصح الخيـّر أبو النخبة مصطفى صاحب الطابـع لا يفارقه .

وكـان في سياسة تربيته يجالسه مجالسة الاصحاب ، وفي خلال ذلك يفيده ويخبره بحالات أوائله وما نشأ عنها ، ويحادثه بمحامد الاخلاق ومذامـّها ، الى غير ذلك ممـا يلقيه أهلُ الـكمال الى الفطرة السليمة ، حتـّى تخلـّق بذلك .

بويـع ضحى يوم الثلاثاء عاشر شهر الله رجب سنة 1253 ، ثلاث وخمسين (الثلاثاء 10 اكـتوبر 1837) ، اثر وفاة أبيه . وأول من بايعه ابن عمه وولي عهده وآل بيته ، ثم الوزير الـكـبير أبو الربيـع سليمان كـاهية ، ثم الوزير مصطفى صاحب الطابـع ، ثم بقية الخواصّ والحاضرين .

ومن الغد بويـع البيعة العامـّة على العادة .

(1) هى جزيرة St. Prietro فى الجنوب الغربى من سردانيا .
(2) كـذا فى ع و ق ، وفى خ : « وتعلم اللغة التركية والطليانية » .
(3) انظـر تـرجمته فى عنـوان الاريب ج 2 : 76 .

وافتتح أمرَه بأن قال لخاصة رجال دولته : « قد ظهر لكم تقديمي على عادة بلادنا ، ومنزلتكم عندي هي منزلتكم عند أبي وعمّي وأسلافي . ولا معنى للدولة الا الرجال ، فاذا لم تكونوا معي كما كنتم مع مَن قبلي ، فلا ملك ولا دولة » .

وأقرَّ الناسَ على مراتبهم وأعمالهم . وتيمّن بقدوم عالم العصر وبركة المصر الشيخ أبي اسحاق ابراهيم الرياحي ، رابعَ أيام ولايته ، بعد حجّه نيابةً عن والده . واهتزّ لِمَقْدَمه ، وبكى لمّا رآه ، وقال له : « كان أبي يتمنّى أن يراك قبل وفاته » . ووالاه جزيل الحُظْوة والمَبَرَّة .

ولما شمّر عن ساعد المباشرة ، قال للوزير أبي النخبة مصطفى صاحب الطابع : « ان هذا الامر يَشْغَلُني عن مباشرة أحوال إخوتي ، وهم صغار ، وأنت بمنزلة أبينا . وقد سلّمت لهم في (1) نصيبي من إرْث والدي ، فاقْسِمْه بينهم على ما تراه من مصالح أُلْفَتِهم وصلاحِ بَيْنِهم ، وباشِرْ نظرهم حتى يَبْلُغوا الاشُدَّ ، وأختهم الكبرى القائمة مقام أمّهم في عصمتك » . وقد فعل فوق الظن ، وكان من الوفاء بالمكان الذي لا يُجهَل .

واقبلت وفود البلدان ونواجع (2) العربان للبيعة فأفعم بهم سيل (3) الحاضرة .

ووجّه أبا النخبة مصطفى البلهوان باش حانبة الى الدولة العلية العثمانية لطلب الفَرَمان والعناية السلطانية ، وكاتَبَها باللسان التركي . ووجّه عرض محضر في الرضى بولايته على العادة .

وجمع المجلس الشرعي على العادة زمنا يسيرا .

واعتضد بابن عمّه واستكفى به في سفر المحالّ لتهنئة (4) الوطن وأمْن السبل واستيفاء الجباية .

واستكفى في الوزارة بمربّيه زعيم الدولة ابي النخبة مصطفى صاحب الطابع . واصطفى لسرِّه وبث نجواه والاحتفاظ بمال الدولة ابنَ تربيته الوزير أبا النخبة مصطفى خزنه دار ، وكان عنده بهذه الرتبة قبل تقدُّمه للملك . واستكفى في امور العسكر وما

(1) سلم له في : تنازل له عن .
(2) النواجع : القبائل الرحل .
(3) في خ : « سيل » وفي ع : « سيول » وقد سقطت من ق .
(4) التهنئة : التهدئة ، التامين .

يتعلق بهم بصاحبه ومعاصره الوزير أبي النخبة مصطفى آغة ، وثلاثتهم أصهاره على أخواته [لابيه] . واستدنى الوزير أبا عبد الله محمد [ابن الوزير أبي عبد الله محمد] الاصرم رئيس الكتبة ، وقرّبه نجيًّا ، وفتح أذنه لتدبيره ، واستعان برأيه في سائر أمور الدولة ، وكان بيده قلم جبايتها وحساب عُمّالها . واعتمد أبا عبد الله محمد بن حميدة ابن عيّاد ، وقرّب ابنه محمودا (1) .

وفي آخر شهر ولايته وصل الخبر بأخذ الفرنسيس لقسنطينة وهروب صاحبها احمد باي ، وأتى من عسكره جمع من الترك اثبتهم في جند تونس ، وجعل منهم حوانب ، وأحسن قِراهم وآنس وحشتهم ، تأليفا لقلوب مَن بالبلاد مِن الترك .

*

وفي الشهر كاتب السلطنة الشريفة بالمغرب ، على سَنن آله من محبة آل البيت ، من انشاء العبد الفقير ، ونصّه : « المقام الذي نتسلّى عن المفقود بوجوده ، ونتأسّى بالاشراف آبائه وجدوده ، مقام الملك المطاع ، الساري ذكره في البقاع ، المنعقد على فضله الإجماع ، وما على الصبح غطاء ولا على الشمس قناع ، فريدة الاصداف ، وسرُّ آل المصطفى الاشراف ، والمحيط بالمعالي إحاطة [جبل] (2) قاف ، مخدوم الاقلام والاسياف ، ومحيي مآثر الاسلاف ، ومن حبّه دين وإنصاف . وبماذا ينطق اللسان ويعرب ، عن محاسن مقام والدنا مولانا عبد الرحمان ، سلطان المغرب .

الامر جلَل ، والشمس تكبُر عن الحُلَل . أيّده الله بنصر يسهّل الصِّعاب ويُدنيها ، وعِزٍّ يشيد معالم الفخر ويبنيها ، وسعد يَهْصِر أفنَان الاماني ويَجنيها ، تنال به المِلّة الحنيفية أقصى أمانيها ، ويكون غُرّة في وجه الدنيا وبنيها .

اما بعد سلام تَهُبُّ بساحتكم نواسمه ، وتفترُّ عن ثَغْر الوِداد مباسمه ، كلّما سطعت في غياهب الشدة أنوار الفَرَج ، وهبّت نواسم الالْطاف عاطرة الارَج ، فالمنهي الى حضرتكم الشريفة ، ولكم طول العمر ودوام الامر ، أن والدنا سيدي مصطفى باشا باي صار الى عفو الله عاشرَ هذا الشهر المحرّم (3) ، وأي سلك لا يتصرم .

(1) ما بين القوسين في الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) يعني رجب ، أول الاشهر الحرم .

فياله من مصاب نبّه عيوننا من سِنَة غرورها ، وذكّر نفوسنا بمهمّ أمورها ، ضاقت به الصدور عن زَفَراتها ، والعيون عن عَبَرَاتها ، وبيّن أن شَراب الامال سَراب ، وكلّ الذي فوق التراب تراب .

فانّا لله وإنا اليه راجعون . قبلنا القَضا ، بالتسليم والرِضَا ، ولو قَبِل داعي الموت الفِدا ، أجابته أرواحنا قبل الندا . نسأله سبحانه الصبر ، والاجر والجبر ، وان يتقبّله بالغفران ، ويسكنه فسيحَ الجِنان .

فلقد كان للمستجير أجيرا (1) ، وللمظلوم وليًّا ونصيرا ، وللشريعة حارسا وظهيرا . يسّر بذلك لسفره زادا ، ووطّأ ما استطاع بالنصح للمؤمنين مِهادا ، وطوّق أهلَ الإيالة عدلا وإمدادا ، حتى فتّت فراقُه قلوبا وأكبادا ، وألقَوا إلينا حين انتقاله قِيادا ، وتسارعوا الى الدخول في طاعتنا جموعا وأفرادا ، وأجمعوا على بَيْعتنا وأصْفَقُوا ، والى جمع العِصابة تسابقوا ، وبدا ما في قلوبهم من محبّتنا التي بها خُلِقوا وتخلّقوا .

ولم يَسْلُ القلب عن المفقود ، بانقياد الوطن والوفود ، والعساكر والجنود ، وقيامِنا مقام الآباء والجدود ، وبروز المقدر للوجود . إلا أننا فعلنا ما وجب علينا في هذا القطر من جمع كلمة الاسلام ، والله يَحرُسها على الدوام . وشرعنا باعانة الله في مصالح رعيّتنا ، على حسب قدرتنا ، واعتضدنا باخوتنا ، وخواصّ أسْرَتنا ، وبَرَرْنا الوالدَ بجمع كلمة جماعتنا ، وبَرَّهُ جَميعُهم بطاعتنا .

والمبادرةُ لإعلامكم فرض أكيد ، وقصد حميد ، إذ الوِداد بيننا تألّق نوره ، وثبت في صحف الخلوص مسطورُه ، وصفت من الشوائب بحوره . كيف وهو بالإرث والاكتساب ، يتجدد بتجدُّد الاحقاب ، وحبّكم آلَ البيت فرض ، على أهل الارض ، نسأله سبحانه ان يجعله حبّا باقيا ، وسعيا الى درجة القبول راقيا ، وحصنا من المكاره واقيا ، وان يمدُّنا ببركة سلفكم الطاهر الحميد ، بالإعانة والتأييد .

والسلام من مُعظِّم قدركم العالي احمد باشا باي وفّقه الله .

وكُتب في رجب سنة 1253 » .

(1) كذا في خ و ع و ق ، ولعل المراد : مجيرا .

فاجاب الشريف [بما] نصّه : من عبد الله تعالى المتوكل عليه المعتصم بالله أمير المؤمنين ابن امير المؤمنين الشريف العلوي الحسني (1) أيّده الله ونصره . إلى المقام الذى تتضاءل بوجوده الأرزاء ، وتحصل بسلامة كماله الكفاية والإجزاء ، وتؤذن بتهنئته الرؤساء ، وان أصابها بفقد والده البأساء ، وتعم بطلعته البشرى حال التأساء ، مقام محلّ ولدنا الشاب الانجب الارشد ، وبيت القصيد الذي يُحفَظ ويُنشَد ، من قلّدته الرئاسة عِقدَها ، وأعطته السياسة عهدها ، طالع الامن ، ومُقِرّ قواعد البركة واليُمْن ، صاحب الاوصاف الزكية والنهج الاحمد ، الباشا الاجل السيد أحمد ، ابقاك الله محييا للمراسم ، متنسما من رياح النصر أعطر النواسم ، مشيدا لدعائم الدين ، مقتديا بالايمّة المهتدين ، وسلام أعطر من النسيم ، وأحلى من التسنيم ، ورحمات من الله وبركات ، تعمّ السكنات والحركات .

أما بعد حمد الله على كل حال ، والصلاة والسلام على النبي والآل ، فقد وصلنا كتابكم بخبر الحادث الذي روّع السِّرْب ، والخَطْب الذى كدّر الشِّرْب ، وهو خبر وفاة والدكم المبرور ، صاحب السعي المشكور ، والثناء الطيّب المذكور ، والفضل المشهود المشهور . فانا لله وإنا اليه راجعون ، تقبّلا لسنن الشريعة ، وتوجّعا للرزيّة الفظيعة . فياله من فقيد شكت فَقْدَه العلياء ، وبكته الخاصة والدهماء ، ورَد الحوض الذي لا بدّ من وروده .

ولو أن حيّا خالدٌ لجلاله لهُنّئتَ من بين الورى بخلوده

ولكن الله سبحانه وتعالى تدارك مُصابَه بولايتك ، ونسخ آيته بإحكام آيتك ، فنظم لك شمل الامة ، وجلا بك عن هذا (2) القطر الخطوبَ المدلهمّة ، وأطلع فجرك في ظلمائه، وأكمل بدرك في سمائه ، فانشرحت بذلك الصدور ، وهشّت لطلعتك (3) الاعيان والصدور . فهنّأ الله مقامكم بهذه الصنيعة العظيمة ، والموهبة الجسيمة ، وأجزل ثوابكم في عظم ذلك المصاب ، وجعله تتِمّة الفجائع وخاتمة الاوصاب ، وأعقبه بتأييد يُدني القاصي ، وتمكين يرشد العاصي ، ونصر يُنزِل العُصْمَ من الصَّياصي ، ويقود

(1) في ع : « الحسنى » ، وفي خ و ق : « الحسينى » .
(2) في خ : « هذا » ، وفي ع و ق : « ذلك » .
(3) في خ : « لطلعته » ، وفي ع و ق : « لطلعتك » .

اليكم كل جبّار بالنّواصي ، فانه وإن عظم المصاب الحادث ، والخطب الكارث ، فالبشرى المقترنة به على الاسف تقضي ، والنفوس توكّل بالادنى وان جلّ ما يمضي ، مع أنه لم يمت مَن مثلك وارث خلاله ، ولم يمض مَن أنت سبيل جلاله .

ولقد أخذنا من التوجع للرزيّة ، والابتهاج بما خوّلتُم من الهبة السنيّة ، ما يأخذ حبيب من مساهمة الاحباب ، ويقاسم فيما يعرض العوارض والاسباب ، اذ المحبة بين الدولتين صحيحة المتون عالية الإسناد ، والمودة (1) بيت الإيالتين مرفوعة الاحاديث عن الآباء والاجداد ، قد تفتح في رياض الدول زهر كِمَامه ، وفاح بين الانام مسك ختامه .

والله يحرس مجدكم ، ويعينكم على ما قلّدكم ، ويعرّفكم من نصره أضعاف ما عوّدكم ، بمنّه وفضله وبأعلاه ختمه الشريف .

***

وفي شعبان من السنة (نوفمبر 1837 م.) شرع الباي في بناء قصره الحافل الانيق المشرف بباردو ، وحث العملة على السرعة في إتمامه [وكان يأتيهم كل يوم] (2) .

وفي رمضان السنة 1253 (ديسمبر 1837 م) قدّم الشيخ الفقيه أبا عبد الله محمد الخضّار مفتيا ، وقد كان قاضيا بالمحلة ، وقدم عوضه الشيخ الفقيه أبا عبد الله محمد ابن سلامة .

وفي السنة وقع بينه وبين قنصل الفرنسيس كلام في نَهْد ، وذلك ان هذه القبيلة من اهل جبل باجة تنقسم الى فخذين ، فخذ من توابع الجزائر وفخذ من توابع تونس وهم نهد ، ومنزلتهم قرب برج القالة ، فظهر لعامل (3) الفرنسيس به ضمّهم والاستيلاء عليهم وعلى أرضهم لتجتمع القبيلة . وشدّد الباي في الوقوف عند حده . [وتكررت المحادثة (4) بينه وبين القنصل] (5) .

وكاتب القنصل طالبا منه إنهاء ذلك لدولته ، فأجابه القنصل بمضمون جواب دولته، وهو ان الدولة الفرنساوية تعطي لتونس أرضا عوض أرض نهد ، بعد تحقيق الحدّ بين

---

(1) كذا فى ع و ق ، وفى خ : « والمحبة » .
(2) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .
(3) ظهر له : ارتأى ، اراد ، خطر له .
(4) كذا فى ق ، وفى ع : « المجادلة » .
(5) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

الجزائر وتونس . ولمّا رآه جواب قوي لضعيف سجّل حقّه وأجاب بما نصه : « اما بعد فانه بلغنا مكتوبكم بالإذن الذي اتاكم من جناب الدولة الفرنساوية في شأن نهد ، وذكرتم ان الجزائر لما استقرّت بيد الفرنسيس رجع لهم جميع ما لها من الحقوق ، الى آخر ما ذكرتم ... تصفّحناه وعلمناه ، والجواب : ان هؤلاء نهدا لم تنلهم رعاية (1) الجزائر سابقا ، ولا وقع من دولة الترك بالجزائر كلام مع تونس في شأنهم ، مع ما كان بينهم من الحروب ، وانما هم في رعاية تونس ، وملوكها يتداولون التصرف فيهم والخلاص (2) منهم خلفا عن سلف ، كما عرفناكم بذلك سابقا . وحدود عمالتنا هي التي نتصرف فيها كما وجدنا ممّن قبلنا ، لم نتجاوزها . واما تجديد التحديد أو إبدال بعض العمالة بجزء من غيرها ، فمعلوم اننا نتوقف فيه على المشورة من جهة الدولة العثمانية .

وان كان لنا التصرف العام في الإيالة بما يقتضيه اجتهادنا من المصلحة . اما التنقيص منها او إبدال بعضها فلا يحسن منّا بغير إعلام مولانا السلطان ، وتقرير ما ينشأ لنا من المضرات بسبب ذلك لجنابه العلي . ولا زائد الا الخير والعافية . وكتب في 8 ذي الحجة (3) الحرام سنة 1253 (الاثنين 5 مارس 1838 م.) .

وفي العشرين (4) من صفر سنة 1254 ، اربع وخمسين ، (الاثنين 14 ماي 1838 م.) قدم مصطفى البلهوان [باش حانبه من اسلامبول] (5) وقدم معه من الاعيان ريالة (6) باي واسمه عثمان في فرقاطة عثمانية . وأتى بنيشان وسيف مرصّع وعشرة مدافع برية بخزائنها(7) وجميع لوازمها ، عدا الخيل . واحتفل الباي لتلقّيه احتفالا لم يُعهد مثله في تونس .

وذلك انه أوقف سائر الفرسان من أوجاق الصبايحية والحوانب وسائر المزارقية وفرسان العروش الذين قدموا للبيعة ، من باب حلق الوادي إلى باب الخضراء ، كل واحد على فرسه [بسلاحه] وثياب زينته . وأركب لتلقّيه وزيرَه ابا النخبة مصطفى آغة ، في اعيان

---

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « ولاية الجزائر » .
(2) الخلاص : استخلاص الجباية .
(3) كذا في خ و ع ، و في ق : « في 8 ذي القعدة » .
(4) اي في 19 صفر (حسب التقويم) .
(5) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .
(6) كذا في خ ، وفي ع و ق : « اريالة » ، ولفظ ريالة في الاصطلاح العسكري العثماني معناه نائب أمير البحر .
(7) الخزائن : صناديق البارود .

من الخواص . ولبس الباي النيشان والسيف يوم الاحد السادس والعشرين (1) من الشهر ، في موكب حافل برجال الدولة والعلماء والداي واعيان العسكر ، على العادة . وبالغ في إكرام الرسول عثمان ريالة باي على قدر مقامه . ثم أدّى الرسول المذكور رسالته في طلب الدولة مقدارا معينا من المال في كل سنة ، وبالغ في تقليل كميته مع تحذير . فأجابه الباي بعدم الامكان لوجوه ، منها ان الذين تعرضوا لك في الطريق لكل واحد منهم مرتب على قدر الانتفاع به ، وقوام المملكة بهم . ومنها ان المملكة في نفسها فقيرة ، لقلة وجود مواد الثروة من الصناعات والتجارات وامثالهما ، حتى انها تحتاج إلى الاستعانة بفضل مولانا السلطان ، لا سيما وقد ترتب فيها العسكر النظامي المقتضي وجوده زيادةَ الإنفاق في مسكنهم وقُوتِهم وملبسهمَ وسلاحهم على مقتضى الترتيب . ومنها ان عربان المملكة ، وهم السواد الاعظم ، يرونها جِزية ، والاسلام يحجبهم عنها ، وتأنف نفوسهم من إخراج مال من بلادهم لغيرها على وجه حتمي ، ويرضون بالهدية وان كانت فوق المطلب بكثير . ولا يمكن غصبهم الا بحرب مجهول العاقبة . والمملكة لا تريد خرق عادة ورثها الخلف عن السلف ، وعلى اساسها بُنيت الطاعة ، وانتظم بها سلك الجماعة ، الى غير ذلك من الاعذار .

ثم رجع الرسول معظما مكرما ، ويوم الوداع أعاد المطلب للباي وقال انه أمر لا بد من وقوعه ، فتغافل عنه وأحاله على الجواب الاول .

وفي الحادي والعشرين من ربيع الاول (الخميس 14 جوان 1838 م.) (2) توفي العلامة القاضي شيخنا [ابو عبد الله محمد] (3) البحري بن عبد الستار ، وتولى خطة القضاء الفقيه الحافظ الشيخ محمد السنوسي الكسافي ، وتولى القضاء بباردو عوضه الشيخ الفقيه ابو عبد الله محمد بن سلامة ، وتولى القضاء بالمحلة الفقيه ابو العباس احمد بن الطاهر.

***

ولم يزل الباي يفكر في أمر مطلب الدولة من المال . ثم جمع رجال دولته وتكلم معهم في هذا الشأن وقال : « لا أكون سببا في خرق عادة المملكة ولو أدّى ذلك الى

(1) هو 25 حسب التقويم .

(2) فى ع و ق اغفل اسم الشهر ، وفى هامش ق ما نصه : « مصروف على تجهيزه فى ربيع الثانى سنة 1254 ريالات 1045 كذا بدفتر الدولة » .

(3) الزيادة عن ع و ق .

زوالي » ، فوافقه جمعهم ، حتى قال بعضهم : « إن غصَبتنا الدولة العلية بقوتها على هذا الامر ، فلنا ان ندافع عن انفسنا وأموالنا بما نستطيع من وجوه المدافعة » .

وأشار عليه الوزير الفاضل ابو النخبة مصطفى صاحب الطابع بأن المكافحة (1) بالعصيان ابتداء لا تحسن ، والأَوْلى ان نقدم معذرة بعدم الإمكان ، وانه تكليف بمستحيل ، وان يكون ذلك بواسطة شيخ العصر وبركة المصر ابي اسحاق الشيخ ابراهيم الرياحي ، فاستصوب الجماعة رأيه .

وبعث الى الشيخ وقصّ عليه الخبر ، فارتمض (2) لذلك وقال : « اني حاضر للسفر متى أمرتني » ، فأحضر له كرويطة ، وعيّن معه للسفر الكاتبَ الفقيه ابا الثناء محمود بوخريص .

وسافر يوم السبت ثامن (3) ربيع الثاني من السنة 1254 (30 جوان 1838 م.) ، وأصحبه بمكاتيب باللغة العربية ، وهو أول من كاتب الدولة العلية باللسان العربي ، متعللا بأنه لا يضع ختمه الا على ما يفهم خصائص تراكيبه ، [بعد ان قرئت المكاتيب على الشيخ بين يديه واستحسنها] (4) ، ونصُّ المكتوب بقلم العبد الفقير :

« اللهم بالثناء عليك ، نتقرب إليك ، يا فاتح ابواب القبول والإقبال ، ومانحَ المِنَح التي لا تمرُّ شواردها على البال ، تنزّهتَ في العظمة والجلال ، ولم تُولِ عبادَك الإهمال ، بمحض الرحمة والافضال ، فأقمت لهم خليفة تُعرض عليه الاحوال ، ويَدفع عنهم باعانتك الاخلال ، ويسوسهم لصلاحهم في الحال والمآل ، صلِّ على سيدنا محمد خاتم الارسال ، والملجأ المنيع عند اشتداد الأَزْمَة والاهوال ، وعلى آله واصحابه الذين وَرِثوه في الاقوال والاعمال ، وسرت مكارمهم مَسْرَى الامثال ، ونستوهب منك عزًّا لا يُبلَغ حدُّه ، ونصرا يمضي في الاعداء حدُّه ، لهذه الدولة العلية ، والسلطنة العثمانية ، والمملكة الخاقانية ، التي رفعت من الملّة الحنيفية أركانا ، وشيّدت من معالمها بنيانا ، وأقامت للحق قِسْطاسا وميزانا ، وروت احاديث العناية الربانية صحاحا حسانا ، ووَرِث ملوكُها الارض وهم الصالحون سلطانا يتبع سلطانا ، حتى استنار الوجود ، بخليفة الوقت

(1) المكافحة : المواجهة ، المجابهة .
(2) ارتمض : اشتد عليه الامر واقلقه .
(3) هو 7 حسب التقويم .
(4) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

الموجود ، وهو مولانا السلطان الاعظم محمود . اللهم أعِنّا على ما أوجبت له من فروض الطاعة ، وتأدية الحق بجهد الاستطاعة ، واحفظنا بعدله ورفقه من الإضاعة ، واجعل الملك فيه وفي عقبه الى قيام الساعة ، وعطِّف قلبه لسماع هذه الضراعة ، من ايالة تونس ومَن بها من الجماعة ، على لسان احمد المقيم على طاعته فيها ، والمجتني من ثمرتها ما يلزمها ويكفيها ، وطاعة خلافتك فرض ، على أهل الارض ، وهي عند الله أنمى فرض ، فاذا لم يُعرَض الحال لديك فعَلَيَ مَن العَرْض ؟

تونس موضع شعائر الإسلام ، غريبةٌ ببُعدها عن استمطار أياديك الجسام ، ومساحةُ معمورِها مسير نحو الستة أيام ، شأن أهلها التمعّش (1) من الزيت والبُرِّ ، والصوف والوَبَر ، يعانون في تحصيلها ألَمَ الحرِّ والقَرِّ ، هذا غالب ما يَسُدُّ لهم الخَلّة ، ويوجد غيرُها لكن على قلّة ، ومقدار زكاة ذلك لا محالة ، بحسب اتّساع العمالة ، فما يَفضُل من خِصبْها فهو للقَحْط عُدّة ، وبذلك دام عمرانها لهذه المُدّة ، لا فضل من ذلك لِيتَرَف ، ولو في سبيل شرف . هذا معظم دخل القُطر ، ان جاد السحاب بالقَطر ، ويلزمه ضرورةً لحفظ عمرانه ، وحماية أوطانه ، وتأمين سكّانه ، وإصلاح مراسيه وبلدانه ، حُماة وأجناد ، في كل جهة وبلاد ، لتأمين الجبال والوهاد ، وردع أهل الفساد . ويلزم العساكر الكسوة والإطعام ، والمرتّب على الدوام ، ولا بدّ لهذا العَدَد ، من آلات وعُدَد ، وقِوَام هذا بالمال ، وهو السبب في عرض الحال ، فان الدخل على قدر الإنفاق ، وذلك بشهادة الله غاية ما يطاق ، واذا كلّفنا الرعيّة المشاقّ ، ونزعنا الرفق والإشفاق ، كان ذلك ذريعة للنفاق (2) ، وسُلّما للشقاق ، وربّما هرعوا للدولة شيوخا وولْدانا ، وكهولا وشبّانا ، يسوقهم العجز ويقودهم الامل ، الى من في طاعته النيات منّا والعمل ، فالسلطان ظل الله في أرضه يأوي اليه كل مظلوم ، وهذا من الواضح المعلوم ، وعبدكم حسبه تأمين البلاد ، وحفظها من طوارق الفساد ، بمن معه من الحماة والاجناد ، سَهَرُنا لإنامة أجفانها ، وتَعَبُنا لإراحة شيوخها وولدانها ، واقتحامُنا المخاوفَ لامانها . وما تنتجه غلاّتها ، تُسَدُّ به خَلاّتها ، وعلى هذه السِّيرة وُلاتُها ، لا يقتنون لانفسهم مالا ، ولو بسطوا لذلك آمالا ، إلاّ ما يقتضيه الحال من العادات المألوفة ، والمراسم المعروفة ، يصدُّهم عن ذلك عدمُ اليَسار ، لا زهد الابرار ، والله المطلّع على الاسرار .

(1) تمعش : عاش ، من المعاش او المعيشة .

(2) النفاق : العصيان ، التمرد ، الثورة .

وبما بسطنا من الكلام ، في حال هؤلاء الإسلام (1) ، يظهر للقائم بمصالح الانام ، أن لا قدرة لهذه الإيالة على أداء المال في كل عام .

هذه ضَرَاعة رعيّتك ، المستمسكين بطاعتك ، المستجيرين بحمايتك ، المرتّجين لعنايتك وإعانتك ، قمتُ بتبليغها بين يدي سلطنتك الخاقانية ، وهمّتك العثمانية ، وتبليغُها من الواجب في حقّي ، وهو ثمرة طاعتي وصدقي .

والمأمول من تلك الهمّة ، النظر لهذا القُطر بعين الرحمة ، وهذا المال في خزائن الدولة لا يزيد ، وثقله على هذا القطر شديد .

فارحم أيها المولى ضراعتنا ، ولا تفرّق بما لا نطيق جماعتنا ، فالامر جلل ، وما قررناه بعضٌ من الاسباب والعلل ، وقد فكّرنا وأعيتنا الحيل ، فلم نجد إجابة المطلب الا بتنقيص (2) عمل ، يفضي الى نقص وخلل ، او تثقيل يقطع من الرعية الامل ، ويضعف بسبب ذلك هذا العمران ، وتشتد الحاجة الى الاستمداد من كرم مولانا السلطان ، والله يجيرنا من حوادث الازمان . هذه وسيلة مَن بعدت داره ، ولم يكن بيده اختياره ، على لسان مملكة تونس ، مع قدوتها المونس ، صالح مصرها ، وإمام عصرها (3) ، شيخ الجماعة ومفتيها ، الذي دانت له البلاد ببنيها ، ونالت به الملّة أقصى أمانيها ، الساري ذكر تآليفه في النواحي ، السيد ابراهيم الرياحي ، وجّهتْه حالتُنا وانتظرتْ ، ومن سحائب رحمتك استمطرت .

اللهم أنت أعلم بنا منّا ، فلا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنّا ، وارزقنا الرحمة من سلطاننا ، وألهمْه لإعانة أوطاننا ، انك على كل شيء قدير .

وكُتِب أواخرَ اشرف الربيعين ، سنة 1254 » .

وكتب أيضا في هذا الغرض الى شيخ الاسلام ، ونص المكتوب من إنشاء العبد الفقير :

« أدام الله وجود شيخ الاسلام ، هدًى للانام ، ولا أطيل بالثناء عليه ، فالذي ملا الكون يكفيه . اما بعد تقديم التحيّة ، المناسبة لتلك الرتبة العلية ، فان العلماء ورثة

---

(1) الاسلام : المسلمون .

(2) في خ : « بتنقيص » ، وفي ع و ق : « بترك »

(3) كذا في خ و ق ، وفي ع : « مصرنا ... عصرنا » .

الانبيا ، وهم الملجأ لاهل الدنيا ، يرحمون بشفاعتهم يوم العرض ، أحْرَى في هذه الارض . وهذا قطر تونس موضع الرِّباط والجهاد ، ومقرُّ العساكر والاجناد ، مساحة أرضه قصيرة ، وأعين من ناوأه بصيرة ، وعمرانه بالفلاَحة ، على ضيق الساحة ، هذا معظم عُمْرانه ، في غالب أوطانه ، وما يحصل من ذلك بيد وَاليه لا يقوم بالمراد ، لولا الاقتصاد ، والوقوف بالمرْصاد ، والله يعلم ان ذلك جُهْد سكّانه ، ولو زدنا شيئا يَنْقُص بمقداره من عُمْرانه . وقد وقع من الدولة العلية أدام الله علينا ظلّها ، وبسط فضلها ، طَلَبُ قَدْر معيّن من المال في كلّ سَنة ، فارتاع أهلها لسماع ذلك وطارت من أعينهم السِّنة ، اذ هو تكليف بما لا يُطاق ، وذريعة لتفرُّقهم في الآفاق ، يخرجون من أوطانهم ، ابتغاءَ معيشة أهلهم وولْدانهم . أما إذا أصرُّوا على الامتناع ، ومَدُّوا يَدَ الدفاع ، وقالوا : مَن أراد أن يطاع فيأمر بما يُستَطاع ، فقد ذاع السرُّ وانكشف القناع ، وربّما يجدون من الشريعة تأويلا يعتمدونه ، وللمال من الحُرْمة ما يقتضي أن ربّه يموت دُونَه ، وان دفعنا هذا القدر مما يؤخذ منهم في كلّ عام ، فهو المؤذن لهذه الإيالة بالانصرام ، اذ الحُماة والكُفاة ، لا بدّ لهم من الاقوات والمرتّبات ، والسلاح والآلات ، وغير ذلك من الضروريات . وقد ذكرنا الحال لمقامكم العلمي على سبيل الإجمال ، والرسول يوضحه بالمقال ، وهو الشيخ العَلَم ، ورُكْن المالكية المُستَلَم ، رأس الفتوى ، وركن العلم الاقوى ، صالح عصرنا ، وإمام مصرنا ، السيد ابراهيم الرياحي . وجّهناه الى الدولة العلية بعرض حالنا ، وتقرير أعمالنا ، ورجونا بلوغَ آمالنا ، والدولة العليّة ترحم الضراعة ، وتَرِقّ لهذه الجماعة . وأنت عَلَم الهُدى ، وركن الاقتدا ، وعلى يد العلماء تطلب الرحمة ، وتدفع بعلومهم الخطوب المدلهمّة ، والدين النصيحة لله ورسوله وأيمّة المسلمين وعامتهم . وجنابكم من أهل الذّكْر ، وهذه نعمة يجب لها الشكر .

وقد وجّهنا الرسولَ إلى بابكم ، وطلبنا الإعانةَ بالحق من جنابكم ، والله يجعل مساعيكم ناجحة ، ويرينا نتيجة مقدمات أعمالكم الصالحة ، ويبقيكم للدين عُدّة ، ويفسح لكم في المُدّة ، ويرحم بأقوالكم الشرعية هذه الإيالة ، بحرمة مَن خُتِمت به الرسالة . حُرِّر في أواخر أشرف الربيعين ، سنة 1254 » .

فأنت ترى هذا الباي كيف قرر حال البلاد ، وكانت يومئذ كما قال ، وإن غفل عن تقريره لِمَا حمّلها من مصاريف العسكر ما أوهن قواها ، كما تراه ان شاء الله في بقية اخباره . ومن كرمت عليه نفسه هانت عليه شهوته .

ولما وصل الشيخ الى اسلامبول أحسنت الدولة قِراه واكرمت مثواه ، على عادتها في اكرام الضيف لا سيما اذا كان من أهل العلم . وقابل السلطانَ ، ولما رآه قرأ فاتحة الكتاب وتلا قوله تعالى : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ » الآية (1) وأنشد قصيدته المشهورة :

العزُّ بالله للسلطان محمودِ ... ابنِ السلاطين محمودٍ فمحمودِ
خليفةِ الله ما أعلاه من شبه ... بالصالحين وبالنبي داوود
من آل عثمان سادات الملوك ومَن ... جاؤوا كعقد من الياقوت منضودِ
هم السلاطينُ ما ذرَّت ولا غربت ... شمس على مثلهم في نصر توحيد
وجاء سلطاننا المحمودُ بَعْدَهُمُ ... بكل رأي من الآراء مسعود
لم يُعطه الله مُلْكا في خليقته ... الا لمعنًى من الأَغْيَار مفقود
دانت لدولته الاعناق خاضعة ... من كل ذي والد منهم ومولود
تخشى السلاطين مِن بُعْد بَوَادِرَه ... لما له من جلال غيرِ مجحود
وكلُّ باشا وإن جلّت مكانته ... فليس غيرَ فتى في الرقّ مصفود
يا عزَّ دين الهدى ان يخش مَنْقَصَة ... بكلّ قَرْم من الإسلام صِنْديد
وقوة من لدن ربّ العلا بهرت ... برا وبحرا بنظم غير معهود
العُجْم تَشْهَدُها والعُرْب تعلمها ... شرقا وغربا من البِيضَان والسُّود
أنت المؤمَّل في كلّ المهمّ فمن ... أتى لبابك قصدا غيرُ مطرود
وقد أتيتك من أقصى البلاد وفي ... ظنّي الجميلِ بلوغي منك مقصودي
دامت معاليك للاسلام مَرْحَمَة ... وللطُّغاة عذابا غيرَ مردود
بحرمة المصطفى أهدى الإله له ... أزكى تحيته من غير تحديد
تعمُّ أتباعه في الدين قاطبة ... والخلفاءَ إلى السلطان محمود

ولما اجتمع بالوزير الصدر الاعظم رشيد باشا انشده :

الصدرُ الأَعْظم مَقْصِد المتوسّل ... وهو المؤمَّل في القضاء المُنزَل
ولذاك من أقصى البلاد أتيتُه ... لأَفوز منه بِبُرْء داءٍ مُعْضِل

(1) س 38/آ 26 .

يا ملجأ الصلحاء والعلماء والوُزَرا ومن في الناس ذو قدر عَلِي

فبما حباك الله من خُلُق سَرَى | كالراح في الارواح لا في المَفْصِل
وحباك من خَلْق كأن الشمس في | شرف تُرَى في وجهك المتهلّل
إشفَع لنا فيما دَهَى ترْشيش من | إلزامها غُرمَ الخراج المثقل
الفقر يمنعها وما تخشاه من | شرّ الحوادث في الزمان المقبل
أرجو لك البشرى بنيل شفاعة | تأتيك من عند الرسول الافضل
دامت علاك لمن أحبّك جنّة | بنعيمها قلب الحواسد يصطلي

ومدح السلطان ايضا بقصيدة طويلة مطلعها :

رَكِبتُ مُتون اللُجّ وهي لها وَجْفُ | وارواحها بالسابحات لها عصف
ولي منه أهوالٌ يَوَدُّ رَهينُها ، | وقدخشيَ الإغلاقَ (1)، لوجاءه الحَتْف
ولكنني ما زلتُ أمْزُجُ مُرَّها | بِحُلو رَجاءٍ طاب منه ليَ الرَّشْف

ومنها :

نعم يا أمير المؤمنين وكَهْفَهم | اذا مسّهم ضُرٌّ فمنك له كشف
أتيتك ضيفا مستغيثا وشأنكم | إغاثة لَهْفان وأن يُكرَم الضيف
توالى علينا الضعف من كل جانب | وما زال ذاك الضعف يتبعه ضعف
فجئناك نبغي العفو واللطف والرضى | وهل مِن سواك العفو يُطلَب واللطف
فعيشة مَن ترضى عليه هنيئة | وكيف لِعَيْش دون عفوك أن يصفو
رضاك رضى المولى لانك ظلّه | وللظلّ مِن أوصاف صاحبه وصف
أدام لنا المولى إضاءةَ شمسه | وليس لها يوما غروب ولا كسف

وقال الشيخ يمدح القسطنطينية :

بلد الخلافة في الجمال فريدة | ولشأنه عَرْض مداه بعيد
مَن ظنّ يُحسِن وصفه فكأنما | نحو الصعود الى السماء يريد

---

(1) غلق الرهن (على وزن حسب) في يد المرتهن : استحقه المرتهن ، وذلك اذا لم يفتك في الوقت المشروط (اللسان) .

وامتزج الشيخ بعالم المشرق وفخر الايمة ابي العباس احمد عارف باي ، ووقعت بينهما مراسلات بالشعر والنثر ، وعرف كلٌّ منهما ما لصاحبه ، فاستجاز الشيخَ وأجازه نظما منه :

واذا سمعتَ علومَه فاسمع الى — تلك البحور طمت فهل من غارف
قسما بما يحويه من حسب ومن — نسب وفضل لاحق أو سالف
لو أبصر النعمان بهجة سَمْتِه — لاهتزَّ عِطفا كاهتزاز العاطف
هذا ومن عجب رأيت سؤاله — مني إجازتَه كشيخ عارف
كلاّ واني والذي رفع العلا — أحرى بأن أرْوِي عليه صحائفي
لكنّني لا استطيع خلافَه — وعليه فيما شاء لست بحائف
فأقول إني قد أجزت له الذي — قد صحَّ لي من تالد أو طارف
موصًّى لابراهيم منه بدعوة — يرجو الرياحي بها أمانَ الخائف

ورجع الشيخ اواسط رجب من السنة 1254 (اوائل اكتوبر 1838 م.) ، بالغا من سفارته شيئا (1) من الامل ، وهو ان الدولة لا تلحُّ في الطلب ، ويتوقّف الحال لوقت آخر ، واذا افضى هذا المال لضرر فلا حاجة به .

وفي ليلة الثلاثاء الخامس عشر (2) من رمضان السَّنة (3 ديسمبر 1838 م.) ، توفي الوزير الشهير الطيّب الذكر ابوالربيع سليمان كاهية ، ودفن بموكب عظيم في صحن التربة الحسينية .

***

واقبل الباي ، بعد قدوم ريالة باي ، في جمع العسكر وترتيبه وتدريبه ، وصرّف كل عنايته لذلك ، حتى جمع جموعا لم تنتظم لغيره من ملوك تونس ، وإن أجحفت بدخل المملكة وخرجها [وهي فقيرة كما شهد بذلك في مكاتيبه للدولة المتقدم ذكرها ، وكما شهد عالمها ومفتيها وإمامها ، وصالحها في شعره المتقدم ذكره] ، حتى لزمه إحداث ضرائب ومكوس تغافل فيها عن الملتزمين . وهذا أثّر نقصانا كثيرا في ثروة

(1) ق ق و ع : « غالب الامل » .
(2) يوم الاثنين 16 حسب التقويم .

المملكة وعمرانها [الناقص] (1) ، مع غَلَث (2) السكّة المتقدم ذكره في ايام عمّه أبي عبد الله حسين باي رحمه الله .

ولم يزل حريصا على إتْمام قصره البديع بباردو ، وتمّ في أسرع وقت . وسكنه يوم الاحد الرابع عشر (3) من شوال السنة 1254 (30 ديسمبر 1838 م.) . واقترح ان يكون اولَ داخل له هو الفاضل الفقيه ابو عبد الله محمد بن عبد الكبير الشريف إمام الجامع الاعظم ، تيمنا بنسبته العلوية ، لما له من التشيّع الحبّي في آل البيت . ثم دخله اهل المجلس الشرعي ، ثم دخل الباي إثْرهم وعظّم مَقْدَمَهم وأحسن مؤانستهم ، وخرجوا داعين مسرورين .

وجعل الباي في هذا القصر قشلة داخلَه عمّرها بألف من العسكر النظامي لحراسته الخاصّة ، على التناوب من سائر العسكر ، وداخَلَهم مداخلة التحام للعصبة .

⁂

وفي أيامه تقوّى المتجر [في الزيت] بالساحل ، وأكثره للواردين على المملكة من التجار ، فكثرت لديه الشكايات [من أهل الساحل] وأضجره ذلك وأهمّه . وسبب ذلك حيف العُمّال ، لانهم يريدون انتزاع ما بأيدي الرعايا لاسباب تنوعوا في اختراعها ، وهم مدينون لغرمائهم من الواردين على المملكة ، بل كثيرهم مستغرق الذمّة لهم . وانفتح من يومئذ بابُ الاحتماء . واذا جاز للمسلم ان يقاتل الصائلَ على ماله ، مع ما في الشريعة من حرمة النفس ، فالاحتماء بالواردين من باب أحرى ، وان كانوا من غير اهل الملّة . فلزمه ، والحالة هذه ، انتخابُ ثقة أمين . فاختار لولاية سوسة الحازم الكيّس الذكيّ (4) أبا عبد الله محمد خزنه دار ، وقال : « حاجتي إليه بين يديّ قوية ، وأقوى منها كفاية هذا المهمّ مع الواردين » ، فزان خطته [وعمل فيها بالعقل لا بالشهوة] (5)

---

(1) ما بين القوسين فى هذه الفقرة ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

(2) فى ع و ق : « بغلث » .

(3) هو 13 حسب التقويم .

(4) فى خ : « الذكى » وفى ع و ق : « الكامل » .

(5) ما بين القوسين فى هذه الفقرة ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

وبطلت الشكايات حتى كان يقول : « مالي لم أسمع ذكر سوسة ؟ » ، وسار في الرعية سيرة عدل ، وآثر الحق ، ودانت الاجانب لاحكامه عليهم ، حتى كان البـاي يسمّيه في مغيبه « قاضي سوسة » .

وفي السنة 1254 ، أمره بجمع المجلس الشرعي عنده يوما في الاسبوع ، على عادتها السابقة.

⁂

وفي السنة 1254 ، أبطل الترتيب المعتاد للملوك الحضرة ليلة العيد ، وقد كانوا يحتفلون ببيت الباشا من باردو ، وتقف الاعيان [والمخازنية] سماطين ، ويدخل المغنّون من الترك بآلات طربهم ، ويجلسون أمامه ، ويغنّون برطانة الترك برهة ، تودّدا للجند ، وبعدهم يدخل المغنون بالعربية بآلات الموسيقى برهة من الزمن ايضا ، والشموع تنوّر ودخان الطيب يعطّر الارجاء ، وقد ذكر هذا الترتيبَ الوزيرُ ابو محمد حمّودة بن عبد العزيز في تاريخه [عند ذكر ما لمخدومه من التراتيب] (1) ، فأنف ، لسمو همّته ، من ملك يجمع رجال دولته لسماع الغناء على رؤوس الاشهاد ، في ليلة موسم شرعي ، وإمامه في الصلاة حذوه ، فأبدل ذلك بما هو المناسب ، وهو أنه لما يجتمع الديوان ، يأتي الامام بجامع الصرايا ، والخطيب بجامع باردو ، والخوجات ، فيجلسون ، ويقرأ باش خوجه ربع حزب من القرآن ، كقوله تعالى : « شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن » ، اذا كان عيد فطر ، وكقوله تعالى : « وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالا » ، اذا كان عيد اضحى . ثم يقرأ الإمام أحاديث من صحيح البخاري في فضل الصوم او فضل الحج . ثم يختم المجلس بدعاء أمرني بانشائه ، وهو :

« يا حيُّ يا قيوم ، يا مَن لا تأخذه سنة ولا نوم ، علّقت على كرمك جزاءَ الصوم ، ولا يشغلك شأن يوم عن يوم . نسألك بتقدس ذاتك ، وتنزيه صفاتك ، وباهر آياتك ، وعلمك المحيط بسائر مخلوقاتك ، أن تصلي وتسلّم على مركز دائرة الاكوان ، وتاج هامَة أولي العزم والشأن ، سيدنا ومولانا محمد الذي أيّدته بمعجزة القرآن في رمضان ، وعلى آله وأصحابه السادة الاعيان ، الباذلين في محبتك (2) الارواح والابدان . اللهم بباب

(1) ما بين القوسين في هذه الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .
(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : « في محبته » .

كرملك أنخنا رحالنا ، وبواسع فضلك علّقنا آمالنا ، متوسّلين برسولك الكريم ، القائل : توسّلوا بجاهي فان جاهي عند الله عظيم ، ان تملا قلوبنا إيمانا ، وخشية وعرفانا ، وارزقنا منك المغفرة والرضى ، واللطف في القدر والقضا .

اللهم امدُدْ هذه الدولة ، بالدوام والصولة ، ببقاء ناشر فخرها ، ورافع قدرها ، ومخلّد ذكرها ، وكُفُئها المَلِيّ بِمَهْرِها ، ملكنا وسيدنا أحمد ، لا زالت مآثره في السماء والارض تُحمَد .

اللهم ارزقه النصر والاسعاد ، وأعنه على القيام بمصالح العباد ، وعمران البلاد ، والاستعداد لسدّ ابواب الفتن والفساد ، وحكّم سيفه في أهل البغي والعناد ، وبلّغه من الخير غاية المراد ، حتى يكون أحمدَ حامدٍ وأحمدَ محمود ، ما دام هذا الوجود .

اللهم أعنّا على ما أوجبت له من فروض الطاعة ، واجعل الملك فيه وفي عَقِبه إلى قيام الساعة ، يا مَن يجيب الدعاء ويقبل الضراعة .

اللهم احفظ من الزيغ اعتقادنا ، واحرس بحفظك بلادنا ، وأصلح أهلنا وأولادنا ، وانصر حماتنا وأجنادنا ، ووفّر في الإيمان أعدادنا ، واحفظ جموعنا وآحادنا ، واكفنا حسّادنا وأضدادنا ، وزيّن بطاعتك مواسمنا وأعيادنا .

اللهم لا تجعل في جمعنا هذا شقيّا ولا محروما ، ولا مذموما ولا ملوما .

اللهم أصلح المؤمنين ، وبلّغ الحجاج والمسافرين ، ونفّس كرب المكروبين ، واختم لنا ولجميع المسلمين ، بما ختمت به لاوليائك المتّقين . سبحان ربك ربّ العزة عمّا يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين » . وعند تمام الدعاء تُقرَأ فاتحة الكتاب وينفضّ الموكب .

واستمرّ هذا الترتيب بهذه السُّنّة الحسنة إلى يومنا هذا .

*

وفي الثالث والعشرين من محرم ، فاتح شهور سنة 1255 ، خمس وخمسين ومائتين والف (الاثنين 8 افريل 1839 م.) ، بعث الباي وزيره وابن تربيته أبا النخبة مصطفى خزنه دار ، ومعه المقرب جوزاب راف ، وفرحات قرجي وكان يومئذ قائمقام بعسكر الخيّالة ،

والكاتب أبا محمد حمودة الطرابلسي ، إلى السلطنة الفرنساوية ، وصاحبها يومئذ السلطان لويز فليب ، لمخالفة وقعت مع القنصل بتونس في نوازل . وكتب الباي لوزيره مكتوب تفويض صريح بالتزامه جميع ما يفعله الوزير ، وكان اذ ذاك في عنفوان شبابه . وعارضه الوزير ابو النخبة مصطفى صاحب الطابع ، والوزير ابو عبد الله محمد الاصرم رئيس الكتاب ، بأنّ حالة الشباب لا تقتضي مثل هذا التفويض المطلق ، وأجابهما الباى بأن الفطرة السليمة تسطو على غليان الشباب .

ووصل الى فرانسا فقابلته السلطنة بما يناسب فخامتها .

وفي مغيبه مرض الباي بالحمّى واشتد مرضه وخيف عليه ، وهو مع ذلك يخرج كل يوم من فراشه [الى بيت الباشا] (1) بتكلف للقاء الناس ، والوزير مصطفى صاحب الطابع يباشر الامور عن إذنه .

ولما عوفي أتاه وفد التهنئة من الحاضرة ، ولما دخلوا عليه مستبشرين حامدين شاكرين ، حيّاهم وأحسن لقياهم وقال لهم : « وأنا أشكر الله الذي أحياني لخدمتكم » ، فاستعظموا هذا المقال ، اذ لم يكن مألوفا من ملوك الإطلاق لرعاياهم ، لان غالب رعايا المسلمين يومئذ لا يعرفون من ملوكهم الا الاستعباد .

ولما دخل قصره أعَدتُ عليه مقالته وذكرت له ان الناس استعظموها ، وشمّ مني رائحة الإنكار فقال لي : « هل انا الا وكيل عنهم في مصلحتهم ؟ والوكيل في الحقيقة خديم الموكِّل ، وما يمنعني أن أقولها ويراها الناس فضلاً ؟ » ، وقد لاح له من طبع الزمان ما سهّل عليه مقالتها .

ثم رجع الوزير من فرانسا ، بعد أن سرّح نظره في حواضر أروبا ، فوجد الباي بحلق الوادي إثر إبلاله من المرض ، وتمّ برؤه برؤية وزيره ومقام ابنه ، مع قضاء بعض الوطر .

وبعد أيام أتى الوزير بمكتوب التفويض للباي بمحضر الجماعة وطلب منه أن يمزّقه ، ففعل .

---

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

وفي هذه السنة ، 1255 (1839/40 م.) ، جعل الباي عسكر الخيّالة ، وهو في غُنْيَة عنه ، وأسكنهم البرج الكبير بمنّوبة ، وقال : « لأَنْ يكون رباطَ عسكر أحسنُ من بقائه قصر نزهة ، وهو يسع العسكر وضبّاطهم وخيولهم » .

وصورة جمعه لهذا العسكر أنه أذِن بتسريط (1) الفرسان على العادة ، وقعد المقعد الخاص لذلك ، فانتخب حال مرورهم عليه جمعا من حوانب الترك ومماليك السقيفة وصبايحية الترك ، ولم يأخذ أحدا من حوانب العرب ولا من الصبايحية ، لانهم جند مستقلٌ من الفرسان ، بل هم فرسان المملكة على الحقيقة ، يكابدون الاسفار ، ويقتحمون المخاوف والاوعار . ورَسَمَ جميع من انتخبه في ديوان الخيّالة ، على الترتيب النظامي ، وأمّر عليهم مملوكَه ابا العباس أحمد ، أخا وزيره أبي النخبة مصطفى خزنه دار ، وكان فارسا مقداما . ووجّه لهم شطر عنايته ، ويركب لتفقد قشلتهم غالب الايّام . وأبطل ديوان صبايحية الترك من يومئذ . وزاد في هذه القشلة أبنيّةَ بعد ذلك ، على يد أبي محمد خير الدين لمّا صار أمير لواء .

وفي ذي الحجة من السنة 1255 (فيفري 1840 م.) ، تمّت قشلة الطبجية بالمحل المعروف بالقنديل من الفدّان خارجَ الحاضرة [وهي من الامور المحتاج اليها اذ غالب الدفاع بالمدافع في هذا العصر] (2) ، وجاءت كأحسن ما أنت راءٍ ، ودخلها العسكر يوم الجمعة ثالث الشهر (7 فيفري) .

وأصلها قصر نزهة لعمٍّ أبيه ابي الفداء اسماعيل باي ، فزاد فيها الى ان صيّرها تَسَعُ آلا يَيْن (3) من الطبجية بمدافعهم وخزائنهم وخيولهم . وجعل بها دار صناعة لإنشاء السلاح وضروريات المدافع ، وأحكم بها خزنة للمهمّات ولوازم الحرب . وجميع عسكرها من الطبجية السابقين والقادرين على الخدمة النظامية من جند الترك وغيرهم . وأمّر على الطبجية ابا اسحاق ابراهيم التركي ، من كبراء عسكر الساحل ، وكان يثق به ويستخلصه ويستنجبه ، وصدقت فراستُه فيه . ووجّه العناية لهذه القشلة ولم ينس غيرها . ولم يزل حسن ترتيب الطبجية يزداد إلى ان بلغ به المراد .

---

(1) التسريط : مرور الجند امام القائد ، عرض الجيش (بوسيه) .
(2) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .
(3) كذا في خ ، وفي ع و ق : « تسع اربعة آلاف » .

وفي هذه السنة 1255 ، أحدث الباي لزمة الصابون الطريّ بحيث [لا تصنعه و] (1) لا تبيعه الا الدولة ، وبنى لذلك مصنعا . ورتّب على الصابون اليابس الذي يخرج من المملكة أداءً على القنطار ، يسمّى « القنطرية » ، يدفعه صانعه ، واذا خرج يؤدّي مشتريه السراح .

وأحدث أيضا لزمة الصاع ، وهو ان بائع الزيت بغير الحاضرة يؤدي صاعا على كل مطر (2) ، اما بيعه بالحاضرة فله قانون مخصوص في فندق الزيت ، لا يقبل الزيادة .

وزاد أيضا في سعر الملح ، الذي لا تبيعه إلا الدولة ، زيادةً بالغة .

ورتّب المحصولات في بلدان الإيالة مثل المرتّب بباب البحر [من الحاضرة ، والتزم ذلك ناس] وحَجَّرَ بيعَ الدخان [بالحاضرة وبلدانها واسواق عربانها] (3) بحيث لا تبيعه الـ لدولة ولا يشتريه غيرها من أهل زراعته ، وسعّر أنواعه في الشراء من الفلاّحة كما سعّر بيعه .

وأول من التزمه [في المملكة] ابو عبد الله محمد بن عَيّاد وربح فيه [ربحا ذريعا] وأهدى من الربح مركبا بخاريا للدولة ، وهو اول فابور ملكته الدولة ، وسمّاه الباي « ابن زياد » . وانكسر في شعبان من سنة 1257 ، سبع وخمسين ومائتين وألف (سبتمبر — اكتوبر 1841 م.) على ساحل المعمورة [من بلدان الوطن القبلي] (4) عند رجوعه من مالطة ، بعد ان قاسى من عُباب البحر أهوالاً .

واضطره مصرف العسكر الى هذه الضرائب [المنوعة] التي أثرت نقصا على نقص من عمران المملكة ، [وان كان لا يخلو المرء من عدوٍّ يقدح وودود يمدح] (5) .

⁂

وفي السنة 1255 بلغ للحضرة وفاة السلطان محمود خان في التاسع عشر من ربيع الثاني (الثلاثاء 2 جويلية 1839 م.) ، وولاية ابنه السلطان عبد المجيد خان [صاحب

---

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) مطر : مكيال للزيت يتراوح بين 18 و 28 كيلو ، ويختلف باختلاف الجهات (بوسيه) .

(3) الزيادة عن ق و ع فى كامل الفقرة .

(4) الزيادة عن ق و ع فى كامل الفقرة .

(5) الزيادة عن ق و ع فى كامل الفقرة .

التنظيمات الخيرية ، فكتب الباي أوامره لبلدان المملكة يعلمهم بذلك لتدعو الخطباء على المنابر للسلطان عبد المجيد] (1) ، وعيّن مركبا حربيا لتعزية السلطان وتهنئته ، وكاتبه بقلم العبد الفقير بما نصّه :

« لك الحمد ونحن على المصيبة صابرون ، انا لله وانا اليه راجعون ، نحمدك وأنت المبدىء المعيد ، مقلّد الامانة من جيد الى جيد ، ومعرّف عوارف اليمن الجديد ، بخليفتك عبد المجيد ، ومظهر العناية بالاسلام للقريب والبعيد ، ربطت عوائد النصر والتأييد ، بمبادىء التوفيق والتسديد ، لاولي المزية التي اقتضتها ارادة المريد ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ناظم الخلال السنية نَظْمَ الفريد ، والملجأ الاعظم في الخطب الشديد ، مظهر أنوار التوحيد ، والهادي الى صراط العزيز الحميد ، وعلى آله وأصحابه أولي القصد السديد ، السادة القادة الصِّيد ، القائمين في أمّته بحفظ ما أنزل عليه من الوعد والوعيد ، والرضى عن الخلفاء أولي الظل المديد ، من الخليفة أبي بكر الى السلطان عبد المجيد .

هذا وانه ورد الى الإيالة التونسية ، من الابواب العلية ، التي تعنو لعزة قدرها الابواب ، وتعزى الى عدلها الحكمة والصواب ، لا زالت محلّ صدور المآثر العظام ، مأمونة من اختلال النظام ، إعلامٌ بخطب روّع السِّرْب ، وكدّر الشِّرْب ، وهو انتقال مولانا السلطان محمود الى دار البقاء ، وإقباله على معارج الارتقاء ، ألحقه الله بالخلفاء الراشدين ، وجعله مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصِدِّيقين والشهداء والصالحين . فيالَه من إعلام ، اهتزت له رواسخ الاعلام ، أشرق المحاجرَ بماء دموعها ، وأضرم الجوانح بنار وَلُوعها ، نَعَى الى المجد إنسانَ عينه وعينَ إنسانه ، وإلى الاسلام سلطانَ محموده ومحمودِ سلطانه ، شأن الدنيا أن لا تَفْتُر عن سهمٍ تسدِّده لغرض ، وجوهر ترميه بعرض . ولو كان داعي الرَّدَى ، مما يقبل الفِدا ، كانت نفوسنا بعض فدائه ، والمبادرة تَسْبِق أوّلَ ندائه ، لكنّه حكم لا يعترض فصله ، ولا يُؤَوَّل مستنده ولا أصله ، لم يغن فيه الدفاع ، ولم ينفع فيه غير الاسترجاع ، بالرضى تلقّيناه ، وبالصبر قبلناه ، والدنيا ليست بدار قرار ، وما عند الله خير للأبرار ، فرزيّة المسلمين به واحدة ، وظواهرهم على بواطنهم شاهدة .

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

غير ان هذا الإعلام الذي فجع ، ومنع القلوب أن تقرّ والعيون أن تهجع ، غمرتـه البشرى ، وغلبته المسرّة الكـبرى ، وهـي ان المجيد سبحانه قلّد السلطنة لعبده ، والسلطان محمود خلفه ابنه وولي عهده ، فأصبح الاسلام بعزٍّ وتأييد ، وأمل جديد . هذه نعمة أبدلت العزاء بالهناء ، وفتحت ابواب المُنَى ، وأي تَـرَح ، يبقى بعد هذا الفرح ؟ قـام بالامر مَن اختاره الله لحمله ، وبقي النور الساطع في محله ، ولم ينتقل سرُّ الله من أهله ، إذ الآمال ببقاء آل عثمان منوطة ، وسعادة الاسلام بسلطنتهم مشروطة ، وفي هذا الموجود ، ما يزيد بفضل الله على المفقود ، ولذلك اهتزَّت بولايته الارض وربَتْ ، وبشكر الله أعربت .

وهذه المملـكـة التونسية ، منبت طاعة السلطنة العثمانية ، أخذت من العزاء والهنـاء النصيب الاوفر ، والحظ الاكـبر ، على عادة طاعتها ، ومنتهى طاقة جماعتها ، واهتزّت منابرها بشكـر الله الحميد ، على إقبال دولة السلطان عبد المجيد ، قام بتبليـغ ذلك للباب العالي ، ومصدر المعالي ، عَبْدُ الدولة والمتقرب الى الله بطاعتها ، وخادمها في مصالح تونس وحفظ جماعتها ، أحمد باشا باي .

والباب العالي زاده الله علوًّا ، وإجلالاً وسموًّا ، يقبل بضاعتنا على قدر مقامها ، اذ لا نقدر على أداء ما يجب للدولة من إعظامها ، واذا عظم المَقام الـكـبير ، وتسامى عـن التقدير ، تساوى فيه الجمُّ واليسير ، والتافه والخطير .

فحسبنا الدعاء بالنصر وطول الدوام ، وهو في الحقيقة لسائر الاسلام .

اللهم أعنّا على ما أوجبت لسلطاننا من فروض الطاعة ، واحفظنا بعدله من أسباب الإضاعة ، وأدِم السلطنةَ في سلسلتـه (1) الى قيـام الساعـة ، واحرس بشوكـتـه السُّـنّة والجماعة ، بحرمة سيد الاتقياء ، وخاتم الانبياء ، عليه أفضل الصلاة وأزكـى السلام ، في البـدء والختـام .

حرر في تونس سادس جمادى الثانية من سنة 1255 ، خمس وخمسين ومائتين وألف (السبت 17 اوت 1839 م.) .

وأتى من السلطنة الجواب الحسن ، بتقرير العادة على أحسن سَنَن .

(1) كذا في خ و ع ، وفي ق : « في عقبـه » .

وليلة الاربعاء الحادي والعشرين (1) من أولى الجمادين من السنة 1255 ، توفي اكبر الايمة بالجامع الاعظم جامع الزيتونة ، العالم الفاضل ابو عبد الله محمد بن عبد الكبير الشريف ، وتزاحمت الافاضل على شهود جنازته وحمل جسده الشريف . وأوْلَى الباي عوضه إمامَ العصر ، وصدرَ أفاضل هذا المصر ، شيخَنا ابا اسحاق ابراهيم الرياحي . والإمام الثاني يومئذ هو الشريف الفاضل المنصف ابو الثناء محمود محسن ، فلم يستنكف من تقديم الشيخ عليه ، بل عدّه من الانصاف . ولم يلبث ان عرف كلٌّ منهما ما لصاحبه من الفضل ، وقدّمه على نفسه ، والفضل يعرفه ذووه .

وفي [غرة] (2) شعبان من السنة 1255 (الخميس 10 اكتوبر 1839 م.) ، عقد الباي شروطا مع دولة البلجيك ، وقبل قنصلَها باجلال واحترام ، كما ينبغي لامثاله .

وفي غرة رمضان السنة 1255 (الجمعة 8 نوفمبر 1839 م.) ، توفي الفقيه العالم ابو عبد الله محمد السنوسي الكافي القاضي ، وقدّم الباي عوضه الفقيه النحرير العالم ابا عبد الله محمد بن سلامة .

*

ولم تزل عنايته مصروفة للمهمّات والاجناد ، وتقوية روابط الالتحام والوداد ، بين الجموع والآحاد ، من أهل البلاد . ولذلك جعل مرتّبا للفقهاء المالكية مع العسكر النظامي مثل مرتب الفقهاء الحنفية مع جند الترك .

وأصل هذا المرتب للحنفية اذ جند الترك مشروط على جميعهم انه اذا وُلد لاحدهم ذَكَر يأتي لتقييد اسمه بدفتر الجند ، ويُرسم فيه بفلس ، واذا مات أبوه يرسم بفلسين ، حتى يبلغ الحلم فيرسم باربعة نواصر (3) . ويباشر الخدمة من السفر في المحالّ ، والنوبة وهي حراسة الحصون في بلدان المملكة ، وغير ذلك ، مترقيا في سلم الخدمة الى نهاية المرتب . ومن لم يفعل ذلك مسّه العقاب ، ليكون جند الترك مختلطا بالمولودين في

(1) ذكر فى التراجم ان الوفاة كانت فى 27 جمادى الاولى دون اسم اليوم ، وذكر هنا اليوم وهو (الثلاثاء) ليلة الاربعاء ، وذكر أنها توافق 21 من الشهر ، وجمعا للمعلومتين يمكن القول ان وفاة هذا الامام كانت ليلة الاربعاء 27 جمادى الاولى 1255 حسب الرؤية ، و26 منه حسب التقويم .

(2) الزيادة من ع و ق .

(3) كان الفلس ف تونس نقدا نحاسيا قيمته نصف ناصرى ، أو سدس الخروبة ، أو جزءا من تقسيم الريال الى 104 ، والريال ستون صانتيما (الفريد نيكولا) . والناصرى اربعة منه تساوى 7 صنتيمات (دوزى) .

المملكة . وربما تُثبت الدولة في ديوان الجند من كان خاملا من أهل البلاد ، بدعوى أن أباه اوجدّه كان تركيا . بخلاف جند الجزائر ، فان ابناءهم من عامة البلاد ولو كان أبوه دايا ، إذ لم يكن فيها بيت ملك ، كما تقدّم ، لان ذلك ينافي تلقّف الامر بينهم . وأولاد الجند التونسي المحسوبون في ديوان الجند تنجم فيهم العلماء المحتاج إليهم في الخطط العلمية كالقضاء [بالمذهب الحنفي] ، والفتوى والإمامة والتدريس والتوثيق ، وتشحُّ الملوك بطرحهم من ديوان الجند ، فتجدهم في ابتداء أمرهم يعطون بدلاً في السفر بمال ينتفع به القادر على المشقّة ، فاذا تأهل لِخُطّة يكتبون له تسريحا من الخدمة بحيث لا يلزمه العوض ، ويُبقُون له مرتبه الجندي . وتوالت على ذلك الازمنة ، وظن بعض الناس ان ذلك عناية بعلماء المذهب الحنفي الذي هو مذهب الامراء بعد انقراض الدولة الحفصية [ويشهد له ظاهر الحال] (1) وربما تأثرت نفوس المالكية من ذلك ، وهم السواد الاعظم في المملكة ، ولا نسبة بينهم وبين الحنفية في العدد .

وفي العشرين من ذي الحِجّة في السنة 1255 (الاحد 24 فيفري 1840 م.) ، أمر بجمع أهل المجلس الشرعي من المالكية والحنفية أمام محراب جامع الزيتونة بين الظّهرين، وأرسلني إليهم بمكتوبه الذي مضمونه انه جعل لعلماء المالكية مرتبا مع الجند النظامي مثل مرتّب الفقهاء الحنفية مع جند الترك ، دفعا لما عسى ان يتوهم من الحيف في عدم التسوية ، « وكلّهم من رسول الله مُلْتَمِس » .

وقرأ المكتوب على المشائخ أمام المحراب شيخُنا صدر المالكية ابو اسحاق ابراهيم الرياحي ، ولم يَحضُرني لفظه .

ولما حصلت هذه التسوية المجبول عليها الطبع البشري ، وقعت في المملكة الموقع الحسن ، وعلّقت في أعناق بنيها المِنَن ، وأظهرت ما في نفس مَلِكهم من حب الوطن ، وللناس ما ظهر ولله ما بطن ، حتى اهتزّ لذلك طود العِلْم وموضع التقوى الشيخ ابو اسحاق ابراهيم الرياحي ، وكاتب الباي بما نصّه :

جبرتَ باحسان لمذهب مالك ... قلوبا كواها الكَسْرُ يا خير مالك
وما جبرها نيلُ الحطام وإنما ... بتنوير ليلٍ من دجى الحيف حالك

(1) ما بين القوسين في الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

تداركت تفريطا من الناس غفلةً ... وكم لك من رأي عزيز المدارك
فسوّيت ما بين الافاضل رتبة ... فهم من بساط العدل فوق أرائك
أتيتَ بمقياس عزيز تباشرت ... بفرحته الارواح من كل ناسك
يمينا لو النعمان قُرِّر عنده ... لَقَرَّ به عينا ، ولست بآفك
جرى لَبَنٌ من ثدي أحمد فارتوى ... به حنفيٌّ في الإخاء ومالكي
بما أودع الرحمانُ فيه وما يُرى ... لسيدنا الباشا به من مشارك
أدام لنا المولى سعادة جدِّه ... بوجه وجيه باسمِ الثَّغْر ضاحك
وأيامه يُروَى صحيحُ حديثها ... عن العِزِّ عن نصر له متدارك

وقال العالم الاديب القاضي ابو عبد الله محمد بن سلامة :

نظمتَ القومَ في سلك انتظام ... فثَغْر المالكية في ابتسام
وأعززتَ الجماعة بانتساب ... وليس العِزُّ في كسب الحُطام
فسوّيتَ الورى في عدل قَسْم ... نسختَ بصُبحه حَيْفَ الظّلام
محال أن يظن الناس هذا ... وكاد يكون من نوع الحرام
ولولا الله ارشد منك قلبا ... لما لاقته حتى في المنام
ولكن الإله أراد خيرا ... فأرشدك السبيل إلى القَوَام
فألّفتَ القلوب به جميعا ... وآخيتَ البريّة بالتمام
فأنت اليوم أعدلُ مَن رأينا ... بك المبدا وخاتمة الختام

⁂

وفي غرة محرم من سنة 1256 ، ست وخمسين (الخميس 5 مارس 1840 م.) ، رتّب الباي مكتبا حربيا بباردو ، وجعله في صرايته التي انتقل منها الى قصره الجديد ، لتعليم ما يلزم العسكر النظامي من العلوم كالهندسة والمساحة والحساب وغيرها ، ولتعليم اللغة الفرنساوية ، لان أكثر كتبها مدونة بهذه اللغة . ورئيسه العالم الماهر الامير آلاي كالي قارس (1) ، من أعيان إيطاليا . وجعل به معلّما للقرآن ومدرسا لعلوم العربية وما يلزم ديانةً.

(1) مستشرق ايطالي درس العربية في الشام ، وعمل بالعسكرية التركية ثم بالبلاد الحسينى بتونس من عهد حسين باي الثاني ، وضع كتابا عن سيرة نابليون ، وترجمه الى العربية تلميذه الجنرال حسين بمراجعة الشيخ محمود قبادو .

وأول مدرس به العالم الشريف الاديب البليغ ابو الثناء محمود قابادو (1) ، بحيث يخرج التلميذ عالما بما يلزمه ضرورةً في غير العلوم العسكرية ، متضلعا باللغة الفرنساوية وبما يلزم العسكر من العلوم العقلية .

واعتنى بهذا المكتب وكان يزوره ومعه خواصّه ، وتُسأل التلاميذ بحضرته ، ويثني على النجيب منهم ، ويمنّيه بما يؤول اليه حاله ، ويرغّبهم في اكتساب المعارف التي هي آلة التقدم الحقيقي ، وينفّرهم من معرّة الجهل .

وجلب إليه المراهقين فمن دونهم ، ونجبت فيه تلاميذ خرجوا يوزباشية . ومنهم من تقدّم الى الرتب السنيّة كأبي عبد الله حسين وهو الآن أمير لواء ورئيس المجلس البلدي ومستشار الوزارة ، وأبي الضياء رُسْتم وهو الآن وزير وأمير لواء ، وأبي محمد جمعة القرقني وهو الآن من أعيان عسكر البحر ، وأبي حفص [الحاج محمد بن] (2) الحاج عمر وهو الآن أحد الرؤساء بوزارة الحرب ، وغيرهم ممن حصل الانتفاع به في التنظيم العسكري وغيره .

*

وفي هذه السنة 1256 (1840/41 م.) ، قدّم الباي ابا عبد الله محمد بن عيّاد وكيلاً على قبول الاعشار [من قمح وشعير] (3) برابطة الطعام في الجبل الاخضر ، واليها ينسب برج الرابطة . ولاقى الناس من تطفيف الكيل ما أثّر نقصا في الزراعة حتى كادت الفلاحة ان تبطل بالمرّة ، وتغافل عنه لِمَا هو مُضطرٌ له مِن قُوت العسكر وعَلَف الخيل . وآل الامر إلى أن صار القمح والشعير يُجلَب للمملكة من خارجها . ويرحم الله القائل : « التقدم للغاية تأخرٌ عنها ، والزيادة على الكفاية نُقْصان منها » .

*

وفي محرم السنة 1256 (مارس 1840 م.) ، ورد من الدولة العلية العثمانية فَرَمان التنظيمات الخيرية المبني على أساس العدل والحرية ، وتقدم تعريبه . فجمع موكبا مشهودا بالعلماء والوزراء والداي وأعيان العساكر وغيرهم ، وقُرِىءَ عليهم الفَرَمان .

(1) رجوع الشيخ قبادو من اسلامبول كان خلال سنة 1258 ، وتاسيس المدرسة الحربية كان سنة 1256 ، وعليه فالظاهر ان العربية والعلوم الدينية لم تكن مقررة عند التأسيس .

(2) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

(3) الزيادة عن ق و ع .

وأجاب الدولة إجمالا باللغة التركية بما محصّله : « ان هذا غرض محمود ، ولا بدّ من زمن لإبرازه الى الوجود ، لاختلاف الطباع والبقاع ، وهو أمر لا محيص عنه ولا بدّ منه » . ورجع الرسول بالوعد ، ولله الامر من قبل ومن بعد .

*

وفي صفر من السنة 1256 (افريل) ، ظهر دَين على الوزير ابي عبد الله حسين خوجة ، تداينه لنفسه [وعظم بالرِّبا] ، وطلب الغرماء ذلك من الدولة أو تفليسه وسَجْنه [كسائر المفلسين] . وكلّم الوزيرُ مصطفى صاحب الطابع الباي في التفضل بدفع الدين عنه ، فامتنع كلّ الامتناع وقال : « إن مال المملكة نصرفه في مصالحها كالعسكر وآلاته ، وكيف يسوغ لي ان نصرفه في ديونكم الناشئة عن الإسراف ؟ نعم ، ان هذا الرجل كان وزيرا لعمّي ، ومن أعيان الدولة ، فهلمّوا نفرض دَينه على خاصّة أنفسنا ، ويدفع ابن عمي الذي هو صهره ، وتدفع أنت وأمثالك ، وادفع أنا قسطا معكم » ، فأبوا ، وتغير (1) الوزير صاحب الطابع وقال : « انا ادخل السجن قبله » ، فقال له : « انا لا أسجنك ، وأمْرُ نفسك بيدك » . وآل الحال الى تفليسه وبيع كسبه وسَجْنه في محل بقصر باردو مدة طويلة حتى تحقق عُدْمه (2) ، ثم سرّحه (3) .

وفي هذه السنة وقع في وطن الاعراض شيء من بوارق عصيان ، خاف الباي سَرَيَانه في المملكة ، لاتّحاد السبب . وذلك ان هذا الباي لما صرف عنايته الى تكثير العسكر [من غير التفات الى طاقة المملكة] (4) لزمه زيادة المصرف ضرورةً ، فرتّب مغارم على ما يباع من الطعام والبقول ونحوها ، تعرف بالمحصولات ، كما تقدّم . وقد كانت قبل ذلك بالحاضرة على إهمال ، فرتّبها وعمّمها في المملكة واسواق العربان . والتزمها ملتزمون وقع التغافل عنهم . وبقدر امتداد ايدي العُمّال ، تنقص الآمال والاعمال. ومن هؤلاء أحدُ أتباع أبي عبد الله محمد بن عيّاد ، التزم محصولات قابس . ولابن عيّاد وأبيه سالف عمل بالاعراض اقتضى امتزاجا ببعض أعيانه ، فاعتمد هذا المتولي على

---

(1) تغير : استاء ، امتعض ، تكدر .
(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : « ... مدة طويلة يتحقق العدم بأقل منها » .
(3) ما بين القوسين في الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .
(4) الزيادة عن ع و ق .

ذلك ، حتى قيل إنه يطلب « المحصول » على دفن الميت من بنـي آدم ، وغير ذلك من أمثاله ، والله أعلم ، فهجم عليه بعض العامـّة وقتلوه باغراء من الخاصـّة . ومن أمثـالهم : « العامة تَبَعٌ لـكـل ناعق ، لا سيما فيما يلائم الطباع من الشُّحِّ المُطاع » .

ولما بلغ الخبرُ للباي ، وتحقـّق عنده أن سائر عـُرْبان المملكـة استحسنوا ذلك وتـآمروا عليه (1) ، تلافـّى الصغير قبل ان يـكبر ، والقليل قبل ان يكـثر ، وعنده يومئذ من العـدد والعدة ما يقدر به على المراد ، فنهض بنفسه الى الاعراض يجرُّ وراءه عرمرما من العسكر النظامي والطبـّجية بمدافعهم ، وعسكر الخيـّالة والحوانب والصبايحية من تونس وغيرها من الاوجاق .

وجرت العادة ان كـل عرش من عروش العربان به عدد يسمـّون المزارقية ، [ولهـم مرتـّب] (2) اصحاب المزراق وهو الرمح ، يسافرون مع المخازنية في البعوث لانهم في معنى الصبايحية ، فاقتضى نظره أن لا يأمرهم بالخروج معه في هذه الوجهة ، ولا يردّ مَن أتى متطوعـا . واكـتفى بمن في الخدمـة من العسكـر والمخازنيـة . وجهـّز أسطـولاً في البحـر بالمهمـّات والآلات والاقوات وغير ذلك ممـا يلزم . وترك الحاضرة لنظر ابن عمـّه ، ومعه الوزير أبو النخبة مصطفى صاحب الطابع .

وخرج يوم الخميس رابـع (3) ربيـع الاول من السنة 1256 (7 ماي 1840 م.) ، ومعه أعيان الدولة ، وقاضي الحاضرة الشيـخ محمد بن سلامة ، ونابه المفتـي الشيـخ الشاذلي ابن المؤدب في مغيبه ، والامام ابو العباس احمد البازودي . وزار مقام الامام الشاذلي [ومغارته] (4) رضـي الله عنه . ولما ركـب من مقامه انـكسر عـَلـَم من علمـَيه يعرف بالطوق ، فتغيـّر لذلك وتطيـّر ومضى متوكـلاً على الله .

ومرَّ على بلدان الوطن القبلي وبلدان الساحل وصفاقس ، يقيم لإراحة العسكـر في ضواحـي ما يمرُّ به من المدن ، والاسطول يحاذيه في البحر . ومدبـِّر المحلة ابو عبد الله محمد بن عـَيـّاد يشاغب عـُمـّال البلدان ، فتوجهت تلقاء مدينه الآمال ، لانه الواسطة بين الوزير ابـي النخبة مصطفى خزنه دار وبين الناس . وحرَّك أهلَ سوسة للشكـاية بالعامل

(1) كـذا في خ ، وفي ع و ق : « ... استحسنوا ذلك ، وهو طليعة الاتفاق » .
(2) الـزيـادة عن ع و ق .
(3) هـو 5 حسب التقويم .
(4) الـزيـادة عـن ع و ق .

وهو ابو عبد الله مَحمد خزنه دار ، فلم يتحركوا ، فأشار للباي ان يأتي منزل العامل تنويها به ، وحرّك المسجونين للصياح اذا مرّ بهم الباي ، ففعلوا ، فوقف وسأل ، فتقدم له مَحمد خزنه دار وبيده زمام في أسمائهم ومدة سجنهم وأسبابها [واكثرهم في الديون] (1) . وطلب منه ان يرسل لهم كاتبا يطبّق الزمام على ما في الخارج ، فقال له : « مثلك لا يُتّهَم » .

ولمّا رأى حزمه ، وجّه عنايته إلى إظهار احترامه في الناس ، وأعرض ابن عيّاد عن رأيه .

وحاسب الباي وكلاءَ أعشار الزيت ، واستخرج منهم أموالاً وان كانت لا تخلو عن شيء من الحيف إلاّ أنه لا يظهر مع مظلمة التطفيف . وجزاء سيّئة سيئة مثلها . وقد يُدفَع الشرُّ بمثله اذا أعياك غيره .

وفي مدة إقامته بصفاقس أتاه إبراهيم الجويني خليفة عامل الاعراض وأخبره بجدب الصحراء ما بين صفاقس والاعراض ، ونزوح مائها مع قِلّته ، بحيث لا يكفي العسكر وما معه من الخيول والإبل ، فأبقى العسكر النظامي والطبّجية والخيّالة بصفاقس لنظر وزيره أبي النخبة مصطفى باش آغة ، وسرّح المخازنية بمحلة لنظر أبي العبّاس أحمد آغة الى الاعراض ، ووجّه معها وطقه وأخبية خواصّه ، وركب البحر في كرويطة ومعه خاصّته والاسطول وراءه .

وأتى جرْبة فبات بها ليلة بمنزل ابن عيّاد ، وزار مشاهدها وزاوية سيدي ابراهيم الجمّني ، وتفقّد الابراج والحصون .

وركب البحر الى قابس بعد وصول الآغة أبي العبّاس أحمد ، فوجد وطقه مرفوعا والمحلّة محدقة به . ولما نزل قال له أعيان المحلّة : « ان ما بلغك من الخليفة كذب ، فان الصحراء بها أثر الخصب ، والماء كثير يكفي هذا العسكر واكثر منه ، وقد تمّت المكيدة لاهل الاعراض حيث بقي العسكر بمدافعه بعيدا منّا ، إلى غير ذلك » ، فخلا بوزيره خزنه دار واستدعاني لخيمة الوطق ، وأمرني أن أكتب للوزير أبي النخبة مصطفى باش آغة أن يكون على أهبة للقدوم الى الاعراض حين يرد عليه الإذن بذلك ، ومكتوبا آخر بالإذن أبقاه حاضرا لوقت اللزوم ، بحيث لا يزيد فيه الا التاريخ .

(1) الزيادة عن ع و ق .

وخرج للديوان بالوطق وسأل عبد الوهاب باش حانبة عن حال الطريق ، فأجابه على رؤوس الملا بكثرة الماء والكلأ ، فقال للخليفة : « لِمَ تخبرني بغير الواقع ؟ » ، فَسَكَتَ وبُهِتَ ، فأمر بقطع رأسه . ولما حُمِل لموضع القتل ، تطارح عليه وزيره ابو النخبة مصطفى خزنه دار وطلب منه العفو ، فعفا عنه من القتل وسجنه مدة وسرّحه .

ودخل بعد خروج الديوان الى الخيمة ليختم مكاتيب كنت أنتظره بها . ودعا لوزيره حيث أنقذه من سفك دم في وقت غضب . ولم يزل رحمه الله يذكرها للوزير ويعدّها من حسناته .

وفرّ رؤوس الفتنة وهم محمد بن محمود وابنه وغيرهما ، واعتصموا بجبل مطماطة .

ولما جاءت جموع الاعراض للسلام على الباي ، قَبِلَهم جمعا بعد جمع ، وقبض يده عن جمع مطماطة وأمر بسجنهم ، وقال لهم : « ها أنا أريد إخراجَ مَن هرب لجبلكم، فان تَلَكَّؤُوا (1) في الخروج فرؤوسكم تقطع قبل رؤوسهم » . ووجّه الاضبه باشي حسين بوحرام في عقد من الخيل فأتَوا بهم ، فسرّح أهل مطماطة في الحين ، وأحضر هؤلاء [الذين هربوا] (2) بين يديه وقال لهم : « ان فعلكم هذا من الفساد في الارض ، لانه يؤدي إلى عصيان يؤدي الى حرب وسفك دماء » ، فَوَجَمُوا ، ولاذُوا منه بالصفح ، فأمر بقتلهم ، وكانوا خمسة ، منهم من باشر قتل لزّام المحصولات . وانحلّ عَقْدُ ما أبرموه ، وكان للشيخ سعيد الشعلي ، من رؤوس بني زيد ، أثر جميل في هذه النازلة ، وكذلك قومه .

وتغافل الباي عن بقية رؤوس الفتنة ، وسدّ سمعه عن الوشاية ، كما هو الواجب شرعا وعقلا في سياسة البشر بعد القدرة [شأن الكريم اذا غلب] . وقال [في الموطن على رؤوس الاشهاد] : « لم يثبت لديّ ذنب إلا على الذين قَتَلوا وأغْرَوا ، وعلى جميع اهل الاعراض مَلام حيث سكتوا ولم يضربوا على يد السفهاء ، مع القدرة على ذلك » . وطلب منه أعيان الاعراض ان يجعل عليهم مالا ليكون مظهرا لمرضاته عنهم فجعل عليهم ستمائة ألف ريال ، أبقى عاملَ الاعراض لخلاصها ، وهو صهره وخديم

(1) تلكأ : تأخر ، تباطأ ، قاوم ، عصى (وانظر دوزي) .
(2) الزيادة عن ع و ق .

أبيه ابو محمد رشيد . ولم يُطِل الإقامة في الاعراض ولا دار في تلك النواحي وانما زار صاحب رسول الله السيد ابا لبابة الانصاري رضي الله عنه ، في قليل من خاصته ، وركب البحر قافلاً الى صفاقس ، وأمر المحلة بالرحيل إثره (1) .

واقام بصفاقس أياما ، وأتى المهدية ورأى آثار بني عبيد ، ثم دار في بلدان الساحل [وأتى قصور مساكن بلد الاشراف] (2) . وأقام بسوسة . وأتى القيروان .

وفي هذه الوجهة بلغه ان فرقة من الهمامّة شنوا الغارات ، وأخافوا السبيل [على عادتهم] (3) ، فبعث لهم أبا العباس أحمد آغة في عقد من الخيل ، فأجفلوا أمامه ، وتمكّن على رؤوس منهم ، وقتل منهم واحدا اسمه ضَوْ ، وهو أشدهم تعديا ، وسجن الباقين ، ثم قفل راجعا الى حضرته .

وعادة الملوك اذا رجعوا من سفرهم وقاربوا الحاضرة بمرحلتين ، يعجّلون الاوبة الى منازلهم ، ويسمُّون ذلك « التسريح » ، ويأتي العسكر بعدهم مع الآغة ، فلما قرب من الحاضرة سأله بعض خاصته : « من أي موضع يكون التسريح ؟ » فقال لهم : « معاذ الله ان اترك عسكري في مشقّة سفر ، وأستأثر عنهم براحة ليلتين في داري ، أدخلُ معهم كما خرجتُ معهم » . وفعل قريبا من ذلك لمّا سافر بمحلة الجريد في حياة أبيه ، فانه بقي بوطقه في المحلة . ولم ينزل دار توزر على عادة من تقدّمه ، وقال : « لا أستأثر براحة عن جندي » . ولما بلغ ذلك لوالده قال : « ان ابني أحمد لم يسلك عادتنا في سكنى دار توزر ، تعاظما عن سكنى تلك الدار المسقّفة بجريد النخل » .

ولما وصل باردو سرّح العسكر لاماكنهم ودخل المحكمة فسلّم عليه الناس ، ثم أتى بيتَ الباشا فسلم عليه اهل المجلس الشرعي . وكان ذلك يوم الاربعاء الثامن والعشرين (4) من جمادى الثانية سنة ست وخمسين (26 أوت 1840 م.) .

ومن الغد جاءه وفد الحاضرة مسرورين بأوبته مستبشرين برؤيته ، بعد قضاء وطره .

(1) ما بين القوسين فى الفقرة ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) الزيادة عن ع و ق .
(4) هو 27 حسب التقويم .

ورتب الباي في هذه الوجهة أمورا ، منها قانون الزيتون بالساحل ، وذلك انه لما حاسب وكلاء الاعشار وجد زيوتا لها بال تخلّدت في ذمّميهم ، مع ما استحلّوه لانفسهم وقاسموا الشهود بجزء من ذلك ، فنَكّل ببعضهم وضربهم وسجنهم وصادرهم بأموال . ورأى من الضبط أن يُسْقِط اشياء عن اهل الساحل ممّا اعتادوا أداءه ، وهو ذريعة لامتداد أيدي العُمّال في أموال الناس ، ويوظّف على أصول الزيتون شيئا معلوما في كل سنة ، أثمر أو لم يُثمِر . وكان ممّن أشار بهذا الرأي القائد يوسف بيشي [اليهودي] ، قابض اموال الدولة ، ووافقه على ذلك وزراؤه ، بل وغالب أهل الساحل (1) ، لتكون غلّتهم لاختيارهم يجمعونها متى شاؤوا ولا يتوقفون في عصرها على حضور عَشّار ، بعد أن حرّر دخلَ العشر في عام الصابة ودخلَه في غير الصابة ، ورتّب ذلك باعتبار السَنَة المتوسطة ، كما زعم القابض ، [جمع اعيان سوسة واخبرهم بالمقدار ، فوجموا مستعظمين ، فقال شيخ من أعيانهم : « لا طاقة لنا على تحمّل هذا القدر ، فالأَولى أن سيّدنا يأخذ هذا الزيتون » ، فأمر بسجنه لصدور هذا اللفظ منه ، وخرج الباقون واجمين] ، وكتب بذلك أوامره لسائر بلدان الساحل وقُراه ، وأمرني بالإطناب فيه ، [فاستعمل العبد الفقير ما استطاع من الخطابة] (2) ، ونصه : « سبحان من أناط العمران بسياسة العباد ، ونوّع أحكامه فيهم على حسب ما أراد ، وغيّر بتغيّر أحوالهم قضايا الاجتهاد ، لم يوقفها على ألْف ولا اعتياد ، ربط بالعدل الصلاح والسّداد ، أحمده حمدا يستغرق الحصر والأعداد ، وأصلي على سيدنا محمد الهادي الى سبيل الرشاد ، ومن اليه المفزع وعليه الاعتماد ، في هذه الدنيا وفي يوم التّناد ، وعلى آله وأصحابه السادة الامجاد ، أركان الإسناد . اما بعد فهذا ظهير وثيق البنيان ، ينتج ان شاء الله الخيرَ والعمران ، ويدوم نفعه على اختلاف الازمان ، بُني على التسوية بين الامة أساسُه ، وزكت بالعدل فصولُه وأجناسه ، صدر منّا الى كل من يقف عليه ، ويتدبر ما لديه ، من كافّة اهل سوسة على اختلاف أصنافهم ، وتباين خططهم وأوصافهم ، وعامّتهم وأشرافهم ، لمّا خرجنا في مصالح الرعية وحفظ أموالهم (3) ، وتفقّد اعمالهم وعُمّالهم ،

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « ووافقه على ذلك بعض وزرائه لما رأوا أن بعض الشر أهون من بعض ، وربما استحسن بعض أهل الساحل ذلك » .

(2) ما بين القوسين في هذه الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

(3) في ع و ق : « أحوالهم » ، فغيرت الى « أموالهم » .

رأينا اكثر الاداء مرتبا على الذوات ، وعدم الإنصاف في المساواة ، وما رُتِّب منه على الكسب ، مُعرَّض للخيانة والغصب ، لِمَا في طبع الانسان ، من الميل الى الرغبة (1) والعدوان ، وقلّة العدالة وضعف الامان ، وهو السبب فيما يعتري الخلق من النقصان ، وإن صلح هذا الترتيب بالأُوَل ، وجرى به عملُ مَن تقدَّمنا من الدول ، فالاحكام تدور مع العِلَل ، وتختلف باختلاف العمل ، اشرفها ما أزاح الحيف وجدَّد الامل . فلذلك اقتضى نظرُنا الحكمَ باسقاط الفصول السبعة المرقومة أعلاه عن سائر بلدان الساحل إسقاطا تامّا ، مطلقا عامّا ، لا استثناء فيه ، ولا طلب يُنافيه ، إذ بعضه ممنوع لذاته ، وبعضه تعذّر القيام بواجب صفاته ، وناهيك ما في عقوبة المال ، من فساد الاعمال ، وما في الاداء على الرّقاب ، من البعد عن الصواب ، فتجد الغنيَّ في ترف لذّاته ، والفقير يؤدي على وجود ذاته ، إذ لا شيء لديه حتى يُحسَب الاداء من زكاته ، وكل وقت تناسبه أحكام سياساته ، فلذلك رتّبنا على زيتون الساحل قانونا في مقابلة ما أسقطناه يؤدِّيه مالكُه في كلّ عام على كرّتين ، كلُّ كرّة بعد مضيٍّ ستة أشهر من اكتوبر سنة التاريخ . وقسمناه الى ثلاثة أصناف ، عال ومتوسط وسافل . فالاول يؤدي عُودُه (2) ربعَ ريال وأحد عشر ناصريا والمتوسط يؤدي عوده ربع ريال وخمسة نواصر ، والسافل يؤدي عوده اثني عشر ناصريا . هذا في الذي يُثمر ، أما الناشيء الذي لم يبلغ حدّ الإطعام فان عوده يُرسَم ولا يؤدي شيئا ، الا إذا أثمر فيلحق بالصنف الثالث ، حتى يكون كالصنف الثاني فيلحق به ، وهكذا . ويُؤدي على كل مائة ريال من القانون ريالا ونِصفَه للقبّاض في مقابلة نقص عدد الدراهم . وان تلدّد احد المالكين في دفع القانون حتى لزمه الغضب بالتعيين ، فانه يؤدي نصف ريال خدمة على كل عشرة ريالات ، هذا اذا كان التعيين من حضرتنا ، اما اذا كان من القايد فانه يؤدي ربع ريال على العشرة ، لا زائد على ذلك . ومن لا زيتون عنده فلا قانون عليه ، وأداء الانسان على حسب ما لديه ، كفى الضعيفَ القيامُ بسدّ خلّته ، ومُعاناة معيشته . ومصلحة هذه السياسة أوضح من الصبح ، غنيّة عن الشرح ، لا يدخلها تطفيف ولا حيف ، ولا تمييز مشروف عن شريف ، سوّينا في ذلك بين صغيرهم وكبيرهم ، وجليلهم وحقيرهم ، وأزلنا الفرق بين المحرّر والرعية ، فالكل عيال الله ولهم حرمة مرعية ،

(1) الرغبة : الطمع ، الجشم ، الحرص .
(2) العود : الشجرة .

لانه بفضله استرعانا جماعتهم ، ووهب لنا طاعتهم ، وأرانا استطاعتهم ، وحرّم علينا إضاعتهم ، فما نأخذه منهم ، ندفعه في مصالحهم عنهم . والله يصلح احوال العباد بفضله ومنّته ، ويجازينا على نيّتنا يوم يسأل كلّ راع عن رعيته ، فاقرؤوا هذا الرقيم على جمعكم ، حتى يتقرر في قلبكم وسمعكم ، واحفظوه في جامع صلاتكم ليبقى لكم حجّة ، على سهل هذه المحجّة . والله يحكم لا معقب لحكمه . والسلام من الفقير إلى ربه أحمد باشا باي وفّقه الله .

وكتب في رابع جمادى الاولى سنة 1256 ، ست وخمسين ومائتين وألف (السبت 4 جويلية 1840 م.) .

والمطالب التي أسقطها أولها عشر الزيت ، لما فيه من عسف الوكلاء في اختيار الجيّد الصافي ، والتطفيف الذي لا يقف عند حدٍّ ، بل هو بحسب حال الدافع ، فقد تكون العشرة اثني عشر الى الخمسة عشر ، على حسب مروءة القابض . « وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ » (1) .

ولا يخفى على المسلم العاقل ان ذلك ليس بعذر يبيح (2) إبدال الزكاة التي هي أخت الصلاة بهذه المظلمة التي لم تنتج فائدة الا للقابض ، لان ما [كان] يحصل من زيت العشر تبيعه الدولة للتجار [والواردين] ولا يدفعون على أثمانه قبّاضة ، ولما صار مالاً في الذمة على الرعية يأخذ عليه القابض ، لا سيما وهو منصوص عليه في الامر . على ان الله تعالى أعلم بمصالحنا منّا ، وهو الحكيم الخبير ، [والشريعة المحمدية المبعوث بها خاتم المرسلين صلوات الله عليه صالحة في كل زمان ومكان] (3) . وشأن الوازع كف يد التطفيف والتعدي ، والثقة (4) بالامناء . والامانة لا تنقطع من الامة المحمدية ، نعم ، تقلُّ في آخر الزمان .

واذا حكّمت العقل مع اعتبار حالة البلاد من قلّة نقودها لانها تأتي من خارجها اذ لا معدن بها لاحد النقدين مع قلّة متاجرها وصنائعها ، ترى العشر على ما فيه ، أحسن

---

(1) س 83/آ 1 و 2 و 3 .
(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : « أن هذه الخطابة لا تبيح » .
(3) ما بين القوسين في هذه الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .
(4) كذا في خ ، وفي ع و ق : « وتقديم الامناء » .

للراعي والرعيّة ، لان المملكة فقيرة كما اعترف صاحبها في مكتوبه للدولة العلية ، وكما شهد بذلك رسوله صالحُ المصر (1) . والفقير اذا لم يثمر زيتونه يُضْطَرُّ الى بيع الزيت على وجه السَّلَم لتجار الافرنج بأبخس ثمن او يتداين بالربا ليدفع ما عليه من القانون ، فاذا أثمر الزيتون يدفع منه ما في ذمّته من السَّلَم أو الدَّين [وفائدته] (2) ، وقانونَ ذلك العام ، فيصير إلى الفقر في اقرب مدة ، لان أرض المغرب عشرية لاَخَراجية ، لانها غير مأمونة الرّيّ كمصر وما شاكلها . بخلاف ما اذا كان الاداء من عين الغَلّة ، فانه لا يلزم المالكَ تداينٌ ولا بيعُ زيته بالبخس ، وربما تسمح بعض النفوس بتحمّل ما يطاق من مظلمة التطفيف لما يراه من أنه حق لله ممّا رزق ، وتعقبه البركة ، واذا شح بذلك تطير البركة ، الى غير ذلك مما هو في نفوس أهل الايمان المبني على مكارم الاخلاق . وهذا من أسرار الله في عبيده . واما حُسْنه للراعي فان رعيته تبقى على ما قُسِم لها من الثروة باعتبار حالها ، واذا ضعفوا ضعفت الجباية ، ولا تزال في ضعف حتى تضمحلُّ او يضمحلُّ الراعي ، ودليل ذلك العيان . ولله درُّ القائل :

وأرفه خلق الله راضٍ بعيشه وأتعبهم قلبا على الدهر واجد

وثاني الامور التي أسقطها ، قانون الصاع والبلبّة ، شيء يؤديه صاحب الزيتون من الزيت او المال في مقابلة تُفْل زيتونه .

وثالثها المطالب الراجعة لدار الباشا ، وأصلها ان الترك لما استقرَّ قدمهم في البلاد رتّب عثمان داي مرتّب الجند على بلدان الحاضرة مقادير معيّنة يدفعونها [في مدّة العام] (3) على ستِّ كرّات ويوزعونها على حسب مكاسبهم ، بحيث لم يكن فيها إجحاف . وآل الامر إلى ان صار إلى اجتهاد العُمّال وأمانتهم .

ورابعها العشرة ريالات التي كانت مرتّبة على كل ماشية ، رتّبها ايضا عثمان داي ، وقاس مِساحة الماشية بِحَبْل مقدّر معروف يسمّى الآن بحبل الديوان ، وان زال مسمّاه . وصار إلى ديانة (4) العامل ، فربّما يسمّي بذر وَيْبة (5) بماشية ليستخلص العشرةَ ريالات .

(1) اى الشيخ ابراهيم الرياحى .
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) الزيادة عن ع و ق .
(4) ديانة : ذمة ، ضمير ، اجتهاد .
(5) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « بذر صاع » .

وخامسها الضيفة للقايد او الخليفة او الشيخ وهو باب واسع ، وأصله ان القايد ومن عطف عليه اذا تولّى عملاً يقدّم أهله له شيئا [من المال] يسمونه « ضيفة » في مقابلة قِرَاه ، فصار أداءً في الذمّة معتبرا في الولاية نوعه وتقريب مقداره [لمّا آلت الولايات الى مشارطة مالية ، كما تقدم في الباب الاول] (1) وهو ايضا في عهدة أمانة العامل .

وسادسها القيام بالصادر والوارد ، ويسمّونه « السادر والوارد » (2) . [وذلك في غير المدن] (3) .

وأصله أن ضيافة المارّ مندوب اليها في الاسلام ، وهو من مكارم الاخلاق . فيتّفق أهل كل بلد ويجعلون محلاً يسمّونه « دار النزالة » يباشر ذلك شيخ البلد [الذي شاخ بالمال] ، والمحرك [وهو المُعين له] (4) ، ويستخلصون تلك الضيافة من أهل البلد أو القرية على أنحاء مختلفة ، ومَن امتنع يقال له « تسَفَّل » ، ويعاقب بالمال . وذلك في أمانتهم أيضا .

وسابعها ، وهي الداهية الدهياء ، العقوبة بالمال ، وهي المسمّاة بالخطيّة ، موكولة أيضا إلى أمانة العامل . يسمّي ما شاء « ذنبا » ويعاقب عليه بقدر كسب مَن سماه مذنبا ، حتّى صارت الذنوب رأس مال كسبهم . فاذا ضجّ الانسان رموه بالفساد ، فتشتدُّ عقوبته [المالية والبدنية] (5) ، فتجد المسكين يتجرّع مرارة الصبر على عقوبات العُمّال ، اتّقاءَ ما هو أشدُّ .

وتُحكَى عنهم في ذلك حكايات تقشعرُّ منها الجلود ، منها أن أحمد السهيلي كان عاملاً بالمنستير وماتت لبعض أغنيائهم بنت ودفنها ، فبعث اليه وقال له : « أنت قتلت بنتك ، فامّا أن تنفصل معي بمال أو نخبر الدولة » ، فأنكر الرجل وأبى ، فبعث العامل الى قبرها ونَبَّشَه ، وأمر بدقّها ، وهي ميّتة ، في موضع مقتل ، وبعث الى والدها ، وأحضر شهودا توجهوا الى القبر ، وعاينوها وأثرُ القتل في جسدها ، وحالُ تسوية

(1) الزيادة فى الفقرة عن ع و ق .
(2) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « السادر » .
(3) الزيادة عن ع و ق .
(4) الزيادة فى الفقرة عن ع و ق .
(5) الزيادة عن ع و ق .

القبر بعد نبشه وعدمُ جفاف الجرح ينادي عليهم بالكذب ، إلى غير ذلك من أمثالها . ولا تحسبنّ الله غافلاً عمّا يعمل الظالمون .

وإنما أطلنا في أمثال هذه النوازل ليرى الناظر أسباب الخلل والنقصان كيف تطرقت وتدرَّجت في هذه الإيالة ، ولا سبب لذلك الا الملك المطلق ، وتقديم الشهوة والغرض ، على الواجب المفترض .

وبلغ الباي وهو في سفره هروبُ أبي المسرّة فرحات الجَلّولي وأخيه أبي عبد الله حسّونة الى مالطة ، لِمَا بين دار الجَلّولي ودار ابن عيّاد من غَيْرة ومنافسة [في الخدمة] أثّرتْ الاحقاد . ولمّا استقرّت قدم محمد بن عيّاد بالدولة ، وفتح الباي أذنه لتدبيره ، صدرت منه بوادر لدار الجلّولي ، وتوقّعا منه الشرّ فلاذا بالفرار . إلا أنه فرار لم يحطّ لهم قدرا ولا دنّس لهم ذكرا . وثبت عند الباي ان المُعين لهما على الهروب بكراء المركب هو تاجر تونسي يعرف بالمحيرصي ، فبعث الى أخيه باعتقاله . ثم بعد رجوعه استفهمه عن الكيفية وسبب الهروب ومقدار ما حملا معهما [من المال] ، إلى غير ذلك مما يبعد أن يعلمه التاجر [المسكين] ، فأقرّ بأنه كان واسطة في كراء المركب خُفْيَة لِمَا له من المعرفة بلغة إيطاليا ، ولا علم له بما وراء ذلك ، فأمر بضربه فلم يقرّ ، ثم أعاد ضربه . ولمّا عيلَ صَبْرُه اضطُرَّ الى شنق نفسه بتِكّة سراويله ، فأصبح مشنوقا ميّتا بمَحْبسه ، وهو مَخْزَن عُلُوِّ الكاهية بحلْق الوادي [وكان الباي يومئذ به ، فتغيّر وندم ، ولات حين ندم] . (1) غفر الله للجميع .

وفي هذه الوجهة رتّب قُرّاء يقرؤون حزبين من القرآن العظيم [كل يوم] (2) عند ضريح العالم الولي العارف بالله سيدي أبي إسحاق الجبنياني ، من عمل صفاقس .

وفيها أمر بتنظيف فسقية بني الاغلب بالقيروان ، وذلك من فاضل أوقاف السيد الصاحب رضي الله عنه ، لان ذلك من أجلّ طرق البرّ ، على ما به العمل عند المحقّقين من صرف فاضل الحُبُس بعد استقامته في طريق برٍّ يزداد به الثواب للمحبِّس ولا ينقطع به عمله .

(1) ما بين القوسين في هذه الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .
(2) الزيادة عن ع و ق .

وفي هذه السنة 1256 (1840/41 م.) ، وجّه البايُ أبا النخبة مصطفى بَلْهوان الى الدولة العلية العثمانية يطلب من فخامتها لقبَ مشير ، لان باشا طرابلس يومئذ له هذا اللقب . ونهاه وزيرُه ووزير أبيه شيخُ الدولة أبو النخبة مصطفى صاحب الطابع عن ذلك ، وقال له : « الاسلم أن نكون مع الدولة العلية على عادتنا وحالتنا من غير تبديل ولو بِرِفْعة » ، فغلبه هواه ، ورأى ان لا ضرر في ذلك . ولمّا بلغ مطلبه للوزير أبي النخبة مصطفى رشيد باشا ، أسرع للاجابة ورآها ذريعة لرأيه ، فقال للرسول : « يظهر من حال أحمد باشا انه يريد الانخراط في سلك مشيري الدولة العلية ، وقد اسعفت مطلبه بسرور » ، الى غير ذلك من الخطابة ، « فبلِّغْ له مشافهةً نصيحةً مني ، وهي أنه يُظهِر من حاله أنه كواحد من عُمّال الدولة بتبديل صنجق تونس بصنجق الدولة حتى تكون راية الاسلام واحدة ، ويأتي بنفسه الى اسلامبول ليكون مَظْهرًا للعناية السلطانية ، ويؤدي شيئا من المال في كل عام ، وتقديره موكول لرأيه ويجري به العمل ، وان يولي أكابر العسكر بفرَمان السلطنة بحيث يكون الخيار له فيمن يولّيه والسلطان يوافقه على اختياره . فالولاية في الحقيقة له والفرمان لتكون عساكر المسلمين على نسق واحد ، وان يتوقف فيما يقع بينه وبين الدول الاجانب على الاستعانة برأي الدولة العثمانية » ، الى غير ذلك مما ظهر له انه نصح للباي ، لو سبق القدر بسماعها ، ومن جملتها ان يكون ذلك من تلقاء نفسه ، فقال له الرسول : « نبلغ ذلك عنك »

ولما قدم مصطفى البلهوان بلّغ الرسالة مع نيشان المشير ، فاحتفل الباي لقبوله بتعظيم وفخامة ، وتسمّى بالمشير من يومئذ وتلقّب به يكتبه في أوامره . وتوقف في نصح الوزير ، وعلم بذلك ما انطوت عليه النيّة من وزراء الدولة .

وقد كان جانحا الى الالتحام بالدولة أكثر من أسلافه ، لما في ذلك من قوة العصابة الاسلامية ، وظهرت بوارق ذلك من اوائل أعماله . ثم ظهر له أن الاصلح الطاعة والانقياد ، على السَّنَن المعتاد .

*

ثم وجّه عنايته للعلم الشريف ، وأعان طلبته بما بقي أثره ، وطاب في الآفاق خبره . وهو انه اشترى سائر كتب الوزير حسين خوجة المبيعة عليه في الدّين [المتقدم ذكره] (1)

(1) الزيادة عن ع و ق .

بثمن له بال (1) ، واشترى غيرها ، وأضاف اليها كتب آله الموضوعة في خزنة أسلافه بجامع بيت الباشا ، وقال : « وضعها هنا لا فائدة فيه الا المباهاة » . وكانت عُدَّة علمية في فنون شتّى . ولما جمعها ، أمر اهل المجلس الشرعي وأعيان المدرسين بالاجتماع في الجامع الاعظم ، وأمرني بايصال الكتب من قصره الى الجامع .

ومن العناية أن وجّه طابورا من العسكر لذلك ، كل واحد يحمل على يديه قدر ما لا يُتعبه من الكتب .

ولما وصلت الجامع وجدت العلماء ينتظرون وصولها ، فتقدم العسكر على ترتيب نظامي ، كل واحد يضع ما على يديه من الكتب ويخرج من غير الباب الذي دخل منه . وتولّى الجماعة تطبيق اسماء الكتب على دفترها ، ثم وضعت في خزائنها العشرين ، على يمين المحراب وشماله . ثم كُتِب على كل سفر منها رسمُ تحبيسه مصحَّحا بختمه . وأباح للمنتفع إخراج الكتاب من موضعه لمدة عام فقط . ورتّب لها وكيلين يأتي كل واحد منهما للجامع يوما على التناوب ، لمناولة الطلبة ما يحتاجونه . وسهل بذلك طريق العلم على الفقراء ، بل والاغنياء . وكان ذلك في رمضان السنة 1256 (2) . ولم يزل يشتري الكتب ويحبّس ويلحقها بهذه الخزائن . واشترى كتب شيخنا العلاّمة أبي اسحاق ابراهيم الرياحي بعد وفاته ، ودفع أثمانها للورثة ، وحبّسها بالجامع أيضا . ونصّ في [رسم] (3) حبسه عليها انه أهدى ثواب ذلك لمالكها الشيخ المذكور . والاعمال بالنيات .

يا له من عمل ذلّل صعاب العلوم وراضها ، وأنشأ حدائقها ورياضها ، وأجرى جداولها وحياضها ، وأصاب شواكلها وأغراضها . نسخ على غير مثال ، انهلّ به ودق العلم وانثال ، وسرى ذكره مسرى الامثال .

وتفنّنت شعراء العصر في أمداحه . وفي الجمعة الموالية لهذه المَنْقَبة ، خطب شيخ العصر وبركة المصر ابو اسحاق ابراهيم الرياحي على منبر الجامع الاعظم بما نصّه : « الحمد لله الذي رفع للذين أوتوا العلم درجات ، كما خفض لاهل الجهل دركات ،

---

(1) بهامش ق 2 : 216 : « ثمن الكتب المذكورة مقيد بدفتر الدولة وقدره ريالات 28917 » .

(2) بهامش ق 2 : 216 : « وفى هاته السنة بنى هذا الباى كنيسة سان لوى بقرطاجنة »

(3) « رسم » ساقطة من خ ، مثبتة فى ع و ق .

أفمن جعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثلُه في الظلمات . أحمده وحمده من جملة ما به أنعم ، وأشكره على أن علّمنا ما لم نكن نعلم . واشهد ان لا إله الا الله وحده لا شريك له شهادةً رَفَعَ العلمُ قواعدَها ، وأسّس اليقينُ براهينَها وشواهدَها ، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبده المصطفى المختار ، الذي أرسله بنور يكاد سنا برقه يذهب بالابصار ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم باحسان ما تعاقب الليل والنهار . ايها الناس هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولُو الالباب ، ألم تعلموا ان الجهل وصف الخلق والعلم وصف رب الارباب ، الم تعلموا ان ابانا آدم فُضِّل بعلم الاسما ، وأمر بالسجود اليه ملائكة السما ، والعالِم الاسمى ، وقالوا نحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال اني أعلم ما » . . ، الم تعلموا ان الدين علم وعمل ، فمن لم يكن له علم فعلى اي شيء حصل ، أيظن الجاهل الموفور ، انه ذو بصر نافذ في الامور ، كلا بل هو رجل أعمى مغرور ، فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور . وحيث كان العلم بهذا الشرف الاثيل ، والرتبة العليا التي ليس لها مثيل ، فما للهمم متقاصرة عن استطلاع طوالع انواره ، وما بال العزائم متقاعدة عن استكشاف خبايا أسراره ، أخَوَر في الطباع ، ام فقد لموادّ الانتفاع ، كيف وقد تيسرت في هذا الزمان المبارك اسبابه ، وفتحت للمعلمين والمتعلمين أبوابه ، وتضوعت في بيت الله أعطاره ، وطلعت فيه شموسه وأقماره ، وذلك بهمّة الملك الهمام الخطير ، الباي احمد الباشا المشير ، الذي وسع الجمّ الغفير ، بالعطاء الكثير ، ليجد ثوابه عند الله مدّخرا ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، واعلموا ان العلم النافع ما قارنه الاخلاص في التعلّم والتعليم ، والعمل بما يحكم به من التحليل والتحريم ، والا كان جديرا ان ينبذ بالعراء وهو سقيم . وقد مثّل العلماء العلمَ النافع بشجرة ، ثابتة الاصل حلوة الثمرة ، يستريح براحتها (1) المحزون ، ويستلذّ طعمَها الآكلون ، وغَيْرَه بشجرة ما لها قرار ، خبيثة الرائحة مُرّة الثمار ، يستمج (2) رائحتَها المستنكهون ، ويستبشع مذاقها الطاعمون ، وتلك الامثال نضربها للناس وما يَعقِلها الا العالمون . وفي الحديث الشريف ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « العلماء ورثة الانبياء » وقال ، صلى الله عليه وسلم : « يستغفر للعالِم اربعة أشياء — الملائكة في السماء ، والطير في

(1) الراحة : الساحة .

(2) كذا في خ و ع و ق ، ولعلها : « يستسمج » .

الهواء ، والدواب في القفار ، والحيتان في البحار » . وقال صلى الله عليه وسلّم : « فضل المؤمن العالم على المؤمن العابد سبعون درجة » . وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه : « حضور مجلس عالم خير من صلاة الف ركعة ، ومن عيادة الف مريض ، ومن شهود الف جنازة ، فقيل : يا رسول الله ، ومن قراءة القرآن ؟ فقال ، صلى الله عليه وسلم : وهل ينفع القرآن الا بالعلم » .

جعلني الله وإياكم ممن علِم وعمِل ، وأخلص لله فقُبل .

ألا إن أنفع ما تنشرح به الصدور ، وأصدقَ حديث منطوق ومسطور ، كلام مولانا الغفور الشكور . اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ » (1) .

ومدحه [على ذلك غالب شعراء العصر منهم] (2) النحرير العالم ابو عبد الله محمد الطيّب الرياحي ابن شيخ العصر بقصيدة بديعة ، نص المقصود منها :

تمدُّ بحارا زاخرات يمينُهُ	سوى ان ذاك المدَّ ليس به جزر
ولمّا ازدرى الدنيا عطاءً سمت به	الى الاوج نفس أمر أخطارها إمر
فأهدى الى البيت الكريم خزائنا	من العلم يفنى الدهر وهي له ذكر
فلله بكر في المعالي جلوتَها	يطيل اعتبارا في محاسنها الدهر
تَسَاقى الورى منها كؤوسَ مسرَّة	وفاح لديهم من شذا حمدك العِطْر
فجوزيتَ من مَلْك به انتعش النَّدى	ودينُ الهُدى واستُؤصِل الجهل والفقر
ولا زلت محروس الكمال مؤيَّدا	وصاحَبَكَ الإقبال واليُمْن والظَّفر

وقال في ذلك عَصْرِيُّنا (3) العلامة ابو عبد الله محمد بيرم من قصيدة :

تاهت على كل البلاد بلادُه	وسما بها الامراء تحت حجاله
أبدى بها(4)الجيش العرمرم وشّحت	اصنافه بالأُسْد من أبطاله

(1) س 35/آ 28 .
(2) ما بين القوسين عن ع و ق .
(3) كذا في خ ، وفي ع و ق : « صاحبنا » .
(4) في خ : « أبدابها » ، وفي ع و ق : « أبوابها » .

وأنـال مسجدَهـا المعظّـمَ رِفْـدَه وسقـى مُصَحَّحَ نَبْتِـه بـزُلالـه
وحبـاه من كـتـب العلـوم نفـائسـا تـرزي بنفـح الـروض في آصـالـه
أطلعتَهـا في أفْـق فضلـك أنجمـا يمحـو بها الساري دُجـى إشْكـالـه
وأجَلْـتَ فيها راحـةَ المُثْـري ومَـن قد صُفِّـرت كـفّـاه مِـن إقـلالـه
وبهـا أزحـتَ شـدائـدا عن عـاجـز وكـشفـتَ مـا أصمـاه من أهـوالـه

*

وفي محرم من سنة 1257 ، سبع وخمسين (فيفري — مارس 1841 م.) ، رتّب الباي قانونا على نخيل الاعراض لا ضرر في أصله .

*

وفي ربيع الاول من هذه السنة (الثلاثاء 4 ماي 1841 م.) احتفل للمولد الشريف النبوي ، لما طبع عليه من عظيم المحبة في المصطفى وآل بيته .

وكـان يوم المولد بحاضرتنـا كـمواسم السنـة ، غير العيـدَين ، ويزيـد باجتمـاع الصبيان في المكـاتب مفروشة (1) يصلّون على النبـي صلى الله عليه وسلّم ، فاقتضى نظره أن شأن المولد يجب له من السرور والفخامة ما لا يجب لغيره ، وأمر بتنوير سائر المآذن بالحاضرة ليلة المولد وليلتين بعده ، [والزيت من عنده لا من احباس الجوامع] (2) .

وفي ضحى يوم المولد تجتمع العلماء والاعيان بالجامع الاعظم ، ويأتـي البـاي من دار المملكـة ببطحاء القصبة راجِلاً على أبّهة وفخامة ملـكية ، وأمامه سماطان من أمراء العسكـر بلباس المواكـب ، يشق بهم سماطين من العسكـر واقفين على أهبة نظامية من باب الـدار الى بـاب الجامع ، ويدخل من بـاب العطـارين حتى ينتهـي الى المحـراب ، فيجلس حذو إمام الجامـع ، وكـان يومئـذ الشيـخ ابراهيم الرياحـي ، فيُستفتح بقـراءة تأليف للشيـخ اختصره من تـأليف سيدي مصطفى البكـري ، وذكر أن الداعي لذلك هو الباي احمد المشير ، ذكـر فيه فضائل المولد وما وقع فيه من الارهاصات (3) عنـد

(1) اى بالزرابى ونحوها زيادة عن الحصير المعتاد .
(2) الـزيـادة عن ع و ق .
(3) فى خ : « الارهاصات » ، وفى ع و ق : « دلائل النبوة » . والارهاص : احداث أمر خـارق للعـادة دال على بعثة نبى قبل بعثته (التعريفات للجرجانى) .

ولادته ورضاعه والنسب الشريف وغير ذلك ممّا يقتضيه الحال . هذا كلّه ومجامر الطيب فائحة ، وأنوار الشموع والشجرة المباركة لائحة . ولما ينتهي الى الابيات المعروفة لبعض الصالحين وهي :

قليل لحق المصطفى الخط بالذهب ... على ورق من خط أحسن من كتب
وان تنهض الأشراف عند سماعه ... قياما صفوفا او جُثِيّا على الركب
أما الله تعظيما له كتب اسمه ... على عرشه يا رتبة سَمَت الرتب
فقم أيها الراجي لنيل سعادة ... قيامَ محبٍّ صادق الحب والادب
ففي الذكر لاسم الحب إحضارُ ذاته ... بقلب له في الحبِّ وجد له لهب (1)
ورب جليل عظّم الناس ذكره ... فكيف وهذا سيد العجم والعرب
عليه صلاة الله ثم سلامه ... يكونان للرضوان من اعظم السبب

ولما يصل الامام الى قوله « فقم أيها الراجي » البيت ، ينهض الباي قائما ، ويقوم كل من في الجامع ، وتقع الإشارة من المِئذَنة الى القصبة فيترنم المدفع ويسترسل من الابراج (2) . ويكمل الإمام الابيات قائما والناس كذلك . ثم يجلس للدعاء ويختمه بالفاتحة . ثم يؤتى بماء السكّر لسائر من في الجامع ، ثم مياه الطيب . وينفضُّ الموكب فيرجع الباي بموكبه وفخامته الى الدار ، ويأذن بتسريح العسكر ، ثم يركب الى باردو. ويدوم ترنم المدافع صباحا ومساءً أيام المولد الثلاثة . ويفيض فيها العطاء والصدقات للقُرّاء الذين يُحيُون تلك الليلة بالقرآن العظيم والامداح النبوية وغيرِهم . ويطعم الفقراء في تلك الايام . ومن الاتّفاق ان كان مولد هذه السَّنة موافقا لمولده ، صلى الله عليه وسلم ، بالحساب الشمسي ، وهو العشرون من نيسان .

وجرى بهذا عملُ مَن بعده من الملوك لعصرنا هذا .

وقد قلت له حين شرع في هذا الترتيب : « المناسب أن تخرج من باردو راكبا ، وعندنا بحمد الله من العسكر ما يكفي للوقوف بين باردو والجامع » ، فقال لي : « ذلك يفعله السلطان العثماني وليس لنا ان نفعل مثله ، فالمناسب الادب معه » . ثم قلت له :

(1) هذا البيت مثبت فى خ و ع ، ساقط من ق .
(2) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « من ابراج الحاضرة وضواحيها وحلق الوادى » .

« هل ترى أن تحبّس على هذه المـأثـرة شيئا ؟ » فقال لي : « نحبّس عليها ملِك تونس، ويستحيل أن مَن يقوم مقامي يتركها ويرضى لنفسه نسبة الاستخفاف بالمولد النبوي » .

وبعد ذلك كـاتب رئيسَ مجلس الشريعة بالقيروان أبا عبد الله محمد صدّام أن يفعل بالجامع الاكبر مثل عمل جامع الزيتونة ، وكـاتب العاملَ يعطيه الزيت والدراهم .

وكـان يبيت ليلة المولد بالحاضرة في داره بالقصبة ، ويصلّي العشاء بالجامع الاعظم ، ثم يخرج راجلاً بلا سلاح للدوران في البلاد وأسواقها كـعامّة الناس ، يزاحمهم ويزاحمونه. فاذا وقف له أحد أو تأدب أنكـر عليه ذلك ، ويقول [لمن حاذاه] (1) : « أنا في هذه الليلة كـواحد من سكـّان الحاضرة » . وهو على بشاشة واسلوب ، يجلب بجاذبه القلوب .

ولقد اجتاز في ليلة مولد بصبيٍّ ضلّ عن أبيه في مزدحم النـاس بمحجّ التبّانين ، فاستغاث باكـيا ، فأخذه من الطريق وأوقفه ووقف حـذوه يحرسه حتى أتـى أبوه وعرفه وضحك الصبيُّ ، ثم مـرّ .

وابواب المدينة ليلةَ مبيته بالحاضرة مفتوحة ، واسباب السرور والهناء ممنوحة .

⁂

وفي جمادى الثانية من السنة 1257 (جويلية — اوت 1841 م.) (2) ، التزم ابو عبد الله محمد بن عيّاد وظيفة دار الجلد بسبعمائة الف ريال ، وقد كـانت بثلاثمائة الف ريال.

ومحصل هذه الوظيفة ان سائر جلد البقر بالمملـكـة تأخـذه الدولة [من الجـزاريـن وغيرهم] بتافـه لا عبرة به ، وكـأنه في مقابلـة زكـاة البقـر . ثم يدبـغ بدار الجلـد ويباع لاهل صناعاته بالمزايدة في مجتمع بالحاضرة يعرف بحلقة النعال (3) . ويباع منه ما زاد على احتيـاج المملـكـة لخارجهـا . ولا يتصرف في ذلك غير [من يلتـزمه من] الدولـة . ومن توابـع هذا الوظيف عصر العسل بمعصرة في دار الجلد وتأخذ الدولة الشمع . وتمتـدُّ

---

(1) الـزيـادة عـن ع و ق .

(2) كـذا في خ ، وفي ع : « جمـادى الاولى من السنة 56 » ، وفي ق : « جمـادى الاولى من السنة 57 » لكن الـرقـم كـان 6 غيـر الى 7 .

(3) « اسمها الاصلي حلقة النحال ، قلبوا حاءها عينا لاعتقادهم ان كلمة النعال هي المناسبة لذلك ، لـوجود سوق صنع الاحذية المجاورة لها » تاريخ معاليم التوحيد لمحمد بن الخوجة ص 11 — تونس 1939 .

أيدي الملتزمين في الناس باتّهامهم باخفاء الجلد ، حتى إن أتباعهم من المفتشين يدخلون بيوت العربان ويُلقُون فيها ولو قدر الراحة (1) من الجلد ، ويفعلون معهم في شراء عقوبتهم ما يجدونه عند الله حاضرا . ويتّهمونهم بافساد بيوت النحل أو حرقها ، ولو احترقت بأمر سماوي . ويشتري المسكين نفسه منهم [ارتكابا لاخفّ الضررين] . والتغالي في هذه اللزمة معتبر فيه هذه العقوبات المالية . وقد كانت هذه اللزمة في اوائل هذا القرن بيد جماعة من يهود البلاد ، وليتها دامت بأيديهم ، إذ لم يفعلوا فعل هؤلاء المسلمين ولا ما يقرب منه . وأول مَن زاد على اليهود والتزمها بعدهم ، أبو الربيع سليمان بالحاج ، لكن على غير هذه الحالة الفظيعة التي كاد ان ينقطع بها العسل والشمع من تونس ، وقد كانت تخرج القناطير المقنطرة منهما(2) . والمُلْجِيء لذلك كثرة الإنفاق على العسكر المحبوسين

وأتْعَبُ النّاسِ ذُو حالٍ تُرَقِّعُها يَدُ التّجَمُّلِ والإقْتارُ يَخْرِقُها

***

وفي ذي القعدة من السنة 1257 (ديسمبر 1841 م.) ، عزم الباي على جمع العسكر من القيروان والسواحل ، وتسريح من تقدمت خدمته (3) ، فكتب لكل بلد منهم من قلم العبد الفقير ما نصه : « من عبد الله سبحانه ، الراجي عفوه وغفرانه ، المشير أحمد باشا باي ، وفّقه الله لما يرضاه ، وأعانه على ما أولاه ، الى أولادنا كافة أهل سوسة والمفتين والقضاة والايمة والمشايخ وسائر أولي الولايات ، والخاصّ والعامّ ، ممن في ذلك الوطن من الاسلام ، شرح الله للحق صدورهم ، وأصلح بمنّه أمورهم . أما بعد فان الله استرعانا جماعتكم ، وحرّم علينا إضاعتكم ، وكلّفنا القيام بمصلحتكم ، وحفظ إيالتكم . ولا يتمّ هذا المراد ، الا بالعساكر (4) والاجناد ، في كل أرض وبلاد ، وعندنا من العسكر جيش مضت لهم في الخدمة أعوام ، وبلغوا من الصناعة الحربية أقصى مرام ، شأنهم السلاح وما يتعلق بالحرب ، والاستعداد لمواقع الطعن والضرب ، وشغلناهم في هذه الاعوام ، بما يجب على سائر الاسلام ، من هذه العبادة الدينية ، عن الاشتغال

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « قدر اصبع » .
(2) ما بين القوسين في الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .
(3) كذا في خ ، وفي ع و ق : « من طالت خدمته » .
(4) كذا في خ و ع ، وفي ق : «الا بتكثير العساكر » .

بأحوالهم الدنيوية ، وقد حصلوا ان شاء الله من الاجر زادا نافعا لأُخْراهم ، واقتضى النظر أن نسرّحهم لامور دنياهم ، ونكتب عوضهم من بلدانكم ، ما نُعِدُّه لحفظ أوطانكم ، وحماية أموالكم وأبدانكم ، وننظّمهم في سلك عائلتنا العساكر إخوانكم ، يقيمون زمانا على الخدمة في تعلم هذا العمل ، حتى نبلغ في اتقان تدريبهم الامل ، ثم نسرّحهم كما فعلنا بأمثالهم الأُوَل . وفي الحديث الشريف : « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضه بعضا » ، وكيف لا نتعاون على طاعة جعلها ربّنا علينا فرضا . وها نحن وجّهنا لكم الفاضل الكامل الأَرْضَى ، الثقة الهمام الأَعزّ الأَحْظَى ، إبنَنا مصطفى باش آغة ينتخب من يصلح لذلك من رجالكم ، ليكون استعدادهم سببا في صلاح أحوالكم ، وبلوغ آمالكم من ثمرات أعمالكم ، وتجدون ثواب ذلك عند مآلكم . فالواجب عليكم ان تتسارعوا لإعانته في هذا الشان ، ولا يمتنع منه إنسان ، اذ شرطه القدرة والإيمان ، والمؤمن يسعى في إعزاز دينه ، على قدر إيمانه ويقينه ، والعاقل يَبذل في حماية وطنه وبلاده ، غايةَ وُسْعِه ومنتهى اجتهاده . وقد قال سيّدُ ولد عدنان : « حب الوطن من الإيمان » ، ومن براهين محبّته ، بذل النفوس لإمضاء شوكته ، والاستعدادُ للمدافعة عن حوزته ، وحفظُ أهله وجماعته . ومن امتنع او قصّر فقد أمرنا ربُّنا بعقابه ، وتوعّده يوم القيامة بعذابه ، حيث تقاعد عن حماية دينه وإعزاز كتابه . وأنتم وفّر الله أعدادكم ، وكَبَتَ بكم أضدادكم ، أُعيذكم أن لا تكون منكم جيوش لحفظ ملّتكم ، وحماية تربتكم . حاشا نفوس الاحرار ، أن ترضى بهذا العار ، أو تميل إلى البطالة والراحة ، عن حماية البلد والساحة . والله يجعل البركة في جماعتكم ، ويُعينُكم على القيام بواجب طاعتكم . فاقرؤوا كتابنا هذا على العامة في جامع صَلاتكم ، واعلموا أنه من عباداتكم . والله يُصلِح القولَ والعمل ، ويبلّغني من إعزازكم منتهى الامل ، انه قريب مجيب» .

وكتب في 12 ذي القَعْدة (1) ، سنة 1257 (الاحد 26 ديسمبر 1841 م.) .

وتوجه هذا الوزير المأمور بِكَتْب عددٍ معلوم ، وانتخابُه لاجتهاده . فأتى بآلاي كامل (2) ، توخّى فيه الحق وعدم الضرر والتسوية ، وراعى الايتام والارامل

(1) « 12 » ساقطة من ع و ق ، مثبتة في خ .
(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : « بثلاثة آلاف » .

والشيوخ ، ولم يكتب من يقوم عليهم ، ولم يُثْبِت منهم أحدا ، وكأنه حاذَى بذلك ما يشبه قانون التنظيمات . وطاب في الوجهة خَبَرُه ، وحسن أثره .

***

وفي اواخر محرم من سنة 1258 ، ثمان وخمسين (اواسط مارس 1842 م.) ، وجّه الباي هدية للدولة العلية ، وهي كرويطة متمومة بمدافعها وسائر ما يلزمها ، وهي من عمل تونس ، وخمسون الف ريال دورو ، واشياء من نتائج البلاد . وسبب ذلك ان الصدر الاعظم مصطفى رشيد باشا لمّا لم يعمل الباي بنصيحته السابقة ، أكثر بالتعاليل ، واجتهد في امضاء التنظيمات الخيرية بتونس ، حتى قال : « لا يمكن ان السلطان يتصرّف بقانون تنظيماته ، وباشا تونس يتصرف في المسلمين بلا قانون شرعي ولا سياسي ، ومآل ذلك الى خراب المملكة لا محالة » . ويقال ، والله اعلم ، انه سلّم في الوزارة لاجل ذلك . ولما بلغ ذلك للباي استشار وزراءه ، فأشاروا عليه بارسال شيء من المال على انه هدية (1) ، ويتوجّه من يستكشف الخبر ويناضل عنه كأنه من تلقاء نفسه . واختير لذلك [الشيخُ المسنُّ الاجلُّ] ابو محمد خير الدين كاهية دار الباشا ، والعبدُ الفقير . وسمّانا معا في مكتوبه باللغة التركية . ولما أردنا السفر قال لي الباي بمحضر خير الدين [وغيره من الوزراء] : ما تُنتِجُه وجهتكما من المصلحة تُنسَبُ لكما معا ، وان وقع ضدُّها فلا أَنْسُبُ لخير الدين منه شيئا ، ولا اكافح شيبته بملام ، انما الملام عليك وحدك ، فكن عند الظن . [ولما استعظمتُ الامرَ] (2) أصحبني شيخُنا العلامة ابو اسحاق ابراهيم الرياحي مكتوبا منه للعلامة الحجة القدوة السيد عارف باي ، وأعطاني مسودّة المكتوب ، وهي عندي بخطه أتبرك بها ، ونصّها : « المقام الذي رفع الله قدره ، وأكمل في سماء العزّ بدره ، وطهّر من الدنس سرّه وجهره ، وطيّب في أنف الدهر ذكره ، مقام مولانا الهمام الامجد ، والإمام الاوحد ، غرة سعادة الايام ، وواسطة عقد نظام العلماء الاعلام ، صدر صدور الافاضل ، ومزية الاواخر على الاوائل ، مَعدِن الاسرار واللطائف ، وكعبة العلم التي يثوب اليها كل طائف ، ابو العباس سيدي أحمد عارف ، أدام الله إسعادَه ، وأفاض على البرية إمداده ، سلام تفوح أعطاره ،

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « مع الهدية » .

(2) ما بين القوسين في الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

وتبوح بسرائر المودّة أسراره ، لا يهتدي لكماله تنقيص ، ولا يعتري عمومه تخصيص .
هذا وإنـي من حين بلوغ كتابكم الكريم ، المعرب عن ودادكم القديم ، المصحوب بصلتكم المرفوعة على المَفْرِق ، المذكّرة بالسُّنْدُس والاسْتَبْرَق ، مقيم على شكر إفضالكم الجليل ، إقامة شامة وطفيل (1) ، سائل عن أحوالكم كلّ مَظِنّة ، فيقع الجواب بما لله فيه المنّة . هذا واستمدّ من مدد جاهكم المقبول ، وعزكم الذي لا يحول ولا يزول ، إعانةَ احد ابناء قلبي ، الذي هو أعزّ من أبناء صُلْبي ، نخبة نجباء أبناء درسي ، وأشْكَرُ مَن تمتّع بثمار غرسي ، مختار ديوان الإنشاء ، المبوّأ من مراتب الدولة ما يشاء ، القائم منها مقام الانسان من العين ، المنزّل من الباشا منزلة الحسن والحسين ، فُلان (2) ، فانه وارد إلى حضرتكم العلية ، في قضاء لُبانة سلطانية ، فمرادنا من عليّ همتكم إعانَتُه بالامداد والإسعاد ، حتى يبلغ من أمله نهايةَ المراد . والله تعالى يُبقيكم للاسلام ، ويجمع شملكم بخير الانام ، في الدنيا قبل يوم القيام ، آمين . من معظّم قدركم ابراهيم الرياحي » . اهـ .

وسافرنا في الثامن والعشرين من محرم سنة 1258 (الجمعة 11 مارس 1842 م.) ، ومعنا أبو عبد الله كشك محمد في الكرويطة المُهْدَاة . ولما وصلنا القسطنطينية العظمى قابلتنا الدولة العلية بما يقتضيه فضلها ، وقَبِلت الكرويطة أحسن قبول . وأتاها السلطان عبد المجيد وطلع إليها وأكل فيها ما أعددناه لتلقّيه . وقابلنا في الجفن المعروف بالمحمودية ، فاستحسن الهدية وشكر المُهدِي ودعا له وللوطن ، [ومركز دعائه حفظ عصابة المسلمين وإعانتهم على ما فيه الصلاح] (3) .

ووزير البحر يومئذ طاهر باشا ، والصدر الاعظم عزت محمد باشا ، ورشيد باشا إذ ذاك متخلٍّ عن الخطّة . ثم استدعانا « حربية ناظرى » ، وهو نجيب علي باشا ، من أعيان الوزواء يتكلم بالعربية ، الى بستانه في البوغاز ، وأكرم مبيتنا عنده ، وكلّمنا في شأن اللحمة الاسلامية بأداء شيء من المال في كل سنة [موكول تعيين مقداره للباشا ، ولو أقل مما أتيتم به الآن ، اذ المقصود به ربط الالتحام لا الالتحام] (4) ، فقلنا له :

(1) شامة وطفيل : جبلان قرب مكة (ياقوت) .
(2) كذا في خ و ع ، وفي ق : « الشيخ احمد بن ابى الضياف » .
(3) الزيادة عن ع و ق .
(4) الزيادة عن ع و ق .

« إن الالتحام لم يزل في زيادة ، ما دامت العادة . وعلى فرض ان الباي يخرقها ، فأهل المملكة لا تُطيعه على ذلك ، لان أكثرها بوَادي العربان » . ثم استدعانا الصدر الاعظم عزّت باشا ، ومعنا القبطان كشك محمد ، فتكلّم في شأن المال وأجبناه . ثم قال لنا : « أترضون أن يكون صنجق بلادكم في هذه الحاضرة مخالفا لصنجق الاسلام ؟ » ، فتقدم له كشك محمد وقال له : « ان هؤلاء لا دخل لهم في شيء من لوازم الشقوف (1) ، لانّهم رُكّاب ، واما الصنجق فهو أمانة الله عندي وفي وجهي ، لا أزيله إلا بعد زوال رأسي . ونحن الآن تحت أمركم ، ويدكم طائلة . فابعث لإزالته وأبدله بما شئت » ، فقال له : « المناسب ان يكون ذلك منكم بلا غصب » ، فقال له القبطان : « نبلّغ ذلك لصاحبه وكاتبِه أنت بما تراه » ، فقال : « بلّغوا ذلك عنّي مشافهةً له » ، فقلنا له : « نعم » .

ثم كلّمنا في شأن التنظيمات الخيرية وقال : « ان الحال يقتضي السرعة بترتيبها ، وأنتم بدونها في خطر » . ثم خصّني من الجماعة وقال لي : « ان السيد عارف باي عنده كلام معك في ذلك » . وأما طاهر باشا فلم يكلمنا في شيء من ذلك ، وقد أكرمنا غاية الإكرام ، ويبدو من حاله ان رأيه مخالف لرأي رشيد باشا .

وتفضل السلطان على بحرية التوانسة وضبّاطهم بخمسين ألف قرش وزّعها خير الدين على جماعتهم .

ثم استدعاني السيد عارف باي لضيافته ، وسامرتُه فرأيت بحر العلم الزاخر ، ومِصْداقَ « كم ترك الاوّل للآخر » ، ومتانة الدين ، وفكر المجتهدين . وسألني عن شيخنا ، وقد بعثتُ له مكتوبه يوم وصولنا ، وبالغ في الثناء على الشيخ [شأن المنصفين] (2) . ثم تكلم في شأن التنظيمات وأطال ، وأنها من اصول دين الاسلام ، حتى قال : « يقبح بنا ، معاشر المسلمين ، ان يغصبنا غيرُنا على أعظم أصول ملتنا ، وهو العدل الذي يحبه الله ولا يحب غيره ، وكأن هؤلاء الملوك يريدون مشاركة الله في

---

(1) في خ : « الشقوف » وفي ع و ق : « المراكب »

(2) الزيادة عن ع و ق .

كونه يفعل ما يريد ولا معقّب لحكمه » ، الى غير ذلك مما تقدم في العقد الاول من هذا الكتاب (3) .

وكلّما عارضتُه بشبهة اجتثّ أصلها وبتّ وصلها . وأوصاني ان أقول للباي على لسانه : « الدين النصيحة لله ورسوله وأيمّة المسلمين وعامّتهم . وهذا الامر لا بدّ منه ولو بعد حين ، فمن الحزم ان يتدرّج العاقل في سُلّمه باختياره » . ولم يكلمني في غير التنظيمات من المطالب ، وهو ممن يرى مخالفةَ رشيد باشا ، ويُنقَل عنه انه يقول : « لان يكون سلطانُنا سلطانَ السلاطين خير من ان يكون سلطان الباشاوات » وبهذه السياسة اتسعت المملكة العثمانية وسهلت عليها الحروب . ثم صار هذا الفاضل يطلبني لمسامرته والمبيت عنده ، مراعاةً لمكتوب شيخنا المتقدم ذكره ، وذلك من فضله . وغَنِمتُ من فؤاده ما يُزري بالنُّضار ، ورأيت ذلك الفكر كيف يَسبَح في لجج الانظار .

سامرتُه ليلة فأومض برق من جهة المغرب ، فقال لي : « هذا البرق من جهة بلادكم ، فهل لك ان تقول فيه شعرا ؟ » ، فاعترفت بقصوري وأخذت دَواة وناولني بطاقة ، وقال لي : « كن في ذلك الركن » . ثم أخذ كتابا وشرع ينظر فيه ، فلم يَفُه أحد من الجماعة ببنت شَفَة حتى أتممتُ ما تيسّر ، وهو :

تألّق غربيا فذكّرني الخَضْرا ... وأذكى لنار الشوق في كبدي جمرا
اذا ما سلا قلبي بروض علومكم ... أتته جنود العهد تطلبه قسرا
تُثير قَتام النَّقْع في رَحْب صدره ... فتملك منه القلب والسرّ والجهرا
ويرتاح للغارات من عَدْوِ خيلها ... فيوري لها جنبا لتأخذه قهرا
حنينا إلى أنسي ومَعْهَدِ رِفْقَتي ... ومنشا شبابي لا عَدِمْتُ به فَخرا
بلادي التي ربّت وحنّت وهذّبت ... فبائسها ما إنْ يجوع ولا يَعْرَى
سقى حَلْقَ واديها وكلَّ حُصونها ... من السحب غيث يُمطِر العزَّ والنصرا
بنفسيَ أفديها وأحمدَ حِبَّها ... وأقطع في مرضاته البَرَّ والبحرا

(T) بهامش ق 2 : 223 ، وبخط مغاير : « وجد بآخر مكتوب من المؤلف حال ايابه ، مؤرخ فى 7 يوم الاربعاء سابع جمادى الاولى سنة 1258 ، ما نصه : وقد وجدت باسلامبول رجل فقيه (كذا بالاصل) تونسى اسمه السيد محمود قبادو ، يقرىء البيضاوى . وله رغبة فى الرجوع لوطنه ، فأسعفته . ووجه معى صناديق كتبه نحو ثمانية . ووعدنى أن يلحق فى الفابور ، فوجدته بمالطة سبقنا . ولما تتم الكرنتينة يقدم . وهذا الرجل أصله مؤدب بدار سيدى الكاهية ، وسافر من تونس وقرأ . وهو الآن من اعيان الطلبة ، وما كنت اعرفه من قبل الا فى اسلامبول وذكر لى انه يعرف سى حمدة الشباب ، والسلام » .

حماها وألقى نفسه دون نَيْلِها ... وقد جالت الايدي بِضَرَّتِها الأُخرى
وصعّب ملقاها وسهّل عيشها ... وزيّن مرآها فللّه ما أدرى !
فأضحت وعيناها من العشق ما ترى ... سواه ، وقد ضمّته ،في جيدها صدرا
فلا زال منصورَ اللواء مؤيَّدا ... وفخرُ بني عثمان يُلبسه سترا
هُمَامُهُمُ عبدُ المجيد إمامُه ... وقدْوتُه في كل مُعضلة كبرى
يدوم له التأييد والنصر والهنا ... ليُبقي لدين الله من عزِّه ذِكْرا

وناولتُه ذلك على خجل فلمحه بعين الرضى ، وقرأه على الحاضرين ، ثم قال لي : « ناشدتك الله أيّ الضرّتين أردتَ ؟ » ، فقلت له : « المتبادر في الخارج » ، فقال : « كلٌّ منهما متبادر » ، وكأنه استظرف ذلك . وقال للحاضرين : « كاشفتُ عن ضمير الشيخ فاذا فيه ان ضرتها الاخرى هي طرابلس ، وسياق الحال من اسباب قدومه يشهد لي ، ولفظ « الاخرى » ايضا يشهد لي » .

وما زلنا في كرم تلك الدولة العلية ، وفواضلها الجلية ، الى ان تمّ طرز السِّتْري (1)، فرجعنا ، وأتى معنا القابكايه (2) ، واسمه عارف زكي ، من رجال القلم ، في فرقاطة عثمانية ، ومعه نيشان يوضع في مقدم الشاشية ، زيادة على نيشانه الاول ، يلبسهما معا ، وثوب محلّى وهو الستري . ووجدنا الباي بحلق الوادي ، فأكرم رسول الدولة وغمره باحسانه ، وأنزله في مَنُّوبة . ولم يفتح له باب المخاطبة والحِجَاج الذي قدم لاَجْله ، واشتد حذره لمّا علم تصميم الاكثر من رجال الدولة على رأي رشيد باشا في التنظيمات ، لانه أجاب الدولة بأنه يفعل ، ولا يجد عُذْرا ولا بُدًّا منها ، وأنّ الدولة العثمانية تجد اليه السبيل شرعا لغصبه على فعلها ، لا سيما والطبع البشري مجبول عليها .

*

وفي يوم الاثنين ثالث وعشرين جمادى الثانية من السنة 1258 (1 أوت 1842 م.) ، عزل الداي مصطفى الطرابلسي (3) . وسببه الظاهري ان الفقيه الوجيه أبا المحاسن يوسف ابن العالم الفقيه أبي يعلى حمزة الجباس ، ركبه دين أثقل ظهره ، وسُجِن لاجله في

(1) رداء مطرز كان من الازياء الرسمية .
(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : « القابكاهية » ، ومقابله في الاوربية : Hospodar
(3) كذا في خ ، وفي ع و ق : « عزل الباي الداي مصطفى المتقدم ذكره » .

مجبس الداي ، فوقعت مشاجرة بينه وبين أحد المساجين ، ووصل خبرهما الى الداي ، فأحضرهما وأمر بضرب الفقيه يوسف الجباس [بين يديه] ، فنمى الخبر للباي ، وكان غيورا على أهل (1) البلاد ، فعزله وأولى عوضه باش حانبة احمد داي المتقدم جميل أثره في قومة (2) الترك سنة 1231 ، إحدى وثلاثين (1815/16 م.) . وبعد ايام قليلة عَمِيَ مصطفى المعزول وتوفي إثر ذلك . والسبب الحقيقي في عزله انه لما قُرِىء فَرَمان التنظيمات ، وهو ممن يشار اليه في ذلك الموكب ، شرع يبكي ويفسّر للناس [بالعربية] معاني الفرمان المجبول عليها الانسان ، فأسرها [الباي] في نفسه ، ويذكرها في خواصّه ، حتى وجد [لِعَزْله] (3) هذا السبب (4) .

وفي شعبان من السنة 1258 (سبتمبر — اكتوبر 1842 م.) ، رتّب الآلاي الخامس ، واقتضى حزمه أن يدفع لاميره ، وهو صهره الاجلّ أبو عبد الله محمد المرابط الغرياني من أعيان بيوت القيروان ، الألوية في موكب مشهود ، وأمرني ان أقوم في الموكب بمقال مناسب ، تصفّحه قبل قراءته .

ولمّا كان يوم الاربعاء السادس عشر (5) من الشهر (21 سبتمبر 1842 م.) ، جمع اكابر العسكر في المحكمة سِماطَين ، ووقف ابن عمّه أبو عبد الله محمد باي عن يمينه ووزيره أبو النخبة مصطفى خزنه دار حذوه ، والوزير مصطفى صاحب الطابع عن شماله والوزير ابو النخبة مصطفى آغة حذوه ، وبأيديهم الصناجق ، وآل بيته مُحْدِقُون به . ولما أخذت الناس مراكزَها أشار إلي ، فقلت ما نصّه :

« الحمد لله الذي جعل للراية شانا ، وألّف بين قلوبنا فأصبحنا بنعمته إخوانا ، وعلى طاعة أميرنا وحماية وطننا أعوانا ، نفزع لذلك شيوخا وكهولا وشبّانا ، وأشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة تملأ القلب إيمانا ، واشهد ان سيدنا محمدا عبده ورسوله أرفع الانبياء مكانا ، صاحب لواء الشفاعة يوم ينصب الحقّ للخلق قِسْطاسا وميزانا ، وعلى آله وأصحابه الذين كانوا بالنهار أسُودا وبالليل رُهْبانا ، حتى شيّدوا من معالم الملّة أركانا .

---

(1) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « على أعيان البلاد » .
(2) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « ثورة الترك » (انظر ص 119 ج 3) .
(3) ما بين القوسين فى الفقرة ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .
(4) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « هذا السبيل » .
(5) هو 15 حسب التقويم .

ايها الوزراء والامراء ، وأعيان الكبراء ، وحَمَلَة السيوف ، ورؤوس الصفوف ، والامناء على الالوف ، ومن لهم المقام المعروف ، أخاطبكم بلسانكم ، معبّرا عن الثابت في جَنانكم ، الساري مسرى الدّم في أبدانكم ، عامّتكم وأعيانكم ، ان مولانا وسيّدنا المشير احمد باشا باي وليّ نعمتنا ، ومدارَ عصبتنا ، واجبَ الطاعة بالحق ، على من في هذا القطر من الخلق ، ومن نرمي رؤوسنا قبل أن تُسام عصاه بشقٍّ ، مستحقّ الإمارة إرثا واكتسابا ، جزاء من ربك عطاء حسابا ، استأنف لهذه الدولة الحسينية شبابا ، وانتُدِب إلى إعزاز نسبتنا التونسية انتدابا ، وألبس قطرنا من شعار الرفعة جِلْبابا ، وسدّ دونه من المذلّة والمكاره أبوابا . فالواجب على همم الرجال ، وأبطال الاوجال ، أن تلقي في مرضاته الارواح والابدان ، وتختار شرف الموت عن مذلّة الهوان ، وقد زاد الآن في عصبتنا ، ونظم في سلك جماعتنا ، جيشا كاملاً من إخوتنا ، ودفع لهمّتهم هذا اللواء المنصور ، فليَهْنِيء (1) جميعَنا هذا السرور . واللواء عماد معلق به الهمّة والعِرْض (2)، وحبُّ الوطن والارض ، فلذلك كانت غيرتنا عليه واحدة ، وقلوبنا على إعزازه متعاضدة ، إذ هو مظهر عرضنا (3) وبلادنا ، تربة آبائنا ومَنْبِت أولادنا ، المحوطة بصدورنا من أضدادنا ، ونفوسُ الاحرار ، تموت في رعي الجوار ، أحرى في الدفاع عن الوطن والدار ، تونسُ دارُنا ونعمت الدار ، والاعتماد على الله شعارنا وهو نعم الشعار ، وأحمد أميرنا ونلقي النفس دونه الى النار . وبهذه النيّة نَبْسُط الى الله أكُفّ الضّراعة ، ونسأله الإعانة على ما أوجب لاميرنا من فروض الطاعة ، وحمايةَ أوطاننا من التشتيت والإضاعة ، وأن يقوّيَ العِصَابة الاحمدية في صدور الجماعة ، ويجعل الملك فيه وفي عَقِبه الى قيام الساعة . ربّنا عليك توكّلنا واليك أنَبْنا واليك المصير ، قرعنا باب فضلك وهو بالإجابة جدير ، متوسلين في بقاء هذه النيّة الصالحة ، ببركة رسولك وبسرّ الفاتحة » .

وعند ذلك ناول بيده الصناجق للأمراء ، بعد اليمين على العادة النظامية ، وختم الموكب بقراءة الفاتحة .

(1) في خ و ع و ق : « فليهن » .
(2) كذا في خ و ع ، وفي ق : « الغرض » .
(3) كذا في خ ، وفي ع و ق : « غرضنا » .

وفي هذه السنة 1258 ، أحدث الباي لِزْمة الجبس ، وجعل بمقطعه معملاً ، وقصر بَيعَه على الدولة ، وزاد في ثمنه ما لا يجحف كل الإجحاف . ونفقة العساكر ألجأت الباي الى المكوس ونحوها .

*

وفي رمضان من السنة 1258 ، (27 رمضان — 1 ديسمبر 1842 م.) ، رتب الباي ثلاثين مدرِّسا بجامع الزيتونة ، نصفهم من المالكية ونصفهم من الحنفية ، وحبّس عليهم دخل بيت المال ، وهو إرث من لا عاصب له . وكتب ذلك في منشور بالذهب ، وختمه بطابعه ، وعلّقه عند باب الشفاء من جامع الزيتونة ، وأمرني بالإطناب فيه ، ونصّه :

« الحمد لله رافعِ العلماء على ذُرَى شرف كامل ، الذي لا يُضيع عملَ عامل ، ولا يخيّب من فضله العميم أملَ آمِل ، مُعوِّدِ العلم وأهله بكل يُسْرٍ شامل ، ومُنْجِدِه في الأزَمات بكل كافٍ من أوليائه وكافل ، ومُمِدِّه بناصر بعد ناصر ومناضل بعد مناضل ، من كل إمام مجتهد أو ملك فاضل ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أصدقِ قائل وأكرم فاعل ، منقذِنا من بحر جهل بلا ساحل ، وقائدِنا إلى السعادة في العاجل والآجل ، والملجأ المنيع من كل خطب هائل ، وعلى آله وأصحابه أدلّةِ كل عارف وسائل ، السابقين في ميدان الإيمان بما شاؤوا من بأس ونائل ، والممتازين بكرم السجايا وطيب الشمائل ، ونستوهب منك اللهم عنايةً لا تَطْرُق الخطوبُ حِماها ، ولا يغيِّر الدهرُ اسمَها ولا مسمّاها ، وعزّاً لا ينتهي حدُّه ، ونصرا يمضي في الأعداء حدُّه ، لهذه الدولة الاحمديّة الحسينية ، وشجرة الملك التونسية الربّانية ، العزيزة الحمى ، التي أصلها ثابت وفرعها في السما ، استظلت به الخضراء تونس ، وأبدت جمالها المونس .

اما بعد فان العلم أنفس البضاعات ، وأرفع الدرجات ، ناهيك بقول الحق : « يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ» (1) ، دلَّ على شرفه العقلُ والكتاب ، بصريح الخطاب ، « هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ» (2) . والواجب على من قلّده الله

(1) س 58/آ 11 .

(2) س 39/آ 9 ، ونص الآية الكريمة : « قل هل يستوى .... الآية » .

أمرَ عباده ، في أرضه وبلاده ، أن يَبذل في تكثيره منتهى اجتهاده ، حتى يفوز من فتح البصائر بغاية مراده . وقد ألهم الله لهذه المَنْقَبة التي تُردَّد وتُذكَر ، وبكل لسان تشكر ، ولا يُجْحَد فضلها ولا ينكر ، بل جَحْدها في الدين من المنكر ، أميرَ العصر ، ومشيرَ هذا المصر ، الذي دأب على حوطة المجد وجدّ ، وورث الملك من أب وجدٍّ ، واستغرقت كمالاته الحصر والعدّ ، وبلغ في السياسة منتهى الحدّ ، واستعذب في إعزاز هذا القطر المشقّة والكدّ ، وغلّق دونه ابواب المكاره وسدّ ، وقوّاه بجنود من أهله ورأي أسدّ ، الملك المطاع ، قرة العيون ونزهة الاسماع ، المنعقد على فضله الإجماع مولانا وسيدنا ذلك المشير أحمد باشا باي أمير المؤمنين بالقطر التونسي ، أعزّ الله به عِصابتَه ، وأدام إصابته ، فأمر بهذا الرقيم ، المتلقّى بالطاعة والتعظيم ، في أن جميع دخل بيت المال الذي كان يستعين به على مصالح العباد ، ومهمّات البلاد ، جعله إعانة للعلم الشريف على ترتيب أنتجه فكره السديد ، ورأيه الصائب الحميد ، وهو انتخاب خمسة عشر عالما من المالكية ، ومثلهم من الحنفية ، وَجَعَلَ لكل واحد منهم ريالين في كل يوم ، على ان يقرىء بهذا الجامع الاعظم دَرْسَين في أي فن وفي أي وقت تيسر له من النهار ، ومن تخلّف بغير عذر شرعي لا يستحق المرتب أيام تخلّفه ، الا يوم الخميس ويوم الجمعة وشهر رمضان وأيام العيدين . وقلّد النظر في ذلك لشَيخَي الإسلام الحنفي والمالكي ، ومرتّب كل واحد منهما على النظر مائة ريال في كل شهر ، وأعانهما على النظر في ذلك بالقاضيين الحنفي والمالكي ، وجعل لكل واحد منهما ثلاثة ريالات في اليوم ، بشرط ان يأتي كل واحد من الاربعة يوما الى الجامع لتحريض المتكاسل وطرح مرتب من لم يحضر من المدرّسين بغير العذر الشرعي . وقلّد هؤلاء المشايخ الاربعة النظرَ في حفظ بيت المال وضَبْطِ دخله وخرجه ، ومباشرةَ أمور القيّمين به ، وعرضَ ما يتعلق بذلك بين يديه لينفذ ما يظهر له مصلحته من ذلك . ولم يُبقِ مصرفا في بيت المال لاحد عدا العلماء المذكورين والمشايخ والنُّظّار والقيّمين عليه ، وتجهيز دفن الغرباء . كما أمر بتحرير مصرف بيت المال في ظهير بيد الآغة لا يتجاوزه . وبعد كل ستة اشهر من شهر التاريخ يحضر القيّمون على بيت المال في الجامع لدى المشائخ الاربعة ويحاسبونهم على الدخل والخرج فصلاً فصلاً ، ويسطّرون المحاسبة مصحّحة بخطوطهم ، وتُرفَع الى مولانا ليأمر بامضائها . واذا فضل في بيت المال شيء من المصرف المذكور فان الفاضل يشترى به عقَار ليكون رَيْعه تقوية لبيت

المـال ، وذلك مدة خمس سنين . وبعد السنـة الخامسة ، اذا فضل شيء من دخل بيت المال الذي منه دخل العقار المشترى من فاضل الخمس سنين ، فان ذلك الفاضل يقسم على المنقطعين لقراءة العلم على المشائخ المذكورين ، سَوِيَّةً بينهم . ولا يستحق ذلك الا المواظب على القراءة . والنظر في قسمة ذلك على المواظبين من الطلبة للمشائخ الاربعة . واذا نقص واحد من هؤلاء الثلاثين عالما ، فان من يتولى عوضه يكـون باتفاق المشائخ الاربعة ، ينتخبون أعلم الموجـودين في العصر . وان تساوت رتبة الموجـودين فـلا بدَّ من امتحـانهم بالمناظرة بمحضر المشائخ حتى يكـون من تقدم انما هو بنفسه . ويُرفَع اسمه إلى مولانا ليأمر له بظهير في خُطَّته يستحق به المرتب المذكـور . وحكم ، أيده الله ، بجميع ذلك وأمضاه ، وألزم العمل بمقتضاه ، رغبةً في إظهار العلم وتحصيل علاه ، والهدى هدى الله. وأمر ، أدام الله أمره ، وأعلى في الخافقين ذكـره ، برسم هذا الظهير في هذا البيت المعمور حرصا على بقائه على شرطه مدى الدهور ، لا سبيل لنقضه بعد إبرامه ، ولا لنَسْخه بعد إحكـامه ، يُديمه الله ورسوله والمؤمنون ، وتقوِّيه الأعصار والسِّنُون ، ومن سعى في نقضه فما ربك بغافل عما يعمل الظالمون ، وسيعلم الذين ظلموا أيَّ مُنقَلَب ينقلبون ، ولمثل هذا فليعمل العاملون ، والله خلقكـم وما تعملون .

وكـتب في 27 رمضان سنة 1258 .

[وظهرت عنايته بهذه المـأثَرة] (1) ، وأتى الجامع مرارا في غير أوقـات الصلاة ، ويجلس وراء حَلَق التدريس ، ولا يقوم له الشيـخ ولا أحدٌ من الطَّلَبة ، تحريكـا لعزائم الطلبة وترغيبا لهم فيما يقرِّب الى الله زُلْفَى ، ويُثمِر في الدنيا العزَّ الأَوفَى .

وميـّز هؤلاء المدرسين عن غيرهم بأن يأتوا في الاعياد مجتمعين ، يؤمّهم كبير أيمـّة الجامع الاعظم ، وَيقبَلهم بعد أهل المجلس الشرعي ببيت الباشا . ولم يزل يوجّه لهم العناية .

وفي هذه الايام نَفَقَ سوقُ العلم وتجدَّد شبابه ، وسال سيله وعَبَّ عُبَابُه ، وانفتح للاجتهاد بابُه ، وتظاهرت أسبابه ، وأشرقت بأفق هذه الحاضرة نجوم وأهِلَّة هم الآن شموس وبدور، تتجمّل بهم [المحافل و] (2) الصدور. والله لايضيع أجر من أحسن عملاً .

(1) الـزيـادة عـن ع و ق .

(2) الـزيـادة عـن ق .

وفي العاشر من شوال السنة 1258 (الاثنين 14 ديسمبر 1842 م.) ، أسقط مالاً كان مرتّبا على أهل جربة من أيام عمّه ، على يد الوزير شاكير صاحب الطابع ، بواسطة أحد أعيانها أبي الفلاح صالح بن صالح ، وبه سلمت جربة من مظالم العمّال برهة من الزمن ، وقصرت أيديهم عن التعدّي بعض قصور . وأهل جربة أعظم ثروتهم من المتجر ، وهو يقتضي وجود المال ، وبذلك سهل عليهم تحمّل ذلك الترتيب ورأوه أخفّ الضررين ، بل ساءهم إبدالُه . وأمرني بكتب منشور لاهلها نصّه :

« سبحان من أناط بالعدل العُمْران ، وخص بالسياسة نوعَ الإنسان ، وشرّفه بالاصغرين القلبِ واللسان ، وهداه إلى تعمير الامصار وحماية البُلدان ، أحمَده وهو المحمود بكل لسان ، والصلاة على سيدنا محمد فائدة الاكوان ، المخصوص بمعجزات القرآن ، ومن آياته : « إنَّ اللّهَ يَأمُرُ بِالْعَدْلِ والإحْسَانِ » (1) ، وعلى آله وأصحابه أولي الشان ، الذين أذلّوا بعزّة الله أنوف الطغيان . أمّا بعد فهذا ظهير بني على العدل أساسه ، ودلّ على ما يرضي اللهَ التماسهُ ، وأضاء بالصلاح نِبْراسه ، وزكت فصوله وأجناسه ، حرّرناه وأمضيناه ، وألزمْنا العملَ بمقتضاه ، لكافّة أولادنا سكان جِرْبة حرسها الله وسائر القُطْر التونسي بعين عنايته ، وأسبل عليها وعلى ساكنيها سِتْرَ عافيته . لما رأينا الاداء الموظّف عليهم مخالفا للقوانين الشرعية والعقلية ، وأدلّة ذلك واضحة جلية ، لانه موظّف على الرقاب ، لا على نتائج الاسباب ، وبسبب ذلك يَقِلُّ الامل ، ويَنقُص العمل . على أن سكان جِرْبة من رعيّتنا ، الباذلين نفوسهم في طاعتنا . فالواجب ان يكون حكم جميع سكّانها واحد (كذا) ، والاولاد يرغبون في تساويهم عند الوالد ، ونسبة الرعيّة لراعيها كنسبة الاولاد ، يسدُّ عنهم طرق الخلل وطوارق الفساد ، حتى يبلغ من نجاحهم المراد . فلذلك أسقطنا جميع المال الموظف على أهل جربة ، ورأيناه الى الله قُرْبة ، إسقاطا تاما ، مُطلَقا عامّا . ولم نُبقِ عليها شيئا من الأداء سوى العُشُر والصاع والمحصولات ، لان ذلك يتبع المكاسب لا الذوات ، فما ضرَّ مَن أنعم الله عليه ، أن يدفع نَزْرا ممّا لديه ، يحمي به النفس والمال والبلاد ، تربة الآباء ومنبت الاولاد ، إذ مصرفه المهمّات والاجناد ، وغير ذلك من وجوه السّداد ، واذا رجع العاقل لحَدْسه ، يجد ما أخرجه من يده إنما هو لنفسه ، سنّة الله التي قد خلت في عباده ، على حسب حكمته ومراده . ونحن

(١) س 16/أ 90

بمقتضى ما يجب علينا من مراعاة صلاحكم ، والسعي في نجاحكم ، نقدّم مصلحتكم علي وفور المال ، ونرجو خلفه بنموّ الاعمال ، وعلى الله بلوغ الآمال . أسأله سبحانه أن يقوّي طاعتكم المقرونة بايمانكم ، ويزيد من فضله في عُمْرانكم . وهذا الخطاب حرّرناه للعلماء والمقدّمين والمشايخ والاعيان وكافّة سكّان جربة ، فافتحوا لفهمه الالباب ، وتصفّحوا هذا الكتاب ، ولتكن قراءتُه في جامع الصلاة وغيره من المشاهد ، والعشر زكاة ، وهي أخت الصلاة . وهذا الامر يبقى لكم حجة ، في هذه المحجّة . والله يحكم لا معقّب لحكمه ، والسلام .

وكتب في العاشر من شوال سنة 1358 .

***

وفي ربيع الاول من سنة 1259 ، تسع وخمسين ومائتين وألف (افريل 1843 م.) ، توفي شيخ الاسلام العلامة شيخنا ابو عبد الله محمد ابن [شيخ الاسلام ابي عبد الله] محمد ، ابن [شيخ الاسلام أبي عبد الله] (1) محمد بيرم . ولم يحضر الباي جنازته لعذر منعه يومئذ ، وبعث سائر أهل بيته ، وكبير الوزراء مصطفى صاحب الطابع ، وأعيان رجال الدولة . وصلّى عليه ابنه الشيخ المفتي ابو عبد الله محمد بيرم ، وهو الذي تقدم عوضه لرئاسة الفتوى والمجلس الشرعي ، وتقدم لخطة القضاء بالمذهب الحنفي الشيخ الفقيه الإمام أبو الثناء محمود ابن الامام أبي محمد حَمّودة باكِير .

***

ولما تكاثر الكلام في شأن التنظيمات الخيرية ، وعلم الناس أصولها ورأوا فروعها ، لا سيما بعد أن قَدِمنا عليه من إسلامبول ، وقررنا له ما شاهدناه ، وبلّغت له رسالة عالم المشرق أبي العباس أحمد عارف باي ، وأتيته بنسخ من تعريبها ، أخذ جميعها ، وكان ذا فكر يحقّق الامور قبل حصولها ، ويُنذِر بها قبل وصولها ، تحقق أن صبح الحريّة المحبّب لكل موجود ، بدأ انتشاره من المشرق في آفاق الوجود ، فأقبل على المحمدية ، وتَذْكُرها (2) عامّة بلادنا بالشؤم ، ومستندهم ، والله اعلم ، ان ابا القاسم بن عبيد الله

---

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) هنا يبتدىء استطراد طويل ينتهى فى السطر 21 من ص 72 عند الرجوع الى الحديث عن التنظيمات الخيرية .

المهدي الفاطمي لمّا وجّهه أبوه لغزو مصر والاسكندرية ، وفتّحَ الفتوحات ورجع ، ابتدأ في بناء مدينة المسيلة (1) ، بعد خرابها سنة 313 ، ثلاث عشرة وثلاثمائة ، وسماها المحمدية. وعند تمامها أخذت دولة العبيديين في التراجع ، وثار عليهم الداعي (2) أبو يزيد صاحب الحمار . وانتقض عامل فاس والمغرب وبايع لبني أمية بالاندلس ، وفيها مات ابو باديس بن المنصور بن يوسف بن زيري ، من دولة صنهاجة ، بلسعة عقرب ، وحمل منها ميّتا في تابوته الى القيروان . وفيها انهزم السلطان ابو اسحاق ابراهيم ابن أبي زكرياء [من الحفصيين] ، وفرّ عسكره عنه ، فنجا من المحمدية برأس طِمِرَّةٍ ولِجام . واستولى عليها الخراب بعد ذلك الى دولة الداي اسطامراد ، فملك أرضها واتخذها للحراثة و [ذباب] (3) النحل ، وبنى بها دارا وعمّرها بمن على ملكه من الاَسْرى . ثم اشتراها من ورثته الوزير ابو المحاسن يوسف صاحب الطابع ، فبنى بها قصره الباقي بعضه لوقتنا هذا ، وغرس بها بستانا وزيتونا ، وكانت من مواضع نزهته ، وخرجت عن ملكه بما تقدم من خبر قتله . ثم أخذها الوزير شاكير صاحب الطابع وزاد في أبنيتها وغرس بها الزيتون ، واتخذها دار سكنى . وخرجت عن ملكه بموته قتيلا ، وجيء بأهله منها ، فأعطاها الباي لوزيره أبي النخبة مصطفى خزنه دار ، فزاد بها بعض شيء ، وأمّل أن يُجرِيَ بها الماء ، وانقذه الله منها . ثم ان الباي استرجعها منه ، وعوّضه عنها برَبْع . ولما استولى عليها اتخذها رباطا للعسكر ، وبنى فيها الابنية الضخمة من البيوت المتسعة والغرف الانيقة ، وأنفق عليها كثير دخل المملكة . ووجّه إليها عنايته حتى كاد ان لا يتفرغ لغيرها ، وحمل رجال دولته على بناء دُور بها ، وأذِن للناس في ذلك وأعانهم عليه حتى عِيبَ بالإفراط في ذلك ، وغَلَطُ الكامل على قدر كماله . ومنعه الاستعجال في ذلك عن إحكام البناء ، والعجول مخطيء وإن ملك . وهي على شؤمها أضيق من حافر ، وأوحش من مفازة ، تُسقَى ببئر واحدة من آبار الجاهلية (4) ، إلا أنه حلو المذاق .

(1) وردت في ع و ق مشكولة بكسر الميم والسين ، وانظر ص 124 ج 1 ، والملاحظ ان المحمدية التي بقرب تونس ، كانت تسمى قديما « طنبذة » ، ومنها منصور الطنبذي الثائر على بني الاغلب سنة 209 هـ ، أما المسيلة التي يسميها بنو عبيد المحمدية فهي قرب هوارة من التراب الجزائري الآن ، وقد اختلط أمر المحمديتين على المؤلف ، فنسب ما لهذه لتلك .

(2) في خ شطب على الالف من الداعي .

(3) الزيادة عن ع و ق .

(4) كذا في خ ، وفي ع و ق : « آبار الاقدمين » .

ولما أتمّ بناء مساكن العسكر بها في سنة 1259 ، تسع وخمسين (1843/44 م.) ، أحيا فيها ليلةً بالقرآن العظيم ، والصلوات على النبي صلى الله عليه وسلم ، وأحزاب الامام الشاذلي وأوراده . ومن الغد نصب الوطق أمامها ، وجمع اهل المجلس الشرعي ورجال الدولة . ولما جاء العسكر خرج بنفسه لتلقّيه ، واقفا في حرِّ الشمس . ولما تمّ دخوله وتفرقوا لبيوتهم ، هنّأه اهل المجلس الشرعي ورجعوا .

وأرّخها العالم الاديب ابوعبد الله محمد الطيب ، ابن شيخنا أبي اسحاق ابراهيم الرياحي ، وكتب التاريخ بأعلى بابها المعروف بباب باردو ، لانه أقرب للقادم من باردو ، ونصّه :

انظر لها تأسر طرف النبيل ... وتسحر اللبَّ بصنعٍ جميل (1)
بارعةَ الحسن ولكنّها ... رائعةٌ قلبَ الحسود العليل
تاهت على الآفاق في مِنْعة ... وعزِّ شأن وفَخَار أثيل
خطيرة جاد باظهارها ... طالع سعد وقِران جليل
على التقى أسّس بنيانها ... وفي سبيل الله نعم السبيل
أقرَّ عينَ الدين إبداعُها ... وأسلَمَ الكفرَ لهمٍّ طويل
دار حُماة الدين آساده ... أنصاره في كلِّ يوم ثقيل
قد تاجروا الله بارواحهم ... تجارة جاءت بربح جزيل
انشأها أحمد باشا الرضى ... خير مشير جاء في خير جيل
الملك السامي عِمَاد العُلىَ ... الشامخ العزِّ الكريم المُنيل
ذو المَكْرُمات الباهرات التي ... ما ان لها في سمعنا من مثيل
وهذه القشلة من خير ما ... انتجه رأيُ حِجَاه الاصيل
له بها الصِّيت البعيد المَدَى ... وللورى ظِلٌّ أمان ظليل
مَزِيّة دلّت على فضله ... إن كان للصبح يقام الدليل
بشرى فقد وافق تاريخها ... نصر وإسعاد وفتح جليل

وكأن طالع هذا التاريخ جفر ، لان هذا الباي نبيل بلا خلاف ، وقد أسَرَتْ طَرْفه ، وقيّدت في أرجائها طِرْفه ، ومنعت صرفه ، وسحرت لبّه وظرفه ، حتى اتّخذها

(1) في ع و ق اقتصر الناسخ على ذكر البيت الاول من هذه القطعة ، وهي في خ كاملة .

دار مقرِّه وبنى بها جامعا ومدرسة [وحمّاما] وبرجا بالمدافع وسوقا ومساكن لخاصته ورجال دولته . وجعل بها قاضيا ليكون ذريعة لإقامة الجمعة بها على مذهبه الحنفي ، كما فعل جده الاعلى حسين بن علي بباردو . ورتّب بجامعها مدرِّسا لرواية صحيح البخاري ، ويَختِمه في الثالث عشر من رمضان . ويُحتفل في إحياء تلك الليلة بقراءة البُرْدة وإنشاد القصائد النبوية ، ويحضر لذلك بعض علماء المجلس الشرعي كالشيخ أبي عبد الله محمد بيرم والشيخ أبي عبد الله محمد بن سلامة . وكثر النكير [عليه] بكونه تخلّى بها للبطالة ، وأهمل الجلوس للحكم على عادة أسلافه . ولما كلّمه في ذلك ثقتُه ونصيحه ووزيره ابو النخبة مصطفى صاحب الطابع ، قال له : « أيُّ شيء أهمل القضاة والمُفتُون يحكمون في سائر النوازل ، والداي وكاهية دار الباشا وآغة القصبة يحكمون في الجنايات الحفيفة بما دون القتل ؟ » . وكان للداي يومئذ أن يسجن بالكَرّاكة ويضرب ما لا يزيد على الثلاثمائة ، « ومشايخ الحاضرة هم حرّاسها بالليل لإيقاف الجنايات ، فلم يبق الا التعيين للمطلوبين ، ولا يكون ذلك إلا اذا عجز العامل ، ومع ذلك فقد أقمتُ خير الدين كاهية يحكم في غير المعاملات بسقيفة باب باردو ، ويعيّن لحضور المطلوبين ، ويفعل ما يفعله الباي ، غير التعزير بالقتل ، وان الحدود غير معطلة ، بدليل ان رجلاً حكم عليه المجلس الشرعي بالقتل قصاصا [في نفس محرَّمة قتلها عمدا عدوانا] ، فكتبوا الحكم وبعثوه ، وبعثوا معه الرجل ، وفي الحين اقتُصَّ منه أمام باب المحمديّة » ، الى غير ذلك من الادلّة القاطعة على عدم إهمال الامور ، ويظهر لبعض الناس انها أدلة خطابية يسلّمونها تسليما جدليا يُعيِّن عليه طبع الملك المطلق . والحق الذي يفهمه مَن [مَازَجَه و] مَارَسَه في سياساته أن الرجل ثابت الفكر ، بعيد الغور ، ثاقب الفكرة ، شديد الحزم ، لمّا (1) رأى بعين بصيرته ان الحكم في الناس بمجرد اجتهاد المَلِك وحده ، من غير أصول عقلية او شرعية يعتمدها في ذلك ، قد نافره طبع الزمان ، وانفتحت لسماع التنظيمات الآذان ، وعلم عربان المملكة حال عربان الجزائر مع عمّالهم ، بأنهم لا يتصرفون فيهم الا بقانون معقول معلوم لا يمازجه غرض ، مع حرص الدولة العثمانية على إجراء التنظيمات ، وصعب عليه قطع عادة آله دفعة ، أراد أن يمرِّن نفسَه وأهلَ المملكة على ما تحقق وقوعه لا محالة ، وان انتصابه

(1) هنا ينتهي الاستطراد ويرجع الحديث عن التنظيمات الخيرية .

كل يوم لسماع المتظلمين ربّما يؤدي الى فلتة كما وقع ممن بعده ، تقتضي سرعة ما قاله الصدر الاعظم رشيد باشا : « لا يمكن ان السلطان الاعظم مقيّد التّصرف لا يأمر بقتل النفس المحرّمة إلا بعد إمعان النظر في مجالس ، وباشا تونس مطلق التصرف » ، تحمّل نسبة إهمال الامور إليه ، ورآها أخف على نفسه من وقوع التنظيمات دفعة ، وان لم يصرّح بذلك ، وانما فهمنا ذلك منه بالتلويح القائم مقام التصريح في محادثاته ، ومحاوراته في خلواته . وربما انتصب للحكم في المحمدية احيانا على كره يظهر من حاله ، حتى انه يأمر ، بعد اجتماع المتظلمين ، بنداء العافية ، وهي علامة الانصراف (1) .

أتاه بها رجل من أوباش الجهلة شاكيا في نازلة [تتعلق بالمعاملات] فقال له : « هلاّ رفعت أمرك الى الشرع ؟ » ، فقال له : « يغلبني خصمي بحكم الشرع » ، فقال له : « إنما غلبك دينك لا خصمك » ، فقال له الجاهل المسكين ، محرّكا لغضبه : « يا سيدي ان خصمي لما سمع اني قادم إليك قال : لا نسأل عنه ، أنا بيدي دبّوس الشرع » ، فقلت له : « عندي دبوس أقوى منه ، وهو سيادتك ، نصرك الله » ، فاصفرّ لونه واقشعرّ بدنه واشتدّ غضبه من قبح المقالة ، وكنتُ بين يديه لقراءة ما يرد [من المكاتيب] فقال لي : « أيلزمه شيء بالحكم الشرعي ؟ » ، فقلت له : « يلزمه لو كان يعلم ما يقول » ، فانتهره ومكّنه بيد غاصب الى الحكم الشرعي ، وقال في ديوانه : « لا أقبح من هذا الجهل ، يرغب عن حكم ملّته المعلوم في كتب الشريعة الى ما يظهر لي ، مع أني بدبّوس الشرع — كما قال — ارجع عما ظهر لي ان خالف الشرع لا حول ولا قوة الا بالله » ، وقام من فوره قبل سماع بقية المتظلمين ، خائفا من تلك المقالة [الشنعاء] ، يردّدها ويستعيذ بالله منها ويقول : « اللهم اكسر كل دبّوس يقوى على الشرع ، وما نشأ هذا الجهل الا من انتصابنا للحكم وسماع الدعاوي ، ويرحم الله تعالى أسلافنا ، فانهم شغلوا أفكارهم وعمّروا أوقاتهم بسماع النوازل بين المتداعيين عن النظر في عموم المصالح ، والنصارى على حكمة ، حيث إن ملوكهم لا يتصدرون للفصل بين المتنازعين » ، فقلت له : « وكذلك سائر ملوك الاسلام ، عدا قطرنا ، وانما نشأت هذه العادة آخرَ دولة بني مراد ، واقتفى أثرهم جدّك رحمه الله [لسبب خاص اقتضى ذلك] » ، فسكت ، ثم قال :

(1) ما بين القوسين في الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

« لا بدّ لقلب العادة من زمن وتدريج ، كانقطاعي في المحمدية ، مع أني اسمع ما يقال فيّ . والامر لله وحده » (1) .

***

وفي سنة 1259 (1843/44 م.) وقع جَدْب بتونس وارتفعت اسعار الحبوب ، مع أنه أعان الفقراء بما لم يتقدّم نظيره . وأطراه بعض المداحين على ذلك (2) ، فقال له : « « تمدحني على أني غير سارق ولا خائن ؟ » ، لان الاعشار التي بالرابطة زكاة الحبوب، وهي من قواعد الاسلام الخمس ، وأول مصارفها ، بنصّ القرآن ، الفقراء والمساكين ، وهو مقدم على العسكر وغيره من المصالح . ومع ذلك ضجّت العامة من كثرة تسريح اخراج الحبوب من المملكة ، لاَجْل دَخْل ما على ذلك من السراح ، فلزمه ، والحالة هذه ضرورة ، تسكين السواد الاعظم ، فكتب الى مراسي العمالة بمنع اخراج القمح والشعير لمن بيده أمر في تسريحه ، إلا اذا شرع في الوسق منه ، أو أتاه شقف لذلك . وأعلم بذلك سائر القناصل ، وتحققوا السبب ، فأتاه قنصل سردانية شاكيا من هذا المنع ، محتجّا بما في الشروط من أنه اذا أريد منع قبول شيء من السلع او إخراج شيء ، يقع اعلام القنصل قبل المنع بشهرين ، لتكون التجّار على بصيرة ، فأجابه الباي بأن حبوب القُوت ليست من السلع الحاجية التي لا يتوقف خروجها على إذن خاص ، وانما هي من الضروريات التي يتوقف إخراجها على أمر مخصوص . ومدار الإمر : هل الاقوات من السلع أم لا ؟ وهو يرى أنها ليست من السلع ، نظرا للعرف (3) . فقال له القنصل : « ان التجار اشتروا حبوبا هي الآن عندهم ، ينتظرون شقوفا لحملها » ، فقال له : « يمكن لهم بيعها الآن في المملكة بأكثر مما دفعوه ويحصل لهم الربح المقصود ، وان اشتروها لغيرهم باذن ، نتساهل معكم في إخراج القدر الموجود فقط » . وكادت النازلة ان تنفصل، لولا شدّة وتعسّف من القنصل بلا سبب . وتكررت المكاتبة بينه وبين الباي .

ثم ان القنصل سافر على حين غفلة ، من غير ان يُعلِم الباي بعزمه على السفر . ولمّا سافر القنصل كثرت الاراجيف بأن دولة الصاردو تجهّز في اسطولها لغزو تونس ،

(1) ما بين القوسين فى الفقرة ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

(2) كذا فى ع و ق ، وفى خ : « وقال له بعض المتزلفين يمدحه على ذلك » .

(3) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « نظرا لعرف التخاطب » .

فجمع الباي رجال دولته وقال لهم : « ان القنصل سافر ولم يعلمنا بسفره ، وهذه طليعة حرب ، ويلزمنا الاستعداد وأخذ الاهبة لذلك » ، فقالوا له : « الحزم يقتضي ذلك في كل وقت » ، وكان منع إخراج الحبوب في شعبان السنة 1259 (اوت — سبتمبر 1843 م) .

ثم أخذ الباي في الاستعداد ، وحصّن حلق الوادي بمتاريس وقتية . ثم كتب اوامره لقدوم سائر العساكر النظامية والصبايحية من الاوجاق وجمعهم بالمحمدية ، وذلك في أوائل سنة ستّين (أوائل سنة 1844 م.) . ونصب وطقه ، واحدقت به العساكر على اختلاف أنواعهم ، ومكثوا أشهرا يتوقعون قدوم شقوف الصاردو . وضاق حال الدولة من مصاريفهم ، وحصل للعسكر ملل وفشل (1) من أهبة السفر في حضر ، والمقام بدار واحدة لا مرعى فيها ولا ماء الا من آبار قليلة قُرْبَها . حتى قال له وزير الحرب مصطفى باش آغة : « ان عسكرنا وقع به الملل والفشل ، ولا زال يتزايد ، ونخشى ان لا ننتفع به وقت الحاجة ، ويكون الصاردو هزمنا وهو في بلاده » . وقال له شيخ الدولة الوزير ابو النخبة مصطفى صاحب الطابع : « كأني أراك بجمع العسكر في هذا المحلّ أسلمتَ حلق الوادي والبلاد ، وطلبت منعة نفسك . فالرأي ان تجمعه خارج حلق الوادي وما قاربه من الشطوط ، ليكون رِدْءا للحاضرة » .

وصدّه عن سماع ذلك الافراط في حبّ المحمدية .

وفي المدة نَفِدَ ما بالرابطة من القمح والشعير ، فأمر أبا عبدَ الله محمد بن عيّاد بشراء ذلك من خارج الإيالة ، فقال له : « ان قمح الدولة في ذمم الناس ، ونحن الآن في شدة ، فاكتب لي إذنا بخلاصه من الناس ، دراهمَ على هذا السعر الذي نشتري به » ، فكتب له بذلك .

وازدادت الشدة والضيق على اهل المملكة [عموما] وعلى الدولة [خصوصا] (2) .

ولم يزل ابن عيّاد يشتري في الحبوب للعسكر الرابض في محلّ واحد .

وفي هذه الواقعة قدم رسول من الدولة العلية العثمانية اسمه عمر جمّال ، فأكرم تلقّيه وأنزله في الكرم ببستان وزير الحرب أبي النخبة مصطفى آغة . وبلّغ رسالته ،

(1) فشل : خمد نشاطه ، فترت همته وحماسه .
(2) الزيادة عن ع و ق .

ومحصّلها : « ان النازلة لا تقتضي حربا ، لانّها آخر الامور ، وسفر القنصل لا ينشأ عنه شيء ، ومهما أمكن فصل النوازل بغير إراقة الدماء لا يُعدَل عنه . وحسبي تبليغ الرسالة » ، فقال له الباي : « أنا لا أبتدىء بحرب ولا أخالف الشروط ، ومن تعدّى عليّ وحاربني يلزمني ضرورة أن أدفع عن نفسي بما استطيع . وحيث ظهر للدولة العلية فَصْلُ هذه النازلة بوجه سياسي ، فلا أعدل عن رأيها » . وكتب له تقريرا في صورة النازلة باللغة العربية مستوفى البيان .

وسافر الرسول ، وبعد سفره توسط قنصل الدولة الانقليزية ، وهو سار طوماس ريد(1)، وقال للباي : « الحق لك ، لان رفع الضرر عن النفس واجب ، ويلزمك أن تسوس عامّتك بهذا المنع خشية وقوع هرج وفساد ، وللقنصل حق في الوقوف مع ظاهر الشروط ، لانه رجل مأمور ، إلاّ ان السياسة فاتَتْه حيث سافر كالهارب ، لانه رسول دولته إليك ، فحقّه ان لا يسافر الا بعد أن يعلمك . وثبوت الحقّ لك لا يمنع من جبر ضرر مالي حصل لبعض التجّار من هذا الاختلاف في الفهم ، والانصاف يقتضي ذلك » ، فطلب الباي مصروفه على جمع العساكر وما لزمها وغير ذلك ، فقال له : « تحصين بلادك واجب عليك ، ولك ان تجمع عساكرك متى شئت ، ودولة الصاردو لم تحوجك لذلك ، وسفر قنصلها لا يدلّ على إيذانٍ بحرب ، والحروب ليست بهيّنة » ، فتوقف ولزمته الحجّة.

وانفصلت النازلة ، وأمر الباي بدفع ما حصل للتجار من الخسارة . وأتى قنصل من دولة الصاردو عوض الذي سافر . وكاتب الدولة العلية بانفصال النازلة على وجه مرضي . وسرح العساكر من اعتقالهم بالمحمدية ، بعد ان صرف عليهم أموالاً لها بال ، أوهنت المملكة ، وأجحفت بها إجحافا بقي اثره . ولا يَعْدَم الضَّرْعة ، صاحب السُّرعة .

*

وفي هذه السنة 1260 (1844 م.) ، تمّ بناء دار المَلْف بآلاتها التي أنشأها الباي حذو قنطرة محمد باي [المرادي] بطبُرْبة . وكان بناؤها على يد أبي عبد الله محمد ابن عيّاد . وهي من المصانع الهائلة والمباني الرفيعة ، يحرّك الوادي آلاتها على أسلوب

(1) Sir Thomas Reade

معجب ، باعتبار [حالة] (1) هذه المملكة ، اذ لم يتقدم مثلها ، مع ما فيها من مصلحة البلاد . وأرخها شيخ الإسلام ابو عبد الله محمد بيرم بما نصّه :

أرِحْها فقد أبلى السنابكَ وَخْدُها ... وأتْعَبَها غَوْرُ الفَلاة ونَجْدُها
وألْقِ عَصَا التَّسْيَار إن كنتَ طالبا ... عجائبَ آثار الملوك تعدُّها
فما بعد هذا الصنع بُغيةُ ناشِد ... ولا غاية بالعقل يبلغ حدُّها
مبانٍ قضتْ ان المشيد لركنها ... له همّة قد زاحم البدرَ سعدُها
بها جرَّرت ذيلَ المفاخر تونس ... بما لم تنل صين البلاد وهنْدُها
يقوم لها منها لدى الفخر شاهدٌ ... ويُكسى بها من فائق النسج جُنْدُها
يباشر مَن فيها الصناعةَ وادِعا ... ويُلفي بها الراحاتِ قد طاب وِرْدُها
إذا تَعَبُ الافكارِ أنتج خَصْلةً ... تَباعَدَ عن سَمْتِ الجوارح كَدُّها
كأن الذي يلقي بها الامرَ آصَفٌ (2) ... فقَبْلَ ارتداد الطَّرف يُنْسَجُ بُرْدُها
ولا غَرْوَ ان جاءت كما أنت شاهِد ... وقامت على تلك العجائب عُمدُها
فان المَقَام الاحمديَّ اعتنى بها ... وعن رأيه المحمود نُظِّمَ عِقْدُها
ولا تَحْسَب الوادي له الفضلُ إذ جرى ... عليها ، فاقبال الامير يُمِدُّها
هو السيّد الباشا المشير الذي غدا ... له سطوة في الغيل تخشاه أسْدُها
أتى أمره العالي برسم اسمه على ... دعائم هذا الباب كهفا يشدُّها
فجئت به مع وصف حال مؤرخا : ... مصانع ما فوق البسيطة نِدُّها (3)

وتوجه لها الباي ومعه رجال دولته ، ورأى تلك المصانع وتحريكها ، وبات بقصر الوزير أبي النخبة مصطفى خزنه دار بالجديّدة . ثم رجع لها من الغد ، إعجابا بشأنها . وصُنِعت بها ألوان (4) من الملف مستحسنة فائقة [مثل ملف الافرنج] (5) . ثم فتر عزمه عن العناية بها ، لانّه قدّر أن يكون دخلها أكثر مما حصل .

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) آصف هو كاتب النبى سليمان المشار اليه فى الاية 40 من سورة النمل (الكشاف للزمخشرى) .
(3) وردت هذه القطعة الشعرية فى خ ، وسقطت كلها فى ع و ق .
(4) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « انواع » .
(5) الزيادة عن ع و ق .

ولو قدّر أن أعظم ربحه هو لبس عساكره وأهل بلاده منه ، بحيث تبقى اثمان الملف الذي يشترى من غيرها في المملكة ، مع انتفاع المجاورين لها والخدَمَة بها ، المقتضي لزيادة عمران المملكة ونفاق أصوافها فيها وغير ذلك ، ما فتَرَ عزْمُه . وإعطاؤها لتاجر يخدم الملف بها ، ولو مجّانا بلا كراء ، انفع للمملكة من بقائها معطّلة ، وقد بُنِيَت بمال ذريع . لكن طباع ملوك [هذا] (1) المغرب تميل الى الفائدة الذريعة المعجلة الحاصلة من غير التفات إلى المستقبل ، بخلاف أمم الافرنج (2) فانهم يصرِفون الاموال على فائدة يمكن حصولها بعد سنين ، ويعتبرون في أفعالهم انتفاعَ تلك الجهة ، واستغناءَهم عن غيرهم ، وهذا من اعظم اسباب العمران والثروة . ولله في خلقه أسرار .

***

وفي هذه السنة 1260 ثار رجل بجبل خمير ، ادّعى أنه من أولاد عثمان باي ، والتفّ عليه جمعهم ، وهم من الذين لا يكادون يفقهون حديثا . وأصله مقرانسي أتى لتعلّم القرآن بزاوية الشيخ ابن نفيسة من ربض باب السويقة . ثم توجه الى الجبل ساعيا الى حتْفه بظِلْفه . وأذاع هذه النسبة فتلقّتها الحُمُرُ المستنفرة بالقبول . والمسافر بمحلّة باجة يومئذ ابو عبد الله محمد باي ، فأمدّه بمحلة زواوة ، وأمر المزارقية [من العروش] (3) بالالتفاف عليه ، وأمدّه أيضا بالوزير الثقة الناصح أبي النخبة مصطفى صاحب الطابع ليستعين برأيه . والتفّ عرش عمدون على المحلة . ووجه بايُ المحلّة كاهيةَ الصبايحية صالح بن بلقاسم في عقد من الخيل الى خمير ، ووصلهم على حين غفلة ، واستعمل الحيلة حتى تمكن على هذا الدّعِيِّ وطار به الى المحلة ، فبعث به باي المحلة مع الكاهية صالح ، بعد أن أنكى في الذين اعصوصبوا عليه .

ولما وصل الى باردو ، أحضره الباي بين يديه في ديوان المحكمة وقال له : « ما لك ولهذا الكذب الذي حيّرتَ به تلك الجهة ، الموجب لاراقة الدماء والفساد في الارض ؟ » فأطرق ساكتا ، وكاد الباي أن يعفو عنه من القتل ، لولا بعض من رجال الدولة قالوا

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : « بخلاف غيرهم من الجهات » .
(3) الزيادة عن ع و ق .

له : « ان العفو عن مثل هذا يؤدي الى الجرأة على أمثال هذه الدعاوى » ، فأمر بقتله ، وقطع رأسه أمام باب باردو . وكتب الى باي المحلة يبلّغ الى عمدون شكره لخدمته (1) ورضاه عنهم . ورجع باي المحلة ، بعد ان مهّد تلك الجهة وقوّى أمانها .

*

وفي غرة محرم سنة 1261 ، احدى وستين (الجمعة 10 جانفي 1845 م.) ، قدّم الفقيه الشيخ ابا عبد الله محمد بن سلامة لِخُطّة الفتوى ، وقدم الفقيه الخيّر ابا عبد الله محمد البنّا لخطة القضاء .

*

وفي صفر من السنة 1261 (فيفري 1845 م.) ، تشكى الافرنج ، على لسان اكبر القسيسين بتونس ، من ضيق موضع اجتماعهم لعبادتهم ، فاقتضت سياسة الباي إسعافهم ، تألفا للوافدين من التجار . وأمرني بكَتْب أمرٍ لهم نصّه : « أصدرنا هذا المنشور والخطاب المسطور ، ليعلم الواقف عليه من رهبان الملّة المسيحية وأعيان أهلها القاطنين بدار مُلْكنا تونس ، حاطها الله بأمنه ، ان الكنيسة داخل باب البحر التي كانت اسبيتال من أملاك الدولة التونسية ، بلغنا انها ضيقة الفضاء لا تفي بضروريات من فيها ، فزدناها تسعة عشر ذراعا على مسافة عرضها ، وهي عشرون ذراعا ، من أرض الدولة المجاورة للكنيسة التي كان يسكنها قنصل الصبنيول . وأمرُنا في ذلك بيد الوكيل ، وزدنا ، لكمال راحة سكان بلدنا من اهل أروبا وإعانتهم ، بأن أسقطنا عنهم الالف ريال التي كنّا نأخذها في كل عام كراء ما ذُكِر ، إسقاطا تامّا ، وسرّحناهم للتصرف في هذه الكنيسة المذكورة بما أضيف لها ، من غير كراء ، بشرط ان لا يحدثوا فيها شيئا ظاهرا ينافي ديانة اهل البلاد او عاداتهم الجارية . صدر ذلك منّا على يد صاحب أسرارنا الموقّر المحترم الوجيه الثقة المقرّب ابننا الكولير جوزابين راف (2) الامير آلاي . وعلى الواقف على أمرنا هذا ان يعمل بمقتضاه ، ولا يخالفه ولا يتعدّاه ، والامر كله لله ، والسلام . وكتب في التاسع عشر من صفر سنة 1261 (الخميس 27 فيفري 1845 م.) . وكتب بذلك الى قنصل الفرنسيس بتونس . ثم زاد في توسيعها بعد ذلك .

---

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « لخدمتهم » .
(2) كذا في خ و ق ، وفي ع : « جوزاب رافو » . Giuseppe Raffo

وفي ربيع الثاني من السنة 1261 (افريل — ماي 1845 م.) ، صدرت احكام من الباي في تراتيب للدخان والجلد . وذلك انه لما استكثر من العسكر [وضبّاطهم] ، وصاروا عددا لا يفي بقوامهم دخل المملكة الاصلي ، على صغرها المعروف في الوضع الجغرافي ، وقلّة اسباب ثروتها ، التي هي الزراعة والصناعة والتجارة ، الذي هو نتيجة الحكم المطلق ، مع نطاق كرمه المتسع ، لا سيما مع كبرائهم (1) . ومدبرُ الدولة اذ ذاك محمد بن عيّاد ، وهو من العمّال القاصر نظرهم على ما يحصل من المال ، من غير نظر لحال ولا مآل . وكان يزيد في الالتزامات ، ويعتبر مع دَخلها الاصلي ما تفعله نوابه من [توليد] المظالم . وقاسى الناس (2) من تعسفهم وجورهم ما لا تطيقه غير اهل المملكة التونسية . وبلغ الحال إلى أن متولي الجلد الذي مناط لزمته ان لا يبيع الجلد بالمملكة وغيرها سواه ولا يدبغه غيرُه ، صارت نوابه يدورون في القرى ونواجع العربان(3)، ومعهم قطع من الجلد يرمونها في المحل وتشهد أتباعه بوجودها في المحل ، ويدّعون ان ذلك نائرة (4) إخفائهم للجلد . ومثلهم نواب الدخان ، يرمون أوراقا من الدخان أو دقيقه ، ويدّعون انها نائرة على اشترائه الدخان من غير ملتزمه ، فيأخذون من ذلك المسكين ما يشتري به فضيحته وشديد عقابه الذي لا يعلم نوعه ولا قدره . وكذلك سائر الملتزمين كل على حسب لزمته ومقامه وحظوته (5) .

ولا جرم ان ذلك يزيد في نقصان ثروة المملكة لا محالة ، وقلّ بسببه دخل الالتزامات . فاذا اراد الملتزم أن يسلّم عند تمام أجله ، لا يقبل الباي تسليمه إلا إذا زاد عليه غيره ، اعتبارا لما حصّله من امتداد يده .

ثم ألزم العمّال قبول ما يُلتزَم في أعمالهم من جلد وغيره بالسعر السابق ، فصار العامل يوزع القدر الذي يدّعي نقصه [على أهل عمله بحسب اجتهاده] ، وهو مصدّق في ذلك من غير تعقب . والباي يغضي عن ذلك ، مستندا الى اضطراره لما يلزم

(1) في ع و ق : « كبراء العسكر » .

(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : « وقاسى المسلمون »

(3) كذا في خ ، وفي ع و ق : « والقبائل القريبة » .

(4) نائرة : حجة ، بينة .

(5) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

العسكر من المال . ومن يريد الشكاية لا يأمن وثيقة تقوم عليه [من كتّاب الملتزم وأتباعه] (1) بأنه مفسد . ولا مَرْهَم لجرحها ، اذ لا سبيل لنقدها (2) أو طرحها .

ولمّا بلغ السيل الزبى ووصل الحال الى حدّه ، جعل الباي ترتيبا لصاحبَيّ الجلد والدخان ، وكتب بذلك أوامره [لسائر بلدان المملكة وعربانها] (3) ، وتوعّد مَن خالفها . وصاحِبُها (4) اذ ذاك ابو عبد الله الحاج حسونة ابن الحاج ، فاشتكى الضرر من هذا الترتيب ، لانه لم يدخل على اعتباره ، وانما دخل على اعتبار ما كان .

ولمّا تحقق أن قدر الالتزام يؤخذ من ماله (5) ولا بُدّ ، مع ما بينه وبين ابن عيّاد من المنافسة والغَيْرة ، لاذ بالفرار ومعه بنوه الصغار من شاطىء رَوّاد الى مالطة ، فأقام الباي شقيقه أبا عبد الله محمد بن سليمان ابن الحاج لمباشرة خطته نيابة عنه ، يتصرّف على العادة السابقة المدخول عليها . هذا وأوامر هذا الترتيب لم تخرج بتمامها .

وبعث الكاتب الماجد الاديب ابا الحسن علي الحدّاد ، ومعه [الكوليز] (6) زاكي زيزانة في أثره ، لمحاكمته عند مجلس الحكم بمالطة ، فوصلا لمالطة ورفعا قصتهما الى الحكم ، وحلف كل واحد منهما على أنه محق في دعواه . ولما تحقّق الحكم (7) بأنه مطلوب منعه من السفر . وأفضى الحال الى قدوم الحاج حسونة طائعا ملقيا بيده ومعه بنوه ، فقبله الباي ولم يعاقبه على هروبه . وتصرف في لزماته (8) على السَّنَن السابق . وآل الامر إلى خلاص الالتزام من كسبه ، وباع في ذلك رَبْعَه وعَقَاره وبقي في ذمّته شيء . وانقلبت ثروته الى احتياج ، وعومل بما عامل ، ولا يظلم ربك أحدا .

وعند لَمَعَان الخُلَّب من هذا الترتيب ، خطب شيخ العصر وبركة المصر أبو اسحاق ابراهيم الرياحي خطبته المشهورة على منبر جامع الزيتونة في يوم الجمعة ، ونصّها :

(1) الزيادة فى الفقرة عن ع و ق .
(2) كذا فى خ و ع ، وفى ق : « لقدحها » .
(3) الزيادة عن ق و ع .
(4) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « وصاحبهما » .
(5) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « ان قدر الالتزام يبقى فيه مال لا محالة ولابد » .
(6) الزيادة عن ع و ق .
(7) لعله يريد « الحكم » بفتح الحاء والكاف .
(8) كذا فى ق ، وفى ع و خ : « وتصرف فى خدمته » .

« الحمد لله الذي هدى من شاء فيسّره لليُسْرَى ، وقرن بالعُسْر الواحد يُسْرَيـن فقال ان مع العسر يسرا ان مع العسر يسـرا ، أحمده حمـدا أُعـدُّه ليوم الفاقـة ذخـرا ، واشكـره شكـرا يَعقـِل العتيدَ ويستزيد نـِعـَما أخرى ، وأشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له رافع الخضراء وخافض الغبرا ، ومالك الدنيا والاخرى ، وأشهد ان سيدنا محمـدا عبده ورسوله الذي شرح له من غير سؤال صدرا ، ورفع له ذكـرا ، وأقسم بحياته وناهيك بذلك فخرا ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين وهلمّ جرّا .

أيها الناس تيقـّنوا من وعد الله بلقائه ، وسلـّموا له في قدره وقضائه ، فان العقول عن إدراك حكمته معقولة ، والنقول بالعجز عن إدراك سرِّه في حكمه وفعله مشمولة ، لـكـن من وُفـِّق للتسليم ، وتأمل في حكمة الحـكـيم العليم ، ينـكـشف له سرّ القضا ، فيقـابله بالقبول والرضى ، ويعلم ان للشر مَدى ، وأنه لم يُخلـَق سُدى ، وأن مع العسر يسرا أبدا ، فينتظر صدق وعد الله في اليسر بعد العسر ، وانسلاخ ظلام الشدة بضياء فجر اليسر ، كما تنفّس الآن صبح الفرج ، وتهلـّل في وجوهنـا مُحيـّا الهناء بعد الحرج ، برفع مظالم احرقت قلوب العباد ، وأخلت البلاد ، ونشرت أنواع الشرور والفساد ، فهدى الله تعالى بِمالـَهُ من لطيف اللـُّطـْف ، وحلمه على الذنب الموجب للأخذ بالعنف ، مَالِكَ نـَواصينا ، ومتولـِّيَ أُمور دانـِينا وَقـَاصِينا ، الى الاخذ في هدم بنيانها ، وإرغام أنف شيطانها ، وإقامة الامور على مستقيم ميزانها . والمَرجُوُّ من الله اجتثاث أصولها كـلها على يديه ، وسَوْقُ الاجـر الجزيل والثناء الجميل باحتثاثها إليه ، فان مَن أشرقت بدايته ، أشرقت نهايته ، والنـواقص بالتدريـج تعطـي تـكـميلاَ ، تلك سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاَ ، فلنشـكـر الله على ما عجـّل ، وهو كـفيل بانجاز ما تأجـّل .

عن أنس رضي الله عنه ان النبـي صلى الله عليه وسلم قال : « لو جاء العسر فدخل هذا الجحـر لجـاء اليسر فدخل عليه فـأخرجه » . وعنـه صلىّ الله عليه وسلم انه قـال : « لن يغلب عسرٌ يُسْرَين » ، رواه الحـكم عن حسن مرسلاً .

نفـّس الله كـروبنا وكـروبـكم ، وشرح بنور محبته صدورنا وصدوركم .

ان أبلغ الـكـلام نظما ونثرا ، وأنفع ما يُسمَع ويقرأ ، كـلام من له الاولى والاخرى ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : « سيجعل الله بعد عسر يسرا » .

وصار لهذه الخطبة نبأ عظيم في الحاضرة .

واشتد تغيـّر الباي حيث لم يتمّ له ما أراده من هذا الترتيب ، وتـكـدّر عيشه .

وأنكـدُ الناسِ عيشا من تكـون لـه نفـس الملـوك وحـالات المساكـيـن

فانظر الى هذه الايالة كيف وصل حالها الى ان عالمها وصالحها وخطيبها ينادي على أعواد منبرها بجامعها الاعظم على رؤوس الاشهاد ، بأن ما وقع بها من المظالم أحرق قلوب العباد وأخلى البلاد ، ونشر الشرور والفساد . وهي شهادة منه رضي الله عنه وهو مَن هو.

ثم آلت الحال بعد ذلك الى ان مالِك البقر يؤدِّي الربع من ثمن كـلِّ راس ، وهو أمر لم يسمع بمثله في الاقاليم ، وربما هوَّنه ما كـان قبله من الامر الفظيع ، وفي الشر ما يُختار . وبذلك تعرف ما آل اليه حالها .

وبـذلك ساءت ظنـون صـاحبهـا ، حتـى استعجـل لمّا بلغـه في رجب السنـة 1261 (جويلية — اوت 1845 م.) أن مراكب من الدولة العثمانية قادمة لجِربْة ، فجهز جيشا وافرا من عسكر زواوة وأرسله اليها في البحر . وبـان أن ذلك من الاراجيف ، ونـدم الباي على استعجاله ، والعجلة والندامة فَرَسَا رهان .

⁂

وفي هذه السنة 1261 (1845 م.) ، توجه أبو عبد الله محمد بن عـيّاد سفيرا عن الباي للدولة الفرنساوية وقوبل بقبول حسن ، واشترى لنفسه دارا حسنة بباريس .

⁂

وفي شعبان من السنة 1261 (أوت 1845 م.) ، ورد للحاضرة قنصل لتجار النمسا ، وهم أقلُّ من القليل [في هذه الحاضرة] . ولم يـكن بيد هذا القنصل مـكـتوب من دولته ، وانما اعتمد مـكـتوبا من سفير دولته (1) باسلامبول . ولما قابل الباي قال له : « إنك لم

(1) بهامش ق ، 2 : 237 : « قوله وانما اعتمد مكتوبا من سفير دولته بالاستانة الخ ... والذى عندنا ان القنصل أتى بمكتوب سلطانى مؤرخ بأوائل ربيع الثانى سنة 1261 ، يتضمن التصديق على ولاية مسيو لبرودى قوسترو قنصلا عاما لدولته بالايالة التونسية بمقتضى تقرير قدمه للباب العالى سفير دولته بالاستانة ، يلتمس بـه اعطاء مكتوب شاهانى بيد القنصل المذكور ، حيث انه عين من طرف دولته قنصلا عاما ، وانـه ، بمراجعة الاصول المحفوظة بالديوان الهميوني وجد بمعاهدة بوزروفجة (ببلدة برومانيا) المنعقدة بين الدولتين ، يسوغ للسفراء المقيمين بالاستانة أن يعينوا من جهتهم قناصل ووكلاء ، بالولايات العثمانية التى على ساحل البحر المتوسط ، وانـه بمقتضى ذلك صدر هذا المكتوب ، بل الامر بالتعرف بمن ذكر واحترامه هو وأتباعه ، ومتعلقاتـه ، وأعفائه واياهم من سائر الاداءات والضرائب ، والترخيص له فى ملك الربع والعقار ، والسفر بـرا وبحرا لأى جهـة كانت ، واباحـة حمل السلاح فى الجهات المخوفة فقط ، كما له ان يتزيا بزى الاسلام فى وقت الخوف ، وانـه اذا توجهت عليـه دعوى ، يحال النظر فيها على الدولة العلية . أ هـ . وقد أتى القنصل المذكور بفرمان فى التاريخ مخاطب به الشيخ القاضى بتونس فى الغرض المذكور . ولذلك امتنع البـاى من قبول القنصل على هاتـه الصورة لمخالفتها لـما فى مخيلتـه من الاستقـلال » .

تأت بمكتوب من دولتك مثل القناصل بهذه الحاضرة ، لذلك نقبلك كواحد من رعايا النمسا ، وان لم ترض بذلك فلك ان ترجع من حيث أتيت » ، فرجع [لاسلامبول] (2) وأتى غيره بمكتوب على السَّنَن فقبله ، وذلك سنة ست وستين (1849/50 م.) .

ولمّا استعظم الباي استعجاله في إرسال عسكر زواوة لجربة ، وعدم قبوله قنصل النمسا ، ولم يعتبر مكتوب السفير باسلامبول ، ظن ان الدولة العلية تعتبر ذلك ، وربّما تبني عليه شيئا ، فوجه في شوال السنة 1261 (اكتوبر 1845 م.) هدية للدولة العلية العثمانية مع القبطان أبي عبد الله كشك محمد والكاتب أبي الحسن علي الدرناوي . واشتدّ حذر هذا الباي من وزراء الدولة العثمانية ، وساءت ظنونه .

ولما علمت الدولة تخوف الباي من جهة الدولة العلية ، وظنّت ان جمعه لهؤلاء العسكر لاستعداد مدافعة الدولة ، بعث السلطان رسولاً مخصوصا ، اسمه سليم باي من خواص السلطان المقربين بصرايته ، برسالة مضمونها الامان من جميع ما يتوهمه في الدولة مما يسوؤه ، وبالغ في ازالة وحشته ، وأتى معه بفرمان مضمونه تأييد ولاية تونس لهذا الباي ما دام حيا ، ومعه مكتوب من الصدر الاعظم رؤوف باشا في الإعفاء من المال المطلوب في كل سنة ، فعظّم الباي مَقْدَمه وأكرم نُزُلَه وبالغ في إكرامه وأنزله ببستان في مَنُّوبة. واستشار رجالَ دولته في جواب هذا الفرَمان ، واستبطن قنصلَ الانكليز وقنصل الفرنسيس في ذلك ، فأشار بعضهم اي رجال الدولة بأن الجواب يكون بالشكر والدعاء كما كنا نفعل اذا ورد فرمان تجديد الولاية (1) ، وعلى هذا الرأي قنصل الانكليز . واشار بعضهم ، ومنهم الباي ، بأن هذا ليس كفرمان التجديد (1) في الاسلوب ، حيث أناط الولاية بالحياة لشخص مخصوص من البيت ، وقد وقع إثر طلب أجبنا فيه بما تعلمونه . فالواجب ان نصرّح بعادتنا (2) ، وقد بَرِحَ الخَفَاءُ . وعلى هذا الرأي قنصل الفرنسيس ، وان كان الرأي الاول أسدّ ، اعتبارا لجمع عصابة الامة المسلمة .

وأمرني بانشاء الجواب [على رأيه ، مع مراعاة واجب الادب ، والحذر مما يشعر بالعصيان او الخروج] (3) ، ونصّه :

---

(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(1) في خ : « فرمان الابقاء » .

(2) وهي تسلسل الولاية في آل حسين .

(3) الزيادة عن ع و ق .

« الابواب الشريفة التي تعنو لعزّة قدرها الابواب ، ويصدر من أعتابها المُنيفة العدل والصواب ، ابواب الخلافة العثمانية ، والسلطنة الخاقانية ، والمملكة الغرّاء المجيدية ، مخدومة السيوف والاقلام بالاعمال والنيّة ، ومبلغة مَن التجأ اليها كل أمنيّة ، اذ هي الدولة الغنية ، لا زالت محطّ الرحال وقبلة الوجوه ، بالغة من الله ما تؤمله وترجوه . أما بعد تقديم الاعتراف بما يجب لعلاها ، والاعتصام بمنيع حماها ، فانه ورد علينا الظهير العلي العثماني ، الموشح بالخط الشريف السلطاني ، فعظّمْنا مورده الشريف ، بما ينبغي للمقام المُنيف ، وفهمنا من إسناد التأييد لنا ما ينافي عادتنا المعروفة ، وسيرتنا السابقة المألوفة ، لان لسلف هذا العبد العاشر من آل بيته خطّة يرثها المتأهل من الخلَف ، عن الذي يمضي من السلف ، وهي إمارة هذه الإيالة التونسية ، المحمية بالشوكة العثمانية ، البعيدة عن دار الخلافة العلية ، وبذلك دام عمرانها ، وقوي والحمد لله إيمانها ، واستراح من الفتن سكانها ، واستمرّ هذا العمل في الناس ، على اختلاف الاجناس ، ومضى من أسلافنا مع الدول حرب وسلم ، وللدولة العلية بذلك مزيد علم ، ولنا في خدمة الدولة حقوق تُذكَر ، وفضلها علينا بكل لسان يُشكَر ، وهذه الإيالة دار قرارنا ، وبذلنا فيها نفائس أعمارنا ، فهي طائعة منقادة ، على ما جرت به العادة ، وعادات السادات ، سادات العادات ، لا ينسخ إحكامها ، ولا ينقض إبرامها ، ولا يوهنها طول الزمان ، بل يزيدها الصحة والامان ، وهذا العبد لم يقصّر في خدمة الدولة العلية من جهده ، ولا نقص عمله عن عمل أبيه وجدّه ، فغاية قصدي ومنتهى مرادي ، أن أكون كآبائي وأجدادي ، ولم يؤخرني العمل ، عن بلوغ هذا الامل ، من إقامة الشعائر وتعمير المساجد ، وتأمين الراكع والساجد ، وحماية الثغور ، ومراعاة مصلحة الجمهور ، بحسب الطاقة البشرية ، وذلك ببركة رضى السلطنة العلية ، وهكذا ان شاء الله الاعقاب ، على طول الاحقاب ما دامت الدولة العلية وهي الدائمة ان شاء الله على مدى الازمان ، الى انقضاء الدوران . وتشرّفْنا برسالة علية سلطانية على لسان خادم السلطنة ، وأعزّ السدنة ، افتخار أقرانه ، المأمون في بيانه ، المختار لنباهة شأنه ، سليم باي . وعرضنا على سمعه ما ينهيه إلى السلطنة بتعطّف في التقرير ، وتلطف في التفسير ، بأن نهاية مرادي ، أن تبقى بيتي على سنن آبائي وأجدادي . واما الخطاب الوارد لنا من الوزارة العظمى عن أمر السلطنة العلية في قبول عذرنا ، وإجرائنا على عادتنا ، في الإعفاء من المقدار الذي طلب منّا في كل سنة لعَجْزنا عنه ، ولم نقدر على شيء منه ، واستمرار حالنا في هذه الإيالة على ما ألفناه من تقديم الهدية بحسب

الإمكـان ، باعتبار الحال والزمان ، لاننا لا نطلب من الدولة إمدادا عند النقصان ، حصل لنا بذلك سرور وشكر ، ودعونا لمولانا السلطان بدوام الذِكْر ، ورأينا بلوغ الامنية ، بصفاء النية ، وبصدق السريرة ، تحسن السيرة ، والله يديم لهذه الدولة العلية العثمانية نصرا من عنده ، ويبقى مولانا السلطان ويجعل جند السماء من جنده ، إنه على ذلك قدير ، وبالاجابة جدير.

حرره الفقير الى ربه تعالى عبده المشير أحمد باشا باي امير الإيالة التونسية في الثالث والعشرين من ذي القعدة سنة 1261 ، إحدى وستين ومائتين وألف (الاحد 23 نوفمبر 1845م) » .

وأعطى الباي نسخة من هذا المكـتوب لقنصل الانقليز ، ومثلها لقنصل الفرنسيس ، لسياسة رآها في ذلك .

وسافر سليم باي مسرورا مكـرما محترما ، فوجد رسل الهدية باسلامبول [وبلغهم عنه جزيل الثناء] (1) .

وصار البـاي إلى تقويـة الالتحام مع الدولة العلية ، محافظا على ما لها من الحقوق كمحافظته على طلب الفضل في إبقاء عاداته . وصفا له الجوّ ، ورجع وزراء الدولة عن رأيهم الاول ، وأظهر مصداقَ طاعته في حرب الدولة مع الموسكـو ، كما يأتـي في محلّه .

***

وفي محرم من سنة 1262 ، اثنتين وستين (جانفـي 1846 م.) ، صدر أمر الباي في سائر مملـكته بعتق المماليك السودان ، وذلك أن غالب أهل هذه المملـكة عمّرها الله تعالى ، لا يحسنون ملك إخوانهم من بني آدم على الوجه الشرعـي أو قريب منه . ولهذا الباي في ظاهر حاله شيء من الميل بطبعه الى الحضارة التي أساسها وملاك أمرها الحريّة(2) وقدّر أن ذلك ربما يقنع الطالب للتنظيمات الخيرية التـي من أصولها الحريّة .

ولم يأمر بذلك دفعة ، بل تدرّج الى الوصول إليه . فأمر في رجب من سنة سبـع وخمسين (أوت — سبتمبر 1841 م.) بمنع بيـع الرقيـق في السوق كـالبهـائم ، وأسقط المال (3) الموظف للدولة عن أثمانهم ، ويسمى ملتزمه بقايد البِرْكـة [ومقداره ينيف على

(1) الـزيـادة عن ع و ق .
(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : « الحضارة التي منها الحرية » .
(3) كذا في خ ، وفي ع و ق : « اسقط المكس » .

الثلاثين الف ريال في السنة] (1) ، وهدم الدكاكين الموضوعة لجلوسهم ، وبقعة القايد وتسمّى القفص . وسكت عن بيعهم في غير السوق .

ثم منع خروج المماليك من العمالة للتجارة فيهم ، وكتب بذلك لمراسي المملكة .

وفي ذي القعدة من سنة ثمان وخمسين (ديسمبر 1842 م.) صدر أمره بأن المولود في المملكة التونسية حرٌّ لا يباع ولا يشترى .

وفي هذه السنة 1262 ، حجر ملكهم ، وأمرني في ذلك بالكتابة لاهل المجلس الشرعي بما نصّه بعد افتتاحه :

« اما بعد فانه ثبت عندنا ثبوتا لا ريب فيه أن غالب أهل إيالتنا في هذا العصر لا يحسن ملكية هؤلاء المماليك السودان الذين لا يقدرون على شيء ، على ما في أصل ملكهم من الكلام بين العلماء ، إذ لم يثبت وجهه . وقد أشرق بقطرهم صبح الإيمان منذ أزمان . وأين من يملك أخاه على المنهج الشرعي الذي اوصى به سيد المرسلين آخرَ عهده بالدنيا وأولَ عهده بالآخرة ، حتى إن من قواعد شريعته التشوُّف الى الحريّة وعتق العبد على سيده بالاضرار . فاقتضى نظرنا ، والحالة هذه ، رفقا بأولئك المساكين في دنياهم ، وبمالكيهم في أخراهم ، أن نمنع الناس من هذا المباح المختلف فيه ، والحالة هذه ، خشية وقوعهم في المحرم المحقّق المجمع عليه ، وهو اضرارهم باخوانهم الذين جعلهم الله تحت ايديهم . وعندنا في ذلك مصالح سياسية منها عدم إلجائهم إلى حرم وُلاَةِ غيرِ ملّتهم . فعيّنّا عدولاً بزاوية سيدي محرز والزاوية البكرية وزاوية سيدي منصور ، يكتبون لكل من أتى مستجيرا حجةً في حكمنا له بالعتق على سيّده ، وتُرفَع الينا لنختِمها . وأنتم ، حرسكم الله ، إذا أتى لاحدكم المملوك مستجيرا من سيده ، او اتّصلت بكم نازلةٌ في ملكية عبد ، وجِّهوا العبد الينا . وحَذارِ أن يتمكن به مالكُه ، لان حَرَمكم يأوي من التجأ إليه في فكِّ رقبته من ملك ترجّح عدم صحته ولا نحكم به لمدّعيه في هذا العصر . واجتناب المباح خشيةَ الوقوع في حمى المحرَّم ، من الشريعة ، لا سيما اذا انضمّ الى ذلك أمر اقتضته المصلحة . فيلزم حمل الناس عليه . والله يهدي للتي هي أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا . والسلام .

(1) الزيادة عن ع و ق .

وكـتب في 28 محرم الحرام فاتح شهور سنة 1262 (الاثنين 26 جانفـي 1846 م.) » .

وأمر بأن يكتب في عتق المملوكين بأن الولاء لمواليهم ، ولم يجعل ولاءهم لبيت المال .

فأجابه رئيس الفتوى من الحنفية أبو عبد الله محمد بيرم بما نصّه :

« المقـام السلطانـي الاحمدي المشيري المرفوع عماده ، الطويل نجاده ، المحوطـة بحسن سياسته من طوارق الاعداء بلاده ، لا زالت الإصابة دَيْدَنَه ، والمصلحة في مـا يأمر به متعيّنة . اما بعد فقد ورد على العبد الضعيف ، ذلك المكـتوب الشريف ، فبادرتُ بالامتثال ، وشرعت في إيصاله الى من تضمنه من الرجال ، وما أشرتم اليه من المصلحة قد فهمناه وتحقّقناه . وقد وقع من عبدكم تحريرُ ما بيده من العبيد ، علما منه بأنه الصواب المتعيّن ، لا سيما وقاعدة ملك هؤلاء السودان ليست مبنية على أساس صحيـح ، لاختلاط من هو حرٌّ الاصل منهم بغيره . فلـلشّك في كـل فرد معيّن منهم مَجال ، يعلم ذلك من وقف على رسالة الشيـخ سيدي أحمد بابا في المسألة (1) . وبالجملة فـالخروج من عهدتهم أَسْلَمَ للمرء في دينـه ، خصوصا وقد انضمّ الى ذلك المصلحة التـي لاحظتها السياسة ، ولا يسع من رُزِق حظا من العقل الا تسليمها . فالله تعالى يجازيـكم عن النظر في مصالح عباده اجزل ما جازى به ولـيّ أمر قائما بمصالح المسلمين . والسلام على ذلك المقام من محرره الداعـي لـكم الفقير محمد بيرم لطف الله به . وحرر في المحرم سنة 1262 ».

وأجابه شيـخ الشيوخ وكبير أهل الشورى من المالـكية ، ابو اسحاق ابراهيم الرياحي بما نصّه : « اللهم أيّد الاسلام والمسلمين ببقـاء أمير المؤمنين ، المؤيـد بالنصر العزيز والفتـح المبين ، المستمدّ في إصابـة الـرأي من نـور العليم الخبيـر ، سيدنـا ومولانـا الباشا أحمد المشير ، لا زالت العناية آخذة بيده ، والهداية إلى أقوم طريق من أجلّ عُدَده . وبعد فقد بلغنـي كـتابك الـكـريم ، وخطابك العزيز الواجب التعظيم ، فـأحطت بما لديه خُبْرا ، وانشرحت بما تضمّنه صدرا ، اذ كـان مضمونه رأيكم السديد ، في عتْق هؤلاء العبيد ، لما ذكـرتم من كـل وجه سديد ، يقبله مَن له عقل رشيد ، وعلم مديد ، وليس بعد بيانـكم من مزيد . فلا زالت ملّة الإسلام بك مشرقة ، ورياض الدولة بحسن سياستك مُونِقة . آمين . والدعاء من معظّم قدركم العلي ، ابراهيم بن عبد القادر الرياحي ، عفي عنه . آمين . في المحرم 1262 » .

(1) هو صاحب نيل الابتهاج المتوفى سنة 1036 ، والرسالة المشار اليها عنوانها : معراج الصعود .

ولما وقع هذا التحرير صار له في أمم الحرِّية موقع عظيم ، وكـاتبه أعيان من الانقليز بالشكـر على هذه المَأْثَرة ، وطبع في صحف الحوادث بالبلدان ، وطبعت في مالطة أوراق بالعربية فيما يتعلق بملك الإنسان والتنفير منه .

ولا يخلو الوجود في سائر أفعال البشر من قادح ومادح . فمَن نظر الى الحنان والرأفة وما يقتضيه حال الوقت من السياسة التي لا تنافيها القواعد الشرعية ، أطال لسانه بالمدح ، كشيخي الإسلام ومن نحا منحاهما . ومن نظر الى ضَيَاع ماله وعسر حاله ، وتعلّق ببعض أقوال العلماء ، كـأهل جِربة وغالب العُرْبان وأهل الفلاحة ، أطال لسانه بالقدح .

وظهرت في البلاد رسالة لم يذكـر كـاتبُها اسمَه ، ونُسبت الى بعض البلدان من أروبا ، ونصّها :

« الى كـافّة أمة محمد صلى الله عليه وعلى جميـع الانبياء والمرسلين . اما بعد السلام عليكم ورحمة الله ، فان القرآن العظيم الباقية فيكم معجزته لم يزل ناطقا بفضيلتكـم ، وناهيك بقوله : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً » (1) ، وقوله : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » (2) ، وقوله : « اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً » (3) . وجدير لمن لهُ هذا القدم الـراسخ في الفضل ، بشهادة الصادق في الكـلام المعجز ، أن يترك جُملاً من المباحات خشية الوقوع في المحرّمات . ألا وإنّ لكـل ملك حِمىً ، وحِمى الله محارمهُ . ومن حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه . ومن المباح في ملّتكم الحنيفية السمحاء ملك الأُسارَى ، على ما في أصل إباحته من القصّة المنبيء عنها القرآنُ بقوله : « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ ، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (4) وفي هذا الاسلوب من تعظيم محمد ومحبته ما لا

---

(1) س 2/آ 143 — 2) س 3/آ 110 — 3) س 5/آ 3 — 4) س 8/آ 67 و 68 و 69

يخفى على متضلّع بمعاني التنزيل وأسرار البلاغة ، كما حرّره عياض في كتابه الشفا . وتعلمون أيضا أن شفيعكم ووسيلتكم وقائدكم الى السعادة الابدية ، وهو الرسول الذي جاءكم من أنفسكم عزيز عليه ما عَنِتُّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، آخر وصايته لكم عند انتقاله الى الملا الاعلى : « اللهَ اللهَ في الصلاة ، اللهَ اللهَ فيما ملكت أيْمَانُكم » . وقال أيضا : « إخوانكم خوَلُكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا يكلّفه فوق طاقته » . ومن قواعدكم الشرعيّة تشوُّف الشارع الى الحرية ، وعليها بنيت أحكام مفصّلة في كتب الفقه . وناهيك أن عتق الرقاب من مصارف الزكاة التي هي إحدى قواعد الاسلام الخمس . ومَن زاول الشرائع وقواعدها وظواهرها ومقاصدها ، خصوصا الشريعة المحمدية المبنيّة على الرفق والرحمة ، ينفر من هذا المباح وهو ملك أخيه الآدمي المتأهل للنُّبُوة والخلافة في الارض وغير ذلك من الكمالات الانسانية ، ولو أتى بسائر شروطه ، المتعذرة في الوقت والحال . وكابَر مَن أنكر ذلك ، والمشاهدة أقوى دليل . ومَن وُلِد على فطرة الشرائع ، وتغذى بلبان الشفقة ، وتربّى في مهد الرحمة ، يرقُّ فؤادُه لـمَّا يرى حالَ هؤلاء المساكين المضروب بحالهم المثل في الكتاب العزيز : « ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ (1) » ، وينظر تقلبهم في أَسْر المذلّة وهوان الرق على ما فيه شرعا في وقتنا ، إذ أكثرهم بل كلّهم يأتون من سوادنهم ناطقين بكلمتي الشهادة ، عالمين بها إجمالا ، إلى غير ذلك مما يدلُّ على منع ملكهم مما هو محرَّر في الدواوين الفقهية .

ولا حرج في التحرّي من هذا المباح الموقع في المحرم . والإباحة رفع تحجير ، ورفع التحجير لا يقتضي الامر بالعمل ، بل اذا خلصت النيّة في ترك هذا المباح ، كان لتاركه من الاجر ما يناسب كرم الرحمان الرحيم الآمرِ بالرحمة والراحمِ عليها .

هذا ما يليق بحالكم يا أهل الإيمان ، الظاهر دينكم على الاديان ، والراحمون يرحمهم الرحمان .

يا أهل النفوس الزكيّة ، والقلوب السالمة النقية ، والاخلاق التي بالرحمة حرِيّة ، شرعكم متشوِّف للحريّة ، والملك للنوع الإنساني أعظم بليّة ، وحالة المملوكين

---

(1) س 16/ آ 75 .

جليّة ، والله يقدر على عكسَ القضية ، كما ملّككم إيّاهم يملّكهم إيّاكم ، وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير. والسلام ورحمة الله على أهل الإسلام من عَبْد الله داخلٍ في عموم قوله تعالى : « يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ » (1) .

قوله : « والمِلك للنوع الإنساني أعظم بلية ، وحالة المملوكين جلية » ، الظاهر أن مراده ما يعمُّ المِلك الشرعي بالاسر في الحروب وبالشراء ، والملك بالتغلب والقهر من ملوك الاطلاق الذين لا وازع لمشيئتهم ، ولعمري انه أفظع من الاول ، لان الاول ربّما كان له وجه شرعي ، وهذا لا مساغ له بشرع ولا عقل .

*

وفي الشهر قدّم الباي لخطة الفتوى شيخنا العلاّمة أبا العباس أحمد الأُبِّي ، واعتذر بكبر السنِّ والعجز فقال له : « إنما قدّمتك لتستعين بدخل الخطة ، ولا نرضى ان نُنسَب إلى نسيان مثلك » . وقعد بغير إذن الباي حذو الرئيس ، واحتُمِلت له لان مَن بعده تلاميذُه [وأبناءُ درسه] (2) .

وفي السنة [62] ظهر للباي ان المكس المرتّب على أكرية العقّار بالحاضرة يكون لإصلاح الضروري من خراب أبنيتها ، واتخذ لذلك أمينَ التجّار الوجيه الماجد أبا محمد حسونة الحداد ، وأبا عبد الله محمد التومي ، وأبا عبد الله محمد بن عبد الله الصفاقسي ، وأحضرهم لديه [في المحمدية] (3) وتكلم معهم في ذلك . ولم تحصل نتيجة من هذا القياس لضيق حال الدولة .

وأتعب الناس ذو حال ترقّعها   يَدُ التجمّل والإقتار يَخْرِقُها

*

وفي رجب من السنة 1262 (جوان — جويلية 1846 م.) قدم ابناء سلطان الفرنسيس ، وهو يومئذ لويز فليب ، وقدم أخوهما الاصغر قبلهما ، فاحتفل لقدومهم وعظّم زيارتهم

(1) س 39/آ 53 .
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

وبالغ في إكرامهم ، وأكد الوصلة بذلك بينه وبين الجنس الفرنساوي . وانتدب وزيره شيخ الدولة أبا النخبة مصطفى صاحب الطابع إلى تأنيسهم والركوب معهم الى القنص والاماكن التي تشوّفوا إلى معرفتها . وأنزلهم بدار المملكة بالقصبة . وبعث ابن عمّه ووليّ عهده في أعيان من رجال الدولة لتلقّيهم بالدار ، [وتعرض لهم بنفسه عند باب الصرايا] ، ورتب لهم عسّةً بها على مقتضى مقامه (1) رئيسها ابو النجاة سليم أمير آلاي عسكر القشلة بالحاضرة ، وهاداهم بنيشان آله ، ورجعوا في تعظيم واحترام ، [وركب الى حلق الوادي لمشايعتهم] .وبعث ولي عهده في اعيان من رجال دولته لمشايعتهم الى الفابور في يوم حافل مشهود (2) .

⁂

وفي ذي القعدة من السنة (اكتوبر — نوفمبر 1846 م.) قدّم لخُطّة القضاء بالمذهب الحنفي العالمَ الفاضل الوَرِع أبا النخبة مصطفى ابن شيخ الإسلام محمد بيرم الاول . ونقل لخطّة الفتوى شيخنا العالم المحقق الفاضل ابا عبد الله محمد ابن الشيخ العلاّمة حميدة بن الخوجة .

⁂

وفي هذا الشهر عزم على السفر لفرانسة ، بعد ان بعث لها أبا عبد الله محمد بن عيّاد ، واستكشف به كيفية قبوله ، فجمع رجال دولته واستشارهم في أمر السفر ، فقالوا له : « إن تحقّقتَ أنك تُقبَل فيها قبول أمثالك فهو حسن ، لا سيما وأولاد سلطانهم كانوا في زيارتك بالامس ، وهم الآن جيراننا » . وقال لوزيره أبي النخبة مصطفى خزنة دار : « اعرض ذلك على أعيان العُمّال الذين معنا الآن بالمحمدية واعرف رأيهم » . وهم ابو العباس صميدة بن علي بن عزّوز ، قاعدة دريد ، وابو عبد الله قَظُّوم ابن محمد ، رجل الفراشيش ، وكاهية الكاف ، ابو الفلاح صالح بن محمد ، فجمعهم الوزير بعلوّه واستشارهم على لسان سيده ، وكنت حاضرا مع الوزير ، فأجابوا بالاستحسان .

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « تناسب مقامهم » .
(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

وكـان ، رحمه الله ، بالمكـانة المكـينة من برور الوالدين ، فقال لوزيره ومربّـيه مصطفى صاحب الطابع : « إن أمـي ليس لها غيري ، ولم يخرج من المملكـة أحد من آلنا في البحر ، نرى أنها تتغير لسفري ولا نرى سرورا في أمر يغيّرها . فقدّمْ لها ذلك على أنه رأي ظهر لك ، وانظر حالها » ، ففعل وقوّى قلبها . ثم أتاها الباي وقال لها : « ظهرت لي مصلحة في السفر لفرانسا » ، فقالت له : « يا بُنَـيّ ، أنت في ولاية تقتضي السفر برا أو بحرا ، وأنّى للنساء ومعرفةَ المصالح السياسية ؟ ولـكـن عندك وزراء ونصحاء ، فشاورْهم ، فان اتّفقوا على تصويب رأيك فأنت في وديعة الله ، وحسبك مني الدعاء » ، فخرج إلينا مسرورا بذلك .

وأعمل الفكـر في كـيفية السفر ، إذ لم يعهد مثله عند أهل المملكـة ، فبعث إلى الاعراض صهرَه أبا محمد رشيد ، عامل تلك الجهة ، بالمحلّة على العادة . وبعث الى الجريد أبا العباس أحمد زَرُّوق ، أحد أعيان مماليك عمّه ، في جيش من المخازنية . وبعث إلى باجة وجبالها محمد علي آغة بمحلّة . وبعث الى عروش ماجر والفراشيش ومن جاورهم ، أبا محمد اسكـندر آغـة في جيش من المخازنيـة . وخرجـوا متفرقيـن لاغـراض مختلفة . وأمر كـلّ واحد منهم أن لا يرجع من وجهته إلا اذا أتاه أمر بالرجوع ، وان احتاج لشيء يبعث في طلبه . ولما خرج هؤلاء الامراء ، أشاع بأنه يريد السفر ، وجمع العساكـر في المحمدية بما يلزمهم من المدافع ، وأمّر عليهم وزيره إبا النخبة مصطفى صاحب الطابع ، وأمره ان لا يفارق المحل . وكـتب لسائر بلدان المملكـة وعروشها وللأمراء المسافرين بما نصه ، بعد الافتتاح واسم المخاطَب :

« أمّا بعد فان المصلحة التي أمرنا الله بمراعاتها ، اقتضت أن أسافر بنفسي الى فرانسة ولُنْدرة ، والله يعلم ان شغفي برعيتي ومملكـتي يقتضي ان نقتحم المخاوف لامانهم ، ونتحمل مشقة الاسفار لراحة أوطانهم ، وحماية أموالهم وأبدانهم . وقد أقمت فيهم جزءا منّي ، ينوب في غيبتي عنّي ، وهو المرفّع الاعز أخونا سيدي محَمد باي ، ينفّذ ما أمرته به في مصلحتهم ، وحفظ عامتهم وخاصّتهم ، حتى أرجع ان شاء الله الى بلادي ، ومَنْبِت آبائي وأجدادي ، ورعيّتي المنزلين منزلة اولادي . وأحضرت العساكـر قرب الحاضرة ليجزي الله كـل نفس بما كسبت ، ان الله سريع الحساب . فاقرأ كـتابنا هذا على الولاة الشرعية والمشايخ ليدوم أُنْسهم ، ولا تتشوّشَ بهذا السفر نفسهم .

وأستودعكم مَن لا تَخيب ودائعه ، وهو الله في السموات وفي الارض ، يعلم سرّكم وجهركم ويعلم ما تكسبون . وخلفي فيكم الله الذي لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم ، والسلام . وكتب في ذي القعدة سنة 1262 » .

وكتب لابن عمّه وولي عهده الذي أنابه عنه ، مكتوبا بيده يتضمن فصولاً أمره بها فيما يرجع لحفظ الوطن وسياسة الرعية على حفظ الطاعة ، وإعانة الامراء المأمورين في الجهات ، والاستعانة برأي الوزير مصطفى صاحب الطابع ، والاحتفاظ برعايا الدول الاحباب واحترام قناصلهم ، وإعانة اللزّامة . واذا طرقه ما يطرأ على البشر من العذر المانع عن المباشرة الموجب للنيابة ، يقيم مقامه أخاه ابا عبد الله محمد الصادق باي ، يتبع نص وصايته ، إلى غير ذلك مما اقتضاه الحال . وفي آخره : « اذا توقفتم في أمر لم نستحضره في هذا التقييد ، وأشكل عليكم الامر ، فالفابور لا ينقطع عنكم ان شاء الله تعالى . هذا ما حضرني من الوصاية ، ولله الحمد والشكر بلا نهاية ، حيث رزقني أخا جزءاً منّي ، ينفّذ إذني ، ويحفظ غيبتي ، وينوب في مملكتي ، على سنن معتادنا ، الذي ورثناه من آبائنا وأجدادنا ، ولولاه لم نقتحم الاسفار ، ولا يسهل علي بُعْد الدار ، والغيبة عن الاوطار . اللهم أنت الخلف في الاهل والصاحب في السفر . واستودع الله أخي وعائلتي ومملكتي ، وحسْبي الله الذي تساءلون به والارحام ، ان الله كان عليكم رقيبا . والسلام » .

وكتب لابي محمد خير الدين كاهية الذي أمره بحراسة قصره بباردو كتابا أوصاه فيه بما اقتضاه نظره ، واذا طرأ عليه مانع فالوزير ابو الثناء محمود بن محمد كاهية يقوم مقامه . وفوّض أمر حلق الوادي لوزيره المذكور ، وجعل به أعيانا معه ، واذا طرأ له مانع فأبو المسرة فرحات يقوم مقامه .

وفي يوم الثلاثاء سابع ذي القعدة 1262 (27 اكتوبر 1846 م.) أمر باحضار كبراء العسكر من الصاغ قلاغاسي (1) فأعلى ، وأعيان من رجال الدولة ، فاجتمعوا بصحن البرج (2) . وكتب لهم كتابا أمرني بقراءته في جمعهم والوزير حاضر ، ونصّه :

« حفظكم الله تعالى ورعاكم ، وحاطكم بعنايته وقاكم [والى سبيل الخير هداكم] (3) .

---

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « الصاغ قول آغة سي » .
(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : « بصحن المحمدية » .
(3) الزيادة عن ع و ق .

[الى] الاجلاء الفضلاء الاعيان الثقات المقربين سيوف صولتي ، ومظهر شوكتي ، ومفخر دولتي ، وسور حمايتي ، في حضوري وغيبتي ، وأعزّ خاصّتي ، أبنائنا أُمراء الأُمراء وأمراءِ الاَلْويَة وأمراءِ الآلايات وقائمي المقامات وأمناء الآلايات والبنباشية وسائر ضباط وكافة عساكرنا المنصورة بالله ، كثّر اللهُ أمثالهم ، وقرن بالرضى أعمالهم .

أما بعد فان المصلحة اقتضت أن أسافر بنفسي الى فرانسة ولندرة ، والله يعلم ان شغفي بكم وبمصالح المملكة يقتضي ان اقتحم المخاوف لامانكم ، وأتحمّل مشقة الاسفار لراحة أوطانكم . ومَنْ عِندَه ، والشكر لله ، مثلُكم من الحماة والانصار ، يستسهل الاسفار وبُعد الدار . لان مثابرتكم على تنفيذ أموري ، تعظم في غيبتي اكثر من حضوري .

وجرت عادة الله في عباده ، ان المسافر يهتمّ بأمر أولاده . فأنتم عندي ، بحمد الله ، المال والولد ، وبغيرتكم حماية الوطن والبلد . فلذلك أقمتُ فيكم من هو بمنزلة والدي ، وموضع مبرّتي ، وحافظ أمانتي ، وهو الوزير الناصح الثقة الخيّر الزكي ، أمير الامراء ابينا مصطفى صاحب الطابع ، مع انه في السفر لا غنى لي عنه ، ولا بدّ لي منه . لكن مكانتكم عندي ، تقتضي ان أبقي فيكم أعظمَ أهل ودّي . فامتثلوا جميعا ما يأذنكم به من السلم والحرب ، والقتال والضرب ، فانه يتكلم معكم بلساننا ، ويباشركم بيدنا . وارفعوا جميع مطالبكم اليه بالمحمدية من تقرير أعدادكم وتحرير أحوالكم اليومية واختبار مؤونتكم ، تأتيه بذلك الشواش كل يوم من العُرْضي (1) وحلق الوادي وعسة صرايتنا بباردو المعمور والقشل ، على العادة التي تفعلونها معنا نصّا سواء . وينفّذ ما يظهر له من العقوبة فيمن جنى منكم جناية توجب الحكم ، أيّ عقوبة كانت . واذا لزمه إقامة ضابط من اليوزباشي فأدنى ، فله أن يولي مَن يظهر له ويلبسه النيشان ، وأمضينا فعله . واذا أصابه ، والله الحافظ ، مرضٌ يوجب أن يقيم غيره مُقامه ، فله ذلك . وأذِنّاه ان يقيم مُقامه الثقة المقرّب أمير الامراء ابننا خير الدين كاهية ، فان تعذر فالثقة المقرب أمير الامراء ابننا محمود كاهية حلق الوادي . والقائم مقامه مثله في جميع الامور التي حرّرناها لكم ، يتصرف على مقتضى التقييد الذي حررناه بيد الوزير المذكور . فلا

(1) العرضي : المعسكر (انظر دوزى وياقوت) .

تعرفوا في غيبتنا سواه ، ولا تجول فيكم يد غيره إلا يد الله . واستودعكم من لا تخيب ودائعه ، وهو الذي ألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته إخوانا ، والله خيرٌ حِفْظاً وهو أرحم الراحمين ، والسلام » .

ويوم الاربعاء ثامن الشهر (28 اكتوبر 1846 م.) أحضر مشايخ الحاضرة وعرّفهم بعزمه على السفر ، وان البلاد في وجوههم ، وفوض أمر حراستها لابي النجاة سليم أمير لواء عسكر القشلة ، وأبي اسحاق ابراهيم امير لواء عسكر الطبجية ، وجعل في داره بالقصبة أربعمائة عسكري لحراسة المدينة ، وزاد في عسة الطّويلة ، وهي حارة الافرنج . ورتّب مائتي عسكري وعليهم بنباشي في رَبَض باب السويقة ، ومثل ذلك في رَبَض باب الجزيرة . وفي اليوم أبطل العَسّة عن أهل البلاد ، وقال لهم : « حراسة البلاد ، موكولة للعسكر والاجناد ، ونَحْرُسُهم باعانة الله في غيبتي ، كما نَحرُسهم في حضرتي » .

وكاتب وكلاءه في الممالك بخبر سفره .

ولم يزل مجتهدا من غرة هذا الشهر في ترتيب الامور ، والتدبير فيما يُثمر راحة الجمهور .

ولما كان يوم الثلاثاء الرابع عشر من الشهر (3 نوفمبر 1846 م.) ، أتى لوَداعه أهلُ المجلس الشرعي ، فعظّم مَقْدَمَهم وطلب منهم الدعاء ، فدعوا له . وقال له شيخ الشيوخ ابو اسحاق ابراهيم الرياحي في ذلك المشهد : « إن نُواب الجلْد والدخان واللزّامة لم يزالوا في تعنّتهم وعسفهم لعباد الله ، فكيف يكون الحال في مغيبك ؟ » ، فقال له : « يا سيدي قد بالغتُ في وصايتهم » . ولما خرجوا [تنفّس الصعداء ثمّ] (1) خرج إثرهم وزار مقام الشاذلي رضي الله عنه ، وتوجه لحلق الوادي فبات به ليلتين ليرى حال البلاد بعد سفره ، ووفود الحاضرة تَرِد لمشايعته .

وسافر ضحى يوم الخميس [السادس عشر من الشهر] (5 نوفمبر) ، في فابوره المسمى بالدنت (2) ومعه من رجال دولته وخاصّته الوزير مصطفى خزنه دار ، ووزير الحرب مصطفى باش آغة ، والقبطان حسونة المورالي ، والوزير جوزاب راف ، ومحمد

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) Le Dante باخرة صغيرة اهداه اياها لويز فيليب (غانيا ج 172) .

المرابط امير لواء [عسكر المحمدية] ، وصالح بن عثمان شيبوب أمير لواء العسّة ، وخير الدين أمير آلاي [مباشرا لمصرف الدراهم] ، وحسّونة متّالي (1) قائم مقام ، والعبد الفقير وغيرهم من أعيان خاصته . وصاحبه في هذا السفر قنصل الفرنسيس وهو الكولير ده لَقُو (2) ، ووراءه فابوره المسمى لفزي . فوصل لمرسى طلون ليلة الاحد [التاسع عشر من الشهر] (8 نوفمبر 1846 م) . (3) .

وفي الصباح لما ارتفع الصنجق التونسي ، تزيّنت سائر الشقوف الحربية بالمرسى ، وأُطلقت المدافع دفعة واحدة من كل شقف . وأتاه أمير الاسطول ورحّب به وعظّم مَقْدَمَه ، ثم أتى الامرال الكبير بودين من البلاد ، وهو شيخ مسنٌّ حنّكته التجارب والحروب ، محلّى بفقد ذراعه في حرب ، وعظّم مقدمه ورحب به وقال له : « ان فرانسة في انتظارك ، وقد أحضرت لك فابورا يحمل الى بلادك مكاتيب وصولك » ، فكاتب سائر المأمورين ، وأمر الوزير مصطفى صاحب الطابع بقراءة مكتوبه على العسكر .

ولم يزل الاسطول الفرنساوي مزينا بالصناجق ، وفي كل شقف منه صنجق تونس .

ووجد في طلون مترجم السلطان ، وهو الكولير دقرانج ومعه يوزباشي من وزارة الحرب ، مأمورَيْن من الدولة بانتظاره . ولما سلّما عليه ، وقع في نفسه أن مثله لا يتلقّاه يوزباشي ، وربما ظهر على وجهه ، فقال له اليوزباشي ، واسمه برسي ، وكان آية في الالمعية والنجابة (4) ويتكلم بالعربية : « يا سيدي ان مثلي لا يبعث لتلقّي مثلك ، وسلطاننا أمر بأن جموع فرانسة هي التي تتلقاك ، وسترى ذلك عيّانا ، وحسبي أن أهيّىء لك محلّ المبيت في الطريق ، والكراريس ، وغير ذلك مما يلزمك ، ودقرانج هو ترجمان السلطان » .

ولما تمت مدة الكرنتينة أتى الامرال ومعه كافة أعيان الاسطول ، وقابلوا الباي في فابوره (5) ، واعتذر الامرال عن عادة الكرنتينة ، فقال له : « لا تَعَب عندي فيها ، لاني أحكم بها في بلادي ، والانسان يحكم على نفسه بمثل ما يحكم به على غيره » ،

(1) فى ع و ق : « المتالى » .
(2) De Lagou (غانيا ج 19 و 20) .
(3) الزيادة فى الفقرة عن ع و ق .
(4) فى ع و ق : « وكان اية الله فى الذكاء والسياسة »
(5) فى ع و ق : « وقبلهم الباى فى فابوره وعظم مقدمهم » .

فقال له : « مثلك من يعتبر ذلك (1) » . ثم قال له : « ان فرانسا اهتزّت لقدومك ، وانها تقبلك كما قَبِلتَ أنت أولاد سلطانها ، وأنت المبتدىء بالإكرام » ، فقال : « انما فعلت ما رأيته واجبا ، ولا يشكر الانسان على واجب » . ثم صحبه الامرال الى الفلوكة ، ولما نزل بها اطلقت جميع الشقوف المدافع ، وطلع بحريّتها إلى أعمدتها ، رافعين أصواتهم بما جرت به العادة (2) عند مرور الملوك . ومرت الفلوكة على الشقوف وهو يسلّم على كل شقف بانفراده .

ولما وصل البرّ وجد العسكر واقفا من محل نزله الى دار الامرال التي بات بها .

ولما وصلها أتته أعيان طلون من العسكر واهل البلاد ، جماعة بعد جماعة ، والامرال واقف بين يديه يعرّفه بكل جماعة وبالاعيان منهم . وتحقق بذلك ما أخبره به اليوز باشي برسي .

ثم توجه الى الترسخانة والامرال يماشيه ، فوقف على خزائن مهمّات الطبجيّة وآلات اطفاء النار ، وحرّكوها بالفعل حتى رأى قدر ارتفاع الماء وقوّته ، والاماكن التي بها إنشاء الشقوف ، والاحواض التي ترفع بها الاجفان من الارض بالماء المنساب اليها من البحر ، وتنزح بآلات في قدر خمس ساعات ، وهي من اعاجيب الدنيا ، وأماكن الصناعات وغير ذلك من المصانع الدالّة على قوة المملكة وضخامتها وثروتها وآثار العقل الذي شرّف الله به نوع الانسان .

وبات تلك الليلة بدار الامرال وأبدع ما شاء في الاحتفال والإكرام .

ومن الغد أتاه جميع من في طلون من العسكر ، ومروا بين يديه ورأى نظافتهم وسلاحهم وحسن ترتيبهم .

ثم توجه الى المارستان ، ثم الى خزنة السلاح ورأى حسن تنظيمها .

ثم توجه الى ترسخانة جديدة ، ثم الى برج كبير هناك [كأنه بلاد] ، وسرح نظره في تلك المباني [والعجائب] . جميع ذلك والامرال يماشيه ، وهو شيخ مسنٌّ من [مفاخر أمراء] (3) الفرنسيس .

(1) في ع و ق : « مثلك من يعتبر الانصاف » .
(2) في ع و ق : « بما جرت به عادتهم » .
(3) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

ثم خرج من طلون الى باريس ، راكبا كَـرُّوسة من الدولة تجرُّها ستة من الخيل ، وبقية من معه في كراريس تُجَرُّ بأربعة . ويقع تبديل الخيل والسائقين بعد كل ساعتين . وقطع بذلك مسافة شهر في ثمانية أيام .

وكل بلد يبيت به تأتي عساكره وأعيانه مع حكامهم للسلام عليه وتعظيم مقدمه ، كما وقع بطلون ، بحيث صارت البلدان تتبارى في الاحتفال لقدومه .

غير أن السالك في تلك الطريق يشاهد معنى العمران وصورة التقدم في ميادين الحضارة ، ونتيجة الامن والامان . لا تكاد تجد موضعا معطلاً من نفع شجرة أو حرث او كلإٍ مستنبت . يسقى جميعها بغيوث العدل وسيوله المفعمة . يودُّ السالك في تلك الطريق السهلة ان المسافة تطول ، لِمَا يشاهد من حسن الطريق وما حفَّ به من الابنية والاشجار والمراتع والانهار ، وكثرة المارِّين على اختلاف الانواع . لا تكاد تسمع صوت متظلم إلاّ مِن نفسه . وهذا من أعجب ما يُسمَع مع كثرة المغارم والمكوس . وسرُّ ذلك أنها غير مجحفة ، وأهلها يعرفون مقاديرها ومصاريفها في مصالحهم على اختلاف أنواعها .

إلى أن وصل الى باريس ، وما أدراك ما باريس .

هي الغانية الحسناء الباسم ثغرها في وجوه القادمين ، مشحونة بأعاجيب الدنيا ، جامعة لاشتات المحاسن ، ينطق لسان عمرانها الزاخر ، بقوله : « كم ترك الاوَّلُ للآخر » . ما شئتَ من علوم وصنائع ، وثروة وسياسة ، وظرف وحضارة ، وعدل [تزكو أثماره وتسطع أنواره] (1) . تموج شوارعها بالساكن في مراكز الامن ومضاجع العافية ، يقودهم الامل ويسوقهم الحرص على العمل (2) . ولو تتبّعنا الرحلة لكانت كتابا مستقلا .

[وقد أعطاها حقها الشيخ رفاعة الطهطاوي واجتمعت به فيها] (3) .

فنزل بقصر إلِزِي بُرْبُون (4) ، من أعزِّ قصورها الملكية ، وكان مسكن السلطان نبليون الاول . وفي الحين أتاه أصغر أولاد السلطان ، وهو الدوك دي مُنْبَنْصِيا (5) فرحّب

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) كذا فى ع و ق ، و فى خ : « ويسوقهم العدل » .
(3) الزيادة عن ع و ق ، والاشارة فيها الى كتاب «تخليص الابريز فى تلخيص باريز» وهو رحلة الطهطاوى الى فرنسا .
(4) Elysée Bourbon
(5) Duc de Montpensier

بـه وعظّم مَقْدَمه وبلّغ سلام والده ، واعتذر عن والده بـأنه في بستـان صَنْـكْلُو (1) وهو بعيد عن باريس بـأميال . وقـال لـه : « إنـه يقدم غدا ليقابلك في قصر السلطنـة » ، وهـو التولري (2) .

وانتظر الباي قدوم رسول الدولة العلية بباريس فلم يقدم ولا بعث أحدا ، فقوي عنده ما كـان توهّمه في رأي وزراء الدولة .

ومن الغـد ، وهو يـوم الاثنين خـامس ذي الحجّة (23 نوفمبر) ، بعث السلطـان كـروسته المخصوصة لركـوبه في المواكـب ، ومعها عدد من الكـراريس ، فتوجه بمن معه ، ومعه الامير آلاي المأمور بعسّته ، وهو الكـلنيل تيري .

ولما وصل القصر السلطانـي ، تعرّض له خاصّة السلطان وأعوانه ، وأدْخلوه لبيت بها مائدة منظّمة من صنوف الحلويات ، ثم أدخلوه الى البيت الذي به السلطان ، فوجده واقفا ، وأولاده ووزراؤه عن يمينه ، وزوجته وأخته ونساء أولاده عن شماله . ولما قاربه الباي تقدم اليه بخطوات باسم الوجه ، وعظّم مقدمه وآنسه وشكـر حسن قبوله لاولاده . ثم قدّم اليه زوجته وبقية آ له واحدة بعد أخرى ، يعرّف بكـل واحدة والباي يسلّم عليها . ثم عرّف بالوزراء واحدا بعد واحد . ثم قال له الباي : « نريد أن نقدم بين يديك خاصّتي »، وقدم له كـلّ واحد منا معرّفا بخطّته ، والسلطان يسلّم على كـل واحد بما يناسبه . وقال عند التعريف بالوزير مصطفى خزنه دار : « وزيرك هذا تقدّمت له زورة لفرنسا ومعه [صاحب أسرارك] (3) جوزاب راف » ، ثم قال له : « بلغنـي أنك تَعَلّم لغة ايطاليا وأنا أعلمها ، فلا يلزم بيننا ترجمان » . ولم يزل يباسطه ويؤانسه .

وخرج الباي فشيّعه أعيان ، منهم ولد السلطان .

وأمر السلطان المرشال صلت (4) ، كـبير الوزراء ، أن يتوجه بهم لزيارة الباي . ولما وصل لمحلّ نُزُله ، أتاه إثر وصوله أولادُ السلطان ، وهما الدوك دي جنفيل (5) والـدوك

(1) Saint Cloud
(2) Tuileries
(3) الـزيـادة عن ع و ق .
(4) Soult
(5) Duc de Joinville

دومال (1) ، فقبلها قبول أمثالهما . ثم أتى أخوهما الاكبر ، وهو الدوك دي نمور (2) ، فترك ورقة القدوم .

ومن الغد جاءه المرشال صلت ، ودخل للباي ومعه سائر الوزراء ، وهم : الوزير العالم المنصف الحكيم قِزُو (3) ، وزير السياسات الخارجية ، ووزير البحر ، ووزير الحرب ، ووزير الاحكام ، ووزير التجارة والفلاحة ، ووزير المصالح العامّة ، ووزير المال ، ووزير العلوم ، فقام الباي لتلقّيهم ، وعظّم مَقْدَمهم ، وأجلسهم وحادثهم .

ولما خرجوا قام لمشايعتهم ، فمنعوه من ذلك . وقال له المرشال : « لا نقبل منك شيئا مما (4) اعتدناه من ملوكنا » . ولما خرجوا أتى المرشال بستياني المأمور بعسكر البلد [وهي العسة الجنسية ، ولها عند ملوكهم أي اعتبار] (5) ، فعظّم مقدمه ورحّب به وقال له : « معي سائر كبراء العسكر » ، فخرج لهم الباي ، ومرُّوا أمامه مسلّمين على عادة تحيّتهم ، والمرشال يعرِّف بهم .

ولما خرجوا ، ركب الباي لزيارة مَن زاره من الوزراء ، فمنهم من وجده بداره فاجتمع به ، ومنهم من لم يجده فترك في داره بطاقة الزيارة على عادتهم .

ولما وصل دار المرشال صلت ، تعرّض له وعظّم قدومه وفرح لتلقّيه وأطال معه المحادثة ، ولما خرج شايعه . وطلب منه الباي الرجوعَ لمكان شَيْبه ، فاستعظم ذلك وقال : « كيف أُخلّ بواجب ؟ » ، وماشاه الى الكرُّوسة .

وهذا المرشال من أفراد الجنس الفرنساوي ، معدود من رجال الحرب والشجاعة والوفاء ، شهد مع نبليون الاول حروبا كثيرة ، وقاد عن إذنه جيوشا ، وتقدم لهذه الخطة في دولته . وأهل فرانسة يحبّونه ويسمّونه « ظلّ نبليون » . وفي مثل اليوم الذي انفصل فيه نبليون من السلطنة من كل سنة ، يتزيّا بشعار الحزن ويغلق بابه ولا يزور أحدا ولا يقبل زائرا . ومع ذلك فسلطان الوقت يحبّه ، ويعدُّ ذلك له من الوفاء ، ليرضي الجنس الفرنساوي ، لِمَا يعلم من حبّهم في نبليون .

(1) Duc d'Aumale
(2) Duc de Nemours
(3) Guizot .
(4) كذا في خ ، ولعلها : « ما اعتدناه » ، والجملة ساقطة من ع و ق .
(5) الزيادة عن ع و ق .

وبلغ الباي ان رسول الدولة العثمانية [بباريس] كاتب الوزير قِزُو متشكيا من قبول الدولة الفرنساوية للباي بغير حضوره ، فأجابه بأن هذا الملك أتى زائرا لبلادنا ، ولنا معه شروط مرعيّة ، وتقدّم قبول نُوّابه ورسله بغير حضوركم . وبالامس قبل أولاد سلطاننا بغاية السرور والاحتفال ، الى غير ذلك من براعة قلم هذا الوزير المضروب بها المثل [عندهم] (1) .

وقوي بذلك أيضا ما توهمه الباي في وزراء الدولة العلية من ميلهم الى خرق العادة التونسية .

وتفنّن هذا السلطان في إكرام الباي تفنّنا بديعا ، واحتفل في ضيافته احتفالا يناسب باريس ، واستدعاه لذلك في قصوره وبستانه مرارا ، على كيفيات مختلفة ، واستدعاه الى المسامرة معه في تياترو بستانه ، وأجلسه حذوه ، ومعه الرِّجينة وبقية آله . واستدعى لذلك المرشالات والوزراء والاعيان وأزواجهم ، وكانت ليلة مشرقة .

ومحصّل هذا التياترو : « بناء ضخم عليه قبّة (2) مرتفعة ، وبه رواشن مطلّة على ساحة المجتمع ، مدخلها من غير الساحة . ومحلّ العمل يقابل سائر الناظرين من نصف دائرة . وأعماله حكايات بعض وقائع تقدمت ، يبرزونها من الفكر لِحِسّ المشاهدة . ويختارون لذلك البلغاء والخطباء ممن لهم معرفة بالاخبار والتاريخ والاشعار . وعدد العملة في ذلك أكثر من مائة . وهي من الصناعات الشريفة عندهم ، لان مَرْجِعها تربية الناس وتهذيب أخلاقهم ، لما يرون تحسين الحَسَن وتقبيح القبيح معاينةً ، [وذلك أوقعُ في النفس] (3) . وفيها الموسيقى (4) ، وتارة يكون العمل الغناء والرقص .

واتفق ان كان في هذه الليلة حكاية قصة ، ولا أظنّها الا مقصودة . ومحصلها إجمالاً ان بكرا من بنات الاكابر بالنّسب ، مات أبوها وبقيت مع أمها ، وهي بالغ ، فمالت نفسها الى التزوج برجل من افراد الجنس ، وصار يأتيها ويحادثها ، وتنكر أمّها قدومه ، ولما يخرج تعاتب البنتَ على السرور بقدوم الرجل ، فتقول لها البنت : « ألهذا الرجل قادح في عرضه ومروءته ؟ » ، فتقول لها الام : « إنه ليس من أكفائك في النسب ،

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) فى ع و ق : « سقف مرتفع » .
(3) الزيادة عن ع و ق .
(4) فى خ و ع : « الموسيقا » ، وفى ق : « المسيق » .

وفي الرجال من له قدرة على استمالة القلوب بالمحادثة وليس له وفاء ، فهو في الحقيقة متحيّل » ، فتستحي البنت وتسكت . إلى أن قالت لبنتها ، بعد خروج الرجل : « كأنك تريدين التزوج بهذا الرجل ؟ » ، فقالت لها البنت : « وما يمنعني من ذلك ؟ » ، فقالت لها : « ان نسبه ليس كنسبك » ، فقالت لها البنت : « اذا كمُلت النفس [بالحسب] غطّت نقصان النسب » ، فقالت لها الام : « [ان أنظارك من الاكابر لا يريدون ذلك و] ان السلطان لا يريد ذلك ويمنعك من الرضى به » ، فصاحت البنت في ذلك المجمع [الحافل] : « بأي شرع يتصرف السلطان في ارواحنا بالقهر ونحن أحرار ؟ » ، وأقسمت ان تتزوج بالرجل ، إظهارا لحريتها ، وخرجت فورا الى الكنيسة . ولما صاحت البنت بهذه المقالة ، قال لها السلطان في ذلك المشهد ما معناه : « أحسنت ، أحسنت » ، وصفق بيديه ، وتلك علامة الاستحسان عندهم ، فصاح جميع من في المشهد بالدعاء للسلطان بطول الحياة ، وانسدل ستر محل العمل لإحضار عمل آخر (1) .

والتفت السلطان الى الباي وقال له : « يلزمني أن أستحسن هذه المقالة ، سياسةً لهذا الجمهور ، ولو لم أفعل ذلك ربما يقال انـي لا أحب الحرية ، ويجب على أمثالنا مراعاة الجلب لقلوب الرعية بما تستحسنه ، واعظمه العدل الذي منه الحرية » .

وانما علمت هذه الحكاية ، مع تطبيق مشاهدة الحال ، من الكولير دقرانج ترجمان الدولة ، وكان جالسا حذوي ، وعنده من الظرف ما يقتضي تأنيس الجليس ، بل قال لي إن الوزير قِزُو أمرني أن أفسر لك ما تتشوف اليه نفسك ، لانك صاحب قلم الباي ، لتكتبه في رحلتك .

ولما انسدل الستر قام الباي لموضع آخر ، وأشار اليّ فماشيّتُه ، فقال لي : « أتعلم ما استحسنه هذا السلطان وصفّق عليه ؟ » فقلت له : « نعم ، ان دقرانج عرّبه لي » ، فقال : « سلطان الفرنسيس على قوة عُدَّته ، وكثرة جنوده ، بهذه الحالة [في مراعاة الرعايا] ، فكيف بنا أيها الشيخ ؟ » ، فقلت له : « ان القوم سبقونا الى الحضارة [بأحقاب من السنين] حتى تخلقوا بها ، وصارت من طباعهم ، وبيننا وبينهم بون بائن ، ولله فينا علم غيب نحن صائرون اليه » ، فقال : « نسأل الله حسن العاقبة » (2) .

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .
(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

ولهذا الباي استحسان لافعال نبليون الاول ، حتى انه أمر بترجمة حروبه ووقائعه باللغة العربية (1) ، وقرأتُها عليه غير مرة بالمحمدية ، ويرى انه من عظماء الدنيا كالاسكندر واشباهه ، فأحبَّ ان يقف معتبرا على تابوته ، وكان بمحلٍّ يسمّى الانفليد (2) ، وهو موضع من أصيب من العسكر في الحرب بنقص عضو ونحوه ، فأتاه ولمّا دخله اصطفَّ له سائر من له قدرة على القيام ، هذا برجل من خشب ، وآخر بغير ساعد [ونحوهم ، ومنهم مسلم من الجزائر يتكلم بالعربية] (3) وبأيديهم سيوف ، فأتاهم وسلّم عليهم وآنسهم ، وقال لهم : « ان ما وقع لكم من النقص البدني ، الذي هو كمال في الانسانية ، شهادة لكم بالثبات والصبر وحبِّ الوطن » . ووجد من لا قدرة له على القيام ، كل واحد في سريره ، موكل به امرأة تناوله ما يشتهيه ، وتزيل عنه ما يلزم زواله ، وهي حانية عليه حنوَّ الوالدة على الفطيم . وبه مارستان كبير لمن طعن في السنِّ وعجز عن الخدمة ، تجرى على الجميع جرايات واسعة ونفقة لها بال ، من أحسن ما يتمنى الإنسان . وطاف الباي على تلك الاسرَّة وحيّا أهلها كل واحد بانفراده . ثم أتى التابوت الذي به نبليون ووقف معتبرا بحال الدنيا ، وهو في صندوق من حجر في صناديق من خشب ، على ما قيل لنا ، مغطًّى بساتر من حرير اسود ، وحوله صناجقه المثقبة بالرصاص ، والصناجق التي أخذها في حروبه .

ثم اتاه المرشال الموكل بذلك المكان ، وهو من عسكر نبليون ، يدبُّ على ضعف بدنه وبصره وشيخوخة سنّه ، فتجلد تجلّد الشجعان وفتح له خزانة بها ثياب نبليون وغطاء رأسه ونعله وسيفه ، محفوظة في ذلك المحل تذكارا لصاحبها . وذكر انها كانت عنده مَخْفيَّة . ولما أراد ان يُخرج بعض تلك الثياب بكى ، فقال له الباي : « المقصود النظر فقط » .

ثم طلب من الباي أن يزور محلّه ، فأسرع لإجابته بسرور لِمَا رأى فيه من الوفاء وأكل من طعامه وشكره وشكر زوجته ، وحصل للمرشال سرور بذلك .

وهذا المحل مما يقوي قلوب عساكرهم حين يرون مآل العاجز منهم ، وانه لا يُترَك نسيا منسيا . وهذا الشأن هو شريعة الاسلام ، ولمثل هؤلاء حق شرعي في بيت مال المسلمين .

---

(1) انظر التعليق بص : 36 من هذا الجزء .
(2) Les invalides
(3) الزيادة عن ع و ق .

والحاصل انه في مدة اقامته بباريس يركب كل يوم بأتباعه الى الاماكن التي تتوق النفوس لمعرفتها من عجائب باريس ، والامير آلاي المأمور بعسّته يدور معه .

فتوجه إلى موضع مهمّات الطبجية ، ورأى انواع المدافع وآلات جرّها ، والاسلحة على اختلاف أنواعها وأشكالها ، من لدن ابتداء المقاتلة بالسلاح الى عصرنا ، والدروع للفرسان والخيل ، ووقايات الرؤوس .

وتوجه الى دار برفيت (1) باريس ، اي شيخها ، ويعبر عنها بدار الجنس [وبدار الملة] (2) . وهي من اعاجيب الدنيا ، وبها ما ليس في قصور السلطنة . وتلقاه شيخ باريس وطاف به سائر أماكنها واطلعه على أزمّتها ، واستغرق يومه في محاسن تلك الدار . وهي لمجموع الجنس ، لا دخل في تصرفها للملوك الا بولاية الشيخ .

وتوجه الى بستان فرصال (3) الذي يدور له ماء الوادي ويتفجر في أنابيب وفوّارات مختلفة الالوان والاشكال ، يعلو الماء من بعضها قدر عشرين ذراعا ، وتماثيل منحوتة من الرخام والمرمر من الحيوانات ، ينبع الماء من مخارجها على أشكال غريبة . ودارَ في طرق هذا البستان بالكراريس واستغرق يومه في ذلك .

ومن الغد رجع لهذا البستان وسرح نظره في قصره ، ودار في ارجائه وبيوته في مدة خمس ساعات ، وهو من اعاجيب الدنيا .

وتوجه الى دار ضرب السكة [الخالصة] (4) ، وعملُها بالفابور ، وحركوا آلاتها بمحضره ، وهو ينظر الدراهم خارجة موزونة مطبوعة تجري جريان الماء في ساقية من خشب . وطبعوا بمحضره قطعا من خالص الفضة ، اكبر من الريال الدورو ، الا انها بغير آلة الفابور ، مكتوب على كل واحدة ما نصّه : « سعادة بلك تونس قد شرف دار السكة بباريس بحضوره في غرة ديشنبر سنة 1846 مسيحية » ، وبالجهة الاخرى صورة وجه السلطان . وطبعوا أمثالها من النحاس ، وأهدوا جميع هذه القطع للباى واتباعه .

(1) Prefet de Paris اى دار السوالى .

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) كذا فى خ و ع و ق ، والمراد : Versailles .

(4) الزيادة عن ع و ق .

وتوجه الى دار ندوتهم ، وهي بيت وكلاء المملكة [ولك ان تقول : بيت عمران المملكة وثروتها ونجاحها] ، وهي من المباني الضخمة المحترمة ، وبيت الاجتماع نصف دائرة بها مدارج تجلس الوكلاء عليها صفاً وراء صف ، ويقابل تلك الدائرة روشن للسلطان يجلس فيه يوم فتحها [ويقف فيه خطيبا بالقاء ما يريد القاءه على المسامع لتفكر فيه عقول الحرية] (1) ، وتحت الروشن كراسي للوزراء في الارض ، مقابلة لاول درجة من درج الدائرة ، وفي الارض شكل منبر يقابل الوكلاء ، لمن يريد الكلام من الوزراء، بحيث ان المتكلم يسمعه ويراه كل واحد من الوكلاء .

وتوجه الى دار عجائب الحيوانات والنباتات ، فرأى من صنع الله الدليل القاطع على باهر قدرته .

وتوجه لمحل يسمّى قبلين (2) ، وهو موضع النسج بالصوف مع التصوير الملوّن ، يصنع فيه الناسج ما يصنعه المصور بأدهانه . وللفرنسيس اعتناء بهذه الصناعة التي قل من شاركهم فيها ، وهي عجيبة . واهدى السلطان صورته من ذلك النسج الى الباي ، وهي الآن بقصر الملك بباردو .

وتوجه الى محل يعرف بسيفر ، تصنع فيه الاواني من الطين ، المزوقة بالادهان ، المزرية بأواني الفضة ، لما فيها من الجودة واتقان الصناعة .

وتوجه الى دار الكتب المرتفعة المتسعة الهائلة وبها عدد كثير من [المصاحف القرآنية وكتب الاحاديث النبوية والدواوين الفقهية والتفسير وغير ذلك من] (3) الكتب الاسلامية ، وما لا يحصى من الكتب الافرنجية في سائر الفنون . يطلب الجالس في طاقها الرابع من قيّم البيت الاسفل كتابا ، فيطلع اليه الكتاب في الحين بآلة . ويسمع الاسفل كلام الاعلى من حلاقيم نافذة من كل طاق الى ما يليه . وفيها من المصاحف المنمقة ما يذهل الفكر ويستوقف الناظر ، ومنها مصحف بصندوق يخصه ، ذكروا ان الرشيد العباسي أهداه لمن في عصره من ملوكهم . وعادة الافرنج لا يعظمون الحروف ولا يحترمون أجرام الكتب مثل المسلمين ، وانما ينظرون الى ما فيها (4) . ولما رأى الباي يد

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .
(2) Gobelins
(3) الزيادة عن ع و ق .
(4) في ع و ق : « وحسبهم الاستفادة بما فيها » .

القيم جائلة في المصاحف حين إخراجها للاطلاع عليها ، على كيفية غير معهودة في الملة الاسلامية ، اقشعرّ وقال لذلك القيم : « يكفي ، فاني لا أمسّ هذا الكتاب الا على شرط مخصوص هو غير قائم بي الآن » ، ورجع ولم يسرّح النظر في تلك الكتب .

وتوجه الى قصر السلطنة المعروف بالتولري وأهدى للسلطان نيشان آل بيته ، وعلّقه على صدره بنفسه ، وقبّله السلطان بسرور ، وقال له : « اعلم ان نيشانك هذا قبلته فرنسا ، لان منزلتي منها منزلة أب » .

واستضافه الوزراء وتأنقوا في الاحتفال له ، ولاجله أمر السلطان بتعليم عسكري يحتوي على خمسة وعشرين ألفا ، من طبجية وخيّالة ورجال ، أميرهم أكبر أولاد السلطان ، ومعه أخوه أمير آلاي طبجية ، في فسيح من الارض قرب الانفليد ، دار العاجزين من العسكر . وأتى سايس السلطان الى الباي قبل يوم التعليم وبيده زمام به عدد من الخيل لركوب الباي ومن معه ، مكتوب فيه اسم كل حصان وبيان خلقه ، وسروج عربية ومثلها افرنجية ، يركب كل واحد على ما شاء من الخيل بما شاء من السروج ، وكراريس .

وركب الباي بمن معه ، ولما وصل الى مجتمع العسكر ، تلقاه ابن السلطان وقال له : « ان التعليم صنع لاجلك ، فأنت أميره في الحقيقة » .

وشرعوا في صرخ المدافع والمكاحل حتى اسودّ النهار ، وكان يوما باردا ، فقال الباي لابن السلطان : « ان العسكر آلمه البرد [والثلج] (1) ، ويكفي ما حصل ، فأمر بالانفصال .

ووقف الباي وابن السلطان حتى مرّت العساكر أمامهما بمدافعهم وسائر آلاتهم ، وكان يوما مشهودا .

واستضافه ابن السلطان في قصر تولري ضيافة عسكرية حضر مائدتها مائة من أعيان العسكر الذين حضروا التعليم ، والباي وأتباعه . واحتفل لهذه الضيافة احتفال عظماء الملوك .

ثم استضافه اصغر اولاد السلطان ، وهو امير آلاي الطبجية ، في قشلته ، وتسمى فان صان (2) . وصنع له تعليما ومحرّقات ملونة على اشكال وتماثيل تستوقف الناظر ، وصار بها الليل نهارا . وخرج في تلك الليلة كثير من نساء باريس برجالهن . وصرف على ذلك أموالاً .

---

(١) الزيادة عن ع و ق .

(2) Vincennes .

وتوجه الى دار التعليم الكيميائي ووجدهم اذ ذاك في اختراع سلك الإشارة ، الاعجوبة الموجودة الآن . وشاهد حال التلاميذ ومقدار ما لكل واحد من التقدم ، وما أهّل الله له النوع الإنساني ، وما وصلت اليه العقول السليمة .

ولم يزل يتردد في الاماكن المشهورة ، كبيت تاج الملك المكلل بثمين الاحجار وما تبعه من عجيب المَصَاغ بفرائد اليواقيت [وغيرها مما يبهر النظر] (1) .

وفي كل ليلة يحضر مائدتَه في قصر نزله أعيان يستضيفهم من رجال الدولة والعلماء وأعيان اهل البلاد ، باشارة من الكولير جول دي لسبس (2) ، ابن القنصل الذي كان بتونس ماتيو لسبس ، وتقدم ذكره ، ومن القنصل ده لَقُو .

اتاه ليلةً رجل من اعيان باريس (3) ، بعد ان شاهد تذهيب الحديد وتفضيضه حتى يخرج كأنه خالص من اتقان الصناعة ، فقال له : « هل استحسنتَ صناعةَ هذا المحل ؟ » ، فقال له : « انها مستحسنة ، غير انها تثير الشك في الخالص » ، فقال له الرجل : « مثلك من يقول هذا ، لان الخالص لا يستحسن الا الخالص ، والمموَّه لا يستقبح التمويه » . وبلغنا ان هذا الرجل صار من الوزراء .

ولم يزل مدة اقامته في باريس يتنقل كل يوم من نزهة إلى نزهة ، وهو مع ذلك يتذكر تونس وعادات أهلها ، وأماكنها عند مشاهدة كل عجيب ، ويقول : « ليت مثل هذا عندنا بالمحل الفلاني بتونس » . حتى انه مرَّ يوما [بالمهيع المعروف بشان زلِزِي] (4) ، ومعناه ممشى الجنة ، فقلت له : « كاد ان يوافق الاسم المسمّى » ، فقال لي : « ما اشوقني للدخول من باب عليوة ، واشتمُّ رائحة الزيت من حانوت الفطايري داخلَه » ، فقلت له مداعبا ، وأنا أتنفس في هواء الحرية وأرِدُ من مائها وقدماي بأرضها ، : « يحق لك ذلك ، لانك ان دخلت من هذا الباب تفعل ما تشاء ، اما الآن فأنت رجل من الناس » ، فقال لي : « لا سامحك الله ، لِمَ لا تحملني على حب الوطن لذاته وعلى أي حالاته ؟ » ، فقلت له : « ان هذا البلد ينسي الوطن والاهل كما قال الشاعر :

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) Jules De Lesseps (غانياج 302)
(3) بعد « باريس » بياض بقدر ثلاث كلمات في خ ، لم يراع في ع و ق .
(4) كذا في ع و ق ، وفي خ : « مر يوما بمكان اسمه زلزا » .

ولا عيب فيهم غير أن نزيلهم يعاب بنسيان الاحبّة والاهل »

فقال لي : « اذاً يصدق علينا المثل المشهور عند العامة « من رأى قمح الناس لا يبزع (1) شعيره » .

وقلت له ذلك خشية ان يظهر منه القلق ، لانه في هذه الايام تحقق ان دولة بريطانيا لا تقبله القبول الاول الا بحضور رسول الدولة العلية [بلندرة] (2) ، جريا على مقتضى سياستها ، فكاتب وزيرها بما محصّله : « ان استنادي الى الدولة العلية وثيق البنيان ، ثابت الاركان ، ولنا معها عادات معروفة . وقد قبلتم رسلنا بغير واسطة ، والرسول نائب ، فكيف تتوقفون على واسطة في قبول المنوب عنه ؟ ولنا معكم شروط محترمة . على ان زيارتنا لدولتكم انما هي زيارة تأكيد للمحبة ، وحيث توقفتم في ذلك على واسطة ، فانه يتعذر علي خرق عادة في آل بيتي ولم يظهر لي سبب يقتضي خرقها . فهذا عذري في عدم القدوم . وبودي ان ذلك لم يقع » . وتكلم في ذلك مع رسول دولة الانقليز بباريس .

وعزم على الرجوع ، وقابل سلطان الفرنسيس للوداع في قصر تلري (3) ليلاً بمحضر أعيان من الوزراء وغيرهم ، فقال له : « الفابور الذي أتيت فيه صغير ، يتعبك في هيجان البحر ، وهذا وقت شتاء » ، فقال له الباي : « قد وصلت فيه بأمان وعافية ، وارجو الله ان ارجع كذلك » ، فقال له : « أنت في ضيافتي ، وعهدتك عليّ ، فلا أخاطر بسفرك في فابورك . وقد هيأت لك في طُلُون الفابور الكبير الذي ارتضيته لسفر ابني حين قدم اليك » ، فقال له : « لا نردّ كرامة من سلطنتك » . وودّعه وودع الرِّجينة وخرج ، وشايعه أولاد السلطان .

وسافر فبات بالقصر السلطاني المسمّى فنتنبلو (4) ، وهو من أعظم القصور وأفخم الهياكل ، وبِلِصْقه بلدة ، فأتاه أهلها على عادة البلدان التي مرّ بها . [ولم تتم يومئذ طرق الحديد ، وانما ركب فيها مرة] (5) . وسار على غير طريق قدومه ، فرأى أيضا من الثروة والعمران ما يستوقف الاذهان ولا يحيط به بيان .

---

(1) يبزع : يطرح ، ينبذ .
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) كذا في خ و في ع : « تولرى » ، وفي ق : « لوترى » .
(4) Fontainebleau
(5) الزيادة عن ع و ق .

ولما أتى مرسيلية اقام بها يوما وليلة ، واحتفل اهلها لقدومه ، وبالغوا في اكرامه وتعظيمه، ومنهم تجار يعرفهم بتونس مثل ولد الحكيم قاي الفرنسيس طبيب جدّه وصاحبه (1) . واليهودي التونسي الوجيه المسمى بالصايم الذي سافر من تونس خوفا على ثروته ، بعد ان دفع مائة الف ريال جُعلاً للوزير حسين خوجة لاجل تسريحه ، وعُدّ ذلك من خسران هذا الوزير حيث رضي منه بهذا المقدار ، مع ان ذمّته تفي بأكثر من هذا العدد ، وغيرهُما .

وشمّ من مرسيلية رائحة الوطن ، وأتى أماكنها المشهورة ، ورأى المرسى الجديد ، والسيول المفعمة بالمتاجر ، وآثار الثروة والعمران [وتحقق معنى قولهم « المتجر يقطع سلاسل الفقر » ، لا تكاد ترى واحدا بغير شغل] (2) .

وأتى الدار المعدة لتنظيف السكّر ، وصاحبها من أعيان البلد وشيوخه ، وله معرفة وخلطة مع نبليون .

ومنها توجه الى طلون ، فقابله الاميرال بودين ، واتته اعيان البلد وغيرها مودعين .

وبالجملة فقد صدر من اهل فرانسا وسلطانها ورجال دولته ، مع هذا الباي ما بقي أثره ، ولا يُنسَى خبره ، من حسن القبول واظهار المسرّة والاعتناء . ولا يُستغرَب ذلك في حسن أخلاق هذا الجنس ، وبشاشتهم في وجوه الوافدين اليهم ، وحريّتهم التي اقتضت أنهم لا يستكبرون ، وميلهم للانصاف ، لكن هذا الاخير في بلدانهم ، فاذا خرجوا منها ربّما بعدوا عن هذا الميل ، إلا ما قلّ منهم .

ووصل الى حلق الوادي صباحا في الثاني عشر من محرم سنة 1263 ، ثلاث وستين (الخميس 31 ديسمبر 1846 م.) ، فتلقته العساكر والاعيان ، ونزل في موكب حافل ، وهرعت له وفود الحاضرة وأعيانها .

وبات بحلق الوادي ، فبلغه ان القابور « الدنت » (3) الذي أتى وراءه ، انكسر بشاطىء العبدلية ليلاً . فحمد الله على اللطف ، حيث لم يكن فيه .

(1) ف ع و ق : « صاحب جده وطبيبه »
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) Le Dante

ومن الغد توجه للحاضرة وزار مقام الشاذلي رضي الله عنه ، ومنه توجه الى باردو . واطلقت مدافع السرور من سائر الابراج . ودخل المحكمة من بابها ، وجلس على كرسيّه ، فسلّم عليه رجال الدولة والاعيان من العسكر وغيرهم . ثم دخل صرايته ، فأتاه أهل المجلس الشرعي ، فقام لتلقّيهم على العادة ، وسلّم عليهم سلام المشتاق ، وعظّم مَقدَمهم وجلس معهم (1) ، ففاتحه شيخ العصر وبركة المصر ، أبو إسحاق إبراهيم الرياحي بما لفظه : « نحمد الله على سلامتك ، ونشكر الله على اللطف بك حيث لم تكن في الفابور الذي انكسر . مع ان سفرك هذا في غير زمان لغير مكان ، وهذا من التمكين في الارض ، والله يقول : الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (2) ، ولم يزل ظلم العُمّال واللزّامة كما كان ، فاشكر الله بالنهي عن هذا المنكر » . ثم مدّ يده لقراءة الفاتحة وخرجوا ، فقام الباي ، منغّصا من أثر الموعظة ، لملاقاة والدته .

ومن الغد أتته أعيان الحاضرة مهنّئين مستبشرين ، وعلت أصواتهم بشكر الله على قدومه ، وإزالة وحشة مغيبه عنهم ، فقرّت عينه لذلك وقال لهم : « قد بلغني عملكم في مغيبي ، وتحدثت به البلدان ، وانا لا استغرب ذلك من أهل تونس » . ودعا لهم ورجعوا مسرورين . يشير بذلك الى ما صنعه اهل هذه الحاضرة وعساكرها في غيبته مما لا يسع جحده .

فقد كانوا كأهل بيت غاب عنه ربّه المحبب إليهم ، لا شغل لهم الا في انتظار قدومه . ولم تقع في غيبته مشاجرة ولا جناية ، وأن الفقراء يستعطفون الناس ، في طلب الصدقة ، بالدعاء الى الله أن يأتي سيدنا على خير .

وفي مغيبه كان عيد الاضحى ، فخرج ابن عمّه وخليفته ابو عبد الله محمد باي من داره لصلاة العيد بالجامع بغير أبّهة . ولما خرج من الصلاة قال للحاضرين : « عيدنا هو يوم قدوم سيدنا على خير ، والعيد الشرعي مبارك على الجميع » . ودخل داره ولم يجلس لقبول التهنئة على العادة .

---

(1) في ع و ق : « وأجلسهم عن يمينه » .

(2) س 22/آ 41

ولما بلغه ، وهو بباريس ، ما صدر من ابن عمّه وما وقع من اهل الحاضرة ، وقع منه موقعا عظيما وقال : « ما كنت أظن أني بهذه المحبة في قلوب الناس ، ولم أر من حالي ما يقتضي ذلك ، وقلوب العباد بيد خالقها سبحانه » . وشكر الله على ذلك .

واستأذنه أهل الحاضرة عند قدومه في زينة البلاد ، إظهارا لسرورهم بأوبته ، فأبى وقال لهم : « في البلاد الفقير والغني ، وربما يتكلف الفقير مضاهاة الغني فيُجحف به ذلك » .

*

وبعد ايام من قدومه بعث أمير لواء الخيّالة ، ابا العباس أحمد ، الى دولة الانقليز ، ومعه مكتوب يتعذّر فيه عن عدم قدومه . وقبلته الدولة أحسن قبول ، واستضافته السُّلْطانة وبعض الوزراء ، ورجع مكرما مسرورا .

*

وانقبض الباي عن مباشرة الحكم في المحكمة ، وتحاماه ما أمكن ، لما رأى حال التمدُّن وطموّ سيله ، وعلم أن الحكم المطلق آن انقشاع ليله ، وصبّح الحق كادت ان تظهر طلائعُ خيله .

*

وفي صفر من سنة 1263 ، ثلاث وستين (اوائل صفر — اواخر جانفي 1847 م) ، توفي العالم المفتي الامام ، شيخ الطريقة الشاذلية ، ابو محمد الشاذلي بن المؤدب . وحضر الباي جنازته وحمل نعشه ، ومشى في جنازته كواحد من اهل الطريقة ، وهو من أهلها . وقدّم عوضه لخطة الفتوى الشيخ القاضي ابا عبد الله محمد البنّا ، ولخطة القضاء أبا عبد الله محمد النيفر ، في يوم واحد . وأحضر لذلك شيخ الفتوى ابا اسحاق ابراهيم الرياحي [وأجلسه حذوه عن يمينه] فقال له في ذلك الديوان : « [سدّد الله اعمالك] (1) ، هما أفضل أهل عصرهما علما ودينا » . وناهيك بهذه الشهادة من ذلك الفاضل .

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

وفي هذه السنة ظهر للباي ان يطبع من الفضة سكة خالصة ، ويطبع مقدارها أوراقا في اعداد مخصوصة ، بها طابعه وطابع الوزير أبي النخبة مصطفى خزنه دار وخطه ، وكتابة الورقة بخطوط افراد من الكتاب مختلفة [خشية تقليدها] (1) . وذلك لمّا ضاق دخل المملكة واتسع خرجها ، بكثرة العساكر والامراء بغير مأمورين ، والضبّاط بغير مضبوطين ، وغير ذلك مما اقتضته سياسته التي لا يُسأل عنها في ذلك الوقت . وكتب بذلك إعلاما لسائر قناصل الدول بالحاضرة ، نصه ، بعد افتتاحه ، :

« اما بعد فان العمران الحضري لا قوام له الا بالنقود التي هي اثمان البضائع ، ورأينا النقود المسكوكة في إيالتنا غير وافية لإدارة مكاسبها ورواج متاجرها ، فاقتضى نظرنا المؤسس على مصلحة العمالة بنموّ متاجرها ودوران مكاسبها ، ان نضرب سكة خالصة من الفضة صرفها خمسة ريالات تونسية صغرى ، من الرائج في العمالة . وكذلك نطبع رسوما مالية في اعداد من الريالات الرائجة ، ونحكم بجريانها في العمالة باعدادها في البيع والشراء وسائر المعاملات ، مثل النقد المسكوك نصّا سواء . ونجعل دارا في حاضرتنا ، حاطها الله تعالى ، فيها مبلغ من الدراهم التونسية لصرف تلك الرسوم المالية . والذي يريد صرف رسم بيده فالدار تصرفه له ، على ان يُسقط صرفا اربعةً في المائة ، في مقابلة نقص الدراهم والزائف منها ، ومصروفِ مَن في الدار من الكتاب والحُسَّاب والخَدَمة وغير ذلك من ضروريات اقامتها . ولا يتعطل من يريد الصرف ولو ساعة . وتفتح هذه الدار في كل يوم ساعتين ، من قبل نصف النهار بساعة (2) . اما من له دين على أحد قبل هذا التاريخ ، فانه لا يلزمه ان يقبل هذا الرسم من مدينه الا بصرفه المذكور ، وأما بعد التاريخ فلا يطلب صرفا . ومن بيده رسم تلاشى وخشي ضياعه ولم يرد صرفه ، فان الدار تعطيه رسما عوضه من غير صرف ، اذا كان مقروء الكتابة لا ريب فيه . وأعلمناكم بهذه المصلحة لتكون معلومة لسائر من لنظركم ويتحقق عندهم ان هذه الرسوم المالية حسابها حساب النقود المسكوكة ، ويعتبر التاجر الصرف المذكور في البيع والشراء . والمرجوّ من الله ان تكون هذه المصلحة نافعة للسكّان ، معينة على اسباب العمران . وكتب في الثاني والعشرين من رجب سنة 1263 (الثلاثاء 6 جويلية 1847 م) » .

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) كذا في خ و ع ، وفي ق : « ساعتين من قبل نصف النهار ، وبساعة بعده » .

ولم يكتب على هذه السكة الا ما اعتيد كتبه على سكة البلاد السابقة ، وان كان هذا الخلوص من اختراعاته . وقلتُ له : « لو كتبت على هذه السكة: « احمد الله على على خلوصها ؟ » فقال لي : « كأنك تريد الاشارة الى اسمي ؟ هذا لا يكون مني ، لان ذلك من حقوق السلطان ، ولا أحوم حول حقوق الدولة علي ، والاصلح بنا بقاء ما كان على ما كان » .

ووكل على هذه الدار التي سماها « دار المال » [وهي القشلة المعروفة بقشلة سيدي عامر] ابا الثناء محمود بن عيّاد ، وهو [اذ ذاك] المقرب زلفى ، والنصوح الاوفى ، عند الباي . وجعل الوزير ابا النخبة مصطفى خزنه دار ناظرا عليه ، وكتب لهما أمرا في ذلك ، وابتدأ العمل بهذه الدار في اواخر شعبان (اوائل اوت 1847 م) . واستقام حالها زمنا ، [وقبل هذه الرسوم في سائر الجبايات] (1) ، وحصل منها نفع في ادارة المكاسب ، وتوسعت الدولة ، الى ان هرب محمود بن عياد ، كما سيأتي ، ان شاء الله .

وضرب في هذا التاريخ قطعا من النحاس للاستعانة بها في كسور الريال والتسهيل على الضعفاء ، إلا انه حابَى نفسه (2) في الربح ، ضدّ ما فعل في سكة الفضة ، فانه لم يعتبره فيها . ووافقه على هذا الربح في قطع النحاس جميع رجال دولته ، حاشا وزير الحرب ابا النخبة مصطفى باش آغة . ولما صمّم على المخالفة قال له الباي : « ان عقلك لا يرجح بهؤلاء العقول ، فهلاّ اقتديت بهم ؟ » ، فقال له [مداعبا] (3) : « يا سيدي ، حاولت نفسي على السرقة والخطفة فأبت » ، فتجاوز له عنها متبسما . إلا أنه ، مع هذا الربح الذي سمع فيه ما سمع ، لم يضرب الا القدر المعقول المحتاج اليه في النفقات اليومية في البلاد . وغالب السكة في دولته فضة ، وقلّتها غطّت عيب ربحها ، حتى انه لا يقبلها في غالب الجباية ويقبل الرسوم المالية .

***

وفي هذه السنة 1263 (1847 م.) استعفى ابو عبد الله محمد باي من السفر بالمحالّ . وبعث يطلبني من الباي ، لابلّغ عنه رسالته ، فأتيته وهو ببستانه في المرسى ، وقال لي : « انما بعثت اليك لتحسن عنّي التبليغ الى سيدنا ، فانني عجزت عن السفر مرتين في

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .
(2) في ع و ق : « حابى الدولة » .
(3) الزيادة عن ع و ق .

كـل عام ، لما مسني من التعب البدني والمالي ، لانه يلزمني ما لا يلزم غيري من اعتبار لمقامي » ، وغير ذلك من المعاذير الراجعة في الحقيقة لعذر واحد ، وهو قصور يده عن التصرف ، فثبّطتُه عن هذا العزم بما استطعتُ إلى أن قلت له : « هذا أمر يرجع الى عادة في بيتكم ، فلا أنقُل عنك شيئا إلا بحضرة أخيك وتِلْوِك في الدرجة » ، وهو ملك هذا العصر ابو عبد الله محمد الصادق باي . ومرادي ان يكون عونا لي على مراجعته ، فأحضره وأعاد مقالته ، فقلت له : « أترضى هذا من أخيك ؟ » فقال لي : « قد راجعتُه قبل قدومك فأصرّ ، ولا تسعني مخالفته » ، فرجعت الى الباي وبلّغت له خبر الاستعفاء ، فقال لي : « لا سبب في ذلك الا قِصَر يَد التصرف ، وخواصُّه اعتادوا ما كان سابقا ، والوقت لا يقتضيه من وجوه كثيرة ، والعُمّال واللزّامة عليهم ثقل ، فلا يمكن لهم ، والحالة هذه ، الخلاصُ مع الدولة وارضاء باي المحالّ وخواصّه » ، ثم قال لي : « هل عارضتَه بشيء ؟ » فقلت له : « قد عارضتُه وطلبت حضور أخيه ، وهو على رأي سيادتكم » ، فقال : « الله يهديه » ، ثم قال : « يصعب علي تقديم أخيه وهو تِلْوُه في السنّ ، لما فيه من مخالفة عادتنا ، فارجع اليه وقل له : «لو فكّرتَ في الحال ما طلبت هذا الاستعفاء ، وان استعفيتَ من السفر فلا يسعك الاستعفاء من اسم باي المحالّ ، لانه في المعنى ولاية عهد ، وبه هناء المملكة وصلاح بيتنا . ولهذا نبعث للجريد وباجة مَن يَحْصُلُ به خلاصُ الجباية وتأمين السبل ، ويخلّص عادة باي المحال السابقة ، ويأتي بها اليك ، ومهما تيسّر لك السفر فأنت في خُطّتك » . ولما بلّغت له ذلك ، علِم النصيحة ورضي [باسم] (1) الخطة .

وكره الباي [اظهارَ] (2) تسليم ابن عمّه ، فأولى ابا العباس أحمد زَرُّوق ، وهو من مماليك عمّه ، عَمَلَ الجريد ، وصار يخرج اليه بصفة عامل ، ومعه عقد من الخيل في محلّة صغيرة لا عسكر بها . وأضاف اليه عَمَلَ الهمامّة ليستعين بالمزارقية منهم . فأمّن الطرقات وكفّ عادية الهمامّة ، واستمال رجالاً منهم كأحمد بن يوسف وأمثاله ، وشيخ زاويتهم وبركتهم الخيّر الوجيه أبي عبد الله الحاج محمد كوكة ، استعان بهم على اهل الفساد ، بالرهبة تارة والرغبة اخرى . وله في ذلك أثر جميل ، وان كان مقرونا بشدة وصرامة الا انها في موضعها .

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) الزيادة عن ع و ق .

وبعث لباجة وجبَليها آغة في خيل أيضا ، [وأمره ان يستخلص عادة باي المحالّ ويبعث بها اليه] (1) .

وفي هذه السنة هرب ابو عبد الله محمد [بن حميدة] بن عياد لدار قنصل الانقليز ، لمشاحّة مالية وقعت بينه وبين ابنه محمود ، وقد امتزج بالباي وداخله مداخلة اقتضت غيرة أبيه [وهو غيور على الرئاسة] . وعظم عند الباي هروبه لمكانه من الدولة ، وقد كان بالامس رسولَه [ورسول عمّه] الى فرنسا ، فكاتبه [وهو بدار القنصل بقلم العبد الفقير](2) بما نصّه :

« حفظكم الله تعالى ورعاكم ، وحاطكم بحمايته ووقاكم . الموقر المحترم الامجد الارشد الهمام الزكي الاعز ، احد الاعيان ، من اهل الشان ، ابننا محمد بن عيّاد ، امير لواء ، حرسه الله بعين العناية . اما بعد السلام عليكم ورحمة الله ، فانه بلغني عنك ما شوش فكري ، وضاق عن احتماله صدري ، لانك تعلم منزلتك عندي ، وانك من خاصة اهل ودّي ، فكيف يليق بك الهروب ، او يمسّك وانا موجود شيء من الكروب ، وعلى كل حال فلستَ لي بمطلوب ، وما كنت أظن ان الغيظ يبلغ بك الى هذا الامر . وها أنا ابعث اليك الاعزّ المقرب الثقة ابننا محمد المرابط امير لواء ، وانت تعرفه وتعلم قربه منّي ومكانته عندي . وعزمت عليك بحياة رأسي ومَعَزّته عندك ان تخرج الى دارك ، وترخي على اوطارك ذيلَ استارك ، وأنت في أمان مني ، ولن ترى إلا ما تعهده من صفاء باطنتي ، وخلوص سريرتي . اما بقاؤك على ما أنت فيه تلحقني منه معرة ، لانك من أكابر خاصّتي وأعظم أحبتي . فكن عند ظني ، ولا تتراخ ولا تُمنّ ، واعلم انك إلي ومنّي . وفي هذا كفاية ، ودمتم في أمن الله وحفظه . والسلام . وكتب في رجب سنة 1263 (جوان — جويلية 1847 م.) .

فأتاه محمد المرابط ، وحاوله على الخروج ، فاعتذر بهنّات عدّدها على ابنه فيها خروج عن الطور ، فاغتم الباي لذلك . ومن فسدت بطانته كان كمن غصّ بالماء .

والسبب في عدم خروجه ان الرجل حنكته التجارب وجال في الآفاق ، لا ينخدع بزخارف ملوك الإطلاق . وبقي في مهربه ، وآلت النازلة الى المخاصمة لدى مجلس

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

متجري حضره امين التجار والعشرة ببيت الباشا ، تحت رئاسة أبي عبد الله محمد باي ، بالنيابة عن الباي ، بعد استعفائه من مباشرة السفر . وباشر كلٌّ منهما الخصام بنفسه ، وكانت حالة تنفرها الطباع ، وتمجّها الاسماع . وسببها الشحُّ المطاع من الابن ، والهوى المتّبَع من الأب.

[وحضر في اليوم قنصل الانقليز] ، ونفس الباي في النازلة مع محمود ، وانتصر ابو العباس حميدة ابن عبد الرحمان بن عيّاد لجدِّه ، ولحقه الى دار القنصل ، مشاغباً عمّه . [وصرف كسبه في ديون جدِّه ومرضاته ، برورا به] . وطال هروبه بدار القنصل ، ولم يخرج الا في ذي الحجّة سنة اربع وستين (نوفمبر 1848 م.) ، بتجديد أمان من الباي [له ولحفيده] على يد قنصلي الانقليز والفرنسيس بمكاتيب لهما . ونبذ الخدمة نافضا يده منها ، ولازم كِسْر بيته الى ان توفي على حالة تشبه زهد الحكماء (1) .

وكثرت الاقاويل من اهل البطالة في النازلة ، فمنهم من يقول انها حيلة [من الاب وابنه] للحصول على هذه الحماية ، [اذ لا أمان لمثلهما ولسائر الناس من الملك المطلق] (2) ، ومنهم من يحققها ، الى غير ذلك من الاراجيف .

***

وفي مدة هروب ابن عياد وحفيده ، هرب الفقيه الوجيه الخيِّر ابو عبد الله محمد العنّابي ، قاضي رأس الجبل ، الى دار هذا القنصل ، وعدل عن الهروب الى دار الفرنسيس لنسبته الى عنّابة . وذلك أن امير لواء عسكر غار الملح ، صالح شيبوب ، أخذ ابنيه غصبا للخدمة بصراية غار الملح ، وفداهما بمال فأخذه ولم يسرِّحهما ، ودهاه ما لا قِبَل له به ، فأحوجته الضرورة الى هذا الهروب، فوقف معه (3) القنصل وخرج بأمان له ولبنيه ، مكتتب من الباي . وعظمت عنده هذه النازلة الشنعاء في الاسلام وظن ان ابن عياد اغراه على ذلك وحسّن له الهروب ، فبعثني إلى شيخنا تقي العصر وعالم المصر، أبي إسحاق ابراهيم الرياحي ، لاتكلم معه في شأن النازلة ، وبقاء هذا الرجل في الخطة ،

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .
(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .
(3) وقف معه : ساعده أعانه (لهجة تونسية) .

بعد ان صدر منه ما ينافيها ، وخاطبتُه في النازلة إجمالا ، وهوَّلتُ له الحال ، وانه يؤدي الى استنقاص الخطة الشرعية في عيون العامّة ، الى غير ذلك من الخطابة التي لا تروج على مثله ، رضي الله عنه ، فقال لي : « يا بني تريد ان تخدعني وانا ربّيتك ؟ انكم تريدون عزل الرجل بطلب مني ، لتعتمدوه في التجريح ، وأنا لا أرى جُرْحتَه بما صدر منه . وإن شئت تجريح ابا بكر الصديق [فدونك وإياه] حيث جعل أهله وماله في حماية مشرك لمّا هاجر مع النبي صلى الله عليه وسلم . والمسالة مبسوطة في الروض الأُنُف للعلاّمة السهيلي (1) . وحاصل ما نراه وندين الله به ، ان هذا الرجل فعل ما يجب عليه [او يباح له] (2) ، ولا يُجَرَّح المسلم بفعل الواجب . وذلك انه يجوز أو يجب على المسلم ان يدافع عن نفسه واهله وماله مَن ظَلَمَه ولو أدى ذلك الى القتل ، وناهيك به . وان مات حالَ المدافعة عدّ من الشهداء ، وناهيك بالشهادة . وان عزل الباي هذا الرجل فاني لا اقطع المخاطبة معه فيما يتعلق بالفتوى ، لاني لا أثق بغيره في بلدته . والنصيحة ان الباي يتغافل عن هذا الامر ويطوي بساطه . والعامّة تنبهت الى ان الالتجاء ، عند الضرورة ، بغير المسلم لا محظور فيه . وقد كان جهّالهم يرونه كفرا ، والآن علموا الحق وصاروا يوجّهون الحرج الى من يُلجِيء المسلمَ الى الاحتماء بغير اهل الملة . ولا معارض لهم من الشرع ولا من العقل . وأتتني أسئلة في ذلك فأفتيت فيها بالجواز (3) . وان شئت فاكتب إلي سؤالا أجيبك فيه بخطي ، وأوضحها لك بما أدين الله به . ويبعد عندي أنك تجهلها ، لانها في متون الفقه المتداولة بين أيدينا » ، الى غير ذلك في هذا المعنى .

ولما بلّغت ذلك للباي عظم عنده ، ورآه ذريعة لخرق سياج السياسة ، [وجاذبا للتنظيمات الخيرية] (4) ، وطوى بساط النازلة ، وعلم موقع نصيحة الشيخ ، وجعلها مناط سياسته ، وتجافى الاسباب المفضية لذلك بما أمكنه (5) .

---

(1) بروكلمان ج 1 : 413

(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(3) في ع و ق : « بجواز هذا الاحتماء » .

(4) الزيادة عن ع و ق .

(5) كذا في خ ، وفي ع و ق : « ما استطاع ان يغلب هواه » .

وفي سنة 1264 (1847/48 م.) ، أتى الولي المجذوب الشريف السيد عبد الواحد من بلده مساكن الى المحمدية ، وتيمّن الباي بقدومه ، وزاره مرارا ، واجزل صلته (1) ، وان كان السيد على درجة من الزهد واحتقار الدنيا لا يرى في الوجود غير الواحد الموجود .

⁂

وفي سنة 1265 ، خمس وستين (1848/49 م.) ، توجه عزيز مصر ابو الفضل عباس باشا الى الدولة العلية العثمانية ، ونال من فخامتها جزيل الإكرام والعناية ، وتفضلت عليه السلطنة برتبة الصدارة العظمى ، ومازج رجال الدولة ، ورأى مفاوضتهم في شأن تونس ، وانتقادهم على الباي في جموده مع العادات السابقة ، وتخوفه من القدوم الى دار السلطنة ، وان هذا التخوف ربّما يفضي الى ضعف اللحمة الاسلامية .

ولما رجع لمصر ظهر له السعي في ازالة ما بنفس الباي من الافكار ، فكاتبه بما محصّله : « إني توجهت الى السلطنة العلية ، وحصل لي من الفضل والإحسان ما لا يسعه شكري ، مع ما فعله أبي وأخي مع الدولة ، ولم تعتبر الدولة ذلك ، وصار عندها نسيا منسيا ، ولم يصدر منك ما صدر منا ، [ولم نر سببا لهذه الجفوة] (2) .

والنصح يقتضي ان تترك هذا الفكر . فان رأيت ان تجعل بيننا موعدا بمرسى معينة كمالطة أو غيرها نجتمع بك فيها ونترافق الى دار السلطنة ، وترى من جزيل الفضل والاحسان ما تذكرني به ، وتلتزم بنزر معيّن من المال في كل سنة وهو أقلّ من الهدية ، الى غير ذلك من الترغيب .

ووصل هذا المكتوب الى المحمدية ليلاً في ظرف مكتوبِ وكيلِ تونس بمصر . والوزير [مصطفى خزنه دار] (3) ببستانه لمرض به ، فبعث الي بالمكتوب وأمرني بفضّه ، فان كان به ما يفوت بفوات الوقت اخبرته به في الحين .

ومن الغد ناولته المكتوب واخبرته بمضمونه واردت قراءته ، فقال لي : « لا اسمع منه شيئا حتى تحضر بقية الجماعة » ، فتوقفت ، فقال لي : « ان هذه نازلة تتعلق بعموم

---

(1) في ع و ق : « واجزل صلة اهله » .
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) الزيادة عن ع و ق .

المملكة ، لا أسمعها وحدي » ، [وكأنه يريد بذلك جلب قلوب وزرائه] (1) . وأمر بقدومهم فورا . ولم يكن معه وقتئذ غير وزير الحرب أبي النخبة مصطفى باش آغة . ولما حضر الوزراء قرأتُ عليهم المكتوب ، واتفق الرأي على جوابه ، وشكر صنيعه على الاعتناء والنصيحة .

وأمرني ان أتوجه لوزيره وثقته ابي النخبة مصطفى خزنه دار لتخلفه بمرض ، فأتيته ودفعت له المكتوب وأخبرته برأي الجماعة ، فقال : « هو أمر بديهي » .

ومن الغد جاء الوزير ، وأعيد إعمال الرأي ، فوقع الاتفاق على مكاتبته ، وأمرني بذلك ، فكتبت عنه بما نصه :

« المقام الذي طلع في افق الاسلام شهابا ، واستحق الصدارة العظمى إرثا واكتسابا ، فكساها من ملابس الفخر جلبابا ، وفتح بفضله للخير أبوابا ، ويسّر بعدله للعمران أسبابا ، مقام الصدر المطاع ، الآتي من الكمال بما لا يُستَطاع ، حتى ملأت محاسنه البقاع ، وشنفت أخباره الاسماع ، عزيز مصر ، وفخر هذا العصر ، اخونا السيد عباس باشا مشير مصر القاهرة ، لا زالت بسعادته باهرة ، وبسياسته زاهرة ، وعلى من ناوأها ظاهرة.

اما بعد السلام ، المناسب لذلك المقام ، فانه بلغنا كتابكم الذي هو على الصفاء والوفاء أوضح عنوان ، وعلى الودّ والإخاء أقوى برهان ، تنطق بالفضل فصوله ، وتشير الى كرم الطباع فروعه وأصوله ، ومجدكم معدن نُضَاره ، ومطلع أنواره ، جاريا في ميدان النصح إلى أقصى مضماره ، معلنا بأن سعادتكم لما فزتم بمشاهدة الحضرة المجيدية ، والعظمة السلطانية ، لا زالت بالعز والنصر حرَية ، ناشرة لواء عزها على الملة الاسلامية ، وحصل لكم من العناية ما الدولة له أهل ، وأنتم له محل ، ظهر لكم في جهتنا جفوة ، ومعاذ الله ان يكون سببها مني ، او يختلج ذلك في ظني ، مع دولة هي عز الاسلام ، وحماه الذي لا يرام ، مات سلفنا في خدمتها وفضلها ، وعشنا في وارف ظلها ، آمنين بعدلها ، ولم يقع لنا من فضل سلطاننا وإنصافه ، الا ما وقع لاسلافنا من السادة أسلافه . أمِن الاسلام والوفاء ، مقابلة هذه النعم بالجفاء ؟ بل سعينا لما يزيد في مرضاته ، والفوز بعليّ توجهاته ، كما هو الواجب لسلطنته العلية ، وعدالته العُمَريّة ، وأستغفر الله ان يخطر بالبال مفارقة

(1) الزيادة عن ع و ق .

الجماعة ، او تقصير من الاستطاعة . ومع هذا فلم أر لجوادي في خدمة الدولة كبوة ، ولا لصارمي في طاعتها نبوة ، توجب شيئا من الجفوة . والله يرى ان هذه نيّتي ، وعليها طويّتي ، ما هجس ضده بفؤادي ، ولا سرت في طاعتها إلا على (1) سنن آبائي وأجدادي ، شاكرا منها الايادي ، على تأييد اعتيادي . حتى ان كتابكم الاعز وصلنا على حال شغل باحضار ما نتقرب به إلى بابها ، وعليّ جنابها ، من تقديم الهدية ، طبق الاصول الاعتيادية . واذا بلغ للابواب العلية ما أنا بريء منه ، فالله هو المطلع على الحقيقة والكُنْه ، الى عدله الالتجاء ، وفي فضله الرجاء ، والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وهو الذي يجزي كل نفس بما كسبت . والمحقق من عدل مولانا السلطان ، وركن اهل الإيمان ، اذا جاءه نبأ يتبيّنه كما هو صريح القرآن . فاعتمادي على عدله وتقواه ، واستنادي لمراقبته لله ، لانه أيّده الله من الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، ولذلك فوّض أمرَ هذه المملكة إليه . وأنا ممن يعلم قوله تعالى : « وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعا وَلاَ تَفَرَّقُوا » (2) ، وان زخرف الوشاة مقالتهم ونمّقوا ، فقد خاب من حمل ظلما ، ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما . وسعادتكم ، كتب الله لكم أجر من ساهم وأعان وقوّى ، وشمّر في الصالحات عن الساعد الاقوى ، إذ نبّهتنا لهذه الجفوة ، لنبادر لإزالتها بما يقتضي الصفوة ، ولكم بذلك يد عندنا تُذكَر ، وبكل لسان تشكر . واذا كانت القلوب متعاضدة ، والانفاس على المراد متواردة ، يظهر في الغيبة أثرها كما يظهر بالمشاهدة . والله يعرّفكم عوارف السعادات جملا وأفذاذا ، كما جعلكم في المهمات ملاذا ، ومن وَقْع الخطوب عياذا ، ويجازيكم أحسن ما جازى به مَن مَحّضَ النصيحة لله ورسوله وأيمة المسلمين وعامتهم . وعلى عزيز جنابكم السلام التام . وكتب أوائل جمادى الثانية سنة 1265 (أواخر أفريل 1849 م) » .

ولما بلغه الجواب بعث فاضلاً زكيا ثقة ألمعيا فصيحا من علماء حضرته وهو ابو المودة الشيخ خليل الغزلات ، مع أبي عبد الله محمد بدر الدين الصفاقسي ، وكيل تونس بمصر والاسكندرية ، ليتكلما مع الباي مشافهة ، فاجتمعا بالوزير أبي النخبة مصطفى

---

(1) في خ و ع و ق : « عن سنن » .
(2) س 3/آ 103 .

صاحب الطابع ، وقررا له رسالة عزيز مصر ، وظهر من الشيخ خليل انه يروم الاحتجاج على نصيحة العزيز (1) ، فقال له الوزير : « إنـي مأذون بسماع مقالتك وتبليغها » .

وبعد ذلك حضرا عند الباي ، وأجابهما بمضمون جوابه مختصرا مجملاً .

ولما علما انه لا يريد إبداء أعذاره ، طلبا جواب المكتوب (2) ، فأمرني أن أكتب عنه بما نصّه :

« المقام الرفيع شانه ، الواضح في المعالي برهانه ، المشتمل على المكارم المتعددة عمله ولسانه ، مقام سليل الصدور الاعيان ، وعين الصدور الاركان ، عزيز مصر ، وغرة وجه العصر ، ومن تعز مناقبه عن الحصر ، أخونا السيد عباس باشا لا زال كما يختار ، وآثاره تخلّدها أقلام الاقدار .

اما بعد سلام يَتَعَبَّق عَرْفُه ، ويزكو بكم وصفه ، فانه بلغنا كتابكم الكريم المفصح عن الود الصميم ، فتلقّيناه بيد الوداد ، الراسخ في الفؤاد ، وتحققنا منه المراد . وحضر رسول جنابكم ووكيلنا بطرفكم المعمور ، التاجر الوجيه الثقة ابننا محمد بدر الدين ، وأدى الينا رسالته بأوضح بيان ، ومضمونها تَوَجُّهُنا إلى التشرف بالابواب العلية ، والحضرة السلطانية ، التي تتسابق الى مرضاتها الاعمال والنية ، لنفوز من فضلها بكل أمنية ، ونجعل لها مقدارا في كل سنة بدل الهديّة . فساءني في التوجه عدمُ الإمكان ، في هذا الزمان ، مع ان جنابكم وعد بالمرافقة ، والصحبة والموافقة . والانسان أسير الاقدار ، مسلوب الاختيار ، ومن الاعذار ما لا يتحمّله التقرار ، ويجمل فيه الإضمار بدل الإظهار، والله المطلع على خفيات الاسرار . وأما أداء المقدار في كل سنة بدل الهدية ، طبق أصولنا الاعتيادية ، فعلى هذه العادة مات سلفنا ، والمرجو بفضل الله وكرم السلطنة ان يبقى ذلك في خلفنا ، على ان خزائن الدولة ، عمّرها الله ، لا يظهر فيها هذا المقدار ، المحمول من نازح الاقطار ، وخروجنا عن سنن الآل ، يفضي الى اختلال في الاحوال ، ويرى الشاهد ما لا يؤدّى بالمقال . والمحقق من شيم السلطان ومراقبته لله في عباده ، أن يقوي ما اعتدناه من آبائه وأجداده . وقد قررنا لرسولكم إجمال ما فصّلناه ، وزبدة ما حرّرناه ، والله يحفظ

(1) اى اثبات وجاهة النصيحة المذكورة .

(2) لعله يريد جوابا ثانيا عن المكتوب الاول .

الجميع من الزلل ، في القول والعمل ، وهو المسؤول ان يقوي بكم الشوكة الاسلامية ، ولا يقطع عنكم ما عوّدكم من المواهب السنيّة . وعلى عزيز جنابكم السلام التام من حافظ عهدكم ، وصاحب ودّكم » . وكتب ثامن شوال من سنة 1265 (الاثنين 27 اوت 1849 م.) .

ولما تحقق عند الباي ان الصدر الاعظم ابا النخبة مصطفى رشيد باشا غير راجع عن رأيه ، ازداد حذره . واختار من ثقاته ابا عبد الله محمد خزنه دار عاملَه بسوسة ، وبعثه بالهدية للدولة ، وفوض له في الجواب عن هذه المطالب بما يراه من وجوه الامتناع ، وان يسبر بفطنته حالَ القوم ، وهو ممن يُعتَمد عليه في ذلك ، فبلّغ الهدية ، وقوبل بأحسن قبول ، وخلا به الصدر الاعظم ، وأعاد عليه ما يراه من النصيحة ، فالتزم تبليغها ، وأكّد عليه مطلب قدومه لإسلامبول . ثم كتب له جواب مكتوبه وسرّحه .

ولما أتى بالجواب كان فيه ما معناه : « ان هدايا الوزراء قُبِلت طبق الامر السلطاني وهدية السلطان صدر التفضل بتوقيفها » ، ففهم الباي من هذا اللفظ انها لم تقبل ، وان مطلب المال في كل سنة لم يُترَك ، مع ما قرره الرسول من النصيحة ، وأتى بها مرسومة في بطاقة من غير تصحيح ، فساءه ذلك وقال : « لم يبق للسياسة مجال ، ولله فينا علم غيب نحن صائرون اليه » ، فقال له وزيره ابو النخبة مصطفى صاحب الطابع : « ان طرق السياسة لم تنقطع ، وبقي منها ان تعيّن الآن شقفا يحمل جوابَك عن هذه النصيحة ، وتظهر براءتك مما نُسِبتَ اليه ، حتى تكون في صورةِ مظلوم » ، فأمر أبا عبد الله القبطان كشك محمد بالسفر عاجلاً [ويسافر معه الكاتب ابو الحسن علي الدرناوي] (1) ، وأمرني أن اكتب عنه ما نصه (2) :

« الجناب المقصود لبلوغ الآمال ، ونجاح الاعمال ، [المبني اساسه على ذرى الشرف والكمال] ، جناب ركن الدولة وشمس ضحاها ، وقطب رحاها ، صدر صدور الكبراء ، ومركز دائرة الوزراء [ومرجع انظار الامراء] ، المشير الافخم ، والصدر الاعظم ، السيد مصطفى رشيد باشا ، لا زال محطّ الرحال وقبلة الوجوه ، بالغا من الله ما يؤمّله ويرجوه .

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) كل الزيادات الموجودة فى نص هذه الرسالة منقولة عن نص اضافه الشيخ القروى صاحب ق الى نسخته منبها الى أن بالنص الاصلى خللا ، فكأنه عثر على هذا النص الاصلى فى خزينة الدولة التى كان يديرها ـ وسنشير فى تعاليقنا الى هذا الملحق بحرفى (م ق) .

اما بعد تقديم [التحية المناسبة لرتبتكم العلية ، وتقرير] ما يجب للسلطنة من فروض الطاعة ، بحسب (1) الاستطاعة ، فان هذا العبد الذي مات في خدمة الدولة سلفُه ، وعاش في فضلها خلفه ، روابطه مع الدولة العلية ثابتة الاساس ، معلومة في الناس ، واضحة وضوح الصبح ، غنية عن الشرح . كما أن ما جُبِل عليه سلطان زماننا من كرم الطباع ، وطول الباع ، أمرٌ انعقد عليه الإجماع ، وما على الصبح غطاء ولا على الشمس قناع ، [فهو الناظم لكلمة الدين بعد انتثارها ، ومقيل عثارها ، والآخذ بثارها ، والمخلد لآثارها]. والامان الذي مهّده لاهل الإيمان ، واضح للعيان ، لا يختلف فيه اثنان ، ولا يخطر بالبال ما ينافيه ، لانه من الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه . وطالما تمنى هذا العبد الوفودَ الى الحضرة العلية ، ومشاهدة الانوار المجيدية ، لو ساعَدَه الزمن ، وتجري الرياح بما لا تشتهي السفن ، وما صدَّه — والله — عدمُ الامان لانه [— والحالة هذه —] من المستحيلات العقلية مع انه لم يصدر منه (2) خلل في عمل ولا نيّة ، [والله المطلع على كل خفية ، لكن الانسان أسير الاقدار ، مسلوب الاختيار ، ومن الاعذار ما لا يتحمله التقرار ، ويجمل فيه الاضمار بدل الاظهار] ، فأعلّل النفسَ بأن التوجّه انما هو تعرض لعناية الدولة ، والمُقام انما هو لحفظ ما لَها في هذا القطر من الصولة ، ونؤثر واجب الخدمة ، على التعرض لمزيد النعمة ، والنصح في خدمة السادات ، مقدم على نفع خاصة الذات . فاقتصرت بالضرورة على السنن المألوف ، والمسلك المعروف ، من تقربي الى [ذلك] الباب العلي بتقديم الهدية ، طبق الاصول الاعتيادية ، في هذا الوجق الذي أشرقت عليه الانوار العثمانية ، وحمته الشوكة الخاقانية ، وان كانت الدولة عن أضعافها غنية ، [وما هو الا لاظهار ما للسلطنة من اليد العليّة] ، فما راعني الا ما في مكتوب الوزارة (3) من أنه صدرت المساعدة من حضرة صاحب الخلافة بالتفضّل بتوقيفها ، وأن هدايا الوكلاء العظام صارت في حيز القبول بمقتضى الرخصة السلطانية . ففهم العبد من التوقيف عدمَ القبول ، ومن عدم القبول نقصانَ الرضى . وفي المكتوب المذكور ما يشير الى ذلك ، مع ما بلّغه الرسول من تفسير الإشارة بصريح

(1) في م ق : « بغاية الاستطاعة » .

(2) في م ق : « مع انه لم يصدر من مظهر نعمتها خلل .

(3) في م ق : « مكتوب صدارتكم العظمى ، وجنابكم الاسمى » .

العبارة ، كما ذلك محرر في صحيفة (1) ، فحزن لذلك الفؤاد ، وماج في تيّار الآنكاد ، إذ لم يصدر منا ما يقتضي ذلك ، ولا سلكنا في غير مسالك .

أما كون سلامة تونس وسعادتها متوقفة على تأييد الروابط [القديمة] (2) الى الدولة العلية ، فهو من المعلوم ضرورةً وجاحده مُنكِر للبديهيات . واما التبعّد والتوحش الموجب لانواع المحاذير ، فمحلّه اذا صدر منا خلاف انطوى عليه ضمير ، أو فعل يقتضي نوعا من التغيير (3) . اما — والحالة هذه — فان العبد لم يجحد حقا معتادا ، ولا أضمر بشهادة الله عنادا ، ولا وطّأ لاسباب الشبهات مهادا . ولم يصدر منه الا المعلوم من سالف الازمان ، وأقرَّه السادة القادة من آل عثمان ، والاصل بقاء ما كان على ما كان . فلا مخاطرة — والحالة هذه — بالنفس ولا بالوطن . اما النفس ، فلوجود الامان من ظل الله في أرضه ، والقائم بواجب الاسلام وفرضه ، وعدالتُه العُمَرية ، ونيّتُه الخيرية ، وشفقتُه على البرية ، بأكثر من هذا الامان حَرِيّة . وأما الوطن فانه في حماية دولته ، محوط بصولته ، يدافع عنه بقوته ، ويكافح من ناوأه بشوكته ، ولا منافاة بين الذبّ عن هذا القطر الاسلامي وحمايته ، وبين التفضل باستمرار عادته .

واستغفر الله ان يخطر بالبال ، والحال الحال ، ما لا أقدر أن أفوه به من توهم الاستقلال ، أعوذ بك اللّهم من هذا المقال .

كيف ، ومنابر القطر في كل جمعة تنادي بطاعته ، مع الشكر على تقرير عادته ، [التي بها صلاح جماعته] ، ولا رواج للدرهم والدينار ، الا باسمه العالي في سائر الاقطار ، وأشرفُ ألقاب هذا العبد هو ما جعلتْه له السلطنة العلية ، وأهّلته لنيله من المراتب السنيّة ، بمحض فضلها ، وكمال عدلها .

وعدم إمكان الحضور ، لهذا العبد الشكور ، اذا كان سببه صلاحَ الامور ، والمثابرةَ على دوام حفظ الجمهور ، لا يُتوقع منه المحذور .

---

(1) في م ق : « .... نقصان الرضى ، وكذلك فهم من مكتوب صدارتكم العظمى ، ما يشير الى ان في سيرته ما يغاير الرضى العالي ، وسمع مشافهة من الوسل الى الباب السامي ، ما يفسر تلك الاشارات ، بصريح العبارات ، كما هو محرر في صحيفة بيدهم ، فحزن .... »

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) في م و ق : « والتبعد والتوحش الموجب لانواع المحاذير ، انما هو اذا كان من التابع بفعل او ضمير ، أو شبهة تشير الى نوع تغيير ، اما والحالة هذه الخ .... »

واختلاف البشر في مدارك العقول معقول ومنقول ، وصدق الخدمة يقتضي التصديق في المقول ، [والله المطلع على خائنة الاعين وما تخفي الصدور] .

هذا ، وطلب الوزارة — شد الله أزرها ، وقرن باليمن نهيها وأمرها — من العبد الفقير ، أن يودع لامانتها ما في الضمير ، يوجب أن أشرح نيتي ، وما انطوت عليه طويّتي ، فأقول والله شهيد على سرّي وعلانيتي : « هذا العبد الذي نشأ في طاعة الدولة العلية ، ورفل في حلل مرضاتها الجلية ، وتغذى بلبانها ، وعاش باحسانها ، واستظلّ بأمانها ، وتشرف بخدمة سلطانها ، من بيت هو عاشر آله في الخدمة ، ومظهر ما للدولة من النعمة ، أعظم أمانيه دوام رضى مولانا السلطان ، وظل أهل الإيمان ، وان تبقى خدمته على سنن أبيه وجَدّه ، ونيلُ هذا هو سعادة جَدّه ، وان هذه الإيالة ، الطائعة على هذه الحالة ، لا يُراع لها سرْب ، ولا يتكدر لها شرْب ، بحماية القوة السلطانية ، والشوكة الخاقانية . و[الله يرى ان] بهذا الحال حفظ طاعتها ، وصلاح جماعتها ، وهو السبب في اجتماع الكلمة ، في هذه الامة المسلمة . والله يقول : « وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا » . واختلاف عوائد الآفاق ، لا ينافي الطاعة والاتفاق ، ولا يكون ذريعة لافتراق . وتمسك البلدان بعاداتها ، مخلوق مع ذواتها ، [ولا يوهم خللا في طاعتها] .

والمأمول من الحضرة العلية أدام الله نصرها ، [وقرن بصلاح العباد أمرها] ، اذا رأى هذا العبد في مقعد صدق ، وحقّق أنه نطق بحق ، أن يَرِقّ لهذه الفئة القليلة ويرحم ضَرَاعتهم ، ويجمع بابقاء عاداته الجميلة جماعتَهم . حاشا فضله وإنصافه ، أن ينزع حُلّة تفضّل بها أسلافه ، بل المأمول من كرمه الزيادة ، وهو المحيي لمآثر أسلافه السادة . [وهذا العبد لم يقصر به العمل ، عن بلوغ هذا الامل] .

هذا ما في الجَنَان ، نطق به اللسان ، بلا شبهة ولا تمويه ، ولا خواطر تُنافيه . فاذا ساعد القَدَرُ بالقبول ، فهو المظنون المأمول ، (اعتمادا على حديث : « انا عند ظن عبدي بي » ، وان كانت الاخرى فالله مع الصابرين ، وهو سبحانه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . والله يعلم أننا ما غيّرنا ، ولا أضمرنا غير الذي أظهرنا ، ويوم تُبْلَى السرائر نُسأل عما حرّرنا .

وهذا المكتوب يشرّف بلوغُه الى الباب العالي ، المستوجب لكل المعالي ، (مَظهرَ التفاتكم) الثقةَ الفاضل المؤتَمَن نخبة أقرانه ، لنباهة شأنه ، ابننا محمد أمير لواء عسكر البحر ، ومعه الكاتب الثقة الخير العفيف الفقيه ابننا علي الدرناوي . وجناب الوزارة يثق بأن ما يُلقَى الى الحاملَين من المقال ، يصل الى العبد الفقير على أحسن حال . والمرجو أن يعود الينا بخبر يبسط النفس ، ويعيد لها الانس . والله يُديم للدولة العلية المجيدية عزا لا يُطاوَل حدُّه ، ونصرا يمضي فيمن عاندها حدُّه . والسلام [من الفقير الى ربه تعالى عبده المشير احمد باشا باي] ». وكتب في 20 ذي القعدة سنة 1265 (الاحد 7 اكتوبر 1849 م) .

[والسبب في طول هذا المكتوب هو الجواب على ما في الصحيفة من النصيحة بالتصريح او التلويح] (1) .

وكان من جواب الوزير الصدر الاعظم ان المراد بالتوقيف هو القبول على اسلوب آداب الكتابة باللغة التركية ، لان ما يقبله السلطان يوقف في خزانة المسلمين ، ولا يقبل السلطان لنفسه شيئا . واقنع البايَ هذا الجواب ، وهو مع هذا الحذر لم يحدث نفسه باستقلال ، ولا سام ربطَ الاسلام باخلال ، ولا حام حول الخروج من تلك الظلال ، وان امتلأت أسماعه بأقوال الضلال ، المنتجة للاضمحلال .

*

وفي شوال من هذه السنة 1265 (أوت — سبتمبر 1849 م.) وقع من عسة زواوة بباب باردو سوء أدب ، سببه ان الباي كان بالمحمدية ، ووصل منها الى باردو بعد الغروب ، وأمامه أمير آلاي الخيّالة ، اسمه خليل من جالية تُرْك الجزائر ، في طائفة من الفرسان ، وخلْفَه مثلها على العادة . واصطف عسكر زواوة لسلام الباي في غير موضعهم ، فانتهرهم خليل التركي وضرب بعضَهم وعاملهم بعنف وشدة . ورام ستر تعدّيه بالشكاية الى الباي في الحين بأن أنفارا من زواوة تجاسروا عليه ، فاغتاظ لذلك ، على غلّوه في حماية العسكر النظامي ، وأمر في الحين باحضار المتجاسرين منهم ، فمنعهم إخوتُهم ودخلوا محلّ مبيتهم وتسلّحوا ، فبعث الباي الى الداي وغيره من ضبّاط الحاضرة ، خشية أن تسمع

(1) الزيادة في ع و ق .

بقية زواوة فيصدر منهم ما لا ينبغي ، وأخرج لهم بلوك (1) من العسكر ، فخرج واحد منهم بسيف في يده مسلول ، فقُتِل بالرصاص في الحين ، وبقي إخوته جاثمين في محلّهم ، فأمر باخراج المدافع لهدم محلّهم وهُمْ به ، فتثاقل وزير الحرب ابو النخبة مصطفى باش آغة تثاقلاً أبقى به على رمق اولئك المساكين ، وأثمر هناءَ الحاضرة وعدمَ تحييرها في الليل . وأعانه على ذلك ابو محمد خير الدين ، وكان يومئذ أمير آلاي . وأتوا محلّهم وأخرجوهم الى السجن مذعنين للحكم ، ولم يبق لصراخ المدفع موضع بعد سجنهم . واستعجل الباي في النازلة ، وعظّمها على حقارتها ، انقيادا لهواه ، حتى كادت ان تكون فتنة ، لولا لطف الله .

ومن الغد احضرهم لديه [بديوان المحكمة] من السجن ، وعين ستة من رؤوسهم بحسب ما توسّمه فيهم بنظره ، ولم يسمع منهم مقالاً ، وأمر بقتلهم خنقا ، [وهكذا تُقتَل المسلمون في الملك المطلق القهري] (2) ، وعاقب الباقين بالضرب والسجن .

وأبطل عسة زواوة من باردو ، سترا لتعصّبه وغلطته ، ورَفْواً لما خرق بشهوته . وندم بعد ذلك ولات حين ندم ، وقد سبق السيف العذل . وبقي أياما أسيفا حزينا ، لانه يكره الجرأة على سفك الدماء ، ولا يستسهله الا في تربية العسكر على القاعدة العسكرية ، لا سيما وقد كان بالحاضرة يومئذ رسول عزيز مصر المتقدم ذكره .

وللنقد في النازلة مجال ، وهي من نتائج قضايا الاستعجال . واذا قسته باستعجال أمثاله من ملوك الإطلاق ، ترى بالفكر والعين معنى أخف الضررين .

***

وفي السابع عشر من محرم فاتح سنة 1266 ، ستٍّ وستين ومائتين وألف (الاحد 16 محرم — 2 ديسمبر 1849 م.) ، ظهر في المملكة التونسية مرض وبائي يعبّر عنه في ارض الحجاز بالريح الاصفر ، وأصله من أمراض الهند ، وعبّر عنه في بلادنا بالكوليرة ، وتُلُقِّيَ هذا الاسم من أطباء الافرنج .

(1) في ع و ق : « طائفة » .
(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

وصورته ، والعياذ بالله ، أن يصيب الإنسانَ إسهال وقَــيْءٌ ، فيصفرَّ لونُه ويسودَّ ، ويموت في ساعات أو قليل من الايام ، وقلَّ من ينجو ، ولم يتقدم مثلُه في هذا القطر . وأول ظهوره في جبل الرقبة ، ثم انتقل إلى باجة فدام بها قليلا ، ومات بها الكثير ، فعزم الباي ، باشارة بعض الاطباء ، على التحفظ من وصوله إلى الحاضرة بمنع الخلطة . فأمر أمير لواء عسكر الخيّالة ، ابا العباس أحمد ، أن يرتّب عسة من العسكر تمنع القادمين من باجة ونواحيها إلى الحاضرة . وأمر أبا الفلاح صالح بن محمد كاهية ان يتوجّه في عقد من الخيل لجهة أخرى (1) . ومن المقدور لا يغني الحذر .

وارتحل الباي إلى بستان وزيره أبي النخبة مصطفى خزنه دار المعروف بقرطاجنة على ساحل بحر حلق الوادي ، يوم الخميس الثامن والعشرين (2) من محرَّم (13 ديسمبر) ، ومعه خواصُّ أتباعه . واستصحب لعسّته عددا من العسكر في اخبية ، أمّر عليهم الشريفَ ابا محمد حسن المقرون [امير لواء] . وأمر صهرَه وزيرَ الحرب ابا النخبة مصطفى [باش آغة] أن يتوجه [بأهله] الى بستانه المعروف بالكرم ، على حالة تحفّظ ، وهو لصق قرطاجنة ، بحيث يأتي كل يوم للاجتماع بالباي . [والوزير خزنه دار بأهله في مسكن وحده بقرطاجنة] (3)

وأقام متحفظا على عادة الكرنتينة ، واشتد خوفه من المرض ، وضيّق بعدم الخلطة في الكرنتينة تضييقا لا يلزم عند الاطباء ، حتى قال بعضهم ان التحفظ بالكرنتينة لم يكن في الملّة الاسلامية ، وهي من اختراع الامم الافرنجية ، فنحن أدرى بكيفيتها ، فيعرض عنهم ، حتى وقع الارجاف بأنه سافر من المملكة خُفْيةً وأبقى ختْمه بيد وزيره أبي النخبة مصطفى خزنه دار ، فصار يخرج بعض الايام أمام القصر ، وربما يصل الى قرب أخبية العسكر لتراه الناس .

وقلتُ له يوما : « قد بالغنا في الخوف » ، فقال لي بديهةً : « يقبح الخوف اذا كان من قِرْن تراه ويراك وتنال منه وينال منك ، أما من سطوة الله فاذا لم يجمل الخوف فلا يقبح ، ولعل الشجاعة في مثله من سوء الادب مع الله ، ولسنا من رجال التوكّل » ،

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « أن يتوجه بوجق الكاف الى الجهة الغربية » .
(2) هو 27 حسب التقويم
(3) الزيادة في الفقرة عن ع و ف .

ثم قال لي : « لو سبق القضاء والقدر وميتُّ بهذا المرض ، أخشى أن اقول عند حلوله لو فعلتُ الكرنتينة ما حلّ بي ، مع اعتقادي أن لا فاعل الا الله ، وكان الشيخ محمد بيرم ألّف رسالة لعمّي في جواز التحفظ من الوباء ، وهذا مثل الوباء » ، فأرخيتُ له العنان ، إذ لم يكن موضع جدال .

وقال بعض الحاضرين ، وهو ابو النخبة مصطفى خزنه دار : « ان ميّت الوباء شهيد » ، وقد جاز التحفظ منه ، وهذا لا نصّ في ان ميّته شهيد . وسأل عن ذلك ، فكتب له العالم النحرير ابو عبد الله محمد الطيب الرياحي بأن ميّته شهيد ، لانه مبطون والمبطون شهيد ، كما هو صريح حديث الموطأ ، في تقرير نفيس . وخالفه الشيخ المفتي ابو عبد الله محمد بن سلامة . وكل منهما مات بهذا المرض ، رحمهما الله .

ولما قرب المولد النبوي من السنة 1266 ، كاتب شيخَ العصر إمامَ الجامع الاعظم ، أبا إسحاق ابراهيم الرياحي ، بالاجتماع يومَ المولد على العادة ، ولا يتوقف على قدومه . وأمر بالزيت لمآذن البلاد وغير ذلك مما عوّده ، ووقع الاجتماع وإطلاق المدافع .

وبعد الانفصال كاتبه الشيخ بما نصّه : « سيدنا الذي هو بالمعقّبات محفوظ ، وبعين العناية الإلـهيّة ملحوظ ، بعد الدعاء لكم وهو في الحقيقة لنا ، بانسدال الستر وكمال الهنا ، فانّا قد امتثلنا أمرَكم السعيد ، وكان يومُنا ببركتكم ، وان لم يحضره شخصكم ، يومَ عيد . ومن بركات هذا اليوم أن ألهمنا الله قراءة آيتين فيهما تفريج الكرب وتيسير العسير ، وشفاء الحرج الذي في الضمير ، جعلناهما وِرْدا بعد الفراغ ، وكررناهما ستّا وستّين عدد اسم الجلالة تعرّضا لإفاضة اللطف العظيم ، من الاسم الجامع لاجل التعميم ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ أمره وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا . والسلام على عليّ ذلك المقام ، والحمد لله رب العالمين . والآيتان هما قوله تعالى : « سَيَجْعَلُ اللّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرا » (1) . وقوله تعالى : « فَاَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرا إنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرا » (2) .

وفي أيام مُقامه بقرطاجنة ، أتى قنصل من دولة الانبريال ، فخرج وقابله مقابلة كرنتينة ، وأتى بمكاتيب من دولته تقتضي عمل شروط ، وأحسن قبوله ووعده ان يكون

(1) س 65/آ 7 .
(2) س 94/آ 5 و 6

عمل الشروط بعد زوال المرض والخروج من الكرنتينة . وعاقه المرض عن إتمامها فعقدها ابن عمه بعده .

ولم يزل على هذه الحالة من شدة التحفظ والتحذر ، وهو مع ذلك لم يفرّط في شيء من سياسة المملكة . وتأتيه المكاتيب من كل ناحية ،ومطالب العسكر ، فيصدر جوابها ، على كثرتها ، من الغد . ولم يكن معه من الكتبة غيري ، وغير الاكتب البارع أبي عبد الله محمد العزيز بوعتّور ، وهو يحرضنا على الاستعجال بأجوبة المكاتيب .

وفي قرطاجنة اتاه نعي أمير لواء الخيّالة أبي العباس أحمد ، وهو المأمور بالعسّة في الجهة الغربية (1) . فكاتب الآلاي وعزّاهم بأميرهم .

ثم انتقل من قرطاجنة سادس ربيع الثاني (الثلاثاء 19 فيفري 1850 م.) الى المحمدية ، وهو في تحفظ الكرنتينة ، وفيها أولى أبا محمد خير الدين أميرَلواء عسكر الخيّالة .

ثم وقع بها المرض فرجع الى باردو ، فوقع به المرض ، فانتقل الى غار الملح أواخرَ رجب من السنة (اوائل جوان 1850 م.) ، وصاحبها يومئذ أبو الفلاّح صالح بن عثمان شيبوب ، أمير لواء عسكرها المعاوضين . وفيها أتاه نعي الشيخ المفتي أبي عبد الله محمد ابن سلامة ، فوقع بها المرض وكثر في العسكر ، فرجع الى المحمدية في شعبان (جوان — جويلية) واستقرّ بها ، ثم رجع الى قرطاجنة ثانيا ، ومعه الاكتب البارع ابو عبد الله محمد الباجي المسعودي ، لانه سرّحني الى حمّام الانف لمرض أصابني . وقد كان همّ بالتوجه الى جربة ، لولا أعيان من رجال الدولة عارضوا ميله .

وهو وإن اشتد جزعه في هذا المرض إلا أنه فعل مع أهل الحاضرة في أيامه ما لم يزل ذكره حسنا جميلا .

وذلك أن هذا المرض لما أتى الحاضرة نزل أولاً بفقراء اليهود ، واشتد عليهم خطبه ، وفرّ القريب من قريبه ، فأحضر لهم قشلة سوق الوزر ، ونقل اليها المرضى ، وأجرى

(1) في ع و ق : « المامور بالعسة لمنع القادمين من باجة ونواحيها » .

عليهم الجرايات الواسعة ، وتطوع لمداواة الفقراء الطبيب مَصْكرو الصبنيولي ، وله بذلك يد حسنة في البلاد اقتضت مزيدَ حبّه . وجعل بربضي المدينة أطباء ، وصرف في هذه الشدة أموالا عظيمة ، مع طعام وكسوة للفقراء من أي ملّة [تشهد بذلك صحائف الدفاتر](1) ويأتيه كل يوم عدد من مات بالحاضرة . وممّن مات من أعيانها في أول الامر الفقيه الماجد ابو عبد الله محمد ابن الامام أبي عبد الله محمد الشريف ، والعالم النحرير ابو عبد الله محمد الطيب ابن عالم الملة أبي اسحاق ابراهيم الرياحي ، فاهتزّ لموته وتأسف لفقده، وكانت له صبابة في الشيخ والده ، فأمرني أن اكتب عنه معزيّا وهو في قيد الكرنتينة بما نصه :

« العالم العامل الذي صبره على النوائب جميل ، وشكره على المواهب بمزيد الخير كفيل ، بركة البلد ، والمتحلي بثوب الصبر والجلد ، على مرارة فقد الولد وأي ولد ، محبّنا الشيخ سي ابراهيم الرياحي باش مفتي المالكية ، جعله الله ممن قال انا لله وانا إليه راجعون ، اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون .

أما بعد السلام عليكم ورحمة الله ، ولا رادّ لما أراد الله ، فانه ساءنا ما غيّركم ، وكدّرنا ما حيّركم ، بمصابكم ومصاب أهل العلم بولدكم الطيّب ، وغمام العلم الصيّب ، الذي شكت فقده الدروس ، وألسنة الاقلام وبطون الطروس ، وهذا الخطب لا يغني فيه الدفاع ، ولا ينفع معه الا الاسترجاع ، ومثلكم من يتلقّاه بالتسليم ، من قلب سليم ، ومن الذي سالم الايام فسلم من غوائلها ، وتمتع بنائلها ، سهامها مفوقة لكلّ غرض ، من جوهر وعرض ، والدنيا ليست بدار قرار ، وما عند الله خير للأبرار . أين الامم السابقة ؟ أين أصحاب العزائم الصادقة ؟ كلٌّ قَدِمَ على ما قدّم ، وجدّ إلى ما أعدّ . جعلنا الله ممن عمل عملاباقيا ، وأسلف سعيا إلى درجة القبول راقيا ، والصبر أنفع الذخائر ، والله يقول : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ » (2) فقد سهّل مُرٌّ فقده ، كلّ خطب من بعده ، وسلّى كلّ واجد عن وجده . وهذه المصيبة نتسلّى عنها ، بأن عند الله ما هو أعظم منها . والبركة فيك وفي بقيّة بنيك ، وستبلغ ان شاء الله فيهم أمانيك . وفَرَطُك هذا ترى في بنيه ، أكثر مما رأيته فيه ، وعندك والحمد لله مَن يقوم في عليّ مقامه

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) س 33/آ 21

وزيادة ، ونقل الخطط إليه أعظم شهادة . فاشكر الله على نعمائه ، واصبر على قضائه ، فانما يوفّى الصابرون أجرَهم بغير حساب . ولولا ان الله يقول : « وَذَكِّرْ فَانَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ » (1) ، ما خاطبت بهذا قطبَ الملّة وعلَمَ الدين . والله يجعل ذلك خاتمةَ الفجائع وطليعة التهاني ، ويبلّغنا من طول بقائكم غاية الاماني . والسلام من مساهمكم في المصاب الفقير الى ربه عبده المشير احمد باشا باي » .

وكُتِب في 28 أشرف الربيعين سنة 1266 (الاحد 13 جانفي 1850 م) .

ولما وصل المكتوب للشيخ وهو في [حزن] (2) مأتمه ، أمر الكاتب البارع تلميذه أبا عبد الله محمد الباجي المسعودي ، وكان حاضرا بين يديه ، ان يكتب جوابه ، فكتب عنه ، بعد صدر بليغ ، ما نصّه : « سلام كريم ، من قلب كليم ، ورِضْوان عميم ، ورَوْح وريحان وجنّة نعيم ، فقد ورد الينا كتابكم الفخيم ، المسلّي عن النبأ العظيم ، والخطب الجسيم ، الذي قابلْنا فيه قضاءَ الله بالتسليم ، وقلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم ، فكان كالصبح المنبلج إثر ليل بهيم ، جبر القلبَ المصدوع ، وكفكف غَرْبَ الدموع ، وأعاد بعد الارَق طيب الهجوع ، وآنس بلطيف خطابه القلبَ المفجوع ، وسلّى عن فقيد لولاه كان الصبر في حيز الممنوع » . وختمه بدعاء ، وأمضاه الشيخ بختمه .

وانما لم ننقل هذا الجواب بتمامه لان من الشدة في هذه الكَرنتينة ان المكاتيب لمّا تأتي يقع تبخيرها ، ثم يخرج لها الكاتب وهي عند أخبية العَسّة ، فيَنقُل منها بخطّه ما به الحاجة ، وبعد ذلك يحرقها الامير المأمور بالعسة ، ولا تدخل لساحة القصر الذي به الباي ، وهو من الزيادة في الغلوّ (3) .

واشتد حال هذا المرض في شعبان ، ومات بسببه في الحاضرة اكثر من مائتين في اليوم ، فأشار العالم الفقيه القاضي الحنفي ابو النخبة الشيخ مصطفى ابن شيخ الاسلام ابي عبد الله محمد بن حسين بيرم (4) بجمع أربعين شريفا اسمهم محمد ، يجتمعون في

---

(1) س 51/آ 55

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) في خ بعد قوله « في الغلو » بياض بقدر ثلاثة اسطر ، والجملة الاخيرة ساقطة من ع و ق .

(4) كذا في ع و ق ، وفي خ : « ابن الشيخ محمد بيرم » .

جامع الزيتونة من الصباح الى الظهر، ويقرؤون سورة "يس" اربعين مرة، ويدعون الله بدعوات حررّها لهم، ناقلاً ذلك من بعض الكتب [عن بعض الصالحين، والاعمال بالنيات]، فاجتمعوا [بجامع الزيتونة] (1) وتضرعوا إلى من يجيب المضطر اذا دعاه، فتراجعت الشدة ونقص عدد الموتى من ذلك اليوم شيئا بعد شيء، حتّى اضمحلّ بفضل الله ورحمته.

والاشراف المنتخبون لهذا الدعاء هم : السيد محمد محسن وابنه السيد محمد، والسيد محمد ابن السيد احمد الشريف، والسيد محمد ابن السيد محمد ابن الامام السيد محمد ابن السيد عبد الكبير الشريف، والسيد محمد ابن السيد أحمد وكيل القراء، والسيد محمد ابن عاشور، والسيد محمد ابن السيد علي الشريف شيخ طريقة سيدي محمّد بن عيسى، والسيد محمد ابن السيد محمود بن عثمان، وابنه السيد محمد، والسيد محمد العربي البشيري، والسيد محمد بن عاشور، والسيد محمد السقاط، والسيد محمد ادريس، والسيد محمد بن حسين، والسيد محمد القلشاني، وابنه السيد محمد، والسيد محمد الحجيّج، والسيد محمد الشمّاع، والسيد محمد بن عبد الكريم، والسيد محمد فَقّوسة، والسيد محمد بن ابي بكر بن حمّودة، والسيد محمد العنّابي، والسيد الحاج محمد القلاّل، والسيد الحاج محمد الحشايشي، والسيد محمد الدنّوني، والسيد محمد النقّاش، والسيد محمد الغربي، والسيد محمد النيفر، والسيد محمد الغربي العطّار، والسيد محمد المحجوب، والسيد محمد زقية، والسيد محمد التومي شيخ الطريقة القادرية، والسيد محمد ابن الحاج عبد الله، والسيد محمد سعيّد، والسيد محمد التومي، والسيد محمد النابلي شيخ طريقة سيدي عبد السلام، والسيد محمد بن حسن بن عمر، والسيد الحاج محمد شنيق، والسيد محمد شبيل والسيد (2)   ، والسيد محمد عنون، والسيد محمد الرصّاع (3).

وكان الوزير ابو النخبة مصطفى خزنه دار يقول : « انتخاب هؤلاء الاشراف شهادة لهم بثبوت النسب الشريف تغنيهم عن الحجة [المكتتبة] (4).

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق.
(2) بياض بقدر كلمتين في خ و ع و ق.
(3) العدد يتجاوز الاربعين، ولعل ذلك ناتج عن تكرار بعض الاسماء
(4) الزيادة عن ع و ق.

وفي هذه السنة أتى للباي نيشان من دولة سردانيا ، وقبله باحترام ، وتوقف في حمله لانه يقرب من [شكل] الصليب ، فأفتاه بعض الراسخين في العلم بالجواز [اذا لم يعتقد معتقد أهله] (1) ، وأفتى بالمنع بعض المتورعين .

وبلغ الباي ان الشيخ ابراهيم أصابه شيء من المرض (2) فكاتبه سائلا عن حاله ، فاجابه بما نصه :

« الحمد لله الذي شرّفنا بسؤال سيدنا المشير عنّا ، ولولا كرم طبعه وشماخة مجده لا نكون لذلك أهلاً وما كنّا ، اللهم شرّفه بالزيادة ، في مدارج السعادة . وبعد فالذي أعرّف علَيّ مقامكم به من أحوالنا على ثلاثة أقسام على طريق الاختصار ، اذ التفصيل لا يحتمله الليل والنهار . القسم الاول حالنا مع خصوص سيادتك ، وما لها في السويداء من عظيم وَدادتك ، وهي الشفقة التي للوالد على ولده ، واللحمة التي بين القلب وكبده . والقسم الثاني ، حالنا مع سائر الناس ، وهي الصبر على أذى اللئيم ، والشكر الجميل للولي الحميم . والقسم الثالث ، حالنا مع الله عزّ وجلّ ، وهو الصبر على البلاء ، والرضى — ان شاء الله — بالقضاء ، فلا أحزن على ما فات ، ولا أفرح بما هو آت ، واذا قلت : متى نصر الله لسيدنا المشير ، يقول كتاب الله : ألا ان نصر الله قريب . هذا جواب ما ظهر لي من ظاهر المكتوب ، وما وراء ذلك من شأن علاّم الغيوب. والسلام التامّ ، الفائح منه مسك الختام ، لحضرتكم التي بها عزّ الاسلام ، من ابراهيم الرياحي » .

أوائل رمضان ، عام 1266 (اواسط جويلية 1850 م.) .

وكاتبه أيضا في الشهر ، سائلا عن حاله ، فأجاب بما نصّه :

« سيدنا ومولانا ، ومن بنعمته وإحسانه تولاّنا ، أبقى الله للعالمين شمسك ، ولا عدم البريّة أنسك . أما بعد فقد بلغنا الكتاب المبرور ، المهدي إلي الحظ الموفور ، من لطائف السرور ، بشدة اعتناء سيدنا ، ومسرّته — حفظه الله — بعافيتنا ، فآنسني بلذيذ خطابه المحبوب ، الانس الذي وجده بالقميص يعقوب . ونحن الآن ، بحمد الله ، في عافية وافية

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(2) في ع و ق : « تشويش باله » عوض « شيء من المرض » .

وفضل أسنى ، فليزدد سيدنا مسرّةً وهناء . لا زال فضله مشهورا ، وسعيه مشكورا ، وجميل مآثره في كل كتاب مسطورا . والسلام من معظّم قدركم ، الشاكر فضلكم، ابراهيم بن عبد القادر الرياحي ، لطف الله به ، آمين » . في 12 رمضان سنة 1266 (الاثنين 22 جويلية) .

وأصيب الشيخ بهذا المرض أواسط الشهر ، وتوفي أواخره ، وحزن الباي والمصر لفقده . وبعث لاخصّ تلاميذه المرموق عنده بعين الإجلال ، وهو العلامة الفاضل أبو العباس احمد بن حسين القمّار ، وكان قاضيا بالكاف فأولاه رئاسة الفتوى بالحاضرة ، ودروس جامع صاحب الطابع ومدرسته ، فامتنع وأصرّ ، وألزمه القبول . وقدّم لإمامة الجامع الاعظم الشيخ الفقيه الإمام الشريف ابا الثناء محمود محسن .

ولم يزل بالمحمدية في الكرنتينة ، وكاتب أهل الحاضرة باعفائهم من القدوم له يوم العيد للتهنئة .

***

وفي هذه السنة سافر محمود بن عيّاد الى فرانسة ، واصحبه الباي بمكاتيب في الوصاية به ، وأوامر في سراح زيت من المملكة ليبيعها على إسقاط شيء من دراهم السراح، ويتعجل الثمن لشراء القمح والشعير ، لان المملكة توالى عليها عسر الجدب وعسف العمّال ، وزعم انه فعل ورجع .

***

ولما ارتفع المرض ، وقد أثر في عدد اهل المملكة نقصانا واضحا ، لا سيما عسكر الخيالة ، أمر الباي أميرَ لواء الخيّالة أبا محمد خير الدين بجمع عسكر عوض من مات ، يأتي بهم من كِسْرى وبَرقُو وما والاهما .

وعارضه في ذلك وزراؤه بأن الناس لم تزل في دهشة المصيبة العامّة ، ويؤدي ذلك الى النقص في العمران ، مع عدم الاضطرار الى العسكر والحالة هذه ، فأعرض عن مقالهم ورسم لخير الدين عددا لا يأتي بأقل منه ، فتوجه وأتى بالعدد المأمور به ، وقال له :

« يا سيدي إنـي تركـت تلك الجهة فارغة » ، فقال له : « حسبك تنفيذ ما أمرتك بـه ، وما وراء ذلك أنا أعلم به » . ووقع في تلك الجهة نقصان بقـي أثره ، وعُدَّت من شهواته واستعجـالـه .

⁂

وفي محرم من سنة 1267 ، سبع وستين (نوفمبر — ديسمبر 1850 م.) ، وجّه الباي نيشان آله للملك سردانية ، ونواشن لوزراء وأعيانٍ من دولته ، مع احد المقربين لديه وهـو صالح بن عثمان شيبوب امير لواء . وكـان الوزير جوزاب راف وقتئذ رسولاً عند الـدولة المذكـورة ، فكـاتبه ليقدّم الرسول وما معه للدولة . وقبلت الدولة النواشن أحسن قبول ، ورجـع الرسول بنواشن من تلك الدولة لاعيان من رجال دولة الباي .

⁂

وفي ربيـع الاول من السنة 1267 (جانفـي 1851 م.) ، رتب الباي قانونا على الزيتون والمراجع بصفاقس وقُراها ، يؤديه المالك أخصب ام أجدب ، وكـتب لهم منشورا بذلك مثل ما تقدم . وهذا القانون ، على ثقله ومخالفته لصريـح الشريعة الاسلامية وحالة البلاد ، هو أحد الشرّين (1) بالنسبة لحالة الملتزمين ، لانها أفنت الامل وقطعت العمل ، اذ الملتزم لا يسعى الا في نفعه ، وليس وراءه متعقب ولا وازع ، هو الخصم والحكم .

⁂

وفي ليلة المولـد من هذه السنـة بات البـاي بالحاضـرة ودار بها ليـلاً على عادتـه ، [مختلطا] (2) مع عامّة الناس . وحضر موكـب المولد بالجامع الاعظم ، وقرأ التأليف الشيـخ الإمام الشريف ابو الثناء محمود محسن ، وكان يوما مشهودا . وتذكر مصاب المملكة بعالمها الشيـخ ابراهيم الرياحـي ، قُدِّس سِرُّه .

وفي الخامس والعشرين من رجب السنة 1267 (الاثنين 26 ماي 1851 م.) ، قـدّم لخطة القضاء [بالمذهب المالـكي] ذكـي العصر ونحرير المصر ، الشريف ابا عبد الله محمد الطاهر بن عاشور ، [وقد كـان استشار فيه شيـخ الاسلام ابا عبد الله محمد بيـرم ،

(1) في ع : « خير الشرين » وفي ق : « خير » .
(2) الـزيـادة عـن ع و ق .

فعابه بسن الشباب ، وفي علماء الحاضرة مشيخة . فقال له : « هو في العلم متقدم أو متأخر ؟ » ، فاعترف بتقديمه ، فقال له : « اذاً لا يضرُّ صغرُ السن »](1) .

وابتهج بولايته لانه من ثمرات عنايته بالعلم . وقال : « ان هذا القاضي من علماء عصري » .

وقدّم لخطة الفتوى العالم العامل الشريف العفيف ابا عبد الله محمد النيفر .

وفي اواخر شعبان السنة 1267 (اواخر جوان 1851 م.) قال لي الباي : « ان سمرنا في رمضان يكون ابتداؤه بقراءة « الشفاء » بحيث نختمه ليلة خمس وعشرين منه ، ونبيت بتونس ليلة سبع وعشرين على عادتنا » ، فابتدأنا قراءته أول ليلة من رمضان في المحمدية . أقرأ بحضرته نبذة صالحة منه ، ويقابل معي وزيره [وابنُ تربيته] (2) ابو النخبة مصطفى خزنه دار بنسخة صحيحة ، ومعنا شرح الشهاب للمراجعة . ويسأل اذا توقف في فهم شيء ، بحيث لم تكن قراءةَ تعبّدٍ بالالفاظ . ورأيت منه ذكاء يطير شرره ، وتنبلج غرره . وكان يقرع سنّ الندم على إضاعة شبابه ، في غير العلم واسبابه ، ويستعمل وقت القراءة غايةَ الادب الواجب لسماع الاحاديث النبوية . وحضر معنا ليلةً شيخُ الاسلام ابو عبد الله محمد بيرم ، وهو الذي قرأ تلك الليلة ، وشاهد من سؤاله ومشاركته وألمعيته ما أعجب به .

ولما ختمنا الكتاب قال : « هكذا ، ان شاء الله ، في كل رمضان » . ووَفّى بِنَذْره ، فلم يزل يقرأ « الشفاء » في كل رمضان ويختمه ، إلى أن لحق بربّه .

⁂

وفي ثامن شوال من السنة 1267 (الاربعاء 6 اوت 1851 م.) ، أتاه وزير البحر أبو الثناء محمود كاهية ، وهو في بيت البحر [من حلق الوادي] ، وقال له : « ان قبطان الفرقاطة « الحسينية » أتى شاكيا من بحريتها بأنّهم قاموا وتجاسروا على ضبّاطهم [ونجا هو بنفسه هاربا] » ، فغضب لذلك وأمر باحضارهم ، فأتوه بثمانية أنفار من اهل جزيرة

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .
(2) الزيادة عن ع و ق .

قرقنة . ولما أحضرهم لديه اعترف بعضهم بأن ذلك كان على وجه اللعب وأنكر البعض ، فأمر بقتل الثمانية في اليوم وهو في بيت البحر . وقُتِلوا في الحين [هدفا بحب الرصاص] على شاطىء البحر . وبقي هذا القبطان متخوفا من البحرية زمنا . وهذا القبطان اسمه محمد من جالية تُرْك الجزائر بعد أخْذها ، وفي طبعه شدة لانه فاجأ الوزير بقوله ان بحرية الفرقاطة قامُوا (1) ، فبلّغ الوزير المقالة كما سمعها من غير تثبّت ولا تدبّر ، مع ما يَعلَم من شدة الباي في تربية العسكر ، [واستعجاله في ذلك] . وندم بعد ذلك [على استعجاله] ، لو ينفع الندم . [والعجول مخطىء وان ملك ، والمتأني مصيب وإن هلك](2).

⁂

وفي رجب من سنة 1268 ، ثمان وستين (افريل — ماي 1852 م.) ، قَدِم للباي أميرُ لواء من الدولة العلية العثمانية بنيشان افتخار ، فعظّم الباي مَقْدَمه ، واهتزّ لقبول النيشان، وجمع خاصّته ورجال دولته وأهل المجلس الشرعي يوم قبوله بالمحمدية ، وختم المجلس(3) بدعاء من شيخ الإسلام أبي عبد الله محمد بيرم نصّه : « سبحانك يا من لا تتوجه الاطماع الا إليه ، ولا تنتظم الامور في سلك الاستقامة الا بالاعتماد عليه ، نسألك ان توجه من خزائن فضلك صلاة وسلاما الى رسولك محمد الذي ألبسته من الكرامة تاجا ، وأدرت على متّبعيه العامة سراجا وهّاجا ، ونسألك الرضى عن زواهر نجوم أصحابه ، ومن تعلّق بعَلِيّ جنابه ، من آله الكرام واوليائه وأحبابه . اللهم أيّد دينَه القويم ببقاء خليفته خاقان الخواقين ، ومَن جعلتَ بيده مقاليد سياسة الدنيا والدين ، وأعطيته من التشريف بخدمة حرمك رايةً تلقاها باليمين ، مولانا السلطان أمير المؤمنين . اللهم اجعل مساعيه فيما يُرضيك ناجحة ، وجواريَ عزماته في بحار الاسعاد سابحة ، وانصر جيوشه على من ناوأه حيث توجّهت غادية أو رائحة ، وامدد اللهم مَلِكَنا أسَدَ هذه البُقْعة ، وشاه هاته الرقعة ، بمدد نصرك واسعادك ، وأعنه على القيام بمصالح عبادك وبلادك ، واجعل طائرَ صيته على فنن العلياء صادحا ، وبَدْرَ همته في أفق المعالي لائحا ، وعُمَّ جميعَ أقطار المسلمين بالعافية ، وأمطِر عليهم سحائب نعمك الكافية ، وفَيِّئْهم ظلال كرمك

(1) قاموا : ثاروا .
(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق
(3) في ع و ق : « وختم الموكب »

الضافية ، واجمع كلمتهم على إعلاء الدين ، ولا تُرِنا فيهم سيفين مختلفين (1) يا ربّ العالمين . ونضرع إليك ان لا تجعل نفوسنا الى ما لا يرضيك جانحة ، وتقبل دعاءنا بحرمة أسرار الفاتحة » .

وبعد ذلك رجع الرسول الى منزله ، وحصل له غاية الاكرام والتعظيم ، وسافر .

**

وفي السابع والعشرين من شعبان السنة 1268 (الاربعاء 16 جوان 1852 م.) ، سافر محمود بن عيّاد لفرانسا في فابور الباي ، واطلقت لسفره المدافع ، واصحبه الباي مكاتيب الوصاية به ، [وأوامر في تسريح زيت من المملكة] . وأظهر أن سفره لتبديل الهواء ، ومداواة مرض به ، وترك ابنه ابا الربيع سليمان قائما مقامه [في خططه] (2) . وكان من أمره ما يأتي بيانه .

**

وفي يوم الاربعاء الثالث عشر من شوال (3) السنة 1268 (السبت 31 جويلية 1852م) ، قبل الزوال ، أصيب هذا الباي بفالج في شِقّه ، وكنا بين يديه ، فحملناه إلى بيت منامه . وكان معه الحكيم « كوادريني » الروماني ، فأمر بحكٍّ بدنه بالخَرْدَل وخِرَق الصُّوف ، وبعث وزيرُه مصطفى خزنه دار إلى طبيبيه الحكيمين المشهورين ابراهيم لمبروزو وكستل نوفو ، فحضرا من حلق الوادي ، وفصداه لما حان وقت الفصد ، وقاما بعلاجه قياما يشهد به كل واحد من خاصته ، حتى انهما لا ينامان إلا بالتناوب . وبعد أيام أشارا عليه بالنُّقْلة من المحل الذي مرض به ، فانتقل من محل النَّحْس الى حلق الوادي . ولم يزالا في علاجه ، وتعديل مزاجه ، إلى أن وقف وصار يبدّل الخُطى ، متوكئا على رجل ثالثة هي أبو عبد الله محمد المرابط أمير لواء ، ويكرُّ رجله المصابة . واهتزت البلاد سرورا بوقوفه .

وفي عيد الاضحى شهد أضْحيتَه [بحلق الوادي] ، وأمر باطلاق المدافع لتضحّي الناس.

(1) في ع و ق : « متخالفين » .

(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(3) الثالث عشر من شوال هو السبت حسب التقويم

وأتاه أهل المجلس الشرعي وإمام الجامع الاعظم [ومعه بعض الايمة] ولاقوه بمحل سكناه من حلق الوادي ، وقام لدخولهم متوكئا . و[من الغد] أتته جموع الحاضرة فوقفوا أمام الصرايا ، ونزل اليهم لابسا جُبَّة صُوفٍ خلقة وبلغة [في رجليه] كان يلبسهما الولي المجذوب السيد عمر عبادة بالقيروان ، [للتبرك بلباسه] ، وللباي اعتقاد فيه . ودار عليهم متوكئا يكُرُّ (1) رجله المصابة وهو يقول : « مرحبا بأهل بلادي ، وهذا حالي كما ترون ، والرجاء في الله أن أعيش لخدمتكم » ، فذرفت دموع [بعض] (2) القوم ، ودعوا له ، وقرؤوا الفاتحة ، ورجعوا محزونين .

ولما استقر بحلق الوادي ، حرّكه جاذبه الى المحمدية ، فنهاه الاطبّاء عن ذلك ، فأمر ببناء قصر على ربوة قريب منها ، وسماه الصالحية نسبة الى وليٍّ قبره بالمحمدية اسمه سيدي صالح . [وجعل به بستانا جلب أشجاره من البساتين وجلب لسقيها الماءَ على الإبل من الآبار القريبة اذ لم يكن على ماء] . وصرف عليه ما ينشىء بلادا ينتفع بها (3) . وتمّ في أقرب وقت على أعجب ما يرى ، [كما خرب في أقرب وقت] وسكنه أياما قليلة . ثم أمر ببناء قصر بحلق الوادي ، في موضع برج الخريطة قرب باب رادس ، وبنى مسجدا بقربه اذ لم يكن بحلق الوادي مسجد . [وتمّ هذا القصر على احسن حال ، وهو الآن محلُّ سكنى ملك العصر] (4) ، وصرف عليه أموالاً لها بال ، حتى قال بعض الناس : « إن الباي أراد ان يبقي المملكة لمن بعدَه فارغة من المال والعمران » . لكن من ينظر بعين الإنصاف يقول : « هو وإن تركها فارغة من المال وأسبابه ، إلا ان الله حماها من تركها مثقلة بهمِّ الدّين ومذلته » .

وتمّ هذا القصر ايضا في أسرع وقت ، وسكنه أياما . وبقي مدة مرضه يتردد بين قصر الصالحية بالمحمدية ، ودار وزيره أبي النخبة مصطفى صاحب الطابع بحمام الانف ، وقصره الجديد بحلق الوادي .

---

(1) يكر : يجر (عامية تونسية) . (2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .
(3) في ع و ق : « وصرف على ذلك من الاموال ما يصلح سائر الخراب بالحاضرة » .
(4) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

وفي مدة مرضه أتاه رسول من السلطنة العلية ، أميرُ لواء ، في فابور مخصوص لعيادته. وقبله بحلق الوادي ، وسُرَّ بقدومه ، وعظم عنده موقع هذه العناية . ولما سافر أصحبه مكتوبا بالشكر والثناء ، على هذا الاعتناء .

وأتاه ايضا رسول مخصوص من سلطان الفرنسيس بقصد العيادة ، فعظّم مَقْدَمَه وشكر سلطانه .

*

وفي منتصف ليلة الثلاثاء التاسع والعشرين من ذي القعدة 1268 (الاثنين 13 سبتمبر 1852 م.) ، سَرَتِ النار على حين غفلة إلى ان وصلت خزنة البارود بالبرج الكبير المعروف ببرج زوارة (1) بالجبل الاخضر قرب الحاضرة ، فطارت الخزنة وانهدم [جانب من] البرج . وكان ذلك اثر مرض الباي ، فارتاع وهو بحلق الوادي [واهتزت الحاضرة] (2) ، وتشاءم .

*

وفي يوم المولد النبوي من سنة 1269 ، تسع وستين (الجمعة 24 ديسمبر 1852 م.) ، أمرني بقراءة تأليف المولد الشريف بين يديه ، لعجزه عن السعي الى الجامع ، فقرأته بمحضر رجال دولته بحلق الوادي . ومن الاتفاق ان صادف وقتَ الوقوف عند ذكر الابيات ، وقوفَ الجماعة بالجامع الاعظم ، أنبأ بذلك صوت المدفع من القصبة . وهكذا في كل مولد ، مدة مرضه ، إلى أن سار لشفاعة صاحب المولد .

*

وفي يوم الاحد التاسع عشر (3) من الشهر (2 جانفي 1853 م.) ، أمر بجذب الجفن الجديد ، الذي أمر بانشائه في حلق الوادي ، وعام في البحر سريعا . وكان ذلك في يوم مشهود حضره الباي ، على مرضه ، ومعه رجال دولته . وسُرَّ بسرعة جذبه ، وسمّاه في ذلك الوقت « شفاء أحمد » .

(1) في ع و ق : « برج زواوة » . (2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق
(3) هو 21 حسب التقويم

وكان ابتداء العمل فيه يومَ الاحد التاسع عشر (1) من ربيع الانور سنة سبع وخمسين ومائتين وألف (9 ماي 1841 م.) . وإن لم يحصل الانتفاع به ، مع ما صرف عليه من الاموال الذريعة ، لانه رسم لصانعه مقدار طوله ، فقال له الصانع ، برتميل الفرنسيس : « ان هذا الطول لا يخرج من الجابية الى البوغاز ، وان ماء البوغاز لا يرفع مثله » ، فقال له : « نوسّع البوغاز ونغرّقه (2) » . وكان ذلك معنى المثل المشهور في العامّة وهو إحضار الحصيرة قبل بناء الجامع .

وكان الوافدون من أهل أروبا اذا رأوا هذا الشقف ، وبوغاز حلق الوادي ، يعجبون ويضحكون . وهو الآن في الجابية كالجزيرة من خشب .

وصدر الامر من المتولي بعده بتكسيره والانتفاع بخشبه ، لانه بلي من الماء الراكد .

*

وفي يوم الاحد الثامن والعشرين (3) من ربيع الثاني من السنة 1269 (6 فيفري 1853 م.) ، وجه الباي من اعيان رجال دولته امير اللواء أبا محمد رشيد [امير عسكر الساحل] (4) الى سلطان الفرنسيس في غرض سياسي ، وأشرك معه في الرسالة محمود بن عيّاد ، وهو يومئذ بباريس . ورجع الرسول في شعبان (ماي — جوان 1853 م.) ، وبقي ابن عياد بباريس .

*

وفي السنة (1852/53 م.) بلغ نعي والدة السلطان عبد المجيد خان ، فعيّن الباي فابورا بعث فيه ابا عبد الله محمد علي آغة في غرض التعزية ، فبلّغ مكتوب التعزية ورجع .

وفي هذا المكتوب أمرني بتبديل الاسلوب في الخطاب للحضرة السلطانية ، بمحضر وزيره أبي النخبة مصطفى خزنه دار ، وقال لي : « أيها الشيخ أنت لساني الذي أتكلم

(1) هو 17 حسب التقويم
(2) التغريق : التعميق (عامية تونسية)
(3) هو 26 حسب التقويم
(4) الزيادة عن ع و ق .

به خارج الحاضرة ، وإن تخوفنا ونُفرتنا من الدولة العثمانية أراه يجرُّ بنا الى العدم ، ومعاذ الله أن اكون سببا في إخراج هذا الصقع الاسلامي من يد المسلمين ، وخروج روحي أهون علي من ذلك . وهب ان الدولة انتزعت من يدي هذا الملك ، ألست بمسلم ؟ » ، الى غير ذلك في هذا المعنى . ثم استرجع وفاضت دموعه ، سامحه الله ورحمه .

⁂

وفي شعبان من السنة 1269 ، توقفت دار المال في صرف الرسوم المالية ، لعدم وجود المال الناضّ بها ، الموكَّل لامانة محمود بن عيّاد بمقتضى خطه . وبيان السبب في ذلك يستدعي مقدّمة ، هي ان هذا الباي مطلق التصرف بمشيئته ، وفي طبعه شغف بكثرة عدد العسكر النظامي ، لسياسة انفرد بها ، [لا سيما بعد التنظيمات الخيرية ، لانه ظن ان الدولة العثمانية تَغصبه على ذلك ولو بحرب ، لانه من باب تغيير المنكر بالفعل ، وهو من الواجب على القادر ، في شرع الإسلام ، بل ربما كان أفضلَ من الجهاد ، لان دَرْءَ المفاسد مقدّم على جلب المصالح ، فثمرة الجهاد تكثير سواد المسلمين ، وثمرة التنظيمات إصلاح ما فسد من أمرهم المؤدّي الى ضعفهم واضمحلالهم . وللرجل مشاركة، وفكر يعلم به ذلك] ، فجمع من العسكر عددا مستكثرا لا تحتمله قوى البلاد الطبيعية ، فكثر المصرف على العسكر ولوازمه ، وقلّ دخل المملكة بنقص عملهم منها . وقد كانوا يعمرون الارض بشيء من الزراعة والصناعة ، كل على حسب قبوله واستعداده ، فصاروا حلفاء السلاح ، والتأهب لما تَذْرُوه الرياح ، من تخيل الاستعداد للكفاح ، [وهو على يقين لا يقدر على الدفاع ساعةً اذا غصبته الدولة على هذا الوجه في الدين ، وهو التنظيمات . لكن نفس الحريص لا تتصور الخيبة] (1) .

ولما ضاق حال المملكة ، أنِفَ من تسريح الزائد على القدر المحتاج اليه ضرورةً .

وذلك هو السبب في مظالم الجلد والدخان والمحصولات ، وامتداد أيدي اللّزامة والعُمّال امتدادا لم يعهد مثله في قطر من الاقطار ، وهو السبب في نقص عمران البلاد ، حتى ان الباي اذا جلس في المحكمة كاد أن لا يسمع الا شكايات المتظلمين من

(1) ما بين القوسين في الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

اللزامة [والعُمّال] . (1) ولا جواب للمتظلم الا قوله : « اخلصْ مع اللزام » ، من غير سؤال ولا استكشاف .

ولما علم ابن عياد الحال ، وكان من رجال الدولة [المقربين زلفى] (2) ، التزم سرا من الباي قبول القمح والشعير بالرابطة ، على ان يدفع عددا معيّنا من المال في كل سنة ، ويدفع العشرة باثني عشر من الحبوب ، وما زاد على ذلك من التطفيف في القبض والصرف (3) يكون له . وسمّي وكيلاً لان الوكيل في الغالب أمين يدفع ما قبض ، فيقع الاحجام عن مشاحّته لانها باعتبار الظاهر مشاحّة للدولة .

وصار بمقتضى هذا الامر السرّي المكتتب بخطه فيما أظن ، يقبل العشرة بنحو العشرين ، ويدفع العشرة بنحو الستّة . وحسبه دفع مال اللزمة السرية ، ولا نسبة بينه وبين ما يربحه .

[وغير التونسي ربما يستبعد هذا الخبر أو يُحيله ، ومعيار الكيل واحد وتداخل الاجرام مستحيل . أما التونسي الذي يرى ذلك عيّانا ، ربّما يقول ان العشرة يقبلها بأكثر من عشرين ، وذلك ان الحبوب تكون موضوعة على الارض متراكمة ، فيأتيها الكيّال ويملأ الوَيْبة ، ثم يديرها على الحبوب فتلصق كل حبة بأختها ، ثم يجعل عليها الشاشية وهو ما تَرَاكَم من الحبوب خارج الكيلة ، ثم الحملة والذراع وهو ما يحمله صاحب الويبة وما يكون بين صدره والويبة . ثم يأتي القفّاف بقُفّة تحمل ويبتين ويَغرف بها من الحبوب المتراكمة ما يستطيع ، ويقبل بها المكيل بحملته وذراعه فتمتلىء القُفّة .

ولما بلغ خبر ذلك للباي استبعده ، وأتى بنصف قفيز من القمح وأمر بكيله على هذه الكيفية بمحضره في بيت البحر بحلق الوادي . ولما كال ويبة استحيا ودخل البيت ، وأمر الامير ابا محمد خير الدين ان يحضر لكيل الباقي ، فكان النصف ربعا . وقال الكيّال لخير الدين : « لو كانت العُرْمةُ كثيرة القمح والقفّافةُ مَهَرَةً ، يصير النصف بأقل من الربع » .

---

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) في ع و ق : « من القبض والدفع » .

ثم ان الفلاحة من المسلمين يرون أنهم تُجّار الله في أرضه ، والعشر زكاة وهي أخت الصلاة حق لله تعالى ، ربما تسمح نفوسهم بما يمكن احتماله ، ويرون البركة تخلفه ، الى غير ذلك من مكارم أخلاق المسلمين . فترى المسلم ينظر الايدي جائلة في ماله بالتبديد ، وقلبه يتقطع ، لان الشُّحَّ بالمال جبلّة . ولذلك تجد اكثرهم يدفع عشره بالحَزْر ، فيأتي بالقفيز ويقبله الوكيل بنصف ، ليستريح . فاذا لم يرض بالنصف وطلب الكيل ، يكون أقلّ من النصف . لان ما يبقى على الارض ، ويسمّى القاعة ، للوكيل والكيّال] (1) .

وازداد بذلك نقصان الفلاحة حتى كادت ان تنقطع ، وبقيت الهناشر مرعى السوائم ومبيت الوحوش ، وتفاقم الامر ، وعيل الصبر ، وضعفت الطاقة ، وظهرت الفاقة . وصارت أزِمّة الاعشار تأتي من البلدان ، واكثر الهناشر مكتوب اسمه مقرونا بلفظ « ابيض » ، كناية عن عدم البذر .

وكنت أقرأ على الباي مجموع كل زمام ليجعل عليه ختمه ، حتى قال لي الامير ابو محمد خير الدين : « ما معنى ابيض ؟ » ، وهو يعلمه ويعلم سببه ، فقلت له : « معناه لا بذر فيه » ، فقال لي : « لِمَ لم تجمعه حتى يعلم سيّدُنا مقدار ما نقص من عمران بلاده ؟ » ، فقلت له : « أشرتُ إلى ذلك ولم يُستَحْسَن منّي » . وتذكر الناس بهذا الحال حديثَ خُرافة ، وهو ان الفلاح في آخر الزمان يمرّ بالمحراث فيضربه برجله ويقول له : « يا سبب فقري » .

والتزم [ابن عيّاد] (2) مع ذلك القيامَ بما يلزم العسكر من الكسوة وجميع ما تشتريه الدولة ، على مال معيّن يدفعه ، فدبّر في إحداث الرسوم المالية بما يروج في السمع ، لضيق الحال . ووقع بها شيء من التسهيل وادارة المتاجر .

وما زال مصروف العسكر ينمو باعتباره في نفسه واعتبار ما يربحه ابن عيّاد في بيعه للدولة ، [وازِمّة حسابه تشهد بذلك ، فانه لا يرضى في الربح بمثل رأس المال] ، مع ما في طبع هذا الباي من الكرم الحاتمي ، [« والجودُ يُفقِر والإقدام قتّال »] خصوصا

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

مع خاصته وكبراء العسكر الذين استكثر منهم كثرة فادحة ، فوق ما يلزم عدد العسكر [والزيادة في الحدّ نقصان من المحدود] (1) .

وتخوّف ابن عياد من هذا الحال ، لسوء سبيله ، واذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه ، فأودع لشيخ الدولة ومقدّم الوزراء ابي النخبة مصطفى صاحب الطابع بأن الدخل قلّ والخرج كثر ، ويلزمنا في كل عام شراءُ جانب وافر من القمح والشعير من خارج المملكة ، بأوامر في سراح زيت تدفع لمن يريد إخراجه ، بأقلّ من المال المعين بها ، لانه يدفعه عاجلاً ، وينتظر حضور الزيت للوسق ، فتكلم الوزير مع الوزير المقرّب أبي النخبة مصطفى خزنه دار ، وحذّره عاقبة الامر ، وربّما يعدُ ذلك غفلة وإهمالاً ، فقال له : « أنت اولى بالكلام مني ، لمكانتك المكينة وسنّك ، فيغتفر لك ما لا يغتفر لغيرك » ، فتكلم الوزير صاحب الطابع مع الباي ، فلم يُصغْ لكلامه ، فأعاد الكلام للوزير مصطفى خزنه دار ، وأشار عليه بالتوقف والتصريح بالعجز ، فقال له : « أما هذا فلا يقع مني ، وحسبي أن أفعل ما يأمرني به سيدي ، وتوقفي لا يرفع الضرر ، بل أجلب به ضررا لنفسي » . وله العذر ، اذ لا قانون يومئذ الا الشهوة الملكية .

ثم تكلم الوزير مصطفى صاحب الطابع مع ابن عياد وقال له : « كاتب الوزير واطلبْ منه عرض مكتوبك على الباي » ، فكتب له : « بعدم وجود القمح والشعير ، وأوامر السراح لم نجد لها مشتريا في غالب الظن » .

ولما عرض الوزير هذا المكتوب على الباي ، جمع وزراءه في بيت سكناه بالمحمدية ، وناولني المكتوب فقرأته عليهم ، فأطرقوا واجمين ، ينطق لسان حالهم بالانكار ، ففتحت باب الكلام بتهويل أمر المصروف ، « والواجب فيه الآن الاقتصار على الامر الضروري » ، فقال لي بغضب : « كأنك تريد تسريح العسكر ؟ اكتب لي خطك اذا وقع ضرر من تسريح العسكر فأنت المطالَب به » . ثم قال : « والله لا أسرح العسكر أو يقطعَ رأسي » ، وأشار بيده الى رقبته [من شدة الغضب] . ولما ثاب له حلمه ، [وعلم الجماعةُ ان الغضب على مجموعهم] (2) ، قال له وزير الحرب ابو النخبة مصطفى باش آغة : « يا سيدي ، إن الدنيا الآن مؤسسة على الحقوق باتفاق الدول ، وهذا العسكر إن

(1) الزيادة فى الفقرة عن ع و ق .
(2) الزيادة فى الفقرة عن ع و ق .

أعددناه لزيادة في المملكة أو دفع الاجنبي عنها فالمحقق ان ذلك لا يقع (1) ، وان اعددناه لدفع الضرر داخل المملكة فالظاهر انه اكثر من الحاجة ، وان سرحنا البعض فلا مانع من جلبه وقت الحاجة » .

وقال له الوزير الكنت جوزاب راف : « ان الدول بأروبا لا يُبقُون تحت السلاح الا القدر المحتاج اليه ، ويسرحون الزائد ، اعتبارا للمصروف وراحة المتسرحين ، مع غناهم الذريع » .

وقال له وزير البحر ابو الثناء محمود بن محمد كاهية : « ان كثرة العسكر تؤدي الى عدم القيام بواجبهم كما ينبغي ، والعامة تقول في امثالها : قَلِّل ودَلِّل » ، فأعرض عنهم وقال : « تكلموا في تدبير يقلّ به المصرف ، غير حال العسكر » ، فقال له الوزير صاحب الطابع : « ان معظم المصروف على العسكر وتوابعه ولواحقه » . ولم يقل لهم تكلموا في زيادة دخل ، لانه على يقين بأن ذلك غير ممكن ، باعتبار حالة البلاد من ضعف موادّ الكسب [الطبيعية بها من الزراعة والصناعة والتجارة] (2) ، اذ لايخفى ذلك على ثاقب فكره . وانفضّ الجمع على غير طائل .

ومن الغد خرج الينا ونحن ننتظره على العادة ، فلم يجد غيري وغير وزير الحرب أبي النخبة مصطفى ، فقال لي : « هل رجعت عن رأيك ايها الشيخ ؟ » ، فقلت له : « حيث لم يستحسنه سيّدُنا فهو معدوم » ، فضحك وقال : « صرِّحْ بلفظ الرجوع » . ثم قال لوزير الحرب : « عجبا لك ، كيف ترى تنقيص العسكر وأنت رأسهم » ، فقال له : « يا سيدي ، انما استشرتنا من حيث المصلحة العامة ، والواجب النصح لك ولعامة المسلمين . ان هذه المملكة ورثتها من آبائك وأجدادك ولم تأخذها بحرب ، فهي بمنزلة دار حبس يسكنها المستحقون على التداول ، فاذا انقضت دولة أحد المستحقّين فلا أقلّ من ان يترك الدار كما أخذها من غير نقص شيء منها ، والاَوْلىَ أن يتركها أحسن مما أخذها لتلحقه الرحمة وهو في قبره . اما اذا تركها بحال نقص ، يلحقه ضد ذلك . وقد أخذتَ هذه المملكة ، وعمرانُها أكثر منه الآن ، [وقد أخذت في طريق العدم] (3) » ، بعبارات أشد من هذه ، فتغافل وتجلّد ، وكانت عادته الإعضاء عن وزيره هذا ، لِمَا يعلم من صلابته في الحق وخلوصه .

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « فهو من طلب ما لاطمع فيه »
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) الزيادة عن ع و ق .

ولمّا أيس ابن عيّاد من تبديل الحال ، تيقّن انه ساقط في المهواة التي أردى فيها غيرَه ، كدار الجلّولي ودار سليمان بن الحاج وغيرهما ، مع امتلاء صاعه ، فدبّر في نجاة نفسه وماله ، وطلب من الباي ان يحاسبه على [لزمة] (1) كساوي العسكر ، فانتجت المحاسبة ان له قبل الدولة خمسة ملايين ريالات تونس صغرى ، أخذ فيها تذكرة من الباي محصّلها ان « المامور بدار الجلد يدفع لحامل هذه التذكرة العددَ المذكور » .

ولمّا أتيت بالمكاتيب الى الباي ليمضيها بختمه ، قلت له : « ان هذه التذكرة كرسم مالي ، تُدفَع مثل المال الناضّ ، ولم يتقدم نظيرُها » ، فأمرني باعادتها على العادة ، فأعدتُها بالإذن للمأمور بدار الجلد بدفع العدد المذكور لمحمود بن عيّاد ، شاط له في حسابه . ولما ختمها وجّهتُها لابن عيّاد ، فأتى بها من الغد وقال للباي : « ان هذا المال الذي شاط لي لم يكن من مالي ، وانما هي ديون علي ، بعضها لم يحلّ أجله وبعضها حلّ ، فاذا لم تكتب لي تذكرة يقبض حاملها ما بها حتى يتيسر لي رَهْنُها في مبلغ أدفعه لمن حلّ أجل ماله ، تقف الغرماء ونفلس لا محالة » .

ولهذا الباي أمان في من يحبّه ، خصوصا ابن عياد ، لما يرى أنه صنيعته . فقد انتشله من مخالب الوزير شاكير صاحب الطابع كما تقدم [في الباب الخامس] ، وأخذ له مالاً عظيما من الدولة لا يأخذه مثله بمقتضى تلك العادة ، وأعانه في خصامه مع أبيه ، وقدّمه على أنظاره [وقرّبه نجيا] ، حتى انه كان يبيت عنده في بالاصه بقمّرت ليلة في السنة ، منقوشا ذكرها على حجر بباب البالاص ، الى غير ذلك من انواع الاحسان المسترقّ لحرّ الانسان . وبمقتضى ذلك صدّقه في مقاله من غير إعمال فكر، وأمره ان يأتي الكُتّابَ ويدفع لهم التذكرة ، ويبلّغ لهم الإذن باعادتها على الوجه الاول ، ففعلوا (2) .

ولما أتت المكاتيب للامضاء وجدت التذكرة المطبوعة وأخرى معها على الوجه الذي طلبه ابن عيّاد ، فقلت للباي : « هذه تذكرة أمس ، وهذه اخرى على الوجه الذي لم تُمضِه » ، فأمرني بعنف (3) أن أمزّق المطبوعة ونعطي الاخرى للامضاء بالختم .

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .
(3) كذا في خ ، وفي ع و ق : « فامرني بغضب » .

وسكت قليلا ثم قال لي : « تجب إعانة هؤلاء الناس والا تتعطل خدمتهم ، فان توقفهم يوجب توقف الدولة » .

وشرع ابن عيّاد في جمع كسبه ، وظهر ذلك في الخارج (1) ، فأتى الوزيرَ مصطفى خزنه دار بعضُ نصحائه وقال له : « ان ابن عياد محسوب عليك ، وهو من الناس الذين تعمّهم (2) رئاستُك ، وقد بلغنا عنه ما يجب ان ننبّهك له ، وان كنا نعلم ان له وجهة خاصّة مع سيّدنا ، لكن عادة الملوك ينسبون غلطهم للوزراء » ، فقال لهم : « وما يدريكم أني [ما] نبّهت سيدنا ، وهذا ما يجب علي » ، فقالوا له : « ربّما لا يتذكر ذلك التنبيه » ،فقال لهم : « تريدون أنه ينكر ذلك ، ان أنكرني فأنا راضٍ بجميع ما يقع لي » .

ومما قوّى عزم ابن عيّاد على النجاة ، انه دفع مؤنة العسكر بالمحمدية من قمح مصر ، إظهارا لانه اشترى ذلك ، وهو منحطٌّ عن قمح هذه المملكة . واشتكى كبراء العسكر من ذلك ، فقال لهم : « ان المملكة ليس بها قمح كثير ، وشرائي منها يغلي السعر » ، فرُفع ذلك الى الباي ، فأمر أميرَ لواء العسكر أبا عبد الله محمد المرابط ان يقول لابن عيّاد في صحن القصر بالمحمدية بمحضر اكابر العسكر : « ان سيدنا قال لك : عسكر المحمدية لا يأكل الا قمح تونس ، فدبّرْ لهم في ذلك والا ندفعك لهم يأكلونك » ، فقال : « اعمل جهدي ، [ورأى بوارق ما خاف منه] ، وخرج ، وعند ركوبه سبَّ نفسه إن بقي في هذه المملكة (3) . وبعد ذلك بمدة تعلّل بأنه يريد السفر للتداوي من مرض حلّ به ، [وهو صادق في ذلك ، فان عدم الامن أعظم الامراض] ، وليبيعَ أوامر السراح ، وقد كان أذ نَه ببيعها على إسقاط مبلغ كثير من عدد دراهمها ، ومكتوب الإذن بخط ابن عياد [مصحّح من الباي] (4) ، فسرّحه الباي وأحضر له القابور ، إلاّ أنه لم يعيّن له يوم السفر ، فظن انه وقع الندم في تسريحه ، فكاتب الوزير « بأن مولانا سرحني للسفر ، وعلى ذلك جمعت احوالي ، وتوقّفه الآن يدلُّ على أني ممنوع » . وناولني الوزير المكتوب ، فقرأتُه على الباي ، فأحضره وآنسه وعيّن له يوم السفر ، فبعث

(1) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « وظهر ذلك للمشاهدة »
(2) فى ع و ق : « تشملهم رئاستك » .
(3) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « اعلن بسب نفسه ان بقى فى هذه البلاد » .
(4) الزيادة فى الفقرة عن ع و ق .

والده سرًّا مع أبي عبد الله محمد بوكراع الجربي ، وكان الباي يأنس بتجاهله وتغفّله ، بما محصّله : « ان محمودا ابني مسافر سفر هروب ، ولدارنا سلف قديم في الخدمة والصداقة ، ولا أرضى ان يشينها ما عزم عليه ابني . وآية صدقي انه وسق في الفابور صناديقه ، وفيها سائر دفاتره ، وحجج ديونه ، وأوامر ولايته ، وتذاكر مدافيعه ، وسائر ما تحت يده من الرسوم المالية ، واوامر سراح الزيت ، وغير ذلك مما يشهد بأنه غير راجع . فابعث الى الفابور من تثق به ، فان وجدت الحال كما ذكرتُه فلك النظر ، وإن وجدت الحال بخلافه فدونك والحكم فيّ بما تراه » ، فأعرض الباي عن ذلك ، على عادته في سدّ ابواب الوشايات عن خواصّه ، وقال : « ان محمد بن عيّاد صاحب غرض ولو مع أولاده ، فأراد ان يُعدِمني خديما ناصحا مثل محمود . ونتحقق أن ما ذكره لا وجود له ، وإذا وجدتُه كاذبا لا نرضى ان نعاقبه على كذب ظاهره نصيحة ، والرجل شابَ في خدمة أسلافنا ، فالحياء يمنعني من ذلك ، ويتغير قلب محمود حيث كان موضعا للشك » . وقال ذلك لمحمود قبيل سفره (1) .

ولما سافر يوم الاثنين السابع والعشرين (2) من شعبان سنة 1268 ، ثمان وستين (14 جوان 1852 م.) ، كما تقدم ، ترك ابنَه ونُوّابَه قائمين مقامه في خلاص ديونه ومباشرة أعماله ، وحضّهم على إرسال ما يستخلصونه من المال .

ولما سمع بمرض الباي اشتدّ حاله في طلب ديونه على كيفيات لا عهد بها في المملكة ، ونوّابه يبعثون له الاموال من داره مع كل فابور . وبعث يتقاضى تذكرة الخمسة آلاف ألف (3) من المأمور بدار الجلد ، ودفع له المأمور شيئا منها . والوزير خزنه دار يلاطفه الى ان كتب له مرة ، لما عيل صبره ، : « كان ظني انه لمّا يصلك الخبر بمرض سيدنا ان تترك كل شيء ، وتقدم لشدّ أزْرنا وإعانتنا على الخدمة في هذا المضيق، فاذا أنت أشدّ الناس مضايقة ، وليس هذا من الوفاء » ، الى غير ذلك .

ثم ظهر في صحيفة الاخبار بباريس ان محمود بن عياد حصلت له حماية الفرنسيس. ويقال ان من القانون الفرنساوي أن من ملك دارا بلوازمها في باريس ،وسكنها بنيّة الإقامة ،

---

(1) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « وقال لمحمود قبيل سفره : « ان والدك أسر الى بأنك غير قادم ، لانـك حملت معك سائر مـا تحتاجه من المكـاتيب ، ولم نصدق بذلك » .

(2) هـو 25 حسب التقـويم . (3) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « الخمسة ملايين » .

وطلب حماية الفرنسيس ، فلفرانسا ان تحميه إذا قبله سلطانها . ولا يخفى ان حمايته من يوم قبول السلطان له ، لا فيما مضى من أحواله . وصعب على الوزراء إخبار الباي بذلك ، لما يعلمون من محبته وشدة ميله لمحمود بن عياد ، وان سماع هذا الخبر يؤثّر في مزاجه العليل ، حتى انه لم يتجاسر أحد على إخباره بموت ابنه سليمان .

هذا ، ومحمود بن عياد لم يزل على حاله ، ساعيا في قطع اتّصاله ، فظهر له ان بعث من فرانسة رسوما مالية ، وأوامر في سراح زيت مع بعض نُوّابه ، وشرع نوابُه في صرف الرسوم بالنقد ، والذي دُفع لامانته من الرسوم أكثر من المال الناضّ .

ولما كثر ذلك بدار المال ، أتى النائبُ بها ، وهو القائد نسيم بيشي اليهودي ، إلى الوزير وأخبره الخبر ، فتلطف في إخبار الباي ، فحزن واسترجع ، وقال ما معناه : « مِن مَأمَنه يُؤتَى الحَذِر » . وقال للوزير : « [انا في فراش مرض] افعلْ ما تراه » ، فقال : « الذي اراه الآن غلق دار المال ، توقيفا للضرر ، ومكاتبة قناصل الدول حتى ننظر في النازلة » ، فكتب لهم بما نصّه : « اما بعد فاننا لما رتّبنا الرسوم المالية ، كما في علمكم ، وكّلنا على دار المال ابننا محمود بن عيّاد أمير لواء ، وأعطيناه رسوما مالية ، وأوامر في سراح زيت ، وأمرناه مهما يخرج رسما يجعل صرفه عينا بدار المال ، ومهما دفع أمر سراح يجعل سراحه بدار المال . ثم انه سافر وأقام ابنَه مقامَه ، ولما توفي أقام ابن أخيه مقامه . ولما تفقّدنا دار المال لم نجد بها صرف ما خرج من الرسوم ، ولا بقية الرسوم ، فوجب أن نُعلمكم لتنبّه على من هو لنظركم لا يقبلوا من نُوابه الرسومَ المالية ولا أمر سراح في زيت حتى ننفصل معه . اما هذه الرسوم المالية الدائره فان أربابها يأتون بها الينا فنجعل عليها علامة الإمضاء ، وذلك في مدة عشرة أيام من يوم التاريخ ، وتبقى دائرة في المتجر بين تجّاركم ورعايانا كما كانت قبل هذا ، ولا يأتوا بالرسوم الى دار المال لاجل الصرف حتى نعلمكم . وبعد هذا يرجع الحال كما كان ، من أراد ان يصرّف بدار المال فله ذلك ، على مقتضى الحكم المسطر في عين الرسم . وقد أذنّا الاعزّ الثقة العمدة الخلاصة ، نخبة الاركان ، وزير العمالة [امير الامراء] (1) ابننا مصطفى خزنه دار ، برسم علامة الإمضاء على الرسوم والاوامر . ودمتم في أمن الله . »

وكتب في 2 شعبان من سنة 1269 ، تسع وستين» (الاربعاء 11 جوان 1853 م.) .

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

وأتى الوزير لدار الباي بالقصبة ، وأمرني أن اصحبه [في مدة العشرة أيام] (1) ، ووضع علامته على الرسوم والاوامر ، وأتاه بعض نواب ابن عيّاد بأوامر ورسوم ، ففطن به الوزير وامتنع من إمضائها .

وجمع الباي وزراءه بالمحمدية ، على حال مرضه ، وتكلم معهم في النازلة ، فقال بعضهم ، وهو الوزير أبو النخبة مصطفى صاحب الطابع : « كأنّ خبر ابن عياد وما فعله لم يبلغ سيدنا إلا هذه الايام » ، فقال : « حذّرني مصطفى خزنه دار مرارا عديدة على كيفيات مختلفة ، وأنا أكره سماع ذلك منه ، ووقع في نفسي انها غيرة من قرب محمود ابن عياد إليّ ، فقلت له : لا تكلمني بعد هذا في شأنه ، فانـي أعلم بحقيقته منك ، وهو من المعتمدين عندي ، فكن في إعانته . ومعاذ الله أن أنسُب غلطتي إلى غيري ، ولو كنت في قيد مرض ، ونفسي تأبى ان أجمع عليها بين الغلط ولطخ الغير ، [الموت عندي أهون علي من ذلك] » (2) . ثم قال له الوزير صاحب الطابع : « ما خبر هذه التذكرة التي بها خمسة ملايين يدفعها المأمور بدار الجلد لحاملها ؟ » ، فقال له : « إن هذا ، وأشار إلي ، راجعني في شأنها ونقمت عليه المراجعة ، وحاصل الامر ان نازلة محمود بن عيّاد لا يتحمل ثقلها غيري » .

ولما انفضّ الجمع قال للوزير نصحاؤه : « أنت أعلم منّا بحال سيّدك ومربّيك ، وما كنّا نظن ان يصدر منه هذا » .

وانتقل الباي من المحمدية الى حلق الوادي ، ولم يزل الحال يشتد ، فقال صاحب الطابع للوزير خزنه دار : « أنت بمنزلة ابني ، والموت والحياة بيد الله ، وما كل واحد يفعل فعل سيدك هذا ، فالواجب ان تضع قدمك في الخدمة على أساس ، ولهذا اليوم ما بعده . وان سيّدك لم يزل مصرًّا على رأيه من عدم تسريح العسكر ، وتبديل حال المصروف ، فالرأي ان تحصي على التقريب ما في الرابطة من الحبوب ، وتخبر سيدك بحال دولته جهرا (3) » ، فقال له : « نعم » . ومن الغد قال له في بيت حلق الوادي المعروفة

---

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) في ع و ق : « علنا » .

ببيت الكاغظ التي يجلس فيها لعامّة الناس وخاصّتهم ، بمحضر الوزراء والاعيان : « يا سيدي إني توقفت في القمح والشعير والدراهم ، وابن عيّاد هرب ، ولا غنى لي عن رأيك ، فأشر عليّ » ، فقال له : « يا مصطفى ، لا أسمع منك شيئا ، وحسبي ان اقول لك : دبّر في القمح والشعير والدراهم بما تراه من الوجوه ، ولك الإذن في ذلك ، ولا نسرّح أحدا من العسكر » ، وقام من موضعه متغيرا منزعجا ، ثم قال للوزير وهو يماشيه : « أتسلمني وأنا بهذه الحالة ؟ » ، فبكى الوزير وقال له : « افعل رضاك ولو أدّى الى موتي ».

وأقام في ولايات ابن عيّاد من سار على سيره فيها ، وصار يبيع في الزيت والحبوب لآجال ثم يدفعها بعد تحصيلها [او يدفع ثمنها دراهم] (1) ، الى غير ذلك مما يضيق هذا المختصر عن تفصيله .

واقتحم في ذلك الاوجال ، وجلّى في هذا المجال ، وأبلى في هذه الشدّة البلاء الحسن ، وأدّى حقوق سيده على أكمل نسق وقدمها على مصلحة الوطن (2) . واستعان في ذلك بالقايد نسيم كبير اليهود ، ورأى منه [في الخدمة والنصح] (3) أكثر من عادته ، والباي حليف أسف ، وطريح فراش .

وفي هذا المضيق أهدى أميرُ اللواء ابو عبد الله محمد خزنه دار عاملُ الساحل (4) للباي ألف قفيز شعيرا موصلة للرابطة ، فشكره ودعا له .

وفي هذه المدة بعث محمود بن عياد يطلب اهله وابنه الصبي [احمد] (5) على يد قنصل الفرنسيس ، فمنعهم الباي من السفر ، فقال له القنصل : « ان مطلبك في محمود ، وابنُه صبي ، وزوجتُه لا قيّم عليها ، فلا وجه لمنعهما عن حاميهما الطبيعي » ، فأصرّ على الامتناع حتى سافروا هاربين ، وأعانهم القنصل . وندم على إصراره ومخالفة نصحائه ، لانهم أشاروا عليه بتسريحهم لتقوى الحجة عليه فيما يدّعيه من الشدّة وتوقُّع المخاوف (6) .

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : « وقدم حقوق سيده ومصلحة نفسه على مصلحة الوطن » .
(3) الزيادة عن ع و ق .
(4) في ع و ق : « عامل سوسة »
(5) الزيادة عن ع و ق .
(6) كذا في خ ، وفي ع و ق : « وتوقع المكروه وعدم الامان » .

ثم جمع رجال دولته واستشارهم فيما يكون عليه العمل في شأن ابن عيّاد ، وما تحت يده من الاوامر في سراح الزيت والرسوم المالية ، فاتفقوا ان الباي يكاتب السلطنة الفرنساوية في ذلك وينتظر من عدلها الإنصاف ، فكاتب السلطنة ، وبعث بالمكتوب وزيرَه جوزاب راف . وغاية ما حصل ان الرجل الآن له الحماية الفرنساوية ، ولكم أن تطلبوا منه ما لكم عنده من الحقوق .

ولما علم ان النازلة آلت الى جدل وخصام ، وعرض الحجج على معيار الافهام ، واعتذر الوزير جوزاب راف عن مباشرة ذلك ، أتى الامرَ من بابه ، واستعان على الصعب بأربابه ، وأعطى القوسَ باريها ، والفرسَ مُجريها ، فكاتب أمير لواء الخيّالة أبا محمد خير الدين ، وهو اذ ذاك بباريس ، وأذِنه بمباشرة النازلة ، وقبلته الدولة الفرنساوية احسن قبول . وانعقد لذلك مجلس بوزارة الامور الخارجية ، وتأملوا في حجج الطرفين . ودامت النازلة نحو ثلاث سنين (1) ، آل الامر فيها الى ما لخّصه خير الدين في كتاب طبعه باللغة الفرنساوية واللغة العربية ، من أهمّ فصوله أن ما في يد ابن عيّاد من أوامر الزيت والرسوم المالية لا عمل عليها ، ودعواه رهنَ الاوامر لم تثبت ، وان ما أخذه من المال الناض في دار المال يردُّه ، وانه يتمّم حسابه فيما له وعليه بتونس (2) التي هي منبت النازلة ، إلى غير ذلك مما هو مسطّر في ذلك الكتاب ، وهي من عظائم خدمة خير الدين في هذه المملكة . ولو تمّ مراد ابن عيّاد ، ووجد من خير الدين أذْناً صاغية لمواعيده ، كانت المملكة في أسره لوقتنا هذا (3) ، لكثرة ما بيده من الاوامر والرسوم .

والحق انه لا يعاب ابن عيّاد بنفس الهروب ، لان الخائف على نفسه وماله ، بمقتضى العقل والشرع له ان يتحصن بما يراه مانعا ، [والاّ كان ملقيا بنفسه الى التهلكة] (4) ، والدولة يومئذ لا وازع فيها من شهوات الملوك ، والعيب كلُّ العيب في حال الهروب ، لانه لوّثه بما ارتكبه وبما ناضل عليه ، لولا تدارك لطف الله على يد خير الدين .

وسمعتُ من الباي انه قال : « والله لو ان ابن عياد ردّ اليّ ما أمّنتُه عليه من الاوامر والرسوم المالية ، وطلب الاستعفاء من الخدمة وسكنىَ أيّ مملكة شاء ، كنت أكتب

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « اكثر من عامين » .
(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : « على عادة تونس » .
(3) كذا في خ ، وفي ع و ق : « في اسره الى ما شاء الله » .
(4) الزيادة عن ع و ق .

له مكتوبا في براءة عرضه يطبعه في صحف الاخبار ، إذ لا ولاية لي على استرقاق قلوب الرجال الا بالإحسان ، وكنت أحاسبه كما يشاء حتى يظهر في الوجود فعلي وفعله . لكن المقدّر كائن لا محالة » .

وليت شعري هل يروج هذا في فكر خائف من ملوك الإطلاق ؟

وانما أطنبنا في هذه المقدمة ، ليرى الناظر أسباب النقص الذي وقع في هذه المملكة الضعيفة كيف تسرّى اليها (1) . ومن سعادة جَدِّك ، وقوفك عند حدّك . واذا أدبر الامر كان العطب في الحيلة . واكثر مصارع الرجال تحت بروق الاطماع .

وكان السبب في سفر خير الدين لفرانسا ان الباي لما تحقق عنده الحرب بين الدولة العلية ودولة الموسكو ، رام أن يفعل أكثر من عادات أسلافه مع عسر الوقت .

والعادة ان الدولة التونسية تبعث شقوفا حربية لإعانة الدولة العلية اذا كان لها حرب . ولم يكن له من اليُسر ما يوفي بهمّته ، فبعث خيرَ الدين لاقتراض مال من بعض ديار المتجر بفرانسا . وكتب له تفويضا بيده ، ولم يُعارض في ذلك أحد من خاصته (2) .

وبعد سفر خير الدين جمع رجال دولته ، وهو في فراش مرضه ، وقال لهم : « ان الدولة العلية لها حقوق علينا باعتبار العادة ، منها أن نوجه مراكبنا لإعانة أسطولها اذا وقع لها حرب . ووقع لنا تعطيل عن إرسال شقوفنا ، سببه قنصل الفرنسيس بكلار (3) ، كما تعلمون . ولنا بفضلها حقوق باعتبار عاداتنا ، والمسارعة لحقوقها الثابتة تقوية لحقوقنا المبنية على محض الفضل . ورأيت ان لا نقتصر على العادة السابقة ، بل نزيد على ما فعله سلفي بأن نوجه عسكرا بسائر ما يلزمه من الاخبية والمهمّات ، ونقوم بما يلزمه في مدة وجهته ، ونبعث ما عندنا من المراكب ، فقالوا له : « نعم الرأي لو ساعدته الجِدَة ، وأنت ترى ما نحن فيه من الضيق » ، فقال لهم : « الاعتماد على الله » . وهو يرى ان خير الدين يتساهل في الاقتراض ، الا انه لم يصرح بذلك . ثم جمع سائر ما في خزانته من المصوغ

---

(1) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « النقص الذى وقع فى هذه المملكة الضعيفة حسا ومعنى ولا زال » وبعد بياض بمقدار ثلاث كلمات ، وفى ق كتب بالاحمر فى موضع البياض : « بياض بالاصل » .

(2) كذا فى خ ، و فى ع و ق : « ولم يعارض فى ذلك غير وزيره وصاحب سره وابن تربيته مصطفى خزنه دار » .

(3) Béclard

والاحجار الثمينة والجواهر النفيسة ، وتبرع وزيره ابو النخبة مصطفى خزنه دار بجميع ما عنده من ذلك ، حتى حلي زوجته أخت سيده ، وكان لا يرى لنفسه كسبا مع سيده . وبعث بجميع ذلك الى خير الدين وأمره ببيعه ، فلم يجد ما يقارب الثمن ، فتوقف في البيع وكتب يستشير ، فكاتبه الباي منتقدا عليه التوقف ، وأمره ببيع ذلك بما يجد ، وحضّه على ارسال الثمن عاجلاً ، فامتثل وبعث الثمن ، وقدره نحو المليونين فرنك ، انفقها في لوازم العسكر الذي عزم على إرساله للدولة العلية من الاقوات والاخبية والخيل [وسبّق لهم مرتب أشهر] (1) وغير ذلك .

واختار من رجال دولته وثقاته مَن يستكفي به وهو أبو عبد الله محمد خزنه دار عامل الساحل ، ودفع له جانبا من المال وأمره بالسفر الى اسلامبول ، وفوّض له إن وجد مَن يلتزم له القيامَ بلوازم العسكر ، يدفع له ما يراه من المال ويرجع لتونس ، والمدد يأتي للملتزم شيئا بعد شيء ، فسافر لهذا المهمّ أواسط شوال سنة 1270 ، سبعين (أواسط جويلية 1854 م.) ، قبيل سفر العسكر . وأعانه الله على ذلك ، ورجع اوائلَ ربيع الاول من سنة إحدى وسبعين (أواخر نوفمبر 1854 م.) ، بعد أن وصل العسكر ورتّب لهم من يقوم بلوازمهم أحسن قيام ، وهم جماعة التجار الجرابة باسلامبول ، ودفع لهم ما حمله من المال .

وكانت هذه الخدمة من عظائم حسناته في المملكة . ولم يستعن الباي في هذا الجيش بدينار ولا درهم من أحد على أي وجه ، سوى مصوغ الوزير ، إما لعلو همّته التي اقتضت بَيْعَ ما له من الطارف والتالد [بأبخس الاثمان] (2) ، او لمّا علم من عجز الناس وضعف المملكة .

وقدر العسكر نحو الاربعة عشر ألف مقاتل ، ما بين طبجية ورجال وفرسان وبحرية، حملهم في مراكبه الحربية وكانت سبعة ، واكترى لبقيتهم خمسة وستين مركبا ، وأمّر على الجميع أميرَ الامراء أبا محمد رشيد [أميرَ عسكر الساحل] ، وأمره ان يتوجه بمن معه من [أعيان] (3) الضباط لزيارة الولي أبي محفوظ محرز بن خلف وأن ياخذوا من

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

مشهده صنجقا ، وزيارة الولي العالم أبي الحسن علي ابن زياد تلميذ الامام مالك ، وزيارة مقام الامام الشاذلي رضي الله عنهم . وكان ذلك يوم الاربعاء الخامس والعشرين (1) من شوال السنة 1270 (19 جويلية 1854 م.) ورجعوا لمحلتهم أمام حلق الوادي .

ورام الباي أن يتوجه لمشايعتهم بنفسه وهو في قصر حلق الوادي ، فقيّده المرض عن هذا الغرض ، فأمرني بمكاتبتهم بالتحريض ، وبعث المكتوب اليهم عشيّة اليوم مع وزير الحرب أبي النخبة مصطفى باش آغة ، ومعه الاكتب (2) ابو عبد الله محمد الباجي المسعودي لقراءة المكتوب عليهم ، ونصه : « من عبد الله سبحانه المتوكل عليه ، المفوّض جميعَ الامور إليه ، المشير أحمد باشا باي ، إلى أبناء تربيّتي ، وأقوى عُدّتي، وأهل مودّتي ، وأعزّ أسْرتي ، ورجال نُصْرتي ، عامّة الجيش الذي اختاره الله للجهاد في سبيله ، وأمّل فيهم قُطْرُهم أحسنَ تأميله ، المرؤوس بأمير الامراء ، ونخبة أعيان الكبراء ، ابننا رشيد . تقبّل الله جهادكم ، وقوّى استعدادكم ، ونصر جموعكم وآحادكم ، وكبت بكم أضدادكم ، وزيّن بأثركم الجميل وطنكم وبلادكم .

اما بعد السلام على جميعكم فردا فردا ، ايها الجند الذي اتّخذ عند الرحمان عهدا ، أنتم الفئة المختارة الى (3) الجهاد على بعد الشُّقّة ، والاجر على قدر المشقة ، وهذا أوان سفركم ، وفتْح الآذان الى ما يُنقَل من خبركم ، ولا بدّ للأب من وصاية بنيه عند السفر ، من أمير الامراء إلى آخر نفر .

اعلموا قوّى الله عصبتكم ، وعجّل أوْبتكم ، ونصر وجْهتكم ، أن الله المتفضل بالمنّة ، جعل الجهاد بابا من ابواب الجنّة ، ووعد المجاهدين بالدرجات العالية ، والنعم المتوالية ، تحت بيض السيوف وسُمْر الاسنّة . وتذكروا قوله تعالى : « إنّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإنْجِيلِ وَالقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ » (4) . مُشْترٍ وَفيٌّ ، وربح لا غائب ولا خفيٌّ .

(1) هو 23 حسب التقويم .
(2) في ع و ق : « ومعه الاديب البارع » .
(3) كذا في خ و ع و ق .
(4) س 9/آ 111 .

وقال تعالى : « إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ » (1) ، الى غير ذلك من القرآن العظيم في هذا الخصوص ، والحديث الشريف النبوي المنصوص .

يا ايها الشُّجْعان ، كتاب الله بين أيدينا ، ولسان الشريعة بالنصر والجنة يُنادينا ، وأيسر من ذلك يحرك حميّة الدين ، ويُثير الغضب لله ولرسوله ولإخواننا المؤمنين .

يا أهل الهمم العلية ، والنفوس الابية ، والغيرة الدينية ، أقيموا فريضة الجهاد فقد تأكّد الفرض ، وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والارض . واعلموا ان الجبَان وإن مات يترك العار ، ويستقبل في آخرته النار ، إن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يَرجُون . فكونوا في طاعة الله يدا واحدة ، بقلوب متعاضدة ، وأنفاس على فخر وطنكم متواردة ، ولا تَنْسَوا حقَّ وطنكم وبلادكم ، تربة آبائكم ومَنْبِت أولادكم ، ومستقرِّ قلوبكم وأجسادكم ، لا تُكسبوه العار، بقبح الشعار ، والحرصِ على العمر المستعار ، فالحذر لا ينجي من الاقدار ، والدار الآخرة هي الدار . وتحققوا من أبي نُصْحِكم ، المثابر على ربحكم ، ان لواء وطنكم وأرضكم ، هو ما يظهر للابصار من عِرْضكم [فاللهَ اللهَ في عرضكم نظّفُوه](2) ، اللهَ اللهَ في علَمكم فانصروه ، اللهَ اللهَ في حسن الثناء فاربَحوه ، اللهَ اللهَ في العار فلا تقربوه ، فقد قالت الاحرار : « النار ولا العار » ، وهو بشهادة الله أطول من الاعمار .

وأوصيكم بطاعة كبرائكم بالقلب والقالب ، فان ذلك للعز والنصر أعظم جالب ، ومن خالف رئيسه لم يؤمّل رئاسة ، واوهن قوّته وأذهب بأسه . « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ، وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » (3) .

وأعظم أمنيتي ، ومنتهى محبتي ، ان لا نفارق جَمْعَكم في الامن والخوف ، وان أكون مركز دائرتكم في مَلاحم الحُتوف ، ولا أستأثر براحة عنكم ، بل أكون

(1) س 61/آ 4 .
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) س 8/آ 45 و 46 .

كواحد منكم ، لكن إن فاتكم جسمي فقلبي بين أظهركم ، يشاهد ان شاء الله حسن مَنْظَرِكم ومَخْبَرِكم ، ويبشر وطنكم بجميل أثركم ، والعين ترقب إيابكم سالمين منصورين ، سعداء مشكورين . ولولا ما تعلمونه من ألم المرض ، ما قدّمتُ على مشايعتكم بنفسي أعزّ غرض . فأشايعكم بنظري ، وأوجّه معكم قلبي ، وهو سرّي ولبّي. « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » (1).

وأستودعكم الله الذي لا تخيب ودائعه . اهـ .

وأمرني ان نحضّر مكتوبَ الولاية لاميرهم .

ومن الغد ، وهو يوم الخميس السادس والعشرين (2) من شوال (20 جويلية) ، حضرت المراكب بخارية وغيرها ، وقدم أمير الجيش المذكور ، ومعه أعيان الضباط [بلباس المراكب] (3) لوداع الباي وهو بقصره في حلق الوادي . ولما وقفوا بين يديه ، دَعا لهم ، وأمرني ان أقرأ عليهم منشورَ ولاية أميرهم ، ونصّه :

« من عبد الله سبحانه المتوكل عليه ، المفوض جميع الامور اليه ، المشير احمد باشا باي سدّد الله أعماله ، وبلّغه من نصر الدين آماله ، الى من يقف على هذا المنشور ، والخطاب المحرر المسطور ، من أبنائنا أمراء الأُمراء ، أعيان الوزراء ، وأمراء الالوية ، وأمراء الآلايات ، وقائمي المقامات ، وأمناء الآلايات ، والبنباشية ، واليوزباشية ، وسائر ذوي الولايات العسكرية ، والجيش الذي وجّهناه للجهاد في سبيل الله وخدمة الدولة العلية ، تقبّل الله جهادَهم ، وكتب لهم السلامة والسعادة ، والنعم المُزادة .

اما بعد فان فارس الشجعان ، وعمدة أهل الشان ، ونخبة الكبراء الاعيان ، الثقة العمدة ، والمختار في الرخاء والشدة ، أمير الامراء ابننا رشيد ، قدمناه ، على بركة الله تعالى وحسن عونه ، أميرا على الجيش الموجّه لدار الخلافة العلية ، والابواب الخاقانية العثمانية ، للجهاد في سبيل الله . فليقمْ بهذه الخطّة عالما بقدرها ، متّصفا بما يُحمَد من فخرها ، وأوصيناه بالاحتفاظ على الجيش بأن يجعل مصلحتهم مناط نظره وفكره ، وملاك سره وجهره . وعلى سائر الجند عموما وخصوصا في هذا السفر ، من أمير اللواء الى النفر ، ان

---

(1) س 47/آ 7 .
(2) هو 24 حسب التقويم .
(3) الزيادة عن ع و ق .

يتلقوا أمره بالطاعة ، ويد الله مع الجماعة ، وليعلموا ان طاعته طاعتُنا وهي طاعة الله في الحقيقة، وطاعة الله أسلم طريقة ، ومن عصى أمره ، والعياذ بالله ، فقد عصى أمرنا وأمرَ ربّه ، ونزع يده من الاسلام وحزبه ، والله تعالى يوفق جميعكم لما يحبّه ويرضاه ، والهدى هدى الله .

والله المسؤول ان يُسمِعنا عنهم الثناء الحسن ، والسلوك في أقوم سنَن ، حتى يغنموا الفخر لهم وللوطن .

وأستودعه وأستودعكم الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولّى الصالحين . وكتب في شوال سنة 1270 » .

ولما تمّت قراءة المنشور على الحاضرين ، وضعتُه بين يدي الباي ، فناوله مباشرة للأمير ، وقال له : « هذه أمانة الله عندك » . ودعا لهم وخرجوا ، فركبوا البحر في اليوم ، وأطلِقت عليهم المدافع ، وكان يوما مشهودا .

ولما قرب أوان سفر هذا العسكر ، قلتُ للباي : « نحضّر مكتوبا للحضرة السلطانية ؟ » ، فأنف من ذلك لعلوّ همّته ، وبعده عن الإعجاب بنفسه ، وقال : « أي شيء فعلنا حتى نكاتب في شأنه السلطان ؟ » ، فقلت له : « هذا اول عسكر نظامي خرج من المغرب الى المشرق ، وهو بالنسبة لمملكتنا عدد كثير » ، فقال : « حقّر عملك يعظّمْه غيرك . نعم ، لا بدّ من مكتوب في الوصاية بهم للصدر الاعظم ومكتوب لسر عسكر ، فاننا وان جمعتنا الاخوة الدينية والخدمة السلطانية ، لا ننسى نسبتنا التونسية ».

ونص ما كتبه للصدر ، بعد افتتاحه : « اما بعد تقديم التحية ، المناسبة لتلك الوزارة العلية ، والفخامة الراسخة الجلية ، فهذا أمير الامراء ، وأحد اعيان الكبراء ، الثقة العمدة الاحزم ، فارس هذا الميدان ، ابننا رشيد ، وجّهه معظم قدركم بهذه الفئة القليلة السابق تقريرها لجليل وزارتكم ، ووجّهنا معه ابننا محمد أمير لواء . والله يرى ما للعبد الفقير من الاستحياء عند عرضها على الباب العلي ، ويسهّل الامرَ أنّ ذلك على قدر العبد الفقير لا على قدر الدولة ، ذات العظمة والصولة ، والاعتماد على الوزارة العظمى في الإنهاء والتقرير ، وبهمم الرجال ، تُنال الآمال ، وتحسن الاعمال . والمأمول من وزارتكم المحمودة الصفات، ان تهب لبائع نفسه لله حسن الالتفات . فاليد في طاعة الله وخدمة الدولة (1) واحدة ،

(1) في ع و ق : « وخدمة الخلافة » .

والقلوب على ذلك متعاضدة ، والانفاس متواردة . والمأمول ان يرى أميرُ هذا الجيش من عنايتكم فوق الامل ، والله يسدّده لمَرْضِيِّ العمل ، وينصر مولانا السلطان ، ويعلي بسطوته اركان الإيمان ، ويديم وزارتكم ركنا رفيعا ، وكهفا منيعا ، والسلام » .

وكتب الى سر عسكر ما نصه بعد افتتاحه : « اما بعد السلام التام ، المؤدي لحق المقام ، فان العبد الفقير لما رأى ما يجب عليه من الحقوق الدينية ، والخدمة السلطانية ، وما لا يُدرَك كلّه ، لا يترك كلّه ، جهّز في سبيل الله سبعة آلاف من العساكر النظامية ، ومعها اثني عشر مدفعا بجميع ما يلزمها من الآلات الترتيبية ، وسبعمائة من الخيل للمدافع وغيرها ، وجميع ما عندنا من الشقوف الحربية على قلّتها ، وذلك لنظر أمير الامراء ، وأحد أعيان الكبراء ، الثقة العمدة الخلاصة نخبة أقرانه ، وفارس ميدانه ، ابننا رشيد . ووجّهنا معه الثقة العمدة الحازم ابننا محمد أمير لواء . والمحقق ان هذا المقدار وأضعافه ، لا يظهر في بحر الدولة والخلافة ، وكلٌّ يعمل على شاكلته ، ومقدار استطاعته . ومَن يبخل فانما يَبخَلُ عن نفسه ، ودينه وجنسه . والله المتفضل بالنصر والمنّة ، اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالهم بأن لهم الجنّة . وقد شرع العبد الفقير الآن في إحضار مثل هذا العدد والعدّة ، وسيقدم باعانة الله في قليل من المدة . والله يعلم ما حصل لنا من نهاية الخجل ، لقلّة العدد وعدم إمكان العجل ، وبودّنا ان كانت هذه الفئة من الطلائع الاول ، لكن ليس للمخلوق تأثير في عمل . والمرجوُّ من الله ان يجعلهم ممن يشمله قوله : «كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ » ، ويؤيد مولانا السلطان بنصر عزيز من عنده ، ويجعل جند السماء من جنده . ودمتم ودامت لكم المعالي ، على ممر الايام والليالي ، والسلام » .

وكان ابتداء وصول هذا الجيش للقسطنطينية يوم الخميس الثاني والعشرين (1) من ذي الحجّة 1270 (14 سبتمبر 1854 م.) ، عند اشتداد الحرب .

وأكرمت الدولة العلية مقْدَمهم ، واستضافهم السلطان مدة إقامتهم بدار خلافته ، ووقف بنفسه قدر ساعة وربع في حرّ الشمس من غير وقاية حتى مرّوا بين يديه . ومن العناية ان جعل منهم طائفة في عسّة اسكي(2) صراية ، وهو موضع عسة اسلامبول .

(1) هو 21 حسب التقويم .
(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : « سكي » .

وتتابع وصول بقية العسكر جمعا بعد جمع ، وعيّن لهم جهة توجّهوا اليها .

وكانت سيرتهم في الغربة مشكورة ، وحسناتهم مذكورة ، من الصبر والثبات والتجلّد على المشاقّ ، وطاعة الكبراء ، ونزاهة النفس والحياء ، والتحفظ من مواقع التهم ، والقيام بآداب الغربة ، والالتحام على عادة اهل تونس في غير وطنهم ، فان الغربة تعقد بين المتعاديين منهم إخاءً واتّصالاً ، وغير ذلك مما جلب لوطنهم جميل الذكر . ولاميرهم آثار جميلة معهم في هذه الوجهة .

ووقع هذا البعث موقعا حسنا عند السلطان ورجال دولته ، فبعث السلطان رسولاً مخصوصا من المقربين لديه اسمه مصطفى باشا بمكتوب بمعاني التقريب والمحبة ، بخط يد السلطان ، ونيشان افتخار ، وحكة مرصعة بثمين الاحجار ، ووسطاها الطّغْرى السلطانية مطبوعة [في جرمها] (1) . وفروة كان يلبسها السلطان .

وكان وصوله أوائل محرم من سنة 1271 ، احدى وسبعين (أواخر سبتمبر 1854 م.) . واهتز الباي لقبول خط السلطان [وقبّله مرارا ووضعه على رأسه وتيمّن به] (2) في قصر الصالحية بالمحمدية بمحضر وزرائه وكبراء عسكره وأعيان دولته في يوم مشهود .

وبعد انفصال الموكب قال لي : « هذه ثمرة تحقير صنعنا الذي هو حقير بالنسبة للدولة العلية ، وعدم مكاتبة السلطان في شأنها » .

ولما عزم الرسول على الرجوع ، أمرني بكتب جوابه بما نصه :

« الابواب التي تعنو الوجوه لاعتابها ، وتتشرف الملوك بشعارها وكتابها ، ابواب الخلافة العلية المجيدية ، والسلطنة الخاقانية العثمانية ، المخدومة بالعمل والنّية ، والشمس عن مدح المادح غنية ، كيف وقد جعلها الله ظلاًّ ظليلاً في أرضه ، أقام بها شعائر فرضه، على يد من اختاره المجيد سبحانه لدينه وعياله ، وأرانا العناية به في حميد أعماله . اللهم أدم هذه الدولة للدول تاجا ، ونورا في الاسلام وهّاجا ، وحصنا للملة وسياجا .

اما بعد تقديم التحية المناسبة لعظمة الخلافة ، ذات الفضل والإنافة ، فقد ورد على هذا العبد الفقير من فضلها المشهور ، ومِنَنِها المعلّقة في النحور ، ما رأيته أعظم من

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) الزيادة عن ع و ق .

قدري ، بل لم يختلج في صدري ، ولا حدثني به فكري ، فحسبته فائدة عمري ، ونتيجة دهري ، وملاك سرّي وجهري ، وكان به على سلفي فخري ، وأنّى للعبد الفقير والتشرف بهذا الشرف من تلك اليد المباركة العلية ، والراحة المجيدية السلطانية ، أعلى الله يدها ، وكثر عددها ، ونصر جندها ، وأنار سعدها . ما هذه العناية التي تنطق بفضل مسديها وتُعرب ، ما هذه الآية التي هي أعظم من المغرب (؟) ، ما هذا الالتفات والتقريب ، المالك لقلب الاريب ، ما ذا يقول العاجز ولا يكاد يبين ، في مكتوب خطته يُمنَى سلطان السلاطين ، وخاقان الخواقين ، وإمام الحرمين ، وقطب البرّين والبحرين ، وثالث العمرين ، وسر العباد الصالحين . تلقيته تلقي المريض للشفاء ، وصاحب العهد للوفاء ، وأخذت ببركة الخلافة كتابي بيميني ، ولولا التبرك أجللته عن اللمس ولو بعيني ، وضممته الى صدري ، وسَعِد به سَحْري ونَحْري ، وحَفِظته في مستقرّ الإيمان ، وجعلته نُصْبَ الفكر والعِيَان ، وحازت به دارُ خدمة الدولة أعظمَ شأن ، لا يقوم بشكره عمل ولا لسان . سيول فضل ملأت كلّ ثنية ، وبلّغت كلّ أمنية ، وأياد بالمعالي مَعْنية . وكم تعرّف الفقيرُ وسلفه من أنعم الخلافة بالانواع والاجناس ، واستضاء من عنايتها بنور يمشي به في الناس . فبينما العبد من نيشان الامتياز في بشرى ، اذ جاء الفضل المجيدي بمسرة هذا النيشان الكبرى ، الذي يبعث القلوب الاسلامية ، على مزيد الصّداقة والغَيْرة والحميّة ، ومعه المرصّع الذي أكملت العلامة العلية حُلاه ، وأظهرت للعِيَان سرّه ومعناه ، فضل على فضل من موضعه ، ونور على نور من مطلعه ، ولم يرَ العاجز في خدمته نَبيهَ عَمَل ، يستحق به ما فوق الامل . عواطف الخلافة لهذا الإنعام هي الاهل ، والنظر لغير ذلك من الجهل . بلّغ هذا الكتابَ الكريم ، المتلقّى بالتعظيم والتكريم ، عَبْدُ النعمة السلطانية ، المتحلّي من التفاتها بأعظم مزية ، أميرُ الامراء مصطفى باشا ، بلّغنا الله وإياه من رضى الدولة ما نشاء ، وحسب العاجز أن يبتهل الى الكريم المتعال ، بالدعاء لهذا السيد المفضال . اللهم انا عَجَزْنا عن أداء ما يجب لهذا المنعم من الشكر الواجب شرعا وعقلاً ، فاجزه عنا بأفضل ما جازيت به خليفةً برا رحيما عن عبادك المؤمنين ، وبما أنت أهله يا أكرم الاكرمين ، وانظمه في سلك الخلفاء الراشدين ، وانصر بشوكته هذا الدين القويم المتين ، وأرنا فيه مصداق : « فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ » (1) . واجعل السلطنة فيه وفي

(1) س 61/ آ 14

آله الصالحين ، الى يوم الدين ، بحرمة خاتم المرسلين ، والسلام على أمير المؤمنين ، ورحمة الله من العاجز عن شكـر هذه النعم العظيمة ، والمنن الجسيمة ، الفقير الى ربه تعالى عبده المشير احمد باشا باي . وكُتِب في محرم سنة 1271 (اكتوبر 1854 م.) » .

ولم يزل الباي يبعث في العسكر والعُدّة والدراهم في فابورات اشتراها في تلك المدة لهذا الغرض ، وهو مع ذلك ينتظر خبر الغرض الذي وجّه له أمير اللواء خير الدين .

وتثاقل خير الدين في ذلك لما رأى فيه من الضرر الفادح في الحال والمآل ، والباي يحرّضه ويُغلِظ له في القول ، وهو مع ذلك يتثاقل ، اعتمادا على عقل سيده .

*

وفي يوم الاحد الثاني والعشرين (1) من جمادى الثانية 1271 (11 مارس 1855 م.) ، عطف الباي على خديمه أبي الفلاح صالح بن عثمان شيبوب ، وسرّحه من سجنه ، ورد عليه وظائفه بعد ان انتزعها منه ، لسوء أدب صدر منه في الخدمة ، وأمور نَقَمها عليه ، فسجنه ببيته من صراية باردو نحو العام .

*

وفي شعبان السنة 1271 (افريل — ماي 1855 م.) بلغ لتونس ان حضرة سلطان الفرنسيس نبليون الثالث رُمِي بحبّة من رصاص ونجّاه الله منها ، وقتل الضارب بعد نحو العشرين يوما ، حتى قامت عليه الشهادة بالتواتر المستفيض [على عادتهم من التأني في الدماء] (2) ، فاقتضى نظرُه تهنئتَه ، فعيّن لذلك ابن عمه ابا عبد الله محمد المأمون باي وأخاه أبا عبد الله محمد الامين باي ، ووجّه معهما ثقته المقرّب لديه أمير الامراء أبا عبد الله محمد المرابط الغرياني ، والامير آلاي فليجي ابن الوزير جوزاب راف . وكاتب الوزير راف ، وكان بباريس هو وخير الدين ، ليكونا في خدمتهما .

وسافرا يوم الخميس غرة رمضان (3) السنة (17 ماي 1855 م.) ، على طريق جنوة [في فابور المتجر] (4) .

(1) هو 21 حسب التقويم
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) هو 29 شعبان حسب التقويم
(4) الزيادة عن ع و ق .

وبقـي الباي في قصره الجديد بحلق الوادي على فراش مرضه ، مشغول البال في النهار بأحوال العسكـر والتدبير في لوازمه ، وإرسال من يحضر منهم الى اسلامبول ، وفي الليـل يسمع كـتاب « الشفا في التعريف بحقوق المصطفى » ، على عادته في رمضان . ولم يزل هذا دأبه الى يوم الاربعاء الرابـع عشر (1) من رمضان (30 ماي 1855 م.) ، أصبـح باكـما في لجج سكـرات الموت ، ووزراؤه وخواصّه محدقون به ، قلوبهم وجلة ودموعهم جـاريـة ، يفدونه بأنفسهم لو يقبل الفِـداء . وبعثوا الامير أبا العباس أحمد زرُّوق الى ابن عمّه وولي عهده ، وهو في بستانه بالمرسى ، فأتى في الحين ومعه شقيقه صاحب الدولة الآن ، ابو عبد الله محمد الصادق باي ، وبقى معه إلى العصر ، فقال : « أرجع الى محلي لانـي ضعيف البدن بمرض » ، فطلب منه الوزراء ان يبقـي معهم أخاه ، ففعل .

وبقـي الباي على حاله يجود بنفسه الزكـية ، وأرجو انها رجعت الى ربها راضيـة مرضية ، نصفَ ليلة الخميس .

وتوفّـاه الله في عبادة ، وأمارات سعادة ، متمسكـا بالعروة الوثقى ، والآخرة خير وأبقى، فدفع الوزراءُ خَتْمَـه لابن عمّه الحاضر وبعثوا لولي العهد فأتى ، وبايعوه البيعة الخاصة .

وركـب الى باردو ، ومعه الوزير مصطفى صاحب الطابـع وأمير لواء العَسّة فرحات والعبد الفقير ، لقبول البيعة العامة .

وبقـي أخوه مع بعض رجال الدولة بحلق الوادي ، حتى حملوه فجر يوم الخميس ، في كـرُّوسة مغطّاة بالصنجق ، إلى داره بباردو .

ودفن صبيحة يوم الجمعة (15 رمضان — 1 جوان 1855 م.) بتربة آ له ، على فخامة لم تعهد لمثله . وحضر جنازتَـه العسكـر بالسلاح منكّسا .

ولما خرجوا بنعشه من باردو أطلق منه مدفع ، وبعد دقائق يطلق مدفع ، إلى أن رجعت الناس من الجنازة ، بعد ان وضعوا ذلك الجسد على التراب ، والآمال سراب ، وكـل مـا فوق التـراب تـراب ، والدنيا أحلام ، والعمـر منـام . قابلـه الله بفضله وإحسانـه ، وعفـوه وغفـرانـه .

---

(1) هـو 13 حسب التقـويم

حـــال هـذا البــــاي

كـان كـريما جوادا متلافا ، يعطـي الجزيل ويحتقره ، عظيم النفس ، ما رأيتـه مسّ دينارا ولا درهما بيده ، الا في غرة محرم لما يتبدل طابـع السكـة لاجل تاريـخ السنة . يُؤتَى اليه بجانب مضروب في اليوم فيحثو منه بيده حثو الثمرة ويعطـي وزراءَه والحاضرين من يده إلى أيديهم ، جذبا لقلوبهم وربْطـَ (1) وصلة به ، وهم يتيمّنون بذلك على عادة عامّة البلد في الثمار ، يشتهون أول مذاقها من يد كـريم ، فيقيسون السكـة الجديدة على بواكـر الثمرات ، وما يبقى يأمر وزيره بتفريقه على من دون الحـاضرين . وهو أول من ابتكـر هذا الصنـع في رأس كـل عام . أعطى كـثيرا من الرباع [والعقار] (2) لخاصّته وأتباعه الذين اوقفوا أعمارهم على خدمته ، وبذلوا نفوسهم في مرضاته . ويقول : « ان الملوك حسبهم الملك وهو الجباية ، والرباع للمالـكين من الرعايا ، ومن عمرانها تنمو الجباية » .

ودفع في مرضه مالاً له بال [باعتبار ذلك الحال] (3) في دين على ابن عمـّه وولي عهده ، وقال لوزيره ابـي النخبة مصطفى خزنه دار : « لا يستقر لي قرار وابن عمسي مدين للوافدين من التجار ، واذا لم يـكـن عندي مال حاضر (4) فبـع ما تراه ممـا أملـكـه بما تسمع من الثمن ، فلا أتهنأ وابن عمّـي مدين » .

[وكـان] عالي الهمـّة ، متعلق النفس بالمعالي تعلقا أفضى الى ضيق حال المملـكـة ، لانه طمع في الحاقها بالممالك المتسعة في القوة والحضارة والرفه في أسرع وقت .

ومن ايامه ابتدأ التأنق والسرف في الـكـراريس والابنية الضخمة وغير ذلك ممّا يدعوه ترف الحضارة ، والنـاس على دين اميرهم . وهو الذي جعل نواشن الافتخار على اختلاف مراتبها ، وقَبِلها منه الملوك وأعيان الوزراء والاكـابر من غير المملـكـة . وبالغ في كـثرة إعطائها للناس حتى قال له دقرنج (5) مترجم سلطان الفرنسيس : « ايها السيد ، ان النيشان لا يعمل السلطان ، والسلطان يعمل النيشان » . [وارتمض لسماعها] (6) .

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « وقوة وصلة بـه » .
(2) الـزيـادة عـن ع و ق .
(3) الـزيـادة عـن ع و ق .
(4) كـذا في خ ، وفي ع و ق : « واذا لم يكن عندك ناض » .
(5) كذا في خ ، وفي ع : « داقرانج » ، وفي ق : « دقرانج » (Des Granges)
(6) الـزيـادة عن ع و ق .

وتغالى في هدايا الدولة العثمانية ، وقد كـانت قبل من الموجود بلا تـكـلف ، واذا قيل له ان هذا وأضعافه لا يظهر في عظمة الدولة العلية ، يقول : « نعم ، لـكـن الهدايا على قدر مهديها ، ونرى لنفسـي شيئا من المقدار » .

[وكـان] متواضعا ، على علو منصبه وعزة نفسه ، ما شمّ رائحة كبر ولا إعجاب بفعله .

بلغه ان مولانا الشريف عبد الرحمان سلطان المغرب عزم على عمل عسكـر نظامـي في مملـكـته ، وتوقف في المعلمين . ولم يسوّغْ كـونـَهم من الافرنج ولا من الترك ، للجهل باللغة من الجانبين ، [واختلاف الطباع] ، فقال نبعث الى تونس ، ففرح [الباي] بذلك وانتظر . ولما طال أمر الانتظار ، تحقق ان الخبر غير صادق وقال : « تمنّيتُ لو وقـع ذلك » ، فقيل له : « ومن الذي تبعثه ؟ » ، فقال بديهةً : « ابعث الامير آلاي حسن المقرون ، ومعه ضباط من أشراف مساكـن الذين بالعسكـر . [وعدّد افرادا منهم مثل أبـي الحسن علي بن عمر المساكـنـي الشريف ، وغيره من اهل الحاضرة] ، واكـاتبه بأننا بعثنا لشريف سلطنتك أشرافَ عساكـرنا ، وجرايتهم علينا ، ونـكـتفـي من فضلك بالقبول » (1) .

و[كـان] وفـيّ العهد وفاءً لم يعهد مثله ، وكـاد ان يرى جميـع الناس مثله في الوفاء ، وهو الذي غرّه في محمود بن عياد وغيره . ولعله كـان يظن ان الوفاء مقدّم على حفظ النفس والمال . سليمَ الصدر من الحقد والحسد . ومن صغر الهمّة ، الحسدُ على النعمة . ما ظهر عليه انه تمنى زوال نعمة عن أحد ، بل يسوؤه زوالُها بسبب سماوي .

اذا قال له أحد (2) في معرض الإغراء : « إن فلانا طغى [عليّ] (3) بماله ، يقول له : « زاد الله في ماله » ، وربّما انتهره .

لم يَحقـد على مذنب ، لا سيما إذا لامه أو عاقبه ، ويقول : « مثلي معكم كـالوالد مع بنيه ، والشيـخ مع تلاميذه ، يربّـي المذنبَ على قدر ذنبه ويصفح ، فاذا حَقَـد يَحقـد الابنُ وتحصل النَّفْرة فتزول الفائدة » . بل ربّما استرضى من ربّاه ، على قدر حاله ، بأنواع من السياسة بديعة الاسلوب ، تسترقُّ [أحرار] (4) القلوب ، وتنسي بالإحسان ، جميع ما كان .

(1) الـزيـادة في الفقرة عن ع و ق .
(2) في ع و ق : « اذا قال له متظلم » .
(3) الـزيـادة عـن ع و ق .
(4) الـزيـادة عـن ع و ق .

[وكان] آية الله في الحلم والعفو بعد القدرة . اذا وقف الجاني بين يديه ، يريه من بروق الرعب ما ييأس به من السلامة ، ثم ينجلي سحابه عن عفو أو خفيف عقوبة . يحنّ الى قبول الشّفاعة في المذنبين [معه] ، وربما حضّ عليها وزيره [وابنَ تربيته] ، شديدُ الحزم ، ماضيَ العزم ، مُقيلاً للعثرة ، مقداما ، سريع الفهم ، ثاقب الفكر ، ومع ثقوب فكره لا يتظاهر بالردّ على من تقدّمه ، ويحترم احكامهم ، الا اذا وجب [في سياسته] نقضُها ، فانه يبالغ في ستْر ذلك ، ويعجبه قول المأمون لابيه الرشيد : « لا تردّ على من قبلك فيردّ عليك مَن بعدك » ، ومصداقه ما تراه في أوامر قانون الزيت وأمثاله ، متغافلاً عن الزلّة ، نزيهَ السمع عن عورات الناس ومثالبهم ، لا سيما في خاصّته ورجال خدمته ، لا تحركه الوشاية ، بل ربما يفعل ضدّ ما قصده الواشي ، بعد عرضها على ميزان عقله ، فصيحَ اللسان مع شيء من الحُبْسة تعتريه وقت الغضب ، قويّ الجَنان في مزاولة المعضلات ، شكورا لا تضيع عنده مزايا الرجال . رقّى اعيانا من العرب (1) الى درجات ومناصب لم تخطر ببالهم ولا أمّلوها ، كأبي العباس صميدة بن علي بن عزّوز بن عمارة بن دالية [عميد بيت بني رزق من دريد] ، و[وجيه العرب أبي محمد] قطوم بن محمد سيد قومه الفراشيش [وبيت قِرَى الضيف] ، وأبي الفلاح الكاهية صالح ابن محمد الكلاعي ، وكان يشركهم احيانا في التدبير ، اغتباطا بهم ووثوقا بنصحهم ، وغيرهم من الرجال . محبّا لاهل المملكة لا سيما الحاضرة ، يحسن لمحسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ، غاضّ الطرف عن مساوئهم ، معينا لهم على نوائب الدهر ، يعظم أهل البيوت ويعرف منازلهم [سواء كانوا بالحاضرة او بالخيام] . قال له بعض المتزلفين : « ان داركم أقدم دار بتونس » ، فقال له [بديهةً] : « ان دار الرصّاع ودار القلْشاني ودار القَصّار ودار العصفوري ودار الغَمّاد وديار الاندلس أقدم من دارنا ، وكذلك بيوت بعض الاكابر من العربان » ، سمّى منهم بيت السبوعي في جلاص وبيت جلال بن مسعي في الهمامّة .

يرى كلّ واحد من أبناء المملكة أهلاً لكل خطّة ، وموضعا للتقريب ، ولا يتعصب لصنف دون آخر ، لمّا في ذلك من انحلال العصبية وقطع سلكها ، ويقول : « أصل الملك محبة الرعية ، ولا محبة اذا وقع الالتفات لصنف دون بقية الناس ، واذا

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « من عرب الخيام » .

انحلّت العصبية انحلت عُرى الملك والمملكة ، فالواجب الانصاف بين افراد الناس من غير التفات لنسب ولو هاشمي » ، ولذلك صاهر أبا عبد الله محمد المرابط الغرياني من أعيان اكابر القيروان على أخته ، وكان سلفه يصاهرون مواليَهم لاسباب رأوها ، وكان الباشا علي باي بن محمد يصاهر كتابه باللغة التركية ، ومن ذريتهم اولاد ابن الخوجة واولاد الستاري واولاد ابن الكاتب واولاد مهنيّة وغيرهم ، [لا مطمع في هذه المصاهرة لعربي] (1) .

ولما أمرني بالكتابة الى اهل المجلس الشرعي ليأتوا للعَقْد توقفت ، فقال لي : « ما سبب توقفك ؟ » ، فقلت له : « أحسب في أيام العدّة هل انقضت » ، وكان ذلك بعد موت زوجها رمضان باش مملوك ، فقال لي : « ظننت بك غير هذا ، ومالي لا أزوج أختي من رجل من بيوت بلدها جبرا لخاطر أهل المملكة حتى يرى الكفءُ منهم انه اهل لهذا التقريب ؟ » ، وأمر شيخَ الإسلام أبا عبد الله محمد بيرم بانشاء خطبة ، [إظهارا للعناية ، وهو أول خطيب من الحنفية في مثل هذا العقد] (2) فأنشأ خطبته البليغة المشهورة ، ونص المقصود منها ، بعد حمد الله والثناء عليه وعلى رسوله وفضائل النكاح ، ما نصه : « هذا ولما كان النكاح بالمحل الذي ذكرناه ، والمقام الذي شرحناه ، بحيث تبين انه من الدين ، وسنن سيد المرسلين ، وامتنّ الله به في كتابه حيث قال : « كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ » (3) ، وكان ذلك من معلومات مولانا نخبة الملوك الاكابر ، ورُقاة الاَسرّة والمنابر ، ووارث الملك كابرا عن كابر ، صاحبِ الصيت الشهير ، الملكِ الافخم المشير ، ذي القدر المُنيف ، الغنيّ باشتهار مآثره عن التعريف ، صدر منه أيده الله الامرَ المطاع ، الذي يسرع إليه الاتباع ، بايقاع هذا العَقْد السعيد ، المزدوج لكمال المناسبة بيوم العيد ، المشرقة في سماءِ المسرة زواهره ، المنظومة بلَبّة الايام جواهره ، بين عقيلة بيت الرئاسة ، المحرزة بأخُوّة مولانا الرتبةَ الشامخة من النفاسة ، رضيعة لبان المجد ، البالغة من الصون والعَفاف إلى أبعد حد ، الحائزة بنسبها العريق في الملك الدرجة المعلومة ، الطاهرة الجليلة السيدة فَطّومة ، وحليفِ المناصحة لمولانا في خدمته ، المثابر على مرضاته ولو ببذل مهجته ، المتغذي لكمال قربه بلبان نعمته ، أحدِ كبراء

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) س 44/آ 54 .

الاجناد ، القائمين بالمحافظة على عمارة هذا النّاد ، الناصح الرئيس الضابط ، أبي عبد الله السيد محمد المرابط ، أمير الطائفة الخامسة من العسكر المحمّدي المنصور . وذلك لمّا رأى مولانا من تأهّل جيده لِلُبْس هاته القلادة ، وعدم قصوره عن أن يُعمل في المجد زناده ، لتدرّعه من عراقة الاصل بسلاح ، وتدرّجه من بيت عفّة وصلاح ، فشدّ ، أيده الله تعالى ، عضُدَ رِفْعته بعلاقة المصاهرة ، ورصّع تاج عزّه بهذه الدّرة الفاخرة ، فتلقى النعمة قائما بشكرها ، وتلقف الامانة ملتزما برَعْيها وبرّها ، باذلاً لها من المَهْر المناسب ما أوجبه الدين القويم ، وتضمّن تفصيله غير هذا الرقيم . قرن الله بالسعادة أوّلَ أمرهما وآخره ، وعمّ ببلوغ المراد مستقبله وحاضره ، وهنأ مولانا الامير بما ملكه من هاته المملكة وخوّله ، وأضفى عليه لباس النعم وجلّله ، ووصل بالتوفيق والتسديد قوله وعمله ، وبلّغه من الدنيا والآخرة أملَه ، كما اختاره لحراسة هذا القطر وأهّله . وأستغفر الله العظيم لي ولكم ولجميع المسلمين » .

وخطب بها يوم العقد في موكب مشهود ، وبنى الزوج بزوجته في داره بالمحمدية كأمثاله ، [حتى كان ما كان ، مما يأتي من حوادث الزمان] (1) .

ومن إنصافه أن أمير لواء العسّة أبا المسرة فرحات ، أحدَ أعيان مماليكه أتاه يوما مخبرا بمملوك أتى هاربا يريد الخدمة بالصرايا ، فقال له : « يا بني ، ان القدر الموجود عندي فيه بركة ، وقد ربّيتُهم كأولادي يعلمون طبعي وأعلم طباعهم ، وأي حاجة لي في آبق من سيده أدخله في مسكني ؟ ان شاء الخدمة فثبّتْه في العسكر » ، فقال له : « هو صغير » ، فقال له : « فليكن في المسيقا » ، فقال له : « انه مملوك ، فكيف يكون في المسيقا ؟ » ، فغضب وقال له : « ان الناس عندي سواء ، واذا أكبرتُ المملوكَ عن المسيقا يلزمني أن أكبر عنها أولادَ المملكة الذين أنا واحد منهم » ، وعدّد له أفرادا من أولاد المملكة بالمسيقا . ولما خرج ، قال للحاضرين وكنت معهم : « ان فرحات لم يشمّ رائحة السياسة ، ولو درى ما قال هذا الكلام في مجمع » ، فاعتذرنا عنه بكلام لم يَرُج في سمعه ولا قَبِله بطبعه .

ومن أمثالها انه صلّى الجمعة بجامع صفاقس لمّا توجّه للأعراض ، وكان الخطيبَ يومئذ الشيخ الفقيه الخيّر أبو عبد الله محمد الفراتي ، فخطب بما أعدّ الله لامراء السوء

(1) الزيادة عن ع و ق .

الظالمين ، ونعى جور الجائرين . وكنت حذوه فرأى بوجهي أثر ذلك . ولما فرغ من صلاة السنة ناجاني بما لفظه : « لا يخلو ، اما ان أكون موفقا او غير موفق ، فان كنت موفقا فالحق ما قال ، لانه نقله عن المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وإن كنت غير موفق فلا أجعل نفسي معنى للمقاصد ، بل اقول مثله ، تبعيدا للتهمة عن نفسي » . ولم يُظهر للخطيب شيئا .

وقد فعل في المساغب مع سكان المملكة (1) من إعطاء القمح لضعفائهم مسويا في ذلك بين المسلمين واليهود والنصارى من رعايا الدول ، وكلمه في ذلك بعض خاصّته ، فقال : « ان المهاجرين الى مملكتنا ، وإن انتفعت المملكة بهم وانتفعوا بها ، نراهم كالضيوف ، وللضيف حق » .

وفعل مع سكان الحاضرة ، زمنَ مرض الكوليرا ، ما تحدثت به الرفاق ، وطار خبره للآفاق ، من إعطاء المسكن والكسوة للعراة ، والاطباء والادوية والاقوات .

وأعظم مزاياه على أهل بيته وقوفه في استمرار عادات وطنه مع الدولة العلية ، والمخاطرة بنفسه دون خرق سياجها ، معترفا بطاعة الدولة العلية ، كما تقدم في مكاتيبه للدولة ، وإن ندم على ذلك في آخر أمره ، لما فيه من شبه انقسام في الاسلام يوجب وهنا . وصرح بندمه مرارا لوزرائه ، مشفقا من ذنبه ، تائبا الى ربه . وأنا أشهد له بذلك بين يدي الله ، وهو أعلم به منّا . وشاهد الحال يصدّق هذا المقال . ولله درُّ القائل :

إن القِداح اذا اجتمعن فرَامَها ... بالكسر ذو حَنَق وبطش أيّدِ
عزّت فلم تُكسَر وإن هي بُدّدَت ... فالوهن والتكسير للمتبدد

لكن التوبة مركّبة من الندم ، بشرط الإقلاع ، وهو بشهادة الله مما يستطاع .

وما خَفِي الرشدُ لكنّه ... أضلّ الحلومَ اتّباعُ الهوى

وعبد الشهوة أذلُّ من عبد الرّقّ ، ومَن أضلُّ ممّن اتّبع هواه بغير هدى من الله ، ولله في خلقه أسرار ، وسبحان من أقام (2) العباد فيما أراد ، وهو اللطيف الخبير .

---

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « مع سكان الحاضرة » .
(2) في خ و ع : « اقام العباد » ، وفي ق : « اوقع العباد » .

وكان ، سامحه الله ، نزيه النفس عن العقوبة بالمال ، وهو أول من أبطلها في المملكة ، اذ كانت بلا قانون يُعتمَد ، بل كانت على قدر كسب المذنب ، وتارة تستأصله . حتى ان مشايخ توزر اذا تولى أحدهم يعتبر في مشارطة ولايته ما يقربه (1) من كسب المتولي قبله ، لانه يأخذه من محبسه ويحمله معه معتقلاً لبلده ، ويتنوع في تعذيبه ليُخرِج منه المال ، وربما مات بعضهم بالعذاب . ومن العجب ان المتولي على يقين بأنه آيل لمثل ذلك يومَ عَزْله ، فاقتلع جرثومة هذه المفسدة والمعرة وقبح الاحدوثة ، وان كان والده ازال منها شيئا .

ولا يقبل الهدية من العمال الا من دار بن عيّاد ، على كره منه ، إرضاءً له ، ويقول : « ان هدية العُمّال فساد للأعمال » . ويقبل الخيل من أعيان العربان لما في طباعهم من الانفة لردِّها ، وتطيّره بردِّ ما سمّاه الله خيرا وعقده بنواصيها .

غضب مرة على أمير لواء عسكر غار الملح ، أبي الفلاح صالح بن عثمان شيبوب ، لاسباب ظهرت له ، فسجنه بمحله في صراية باردو ، ثم رأى بعضَ أهل الصرايا راكبا على مركوب له ، فاقشعرّ لذلك وقال لوزيره مصطفى خزنه دار : « إنـي رأيت فلانا راكبا على مركوبِ صالح » ، فقال له الوزير : « لا علم لي بذلك » ، فقال له : « سل عن ذلك ، فانـي سجنت الرجل عقوبةً ولم نرد أخذ شـيء من ماله » ، فقال له الوزير : « إن كسبه بيد أتباعه ووكلائه ، وقد أوصيتهم بالاحتفاظ عليه حتى تعفو عنه ان شاء الله ، وإنـي في إعانتهم على حفظه من غير أن نسأل عن مقداره » ، فسُرَّ بذلك ودعا له .

وكان يقول : « ان العقوبة بالمال تقتضي ان الحاكم يحب وقوع المخالفة ، بل كثرتها ، ليحصل المال المحبوب في طبع البشر . والحاكم انما جعل وازعا لمنع وقوع المخالفة » .

وعلى نفرته من عقوبة المال ، فهو شديد في أمر الجباية ، لا يرى فيها رفقا ولا يسمع فيها شكاية متظلم ، غاضّ الطرف عن العُمّال . جوابه للمتظلم : « اخلصْ فيما عليك مع اللزّام » . ومن يتظلم من سوء التقاضي ، جوابه : « اللزّام يعرف » . حتى قال لي بعض الحذاق من الكتاب : « لو قال المتظلم يا سيدي ان اللزّام عرف وعمل بمقتضى معرفته ، وانـي شاك من معرفته ، ما يكون جوابه ؟ » ، الى غير ذلك مما هذا سبيله .

(1) في ع و ق : « تقريب كسب من كان قبله » .

وهـي من أعظم ما عُدّ عليه ، وجلّ من لا عيب فيه ، حتى آل أمرها إلى غِنى امثـال بن عيّاد ، ونقصٍ واضح في عمران البلاد .

ومع ذلك لا يخلو عن إعمال الفكـر فيما لا يقتضـي فساد السواد الاعظم [من أهل المملكـة] . قال له بعض وزرائه لما اشتد عسف اللزامة في شأن الجلد والدخان [وغيرهما](1) — وفرض خسارته — : « لو جمعت هذا المال وزدت عليه مثله ووزعته على سائر أهـل المملكـة ، كـان أنفع وأحسن » ، فقال له بديهة : « لا أعادي افريقية في يوم واحـد ، لان كـل من تطلبه يصير بطبعه عدوا ، وفي حالتنا الآن نوع تستّر لا يقتضـي اجتماع القلوب على النفرة في يوم واحد » .

ولاقى في ذلك مرارات المواعظ نطقا وكتابة من شيخنا العالم التقـي أبـي إسحـاق ابراهيم الرياحـي ، وكـان يخشى دعوته ويهابه ، ونقّص ذلك من شهواتـه بعض الشيء .

ومع ذلك كـان متثبّتا في الدماء ، يتحرج من قتل النفوس ولو قصاصا ، الا فيما يرجع للعصيان وتربية العسكر . حتى ان مستوجب القصاص يؤتى به آخرَ ديوان الحكم ، وتقرأ الحجة بمحضره جهرا ، ويأمر بنفوذ القصاص ، ويقوم فورا ويبقى يومَه مغموما [مكروبا] (2) .

وفي أيام مرضه وهو بالصالحية ، استوجب قاتلو المهندس بنوا الفرنسيس القصاصَ ، وكـانوا أربعة ، فتحرج للباس ثيابه ، وأمر باحضار ديوان المحكمة ، فقلت له : « الظاهر ان هذا تعب زائـد [وانت بحال مرض] ، فـان القـاتلين يؤتى بهم الى بيتـك الذي أنت فيه ، وتأمر بما تراه » ، فتعجب من مقالتـي وقال لي : « انها نفس انسانية يراد إتلافها ، ولا نقتل بنـي آدم في المقاصر من غير ديوان ، تعظيما لحرمة النفس ، أتراها دجاجة ايها الشيـخ ؟ » ، فقلت له : « ان النفس لما قتلت نفسا أخرى ارتفعت عنها الحرمة وصارت كـالدجاجة » ، فقال لي : « هذا معتبر في القدوم على القصاص منها ، اما الاعتبار الدنيوي فلا بد من ملاحظته » [وكـان مـحـْجـَاجا] (3) ، فخرج ، ولم يحضر باش حانبة الترك . ولمـا نادى رئيس البوابين باش حانبة على العادة ، تقدم أحد الحوانب ثم تـأخر ، ظنّا ان المقصود ذات باش حانبة ، فأمره بالتقدم وأولاه باش حانبة في اليوم .

(1) الـزيـادة عـن ع و ق .
(2) الـزيـادة عـن ع و ق .
(3) الـزيادة في الفقرة عن ع و ق .

وكـذلك فعل في قصاص آخر وهو [على مرضه] (1) بالصالحية في المحمدية .

يحمل الكَلّ ، ويعين على نوائب الدهر ، ويرحم عزيز القوم . استأذنه ابو عبد الله محمد قرمانلي ، من بيت قرمانلي ملوك طرابلس ، وهو بمالطـة في القـدوم الى تونس [للسكنى بها ليدفن في مقابر المسلمين] ، فأذن له ، وقدم بابنيه أبي محمد حسن وأبي الثناء محمود ، وعظّم مَقْدَمه وأجرى عليه جراية كـافية . ولما توفي دفنه بتربة الملوك من بني أبي حفص بسيدي محرز . ولم تزل الجراية جارية على بنيه ، مع ما لهم من الإجلال والاحترام [المناسب لمقـامهم] (2) .

وكـذلك فعل مع أبي الربيـع سليمان بن جلاّب ، عزيز قومه في تقرت من بـلاد الصحراء ، ويسمى بالباي ، وبيتهم من بقايا بني مرين ملوك المغرب ، كما ذلك في تاريخ الوزير أبي محمد حمودة بن عبد العزيز . وأجرى له جراية ، مع معاملته بما ينبغي لمقامه ، والوفاء له بما فعل جدّه مع جده ايام غربته . وهذا شأنه مع من كـبا به جواده ، وتولى عنه اسعاده . وكـثير منهم في الحاضرة ، كـالتاجر أبي عبد الله محمد هارون الاندلسي ، وأبي عبد الله محمد البامري وغيرهما ممـا يطول تعداداهم .

[وكـان] متألفا لرجال دولته ، آخذا بمجامع قلوبهم ، يراهم كجوارح بدنه ، يسرّه ما يسرهم ويسوؤه ما يسوؤهم . يعود مرضاهم بنفسه او يبعث أحدا من خاصّته ، ويأتي منازلهم لا سيما في رمضان ، ويقترح فيها ما يشتهي من الوان الطعام ، تأنيسا لهم . ويهش لـكـل واحد على قدر منزلته ، مانحا لهم حق التساوي في أصل عنايته ومحبته ، وان اختلفت كميتها (3) باختلاف الاوصاف ، بحيث لا تجد في رجال دولته من يرى نفسه مبعدا او مكـروها . يتكـلم مع بِطانته تكـلّمَ الاكـفـاء ، ويباسطهم ويمازحهم ، فهو كما قـال الشاعر :

ازال حجـابه عنّـي ، وعينـي   تـراه مـن المهـابـة في حجـاب
وقـرّبنـي تفضّلُـه ، ولكـن   بعـدتُ مهـابـةً عنـد اقتـراب

(1) الـزيـادة عـن ع و ق .
(2) الـزيـادة في الفقرة عن ع و ق .
(3) في ع و ق : « مقاديرها » .

ويتحمل مخاشنتهم له في النصيحة ، وان لم يعمل بها ، لا سيما وزير الحرب أبو النخبة مصطفى باش آغة ، لانه جِـدّي الطبع . وهو في قلوبهم أهيب من أسد ، وفي أعينهم أعظم من أُحُد ، مع حبٍّ امتزج بالارواح ، امتزاج الماء بالراح ، لا تحرك رواسيَه عواصفُ الرياح . ويقول : « ان الله لما توفي أبي عوضني من سميّه أبا وهو مصطفى صاحب الطابع ، وأخا هو مصطفى وزير الحرب ، وابنا هو مصطفى خزنه دار . والوزراء أعضائي ، والإنسان لا يتألم من أبيه وأخيه وابنه وأعضائه ، والعامة تقول : من تضربه يده لا يتوجع ، لا سيما وقبول النصيحة أو تركها بيدي » .

ولما توفيت والدته اراد التصدق عليها بتسريح [بعض] (1) المسجونين في الديون ، فأمر أبا محمد خير الدين أمير لواء الخيالة ان يحصيهم لذلك ، فأحصاهم وقال له : « ان جميع المسجونين او اكثرهم في سجن العمال واللّزامة ، وهذا زمامهم » ، فارتمض لذلك وقال له : « خذ من الوزير ما عليهم وادفعه عنهم » ، مع انه انما أمره باحصاء الدين لا بسببه ، ولم يظهر له تغيرا من ذلك ، لانه كان يستنجبه ويقربه .

وكذلك لما هرب ابن عيّاد وبقيت خططه شاغرة . قال لوزيره خزنه دار : « تكلّمْ مع خير الدين يباشر أحوال رابطة الطعام (2) » . ولما كلّمه ، امتنع وقال : « إن اردتم مني ان أباشر مثل ابن عياد فطبعي يمنعني من ذلك ، وما بالذات لا يتخلف . وإن أردتم أن أباشر بما يقتضيه الحق والعقل ، ربما ينقص من دخلها نقص فادح يشين عرضي » . ولما بلغ ذلك للباي قال : « صدَقَني » . ولم يتغير ولا نقصت منزلتُه عنده .

وكذلك عرض ولاية الدخان على أبي عبد الله محمّد [خزنه دار] (3) عامل سوسة ، فامتنع مدّعيا بأن أوقاته مستغرقة في خدمة أعماله ، ولا يمكن ان يقبل ذلك الا بنقص من خططه . ولما بلغه ذلك ضحك وقال : « ليس هذا عذره ، وانما عذره هو عذر خير الدين ، لكنه غطّاه بسياسة » . ولم يتغير ولا نقّص من تقريبه ، بل زاد في حظوته .

---

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) هي ادارة مطامير خزن الحبوب للدولة ، وهي خارج باب سعدون ، بقي اسمها الى الآن ، حيث المستشفى المعروف بهذا الاسم اليوم .

(3) الزيادة عن ع و ق .

وخواصّه يتحققون منه هذا الخلق الكريم [من محبة شيعته وذويه] (1) ، حتى ان صميدة بن علي بن عزّوز لما توفي بتونس ، أمر الوزير بكتمان ذلك عن الباي ، خوفا عليه من انفعال مزاجه بالحزن لفقده ، وهو في فراش مرض .

ومن تألّفه لرجال دولته انه لا يَحجُب والدته عنهم ، ويقول لهم : « هي أمي وأمكم » . ويوم العيد يأتي بهم اليها ويقول لها : « أولادك أتوك ، وأنا اكبرهم ، للهناء بالعيد » ، فتدعو لهم وله . ومَرِضت فلزمها تبديلُ الهواء ، واشتهت أن تكون بحلق الوادي ، فقال لها بديهةً : « تكونين في دار ابنك وزير البحر محمود بن محمد كاهية ، وديارهم انما هي بيوت من داري » ، فحملها الى داره وبقيت مدة هي أم الدار وآله كبناتها وخدمها . وتكرر نزولها بدار الكاهية .

ولما جذب للبحر الجفن الذي أنشأه بحلق الوادي أيام مرضه كما تقدم ، اقترحت عليه أخته الصغرى ، زوج الوزير أبي النخبة مصطفى خزنه دار ، أن تشاهد ذلك [فأسعفها لانه يصطفيها] . وكانت والدته بحلق الوادي في دار الوزير المذكور ، فأتى بها اليها وباتت ليالي . وهو أول ملك باتت أمه وأخته في دار وزير غير مَحْرَم ، [الا انه لم يدخل الدار] (2) .

وفي أيامه استعفى وزيره في الامور الخارجية ، وهو خادم ابيه ، وعمُّه من الرَّضَاع ، الكنت جوزاب راف ، لمكالمة وقعت بينه وبين قنصل الدولة الفرنساوية الكولير دي لقو ، فظهر له ان يسلّم في الخدمة ويسافر لباريس لمحاكمة القنصل ، فاستعظم طلب الإعفاء وكاد ان يعده ذنبا ، فقلت له : « يا سيدي ، ان الامور لا تتوقف على أحد » ، فقال لي : « أنت لم تصل لهذه المنزلة عندي إلا بعد سنين ، فاذا فقدتك لا بدّ من سنين يحصل فيها مثلك » ، فقلت له : « لم تخل المملكة من رجال تتقوم بهم خُطَطها » ، فقال : « نعم ، ولكن مرادي الامتزاج ، وهو لا يحصل دَفْعةً ، وأنا رجل في أسْر مألوفه ، وقد ألِفْتكم وألفتموني . نسأل الله ان لا يفرق جَمْعَنا » . وكاتب الوزير المستعفيَ بما معناه [لانه لم يَحضُرني لفظه] : « أنت حرٌّ تفعل في نفسك ما تراه ، ولست أراك خديما حتى تستعفي ، إنما أنت شيء ورثتُه من آبائي ورضيع أبي ،

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

وأنت تُقرُّ بذلك ، ولك عليَّ بهذا حق لا أستطيع جَحْده . فعليك أن لا تستعفي ، وعلي ان لا أعفيك » . إلى غير ذلك مما ألجأ الوزير إلى ان جاء متنصلاً من فعلته ، قائلا : « إن مثلك لا يستعفي العاقل من خدمته ، وأتحمل لاجلك ما عظم علي احتماله ، ولو نزعت مني خطتك ما فارقت خدمتك » . إلى غير ذلك مما خصه الله به من مغناطيس قلوب الرجال ، فهو مِصْداق قول القائل :

عليك محبّاتُ القلوب تهافتت كما حول بيت الله يجتمع السَّفْرُ
وما حبّهم كان اختيارا وإنما لحبّك مَن يُبصِرْ سجاياك يُضْطَرُّ

وله في تعظيم الجناب النبوي والادب معه آثار مشهورة . مدحه شاعر ، وهو احمد فارس (1) صاحب الجوائب ، بقصيدة عارض بها قصيدة كعب بن زهير في المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وهي « بانت سعاد » المشهورة . فلما قرأت مطلعها بين يديه ، اقشعرّ وقال لي : « هذه معارضة لبانت سعاد ؟ » فقلت له : « نعم » ، فأمر للشاعر بجائزة سنية ، وقال لي : « مزِّقها الآن » ، فقلت له : « بعد قراءتها نمزِّقها » ، فحلف بالله « لا نسمعها ولا يسمعها أحد من خاصّتي » . وبقي يستعيذ بالله أن يعارض مدح المصطفى بمدحه ، مع انه لا محظور في ذلك . لكن الاعمال بالنيات ، ونية المؤمن خير من عمله .

ومن آثار ذلك محبته في آل البيت النبوي وتعظيمهم والتشيع لهم ببِرِّه وصِلاته . وكان يسمّي ما يعطيه لهم « هدية » ، ولا ينطق بلفظ الإحسان على عادة بلدنا في تسمية جوائز الملوك إحسانا أو صدقة ، تفرقةً بينهم وبين غيرهم ، ويقول : « قبولُهم مني ، إحسانٌ لي » .

وقال له بعض الوشاة : « ان الشيخ محمود محسن لا يحبّك ، ويذكرك بسوء ، ويحب ابن عمك » ، فقال : « ما أسعدني لو أحبني ، وان كان لا يحبني فماذا أصنع مع ابن علي وفاطمة رضي الله عنهما ؟ » . وزاد بعد ذلك في مبرته وإكرامه . وقلت له : « أترى ان ابلغ للشيخ [من تلقاء نفسي] (2) ما بلغك ؟ » ، فقال لي : « والله ان الخبر لم يصحَّ عندي ، ولا شك ان سماعه يسوؤه ، ولا أرخص لك في إدخال إساءة على شريف » .

---

(1) الشدياق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

وكنت في بعض الاحيان اقول له : « ان غلوّ سيدنا في السادة الاشراف غُلُـوُّ شيعة » ، فيقول لي بديهةً : « لا اعتقد خلاف مذهب أهل السنة في تقديم الخلفاء الراشدين على حسب تقدمهم ، ولو كنتُ حيًّا يوم الجمل ويوم صفّين ، أقاتل مع سيدنا علي ، محبة في آل بيت الرسول ، وان آخذني ربي بذلك فأرجو رحمته على ما خلقه فيَّ ».

وكان محبّا للعلم ، معظما للعلماء ، عارفا بمنازلهم (1) ، ذا وَلُوع بفن التاريخ . قرأت بين يديه كتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة مرارا متعددة ، وكتاب المنتظم [في اخبار الرشيد والامين والمأمون والمعتصم] (2) ، وغيرهما من كتب التاريخ الاسلامية ، واذا ذكرت له مقدمة ابن خلدون ، يقول لي : « نعرفها » ، ويستشهد منها بما يوافق غرضه . وتاريخ نبليون الاول المعروف (3) .

وكان يتأسف على ضياع شبابه في غير طلب العلم ، وهو بشهادة الله موضع أسف لمن علم فطرته السليمة وفكره الوقّاد . ولذلك اجتهد مع ابناء تربيته ومماليكه بالصرايا في تعليم القرآن والكتابة ، وضمّ اليهم شيخَ تجويد . وضم الى ابن تربيته ووزيره أبي النخبة مصطفى خزنه دار ، الشيخَ العالم أبا زيد عبد الرحمان الكامل ، والفقيه ابا النخبة الشيخ مصطفى بوغازلي الحنفي ، فأخذ عنهما ما حصّل به مشاركةً . ولذلك ترى غالب مماليكه فصحاء يجيدون القرآن (4) ويحسنون الكتابة .

[وكان] معتقدا في الصالحين ، يحبُّ مجالسة أهل السلوك منهم ، كالشيخ أبي النخبة مصطفى بن عَزُّوز ، ويتباعد من المجاذيب مع تعظيمهم واعتقادهم ، ويشتهي معرفة الحدثان منهم ومن غيرهم . وكثر ذلك أيامَ مرضه حتى آل به الحال الى استكشاف عاقبته من العزامين على اختلاف أصنافهم ولو من غير أهل الملّة . وفي المثل : « الغريق يتمسك بشعرة » .

وكان وزيره خزنه دار يُجِلُّ مقامَ سيده عن ذلك ، ويباشر هؤلاء بنفسه ، راضيا بنسبته إليه دون سيده ، وان كانت حالة سيده تنافي ذلك [التستّر] (5) ، لانه سويٌّ

---

(1) في ع و ق : « عارفا بما لهم من الفضل » .
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) « المعروف » في خ ، و « المعرف » في ع و ق .
(4) كذا في خ ، وفي ع : « يجيدون القراءة » وفي ق : « يجودون القرآن » .
(5) الزيادة عن ع و ق .

الظاهر والباطن ، صادق اللهجة ، مترفع عن ضده ، ويقول : « لو كان الكذب مباحا ما حسُنَ من مثلي ، لان سببه في الغالب الخوف » .

[وكان] شديدا في مواضع الشدة ، هيّنا في مواضع اللين ، له شيء من الاوْبة الى الله عند سماع الموعظة ولو من غير أهلها . دخلتُ اليه في ليلة من رمضان ، قبيل وفاته ، لقراءة « الشفاء » ، فوجدته على فراشه واجما مطرقا مفكرا حزينا ، ووزيره جالس بين يديه ، فقلت له : « لا بأس عليك ، مالي أراك مطرقا ؟ » ، فقال : « لِما أنا فيه ، انا الآن نصف إنسان ، طريح فراش ، أتوقع ان أكون كَلاًّ على من يحبّني ، ومحمود بن عياد في فرانسا يخاصمني على مالي بمالي » ، فأردتُ تقوية قلبه وقلت له ، على غير سنن الادب الواجب على مثلي لمثله : « أي شيء جرى لك ؟ » ، فأجابني بصوت شجيٍّ : « أتحب لي أكثر من هذا ؟ » ، فقلت له : « اشكر الله يا سيدي ، ففي الحديث الشريف : ما من مصيبة الا وعند الله أعظم منها ، وأعظم من فقد اليد والرجل ، فقد العقل ، وفقد اللسان ، وتفرق الخاصة ، وانحلال الحامية ، وثورة العامة ، وصولة البغاة ، وانقطاع الجباية ، وغلبة الدين ، وقهر الرجال ، الى غير ذلك مما يهوّن هذا الحال ، وأنت على ما أنت تبعث في الجيوش من المغرب الى المشرق ، والكلمة مسموعة ، والامر مطاع ، والرعية في حزن لمرضك ، والدولة دولة ، وقد ابقى الله عليك نعمة العقل . وان هروب ابن عيّاد لم تهرب به المملكة . ومتى احتاجت الناس لقوّة بدنك وسرعة مشيك ؟ فان تيمورلنك أخذ الاقطار وهو نصف إنسان محمول على أعناق الرجال في الحروب . فالواجب عليك يا سيدي شكر الله تعالى القادر القوي ، فاني أخشى اذا لم تقيّد نعمته بالشكر ، يرسل علينا نقمة أشدّ مما نحن فيه ، والله على كل شيء قدير » ، فبكى ، رحمه الله ، واسترجع ، وقال : « يا ربي إني تائب اليك ، راضٍ بما حكمت به عليّ ، نشكرك على نعمتك » . ثم أمرني بالقراءة ، ولم يزل نادما مستغفرا من مقالته .

والحاصل من ترجمة هذا الامير انه ذو همّة عالية ، استصغر بها ما أقامه الله فيه ، فحمّل هذه الإيالة ، على ضعف حالها ، وضيق مجالها ، ما لا طاقة لها به من التقدم في ترف الحضارة ، والاستكثار من الجند ، والإفراط في تكثير قادتهم ، وغالبهم أسماء بلا مسميات ، مع التفنن في الكرم الحاتمي ، فجاد وما لديه قليل .

وأتعبُ خلقِ الله من زاد همُّـه ... وقصّر عمّا تشتهي النفسُ وجدُه

إلى غيـر ذلك من مقتضيات علو النفس [والإمْرة] (1) المطلقـة ، حتى تجـاوز الحدود ، وهو نقصان من المحدود ، والتقدم للغاية تأخر عنها ، والزيادة على الكـفاية نقصان منها ، ولا يخلو الانسان من ودود يمدح ، وعدوٍّ يقدح .

ومَن ذا الذي تُرضى سجايـاه كـلُّهـا   كـفـى المـرءَ نبلاً أن تعدَّ معائبـه
وَمَـن الـذي مـا سـاء قـط   ومـن لـه الحسنـى فقـط ؟

واذا تتبـع المنصف ما له وما عليه ، يجد سيئاته مغمورة في حسناته ، « والحسنـات يذهبن السيّئات » . وأرجو الله ان يكـون من الذين « خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحـا وَآخَـرَ سَيِّئـا » . وناهيك انه لم يترك على البلاد تِباعةً . وبعض الشر أهون من بعض . ومـن استبطنه وخالطه ، يعلم ذلك علما يقينيّا . ولا أزكّيه ، وقد ذهب الى ربه العالم بما أودَع فيه . وهذا بموازنته مع مَن تقدمه من غالب آل بيته ، وأمثاله من ذوي الملك المطلق ، والا فالكـمال وراء ذلك كـلـه لله .

ومن مـآثره قصر باردو وقشلته ، وابنية المحمدية والصالحية بها ، [وليتها لم تكـن] ، وقصر حلق الوادي وجامعه ، وقشلة الطبّجيّة ، وقشلة الخيّالة [بمنّوبة] ، وقشلـة غار الملح وتوابعها من المبانـي ، وزاوية أبـي مدين الغوث ، وزاوية على ضريـح المجذوب الحاج فرج امام سيدي عبد الله الشريف ، وزاوية لمقابر الاشراف قرب دار المملكـة ببطحاء القصبة ، وأعجوبة دار الملف [على وادي مجردة] (2) ، وغير ذلك .

وهو الذي رتب وجقا من الصبايحية بسوسة والمنستير ، ووجقا بقابس قاعدة وطـن الاعراض ، ووجقا بالجريد ، وكـلها محتاج اليها فيما يراد منها . وغير ذلك من المـآثـر الواضح في الجامع الاعظم خبرها ، وعلى العلم والعلماء والاشراف أثرها .

واتفق ليلة الاربعاء الخامس عشر من رمضان ان كـان درس الشفاء فصل « ومن توقيره صلى الله عليه وسلم برُّ آله وذريته » . واستزاد القراءة في تلك الليلة ، ومهما أردت القطع يشير علي بالزيادة ، [تلذذا بفضائل آل رسول الله صلى الله عليه وسلم] (3) ، الى أن ادرك منا التعب .

(1) الـزيـادة عن ع و ق .
(2) الـزيـادة فى الفقرة عن ع و ق .
(3) الـزيـادة عن ع و ق .

واصبح نهار الاربعاء باكما يعالج سكرات الموت ، ووزراؤه وخواصه محدقون به ، قلوبهم وجلة ودموعهم جارية ، يفدونه بأنفسهم لو يقبل الفداء ، إلى آخر ما قدر له من انفاس المدى (1) .

وبعثوا [الاميرَ] أبا العباس أحمد زَرُّوق الى ابن عمه وولي عهده ، وهو في بستانه بالمرسى ، فأتى في الحين ، ومعه شقيقه صاحب الدولة الآن ابو عبد الله محمد الصادق باي ، وبقي الى العصر ، ثم قال : أرجِعُ لمحلي لاني ضعيف البدن بمرض ، فطلب منه الوزراء ان يُبقِيَ معهم أخاه ، ففعل . وبقي الباي على حاله يجود بنفسه الزكية وهو في السكرات ، الى آخر ما قُدِّر له من انفاس الحياة ، نصفَ ليل الخميس . وتوفاه الله في عبادة ، وأمارات سعادة ، متمسكا بالعروة الوثقى ، والآخرة خير وأبقى . فدفع الوزراء خَتْمه لابن عمه الحاضر ، وبعثوا لولي العهد فأتى ، وبايعوه البيعة الخاصة . وركب من فوره الى باردو ، ومعه الوزير [مصطفى] (2) صاحب الطابع ، وأمير لواء العسّة فرحات ، والعبد الحقير . وبقي أخوه مع الوزراء ورجال الدولة في حلق الوادي ، حتى حملوا الميت فجر يوم الخميس ، في كروسة مغطاة بالصنجق ، الى داره بباردو . ودفن صبيحةَ يوم الجمعة ، حذو أبيه بتربة آله ، على فخامة لم تعهد لمثله . وحضر جنازته العسكر بالسلاح منكسا . ولما خرجوا بنعشه من باردو أطلق منه مدفع ، وبعد دقائق أطلق منه مدفع آخر . وهكذا الى ان رجعت الناس من الجنازة ، بعد ان وضعوا ذلك الجسد على التراب ، والآمال سراب ، وكل ما فوق التراب تراب ، والدنيا أحلام ، والعز منام .

قابله الله بفضله وإحسانه ، وعفوه وغفرانه ، وهو الغفور الرحيم .

انتهى الجزء الثاني .

(1) الى هنا ينتهى خ ، والفقرات الاتية من ع و ق .

(2) الزيادة في الفقرة عن ع .

الباب السابع

في دولة

المشير الباشا أبي عبد الله محمد باي

ابن حسين باي بن محمود باي بن محمد باي بن حسين باي بن علي



مولده في شعبان من سنة 1226 ، ست وعشرين ومائتين والف (اوت — سبتمبر 1811 م.) ، وأمه حفيدة عثمان داي الشهير الذكر .

قرأ شيئا من القرآن في اوائل سنه على الشيخ المجود أبي العباس احمد السّنّان ثم على الفقيه أبي محمد حسن التطاوني .

وتدرب في الفروسية والرماية والنسج على منوال الشهامة .

ولم يعرّج به والده على شيء من طرق التهذيب وأخلاق الكمال (1) التي يجب ان يتعلمها مثله من ابناء الملوك ، فكان على الفطرة ، الى الامّية أقرب .

وسافر بالمحالّ في حياة عمّه الباشا أبي النخبة مصطفى باي ، وهو الذي رقّاه عن حالة الطفل [كما تقدم في الباب الخامس] (2) .

وسافر في دولة ابن عمّه المشير ابي العباس أحمد باي ، مرضيّ السيرة ، محمود السريرة . واستعفى من السفر ، كما تقدم في الباب السادس .

ولما توفي ابن عمّه المشير أبو العباس أحمد باي ليلة الخميس السادس عشر من رمضان سنة 1271 ، إحدى وسبعين ، كما تقدم ، استقدمه الوزراء ورجال الدولة من بستانه بالمرسى ، فقدم لحلق الوادي وقت السحر .

ولما دخل البيت ورأى ابن عمه طريحا على الارض ، وعند رأسه شيخنا العالم الفاضل الصالح ابو عبد الله محمد بن ملوكة ، بكى واسترجع وقال للحاضرين : « كأني ملقّى على الارض كأخي هذا » .

ويقال انه نَمَى إليه من بعض من له أثارة من علم الحدثان ان مدة ولايته قصيرة كجده الاعلى سَمِيِّه .

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « وأخلاق السياسة » .
(2) الزيادة عن ع و ق (انظر ص 197 ج 3) .

ولما بايعه الحاضرون البيعة الخاصّة ، قال لهم : « ان بيتنا لا يصلح إلا بكم ، كما انكم لا تصلحون الا ببيتنا » . وفي الحين كاتب الداي وأهلَ المجلس الشرعي وأمراء العساكر ومشايخ الحاضرة بوفاة ابن عمه وقيامه مقامه .

ودفع له أخوه الحاضرُ على الوفاة صاحبُ الدولة الآن خواتمَ الميت المؤمّنة عنده بحضرة الجماعة . ولما أخذها ، أمره أن يبقى مع الوزراء ليأتي بالميت . ونهض الى باردو [فوصله عند الشروق] (1) .

ولما دخل البيت بباردو بكى ، ولم يجلس في موضع ابن عمه ، فتقدم له بعض الحاضرين وقال له : « وددنا ان صاحب هذا الموضع لم يمت ، ولما اصبنا بموته لا تطيب أنفسنا الا بجلوسك في موضعه » ، وأخذ بيده وأجلسه في الموضع .

ولما تجلّى النهار ، بلغ الخبر للحاضرة ففزع مَن بلغه الخبر الى البيعة .

ومن الغد جاء أهل الحاضرة [على العادة] (2) للبيعة العامّة .

وقدّم أخاه أبا عبد الله محمد الصادق باي للسفر بالمحالّ ، وألبسه نيشانه . وسرّح أبا عبد الله محمد بن عثمان باي من محبسه بالدار الكبيرة في باردو .

وكاتب جهات المملكة بوفاة ابن عمّه وولايته ، فتسابقت البلدان والعروش للبيعة ، طائعين مستبشرين ، على العادة مع كل جديد . وأقرّ الوزراء ورجال الدولة على مراتبهم .

وقال له الوزير أبو النخبة مصطفى خزنه دار : « ان شرفي هو خدمة بيتكم ، لانني نشأت في داركم تحت ظلال نعمتكم ، فنطلب من فضلك ان تحاسبني على جميع ما جالت فيه يدي » ، فقال له : « أنت ثقة مصدّق أمين » ، فألحّ في طلب ذلك ، فأمر أبا عبد الله محمّد عاملَ الساحل بمباشرة حسابه ، فأحضر كُتّابَه وقُبّاضَه ودفاتره واطلع على المقبوض والمصروف . ولما تمّ تلخيص الحساب ، جاء به الوزير مع [أعيان] الدفاتر الى الباي ، وقال له ، بمحضر الوزراء ورجال الدولة : « هذا حسابي ، قبضت في مدة خدمتي ما هو مرقوم في هذا التلخيص ، وصرفت في المدة ما هو مرقوم ايضا ، وكان المصروف أكثر ، وأنا غير طالب له ولا دفعته من مالي ، وليس على دولتك المباركة

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) الزيادة عن ع و ق .

دّين » ، فقال له بعض الحاضرين من الوزراء بديهةً من غير روية : « أنا أول قادح في هذا الحساب ، ومن أين جاءت هذه الزيادة ؟ » ، فأجابه الوزير بلين وسياسة : « لك ان تنظر في فصول القبض هل نقص منها شيء ، وفي فصول الدفع هل زاد فيها شيء ، وما وراء ذلك [لا تسألني عن] (1) نتيجة أصابعي ، ولي ان أطلبه لو استحللت الخيانة . ولهذا أتيت بالدفاتر ليطلع عليها كل من يريد الانتقاد » ، فخجل القادح ، واستصوب الحاضرون الجواب ، لان وراءه العيان . وقال الباي ، منكرا على القائل : « إنا نعلم ذلك » . وأخذ الازمّة وصحّحها بخطه في ذلك الجمع ، بعد أن اطلع على تلخيص جوامعها ، فقال له بعد ذلك : « الآن أجدّد خدمتي لسيادتكم على اساس صحيح » ، فدعا له الباي .

وبعد ذلك جعل [هذا الباي] (2) مناطَ نظره التخفيفَ من الجباية ، والضربَ على ايدي العمّال . وذلك ، بشهادة الله ، هو الاصل الاصيل في سياسة الممالك ، شرعا وعقلا وطبعا ، لا سيما في هذه الإيالة المسكينة .

وأسقطَ من الجباية المرتبة على بيع الحيوانات والانعام اكثر من نصفها ، وقد كانت ربع الثمن .

وأبطل حرسا بأبواب البلاد يفتشون الداخل بها خشيةَ ان يكون عنده الدخان او غيره من الاشياء ، الى غير ذلك مما كان ينقمه على ابن عمّه لِمَا يسمع فيه انكار الناس . وتجاهر بذلك تجاهرَ القادر على تغيير المنكر .

وكاتبه ابو محمد خير الدين [من باريس] في شأن اقتراض المال المأذون فيه من ابن عمه ، فكتب له بأن لا يفعل ، وقال لي اكتب له : « صَبْرُنا على أنفسنا خير من صبر الناس علينا » ، بهذا اللفظ . وشكر خيرَ الدين في عدم الاستعجال ، [والعجلة والندامة فرسَا رِهانٍ] (3) ، وأنقذ بها البلاد من هاوية ، وان أوقعها في مثلها غلطا ، كما سيأتي ان شاء الله تعالى . ومن صبا الى الشهوات ، اعقبته البليات .

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

ورأى هذا الباي ، بحسب نظره ، ان معنى الملك هو انتصابه كل يوم بالمحكمة لفصل المتنازعين كصاحب الشرطة ، وكان ينكر على ابن عمه عدمَ مباشرة ذلك ، ويراه من التفريط ، لانه لم يتوصل لسبب ذلك .

وأحزمُ الناس من لم يرتكب سببا حتى يفكّر ما تجني عواقبه

وانتدب الوزير ابا النخبة مصطفى صاحب الطابع للخدمة ، وتقدم ، وظهر منه ما يُنكَر على كماله ، من الاستعجال بالاعتراض على أمور سلفت كان ينقمها على الوزير خزنه دار ، وهي في الحقيقة صادرة من ابن سيده وابن تربيته أحمد باي ، وحجبه عن ذلك ما يحول بين المرء وقلبه . وقوة الامراء ، تجعل الاوزار على ظهور الوزراء .

ورام هذا الباي إجراء الناس على السذاجة المتقدمة وعادات المسلمين ، وإن خالفها في نفسه وحاشيته وذويه ، فقدّم [صهرَه] (1) أبا النخبة مصطفى بن محمد بن محمد بن محمد بيرم محتسبا (2) فرام تغيير المنكر وحمل الناس على ما رآه من الحق جملةً . ولا يخفى ان ذلك كان متعذرا في الصدر الاول ، فضلاً عن هذه الاعصار . قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لابنه : « نخشى ان نحمل الناس على الحق جملةً فيتركوه جملة ، وان الله ذم الخمر مرتين وحرّمها في الثالثة » .

ثم أمر باحضار ما وجده من العسكر والمهمات والخيل مهيّأ لإعانة من في خدمة الدولة العلية من العساكر التونسية ، وتوجه لحلق الوادي يوم الخميس الرابع عشر (3) من شوال السنة 1271 (28 جوان 1855 م.) ، وحضر لركوبهم في البحر ، ورجع في يومه وترك وزير الحرب ابا النخبة مصطفى حتى تمّم ركوبهم ، وشحن لوازمهم .

واختار ابا عبد الله محمد عامل الساحل لسفارة الدولة العلية ليأتي له بفرَمان الولاية السلطانية على العادة . وبعث معه جانبا من المال ، إعانةً للدولة . وأوصاه بأن يُشيعَ بأنه عازم على القدوم لاسلامبول .

---

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) اى قائما بوظيفة الحسبة
(3) هو 12 حسب التقويم .

وسافر يوم الاثنين الخامس والعشرين (1) من شوال السنة 1271 (9 جويلية 1855 م.)، وأصحبه الوزيرُ مصطفى صاحب الطابع ، ابنَه أبا عبد الله محمد رشيد كأحد أتباعه ، وأمرني بالكتابة للدولة بما نصّه :

« اللهم بالثناء عليك نتقرب اليك ، وبالصلاة على رسولك وخلفائه المتناسقين ، نسلك سبيل المتّقين ، وبشكر نعمك ، نقرع باب كرمك ، وهو باب الدولة العلية العثمانية ، والسلطنة المجيدية الخاقانية ، المخدومة بالاعمال والنيّة ، المقصودة لبلوغ الامنية ، الوارد فضلها على الاقطار من كل ثنية ، والشمس عن مدح المادح غنية ، وكفاها أن رفعت من الملة الحنيفية أركانا ، وأقامت للحق قِسْطاسا وميزانا ، وروت أحاديث العناية الربانية صحاحا حِسانا ، وورِثَ ملوكُها الارضَ وهم الصالحون سلطانا يتبع سلطانا ، من سَمِيِّ ذي النورين الى من اختاره المجيد سبحانه لعباده ، وأقام به شعائر دينه وفروض جهاده ، وتولاه باعانته وإسعاده ، وسيّر على يده مصالح أرضه وبلاده . لا زالت القلوب بطاعته مؤتلفة ، والسيوف والاقلام بخدمته متّصفة ، والالسن في الإقرار بعجزها عما يجب له منصفة . وبما ذا أحيّي تلك الحضرة العلية الشامخة ، والقدم التي [هي] في كل فضل راسخة ، ضاق نطاق العبارة ، ولم يبق الا مسلك الإشارة ، بالرجوع إلى السنّة ، وتحية أهل الجنة ، السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله ، من عبد نعمته ، العاكف مذ نشأ على خدمته ، محَمد ابن خديم الدولة حسين باشا باي .

أما بعد ، فالمعروض على تلك الحضرة ولها طول العمر ، ونفوذ الامر ، أن رهين نعمتكم ، وعبد طاعتكم ، وعاشر هذا البيت في خدمتكم ، ابن عمِّ عبدكم ، ومقام أخيه المشير أحمد باشا باي سار (2) الى عفو الله فداء الحضرة السلطانية ، متزودا بما مات عليه من طاعة الخلافة وخدمتها بالعمل والنيّة ، وفي الحين بادر أهلُ الإيالة التونسية عموما وخصوصا ، وكانوا بنيانا مرصوصا ، إلى هذا العبد الفقير وألقوا إليه مقاليد أمورهم ، والنظر في حفظ مفردهم وجمهورهم ، فقام العبد بما وجب عليه من جمع الكلمة الاسلامية ، والدعاء على المنابر للسلطنة المجيدية ، راجيا رضى الخلافة في تأمين البلاد ، وزوال روعة العباد ، وسدِّ طرق الفساد ، واعتصمنا بحبل الله جميعا ، ولبّى العبد الفقير سلطنتكم

(1) هو 23 حسب التقويم

(2) في ع و ق : « صار » .

سامعا مطيعا ، على عادة أسلافه الخُدّام ، مع السلف الصالح السلاطين الكرام ، ووسيلةُ هذا العبد انه نشأ في ظل سلطنتكم ، وتغذّى بِلِبان نعمتكم ، وتعرف من نعمكم الانواع والاجناس ، واستضاء من عنايتكم بنور يمشي به في الناس ، والكرم يرى لسالف الخدمة ، تَأَكُّدَ حرُمة ، وقد تُرجَى العنايةُ من ذلك الباب ، اعتمادا على فضل ذلك الجناب ، ولا يمتُّ بغيره من الاسباب ، وعادات السادات ، سادات العادات .

والامل أن تزيد خدمة عبدكم على خدمة من مضى ، حتى يرى من ظل الله الرضى . والله يعاملني بنيّتي ، فيما عرضتُ من أمنيتي ، قبل حلول منيتي .

وقد ابتدأ العبد خدمته بما كانت اليد فيه مع من تقدم واحدة ، والقلوب والجوارح عليه متعاضدة ، وهو إرسال طائفة من العسكر إعانةً لتلك الفئة القليلة التي تقدمت ، وبحسن القبول قوبلت ، والامل الذي عليه المعوّل ان يشملها [من] الفضل [ما شمل] (1) الاول ، ومعها جهد المقلِّ ومنتهى طاقة الضعيف وعلى قدر المهدي الهدية ، في هذه الإعانة الجهادية ، وعلم السلطنة بالحال والكُنْه ، يقتضي الإغضاءَ عنه . يقدِّم ذلك عبدُ السلطنة المكتفي بوثوقه وأمانته ، وسياسته ونجابته ، أحدُ خواصِّ عبدكم ومحلُّ ابنه محمد أمير لواء . وهو النائب عن العبد العاجز في طلب الفضل ، الذي وسيلته الرجاء والامل . وفضل الكرام لا يتوقف على ملاحظة عمل .

اللهم أعنّا على ما أوجبت لهذه السلطنة من فروض الطاعة ، وتأدية الحق جهدَ الاستطاعة ، واعصمنا بيدها الطولى من الإضاعة ، واحملنا من مَرضاتها على سَنَن السُّنّة والجماعة . اللهم انا اليه ناظرون ، وعلى أمره صادرون ، ولإنجاز وعدك في نصر من ينصر دينك منتظرون ، فما فقد شيئا مَن وَجَدك ، ولا خاب مَن قَصَدك . آمين يا رب العالمين ، وسلام على المرسلين ، والخلفاء الراشدين ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين . وكتب في شوّال 1271 » .

ورجع هذا السفير [ناجح المسعى] (2) يوم الثلاثاء العشرين من محرم سنة 1272 اثنتين وسبعين (2 اكتوبر 1855 م.) ، ومعه كاهية رئيس الكتاب في الصراية السلطانية ، بالتشريف السلطاني وفَرَمان الولاية للباي ، وترقى السفير الى رتبة أمير أمراء ، وقبل الباي الفرمان في موكب حافل مشهود بباردو .

(1) الزيادة عن ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

وكاتب الباي السلطنة الشريفة بالمغرب بما نصّه : « الجناب الذي نتسلىّ عن المفقود بوجوده ، ونستضيء في ليل الشدائد بأنوار سعوده ، ونتقرب الى الله بحبه وحبّ آبائه وجدوده ، ونتحصن بموالاته من كل خطْب قبل وروده ، جناب السلطان الرفيع الشان ، لباب السلاطين الاعيان ، الحائز قصبَ السَّبْق في كل فضل وإحسان ، وكيف يوفي البيان ، بفضائل مَن حبُّه أمان وإيمان ، مولانا عبد الرحمان بن مولانا هشام سلطان المغرب ، لا زال كل لسان بفضله يُعرِب ، ويتفنن في ذلك ويُغرِب .

أما بعد سلام كريم ، طيّب عميم ، تَفْتَرُّ عن ثَغْر الوداد مباسمه ، وتَهُبُّ في تلك الساحة العَلَوِية نواسمه ، فالمعروض الى ذلك الباب لا زال محروسا من غِيَر الايام جنابه، مسدولاً عليه ستر الله وحجابُه ، أن ابن عمّنا ومقام أخينا المشير سيدي أحمد باشا باي سار الى عفو الله ليلة الخميس السادس عشر من رمضان ، بمرضه الذي أصابه منذ أزمان ، ولكم طول العمر ، ودوام الامر ، وفي الحين أجمع أهل الحل والعقد على بيعتنا ، وسارعوا الى الانتظام في سلك طاعتنا ، فلبّينا دعوتهم ، وقبلنا باعانة الله بيعتَهم ، وجَمَعْنا الكلمة ، وائتسينا (1) بالصبر على ثقل الامانة في حفظ هذه الامة المسلمة ، وبادرنا باعلام حضرتكم الشريفة ، وسدتكم المنيفة ، لما لنا في بيتكم النبوي من تشيع واعتقاد ، وموالاة وداد ، ووثوق واعتماد ، [وتيمن واستناد] (2) .

والله َ أسأل ببركتكم وعنايتكم وإعانتكم التوفيق لما يرضاه ، فالهدى هدى الله . والمرغوب من نفسكم الزكية المحمدية ، وهمّتكم الحسّنية العلوية ، وسلطنتكم المطاعة بالعمل والنيّة ، المتوسّل ببركتها في بلوغ الامنية ، ان يكون دعاؤكم سبب إسعادنا ، وأعظم أمدادنا ، في بلوغ مرادنا . والله يرى أن مرادي الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقي الا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . والسلام » . [وكتب في اوائل المحرم عام 1272] (3) (اواسط سبتمبر 1855 م.) .

وأجابه السلطان بما نصه :

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « وتدرعنا » .
(2) الزيادة عن ق .
(3) الزيادة عن ق .

« من عبد الله سبحانه المتوكـل على الله ، المفوض أمره إلى الله ، امير المؤمنين ابن امير المؤمنين ، ابن امير المؤمنين ابن امير المؤمنين ، عبد الرحمان ابن هشام أيّد الله جنوده ، ونصر أعلامه وبنوده ، تحية تنمّ بأسرار اليمن في المبدإ والإعادة ، وتشرق بأنوار البشائر في مطالع السعادة ، وتفتح للرضى والقبول كـل باب ، وتؤم بفيوض الكرامة والإسعاد حضرة الاحباب ، إخوان الوفاء والصفاء والإنصاف ، المختصين بأطايب الشيم وجلائل الاوصاف ، ومن تسامى مجدهم وسَنَاؤهم حتى جاوز العَنَان الى الافلاك ، ومن نظمت الليالي والايام مـآثرهم نظم اللآلىء في الاسلاك ، حضرة الفرد المراد بهذه الجموع ، المتحلي من أبّهة الملك بكـل مرئـيٍّ ومسموع ، سلطان الممالك التونسية ، والاقطار الافريقية ، الجالس على كـرسـي قاعدتها التوفيقية ، والحائز بالفرض والتعصيب لمزايا ولاياتها التصورية والتصديقية ، المشير الامجد الباشا محمد باي أسعد الله ذكـركم ، وأعلى على الاقدار قدركم .

أما بعد فانه بلغنا كـتابكم الذي شفّ عن طواياكم النيّرة ، وأنبأ بشناشنكم الطيّبة الخيّرة ، وهو وإن كـان بأوائله أذهل الاذهان ، فقد خفّ بثوانيه ذلك الخطب وهـان ، وذلك أنه نعى أولاً أخاكم الهمام المرحوم ، ثم بشّر ثانيا بولايتكم التي هـي مـركـز تدور عليها السعادة وتحوم ، ونحن نسأل الله الذي له الامر كـلّه ، وبيده ملكوت كـل شيء وعقده وحلّه ، ان يبعث من حضرة تأييده لمعونتكم من جنود الإمداد ، ما لا تحيط به الاعداد ، ولا يدرك بالاستعداد ، وان يقوّيـكم على الخير الذي جبلـكم عليه ، ويساعدكم على هذا الامر العظيم الذي اختاره لـكم واختاركم له وندبـكم إليه ، ولا شك انـكم ان شاء الله بذلك أحرياء ، بأمارة ان جعلـكم من طلب الإمارة أبرياء ، فسيقت لـكم بـلا استشراف منـكم ولا معوّل ، اذ لم تجد المعالي عن جلالتـكم متحوّل ، فلذلك حطت في ذَرَاكم النزيه أحمالها ، وأناخت في ساحة عزّكم أجمالهـا ، وقصـرت على سيـادتـكم تفصيلها وإجمالها .

فاحمدوا مولاكم الـكـريم الذي خصـّكم بأشرف مواهبه ، واسلـكـوا الى إرضائه من شكـر آلائه أحسنَ مذاهبه ، وتعرضوا لمزيد فضله الذي وعد به الشاكـرين ، واطلبوه عند ذكـره فانه مع الذاكـرين .

هذا ، وانا معكم على ما درج عليه الاسلاف ، من التواصل والاتفاق والائتلاف ، ذات واحدة وبناء مرصوص ، كما هو مُسنَد منصوص ، فادعوا الله لنا وأمّنوا اذا دعوتم ، لا

سيما اذا انفردتم بالله (1) وخلوتم ، ونحن لكم كذلك ان شاء الله وعلى عهدكم ومحبتكم ، والسلام » .

[في متمم محرم الحرام سنة 1272] (2) (الجمعة 12 اكتوبر 1855 م.) .

وسرّ الباي بهذا الجواب ، وتيمّن بالدعاء من الشريف .

*

وفي اواسط شوال ثاني شهور ولايته (اول جويلية 1855 م.) ، قدم من الدولة الفرنساوية قنصل للحاضرة ، اسمه ليون روش ، يتكلم بالعربية بل يحسنها نطقا وكتابة ، ويستشهد بآيات قرآنية وأحاديث نبوية . جال في اقطار المغرب ، وركض في كلّ ميدان ، وهبّ مع كل ريح ، فقام الباي لتلقّيه في بيت قصره ، وهو أول قنصل قبل بهذه الكيفية الجاري بها عمل الوقت مع سائر القناصل .

وترامى على الامتزاج بهذا الباي ومداخلته ، تراميا يزري بمنصبه ولم يعهد ممن تقدّمه ، وكأنه آنس ضعفا [في القريحة] (3) فاستعمل الفضول في إبداء النصائح وتلوينها . وهو أول من أظهر ذلك من قناصل جنسه . وله في ذلك مراد ، والله المراد فيما يريد .

*

وفي السابع عشر من الشهر (الثلاثاء 3 جويلية 1855 م.) أمر هذا الباي بتنقيص من عدد الشهود المنتصبين بالحاضرة وعملها ، ولم يبق بالحاضرة الا مائتين فقط ، وسلب أوامر ولاية الباقين ، لما بلغه أن أفرادا منهم يُلمَزون بسوء في الشهادة ، فقال له الوزراء : « الواجب الاقتصار على الملموزين فقط ، ولا يؤاخذ البريء بالمجرم [فكل نفس بما كسبت رهينة] » (4) ، فأبى . وعارضه في ذلك الوزير مصطفى خزنه دار معارضة قوية ، فأصرّ وادّعى ان سبب إصراره هو ان قنصل الفرنسيس طلب منه ذلك ، واذا أسعفه في مثلها يكون ذريعة لغيرها .

(1) كذا في خ و ق ، وفي ع : « بالنية » .
(2) الزيادة عن ق .
(3) الزيادة عن ع و ق .
(4) الزيادة عن ع و ق .

وأمر شيخ الإسلام ابا عبد الله محمد بيرم الرابع بجمع أوامر سائر الشهود بالمملكة ، والذي ينتخبه منهم يكتب له في طُرّة أمر ولايته ويرجعه له ، فثقل ذلك على الشيخ ، لانه تقدم مثل ذلك لجدّه ، أيام أبي الحسن علي باي بن حسين ، ورضى الخلق غاية لا تُدرك ، فقال له : « هذا حمل لا أقدر عليه وحدي ، فالاَوْلى أن تقيّد أسماء الشهود بزمام ، ويعرض الزمام على سائر اهل المجلس الشرعي ، وكل واحد ينتخب من الزمام مائتين ممن يشهد فيه بالعدالة ، ويعرض ذلك عليك ، فمن شهد فيه الاكثر فهو المنتخب ، ومن لم يعرفه أحد فهو مجهول الحال حتّى يزكّى» . ووقع الانتخاب على هذه الكيفية . ثم ظهر للباي أن يقدّم انتخاب شيخ الاسلام فقط ، ويُعرِض عن انتخاب غيره ، فتحرج أهل المجلس الشرعي من ذلك ، ولاقى الشيخ بسبب ذلك شدة ومحنة ، وسلقته الالسن الحِداد ، كما وقع لجدّه بل أشدّ . وتضرر بهذا جمع من الفقراء المستورين كانوا يرتزقون بالتوثيق ، وانتقلوا من كَفَاف الى ضِيق .

⁂

وفي يوم الاربعاء العشرين (1) من شوال المذكور (4 جويلية) قدم من فرانسة ابو عبد الله محمد الامين باي ، وابو عبد الله محمد المأمون باي ، ومعهما أمير الامراء ابو عبد الله محمد المرابط صهرهما ، ومن معهم من الذين وجّههم الباي أحمد غرّة شهر وفاته ، لتهنئة سلطان الفرنسيس بلطف حفّ به ، كما تقدم ذكره .

ولما بلغه وصولهم لحلق الوادي ، أركب إخوته لتلقّيهم ، واختلى بالوزير أبي النخبة مصطفى صاحب الطابع ، والوزير أبي النخبة مصطفى خزنه دار ، ووزير الحرب أبي النخبة مصطفى باش آغة ، وقال لهم : « عزمتُ على عزل محمد المرابط وصالح شيبوب ونفيهما وأخذ كسبهما » ، [وهم ممن يعلم ان ما جاز على المثل ، يجوز على المماثل] (2) ، فقال له بعضهم : « ان احدهما صهر بيتكم » ، فقال له : « نُلزِمه طلاق بنتنا ، وقد استولوا على الكثير من أموال الدولة » . ثم قال له وزير الحرب : « ان محمد المرابط خدم اخاك في مرضه كثيرا ، حتى انه كان يوضّئه » ، فلم يرجع ، فقال له صاحب الطابع ٠

(1) هو 18 حسب التقويم .
(2) الزيادة عن ع و ق .

« لا بدّ من ذنب تعتمده في ذلك » ، فقال : « لاَ أَكْذِب عليهما ، ولا نريد خدمتهما ، ولا بد من أخذ كسبهما » ، ولعمري ان هذه المجاهرة باتّباع الغرض ، أحسن من الاسباب الواهية ، فالاقتصار على خطيئة واحدة احسن من الجمع بين خطيئتين ، فقال له الوزير مصطفى خزنه دار ، لما عيل صبره : « لا بدّ من التثبت في ذلك ، فوراءنا ألسنة الناس وصحف الاخبار في الاقطار ، ولا يفوتك أخذ مالهما ، لكن على غير هذا الوجه » ، فقال له : « لا بد من ذلك اليوم ، خشية هروبهما أو إخفاء مالهما ، وانما استأنيت بشيبوب خشية هروب المرابط وهو خارج المملكة ، وكلامي لكم انما هو إعلامكم بمرادي » . وخرج منتظرا للغنيمة الباردة . هكذا بلغنا ممن حضر الموطن ، ودَاخل البايَ في ذلك من بطانته السريّة .

ولما دخلوا عليه ، قبّل أخوه وابنُ عمه يدَه ، ووراءهما مَن اؤتمن عليهما ، وهو محمد المرابط . ولما وصل ليقبّل يده ، قبضها عنه وأمر بسجنه في بيت لواء العسة ، وأمر بسلب نواشن افتخاره وولايته ، وأمر باحضار صناديق سفره فرجع له منها ثياب المهنة فقط ، وأمر بالاستيلاء على سائر كسبه ، منقول وغيره من طارفه وتالده ، والزمه طلاق زوجته فطلّقها مكرها ، وأنا أحد شاهدَي الطلاق ، بعد أن طلب الامان على رمقه ، فأعطاه ذلك .

وفي الحين أمر بسجن صالح شيبوب ، وسلب سائر نواشنه ، والاستيلاء على جميع ما يملك .

وأمر بحسونة متّالي ومحمد بن الشيخ ومحمود البناني وغيرهم من خواص أحمد باي فسلبهم سائر ما عليهم من النواشن ، وطردهم وأخذ جميع ما نالوه من سيدهم بأعمارهم التي ضاعت مجانا في خدمته سفرا وحضرا .

وأمر بأبي محمد حسن المرابط ، وكان يومئذ كاهية القيروان ، فسلب نواشنه أيضا واستولى على داره بجميع ما فيها ، وسائر ما على كسبه من المنقول وغيره ، وذنبه أن محمد المرابط أخوه .

ولما لم يجد عند محمد المرابط وصالح شيبوب مالاً ناضا يقارب ما كان يؤمله ، قال لابي الفداء اسماعيل صاحب الطابع ، من خواص مماليكه : « اذهب اليهما واسألهما عن كسبهما ومالهما ليدلاّ عليه خير من تعذيبهما » ، فامتنع من هذه الرسالة وقال : « لا

أقدر على مواجهتهما بالمكروه » ، فانتُدِب لذلك أبو المسرة فرحات أمير لواء العسّة ، وأتاهما في محبسهما فقالا له : « لا مال عندنا الا ما هو في بيوتنا من الرسوم وغيرها ، وأزِمّتنا تشهد لنا بذلك ، وإن أراد تعذيبنا فالامر إليه ونحن في قبضته » . وكرر عليهما الإرسال فلم يسمع غير جوابهما الاول ، فأمر بنفي المرابط الى القيروان ، وصالح الى جربة. وتتبع كسبهما من أقاربهما وأتباعهما ، حتى انه أخذ حُليّ زوجة صالح شيبوب ، وهي ابنة الوزير أبي الثناء محمود كاهية [حلق الوادي] ، وان عاوضه لها بما هو دونه [في القيمة] (1) .

وجاء بهذه الاحدوثة على غير قياس ، مبنية على غير أساس ، اقشعرت منها الجلود ونَبَتْ عنها الاسماع ، وهدمت الآمال وحسمت الاطماع ، وتحدث أهل الحاضرة بأن لا ذنب لهؤلاء العباد ، الا كونهم من ابناء البلاد ، وهامت أفكار الناس في كل واد ، اذ لم تكن بشبهة ذنب يمكن الى ظلها الاستناد ، ولهجت بذلك صحائف الاخبار ، في معمور الاقطار . وتعجب قنصل الفرنسيس من ذلك ، لانه لم يُعهَد في دولته ولا في بني جنسه ولا في قطر مما جال فيه .

وأعجب من ذلك أني فاوضت بعض العلماء في هذا الحال ، فقال لي : « إن ذلك جائز بالكتاب والسنة والاجماع والقياس » ، فقلت له : « رضيتُ منك بالقياس فقط » ، فتهمهم واختلط ، لان الباي اصطفى اموالهم لخاصة نفسه ولم يجعلها في بيت مال المسلمين ، [ولان هؤلاء ليسوا من العمّال] (2) . والى الآن لم نسمع من هذا العالم شيئا من الجواب ، وسأسمعه يوم العرض للحساب .

⁂

وفي هذه الايام نقّص الباي من المؤذنين بالجامع الاعظم عددا كثيرا ، وقد كانوا مائة وأربعين مؤذنا . وأثّر ذلك في أهل الحاضرة ، وذلك أنهم يرون هذا الجامع كعبة البلاد ، يتبركون بسدانته وتتوارثها الابناء من الآباء ، ولا يعتبرون دخلها ، وان كان من التافه الذي لا يؤبه به ، اذ كان القصد النسبة لبيت الله والتيمن بالانخراط في سلك

---

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

خدمته ، فترى الاغنياء واهل الوجاهة يتسابقون الى هذه الخدمة ، ويرون رسم أسمائهم في دفترها حرمةً ونعمة ، ويوقفون عليها من أموالهم الاوقاف النافعة .

*

وفي غرة ذي القعدة من السنة 1271 (الاثنين 16 جويلية 1855 م.) ، نمى الى الباي أن رجلاً يقال له محمد السقا ، كان من العسكر وخرج بعوَض ، يأوي بداره أهل الفسوق والبطالة ، ويقصد محلّه مَن يريد التستر بمعصيته . وأنكر ذلك المحتسبُ ، وقال للباي : « هذا منكر يجب تغييره » ، فأمر الباي باحضاره ، مع عواهر من فسقة النساء . ولما وقف بين يديه ، أمر بقتله هدفا للرصاص ، قبل ان يعلمه بذنبه [او يسمع منه كلمة] (1) .

وكان الوزير مصطفى خزنه دار واقفا بين يديه ، فتطارح على تقبيل رجليه ، شافعا في إبقاء حياته وعقابه بغير القتل ، قياسا على ما عهده من سيده الاول ، فردّ عليه منكرا ذلك ، وقال له : « مثلك لا يشفع في مثل هذا » . وقتل المسكين ، سامحه الله .

ثم أمر بنفي النسوة الى قرقنة ، وأمر المحتسب بالاستيلاء على سائر كسبهن ، وبيع بالسوق ، وأخذ الباي ثمن ذلك لنفسه .

وخرجن منفيات يتكففن من اهل تلك الجزيرة بما يعلمه الله .

وشقّ ذلك على الناس أيضا ، [حيث رأوا هذا التهاون بالنفوس والاموال] (2) ، وتنوعوا في ذكر الاسباب ، وكلّها سبّاب . والعذر له ، فان بعض العلماء في السرّ أفتاه بذلك ، وأن التعزيز باجتهاد الحاكم ، وذكر له حالة الصدر الاول ، ورام القياس ، ودُونه فوارق . وكأن الفقيه لم يدر قوله صلى الله عليه وسلم : « إنكم في زمان من ترك منكم عشر ما أمِر به هلك ، ثم يأتي زمان مَن عمِل منكم بعشر ما أمِر به نجا » ، أخرجه السيوطي في الجامع الصغير ، عن الترمذي ، عن أبي هريرة . وأي قياس بين الصدر الاول والقرن الثالث عشر ، وبالامس كان المزوار ذا خُطّة معروفة حتى أبطلها مصطفى باي رحمه الله .

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) الزيادة عن ع و ق .

على ان الستر مطلوب في امثال ذلك [شرعا] (1) ، قال صلى الله عليه وسلم لمن أخبره برجل يزني : « هلاّ سترتَه بثوبك » . ولم يقبل الشارع في ثبوت الزنا أقلّ من اربعة شهود ، على كيفية مخصوصة ، واذا نقصَ واحد من الاربعة ، وجب على الثلاثة الباقين حدُّ الفِرْية . واكتفى في القتل ، وهو أشد من الزنا ، بشاهدين . ما ذاك إلا لامر يعلمه الله . وغاية ما توصلت اليه العقول طلب الستر ، الى غير ذلك مما يُرَدُّ به هذا الاجتهاد في التعزيز ، لان الاجتهاد لا بدّ من بنائه على قاعدة عقلية او سمعية .

على أن قتل هذا الرجل لا مظنّة فيه لزجر الغير . والواقع يحقق ذلك . وجرى المحتسب على هذا السنن في هذا الزمن ، فمنع ، بأمر الباي ، النسوةَ من لبس الكلاسط (2) في الازقّة ، ومن لبس النعل الساتر لوجوه أرجلهن ، وألزمهن النعل السابق ، وان كان فيه كشف الرِّجل وهي عورة . واستعان على ذلك بأوغاد لا يعلمون القبيح من الحسن . وكان من نوابه جاهل من اراذل الناس ، مرّت به امرأة بنعل ساتر لرجلها ، وهو بسوق العطارين ، فأمر أتباعه بتمزيقه في السوق بمرأى من الناس ، فتوسلت اليه ببركة الجامع أن لا يفضحها ، فلم يصغ لتوسلها ، ومزق نعلها ، فرجعت حافية لدارها تَعثر في دموعها . إلى غير ذلك مما لا يحتمله طبع الزمان ، ولا يقتضيه شرع الإيمان ، المبني على العدل والإحسان والامان .

وامتدت يد المحتسب الى فصل الخصومات ، ومباشرة الظلامات ، وتشكى من ذلك الداي وغيره من ذوي الولايات . وكان ذلك على كُرْه من أخيه أبي عبد الله محمد بيرم شيخ الاسلام . وتكلم الوزراء في ذلك مع الباي ، وبصّروه بمقتضى الحال والوقت ، فتبصّر ونهى المحتسب ، فقصّر [يده] (3) .

*

ثم نظر في أمر العسكر ، فرأى أيدي الضبّاط تجول فيهم بلا قانون ولا حدّ معلوم ، يستعملونهم في خدمة أنفسهم كالعبيد ، فأنكر ذلك ، وكتب لكل واحد من أمراء الالوية ما نصّه بعد افتتاحه واسم المخاطب :

---

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) الكلاسط : الجوارب (عامية تونسية) .

(3) الزيادة عن ق .

« اما بعد ، فانه بلغني ان بعض الضباط تمتد أيديهم في العسكر بالسجن والضرب وغير ذلك من استخدامهم في حاجات أنفسهم ، وليس لهم ذلك ، وانما حسبهم الرئاسة عليهم في التعاليم العسكرية والقواعد الحربية ، والترتيبات النظامية التي اليد فيها واحدة ، على حسب الاقدار والمناصب . فاقتضى النظر أن نحجر ذلك عليك ، على مكانتك المكينة عندي ، أحرى مَن دُونك . ومن الآن لا يقع عقاب لعسكري بضرب أو سجن إلاّ عن أمرنا ، فلا يعاقب بضرب مَن عصى إلا مَن بيده العصا . واذا صدر من بعضهم ما يقتضي العقوبة ، وخشيتم هروبه ، فحسْبكم إيقافُه في القشلة ، وارفعوا الينا نازلته فورا لنأمركم بالذي يكون عليه عملكم . ولا يستخدم ضابطٌ عسكريا في حاجة نفسه . وارفعوا إلينا سائر ما يقع في القشلة من حقير وجليل ، بحيث لا يقع بها أدنى شيء إلا عن أمرنا ، وأنتم الامناء على تنفيذه . والعناية بالعسكر ، الذين هم الشعار والدثار ، تقتضي ذلك . فلا أشرف عندي من خدمة أحوالهم بنفسي . فاجمعْ سائرَ من لنظرك من الضباط ، واقرأ عليهم أمرنا هذا ، ليعلمه كل واحد منهم ، ويكون حكمه قانونا جاريا . وحذّرهم عقوبة المخالفة ، فاننا لا نتجاوزها لهم ولا يسعها حلم بعد هذا التنبيه المسطور في هذا المنشور . وتعدّد الايدي في العقوبات والاحكام ، مفسدة للأنام . والله الذي كلّفني ويسألني عن حالهم ، أمرني بعدم إهمالهم . والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم . والسلام » . وكتب في 17 صفر سنة 1272 (الاثنين 29 اكتوبر 1855 م.) .

***

وكان لا يتحمل استطالة أيدي العمّال على الرعية بالضرب ونحوه من الاستعباد ، شأن غالب الملك المطلق ، لا يبيحون ذلك لغيرهم . حتى انه عزل مملوك أبيه وأحد خواصه محمد علي [آغة] عن ولاية الوطن القبلي ، لانه ضرب إنسانا ضربا شديدا [أشرف بسببه على الهلاك] (1) ، وحلف إن مات المضروب ليقتصنّ من العامل . وأسقط منزلته وأقصاه عن الخدمة . ويقال ان المضروب مات ووقع مع أوليائه صلح بمال له بال ، بحيث أنهم لم يرفعوا بذلك شكاية . وذلك ، بشهادة الله ، من أكمل خلاله ، وما يعدّ من كماله .

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

وفي يوم الاحد الرابع (1) من جمادى الثانية سنة 1272 (10 فيفري 1856 م.) نقل الباي عسكر المحمدية الى قشلة سوق البشامقية بالمدينة ، وحضر يوم دخولهم لها بنفسه ، ومعه أكابر العسكر ، ورفع بها الصنجق ، وأطلقت عليه المدافع من القصبة والابراج . لان المحمدية بنيت على استعجال ، [فتداعت ابنيتها] (2) فلزمها إصلاح يلزمه مال له بال . وامتدت أيدي الخراب المتوقع قبل إبّانه المظنون . وللباي محبة في خرابها ، شأن غالب ملوك الإطلاق في محو آثار من تقدم منهم ، لا سيما والناس يذكرونها بالشؤم .

***

وفي رابع شعبان 1272 (الخميس 10 افريل 1856 م.) ، سافر الشيخ العلامة المفتي ابو عبد الله محمد النيفر متطوعا بالحج ، وبعث معه الباي صُرَّةَ الحرمين الشريفين ، في شقف حربي أباحه لركوب الحجاج بلا كراء .

***

وفي الثاني عشر من الشهر (الجمعة 18 افريل) اتى الخبر بوقوع الصلح بين الدولة العلية ودولة الموسكو ، بواسطة الدول العظام . واجتمع سفراؤهم لعقد ذلك في باريس . واطلقت المدافع بحلق الوادي في الصباح ووسط النهار والعشي ، إعلانا بذلك .

***

وفي اوائل أيامه استرجع أشياء كان اقترحها الولي المجذوب الشيخ عمر عبادة بالقيروان ، الله أعلم بمراده فيها إن اقترحها حقيقة . وهي قطع (3) حديد ، واشياء من الفضة ، ودراهم [من ذهب وفضة] (4) وغير ذلك . ووفى له أحمد باي باقتراحه ، لما له فيه من العقيدة . وساء ذلك أهلَ الولي الزاهد ، ونَقَمها الناس عليه وتحدثوا في شأنها . وهي أحدوثة أعظم من قيمتها ، لولا الشغف بالردّ على من تقدّمه .

---

(1) هو 3 حسب التقويم .
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) كذا في خ ، وفي ع و ق : « قناطر من حديد » .
(4) الزيادة عن ع و ق .

وأمر هذا الباي بضرب سكة من الذهب ، وكتب فيها اسمه مجردا عن لقبه ، في الوجه الذي به التاريخ ، إلا أنه أجحف فيها وحابى الدولة بالربح ، [شأن المتأخرين من ملوك الإطلاق في الاسلام] ، فأجحف ذلك بالتجار ، لا سيما الافرنج ، ورأوا نقصان أموالهم فضجّوا بالشكاية [لقناصلهم] (1) .

ولما تحقق الضرر بالتجار وبالمملكة ، لان بعض تجار الافرنج صار يضرب مثلها في غير تونس ، ويأتي به ، ولايعتذر من ذلك ، بل يقول ان السكة تحتَرم ما دامت على سَنَن أمثالها ، فاذا اتخذها صاحبها سببا لربحه صارت صناعة وتجارة لا حَجْر فيها ، فلذلك رفع ضررها وأبدلها بسكة ذهب لم يربح فيها الا نحو ما يصرف على عملها . وكتب الى قناصل الدول بما نصّه :

« اما بعد فان سكة الذهب التي ضربناها في إيالتنا على حسب ما اقتضاه الحال ، ظهر لنا في تبديلها مصلحة للعمالة والمتجر ، فاقتضى نظرنا ان نجمعها بتمامها ونعيد ضربها على قدر الريال فضة بوخمسة . فالعمل ان تنبه على سائر من لنظرك ان من عنده شيء منها يدفعه لناظر دار السكة الثقة العمدة الارشد القايمقام ابننا [قاره] (2) محمد ، ويأخذ منه توصيلاً في القدر الذي يدفعه ، حتى يعيد ضربه ويرجعه لربّه ويأخذ توصيله . ومدة جمع السكة المذكورة بتونس خمسة أيام من غد يوم التاريخ ، بحيث ان من أتى بسكة ذهبا بعد الخمسة أيام تعتبر اعتبار قطعة ذهب لا سكة . وكاتبْنا بلدان عمالتنا بأن مَن بيده شيء منها يأتي به لدار السكة . وجعلنا لابعد البلدان ، جربة والاعراض والجريد ، عشرين يوما من وصول أمرنا ، ولبلدان الساحل عشرة ايام ، وغيرها من البلدان على حسب قربها من الحاضرة . والمعتبر يوم وصولها لدار السكة . ومبدأ دفعها لاربابها بعد مضيّ نصف شهر من يوم وصولها ، ومدة الدفع نصف شهر آخر ، بحيث يكون الدافع بعد مضيّ شهر من يوم دفعه خالصا ، بحول الله . ونرجو إعانتكم في هذه المصلحة العامّ نفعها للمتجر والعمالة ، ومن الله الإعانة » .

وكتب في 22 (3) شوال سنة 1272 (الخميس 26 جوان 1856 م.) .

---

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) كذا في خ ، وفي ع : « 28 شوال » ، وفي ق : « 18 شوال » .

ولما اراد الباي كَتْب اسمه على السكة التي خسر منها اكثر مما ربحه ، على ما هو موجود الآن ، عارضه جميع وزرائه ، ومنهم شيخ الاسلام ، معارضة ملوك الإطلاق ، فصمّم على شهوته .

ولما رأى شيخ الاسلام تصميمه ، قال له : « انه وقع مثل هذا بافريقية ، وذلك ان زيادة الله بن الاغلب ضرب مبلغا من الدنانير زنة الواحد عشرة مثاقيل ، وكتب عليها في وجه :

« يا سائرا نحو الخليفة قل له أن قد كفاك الله أمرك كلّه

بزيادة الله بن عبد الله سيفِ الله مَن دونَ الخليقة سلّه »

وكتب في الوجه الآخر :

« ما ينبري لك بالشقاق منافق الا استباح حريمَه وأذلّه

من لا يرى لك طاعةً فالله قد أعماه عن سبل الهدى وأضلّه »

فقَنِع بهذا المثال ، وطلب من الشيخ أن يكتب له الابيات ، وقد تقدمت في العقد الثاني من مقدمة هذا الكتاب ، وأن فاعل ذلك هو آخر بني الاغلب ، بعثها في هدية من جملة نفائس ، ولم يضربها للرواج في التعامل . ولم يقصد الباي بهذا التصميم خلافا ولا نبذا لواجب الطاعة للدولة العثمانية ، وانما ليرى نفسه انه فعلَ ما لم يفعله أحد من آله المتقدمين ، شأن ولوع المستضعفين بالإغراب . ويقال ان قنصل الفرنسيس هو الذي حسّن له ذلك في السرّ ، وأوهمه أوهاما لم تكن تخطر بباله ، ولا يحسبها من آماله ، لانه كان يعيب على ابن عمّه شدة حذره من الدولة ، ويقول مرارا انه يشتهي التوجه الى السلطان ، الى غير ذلك مما يجري على اللسان بغير روية .

⁂

وفي ذي القعدة من السنة 1272 (جويلية 1856 م) ، توفي قنصل الانقليز ، وبعث الباي خاصته وأعيانا من العسكر ، ودفن بموكب يناسب أمثاله ، على مقتضى مقام دولته المعظمة ، كما فعل ابنُ عمّه مع مثله الذي توفي في مدته .

ولما كـثر تخفيف الباي من الجباية بالتنقيص تارة وبالإبطال أخرى ، كضريبة المغنّين واصحاب آلات المسيقا (1) ، مع توسعه في المصاريف عل نفسه وداره ، بمقتضى شهوته ، توسعا يناهز توسُّعَ مَن تقدمه ، إلا ان المصرف مختلف ، نبّهَهُ الوزراء بأن « مصرف البلاد ، والحالة هذه ، كـثير ، واذا نقصت الجباية فمن أين المصرف ؟ » ، فأجابهم بأن « إبقاء الجباية بأيدي العمّال على هذه الكيفية ، وهو ان ما يدّعونه من الخسارة في اللـزمة يوزعونه على أهل عملهم باجتهادهم من غير تعقب ولا وازع ، هم المدّعون للخسارة وهم الحكام على توزيعها ، هو الذي نقّص عمران بلدنا حتى أخذت سبيل الخراب ، ولا بدّ من ترتيب أداء يستوي فيه كـل الناس ، معلوم المقدار ، ونسمّيه إعانة . واذا عاد الى المملكـة عمرانها نستغني عنه » . وحضر لذلك شيخ الاسلام ، فأنكره وقال لـه : « ما كان المظنون بك هذا » ؛ وأشار الى تنقيص التوسع الذي منه النواشن المرصعة ، ومصادرة العمال » ، الى غير ذلك . فلم يصغ له . واتفق الرأي على ذلك . وأمرني بانشاء منشور الإعانة ونصّه :

« الحمد لله الذي أناط العمران بالعدل والإحسان ، وشرف بالتعاون نوع الإنسان ، وأعانه عليه بالاصغرين القلب واللسان ، وجعل المصالح تختلف باختلاف البقاع والازمان ، بما يدفع المضرة ويجلب المنفعة والامـان ، وقلّد النظر في ذلك بكـل قطر لمن يجمع عِصَابة الإيمـان ، والصلاة والسلام عـلى سيدنـا محمد المؤيّد بمعجزة القـرآن ، الآمـر بالتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعُدْوان ، الحاثّ على العدل والرفق والحنان ، وعلى آله وأصحابه السادة القادة الاركـان ، الذين بلّغوا إلينا شريعته وأحاديثه الصِحاح الحِسان، وتعاونوا على حفظ المِلّة بالاموال والابدان ، وعلى التابعين ومَن تبعهم باحسان .

أما بعد فاننا حرّرنا هذا المنشور ، المرجوّ نفعه في الدنيا وثوابه يوم النشور ، لـكـافّة أهل إيالتنا جعلنا الله وإياهم ممن يهتدون بالحق وبه يعدلون ، ووفّقنا لعمران أرضه بالتعاون والله خلقـكم وما تعملون .

اعلموا ان الله جلّت قدرته لما قلّدنا القيامَ بأموركم ، وسياسةَ مفردكم وجمهوركم ، رأينا أوّلَ واجب في الديانة ، حفظ المؤتمن على الامانة ، ورجونا من فضل الله القوي القادر

---

(1) كـذا في خ و ع ، وفي ق : « الموسيقا » .

الإعانة ، لان الامانة سرٌّ من أسرار الله يُناط بها المراد ، ويحاط بها العباد ، ويماط بها الفساد ، ولا يتمّ هذا المراد إلا بأعوان وأجناد ، وحامية في كل بلاد ، ولا قوام لسائر الاعمال ، الا بما يلزم من المال .

وجرت عادة الله في نوع الإنسان ، أن لا مال إلا بعمران ، ولا عمران الا بعدل وأمان، ولا أمان الا بزجر أهل البغي والعُدْوان .

وقد وجدت عمران وطننا الذي حبّه من الإيمان ، اعتراه الخلل والنُّقْصان ، وقلّ من ساكنه العمل ، لضعف الامل ، وإن كان ذلك من ذنوبنا ، وما لا يخفى على الله من عيوبنا ، فاعتمدت [الله] (1) الغنيّ عنّا وعن أعمالنا ، في السعي لصلاح أحوالنا ، وبادرنا الى النظر في أحوال الحيوان ، وهو من أعظم اسباب العمران ، فأبطلنا من الموظّف على بيعه ثلاثة أرباعه ، وكشفنا بذلك عن وجه الإعانة بعضَ قِناعه ، ولم نلتفت الى الاسباب الحاملة على اختراعه . ثم حسمنا مادّة تطفيف الكيل ، وتركنا مَرْتَعه الوبيل ، وأرحنا تاجر الله من ذلك الويل ، وتحملنا نقصه الواضح الثقيل ، وغير ذلك مما أعان عليه المقدور والإمكان ، مما يرجع لتيسير أحوال السكان ، والتخفيف عن موادّ البُنْيان . ثم التفتنا الآن الى ما يفرض من تباعات الملح والجلد والمحصولات والدخان ، وغير ذلك مما يفرض على أيدي العمّال بالاوطان ، فرأيناه يُوزَّع على الفقراء ، وتُصان عنه الاغنياء والكبراء ، مع ما تبعه من سوء سيرة بعض العمال ، المفضية لفساد الاعمال ، ويتعسر فيها إثبات الشكوى ، ولا يمكن الحكم بمجرد الدعوى ، إلى غير ذلك من الاعمال التي لا يحفظها سياج ، ولا يبقى بوجودها عمران ولا إنتاج . فان قطعنا هذه الاحوال — كما هو الامل — من أصولها ، يقع الخلل لقطرنا من نقص محصولها ، إذ لاغنى لارضنا — والحالة هذه — عنها ، والامل في الله الكريم أن يعوّض ذلك مما يخرج منها . وإن أبقينا الامرَ كما كان ، بقيت أسباب النقصان ، ولم يجر العدل في الخلق — وهم عيال الله — والله يأمر بالعدل في محكم القرآن . فرأينا الآن مصلحة المسلمين ، في سلوك أخفّ الحالين . وعلى العبد أن يسعى ، ومن الله نجاح المسعى . وأبطلنا سائر ما كان يُفرَض على الرؤوس من تباعات (2) المحصولات ، والدخان ، والملح ، والجلد ، والاتفاق ، والديوان ، والكبش ،

(1) الزيادة من هامش ع .
(2) كذا في خ و ق ، وفي ع : « تبعات » .

والمَجبى ، وخيل الشوك ، وثيران الكرِسْتَة ، وفرس العادة ، والضيفة ، وسائر الطوارىء وغير ذلك من سائر ما اعتيدَ فرضُه وتوزيعه ، على اختلاف أصنافه وأسمائه وأوصافه ، مما يصدق عليه اسم أداء ، تقدم العمل به أو تأخر ، قلّ أو جلّ ، عدا أعشار الحبوب والزيت ، وقانون الزيتون والنخيل ، فانها زكاة مكاسب لا توزيع فيها على الاشخاص ، وعدا ديِات القتلى ، لما فيها من الزجر لاهل الفساد ، فانها تبقى على حالها المعتاد . أما الجلد فانه لربّه ، يبيعه لمن شاء ، او يستعمله بغير الدبغ . [واما الدبغ] فانه لا يقع الا في المدبغة [السلطانية] (1) المعتادة ، ونشتري ما يلزمنا منه لمهمات العسكر مثل الناس .

واما الدخان والملح فأبقينا أماكن بيعها بالبلدان والاسواق لمن يريد الشراء من غير غصب ، وفيما يتحصل من ثمنها كفاية .

ومن باع شيئا في سوق أو بلد فانه يؤدي ما رسم على بيعه في الزمام المطبوع لمتولي خلاص ذلك ، من غير زيادة .

ولا بدّ من جبر هذا المسقط الكثير ، المشروح بهذا الظهير ، باعانة من نزر يسير ، تكملة لما يلزم مصلحةَ الوطن ، وتأمينَ مَن عبر وقَطَن . وهو ثلاثة ريالات في كل شهر يُعين بها كلُّ ذَكَر بالغ من أهل إيالتنا مصلحة بلاده ، ومدفن آبائه ومنبت أولاده .

ولا يُستثنَى من هذه الإعانة أحد من أهل الخيام والمداشر والقُرى والبلدان ، يستوي فيها المشروف والشريف ، والقوي والضعيف ، عدا نواب الشريعة من قُضاة ومُفتين ، فاعانتهم بتقوى الله في نوازل المسلمين .

والمحقق أن المؤمن يسارع الى هذه الإعانة ، على مقدار رتبته في الديانة .

وقد جعلنا لكل عامل قدر ما رأيناه له كفاية من بيت مال المسلمين ، على اختلاف مراتبهم وأعمالهم ، بحيث لا تمتدُّ يده ولا يطمح نظره او تتوق نفسه لاخذ شيء من الرعية قلّ أو جلّ ، أو زيادة على هذا المقدار .

وان خالف فسترون ما يحلُّ به ، من آثار نقم الله وغضبه .

---

(1) الزيادة في الفقرة عن ق .

وبابنا مفتوح لكل متظلم ، وآذاننا لسماع الشكاية واعية ، وأعيننا لما يصدر من العمال راعية . ولكل نبأ مستقرٌّ ، وسوف تعلمون .

اما مشايخ العربان الذين عليهم دَرَك (1) العدد والخلاص والمباشرة ، فقد جعلنا لكل شيخ اربعة ريالات ، ثلاثةً له وريالاً لخلاّصه (2) على كل مائة ، من عين الإعانة التي باشر خلاصها ، فهي من بيت المال لا من الرعية .

وليكن توزيع هذه الإعانة في كل عمل بمحضر علمائه على اختلاف مراتبهم من قضاة ومفتين ونواب وأيمة وعدول وأعيان العمل ووجوهه ومشايخه ، بحسب ما في المكان من الاعيان . ويرفع كل عامل الينا دفترَ ذلك في كل عام ، مصحّحا من العامل ومَن حضر من ولاة الشريعة ، وشهادتهم على من حضر من الاشياخ والوجوه ، ليكون مجموعهم مؤاخذا بدرك ما عسى أن يقع من نقص او تفريط أو محاباة أو تغافل عن بعض أشخاص .

ومن قصّر في هذه المصلحة العمومية الإسلامية فقد خان الله ورسوله وجماعة المسلمين، ورفض حبل الله المتين ، وتسبّب لنفسه في العقوبة ، وأعظِمْ بعقوبة خائن ربّه ، وأهل وطنه وحزبه ، ولا يسعنا التجاوز عن خيانته ، وضعف أمانته .

وقد كان الضعيف في هذه المُدَد ، يدفع أكثر من هذا العدد . فاذا نظر بعين الإنصاف لنفسه ، رأى مزية يومه على أمسه ، بشهادة حاله وحسّه . والموسر ان ثقلت عليه هذه الاعانة ، وتلكأ بعدم الاعتياد وأكبر عنها شأنه ، ومنع من فضل الله إخوانه ، وقابل بالإساءة نعم الله وإحسانه ، فقد عرّض نعمتَه للزوال ، بعدم شكر المنعم المتعال . ومن المعلوم بلا نكر ، أن قيد شوارد النِّعَم الشكر ، والتقصير في إعانة المسلمين والإخوان من اقبح الكفران . ومن كفر النعمة ، استوجب النقمة . فمن تلدّد أو تلكّأ نعيّن له ونشدّد عقوبته .

ولا تجول بحول الله يد عامل من العمّال في شيء زائد على ما حررناه ، وأظهرناه وسطّرناه . ونَظَرُنا باعانة الله وراءهم ، صباحهم ومساءهم . ولا يُذاد (3) مظلوم عن بابنا ، من (4) خواصّنا أو حُجّابنا ، لا سيما بعد هذا الإعلام المرقوم في كتابنا .

---

(1) الدرك : بفتح الراء ، الثقل — التبعة (عامية تونسية) .
(2) الخلاص : مستخلص الجباية بتكليف من الشيخ .
(3) كذا في خ و ع ، وفي ق : « ولا يرد » .
(4) أى من طرف .

اما المدن ، وهي القيروان وسوسة والمنستير وصفاقس ، فحسب الاصيل بها من الإعانة ما أبقيناه بها من اللزم المعتادة ، وهي عند الاعتبار اكثر من هذه الإعانة ، لان المدن مُناخ البضائع والرِّحال ، وموضع ثمرات الصناعة والانتحال (1) ، في الخِصْب والإمحال ، فلها أحكام تخصّها على كلّ حال . هذا في أهلها أصالةً ، أما الوافد عليها فحكمه حكم بلده أو قبيلته ، ولا أثر لسكنى المدينة في نسبته .

كما أن كل منسوب الى بلد أو عرش ، فانه يعين مع إخوته ، من قبيلته او بلدته ، وإن لم ينزل معهم ، أو باعد موضعهم .

ومبدأ خلاص هذه الإعانة شهر يونية الاعجمي من عام التاريخ .

وأكرر تحريض المظلوم على رفع ظُلامته ، وبثّ شكايته ، وأبرأ الى الله من مظلمته ، ان لم يبادر لشرح حالته . فلم يُقِمنا الله الا لدفع الضرر عن ساحته ، والتبصّر في نازلته .

وأمَرْنا باعلان هذا المنشور في كافّة أهل العمل بمحلّ اجتماع المسلمين كالمسجد الجامع [والزمالة] (2) ويحفظ لكل من يريد قراءته ، حتى تمتلىء به الاسماع ، ويمتزج علمُه بالطِباع ، في سائر البقاع ، ويشرع كل عامل على هذا النحو في مباشرة العمل ، ومن الله بلوغ الامل . وما توفيقي الا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

اللهم إنا مددنا اليك يد الضراعة والإبتهال ، راجين من فضلك الإعانةَ على صالح الاعمال ، فقد قلتَ وقولك الحق : « أدْعُونِي أسْتَجِبْ » ، وأنت الفاعل للمسبّب والسبب ، والله يجعل رعيتنا وسائر المسلمين من الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنَه ، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله . والله يرزق من يشاء بغير حساب . والسلام » . [في شوال عام 1272] (3) (جوان 1856 م.) .

وهذه الإعانة — على ما هي — حسنة لهذا الباي منسوبة ، وفي جليل خصاله محسوبة ، بالنسبة الى الحالة المتقدمة من عَيْث أيدي اللزّامة والعمّال في أموال الناس ، فهي من أخفّ الضررين ، وخير الشرّين . وقد توعّد مَن خالف . وأتبع القولَ فعلاً ،

(1) الانتحال : الاحتراف (دوزى) .

(2) الزيادة عن ق ، والزمالة هى مكان تجمع القبيلة أو المعسكر .

(3) الزيادة عن ق .

فعاقب مشايخَ ماجر بالسجن في الكَرّاكة لما اتفقوا على تنقيص جانب من عددهم ، وكاد أن يَفْتِك بهم . وعاقب آخرين على أخذ الزائد بالسجن والعزل ، وأخَذَ ما استخلصوه زائدا من أهل الجريد ، لم يبال في ذلك بمقرَّب أو صهر أو وجيه ، فخافته العمّال ، وقَصَرت عن الظلم أيديهم ، وكاد أن ينقطع تعدّيهم . وعاقه الاجل عن إتمام هذا المراد الحسن ، وكاد أن يرجع العمران للوطن .

*

وفي هذه المدة توالى ورود المراكب العثمانية والتونسية بمرضى العسكر التونسي ، لانه اتفق ان موضع حربهم كان وَبِيءَ الهواء وخيمَ المرتع . وتحدثوا أن أميرهم أبا محمد رشيد عانى كثيرا من مرضاهم بنفسه مباشرة ، وأبلى في ذلك البلاء الحسن .

وفي يوم الاحد الثاني (1) من ذي الحجّة سنة 1272 (3 أوت 1856 م.) ، وصلت المراكب التونسية مع مراكب عثمانية بالعسكر التونسي مع أميرهم رشيد . وقدم رسول من الدولة العلية بنيشان وسيف مرصّع للباي ، ونزلوا بشاطىء العبدلية ضحى يوم الاثنين ثالث الشهر (2 ذي الحجة — 4 اوت) . وتلقّاهم الباي بنفسه ومن حضر من آل بيته ورجال الدولة (2) . ولما وصل الامير قام اليه الباي وتعرض للقائه وعانقه وأجلسه حذوه ، والعسكر ينزل جماعة بعد جماعة ويمرّون أمام الباي بعلامات افتخارهم ، وهي قطع من الفضّة تشبه المسكوك من الدراهم ، تسمى بالميداليو ، من اختراعات الافرنج ، يعطونها لمن فعل جميلاً حقّه أن يذكر ولا يُنسى ، ولا تُعطَى فيما حقه أن يُنسى . وخيموا قرب بستانه في ضيافته ، واشترى لهم غلة الاجنّة القريبة منهم ، وأباحها لهم ، وسُرَّ بوصولهم .

ونزل رسول الدولة بدار المملكة ببطحاء القصبة ، وقبله الباي في موكب حافل مشهود ، وقبل النيشان والسيف بتعظيم وإجلال .

واحتفل لقدوم العسكر وزاد في مرتبهم . وأمرني ان اكتب لهم بما نصّه :

«من عبد الله سبحانه المتوكل عليه ، المفوض جميع الامور إليه ، المشير محمد باشا باي سدّد الله أعماله ، وبلّغه من الخير آماله . الى نخبة الاركان ، وفارس ميادين الجهاد

(1) هو غرة الشهر حسب التقويم .

(2) انفردت ق بهذه الزيادة : « وحضر مع الباى قنصل الفرانسيس بغير استدعاء ، حرصا على الامتزاج وطلبا للمداخلة » (ق 3 : 20) .

والعرفان ، أمير الامراء ، وفخر الكبراء ، ابننا رشيد وكافة من معه من ابنائنا ، وشعارنا ودثارنا ، وحامية بلادنا ودارنا ، العساكر التونسية وضباطهم ، تقبل الله جهادهم ، وأدام إسعادهم ، وقوّى استعدادهم ، وبلّغ مرادهم .

أما بعد السلام عليكم ورحمة الله ، فان مقام أبيكم ، بحسن الاوبة لوطنكم يهنّيكم ، ويرجو الله أن يرى أكثر مما رأى فيكم ، وان كان الهناء لنفسي ، لان جمع الشمل بكم أعظم أنسي ، وطالما تعب لفراقكم قلبي وحسّي . فالحمد لله على اجتماع الشمل بأولادي الابرار ، وأحبتي الاخيار ، بعد أن حصلوا من السعادة مقدارا جسيما ، وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما ، درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما . ونترحم الى (1) من سبق إلى الجنة دار النعيم والقرار ، والدار الآخرة هي الدار . فهنيئا لهم بمزية الشهادة ، والفوز بالسعادة ، والنعم التي لم تزل بفضل الله في تجدد وزيادة . وقد شغلنا السرور لهم (2) عن الحزن عليهم ، لما أعدّ الله من جزيل نعمه إليهم . ولا تتأسف الابطال ، على الموت في مواطن القتال . وفخر الرجال ، بالصبر عند الاوجال ، والموت في هذا المجال ، وللاعمار آجال ، لا تزداد بتأخر ولا تنقص باستعجال ، سقاهم الله من حياض الرحمة بسجال .

ثم أهنئكم ونفسي على لسان بلادكم ، ومناط حبكم وغاية مرادكم ، فانها تقول لكم بلسان الحال ، وهو أبلغ من لسان المقال : يا بررةَ أولادي ، ومن على غيرتهم بعد الله اعتمادي ، قد طال من بعدكم سُهادي ، وتشوّف لخبركم ناظري ومسمعي وفؤادي ، فالحمد لله الذي أكرمني بكم في الخواتم والمبادي ، وبلّغني بجميل سيرتكم مرادي ، ألبستموني أردية الذكر الحسن ، الدائم بدوام الزمن ، بسيرتكم في أحسن السنن . آثاركم والحمد لله مشكورة ، وطاعتكم في الامر والنهي مذكورة ، وأعلامكم باعانة الله منصورة ، وصيانتكم لاعراضكم مشهورة ، وأخبار عفتكم ونزاهتكم منشورة ، وهممكم على ما يُثمر جميلَ الذكر لوطنكم مقصورة . فأهلاً وسهلاً بقدومكم ، واجتماع شملكم بسيّدكم ومخدومكم ، لقد سرّ بحمد الله خبرُكم المونس ، أباكم محمدا وأمّكم تونس . فالشكر لله على آلائه ، وبالشكر نستزيد من نعْمائه .

---

(1) كذا في خ و ع و ق .
(2) كذا في خ و ع ، وفي ق : « السرور بهم » .

هذا ، وإن الاب يعين ولده على البُرور ، ويَجْزِيه على الفعل المشكور . فلذلك زدنا لجميعكم الخمس في مرتّباتكم ، على اختلاف درجاتكم ، لكم ولمن لم يَحضُر معكم ، من العساكر النظامية إخوانكم ، لقيامهم في مغيبكم بحراسة أوطانكم .

وأملي في الله مُبَلّغ الآمال ، أن نرى منكم أكثر من هذه الخدمة وفوق هذا الكمال ، وأوصيكم بالمثابرة على صالح الاعمال ، في سائر الاحوال ، فبصالح العمل يدوم لكم ذكر هذه الخصال . ويقبح بمن ذُكِر بالجميل أن يُتبِعه بضدّه ، ويدنّس بنفسه وَجْهَ مجده ، ويضيع ما حصله بتعبه وكدّه . وبفضل الله لا يضيع لكم عمل ، ولا يخيب فيكم أمل .

اللهم يا سامع الاصوات ، ومجيب الدعوات ، احفظ هذا القطر وبنيه ، وعمّر بالعافية قاصيه ودانيه ، وشيّد بالحق مبانيه ، وبلّغ إمامَه من المصالح أمانيه ، وأعِنْ جميع المسلمين على الاعمال الصالحة ، والمساعي الناجحة ، وتجارات الخير الرابحة ، بحرمة المصطفى وأسرار الفاتحة » . وكتب في ذي الحجة سنة 1272 (اوت 1856 م.) .

وبعد أن تمت مدة ضيافته للعسكر ، سرّحهم لاوطانهم مدة طويلة تناسب مدة مغيبهم .

⁂

وفي يوم السبت الثامن عشر (1) من الشهر أبطل مرتّب دار الباشا .

وذلك ان الشبان من جند الترك وأبنائهم رسموا في ديوان الجند النظامي ، وبقي في مرتب دار الباشا مَن لا قدرة له على الخدمة . والعادة السابقة في جند الترك أنّ من يُقعِده العجزُ عن الخدمة ، يرسم في الدفتر متقاعدا ، بمعنى أنه يأخذ اربعة نواصر في اليوم ولا يباشر خدمة . وأكثر من بقي بدار الباشا أبناءُ البلاد من أولاد الترك . فقال : « اما الترك فقد جاءت بهم أسلافُنا من أوطانهم وذهب شبابهم في الخدمة ، فلا بدّ من العناية بهم . وأما أبناء البلاد فان من يخدم العسكر النظامي يأخذ المرتب ، ومن لا يخدم فهو كسائر أهل البلاد يعيش بحرفته » . وأغلق دار الباشا ، وجمع سائر الاشياخ والعواجز من جند الترك في قشلة واحدة ، وأجرى لكل واحد منهم عشرة ريالات في الشهر، وهي أكثر من مرتب المتقاعد بمقتضى العادة السابقة ، ولم يُعطِهم الخبز المعتاد .

(1) الثامن عشر حسب الرؤية يوافق يوم الثلاثاء 19 اوت ، وحسب التقويم يوم الاربعاء 20 اوت ، لا يوم السبت .

ولما دالت الدولة لاخيه أبي عبد الله محمد الصادق باي ، أجرى لهم الخبز .

وصارت دار الباشا لبعض مهمات العسكر النظامي . وصار ديوان الترك دارا لمجلس الشريعة أعزها الله تعالى .

وأمر الباي شيخ الإسلام أبا عبد الله محمد بيرم باصلاحه من حبسه ، وطالت مدّة الاصلاح .

⁂

وفي الشهر ظهر بالحاضرة المرض الوبائي المعروف بالكوليرة . ودام في الحاضرة مدة قليلة ، وظهر من صبر الباي وتوكله على الله ما أزال جزع أهل البلاد ، ولم يتحفّظ منه بكرنتينة ، ووقع بداره فكان يعود المرضى به [كما فعل أبوه زمن الوباء] (1) .

وفي زمن هذا المرض بلغه ان البعض من عروش جبل باجة امتنعوا من أداء الإعانة التي رتّبها .

وذلك ان هذه الإعانة لما ترتبت ، خفّت على من قطعت المغارمُ أوصالَه واستأصلت آماله ، وثقلت على الاعيان وعلى من لم يعتد الاداء ، وان كان يؤدي أكثر منها من جهة الدخان والجلد وغير ذلك ، لما في نفوس المسلمين من نفرة الاداء على الرقاب ، شبه الجزية . ومنهم عرش ماكنة وخمير ووشتاتة وبعض الشيحية ومن انضمّ إليهم ، فشنوا الغارات على سوائم الناس ، وأخافوا السبيل ، ومدّوا أيدي النهب والفساد .

وخشي الباي أن يسري هذا الفساد في المملكة وفي الصحراء وبها يومئذ غُومة المحمودي في جمع من إخوته يوقد في نار فتنة ، فحسم الداء قبل انتشاره ، وأمر أخاه أبا عبد الله محمد الصادق باي بسفر المحلة على العادة ، وزاد في قوتها من عدد العسكر والمدافع ، وأمره بغصبهم على أداء الإعانة أو يقاتلهم ، فخرج بالمحلة يوم الخميس الحادى والعشرين (2) من ذي الحجّة سنة 1272 (21 اوت 1856 م.) ، غير مكترث بوجود المرض

(1) الزيادة من ع و ق .

(2) الخميس هو 20 ذى الحجة حسب الرؤية ، و 19 منه حسب التقويم .

في المملكة ، متدرعا جُنّة التفويض ، سالكا نهج أخيه [وأبيه] (1) في التوكّل على الله وخلّص الجباية ، وخاطب هؤلاء العروش بالانقياد إلى هذه المصلحة ، فامتنعوا . وناوشهم القتال ، فأبَوا . ثم أرهف لهم الحدّ ، وقاتلهم ، واقتحم جبلهم وأخذهم . ولما رجع العسكر ، شكر شجاعتهم وشدّة بأسهم ، بكلام نفيس . وكاتب أخاه بخبر النصر ، والثناء على من معه ، وأنهم أبلوا البلاء الحسن . وطلب منه مكتوبا لهم ، تنشيطا لقلوبهم ، فأمرني أن أكتب لهم بما نصّه :

« من عبد الله سبحانه المتوكل عليه ، المفوض جميع الامور إليه ، المشير محمد باشا باي سدّد الله أعماله ، وبلّغه من المصلحة آماله ، وأعان عساكره وأعوانه وعمّاله ، ووفق للخير من قلّده أمرَهم في كل حالَه . إلى أمير الامراء وفخر الكبراء ، وأوثق العُرَى ، والعمدة للمهم اذا طرا ، ومن أراني الله ثمرة خدمته ونؤمّل أن نرى ، أخي وعضدي ، والسيف الذي تصول به يدي ، وعدّتي ومعتمدي ، أخونا سيدي محمد الصادق باي لا زالت عزائمه صادقة ، ومحاسنه متناسقة ، وخصاله بالثناء عليه ناطقة ، وعناية الله به وبمن معه مصاحبة مرافقة .

أما بعد سلام كريم ، طيّب عميم ، يعمُّ جموعكم وآحادكم ، وأعوانكم وأنجادكم ، فان مكاتيبكم بالغت في الثناء على من معكم ، من أولادنا الطبجيّة ، والعسكر والمخازنية ، الذين أمرتهم بتشريد جملة العصاة من الجبالية ، وانهم بذلوا في خدمتنا نفوسهم الابية ، حتى شهدتَ لهم الخصال المرضية ، ووقفوا عند أمرك ونَهْيك ، وظهر بهم نجاحُ سعيك ، وأثَرُ رَعْيك ، وزيّنوا مواقف الابطال ، وأظهروا شجاعتهم في كل حال ، وتدرعوا بالصبر في حَوْمة القتال ، وهو أعظم دروع الرجال ، واستسهلوا أوعار الجبال ، وذلك أملنا فيهم ونشكر الله على تحقيق الآمال ، كما ندعوه أن يصلح من رعيتنا الاعمال . ومن شفقتي عنهم (2) ، أنه يسوؤني ، بشهادة الله ، فَقْدُ واحد منهم ، لكن مصلحة جمهورهم ، والسعي في نجاح أمورهم ، يقتضي أكثر من هذا الادب ، وهو أقلُّ من قدر الذنب والغضب . قال الله تعالى في محكم كتابه المبين : « وَلَوْلاَ دفَاعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الاَرْضُ وَلَكِنّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ » (3) .

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) كذا في خ و ع و ق .
(3) س 2/آ 251

ونرجو الله ان يجعل هذه مقدمة هداية ومتاب ، لا مقدمة تنكيل وعذاب ، ووراء ذلك عقاب الله والله سريع الحساب . ونشكر سعي من اخترتهم ، ولهذه المقدمة أرسلتهم ، عامتهم وأعيانهم ، ورجالهم وفرسانهم . لقد فازوا بمرضيّ الطاعة ، كما حازوا وصف الشجاعة . ومن العناية بهم أن وجّهنا لكم هذا الكتاب المخصوص . في الثناء على صبرهم وإقدامهم وبناء صفّهم المرصوص . جعلهم الله من الذين يقاتلون حتى لا تكون فتنة ، وقوّى بهم عضد الصلاح (1) ومتنه ، وهو المأمول في سائر عساكرنا وفرساننا وأعواننا ، والموفقين من رعيتنا .

وندعو لك حيث فعلت الواجب من الشهادة لكلّ ذي حق بحقّه ، ورسوخ قدم صدقه .

فاجمعْ سائر من معك من الطبجية ، والعسكر والمخازنية ، والضبّاط والاعيان ، ووجّه لهم من يقرأ كتابنا هذا عليهم في ميدان ، حتى تعيه كل أذن واعية ، ويتحققوا أن عيننا لهم راعية ، وأن حميد أثرهم لا يُجحَد ولا يُنكَر ، بل يُردّد ويشكر .

والله يرزقهم النصر الجميل ، ويحقق في جميعهم التأميل ، ويزيدهم من الغيرة والثبات ، وينصرهم في الصفوف والوثبات ، ويجمعني بهم منصورين محفوظين ، وبعين العناية ملحوظين .

والسلام على من اعتصم بحبل الله المتين ، واتّبع سبيل المؤمنين ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

وكتب في 14 صفر سنة 1273 (الثلاثاء 14 اكتوبر 1856 م.) .

ولما وصل هذا المكتوب لباي المحالّ أبي عبد الله محمد الصادق ، جمع الضباط والمخازنية والاعيان من العروش أمام وطقه ، وخرج بنفسه لسماعه مع الجماعة بتوقير واحترام. وخطب به كاتبه البارع ابو عبد الله محمد العزيز بوعتّور ، وأثّر في نفوس السامعين أثرا جميلاً . وختم المشهد بدعاء نفيس من إنشاء كاتبه المذكور ، ونصه :

« سبحانك اللهم يا من تفضّل بالنصر المبين ، وأوضح آثار وعده وهو أصدق القائلين . ولك الحمد على ما أسبغت من الصبر الجميل ، وأوليت من النصر الجليل ، لحماة

---

(1) كذا في ع و ق ، وفي خ : « المصلحة » .

هذه البلاد ، المنزلين من أميرهم منزلة الاولاد ، العساكر الجهادية ، والفرسان من المخازنية ، ومن بيده من مولانا قيادُهم ، وإلى أمانته موكولة جموعهم وآحادهم . وفرّ الله أعدادهم ، وزان بهم قطرهم وبلادهم ، ورشّح بالاستحسان لآثارهم أبناءَهم ،وكَبَتَ بهم أعداءهم . ولك الشكر على سوابغ النعم ، وما أوليت من الفضل والكرم . والصلاة والسلام على سيد البشر ، وأفضل من انتصر وظهر . وعلى آله وأصحابه فرسان الميادين ، وحفظة الدين ، ما ابتهجت الاسماع بالثناء الحسن ، وتناقل الذكرَ الجميلَ من عَبَر وقطن .

اللهم انا نستمدُّ من فضلك النصر العزيز ، والإعانة على ما يثمر التقديم والتبريز ، لانصار الإسلام ، ومن بهم النقض والإبرام ، ببقاء مولانا وسيدنا قطب الفلك ، ونور الحَلَك ، والمطاع فيما ملك ، والمقتفى به حيثما سلك ، إمام المسلمين وحافظ الملّة بالاجناد والانصار ، ومن على اتباعه المدار ، مولانا وسيدنا المشير أخينا ، ومحلٍّ أبينا ، ومَن بركةُ مرضاته ظهرت لدينا وفينا ، سيدي محمد باشا باي .

اللهم بلّغه ما يؤمل في بلاده ، وآساد جِلادِه ، وما يطلبه ويقصده ، ويستحسنه ويحمده . وتجعل الاعانة لسائر الاجناد ، في كل بلاد ، ومن مرضاته التي دل عليها كتابه الكريم ، المبشر بالمبرة والتكريم . وهو المسؤول ان يشمل حضرته وآله بالحفظ والحماية ، ومزيد الرعاية ، وان يجعل هذه الوجهة محمودة العواقب ، متلوة المناقب ، جارية على وفق رأيه الثاقب ، ويمنح من مرضاته الخطط المحمودة ، والآثار التي هي في أنواع المكرمات معدودة ، من (1) هداية من قلده الله أمرهم للطاعة ، ولزوم الجماعة ، ويُجري على يديه الآثار الصالحة ، ويلهمه للاراء الناجحة ، ويجعل نواسم فضله نافحة ، وكتائب نصره غادية رائحة ، بحرمة النبي وأسرار الفاتحة » .

وانفضّ الموطن (2) على سرور ، وسعي مشكور .

وأبلى أبو عبد الله محمد الصادق باي في هذه المحلة البلاء الحسن ، ومهّد العافية ، وردّ الحقوق ، وأنصف المظلوم .

وجعل الباي عصيان هؤلاء نَسْيا مَنْسيا ، ونبذه ظِهْريا كأنه لم يكن ، كما هو الواجب في سياسة الرعيّة .

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « في هداية » .
(2) في ع و ق : « الموكب » .

وفي محرم من سنة 1273 ، ثلاث وسبعين (سبتمبر 1856 م.) ، جهّز الباي محلة قوية أميرها ابو عبد الله مـَحمد خزنه دار عامل سوسة ، وهو يومئذ عامل الاعراض أيضا ، لتشريد غومة المحمودي من الصحراء .

وغومة هذا من سـَراة قومه المحاميد ، ومن شيعة بيت قرمانلي بطرابلس . ولمّا ثُـلّ عـَرْشُها باختلاف آلها ، دخل الصحراء وشنّ الغارات في وطن طرابلس ، والدولة تتربص به الدوائر حتى أوبقه ذنبه وتمكـن به الباشا الوالي بطرابلس ، وبعثه معتقلاً إلى اسلامبول ، فصدر الحكم عليه بالنفـي الذي هو أخفّ عقوبات المفسد . وفرّ من موضع نفيـه فـأتى وطن طرابلس ، وقد تمهدت فيه العافية بعد مقاساة الشدائد والهـَرج ، فتوقع الشرّ فـأتـى الوطنَ التونسي ، ونزل بأطرافه من جهة الاعراض . وكـاتب الباي ليقبله أو يشفـع فيه عند الدولـة العلية . وتوسـل في مطلبه بقنصـل الفرنسيس [ليون روش] ، فأتى البـاي وحسّن له قبوله ، وقال انه استجار بحرملك إلى غيـر ذلك . وحـذّر النصحـاءُ الباي من تداخل قنصل ، اي قنصـل كـان ، في احـوال المملكـة ، ومن عاقبـة هذا القبـول ، فقبله غير مفكـر في عاقبة أمره [شأن ملوك الإطلاق] (1) ، واقفا عند ظاهر الحال ، واستهان به ، وكاتب الدولة العلية شافعا فيه ، فأجيب بأنه من المفسدين في الارض ، والحرم لا يعيذ فارّاً بدم .

وطلبت منه الدولةُ إعانة الباشا بطرابلس على القبض عليه ، فأنف لذمته أن تُخفـَر ، وبقـي غومة بأطراف المملكـة [والرسل تتردد بينه وبين قنصل الفرنسيس] (2) . والتفّ عليه أتباعُ كـلّ ناعق من اهل الفساد الذين يطلبون الـرزق بسلاحهم . وأحسّ الباي منـه بمبادىء الشر ، فكـاتبه على يد قنصل الفرنسيس بأن يرحل لدواخل العمالة ، قرب القيروان او الحاضرة ، فتعلل بتعذر ذلك عليه لـكـثرة من معه بسوائمهم ، وواسطته قنصل الفرنسيس يـَحْطِب في حـَبْله ويستر مساوئه .

ولم يزل يفسد في العربان ويستميل ضعفاء العقول بالتنفير من أداء الإعانـة بـأنها جزية مضروبة على العرب المسلمين ، الى غير ذلك . والشح بالمال في الجبلة الإنسانية . وعلى كـلٍّ يُستطاع ، إلاّ نقل الطباع . وكـفُّ العقارب عن لسعها ، تـكـليف ما ليس في وسعها .

(1) الـزيـادة في الفقرة عن ع و ق .
(2) الـزيـادة عن ع و ق .

ولما تفاقم الامر وكاد أن يتّسع الخرق على الراقع ، لزم الباي تلافي الحال ودفع الضرر ، فجهّز هذه المحلّة بالفرسان من المخازنية ، وأمر العروش القريبة من تلك الناحية بالالتفاف على المحلة . وبعث بها آلايا كاملاً من عسكر النظام بالساحل ، وما يلزمه من المدافع والطبجية ، ولم يستقدمهم للحاضرة رفقا بهم ، وأمر أمير المحلة بقودهم لما يصل سوسة . وأطلق يده في الاستنجاد بمن يريده من العروش والعسكر . وتطوع أمير الامراء ابو محمد رشيد بالسفر مع عسكر المحلة طوع إذن أميرها ، لما في هذا الامير من السياسة التي يقود بها أنظاره وأكفاءه .

ونصّ ما كتبه لهذا الامير :

« من عبد الله سبحانه المتوكل عليه ، المفوض جميع الامور إليه ، المشير محمد باشا باي ، وفقه الله لما يرضاه ، وأعانه على ما أولاه ، والى طرق الصلاح هداه ، والهدى هدى الله . الى حماة الوطن والدولة ، وأهل الغيرة على الإمْرة والصولة ، خاصة أولادي ، ومن محلّهم وإن بعدوا في فؤادي ، كافّة العسكر والضباط والفسيالات المأمورين منّا بالسفر إلى الاعراض مع أمير الامراء ، وفريدة الكبراء ، وفخر الاركان الوزراء ، السيف الامضى ، والثقة المعتمَد الارضى ، ابننا محمد أمير الاعراض ، قرن الله بالنجاح مسعاهم ، وحفظهم ورعاهم ، وحمى حماهم ، وثبّت على قوس الطاعة مرماهم .

أما بعد السلام عليكم ، وملازمة الدعاء إليكم ، فانكم بقوّة الله أعظم قوّتي ، ومظهر صولتي ، بغيرتكم أقتاد العصاة من نواصيها ، ولا يبعد بشجاعتكم قاصيها ، ويدين لامر الله بالطاعة متعاصيها . وقد قرن الله سبحانه النجاح والظّفَر بطاعة المأمور للأمير ، في الشاقّ واليسير ، والقليل والكثير ، ولا ينبئك مثل خبير . وطاعة الامراء والولاة من أول واجباتكم فلايخفى عنكم ، وسبحان من يقول : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ » (1) ، والإخلال بواجبها قطع لسلك كلّ جماعة ، وهو السبب الاعظم ، والعياذ بالله ، في الإضاعة . وأنتم بحمد الله معتصمون فيها بحبل الله المتين ، وإنما امتثلت قول الله : « وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ » (2) .

(1) س 4/آ 59 .
(2) س 51/آ 55 .

وهذا أمير محلتكم ، المحوطة بأمن الله وهمّتكم ، الذي اخترتُه لإعزاز رايتكم ، وإظهار شجاعتكم ، المبنية على أساس طاعتكم ، كما اخترتكم لبذل النفوس في إنفاذ ما يأمركم به وقد وعاه عنّي ، اذ هو معكم كالجزء منّي . فحسبه أن يأمركم بما هو مأمور به من الاعمال ، وحسبكم المسارعة للامتثال ، في أي جهة وعلى كل حال . فارفعوا اليه سائر أموركم ، مما يتعلق بمفردكم وجمهوركم ، وقد أذنتُه أن يتصرف بما يراه في أميركم ومأموركم .

واعلموا انه يباشركم بيدي ويأمركم بلساني ، وهو وان بعد عني فهو نُصْب عياني ، لانه الثقة الامين على ما يراه منكم ، ويُنهيه إليّ عنكم .

وأرجو الله أن يسمعني ، ما ينفعكم ويسرُّني . وهو المسؤول أن يسدّد منكم القول والعمل ، ويبلّغني من صلاحكم غايةَ الامل .

وقد أمرنا العمدة الثقة الاحزم الاحظى نخبة الاركان ، وعمدة أهل الشان ، وفارس ميادين السيف والسنان ، أمير الامراء ابننا رشيد أن يعلن بقراءة هذا الظهير على جمعكم . حتى يمتزج أمره ونهيه بقلبكم وسمعكم . فأنتم الاولاد البررة الطائعون ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

ويبقى هذا الظهير بعد قراءته في موكبكم ، بيد من قلّدتُه في هذه الوجهة أحكامكم ، وجعلت بيده التي هي يدي زمامكم . وقد أمرتُه ان تكون قراءته بمرأى منه ومسمع ، في ذلك المجمع .

واستودعكم الله الذي ما خاب طائعه ، ولا ضاعت ودائعه ، والله وليُّ المؤمنين ». وكتب في العشرين من ذي الحجة الحرام سنة 1273 (السبت 20 سبتمبر 1856) .

ولما وصل هذا الامير الى نحو غومة كاتبه مخيّرا له بين أن يرحل لدواخل المملكة أو يبعد عن أطرافها ، وإن خاف يبعث معه من يوصله لمنجاته ، فتعلل (1) . وأفضى الحال الى حرب في مفاوز الصحراء ، فقاتله حتى شتّت جموعه وشرّدهم ، وفرّ ناجيا بنفسه ، وقتل بعد ذلك [في الصحراء] (2) .

---

(1) في ع و ق : « فامتنع » .
(2) الزيادة عن ع و ق .

وكـانت مدة السفـر بهذه المحلـة ستة اشهر . [وأبـلى هذا الامير البـلاء الحسن] ، واستولى على بعض بلدان نفزاوة . وأمره الباي بقطع نخيلها ، فتثاقل وراجع الباي واستعطفه. ومهّـد تلك الجهة ، واعاد لها العافية والراحة ، وأمن الساحة ، ورجع منصورا مشكـورا . وظفر بمكاتيب كـثيرة [لغومة] (1) من بعض أهل الفساد والنفاق ، أتى بها للباي ، فأعرض عن مطالعتها كـل الإعراض ، وداوى بهذه السياسة القلوب المراض . وذلك أنفع عـلاج ، في بقاء ما للملوك الإطلاق من السياج . ولله درُّ القـائل :

اذا أنت لم تغفـر ذنـوبـا كـثيـــرة   تريبك ، لم يسلم لك الدهرَ صاحـب
ومن لـم يغمّـض عينه عن صديقــــه   وعن بعض ما فيه ، يَمُتْ وهو عاتب

شأنَ السياسة المرعية ، بين الراعـي والرعية (2) .

⁂

وانتقل الباي الى سكـنى بستانه في المرسى ، أوائلَ هذه السنة 1273 ، وأناب شقيقه وولي عهده يباشر الامور ببيت الباشا في باردو ، بعد ان زاد في بستانه ، ونمّق ما شاء من بنيانه .

---

(1) الـزيـادة في الفقرة عن ع و ق .

(2) بهامش ق 3 : 28 يوجد ما ياتي :

بيـان التقـاريـر المـذكـورة يسـراه (؟)

بمقتضى التقريـر المـؤرخ في 25 ربيع الاول ، والتقريـر المـؤرخ في 26 منـه ، سنه 1274 ، أن امير المحلة أمر العسكر والمخازنية بهتك حرمة نساء بني زيد . ولما اشتكوا له من ذلك ، أمر بجلدهم خمسمائـة جلدة ، واخذ منهم اموالا . ومقتضى التقرير المؤرخ في 11 ربيع الثاني سنة 1274 أن المحلـة رحلت من قبلي واخذت منها عشرة (كذا) نساء ، منهن تسعة (كذا) اعطيت للخدام ، وواحدة التي هي احسنهن واصغرهن ، زوجة ابن شيخ قبلي ، أتى بها أمير المحلة في كروسة ، وجعلها في قيطون تحت نظر عسة ، واصطفاها لنفسه ، وجعل زوجها وحماها في السلاسل ، مع مائة وخمسين من اهل البلد . وبيعت املاك اهل قبلي بتمامها للمكرم محمـد الحبيب بن حسن بن احمـد السوداني خليفـة تلمين ، بمائة الف وخمسة وعشرين الف ريال صغرى تونسية ، بعد أن هدمت بلادهم ، وهتكت حرمـة نسائهم من امير الجيش واتباعه ، ونهى الباقين من اعـادة بنائها ، وقد ذكر في رسم البيع المؤرخ في 29 ربيع الاول 1274 ، ان ذلك بناء على حلم مولانا آيده الله وحنانه وشفقته واحسانه ، حيث ساسهم بالحلم ، ولم يعاقبهم على قدر الجرم .

وامـا جواب امير المحلة للوزير الاكبر عن الامر الصادر له بقطع النخيل ، فقد وجدناه بخطه ، فأثبتناه هنا بحروفه . ونصه : « الحمد لله . سيدى رعاكم الله وبقاكم . قولكم على الشقى غومة ان جاء في يدى تكون مهني منه . وان شاء الله بسعد ولى نعمتنا يحصل ، ان نصح سى على ساسى . ونازلة النخيل وهدم البلد ، علمنا مقصودكم . وربنا ان شاء الله يبقى مولانا ايده الله . ومـا عرفتنا عن اخينا صاحب الطابع آنـه الآن بالاطالية ، عطاه الله سبحانه وتعالى ، هو يتخلع والناس في كراكـة . ربنا ان شاء الله يبقي اجـود (كذا) المعظم سيدنا ايده الله ونصره بمنه آمين . والسلام من مقبل ايديكم محمد . ليلة الاحد في 15 صفر سنة 1274 .

وفي صفر من السنة 1273 (اكتوبر 1856 م.) ، قدم أبو محمد خير الدين من فرانسة ، لامور تتعلق بنازلة محمود بن عياد ، ورجع في الشهر بعد أيام .

***

وفي أوائل ربيع الانور (اوائل نوفمبر) ، تفضل الباي بنيشان آل بيته على وزيره وثقته أبي النخبة مصطفى خزنه دار ، وتشرف الوزير بقبوله ، وقال له : « ان آل بيتك يحملون هذا بلا مكتوب ، اعتمادا على نسبهم الشهير الواضح ، ومثلي لا يحمله الا بمكتوب ، ليقع الفرق [بين من يستحقّه أصالةً ، ومن يناله بمحض الفضل] (1) ، فأمرني بانشاء مكتوب له ونصه :

« الحمد لله الذي ألّف بين قلوبنا فأصبحنا بنعمته إخوانا ، وأقام صالح العمل على الرضى عنوانا ، وخصّ باسعاده مَن شاء من عباده تفضّلاً وامتنانا ، فأطلق بالخير منهم يدا وأنطق بالصدق منهم لسانا ، أحمده وكل شيء يسبّح بحمده سرا وإعلانا ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث لكافة الخلق رحمةً وأمانا ، فملأ القلوب نورا وإيمانا ، وجزى المحسنَ إحسانا ، وناهيك أن جعل من آل بيته سَلْمانا ، وعلى آله وأصحابه الذين شيّدوا من معالم ملته بنيانا ، وبلّغوا الينا سيَره وأحاديثه صحاحا حسانا ، وانتضوا لإعزاز كلمته صارما وسنانا ، وكانوا على البِرِّ والتقوى أعوانا ، فلو أنفق أحَدٌ مثلَ أحُدٍ ذهبا ما بلغ مَدّى أحَدِهم جزاءً ووِزَانا .

أما بعد فاننا أصدرنا هذا الظهير ، والإعلان الشهير ، لكافة الافاضل أهل مجلسنا العلي بالشريعة المحمدية ، ونوابنا في القضايا الدينية الشرعية ، وحماة مملكتنا الاركان الوزراء ، والاعيان أمراء الامراء ، وأمراء الالوية وأمراء الآلايات ، وقائمي المقامات ، وأمناء الآلايات والبنباشية ، وسائر الجنود العسكرية ، والقواد والمخازنية ، وأولي الولايات العرفية ، على تعدُّد أصنافهم ، واختلاف أوصافهم ، ليعلموا أن الوزير ، الصدر الشهير ، أثير الدولة ، ومن له في ميادين الكمال سبق وجولة ، نخبة الاركان ، وفخر أهل الرفعة والشان ، تربية بيتنا ، المقرب عند حيّنا وميتنا ، المستحق للايثار ، لحميد الآثار ، وزير العمالة وأمير

(1) الزيادة عن ع و ق .

الامراء إبننا مصطفى خزنه دار ، لا زال جميلَ الذكر ، عند أولي الذكر ، تحققنا من أمانته ، ونصحه وكفايته ، ونجاح تدبيره وحسن درايته ، وبذل الوسع في خدمتنا إلى منتهى غايته ، وقصره على مصالحنا بقلبه وقالبه وعنايته ، فأحْمَدَنا به الخُبْرُ ، ويحمد به الخَبَر ، حتى رأيته بمنزلة الابن الصالح الابرّ ، ولا غرو في تنزيل أهل صِدْق الوِدَاد ، منزلةَ الاقارب والاولاد ، وقد قيل : المودة في اهل النُّهَى نسب ، ومن فاته النسب الموروث لم يفته النسب المكتسَب ، وهو أول ما يعدّ من مفاخر الحسب ، لا سيما والنسب الروحاني ، يعادل النسب الجسماني . فلذلك طوّقْنا هذا الوزير الذي وجدناه أزْرا واقيا ، وذخرا إن شاء الله تعالى باقيا ، بنيشان بيتنا ، المخصوص بآلنا في مملكتنا ، ولم نجد لإظهار عنايتنا سواه ، وهو الاهل لما ناله بما حواه ، تقدم لنيله بنفسه ، على أبناء جنسه ، ومنابت غرسه ، والشكر على الجميل واجب ، والعمل الصالح لا يَحجُبه حاجب ، والله يقول : « لِلَّذِينَ أحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ » (1) ، وذلك مقتضى الطبع والعقل والعادة ، وبه قادت السادة .

وقد ألبستُه النيشان قائما بيدي ، اذ هو الجزء من جسدي ، داعيا الى الله أن يسدّد منه القول والعمل ، ويبلّغني من ثمرات خدمته غايةَ الامل ، وهو وليٌّ إعانته وتوفيقه ، وما توفيقي الا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

والسلام من الفقير إلى ربه عبده المشير محمد باشا باي صاحب المملكة التونسية » .

وكتب في أشرف الربيعين سنة 1273 .

⁂

وفي يوم الخميس السادس عشر (2) من الشهر (13 نوفمبر 1856 م.) ، جمع الباي رجال دولته وأتى دار الشريعة التي كانت ديوان جند الترك ، بعد أن تمّ إصلاحها . وتلقّاه أهل المجلس الشرعي ، ووقف أمام بيت الحكم ، وقرأ على لسانه شيخ الاسلام ابو عبد الله محمد بيرم خطبة بليغة من إنشائه . وبعد تمامها دخل بيت الحكم وجلس بموضعه منها ، والعلماء عن يمينه وشماله ، وأذن للخصوم فدخلوا ، وانفصلت نوازل ، ثم قرأ الفاتحة وخرج .

(1) س 10/آ 26 .
(2) هو 15 حسب التقويم .

ونص ما خطب به الشيخ وأمضاه الباي ، وهو الآن معلق ببيت الحكم :

« الحمد لله الذي جعل الشريعة المحمدية ديوانا للاحكام جامعا ، وفرض على كل مسلم أن يكون لما تُبْرِمُه وتَنْقُضه سميعا طائعا ، وحضّ عبادَه على الانقياد إليها ، والتعويل فيما يَعرِض لهم عليها ، فقال في مُحكَم كتابه تقريعا لمن حاد عن ذلك وتفهيما : « فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً » (1) . والصلاة والسلام الاتمّان الاكملان على سيدنا محمد يَنْبُوع أحكامها ، ومُمسِك زِمامها ، وناشر أعلامها ، ومميّز حلالها من حرامها ، وعلى آله وأصحابه القائمين في نُصْرة شريعته الغرّاء بقلوبهم وقَوالِبِهم ، المنقولة في حفظها وتأسيسها واضحاتُ مسالكهم ومدوّنات مذاهبهم.

هذا والحقُّ أحقُّ ان يُتَّبَع ، وما عظمت فائدته جدير أن يُتَلقّى بالقبول ويستمع ، خصوصا ما كان مثمرا لإعلاء منار الشريعة ، ومظهرا لجلالتها ومناسبا لمكانتها الرفيعة ، وذريعة لان يمتد لاحكامها البساط ، ويُجريَ قانون أهلها على أقوم صراط ، من المثابرة على الانتصاب لتلقّي الخصوم ، وتعجيل ايصال الحقوق الى أربابها والمبادرة الى كشف ظلامة المظلوم ، والتمكن من تشاور العلماء الذي لا تلمع بروقه في سماء المذاكرة الا تبعها الغيث النافع ، واجتماع الكلمة الذي هو أعون على الإذعان فلا ينقلب المحكوم عليه الا وهو لما جرى عليه من الحكم خاضع . وسدّ باب روغان المتحيّلين ، بطلب عرض قضاياهم على العلماء المفتين ، فيجدون بذلك فسحة لنسج حلل تتقنها أنامل التزوير ، ويعسر تمزيقها بعد ذلك النسج المحكم حتى على الناقد البصير . ويطول على الغرباء الوافدين على الحضرة لفصل قضاياهم المشكلة الامد ، وتلازمهم المصاريف الوافرة وتمضي عليهم في تحمل هذا العناء الشديد الليالي ذوات العدد . وقد صدر الامر العالي الجالب لجانب الشريعة جميعَ ما ذكر من المحاسن ، الصارفُ عنها ما أشيرَ إليه مما هو لساحتها المطهرة شائن ، من حضرة ملك القطر الافريقي وإمامه ، ومَن ملّكه الله سبحانه مقاليد أحكامه ، وجعل نظره ورعايته شاملين لعامته وخاصته وولاته وحكّامه ، سيدنا ومولانا المشير محمد باشا باي ، ألهمه الله سبحانه من الصواب ما تَقَرُّ به أعين

(1) س 4/آ 65 .

رعاياه ، وأكثر في قطره المحروس من مناقبه ومزاياه ، بما صورته أن عيّن هذا المحل المعمور الذي سماه « دار الشريعة » لتنفيذ الاحكام الشرعية ، وتحرير الامور الدينية ، وإجرائها على وجه يخرج به الراعي من ربقة التفريط وتصلح به ان شاء الله احوال الرعية .

وحَجَرَ على جميع ولاة الشرع الحكمَ الاّ بهاته الدار ، جمعا لكلمة الشريعة وصونا لها عن التشتت والانتشار ، وخصّ هذا البيت بانعقاد مجلس فيه يحضره شيخ الاسلام والمُفْتُون والقاضيان وينضمُّ السيد الداي ، يستمرُّ ذلك من كل اسبوع في يوم خميسه ، وأمر بفتحه واجتماع المشائخ المذكورين به لیلة الصوم والإفطار لتحرير أمر الرؤية وإنهاء ما يثبت الى الحضرة العلية ، ولو أفضى الحالُ إلى استيعاب الليل كلّه ، ترقبا لما يَرِدُ من شهادات الاماكن النائية ، كما يفتح ايضا لعروض أمرهم . وعين البهو الغربي لجلوس القاضيين في بقية الايام ، الا يوم الجمعة والعيدين واليومين الموالين له ، ويوم الاحد حيث ينعقد المجلس بباردو المعمور . كما عين البهو الشرقي لجلوس مفتيين حنفي ومالكي على التناوب ، ينتصبان به لإرشاد المستفتين ولمشاركة القاضيين في النظر اذا طلب الخصوم ذلك ، ولمباشرة تنفيذ الحكم اذا تخلّف أحد القاضيين بعذر بيّن قويٍّ ، على ان تكون الاحكام الصادرة منهم ، والمراسلات المخاطب بها منهم قضاة الكور ، مختومة بخواتم رئيسهم .

وَأمَدُ الجلوس لتلقّي الخصوم على مرور الايام أربع ساعات تنتهي بمضي ساعة من الزوال لا ينقص منها شيء ، فان في ذلك اجحافا بحقوق المسلمين ، ولو قلّت القضايا في بعض الاحيان ، ليكون الشغل المتعلق بالخطة من ختم ما يحتاج الى الختم ، والإذن فيما يتوقف على الاذن ، انما هو في ذلك الوقت ، ويتفرغ صاحبها اذا رجع الى محله لمباشرة شؤونه الضرورية ، واغتنام راحته الفكرية والبدنية ، ولا يطرق بابه من الخصوم مشاغب ، ولا يجلس أمامه مطلوب ولا طالب . ولا يلزمهم العود آخر النهار ، ويكون الاذن في الشروع في مباشرة الخصوم لاكبر الحاضرين خطّةً ، وانفصال الموطن بقيامه ، بحيث لا ينصرفون أفذاذا .

وعيّن البيت الملاصق لمحل القاضيين لجلوس ستة من العدول ، اما اثنان فقارّان لا يتبدّلان ، والاربعة الباقون يكونون من عموم العدول على التناوب . وحصر عدد الاعوان في ثلاثين ، وجعل انتخابهم لشيخ الاسلام وتوليتهم بتذكرة منه . وحصر الوكلاء في

عشرة ، وانتخابهم وتوليتهم كالاعوان ، ولا يجمع لواحد بين الوظيفتين . وأمر بتعيين أجورهم بحسب الاجتهاد على قدر المسافات التي يتوجهون إليها ، ومجالس الخصومات التي يباشرونها ، لا يتجاوزون المقادير المعينة لهم .

ولما كانت الذكرى النافعة للمؤمنين مأمورا بها بنصّ الكتاب ، والإصغاء اليها مستحسنا عند أولي الالباب ، فان أمير المؤمنين أيده الله تعالى يأمر بما أمر الله به سبحانه من تقواه التي هي للخير جماع ، وفي يد من أمسكها سيف قاطع لمّاع ، وبالرجوع الى الحق اذا تبيّن ، وطرح الاغراض النفسانية فانه من الامر المتعين ، فانما هي حقوق توصل الى أربابها ، وسفارة عن الشارع أوقف الله تعالى هؤلاء الجماعة على بابها ، ومشاجرة تضمحلّ وان طالت ويبقى ليوم العرض ثوابها أو عقابها . وعليهم بحفظ مناصبهم الشرعية ، وملاحظة مراتب خططهم فيما بينهم فانها لديه نصره الله معتبرة مرعية ، ومواظبة المباشرة من كل واحد فان فائدة حضوره المشروحة تتعطل بمغيبه ، اذ كل واحد منهم آخذ من عمارة هذا المحل بنصيبه ، على ان السيوف إنما اتخذت لاصلاتها ، والجياد العتيقة لا تظهر فائدتها الا في ميادين غاراتها .

وقد أذن مولانا لجميعهم في استخلاف بعضهم بعضا اذا تبين العذر ، وتعين أن يرتكب لاجل الضرورة ذلك الامر . اما إخلاء تلك المراتب في كل يوم عن حاضر ، والتهاون بها حتى يُرى محلٌّ منها وهو عمّن يعمره شاغر ، فان دائرة التجاوز بعد الإذن في الاستخلاف لا تَسَعُه ، والاُذن المتهيئة للاصغاء للأعذار المقبولة لا تسمعه ، لما فيه من امتداد الايدي الى نقض ما وقع إبرامه ، والسعي في توهين بناء من أعظم مصالح دين الاسلام قد أجيد إحكامه .

والله تعالى يبلّغ مولانا من إعزاز الشريعة وأهلها الامل ، ويجعل جميع مَن عيّن بهذا المرسوم الكريم ممن اذا سمع حسنَ القول أتْبَعَهُ مِن الانقياد اليه حسنَ العمل . آمين » .

وقد تكلم علماء المالكية في هذا المنشور بأن مضمونه حصر الرئاسة في كبير علماء الحنفية ، وقد كان لكبير المالكية في جماعته رئاسة ، بل غالب احكام البلاد على المذهب المالكي ، لانهم السواد الاعظم ، الى غير ذلك من نتائج المنافسة والغيرة بين الاكفاء ، ولا يخلو المرء من ودود يمدح ، وعدوٍّ يقدح .

وفي هذه السنة ، 1273 ، أعلن الباي منشوره في شأن الفلاحة ، وهي من أعظم حسناته المذكورة ، وآثاره المشكورة .

وذلك أن ثروة البلدان على قدر ما يخرج من نتائجها للغير ، ولو من نتائج أفكارهم ، كاجادة المصنوعات .

وهذه المملكة متأخرة عن غيرها في إجادة الصناعة ، حتى إن غالب ثياب أهلها ، شعارا ودثارا ، من غيرها . والخارج من مصنوعاتها قليل ، كالشاشية ، وموادّها من خارج ، ونسج جربة والجريد ونحوها وذلك نزر يسير ، [حتى ان الملوك لا يأخذون على إخراج ذلك شيئا ، تسهيلاً لخروجه] ، فثروتها الحقيقية هي ما يخرج من أرضها وتربتها الطيبة الخصبة [بالنسبة لما جاورها] (1) .

وقد ثقلت الاعشار على منتحلي الفلاحة ، وكادت ان تخلو منها الساحة ، لتجاوزها حدود المغارم تجاوزا واضحا [فظيعا] ، أفضى الى نقص مرئيٍّ بالعين ، حتى ان الفلاح في سنة الجدب [بقلّة المطر] (2) يبيع المواشي وآلات الفلاحة ولا يكاد يخلص في مغرمها المسمّى بالعشر ، لا سيما اذا كان ابن عيّاد ومن على قدمه يقبل العشر ، لانه يخلّص من الفلاّح ضعف ما يقدره الامناء على فلاحته ، مع تجاوز أمناء التقدير للحد المشبه .

وأرض المملكة عشرية غير مأمونة الريّ ، حتى كان أحمد باي يشترى القمح والشعير في اواخر مدّته من خارج المملكة لعساكره ، وان كانَ في الحقيقة اشتراه من لزّامه محمود بن عيّاد ، كما تقدم .

ولهذا الباي شغف بالفلاحة والشجر [المثمر] ، وكان ينتحلها ، وعلم بالعيان ، الغنيّ عن البيان ما يقاسي أهلُها . ولم يزل حال الفلاحة نُصْبَ عينه منذ جلس على سرير الملك ، والوزراء يقولون له : « لا قوام لعسكرنا الا بهذه الحالة ، وربما يلزمنا الاقتراض إن نقصنا » ، فيخشى ذلك ، الى ان قال : « ان أكثر عسكرنا الآن مسرّح ، وأي داع لنا في الزيادة على ما يلزمنا لهناء مملكتنا من العسكر ، وقد نقص منه في الوجهة الى الدولة العلية عدد كثير ، والباقي تسرّح كهوله وشيوخه . وبقاؤنا على هذه الحالة

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .
(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

يفضي إلى موت المملكة وتشتت عسكرها » . وظهر له أن يلزم سائر المسلمين العشر ، فقال له بعض رجاله : « ان أهل المنعة من أقاصي العربان والجبال ممن لم يعتد دفع العشر ربّما يمتنعون ، ولا يمكن إلزامهم الا بحرب » ، فقال : « المسلم من حيث هو مسلم لا يمتنع من العشر ، وهو حق الله [ومن قواعد الاسلام الخمس] ، انما يمتنع مما يتولد منه [مما افضى بالبلاد الى العدم] (1) ، فنخفف ما استطعنا ، حتى لا تنفر نفوسهم مما أوجب الله عليهم » ، فقالوا له (2) : « نرتب أداءً على الارض » ، فقال : « ان أرضنا ليست كأرض مصر مأمونة الري ، وهي اكثر من سكانها ، وغالب اهلها فقراء . فاذا جاء الجدب وقع الضرر في رؤوس أموالهم . ولو رأى من تقدمنا في ذلك نفعا ، ما تأخر عنه » ، وعرض عليه هذا الرأي وهو في مضيق ، فاجاب بهذا ، « وأي داع لنا في مخالفة الشريعة ، والبركةُ والخير في اتّباعها » .

ولم يزل [هذا حديثه مع الوزراء ، ينفق مما امتلأت به اسماعه في معرض الاعتراض على من تقدّمه ، والوزراء يحاولون الجواب ، وهو في ذلك] (3) يقدّم رجلاً ويؤخر أخرى ، الى ان اعتمد على فضل الله وتوكّل عليه ، وعامله الله بنيته الحسنة ، وأمرني أن اكتب عنه لسائر اقطار المملكة ، غير محاش جهة من الجهات ، مخاطبا للعمّال والقضاة والمفتين والمشايخ والاعيان ، ونصه بعد افتتاحه :

« اما بعد ، فان عنايتنا ، باعانة الله ، لم تزل مصروفة الى زيادة العمران ، في سائر ما لنا من الاوطان ، وظهر لنا من أسبابه التخفيف على أهل الفلاحة ، ليكثر البذر في كل ساحة ، ورأينا القانون في العشر لا يخلو من إجحاف ، أو زيادة في التقدير أو إسراف ، وبعض الاوطان تؤدي العشر بالحزر والتقدير ، وبعضها لا يؤدي حتى النزر اليسير . والعشر حق لله على عباده ، في سائر أرضه وبلاده ، وهو من قواعد الاسلام ، الواجب لها الاذعان والاستسلام . وقد ذكرناه في منشور الإعانة ، وأخّرنا ترتيبه وبيانه ، حتى أعملنا الفكر فيما نغصب عليه من المقدار ، وهو بحلول الله من حميد الآثار . فجعلنا في كل عام على كل ماشية باعتبار بذرها المختلف باختلاف الاوطان ربع قفيز

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .
(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : « فقال له بعض الجهلة : لو رتبنا اداء مناسبا » .
(3) الزيادة عن ع و ق .

من القمح ومثله من الشعير . ومن بذر نصف ماشية يؤدي نصف ما على الماشية ، ومن بذر ربع ماشية يؤدي ربع ما على الماشية ، وهلم جرًّا بنسبة ما على الماشية ، يدفعه رب الفلاحة في وطنه ويقبله العامل في محل عمله ، الا الاوطان الجاري عملها بالدفع في الرابطة أو غيرها ، فانها تبقى على عادتها المألوفة في محل الدفع .

ومعيار القبول هو الويبة التي أحدثناها بالرابطة ، قطعا لتطفيف الكيل على ذلك [الشكل] (1) الذي يصعب به التطفيف ، ويزال منه الزائد على ظرفها بالمسح . ولا نوجه لحزر زرعه أمناء ، وانما كل عامل يحقق لنا مقدار ما في عمله من الفلاحة بثقات يوجههم لتحقيق ذلك ، وهم مشايخ العمل ، ليكون ذلك منوطا بعهدتهم ، ومظهرا لامانتهم او خيانتهم . ويجزي الله الذين أساؤا بما عملوا ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى .

وان وقع اختلال في التقدير (2) ، يوجّه أمين وعدلان لتحقيق الامر . فان كان كما ذكر ، فمصروف التوجه على رب الزرع . وان كان أقل فمصروف التوجّه على العامل .

ولا يتعطل أرباب الفلاحة في درس زرعهم على طلوع الامناء .

ولا نلزم الفلاح شيئا زائدا على ما ذكر ، سوى أجر المشايخ النظار ، وهو ريالان على كل ماشية ، وأجر الكيل والخدمة وتذكرة الخلاص على عادة الرابطة .

وبهذا الترتيب المبني على أساس المصلحة ، يكون الفلاح عالما بمقدار ما يلزم لفلاحته في كل عام .

فاقرؤوا هذا الظهير على كافة أهل عملكم ، حتى يتحققه الخاص والعام ويبادروا لامتثال مأموره ، وما حرّر في مسطوره .

وقد أعملت الفكر في المصلحة والرفق فيما أمرت ، وما أريد الا الإصلاح ما استطعت .

والله يجعلنا ممن يَهدون بالحق وبه يعدلون ، ويجعلكم ممن يستمعون القول فيتّبعون أحسنه . ومن لم يقابل هذه النعم بالشكر ، فما له عند العقوبة من عذر ، ومن قابلها بما يجب من الشكر استحق المزيد ، قال تعالى : « لَئِنْ شَكَرْتُمْ

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) كذا في خ ، وفي ع : « اختلاف بالتقدير » ، وفي ق : « خلاف في التقدير » .

لأزيدنّكُم ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد » (1) ، والله يعين الجميع على شكر المنعم سبحانه ، ويوفقنا لصالح العمل ، ويمنُّ على عباده بالعافية والخصب من فضله ، والله ذو الفضل العظيم » .

وكتب في ربيع الثاني سنة 1273 (ديسمبر 1856 م.) .

ثم ان القُبّاض أوهموه بأنه لو خيّر الفلاح بين ان يدفع عشره حبوبا للعامل أو دراهم ، ربما يكون أخفّ على الدافع . وفائدة ذلك انما هي لهم في أخذ ما يسمّونه « قباضة » لانفسهم ، والا فبقاؤه في ذمة العمل (2) أنفع لاهل الوطن في سني الجدب ، يشترونه بأخفّ من جلبه من وطن لوطن ، فراج لديه ريبهم (3) ، وقوّم أداء الماشية خمسين ريالاً لمن يريد دفع عُشُره دراهم ، وجعل الخيار للدافع في الاوطان البعيدة التي لم تعتد دفع العشر ، وكتب بذلك أوامره .

وبهذا التخفيف استبشرت العباد وانتعشت الآمال ، وتحركت الايدي للأعمال ، واخضرّت الارض بعد بياضها وربت ، وبشكر الله أعربت . ورجع من لاذ بالفرار الى وطنه .

واختار لقبول النعمة بالرابطة مملوكَ أبيه [ومربّيه] (4) أبا الفداء اسماعيل قائد السبسي فوقف عند الامر والنهي . وهو ديّن ثقة أمين جدّي الطبع ، فصار من يأتي بالعشر الى الرابطة اذا فضل له شيء بعد الكيل يقول له المأمور المذكور : « رجّع متاعك » ، فمنهم من يقول : « لا أرجعه ، وهو هدية مني الى الرابطة » ، فلا يقبله منه ، ومنهم من يتصدق به شكرا لله على نعمته ، ومنهم من يرجعه ، وصار قويُّ الإيمان يحاسب نفسه على ما بقي لله في ذمته من العشر الواجب ويتصدق به .

ودانت لهذا العشر سائر الاوطان القاصية ، وتمّ له ما لم يتمّ لابيه من إلزام سائر الاوطان [لعشر الذمة] سنة 1244 ، اربع وأربعين ومائتين وألف (1828/29 م.) . [والقليل في الكثير كثير] (5) .

---

(1) س 14/آ 7 .
(2) في ع و ق : « في ذمة العامل » .
(3) في ع و ق : « فراج عليه ذلك » .
(4) الزيادة عن ع و ق .
(5) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

وظهر أثر ذلك في دخل الدولة ، [والعمران] (1) من العام الثاني .

وغلت اسعار البقر وأكرية الارضين ، حتى ان البعض أكرى هنشيره بقدر ما اشتراه به زمن تراجع الفلاحة .

هذا وعيونه ترقب في ذلك اعمال العُمّال ، فخافوه وأقصروا ، لانه مرهف الحدّ في المخالفة [لا يقيل فيها عثرة] (2) .

ولم يزل حال الفلاحة في نموٍّ ، إن سلم (3) من وُلاة السوء النائمين في مهد الإمهال. [ويمهل الله الظالم] (4) وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون .

*

وفي ذي الحجة من السنة 1273 (جويلية — اوت 1857 م) ، بعث الباي خاصته المقرب لديه ، صهره أبا الفداء اسماعيل صاحب الطابع ، ومعه أمير اللواء ابو الضياء رستم ، والامير آلاي فليسي راف ، بزوج من الخيل وسرج عربي وغير ذلك من نتائج البلاد الى دولة النمسة هديةً .

وقبل سلطانها الرسل أحسن قبول ، [وميّزهم بنواشن] ، وكان معهم في السفر قنصل النمسة [بالحاضرة] (5) .

ورجعوا عن قريب مسرورين بحسن المباشرة والعناية والإكرام .

ولا سبب لهذا السفر الا هذا المرام ، وإنشاء وصلة مع تلك الدولة العظيمة ، واظهار شأن الرسول .

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) كذا فى خ و ق ، وفى ع : « الى ان سلم »
(4) الزيادة عن ع و ق .
(5) الزيادة فى الفقرة عن ع و ق .

عهد الأمان

وفي العشرين (1) من محرم الحرام ، فاتح شهور سنة 1274 ، اربع وسبعين (الاربعاء 9 سبتمبر 1857 م.) ، منح الباي عهد الامان لسائر اهل المملكة والسكّان .

وهو ما كان يتوقّعه احمد باي ، ولاجله تفادى من الجلوس في المحكمة للحكم بما يراه .

وذلك ان هذا الباي لما جلس على سرير المملكة ، وكان ينكر على ابن عمه عدمَ مباشرة الحكم ، لازم الجلوس بالمحكمة لظنه ان ذلك هو معنى الملك . إلا أنه ابتدأ من حيث انتهى أسلافه . فقد كانوا يحكمون باجتهادهم في قُطّاع الطريق واللصوص وما يرونه فسادا في الارض ، وغير ذلك مما رخصت فيه السياسةُ الشرعية الاعتمادَ على القرائن وشهادة الحال ونحو ذلك مما يفعله صاحب المظالم والشرطة ، ويسمعون الشكايات من ظلامات العمّال ، ويصرفون نوازل المعاملات والقصاص الى القضاة واهل المجلس الشرعي ، ونوازل التجارات الى المجلس المتجري المعروف بالعشرة الكبار ، ونوازل الغصب على خلاص الحقوق الثابتة يباشرها الداي وآغة القصبة وآغة الكرسي وغيرهم . فباشر هذا الباي سائر النوازل على اختلاف أصنافها ، من غير تحجير على غيره ، يحكم فيها بما يظهر لاجتهاده ، من غير توقف للتأمل ولا مراجعة ، ولم يكن عنده من آلات الاجتهاد ما يستتر به .

وكان جريئا على تنفيذ ما يراه بسرعة في الحين ، كقتل محمد السقّا ، وكان يلزمه تعزير لا يبلغ القتل ، بعد ثبوت الدعوى بطريق من طرق الثبوت المعتبرة عقلاً او سياسة ، وقَتْل جماعة من اهل المرسى ، يعلمهم من أهل الدعارة والفساد ، وقعت بينهم معركة في مجلس لهو انجرح فيه أحدهم ، فحملته أمه شاكية ممن جرح ابنها ، فأمر بقتله مع المدعى عليه وغيره ، وهو بروشن قصره في بستانه بالمرسى ، في غير ديوان حكمه بالمحكمة ، وأخْذِ أموال أبي عبد الله محمد المرابط وصالح شيبوب ونَفْيِهما ، ولا ذنب لهما الا

(1) هو 19 حسب التقويم .

خدمتهما في ابن عمه كغيرهما من خدّامه الذين طردهم وانتزع ما ربحوه بخدمتهم التي ضاعت فيها أعمارهم ، وتفرقهم شذر مذر ، الى غير ذلك مما لا يقتضيه حال من الاحوال زمنَ أبيه وجدّه .

دخل اليه رجل من صعاليك الاعراب وجفاتهم ، يحمل مزودا به رأس رجل ورأس امرأة وقال له : « ان أمرأتي هذه وجدتها مع هذا الرجل فقطعت الرأسين ، وها أنا بين يديك » ، فقال له بديهة : « أحسنت » . وأمر ان يكتب له باسقاط ديتهما وعدم المطالبة بدمهما ، بمجرد دعواه ، قبل ان يثبت عنده ان المرأة زوج القاتل ، وان الرجل اجنبي عنها وهو محصن ، الى غير ذلك مما يجب لصون النفوس المحرمة . اذ من الممكن القريب ، باعتبار شاهد الحال ، ان هذا الرجل قتل رجلاً وامرأته لاخذ مال او لعداوة ، وتستّر بهذه الدعوى ، الى غير ذلك من الاحتمالات التي لا يزيلها الا التثبت في طرق الثبوت .

ومع ذلك يلزم هذا المقرّ بالقتل الادبُ ، للافتيات على الحكم ، اذ ليس لكل أحد ان يقيم الحدّ ، والا انعدمت فائدة كتاب اللعان ونصب الإمام .

ولما كلمه بعض النصحاء في ذلك ، احتجّ لحكمه بأن والده حكم بقريب من هذا ، وهو أن رجلاً قتل رجلاً وأقرّ بالقتل ، مدّعيا أنه وجده مع امرأته ، فقال له : « لو قتلتهما معا ، سرحتك ، اما اذا قتلت الرجل وأبقيت امرأتك ، فيلزمك القصاص لإقرارك » ، وأمر بقتله .

ومن يقدر ان يقول له « ان والدك [الذي استندت الى قوله] (1) غير معصوم ؟ » والحال ان والده غير معصوم من الخطأ . الى غير ذلك من نوازل المحكمة المنافية للمعقول والمنقول ، وقد تقدم شيء من بيان حالها في العقد الاول من مقدمة هذا الكتاب .

واتفق ان عسكريا قتل يهوديا وأخذ سلعته ، وأتى اولياء اليهودي بشهادة على ذلك من لفيف الناس ، فصدر الحكم بقتل العسكري من غير سماع لجوابه .

وبلغ الباي من المحتسب وغيره ان الناس تكلموا في ذلك .

---

(1) الزيادة عن ع و ق .

وبعدها بأيام قامت شهادة من لفيف الناس بالحاضرة على يهودي من سوقة اليهود اسمه باطو يخدم على كـرطون للقايد نسيم رئيس اليهود ، بأنه شتم مسلما وسبّ دينه . وكـان اليهودي حالَ الشتم بحالة سكـر على عادته المعروفة منه .

ولما رفعت الوثيقة للباي ، امتنع من تعـزير اليهودي على مذهبه الحنفـي الجاري به عمل آله ، لعموم البلوى ، وعزم على نشر النازلة بالمجلس الشرعـي ، فقال له الوزير أبو النخبة مصطفى خزنه دار : « الانسب بحال الوقت ان سيادتك تباشر الحـكم في هذه النازلة بما تراه من العقوبة غير القتل ، وستر أمثال هذه النوازل هو ما يطلبه الوقت من السياسة ، كما كان يفعل أسلافك » ، فقال له : « بالامس قتلنا عسكـريا مسلما لقتلـه يهوديا » .

وأمر بنشر النازلة في المجلس الشرعـي ، وأتى الطالب للجماعة المالـكية ، ومذهبهـم شديد في أمثال هذه النوازل ، فرأوها من المسائـل التـي توجب القتـل بلا استتابـة . ويد المحتسب جائلة في النازلة ، جريا مع غرض الباي ، والحاجة في نفسه على متبوعه القايد نِسّيم على ما يقـال ، والله أعلم . حتى إنه توعّد من يتوكـل عليه (1) من وكـلاء المجلس الشرعـي . وأحضروا اليهودي بالمجلس ، وقرئت عليه الشهادة ، فأنـكـر صدور ذلك منه ، فقيل له : « ان الامر ثابت عليك بالشهادة » ، فأصرّ على الإنـكار ، فقيل له : « ما تقول في هؤلاء الشهود ؟ » ، فأصرّ على الإنـكار ، وفي المذهب الحنفـي ان الانـكار في امثال هذه النوازل توبة ، ولم يطلب شيئا . ولشيـخ الاسلام أبـي عبدُ الله محمد بيرم ميل إلى اجراء الحـكم في النازلة بمقتضى المذهب المالـكي ، فقال له شيخنا العلامة ابو عبد الله محمد بن الخوجة : « ان هذه النازلة ذكـرها صاحب البحر » ، فأجابه بأن البحر فيه البلاّعات ، فأحجم شيخنا .

وأتى المترجم الاول بدار الفرنسيس ، واسمه رُسُّو(2) ، من اعيان الفرنسيس وحذاقهم وفصحائهم بالعربية ، الى دار الشريعة ، رائما توقيف إبرام الحـكم في النازلة ، فلم يحصل على مراده بشـيء . وآل الامر الى الحـكم بقتل اليهودي من غير استتابة ، على خلاف المذهب الحنفـي .

(1) في ع و ق : « على اليهـودي » .

(2) Rousseau (قانياج ص 46)

ولما ارتفع الخلاف بالحكم المالكي ، حكم شيخ الاسلام بصحة الحكم وإمضائه. ورفع إلى الباي أوائلَ ذي الحجة في يوم جمعة (2 ذي الحجة — 24 جويلية 1857 م.) ، وهو ببستانه في المرسى ، فأمر بنفوذه في اليوم وهو في غير ديوان حكمه . [وقُتِل اليهودي بالسيف] (1) ، وانذعرت اليهود وعقلاء الحاضرة من الاستعجال في نفوذ الامر بالقتل ، بل والحرص عليه . ولا يوجد العجول محمودا ، ولا يعدم الصرعة صاحب السرعة . وآفة القوة استضعاف الخصم .

وهذا الباي كان يَنْتَقِم على ابن عمّه التربص في ذلك ، ويراه من تأخير الحدود ، ويقول : « السجن ملآن بالمحبوسين للقصاص » ، وان كان أكثرهم في حبس الشريعة لعدم توفّر بعض الموجبات ، فقتل منهم — سياسةً — من حبسته السياسة .

ولما وصل الحال الى حدٍّ بقاؤه من المحال ، أتاه قنصل الفرنسيس ليون روش المتقدم ذكره ، وقال له : « ان محبتي فيك وفي بلادك حملتني على نصحك » . وأخذ يعدد له أحكاما صدرت منه باستعجال من غير رويّة ولا إعمال فكر في الحقوق . « ولا بدّ لكل زمان من سياسة تخصّه . وان الدولة العثمانية ، وهي ما هي ، سارت بما يقتضيه حال الزمان من السياسة ، وان جلوسك للحكم في الجنايات بما تراه وحدك ، يحملك على هذه البوادر . لانك إن توقفتَ أو شاورت ، ترى أنك خالفت عادة آلك . وتلك العادة لم يبق لها موقع في الوجود ، وان كان يثقل عليك ذلك ، كما انه يستحيل ان تبقى أمة برأسها في أكثر معمور الدنيا » ، الى غير ذلك ، حتى ظهر له انه نصيحةُ ، فعزم على جعل مجلس للحكم في الجنايات ، وكاتب بذلك مجلس الشريعة والداي ومشايخ البلاد الثلاثة وغيرهم . وكان ذلك في الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة 1273 (الخميس 13 أوت 1857 م.) . ونصه بعد صدره واسم المخاطَب : « أما بعد فانا عزمنا ، باعانة الله لما رأيناه من المصالح ، ان نرتب ديوانا مركبا من أعيان المسلمين من رعايانا ، للنظر في أحوال سائر الجنايات على اختلاف أنواعها ، والتأمل في حججها ، ويرفعوا الينا ما يقع عليه انفصالهم ، ولنا النظر بعد ذلك . وكذلك نجعل ديوانا للأحكام المتجرية ، ينظرون في احوال المتجر وما يقع بين التجار . ويكون الديوان من أعيان المسلمين من رعيتنا . ونأمر

(1) الزيادة عن ع و ق .

أعيانا من رجال دولتنا لترتيب قوانين ما يحكم به الديوان المذكور ، ونختار منها ما نحكم بامضائه . اما النوازل الشرعية فالنظر فيها للشرع العزيز . ومن الله الإعانة ، والسلام » .

فقال له القنصل : « لا بدّ من قانون يكون ضامنا لذلك » . وتقانع بهذا المكتوب وقال : « نرجو الله ان يكون هذا كافيا في سكوت الدول عنك » .

ويقال ان اليهود بباريس لما بلغهم ما حلّ بأخيهم في الديانة ، وهم يتردون من مياه الحريّة ويتنفسون من هوائها ، رفعوا أمرهم على يد أحد العظماء منهم للدولة قائلين : « ان اخواننا بتونس ، والحالة هذه ، غير آمنين بسبب ديانتهم » ، فأتى الاسطول الفرنساوي في اوائل محرم سنة 1274 ، اربع وسبعين (اواخر اوت 1857 م.) ، به تسعة أجفان ، بها نحو السبعمائة مدفع ، وأميره عظيم من شيوخ الفرنسيس اسمه تريوار .

ولمّا رسا بحلق الوادي تحير الباي ، وذهبت نفسه كلّ مذهب ممكن ، ونزل أمير هذا الاسطول ومعه أعيان ممن معه ، واجتمع بالباي في بستانه بالمرسى ، وترجم بينهما الوزير الكنت جوزاب راف ، فقال هذا الامير للباي ، وكان بالمكان المكين من السياسة وحنكة التجريب ، : « إني ، عن إذن سلطاني ، أتيت بهذه القوة لإعانتك على من يخالف أمرك في إعطاء الحرية لرعيتك ، والامن على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وأديانهم . وحاشا مثلك ان يُغصب على العدل وهو من أصول ملّتكم . وأنت تعلم انه يلزمك ان تكون كالدول ، وهذا السلطان العثماني نحا منحى الدول المرتّبة . وأطلب منك تعجيل الجواب . وإن ما أشرتُ به عليك أنفع لسياستك ولسياسة دولتنا معك » . والقنصل [جالس] (1) لم يتكلم كثيرا .

ومن الغد جاء قنصل الانقليز واسمه ريشارد هود (2) ، وبيده مكتوب له من دولته مضمونه مثل مضمون كلام أمير الاسطول . وطلب الاجتماع بالباي فقابله ومعه رجال دولته . وقال لي الباي : « كلّمه أنت فيما يتعلق بأمر الدين » . وكان هذا القنصل من أفراد جنسه ، عالي الهمّة ، فصيح اللسان ، ثاقب الفكر ، محجاجا منصفا ، حنّكته التجارب والاسفار ، معتبرًا في دولته ، يتكلم بالعربية ، خالط العلماء بأرض الشام ،

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) Richard Wood

وتـكـلـّم مع الباي في غرض النصيحة طلق العنان ، والقوم سكـوت ، فقلت له : « إن هذا الترتيب المطلوب منّا ربـّما يمـّس دينا » ، فقال لي [بديهة] (1) : « إن أردتَ دينـَكـم الذي كان عليه سلفـكم ، وبه هـُدِم في ثمانين سنة ما بناه الرومان في ثمانمائة سنة ، فهو المطلوب منـكم ، وان أردتَ تلوين فتاوى الفقهاء على حسب أغراض الملك (2) ، فمعاذ الله أن يـكون هذا دينا . وغاية المطلوب منـكم إجراء أصول دينـكم ، ويقبـح بأمة يغصبها على العمل بدينها أجنبي منه » ، فأخجلنـي ولم أجد جوابا . ومغالب الحق مغلوب ، ومكـابر البرهان بـالجهل موسوم .

وقد قيـل : قـــول المرء يـكـشـف عـقلـه ويبـدي سجاياه وما كان يـكـتم

ثم أعرض عنـي وقال للباي : « اذا سمعت نصيحتـي فبادر الى هذا الامر ، لان أسطولنا في مالطة ينتظر جـوابـي مع فابور حاضـر لحملـه ، واذا طـال مُقام الاسطـول الفرنساوي ، فلا جرم ان دولتـي تبعث أسطولها ، ولا يبعد ان الاسطول العثمانـي يقدم ، ولا نعلم ما يـكـون ، وربما يتسع الخرق على الراقع ، اذ لا قدرة لك على ثلاث دول عظام مطلبهم واحد . ودولتـكم مأمورة بذلك من سلطانـكم العثمانـي ، وأتاكـم فرمانها في التنظيمات الخيرية ، وأجبتم بالامتثال ، وهو الحق المعقول والمنقول من شريعتـكم ، والا ما ساغ للدولة العثمانية ان تقدم على ذلك » . ثم قال للباي : « فائـدة هذا الامان راجعة لبنيك ، ونفرض انك تعيش خمسمائة سنة او ما شئت ان تعيش ، أليس بعـد ذلك كـلـّه الموت ؟ والمتولي بعدك يفعل ببنيك ما يظهر له ، من غير قانون يمنعه . وقد كـان رجل من بنـي عمـّك سجنه أبوك وهو صبي لم يبلغ الحلم ، حتى سرَّحته انت لما تحقق عندك انه على حال من العتـَه ، فاترك أولاك في أمان » ، الى غير ذلك من الـكلام المؤيـّد بقواطع البرهان . ثم قال له : « نترك وقتا تتفاوض فيه مع وزرائك ونصحائك ، فان المطلوب منك واقع لا محالة ولو بعد حين ، فافعله باختيارك واغتنم فخره عند الدول واربـح به المحبة من رعيتك » ، وانصرف .

ومن الغد جاء قنصل الفرنسيس ليون روش ، وكـان خبيرا بأصول الملة الاسلامية ، وقال : « انـي لم أتـكـلم بمحضر امير الاسطول حتى سمعتم كـلامه ، واظنـكم سمعتم

(1) الـزيـادة من ع و ق .
(2) في ع و ق : « الملـوك » .

كلام قنصل الانقليز ، والآن أتيت ناصحا » . وخاتمة كلامه « ان هذا المطلوب لا بد من إتمامه ، لا سيما وقد فعله سلطان المسلمين . وقد أتاني مكتوب من جناب الوزير ، جوابا عن مكتوبي ، وقد عرّبته بنفسي ، وناوله للباي » .

وقد كان كل واحد من قنصل الانقليز والفرنسيس المذكورين لخّص رسالته في مكتوب منه وبعثاها للباي ، ومضمونها ما تقدم [من النصح] (1) .

اما مكتوب الوزير فنصّ تعريبه على ألفاظه وتراكيبه : « هذه نسخة من نسخة مكتوب المعظم الكونت فالسكي ، وزير الامور الخارجية بدولة فرانسا ، الى موسي (2) روش ، قنصل جنرال ومتوليّ كافّة أمور فرانسا في عمالة تونس » ، وتاريخه في 20 يوليه سنة 1857 (الخميس 29 ذي الحجة 1273 هـ.) . وغالبه اطناب في غرض التشنيع على الباي [في نازلة قتل اليهودي] (3) وعدم سماع نصيحة القنصل .

[ومن دعا الناس الى ذمّه   ذمّوه بالحق وبالباطل](4)

ونذكر من فصوله ما يتعلق بالنازلة بلفظه ، فمنها :

« ويكفيني ان أقول في وقتنا هذا ، لو توجد دولة لا اقتدار لها ان توافق سيرتها مثلما هو جاري في جميع الاقاليم ، فلا يعتبر بها أحد ولا تستاهل حماية الدول العظماء ، ولا شك ان الباي يعلم ويتيقن بذلك لو كان يستفسر ما أثر في اروبا من سيرته في هاته النازلة . ولو كان يترك قول بعض المشيرين اليه من اهل الجهل بمعرفة الامور الدنيوية والسياسية . ودليل غلطته المضرة الذي لا زال يلام عليه فيها ، هو ان صورة سيرته هاته ليست موافقة لسيرة دولة السلطان عبد المجيد الذي فرض عليه طاعته فيما يتعلق بأمور الدين ، وان اليهودي الذي قُتِل بتونس لم كان يوجب قتله باسلامبول ، بوجود ما وقع من الشروط والترتيب والمساعدات في هذا الزمان الذي اتفقوا عليه جميع مشايخ الاسلام بالحضرة العلية العثمانية ، وحكموا بأن جميع ذلك ليس مخالفا لقواعد دين الاسلام . فبسبب ذلك حين الباي أمضى حكمه بقتل هذا اليهودي قد غيّر اولاً قلوب اهل اروبا ، وثانيا عصى السلطان القائم بدين الاسلام الذي يوجب اطاعته في امور الدين » .

---

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) كذا في خ و ع و ق .
(3) الزيادة عن ع و ق .
(4) البيت ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

ومن فصوله ما نصّه بلفظه : « واننا ليس تعريضنا في هذه النازلة فقط ، بل انما تعريضنا لسيرة الدولة التونسية التي هي غير مستقيمة ، وقد نتجت منها الواقعة المشار اليها . ونحن منذ ثلاثين سنة مجتهدين باسلامبول وباذلين حرصنا واقتدارنا ليترك السلطانُ البعضَ من سيرته القديمة ، وليجعل عوضها ترتيبا موافقا لما يطلبه زماننا هذا ، وقَبِلْنا جميع مقصودنا . فكيف الآن نترك باي تونس ، اي هذا الامير الذي لم كان تحريره من اسلامبول الا باعانة دولة فرانسا ، فكيف نتركوه يتبع سيرة مخالفة للسيرة التي استجلبنا دخول أكبر سلاطين الاسلام اليها » اهـ. ومنها أيضا بلفظه : « واما خطابي هذا كله فيما مضى ، واما قولي الآن فيما سيقع في المستقبل ، هو أنه نأمرك تتوجه الى الباي وتقرأ عليه جوابي هذا ، وتبين له انه لا بدّ ومن الواجب عليه ان يجعل في سيرة دولته ترتيب صالح مثل ما جعل ورتّب سلطان الاسلام . وقد كان هذا الامير محمّد باي واعدنا سابقا بذلك . وبهذا الترتيب تزول هذه الحالة المضرة التي هي غير مقبولة وليس لنا اطاقة على حملها أبدا . وسنبيّن لك البعض من هذا الترتيب الذي لا بدّ له ان يقع بعمالة تونس . منهم أولاً الطريبونالات ، يعني المجالس ، احدهم مختصّ بحكم امور المتجرية ، وغيرهم فيما يتعلق بكافة الجنايات . وان السلطان عبد المجيد لما أراد ترسيم هذا الترتيب في هذا الحكم الجديد ، استعان بجميع وزرائه ، وبمشورة جميع المشائخ والعلماء جعل تلك المجالس ، وأذن ان يكونوا أربابهم مختارين من جميع الاديان ، وصرف حكم تلك المجالس فيما يقع بين الاسلام والنصارى وغيرهم من اهل الكتاب . وان باي تونس قادر أن يحتمي بما رتّب السلطان ، ويجعل ببلده ترتيبا مثل ما فعل السلطان ، من غير خوف من أحد .

وينتج من هذا الترتيب فائدتين ، أولهما قطع وقوع نازلة مثل ما وقعت على اليهودي الذي قتل ، وثانيهما انه ينال الباي [بها] (1) أعظم حقوق السلطنة ، وهو العفو لرعيته . وينتج أيضا من هذا الترتيب منفعة أخرى للعامّة ، هو ان جميع الخلق تقبل شهادتهم لدى تلك المجالس مثل شهادة سائر المسلمين . ومن جملة التراتيب أيضا الرجوع والتمسك بشروط التجارة الواقعة بين تونس واجناس اروبا من غير خلاف . وايضا التسريح بجميع الصنائع لكافة الخلق . وايضا التسريح لجميع الخلق أن يملكون العقارات مثل اهل

(1) الزيادة عن ع و ق .

البلد ، وما أشبه ذلك . ومن غير شك عندنا ان الباي لا يتوقف في اظهار امتثاله لما ارادت منه الاروبا ، ولا يمكن له الامتناع من ذلك . ومن المعلوم ان الملك يضيع قدرته السلطانية اذا يتصرف بها على كيفيته التي لا يقبلها لا العقل ولا الحنانة البشرية . وبالعكس لو أن الملك يترك جميع أغراض النفس (1) ، ولا يستنصت لما لا يصلح في الوقت ، فيزيد حينئذ فخرا في تلك القدرة السلطانية . ولا شك عندنا ان الباي في هذه الحالة لا يستشار من أناس الذين قادوه بمشورتهم لامور غير صالحة ، وأوقعوا له الاختبال في عقله كم من مرة . فنترقب تُعْلِمنا بما ينتج من مخاطبتك بهذا الجواب مع الباي ، لنعرضه الى حضرة جناب الانبراتور سلطان فرانسة » . اهـ . تمام مكتوب الوزير .

ومكتوب في آخر هذا التعريب بخط القنصل باللغة العربية ما نصه : صح من كاتبه بيده الفانية ، عبد ربه سبحانه ليون روش ، قنصل جنرال الانبراتور ، ومتولي امور فرانسة في عمالة تونس . وبعده تصحيحه بالقلم الفرنساوي .

وهذه المكاتيب المذكورة موجودة الى الآن بأعيانها في خزائن الدولة .

و [بعد ذلك] (2) ناول الباي ايضا تقييدا بخطه في اصول القانون وانصرف ، فجمع الباي رجال دولته ، ومنهم شيخ الإسلام ابو عبد الله محمد بيرم صهره ، وقرأ عليهم اصول القانون ، وهي اصول التنظيمات الخيرية . وكان شيخ الاسلام أسرع الحاضرين للاجابة ، مستندا الى الغضب الذي لا قدرة لنا على دفعه . وهو المشار اليه في تعاريب مكاتيب الوزير من الذين قادوه بمشورتهم لامور غير صالحة ، وأوقعوا له الاختبال في عقله كم من مرة ، فقلت له : « ان القوم لم يصرحوا بالغصب ولا آذنوا بحرب وانما نصحوا » ، فقال : « نخشى الغصب من الدولة العلية ، واصول التنظيمات لا تخالف ديننا » .

وتسارع الباي الى القبول ، غير مفكر في معنى ما التزم به ، وفي طبعه الرفق والعدل فيما لا يعارض شهوته ، فقلت له بمحضر اولئك الجماعة : « يا سيدي ، ان الامر صعب على مثلك ، فاعرفْ ما تلتزم به ، فانك بهذا الامر تكون يداك هكذا » ، وقبضت يديّ الى جنبيّ ، فقال لي : « لاجل نفع الرعية نرضى ان تكون يديّ هكذا » ، وقبضهما الى جنبيه قبضا أشدّ من قبضي ، فقلت له : « هنيئا لك » .

---

(1) في ع و ق : « النفسي » .

(2) الزيادة عن ع و ق .

وأمرني بانشاء مكتوب عهد الامان بمحضر الجماعة ، فقلت له : « ان الامر ثقيل يضعف متني على حمله ، والليلة نكتبه ومن الغد يحضر هذا الجمع للتأمل فيه ، حتى يكون منسوبا للجميع » .

ومن الغد حضروا ، وقرأته عليهم مرارا ، فزادوا في معانيه ونقصوا . واطلع عليه قنصل الفرنسيس وقنصل الانقليز فاستحسناه . واخذ قنصل الفرنسيس نسخة منه للتأمل فيه قبل قراءته في الموكب .

ووقع الاتفاق على قراءته ضحى يوم الاربعاء العشرين (1) من محرم السنة 1274 (9 سبتمبر 1857 م.) ، فاستدعى الباي سائر اهل المجلس الشرعي ، وأعيان الدولة ، واميـر الاسطول ومن معه من الاعيان ، وقناصل الدول ، وكبير الاساقفة والرهبان ، واحبار اليهود ، وغيرهم من اعيان الوافدين . ولبس ثياب الزينة ، ورجال دولته كذلك .

وكان المشهد « بالبيت الكبرى » بصراية باردو .

ولما اخذت الناس مواقفهم ، أمرني بقراءته ، فقرأتُ شيئا من خطبته بتكلف وتعب ، لسعال كان بي يومئذ ، وأتمّ قراءته صاحبنا الكاتب البارع ابو عبد الله محمد الباجي المسعودي . ونصه :

« الحمد لله الذي اوضح للحق سبيلا ، وجعل العدل لحفظ نظام العالم كفيلاً ، نزّل الاحكام على قدر المصالح تنزيلاً ، ووعد العادل وتوعد الجائر ومن أحسنُ من الله قيلاً . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي مدحه في كتابه بالرؤوف الرحيم وفضّله تفضيلا ، وبعثه بالحنيفية السمحاء فبيّنها تبيينا وفصّلها تفصيلا ، ورتّبها كما أمره ربّه إباحة وندبا وتحريما وتحليلاً ، فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً ، وعلى آله وأصحابه الذين أقاموا على معالم الهدى علما لمن اقتدى ودليلاً ، وفهموا الشريعة نصّا وتأويلاً ، وابقوا سيرتهم الفاضلة واحكامهم العادلة أمانا جليلاً ، ونستوهب منك اللهم توفيقا يُوصل الى الاسعاد برضاك توصيلاً ، وعونا على امور الإمارة التي من حملها فقد حمل عبءا ثقيلا ، فقد توكلنا عليك والتجأنا إليك وكفى بالله وكيلا . اما بعد فان هذا الامر الذي قلّدنا الله منه ما قلّده ، وأسند الينا من امور خلقه بهذا القطر ما أسنده ،

(1) هو 19 حسب التقويم .

ألزمنا فيه حقوقا واجبة ، وفروضا لازمة راتبة ، لا تستطاع الا باعانته التي عليها الاعتماد ، ولولاها فمن يقوم بحق الله وحق العباد ، فمحضنا النصيحة لله في عباده ، وأرضه وبلاده. والامل أن لا نبقي فيهم ظلما ولا هضما ، ولا نخرم لهم في اقامة حقوقهم نظما . وأنى ينصرف عن هذا القصد بعمله ونيته ، من يعلم ان الله لا يظلم مثقال ذرة ولا يحب الظالم في بريته ، فقد قال لنبيه المعصوم الاواب : « يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ » (1) .

والله يرى اني آثرتُ في قبول هذا الامر ، على خطره ، مصلحةَ الوطن على ذاتي ، وعمّرت بخدمته الفكرية والبدنية غالب اوقاتي ، وقدّمتُ من التخفيفات في الجباية ما عُلِم خبرُه ، وظهر بعون الله أثره ، فانتشرت الآمال ، وتشوفت النفوس الى ثمرات الاعمال ، وانقبضت عن التعدي ايدي العمّال ، واستقصاء المصالح يقتضي تقديم اجمال ، ومن رامها جملة فقد عرّضها ، بسبب التعذر ، للاهمال .

ورأينا غالب اهل القطر لم تحصل لهم الامنية ، باجراء ما عقدنا عليه النيّة .

وجرت عادة الله ان العمران لا يقع من نوع الانسان ، الا اذا علم ان براءته هي الامن له والامان ، وتحقق ان سياج العدل يدفع عنه خوف العدوان ، وان لا وصول لهتك ستر من حرماته الا بقوة الدليل ووضوح البرهان ، ولا يكفي لتحقيقه الواحد والاثنان . فاذا رأى الجاني تعدُّد الانظار غلّط ، ان كان منصفا ، حَدْسَه ، وقال : « ومن يتعدَّ حدودَ الله فقد ظلم نَفْسَه » .

وقد رأينا سلطنة الاسلام ، والدول العظام ، الذين على سياستهم الدنيوية اعمال الاعلام في النقض والإبرام ، يؤكدون الامان من أنفسهم للرعيّة ، ويرونه من الحقوق المرعية . وهو أمر يستحسنه العقل والطبع ، واذا اعتبرت مصلحته فهو مما يشهد باعتباره الشرع . لان الشريعة جاءت لإخراج المكلّف عن داعية الهوى ، ومن التزم العدل وأقسم عليه فهو أقرب للتقوى ، وبالامن تطمئنُّ القلوب وتقوى .

(1) ص 38/آ 26 .

وقبل هذا كاتبْنا علماءَ الملّة الاركان ، وبعضَ الاعيان ، بعزمنا على ترتيب مجالس ذات اركان ، للنظر في احوال الجنايات من نوع الانسان ، والمتاجر التي بها ثروة البلدان . وشرعنا في فصوله السياسية ، بما لا يصادم ، ان شاء الله ، القواعدَ الشرعية .

هذا وأحكام الشريعة ،أعزها الله ، جارية مطاعة ، والله يُديم العملَ بها الى قيام الساعة .

وهذا القانون السياسي يستدعي زمنا لتحرير ترتيبه ، وتدوينه وتهذيبه . وأرجو الله الذي ينظر الى قلوبنا أن تستقيم به أحوال الرئاسة ، ولا يخالفه ما ورد عن السلف الصالح من اعتبار السياسة ، وأنا العبد الفقير أعجّل لمرضاة ربي بما تطمئن اليه النفوس ، وتكون منزلته في النفس منزلة المشاهد المحسوس . وتأسيسه على قواعد :

الاولى : تأكيد الامان ، لسائر رعيتنا وسكان ايالتنا على اختلاف الاديان ، والالسنة والالوان ، في ابدانهم المكرّمة ، واموالهم المحرّمة ، وأعراضهم المحترمة ، الا بحق يوجبه نظر المجلس بالمشورة ويرفعه إلينا ، ولنا النظر في الإمضاء او التخفيف ما أمكن او الإذن باعادة النظر .

الثانية : تساوي الناس في اصل قانون الاداء المرتب او ما يترتب ، وان اختلف باختلاف الكمية ، بحيث لا يسقط القانون عن العظيم لعظمته ، ولا يحط على الحقير لحقارته ، ويأتي بيانه موضحا .

الثالثة : التسوية بين المسلم وغيره من سكان الإيالة في استحقاق الإنصاف ، لان استحقاقه لذلك بوصف الانسانية لا بغيره من الاوصاف . والعدل في الارض هو الميزان المستوي ، يؤخذ به للمُحِقّ من المبطل وللضعيف من القوي .

الرابعة : ان الذمّي من رعيتنا لا يُجبَر على تبديل دينه ولا يمنع من إجراء ما يلزم ديانته ، ولا تُمتَهَن مجامعهم ويكون لها الامان من الاذاية والامتهان ، لان ذمّتهم تقتضي أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا .

الخامسة : لما كان العسكر من أسباب حفظ النوع ، ومصلحتُه تعمُّ المجموع ، ولا بدّ للانسان من زمن لتدبير عيشه والقيام على أهله ، فلا نأخذ العسكر الا بترتيب وقرعة ، ولا يبقى العسكري في الخدمة اكثر من مدة معلومة ، كما نحرره في قانون العسكر .

السادسة : ان مجلس النظر في الجنايات ، اذا كان الحكم فيه بعقوبة على أحد من أهل الذمة ، يلزم ان يحضره من نعيّنه من كبرائهم ، تأنيسا لنفوسهم ودفعا لما يتوقعونه من الحيف ، والشريعة توصي بهم خيرا .

السابعة : ان نجعل مجلسا للتجارة برئيس وكاتب وأعضاء من المسلمين وغيرهم من رعايا احبابنا الدول للنظر في نوازل التجارات ، بعد الاتفاق مع احبابنا الدول العظام في كيفية دخول رعاياهم تحت حكم المجلس ، كما يأتي ايضاح تفصيله ، قطعا لتشعب الخصام .

الثامنة : ان سائر رعيتنا من المسلمين وغيرهم ، لهم المساواة في الامور العرفية والقوانين الحكمية ، لا فضل لاحدهم على الآخر في ذلك .

التاسعة : تسريح المتجر من اختصاص أحد به ، بل يكون مباحا لكل أحد . ولا تتاجر الدولة بتجارة ولا تمنع غيرها منها . وتكون العناية باعانة عموم المتجر ومنع اسباب تعطيله .

العاشرة : ان الوافدين على ايالتنا لهم ان يحترفوا سائر الصنائع والخدم ، بشرط ان يتبعوا القوانين المرتبة والتي يمكن ان تترتب ، مثل سائر اهل البلاد لا فضل لاحدهم على الآخر ، بعد انفصالنا مع دولهم في كيفية دخولهم تحت ذلك ، كما يأتي بيانه .

الحادية عشرة : ان الوافدين على ايالتنا من سائر اتباع الدول لهم ان يشتروا سائر ما يملك من الدور والاجنة والارضين ، مثل سائر اهل البلاد ، بشرط ان يتبعوا القوانين المرتبة والتي تترتب من غير امتناع ، ولا فرق في أدنى شيء من قوانين البلاد . ونبين بعد هذا كيفية السكنى ، بحيث ان المالك يكون عالما بذلك ، داخلا على اعتباره ، بعد الاتفاق مع احبابنا الدول .

فعلي عهد الله وميثاقه ان نجري هذه الاصول التي سطرناها ، على نحو ما بيّنّاها ، وورائها البيان لمعناها . وأشهدُ اللهَ وهذا الجمعَ العظيم ، المرموق بعين التعظيم ، في حق نفسي ومن يكون من بعدي ، ان لا يتم له أمر الا باليمين على هذا الامان الذي بذلت فيه جهدي ، وجعلت فيه سائر الحاضرين من نواب الدول العظام واعيان رعيتنا شهداء على عهدي ، والله يعلم ان هذا القصد الذي أظهرته ، وجمعت له هؤلاء الاعيان وأشهرته ، هو

ما اودعه الله في نيّتي ، وإجراء أصوله وفروعه فوْرا ، أعظم أمنيتي . والمرء مطلوب بجُهْده ، ومن عاهد الله لزمه الوفاء بعهده . والحق هو العروة الوثقى ، والآخرة خير وأبقى .

وأستحلف مَن حولي من هؤلاء الثقات ، والحماة الكفاة ، ان يكونوا معي في إجراء هذه المصلحة يدا واحدة ، بقلوب سليمة متعاضدة ، واقول لهم : « ولا تَنقُضُوا الاَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ » .

اللهم من أعاننا على مصالح عبادك فكن له مُعينا ، وأورِدْه من توفيقاك عذبا مَعينا . اللهم اجعل لنا من عنايتك وإعانتك مددا ، وهب لنا من لدنك رحمة وهَيِّئ لنا من أمرنا رَشَدا ، منك الإعانة على ما أوليت ، والمهديُّ مَن هديت ، والخير كله فيما قضيت .

هذه مقدمة انتجتها الاستشارة ورآها العبد الفقير ناجحة صالحة ، فأعنّا اللهم ببركة القرآن واسرار الفاتحة .

والسلام من الفقير الى ربه تعالى ، عبده المشير محمّد باشا باي صاحب المملكة التونسية . في 20 محرم الحرام فاتح سنة 1274 » .

وكتب بخطه في عدة من نسخه ما لفظه : « صح من كاتبه المشير محمد باشا باي ، والله على ما نقول وكيل » .

ولما تمّت قراءة العهد في ذلك المشهد ، تقدم قنصل الدولة الفرنساوية وترجم قواعده ومضمونه [باللغة الفرنساوية لمن لا يعرف العربية] (1) في ذلك الموكب .

وكذلك تكلم كبير الاساقفة بما معناه : « ان العدل مما اجتمعت عليه الملل ، [وهو ميزان الله في الارض] (2) . وشكر صنيع هذا الباي .

وبعد ذلك ارتفعت الاصوات بالدعاء لهذا الباي ، واعلنت مدافع الفرج والتهاني ، بأمان هذا النوع الانساني ، وعمّ السرور القاصي والداني . وأعْظِمْ بها مَنْقَبَةَ يبقى ذكرها في بني الوطن مع الاحقاب ، « ومَن يُبدِّلْ نعمةَ الله من بعد ما جاءتْه فان الله شديد العقاب » .

---

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) الزيادة عن ع و ق .

وأعطى نسخة لامير الاسطول ليبلغها لدولته .

وبعث لكل قنصل من قناصل الدول نسخة منه مصحّحة بخطه وختمه ، توثيقا لالتزامه، ومع كل نسخة مكتوبٌ منه لكل قنصل ، نصه بعد افتتاحه واسم المخاطب به :

« أما بعد فالواصل لكم نسخة من العهد الذي قرأناه لجميعكم في موكب يوم الاربعاء في 20 محرم سنة 1274 ، بمحضر اهل مجلسنا الشرعي وكافة اركان دولتنا واعيانها . والنسخة مصححة بخطنا ومطبوعة بختمنا ، لتكون عندكم معلومة محفوظة ، وبعين الاعتبار لما فيها ملحوظة . فقد اشهدناكم على إجراء العمل بما فيها ، وترك ما يُنافيها . والله يجعل في مضمونها الخير والصلاح ، واليمن والنجاح . ودمتم في أمن الله وحفظه » .

وكاتب بذلك أخاه بالمحلة ، ووجّه نسخا لاهل المجلس الشرعي ولإمام الجامع الاعظم واهل البلاد ، وفرق نسخا كثيرة في جهات المملكة ، وانتشرت في الآفاق ، وصارت حديث الرفاق .

واستضاف أميرُ الاسطول الفرنساوي البايَ قبل سفره، فأتاه الباي برجال دولته بلباس الزينة ، فعظّم مقدمه ، وصنع تعليما بالمدافع على كيفيات تدهش الفكر .

وبقي الباي بعد هذا العهد يحكم بمحكمته ويقضي في النوازل بمشيئته ، جريا على عادته ، الى ان تعدّى رجل مغربي على مثله من خدمة بستان الباي وقتله . وجيء اليه برجل قيل له ان هذا هو القاتل ، فأمر بقتله في الحين قبل ان يسمع منه جوابا ، ولا حضر أحد من ورثة القتيل يطلب القصاص . وعلى ما قيل ان ابناء عمه ، ورثة دمه ، عفوا عن القصاص ورَضُوا بالدية .

وظن الباي ان المراد بعهد الامان قد تمّ بوجود حروفه في الصحف المنشرة ، والامر وراء ذلك .

وارتمض لهذا الامر قنصل الفرنسيس وقال له : « قد بعثت بنسخة من عهد الامان مصحّحة بخطك ومطبوعة بختمك الى دولتي مع امير أسطولها ، واشهدتني وانا نائب سلطاني ، كما اشهدت امثالي ، أتسخر بالدول ام بالتزامك ؟ وما ضرك ان هذا القاتل

يبقى في السجن الى ان يقتل على نهج حق او قريب منه ؟ ولا نرى ان دولتي تسكت عن ذلك ، اعتبارا لمقامها » ، الى غير ذلك من التهويل . وأجابه الباي بأن « القتل وقع تحت اشجار بستاني وفيها قصر مسكني ، ولا بد من تشديد الحال خشية الجسارة » ، الى غير ذلك مما لم يحرِّك العاقلُ له أذنا ، ولا يحسن فيه الاستعجال بقتل حيوان مملوك ، شِنْشِنة اهل الإطلاق من الملوك .

ولله در الحكيم في وصفهم : « يستصغرون في العقاب ضربَ الرقاب ، ويستعظمون في الثواب ردّ الجواب » .

وصار القنصل يبحث عن ورثة القتيل ، ويتجاهر بالتشنيع على علماء الاسلام ورجال الدولة والوزراء ، وينسبهم الى كتمان النصيحة ، فقال للباي نصحاؤه : « ان الحال اذا بقي على ما كان ، ولم يظهر فيه شيء من التبديل الذي تراه الاعين ، ربما يقع الغصب على إلزام ما وقع الالتزام به . ووراءنا غصب الدولة العثمانية ، وتسخر بنا الاقاليم . واصول عهد الامان مجملة قابلة لكل معنى يحتمله اللفظ ، ونخشى ان يفسره غيرنا بما يظهر له ويصلح به » .

فتحقق النصيحة لنفسه ، وأمر الوزير ابا النخبة مصطفى خزنه دار بجمع اعيان من رجال الدولة لتفسير تلك القواعد وايضاحها ، فقال له الوزير : « أمرك مطاع ، والمناسب في هذا الامر الخطير ان ينتخب سيدنا أعيانا ، منهم بعض اهل المجلس الشرعي ، ويكتب لهم أمرا يعتمدونه في ذلك » ، فاستحسن رأيه ، وانتخب أفرادا . وتلكأ [الشيخ محمد بيرم] (1) شيخ الاسلام عن الحضور ، لامر يعلمه الله ، فقال له الباي : « قد أفتيتنا بالقبول من اول الامر ، وأن التنظيمات الخيرية لا تعارض ديننا ، فما بالك تمتنع من الحضور الآن ؟ » ، وألزمه الحضور .

وكتب للجماعة بما نصه : « أمرنا هذا الى العلماء الاعلام ، الفقهاء الاعيان ، الجلّة الفضلاء من اهل مجلسنا الشرعي العلي ، شيخ الاسلام سي محمد بيرم ، والشيخ سي احمد بن حسين باش مفتي المالكية ، والشيخ سي محمد بن الخوجة المفتي الحنفي ، والشيخ سي محمد البنا المفتي المالكي ، والوزراء الاعيان ، النصحاء الاركان ،

---

(1) الزيادة عن ع و ق .

اولي الرفعة والشان ، ابننا الاعز وزير العمالة مصطفى خزنه دار ، ووزير الحرب امير الامراء ابننا مصطفى باش آغه ، ووزير البحر امير الامراء ابننا خير الدين ، ووزيرنا الاحظى امير الامراء ابننا اسماعيل صاحب الطابع ، والاحظى امير الامراء ابننا محمد امير الاعراض ، وكاتب سرّنا امير اللواء محبنا الشيخ سي احمد بن ابي الضياف ، حرس الله جميعهم ، واحسن صنيعهم . واننا امرناهم بالاجتماع في دارنا بالقصبة يومين في كل اسبوع ، وهما الاربعاء والخميس ، للتفاوض في شرح الفصول المسطرة في عهد الامان ، وكل واحد يتكلم بما يدين الله به على مقتضى آداب البحث في الادلة وايضاحها ، ولا يخجل من لم تنهض حجته ، فالحق أحق بالاتّباع . وأمرناهم قبل ذلك بقراءة ما رتبته الدولة العلية العثمانية وغيرها من الدول ، ليُجسروا التراتيب على ما يصلح ببلادنا ، بعد استفتاء من ذُكر من العلماء فيما تتوقّفون فيه من الامور ، ويرفعوا الينا عمل كل اجتماع لننظره ونمضي ما عليه اكثر رأي الجماعة . ولا يلزم الفقهاء المذكورين الحضور الا يوم الاربعاء ، لاشتغالهم يوم الخميس بالمجلس الشرعي بدار الشريعة .

والله تعالى ولي اعانتهم وتوفيقهم على هذه المصلحة التي يعم نفعها بحول الله تعالى ، والسلام » .

وكتب في 16 اشرف الربيعين سنة 1274 (الاربعاء 4 نوفمبر 1857 م.) .

ورتب لهذا المجلس من نبهاء الكتّاب وحذاقهم الامير آلاي ابا عبد الله محمد البكّوش ، والفقيه الاكتب ابا المحاسن يوسف جعيط ، وربما حضر معهم الالمعي المنصف البارع ابو عبد الله حسين رئيس المجلس البلدي وأمير لواء ، يكتبون ما يقع بين الجماعة من المراجعات والمحاورات .

واجتمع هذا المجلس بدار الباي ، رئيسه الوزير مصطفى خزنه دار .

وقُرِئ عليهم ما فسرتُ به القاعدة الاولى من عهد الامان ، فاستحسنوه حتى قال شيخ الاسلام : « يمكن لي أن أخطب يوم الجمعة بشرح هذه القاعدة وأصلي بعدها الجمعة ، اذ هي ملاك أمر الدين والدنيا » . وطلب الوزير ابو محمد خير الدين من الفقهاء الحاضرين ان يكتب كل واحد على قواعد عهد الامان ما يراه ويدين الله به ، فأجابوه

لمطلبه لما رأوا من توقد فكرته وكمال فطنته ، فكتبوا وتقاربوا في المرمى [على قوس واحدة] (1) ، وجلىّ شيخ الاسلام فيما كتبه بشهادتهم ، ولولا الاطالة نقلنا ذلك .

وفي هذه الايام قدم رسول مخصوص من الدولة العلية في رتبة امير لواء اسمه نصرت باي ، بالخط الشريف وتعريبه . ونقل « ان الدولة العلية تعجبت من عدم إجراء التنظيمات لهذا الوقت ، وعندها جواب مَن تقدمكم بامتثالها والدخول تحت احكامها » ، الى غير ذلك من التحريض . وأجيب بأنه وقع الشروع في العمل كما تراه .

وكان نزوله بدار الباي بالقصبة ايام اجتماعنا بها ، وسافر بجواب مرضيٍّ ، مكرما مسرورا .

ثم طلب الفقهاء المذكورون الاستعفاء من الحضور بهذا المجلس ، واذا توقف بقية المجلس في امر يتعلق بهم من الفقه ، يسألهم ويجيبون بالكتابة .

وكان الظن بهم تقديم هذه الطاعة المتعدية على غيرها من الطاعات القاصرة . وتعللوا بأن منصبهم الشرعي لا يناسبه مباشرة الامور السياسية ، الى غير ذلك من المعاذير التي لو لم نرها بقلمهم ما نقلتُها (2) .

وقبل هذا الباي عذرهم ، وأراحهم من تعب الحضور ، ولسان حال المسلمين بهذه الايالة المسكينة يقول : « مما يجب اعتقاده ان الله الذي دينه النصيحة لايمة المسلمين وعامتهم ، ومن أوامره الواجبة على عباده تغيير المنكر ولو بالقلب ، ومن شريعته السمحاء ارتكاب أخف الضررين عند العجز عن السلامة منهما ، الى غير ذلك من تيسير هذه الشريعة الصالحة لكل زمان ، يسألهم عن ذلك يوم تبلى السرائر ، ثم ان ربك من بعدها لغفور رحيم » .

وكيف يروج تعلّلهم وهم الاعلام السابقون في ميادين العلوم المعقولة . فوا أسفا على العالم الصالح (3) ابراهيم الرياحي الذي كان يهتف بهذه النعمة ، لو كان حيّا وجاءته [نعمة الله هذه اتراه يبدلها بما يناسب المنصب وما لا يناسب ؟] (4) .

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) في ع و ق : « ... بقلم رئيسهم ما صدقت بها » .
(3) في ع و ق : « فوا أسفا على شيخ الشيوخ العالم العامل » .
(4) الزيادة عن ع و ق .

أقول هذا ، وان كان احدهم من أشياخي في الحنفية ، لانهم ضيّعوا بذلك فرصة نَفاق سوق العلم وتقدم أهله ، وزادوا أهله بُعدا على بعد ، ولله غيب السماوات والارض واليه يرجع الامر كله .

وعالج بقية الجماعة فصول القانون ، كلٌّ على حسب استعداده ، والله لا يضيع أجر من احسن عملاً .

وتدرع بعضهم جُنّة من نار الصبر محتسبا ، والاعمال بالنيات .

وجعل الباي مجلسا لنفسه ، من أعضائه شيخ الاسلام أبو عبد الله محمد بيرم ، والوزير ابو النخبة مصطفى صاحب الطابع ، والوزير الكُنْت جوزاب راف وغيرهم ، يقبل فيه ما يعرضه هذا المجلس المأمور ، مع حضورهم (1) بأنفسهم يوم العرض .

ولما أتممنا شرح القاعدة الاولى ، وهي قاعدة كل القواعد ، وقرأناها على الباي في ذلك المجلس ، بدرت من بعضهم بادرة يغفر الله له فيها ، وهي أن قال : « أي شيء بقي لسيدنا ؟ » ، ووافقه على ذلك بعض المتزلفين ، والباي ساكت ، لانه قبض يديه بجنبيه (2) لاجل نفع الرعية ، حين هوّلتُ عليه الامر ، كما تقدم ، فوَجَمْنا لهذه البادرة الباردة ، فتكلم الوزير خير الدين ، وكان أثبتَ القوم جنَانا ، وإن شئتَ قلتَ وأقواهم إيمانا ، وقال له : « نعم ، يبقى لسيدنا ما بقي للسلطان عبد المجيد ، وما بقي لسلطان فرانسا وسلطانة برطانيا وغيرهم من السلاطين بالقانون » (3) . ثم قلتُ لهذا القائل : « هلا قلتَ هذا عند سماعك لهذه القاعدة ، وهلاّ أعملت الفكر في فهمها قبل ان تسلّمها والمراكب بحلق الوادي ؟ » ، وأتيته بنسخة مصححة من عهد الامان ، فأعاد قراءة القاعدة ، واعتذر بنسيانها خجلا .

وسبحان من تنزه عن الخطأ والنسيان ، وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

(1) في ع و ق : « حضور أهله » .
(2) في ع و ق : « الى جنبيه » .
(3) في ع و ق : « من سلاطين القانون » .

وفي هذه السنة أمر هذا الباي بجعل قانون لاثبات العسكر بالقرعة ، وانتخب لذلك امير الامراء ابا محمد خير الدين ، وامير الامراء ابا محمد رشيد امير عساكر الساحل ، وامير الامراء ابا عبد الله محّمد عامل الساحل ، وأمير الامراء ابا الفداء اسماعيل صاحب الطابع (I) ، والاكتب البارع ابا عبد الله محمد الباجي المسعودي ، فاجتمعوا بمنّوبة في بستان امير الامراء أبي محمد خير الدين ، ونظروا في قانون الافرنج وقانون اسلامبول ، وقد كان الامير رشيد عرّبهما ، واختاروا منهما ما يصلح للبلاد (2) ، وسموه « الصباح المسفر ، في ترتيب ثبوت العسكر » وتمّ بعد ان سرح العسكر (3) ، كما تراه في منشوره بالتسريح ، حيث حضّهم فيه على الاستعجال باتمامه ، لانه وقع لهم تعطيل ، وتمّ في اواخر ايامه ، وطبع بعد وفاته ، وهو القانون المعروف للعسكر باسمه .

*

وفي صفر من السنة 1274 (سبتمبر — اكتوبر 1857 م.) ، جعل الباي ترتيبا لعشر الزيت بالحاضرة ، وقد كان صاحب الزيتون في عناء من أداء يسمى بأسماء اصطلاحية تفنّنت أيدي الجور في تلوينه ، بحيث لا يعصر زيتونه كما يريده بل كما يراد منه ، الى غير ذلك مما يعلمه اهل الحاضرة ، مع بليّة التطفيف .

وكان الفلاح يدفع من زيته نحو الخُمس او الرُّبع ، فحسم هذا الامر ، وكتب في ذلك منشورا خاطب به كل شيخ من مشايخ الحاضرة وكافّة ارباب الزيتون .

ونص المقصود منه : « اما بعد السلام عليكم ورحمة الله ، فان عنايتنا لم تزل لمصالحكم مصروفة ، وعلى منافعكم باعانة الله موقوفة ، وقد فرغنا من ترتيب اعشار الحبوب على حسب ما خفّفناه ، وأجرينا العمل بمقتضاه ، ونظرنا الآن في عشر الزيتون فوجدناه مُجحفا بأربابه ، متلفا لامل أصحابه ، والامل أساس الفلاح ، والثروة والنجاح ، وبه على غراسة الشجرة المباركة تتوفر الدواعي ، وتنجح ان شاء الله المساعي . فأسقطنا سائر ما اعتيد على المعاصر من المسمى بالحقوق والسخارة والصرفة وبوقال الرسم ، وغير ذلك مما مجموعه يناهز خمس المال . واقتضى النظر لمصلحة الجمهور ، ان نرتبه على عشرة أمور :

(I) الاسطر الاربعة من « وفى هذه السنة » الى « صاحب الطابع » ، بياض فى ع ، وفى ق بياض ملىء بمـا فى خ بخط مغاير .

(2) فى ع و ق : « ما يناسب حال البلاد » .

(3) فى ع و ق : « وسرح الباى العسكر قبل اتمامه »

الاول : ان الفلاح لا يؤدي من زيته الا الجزء العاشر فقط ، بِقُلّة المعصرة التي يكيل بها زيته ، من غير زيادة ولا تطفيف ، ولو في نزر خفيف .

الامر الثاني : ان نجعل نظارا وعدولاً في المعاصر بحاضرتنا التونسية مع الرِّيّاس (1) ، على حسب ما يظهر لنا في ترتيب ضبط العشر الذي هو تطهير للأموال ، والسبب في بركة الاعمال.

الامر الثالث : ان الفلاح يدفع كراء الجمل صاعا واحدا من الزيت على كل ادالة ، سواء كانت حبا او بندا (2) حيّا او بندا ميتا . والصاع بالمعيار التونسي من غير تطفيف .

الامر الرابع : ان الادالة تكون بثلاثين شامية فقط ، مملوءة بحسب ما يظهر للفلاح .

الامر الخامس : ان الفلاح لا يلزمه خدمة الخمسة أطْرُق وله أن يستخرج زيته من زيتونه بحسب ما يظهر له في العصر . وان لم يأته صاحب المعصرة بالجمال الصحاح يرفع أمره إلينا لنغصبه .

الامر السادس : يدفع الفلاح على كل ادالة حبٍّ قُلّة زيت واحدة بمعيار المعصرة الذي يأخذ به الفلاح زيته ، وذلك كراء المعصرة وآلاتها والمعاصرية (3) ، ولا تلزمه مؤونة المعاصرية ، لانها داخلة فيما ذكر . ولا يلزمه على الابناد بنوعيها غير القلّة المذكورة على ادالة الحبِّ .

الامر السابع : ان الفيتورة ، بعد ان يستوفي ربُّها عصرَها بما يريد ، تكون لجانب البايلك (4) ، على العادة .

الامر الثامن : لكل واحد من رعيتنا ان يبني معصرة من غير منع ، بحيث تكون في اطراف البلاد من الاماكن المناسبة ، ولا ينشأ منها ضرر لجيرانه ، ويكون كراؤها وكراء جمالها والمعاصرية مثل ما رتّبناه في معاصر البايلك ، وكراء خواسرها له ، وليس للبايلك منها الا حق الله في العشر ، على نحو ما بيّن أعلاه ، والفيتورة بعد احكام عصرها . ونجعل فيها ناظرا لحفظ العشر .

---

(1) الرياس ج رايس وهو رئيس العملة .
(2) في ق مشكولة بضم الباء وسكون النون ، ومعنى البند الحي المعصور ثانيا ، والميت المعصور ثالثا .
(3) عملة المعصرة .
(4) البايلك: حكومة الباي .

الامر التاسع : ان الخواسر(1) تكرى على العادة المقررة ، وبها يأخذ الفلاح الطريق في العصر ، الا اذا فسد زيتونه وثبت بشهادة عدول الغابة والامناء وأعيان الفلاحة والقايد ، فان الضرر يزال عن صاحبه بتقديمه في العصر .

الامر العاشر : ان سائر ما يتعلق [باجراء هذه الامور ، وما يقع بين ارباب الزيتون مما يتعلق] (2) بأحواله واحوال المعاصر ، يكون نظره لمشايخ البلاد الثلاثة وشهود الغابة والامناء والاعيان من الفلاحة وقايد الغابة . وما يقع عليه اتفاق الاكثرين يرفع الينا لنأمر بامضائه .

وحسب صاحب المعصرة ورب الزيتون ان يكون عمله على ما حررناه ، وسطّرناه وأمضيناه ، والى اهل الحاضرة شرحناه ، وما سواه فقد اسقطناه ، والله أسأل الاعانة على صلاحكم ، وزيادة مكاسبكم ونموّ ارباحكم . وأرجو أن يكون هذا من أسباب العمران ، وتكثير الشجرة الممدوحة في القرآن . وأمرنا بقراءة هذا الظهير على سائر الفلاّحة ، ومن اراد نسخه فله ذلك ، ويبقى بيد الشيخ حجة يرجع اليها ، ويعول عليها .

والله ولي التوفيق ، والهداية الى اقوم طريق » .

وكتب في عاشر صفر من سنة 1274 (الاربعاء 30 سبتمبر 1857 م.) .

والاسماء المذكورة في هذا المنشور هي اصطلاح التخاطب في عرف اهل الزيتون ، معروفة عندهم .

والنتيجة انه أسقط من جباية الزيت قدر النصف . وبنيت بعد هذا معاصر ، واقبلت الناس على غراسة الزيتون ، لا سيما بمرناق ، وازداد في الغابة كثير من أصوله ، مشاهد بالعيان ، [لما] (3) خفّ ثقل مغرمه .

وهذا في الحاضرة ، اما غيرها من بلدان المملكة فانه أبقاه على عادته اذ لم يكن فيه كبير ضرر .

---

(1) الخواسر هي مستودعات للزيتون تعرف الآن بالمصارف
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) الزيادة عن ع و ق .

ثم ان المعاصرية ، وهم اهل صناعة العصر [للزيتون] (1) استقلّوا ما قدّر لهم من الاجر في المنشور ، وليس في الحاضرة غيرهم ، وهي صناعة ضرورية اتفق أهلها على عدم عملها الا بأجر فادح يحصل منه الضرر ، فأمر مشايخ البلاد وعدول الغابة والامناء وأعيان الفلاحة ان يجتمعوا لتقدير أجر مثليٍّ لهؤلاء لا ضرر فيه على الجانبين ، وما وقع عليه اتفاقهم رفعوه إليه وامضاه بأمر مؤرخ بالثاني عشر من جمادى الاولى سنة 1274 ، (الثلاثاء 29 ديسمبر 1857 م.) ، وهو الآن بيد المشايخ يرجع اليه .

وازداد للشجرة المباركة بهذه العناية نور على نور . وحذا هذا الباي في زيتون الحاضرة حذو جده الاعلى باني البيت حسين بن علي ، فانه خفّف عنه ما استطاع ، وأبطل القانون الذي كان على اصول الزيتون أجدب أم أخصب ، وسلّمت الناس في أملاكها ، وكادت الغابة ان تضمحلّ ويطفأ نورها ، فجعل فيه ترتيبا أمنه للاحتفاظ عليه والرجوع اليه في ديوان الترك ، لكن بقي اسمه وزال مسمّاه بنهب اللزّامة وتغافل الملوك للتغالي في ثمن اللزمة .

وقدّم لامر الغابة من قدّمه للأعشار بالرابطة ، وهو ابو الفداء اسماعيل المعروف بقائد السبسي [المتقدم ذكره] (2) ، وهو بمكان من الامانة والوقوف عند الامر ، إلا أنه أطلق عنان خيل الغابة فيما يوجد فيها وبقربها من الانعام والمواشي لاكل ثمرها وفساد شجرها ، يعاقب على ذلك بالمال على العادة السابقة من دفع ظلم بظلم ، حتى انه يقال عند العامة : « الغابة جورها عدل » ، اي الجور في حراستها عدلٌ لحفظها ، وأغضى له الباي عن ذلك .

*

وفي ذي الحجة من السنة 1274 (جويلية — اوت 1858 م.) أمر الباي بابدال سكة النحاس ، وصيّر رواجها بنصف ما كانت . وذلك انها كثرت في البلاد كثرة فادحة فوق المظنون . واكثر الباي من ضربها ولم يقف عند حدٍّ من تقدمه ، بحيث صارت دار السكة لا تضرب الا سكة النحاس ، لكثرة ما فيها من [اسم الربح و] (3) الفائدة للدولة ، حتى كاد ان لا يكون التعامل إلا بها .

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) الزيادة عن ع و ق .

والاصل في سائر الاقطار ان سكـة النحاس انما هـي إعانة في كسور احد النقدين .

وقلّـت الفضة حتى كادت ان تعدم ، لان التجار يخرجونها من المملـكـة اذا لـم يجدوا سلعة يشترونها عوض سلعتهم .

وضاق الحال وصار الوافـدون من التجـار يشترطون في اثمـان سلعهـم الفضـة او الذهب (1) ، والشرط أملك .

وضجّ تجار الافرنج من ذلك ، ورفعوا شكايتهم بتعطيل المتجر بواسطة قنـاصلهم . وظهر التعطيل واضطره الحال الى تبديلها ، فأعلم سائر اهل البلاد بما عزم عليه من تبديلها ، وكاتب قناصل الدول الاجانب (2) بما نصه :

« اما بعد ، فاننا أمرنا بجمع قطع النحاس المسكـوكـة من سائر إيالتنا في دار السكة . والقطع هـي ابو ربـع وابو ستة وابو خرُّوبة وابو ناصري وابو فلس . وجعلنا الاجل للقبول بالمـكان ثلاثين يوما من يوم التاريـخ . واول ما يقبل ابو ربـع وابو ستّة في مدة الثـلاثين يوما . ويبقى ما عداهما من سكـة النحاس للتعامل به بين المحتاجين بسعره الاصلي في مدة الثلاثين يوما . وبعد ذلك يقبل ابو ثلاثة وابو ناصري وابو فلس في مدة ثلاثيـن يـومـا اخرى . وكـل من يأتـي بما عنده من سكـة النحاس يأخذ توصيلا في مقداره من المأمور بدار السكـــة .

وبعد مضـي الثلاثين يوما يصير رواج سكـة النحاس بنصف ما كان . فأبو ربـع ريال يصير ثمن ريال ، وابو ستة يصير خروبة ، وابو ثلاثة نواصر يصير ناصري ونصف ، والناصري يصير فلسا ، والفلس يصير نصف فلس . وكـل من اتى بدراهم وبيده توصيل فيها ، يأخذ من دار السكـة ، بعد مضـي الثلاثين يوما ، نصف المقدار الذي أتى به نحاسا على السعر الثانـي الذي حكمنا به ، والنصف الآخر يأخذ فيه تذكـرتنا ليقبضه على أربعة اعوام في اربـع كـرّات ، الاولى بعد مضـي عام من تاريـخ التذكـرة ، وهلم جرا حتى يـكـون خالصا عند انقضاء العام الرابـع . وكـل كـرة يقبضها حامل التذكـره يقيد على ظاهرها التوصيل . ومن يبقى بيده شـيء من سكـة النحاس ولم يأت به في المدة المعينة لا

(1) في ع و ق : « ما جعله الله ثمن كل مثمن وهـو النقدين » .
(2) في ع و ق : « الدول الاحباب » .

يقبل بدار السكة ، ويمضي بالسعر الثاني الذي حكمنا به ، وخسارته على ربه لانه فرط . فالمراد ان تُعلموا مَن لنظرهم بذلك ، ودمتم في أمن الله » .

وعند ذلك لاذت الناس بأصحاب الناضّ من التجار ، لاسيما أهل أوربا ، يدفعون لهم ما بأيديهم من سكة النحاس ويأخذون صرفها فضة او ذهبا ، على إسقاط شيء من رأس المال . وبلغ ذلك الى إسقاط الخمس والربع من المال . وربح فيها مَن أخذ النحاس نصفَ ماله في اربع سنين ، دون ما اخذه من الصرف العاجل ، اذ لا وثوق لرعايا ملوك الاطلاق بأمرائهم فلا أمان عندهم ، والتجار الافرنج في حماية دولهم .

ولاقى الفقراء من ذلك شدة على شدة وبؤسا على بؤس .

وخسرت الدولة في ذلك اكثر مما توهمته في ضربها من الربح العاجل .

وهكذا الشأن في كل دولة تتّجر في نقودها ، إما تخسر ذلك الربح عاجلاً كحالتنا ، او تخسر المملكة بنقصانها المؤدي الى خرابها شيئا بعد شيء حتى تضمحل .

⁂

وفي محرم غرة سنة 1275 ، خمس وسبعين (اوت — سبتمبر 1858 م.) ، رتّب الباي المجلس البلدي للنظر في مصالح أبنية البلاد وتوسيع الطرق وغير ذلك مما تدعو الحاجة لوجوده او رفعه .

وجعل له نظر أمناء المعاش ، وصيّرهم ثلاثة ، وجعل رئيسه النجيب ابا عبد الله حسين احد اعيان المماليك ، وجرى على نهج استقامة فيما أمر به ، واتسعت بعض الطرق بهدم ما كان يعطّل المارّين ، مثل الدكاكين والستائر المجعولة على أبواب الحوانيت ، إلا أنه مال للتحسين قبل استكمال الضروري والحاجي ، من جَعْل الطرق من تونس الى باردو ، وغرس اشجار لا ثمرة فيها على حافتيها ، مشتراة من خارج المملكة بمال له بال ، الى غير ذلك مما يدعو له تمام العمران ومزيد الثروة .

⁂

ولم يزل هذا الباي يستعظم شأن المصاريف على العسكر ، إظهارا لغلط مَن تقدّمه ، لانه كان يسمع التشنيع عليه في ذلك على أنحاء مختلفة ، ويقول للوزراء في معرض

الاعتراض على مخدومهم الاول : « ان الدنيا الآن رتّبتها عظماء الدول على الحقوق ، ولو كانت على حسب القوة ما يمنع الدولة القوية ان تستولي على الضعيفة . وحسبنا من العسكر ما نستعين به على الهناء ودوام الراحة لبلادنا وتربية الجهّال منهم . وأي فائدة في بقاء عسكر محبوس في قشلة تصرف عليه المملكة ، مع نقص عمله منها » ، فيلوذ بعضهم بأن الملك لا بدّ له من شعار وفخامة ، فيجيبهم بأن الفخامة انما هي بالعمران والثروة والعافية والهناء ، الى غير ذلك من الكلام المسلم الدائر على مركز المصلحة ، باعتبار الحال والمكان والزمان . [وما درى ان المساكين الوزراء عانوا في معارضة من تقدّمه كما يعانون في معارضته] (1) .

وآل أمره الى التنقيص ، بعد ان تفاوض مع الوزراء في ذلك واتفق الرأي عليه ، فأمرني أن نكتب لوزير الحرب بما نصّه :

« من عبد الله سبحانه المتوكل عليه ، المفوض جميع الامور اليه ، المشير محمد باشا باي . سدّد الله أعماله ، وبلّغه من عمران هذا القطر آماله . الى فخر الوزراء الاركان ، وعمدة اهل الرفعة والشان ، وفارس ميادين الكمال والعرفان ، الثقة العمدة الخلاصة الاوفى النصوح المقرب ، وزير الحرب أمير الامراء ابننا مصطفى باش آغة ، لا زالت مساعيه ناجحة ، وآثار خدمته الجميلة واضحة .

اما بعد السلام عليكم ورحمة الله ، فان النظر في التراتيب العسكرية من اهم الامور ، وباستقامته على قوانينه صلاح الخاصة والجمهور . وقد أجلْنا الفكر ، وأطلنا النظر ، وتفاوضنا في المشورة مع ثقاتنا ورجال دولتنا فيما يجب فيه النظر من احوال عسكرنا وإيالتنا ، فرأينا بعض الآلايات وقع في أعدادها النقصان ، من الوجهة الجهادية ، والاجل المحتوم على كل انسان ، بعد أن سرّحنا من الموجودين مَن استوجب التسريح ، بالعذر الثابت الواضح المبيح ، ولا مساغ لتعطيل مَن هذا حاله ، وكل عسكري فالى التسريح مآله . ومن المعقول الواقع في الاقاليم ان حال العسكر كثرةً وقلّة يتبع حال الوقت من سلم أو حرب . والسلم بحمد الله ثابت الاساس في غالب المعمور ، فايالتنا الآن والحالة هذه احوج لتكثير العمران ، من تكميل ما وقع في الآلايات من النقصان . واذا صار

(1) الزيادة عن ع و ق .

الدفاع فرضا عينيا ، صار كلُّ مسلم عسكريا . ونتيجة هذه المقدمات التي حررناها ، والى الاسماع وضّحناها ، ان تحضر معك نخبة الاكابر الاركان ، وفارس ميادين الحرب والعرفان ، وعمدة أهل الشان ، الثقة الخلاصة الاعز أمير امراء عساكر السواحل (1) ابننا رشيد ، وأمراء الالوية المباشرين للخدمة العسكرية ، واقرأ على مجموعهم هذا المنشور ، ليعلموا ان خدمتهم معك في هذه الامور :

الامر الاول : ان تنتخبوا من سائر امراء الآلايات الموجودين الآن من يصلح لخطته من جهة المعرفة بالتعاليم العسكرية ، والعلم بكيفية إجرائها ، مع مراعاة السن والقوة البدنية التي تتحمل تعب المباشرة من الآن . والذي يقع عليه الاختيار يكون من اعضاء مجلسكم لانتخاب بقية الضباط .

الامر الثاني : ان من ينتخب من قائمي المقامات يكون من اعضاء مجلسكم ايضا لانتخاب بقية الضباط .

الامر الثالث : ان المنتخب من أمناء الآلايات والبنباشية يكون من أعضاء مجلسكم لانتخاب بقية الضباط .

الامر الرابع : ان الضباط الذين تنتخبونهم يكون قدر كفاية ثلاثة آلايات من ثلاثة طوابر ، لان ذلك هو ما اقتضته المصلحة الآن ، والاحكام تتبع المصالح الوقتية ، ويقع مثل ذلك في الطبجية . وبعد هذا نعيّن لكم المقدار الذي يلزم .

الامر الخامس : ان تنتخبوا من آلايات الخيّالة طابورا واحدا لعسّتنا بضبّاطهم ، ويكون انتخابهم باعتبار المروءة الانسانية والسن والقوة والفروسية .

الامر السادس : ان تضيفوا عسكر آلايات الخيالة والآلاي السابع الى الآلاي الاول .

الامر السابع : ان تضيفوا الآلاي الثالث والآلاي الرابع الى الآلاي الثاني .

الامر الثامن : ان من يبقى في هذه الآلايات الخدامة من المعاوضين وغيرهم ، يُسَرَّحون لما يتمُّ القانون الذي امرناكم به في نزول العسكر على قانونه بالقرعة عن قريب ان شاء الله تعالى ، ونحثكم على إتمامه فورا .

(1) كذا في خ و ع ، وفي ق : « امير عساكر الساحل » .

الامر التاسع : ان تضيفوا الآلاي السادس الى الآلاي الخامس .

الامر العاشر : ان من يفضل من الضباط على (1) قوام الآلايات الثلاثة ، حرّروا لنا في زمام اسماءَهم وحالهم في الخدمة العسكرية ومدة اقامتهم في الخدمة مباشرة ، ليجزى كلٌّ على حسب عمله . فليس من باشر الخدمة كمن لم يباشرها الا بالاسم ، وليس من خدم المدة الطويلة حتّى ذهب فيها اطيب عمره كمن خدم المدة القصيرة . حرّروا لنا كلَّ نوع وحده .

واوصيكم ، سدّد الله حالنا وحالكم وقرن بالاصابة أعمالنا واعمالكم ، امتثالاً لقول الله تعالى « وَذَكِّرْ فَانَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ » ، ان تتثبّتوا وتمنعوا النظر في هذا الامر المهم الذي وَثِقْتُ فيه بكفايتكم ، ونظرته بعين أمانتكم ، فانها مصلحة تعمُّ الوطن والجمهور ، ومثلكم من يعلم مقادير هذه الامور .

وتناوضوا فيها بالاستشارة فلا خاب من استشار .

وقد استعملتكم في هذه الخدمة وانتظرت ما يرد علي فيها من أثركم الجميل ، وانتم بحمد الله محلُّ هذا التأميل .

فبادروا لإتمامها فورا باعانة الله والتوكل عليه ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، والسلام » .

واجتمع هذا المجلس ، وانتخبوا ما أمروا به على الوجه المقرر لهم في الامر . وسرح من افراد العسكر من طالت مدته او ضعف بدنه ، ومن بقي من الضباط زائدا على مقدار العسكر سرّحه وأبقى له نصف مرتبه . وكتب لكل واحد منهم جبرا لخاطره ما نصه ، بعد افتتاحه وذِكْر اسمه :

« اما بعد فاننا لما رتّبنا العسكر على ما اقتضته المصلحة في الوقت والحال . وابقينا من امثاله من يقوم بضبط اولئك الرجال ، انفت حميتنا العسكرية من طرحه واهماله ، ولا مقتضى لها من حاله ، اذ لم يصدر منه عيب ، ولا شَانَ خدمتَه العسكريةَ بريب ، مع عدم الحاجة لإبقائه بلا عمل في خدمته ، وتعطيل مصلحته ، فسرحناه من مباشرة الخدمة العسكرية ، وابقينا له نصف مرتبه واستحقه بسالف خدمته المرعية ، مدة حياته

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « عن » .

الدنيوية ، مع اعتبار ما ناله من العناية والاحترام ، باعتبار الخطة والمقام ، فهو وان لم يباشر الخدمة العسكرية ، يؤمّل ان يباشر ما يستكفى به في خدمتنا السياسية ، وبابنا له مفتوح ، واكرامنا له ممنوح ، خصوصية له ولامثاله ، ممن دخل في الخدمة على منواله ، وأوصينا له بالرعي والاحترام ، وان لا يقاس بما يقاس به العوام ، لانه وان لم يكن في العسكر الآن ، فله من الاحترام عين ما كان ، واوصيناه ان يسلك السبيل المرضية ، ويصون احترامه ان ترفع به شكية ، والله ولي التوفيق ، الى اقوم طريق ، والسلام » .

وكل من أصيب في بدنه من العسكر او من الضباط ابقى له مرتبه كاملاً وسرّحه وكتب له ما نصه :

« امرنا هذا بيد ولدنا فلان ، وانه لما توجه مهاجرا الى الله ورسوله في هذه الوجهة الجهادية ، وخدمة الدولة العلية ، وصدر منه ما يدل على نظافة العرض ، ويزين الوطن والارض ، وقام احسن قيام بالفرض ، والاثر في بدنه شاهد بحسن خدمته ، وهو اعظم نيشان لحرمته ، فسرحناه لعجزه عن الخدمة العسكرية ، وابقينا رواتبه مَجْرية ، ما دام في الحياة الدنيوية ، وله منا مزيد التقريب والعناية والاحترام ، على ممر الدوام ، وهو مع تسريحه محسوب من عساكر الاسلام ، لا يقاس بما يقاس به غيره ولا يضام ، والله لا يضيع أجر من احسن عملا » .

***

وفي خامس صفر من السنة 1275 (الثلاثاء 14 سبتمبر 1858 م.) ، صدر امر الباي بتسريح اليهود للبس الشاشية الحمراء ، وشراء ما يملك من الربع والعقار بالحاضرة وغيرها ، وانتحال الفلاحة ، وهو من التسوية بمقتضى عهد الامان ، بل بمقتضى العدل وما يقتضيه حال كل زمان . وذلك ان تعيين زي مخصوص لاهل الذمة ليس من أصول الدين ، وان النبي صلى الله عليه وسلم لم يغير زي يهود المدينة ، وهم من سكانها معه .

وأول من أمر بتغيير الزي لاهل الذمة ، الخليفةُ المتوكل العباسي في سنة خمسمائة من الهجرة (1) ، على عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون ، كما حكاه صاحب (2) « محاضرة الاوائل ومسامرة الاواخر » ، وكان ذلك ايام تراجع الخلافة العباسية .

(1) كذا في خ و ع و ق .
(2) هو علي دده ، المتوفى سنة 1007 هـ (كشف الظنون ص 1610 — بروكلمان ذيل 2 ص 635) .

وقد كان اليهود في ايالة تونس بل وفي المغرب كله على حالة من المذلة والامتهان والاذاية التي اقتضت غيرةَ الله على مصنوعه ، لا سيما مع قول المصطفى صلى الله عليه وسلم : « استوصوا بالذمة خيرا » ، وقوله صلى الله عليه وسلم ، عند انتقاله الى الرفيق الاعلى : « احفظوني في ذمتي » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « من آذى لي ذمّيا فأنا خصمه » ، ولا شك ان الصَّغَار غير الاذاية .

واما شراء الربع والعقار فقد كان سابقا بلا حَجْر ، من حيث انهم من رعايا المملكة ، ورسوم المتأصلين منهم في ملك دُورهم تشهد بذلك ، اذ لا مانع منه شرعا ، ومنعهم من ذلك ابو محمد حمّودة باشا الحسيني اوائل دولته ، لسياسة ظهرت له وقتئذ ، حتى غلت اكرية دورهم ، وتضايقوا بسبب ذلك في السكنى مضايقة افضت الى تعفن الهواء وأسباب الامراض ، ولا داعي لذلك من صحيح الاغراض .

ولما وقع هذا التسريح من الباي ، أنِفَ جهّالُ الحاضرة [وغيرها] (1) من ذلك ؛ ورأوه لجهلهم من أشراط الساعة ، وما دروا ان ما حلّ بالقطر من النقص في الاموال والانفس والثمرات ، من أعظم أسبابه ظلمُ أهل ذمتنا ، وترك وصية نبينا .

ولعل البعض ممن يطّلع على هذا الموضوع يرى ان عهد الذمة انتقض ، فأقول له عليك بمطالعة « الاشباه والنظائر » (2) من كتب الحنفية في احكام الذمي ، ومطالعة « الاحكام السلطانية » للماوردي من كتب الشافعية ، ومطالعة الفرق الثامن عشر (3) والمائة والفرق الذي بعده [من فروق القرافي] (4) من كتب المالكية ، ترى معنى الذمة وما ينقضها وما لا ينقضها .

وما درى الجهال بثمرة التسوية ان جهلهم أوجب فيهم عدم مساواة ، والمكافاة من جنس العمل ، حتى صاروا عبيد جباية وآلة لغيرهم ، ليس لهم من ثمرات خطط بلادهم الا مشاهدة استئثار غيرهم بها ، وربّ مكرم لنفسه وهو مهين لها ، ورب مهين لنفسه وهو مكرم لها .

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) الاشباه والنظائر لابن نجيم المتوفى سنة 970 (كشف الظنون ص 98) .
(3) كذا في خ و ع ، وفي ق : « الثالث عشر » .
(4) الزيادة عن ع و ق .

الخبـــر عن مـــاء زغـــوان

الشبيـــه بسيـــل العـــرم

على هذه الايـالـــة

كان في ذي الحجة من السنة 1275 (جويلية 1859 م.) قدم لهذه الحاضرة مهندس فرنساوي اسمه كـولان ، وتعلق بقنصل الفرنسيس ليون روش المتقدم ذكـره ، ودبّر معه لفائدة نفسه في ان جلب الماء من زغوان وجُقّار يمكن وصوله بلا كـلفة الى الحاضرة وباردو وحلق الوادي والمرسى على الحنـايا القديمـة والمجـاري السابقـة في أنابيب من معدن يـؤتـى بها من فـرانسة .

ويقال انه ساهم القنصل بجزء وافر من الربـح ، والله اعلم ، غير ان اجتهاد القنصل في جلب هذا الماء ، والحرص على اتمام العقدة حرص السمسارين ، لا يُبعِد هذا الظن ، لانه كان يترامى على الامتزاج بالباي كما تقدم ، غير معتبر لخطته ، حتى انه كان يَطرُقه ليلاً في بستانه واوقات راحته ، لامر هو يعلمه .

فأتى البايَ مرة وقال له : « من سعادتك ان مهندسا فرنساويا ظهر له ان الماء يجلب من زغوان للحاضرة وحلق الوادي والمرسى بأيسر مصروف » .

وتردد على الباي في ذلك تردد السمسار الملحّ ، وهو يرفل في احترام دولته . وسوّل له ان هذا الماء لما يصل للحاضرة تهرع الناس الى شراء انابيب منه لدُورهم ، ويوفرون ثمن الدلاء والحبال ، ويستغنون عن مصانع الماء ، ويشتري منه من يريد شغل الارض بالاشجار والنبات ، وتـكـثر الاشجار وتنمو الفلاحة ، ويحصل من ثمن ما يباع من الماء أضعاف ما يدفع في جلبه ، الى غير ذلك ممـا ينمّقه البائع في تحسين مبيعه .

ولما سمع الباي ألفاظ نمو العمران ، وشغل الارض بما يقتضـي التخفيف من الجباية الموظفة على الرؤوس ، اذ كانت مناط نظره ، لا سيما وقد وعد باسقاطها في منشور الاعانة ، لان الاداء على الرؤوس ممـا تستثقله النفس الانسانية ، لا سيما الامة المُسلِمة ، لِمـا يرونه من الشبه بالجزية التي من اسرار ضربها على الكافر إلجاؤه الى الدخول في الملة الذي هو مناط نظر الشارع . ولمـا سمع ذكـر التخفيف ، مال الى استحسانها ورآها صـلاحا ، واكـثر مصارع الرجال تحت بروق الاطماع ، فاغتنمها القنصل .

وكان هذا الباي جديّ السجية ، يبني الامور على ظواهرها ، ويطمع في كل ما يسمع ، من غير إعمال فكر ولا تبصر في العواقب .

ومن الغد جمع رجال دولته وقص عليهم اضغاث رؤياه لهذه المصلحة ، فبادروا بالانكار على لسان واحد ، وهو المتبادر على البديهة ، وبينوا له شُبَهَ المغالطات ، عدا الوزير ابي النخبة مصطفى خزنه دار ، لانه حضر الموطن مع القنصل ، ورأى شَرَهَ الباي وشهوته ، فطفق يُحَسِّن بمقدمات خطابية ، شأن الوزراء للملوك الإطلاق ، كما تقدم في العقد الاول من المقدمة .

واما الوزير خير الدين فانه علم استحسان الباي لهذه المصلحة وانه انفصل فيها مع القنصل فسكت ، وربما اعان اعانة من يعلم ان حضوره للسماع لا للمشورة الحقيقية ، وظهر ذلك من حاله .

وحاصل ما قال له رجال الدولة في هذه المصلحة ، التي هي في الحقيقة للمهندس ومن كان على شاكلته ، ان هذه الحاضرة اتفق تأسيسها على غير ماء ، فاتّخذ أهلها المصانع في دُورهم لجمع ماء المطر للشرب ، ولا تخلو دار من بئر للاستعمال في غير الشرب ، وتأسيس أبنيتها على هذا الاعتبار ، وبها من الفساقي لجمع ماء المطر ما يكفي لو صلحت ، وسقاياتها مجلوب لها الماء من عين الجبل الاحمر ، حتى قال له ابو عبد الله محمد عامل الساحل : « ان جلب الماء من زغوان يستدعي مصروفا كبيرا ، فأعطني عشره أصلحْ منه سائر الفساقي وَأُجْرِ الماء لسائر السقايات وأُحكمْ بناء الساقية ، واذا لم يكف أكمل ذلك من عندي » ، فقال له : « ان القصد بيع الماء » ، فقال له : « هل تريد الغصب على شرائه ؟ » ، فقال : « لا يمكن ذلك » ، فقالوا له : « إذاً لا يشترى أحد ، إذ لا داعي له ، إلا من يريد النزهة بجريان الماء ونبعه ، وهم أقل من القليل ، مع انهم يقولون ان ماء زغوان وَخِيم ، على أن ماء زغوان ثلاثة ارباعه مملوكة لاربابها ، اشتروها بأموالهم من الدولة ، يقتسمونها بينهم لدورهم وأرحيتهم واشجارهم ، فاذا أخذَ لهم (1) تتضرر أشجارهم المعتادة بالسقي ، ويؤدي ذلك الى نقص في عمران الإيالة بموت هذه الاشجار ، ولا ضرورة لذلك الا مجرد التحسين . مع ان الانابيب الجاري فيها

---

(1) اخذ لهم : أخذ منهم (عامية تونسية)

الماء لا تخلو من صرف كثير دائم بدوامها ، وهذا مصرف زائد لا داعي له . وليس هذا مما يحسن فيه الاقتراض ، لان التداين يغتفر في الامور الضرورية » ، الى غير ذلك مما يُعلّم بالبداهة . لكن الشهوة حجاب يغطّي نور العقل ، ومن أطاع هواه ضلّ ، ومن اشترى ما لا يحتاج اليه باع ما يحتاج اليه ، ومن ساس نفسه ساس جنسه .

ولما لم يجد قوة لردّ شهوته ، قال للجماعة : « أعطيت كلمتي للقنصل في ذلك » ، فعند ذلك تنفّس الامير خير الدين ، وقال له : « أي فائدة لجمعنا حيث أعطيت كلمتك، وحسبنا سماع هذا الخبر من سيادتكم » ، فقلت له : « قد وقع الوعد ولم يقع انفصال ، ولا أقل من ان نشدد في شروط هذا الاتفاق حتى يكون الامتناع من جهته » ، فقال لي : « المؤمن عند لفظه » . ولما خرجنا ضرب بيده على كتفي ، وقال لي : « ان شاء الله يصل هذا الماء لتونس وتطلب الشراء منه ولا نبيعه لك » ، فأمّنتُ على دعائه .

وأمر بعمل الاتفاق مع المهندس على يد القنصل ، ومحصله سبعة ملايين ونصف مليون فرنك تدفع للمهندس مكاتيب على آجال ، والدولة تدفع ربا المكاتيب ستة على المائة ، وتدفع ثمن الانابيب حالاً ، الى غير ذلك مما سوّدت به وجوه الطروس ، في ذلك الاتفاق المنحوس ، الذي نتيجته ان الدولة تداينت بربا لتحسين موهوم ، اذ لا ناضّ عندها ، وازداد بذلك صرف على الدولة لا قِبَل لها به ، وأفضى الى زيادة وهن وضعف .

وان كان هذا الباي خلّص هذه الإيالة باعانة الوزير خير الدين من ورطة الدّين الذي أمر به ابن عمه المشير احمد باي ، ليصرفه على العسكر التونسي باسلامبول ، الا انه أوقعها في ورطة أفظع وأشنع ، ومحا حسنته الاولى بسيئة هذا الماء التي هي اعظم أسباب الخراب ، لانه أتى بها ومزاج الدولة والمملكة في مرض الهرم .

وهذا من ثمرات الملك المطلق ، وسبحان من انفرد به وهو الحكيم الخبير . وحسب الوزراء انهم لما رأوه عمد الى خرق السفينة تكلموا ، ولما أراهم شهوته وجموا ، ولو كان لهم قانون أخذوا به على يده فسلّم وسلموا ، لكنهم خافوا فأحجموا ، ولمّا أدركها الغرق ندموا ، فكانوا كما قيل :

تبغي النجاة ولم تسلك مسالكها   ان السفينة لا تجري على اليَبَس

وهذا الماء هو السبب الذي جرَّ الى ما بعده من اسباب النقصان والخراب . وكـذلك يُريهم الله أعمالَهم حسرات عليهم . ولله فينا علم غيب نحن صائرون اليه . والمرجوُّ من فضله وحلمه اللاطف بعباده الذين قادتهم أعمالهم الى ربقة القهر ، ولا يظلم ربك أحدا .

*

وفي محرم غرة سنة 1276 ، ست وسبعين (أوت 1859 م.) ، وجّه الباي أخاه ابا عبد الله محمد الصادق بـاي بمحلـة الصيف على العـادة ، فأمّن السبـل وقرّر الهنـاء وخلّص الحقوق ، وأتاه اهل الجبل فرحين مستبشرين طائعين .

*

ومرض الباي في مغيب أخيه ، سادس صفر (الاحد 4 سبتمبر 1859 م.) ، قبل ان يختم اتفاق جلب الماء المنحوس .

ولم يزل مرضه يزداد ، وطلب له قنصل الفرنسيس طبيبا من دولته . وهو في مـرضه يوصـي بـكـتمان حاله عن أخيه ، حتى ان اخاه لما بلغه الخبر وجّه ثقة من اعيان مماليكـه، وهو ابو عبد الله حسين ، ليحكـي له ما يشاهده من حال أخيه . ولما دخل اليه وهو بفراشه ، حذّره ان يقول لاخيه ما رآه من حاله ، وكاتبه بخبر العافية .

وفي اثناء ذلك بعث أخوه يطلب الاذن في القدوم ، فلم يأذن له ، فقال له وزراؤه : « انه تمـّم الخلاص او كاد ، فلا مقتضى لبقائه بالمحلة » ، فغضّ عنهم ، وأشار لهم بأن مرضه غير مخوف ، فأحجموا عن الكـلام .

وكاتب الوزير ابو النخبة مصطفى خزنه دار أخاه بحال سيده ، وان مرضه مخوف [باتفاق الاطباء] (1) ، غير انه ثابت الذهن ، كامل الميز ، يتعذر الكـلام معه في شأن قدومك والحالة هذه ، وهكـذا كـلما كـاتبه بحال اخيه .

ولم يزل مزاجه يضعف ، وأمله في الحياة يقوى ، الى ان توفاه الله عشية يوم الخميس الرابع والعشرين من صفر سنة 1276 ، ست وسبعين (22 سبتمبر 1859 م.) ، ببستـانه في

(1) الـزيـادة عن ع و ق .

المرسى ، ورأيته طريحا على الارض كما قاله لما رأى ابن عمه طريحا على الارض في قصره بحلـق الـوادي .

وبعث الوزراء في الحين لشقيقه وولي عهده مع أمير لواء العسة ابـي الضياء رستم ، ودفعوا خواتيمه ، بعد ان ختموا عليها ، لاكبر الحاضرين من اخوته وهو ابو محمد حمودة باي ، وأبقوا نظر القصر وما فيـه لشقيقـه ابـي الحسن علي بـاي ، وطلبـوا منه ان يبقى به حافظا ، بحيث لم يشهد جنازة أخيـه .

و [من الغد] حملوا الميت الى داره بباردو ، وانتظروا قدوم ولي العهد ، فقدم عشية يوم الجمعة ، [ونزل بدار أخيه] (1) ، وعانق أخاه ميتا وقبّله باكيا ، وذرفت عيون الحاضرين .

ومن الغد وهو يوم السبت ، دفن بالتربة [حذو والده] (2) ، بموكب حافل مثل ابن عمه ، رحمهم الله .

حـــال هذا البـــاي

كان كـريم النفس مقداما ، فارسا راميا ، طلق المحيّا يغلب عليه الحياء ، سليـم الصدر سَوِيّ الظاهر والباطن ، بعيدا عن العسف في الجباية ، رفيقا بمجموع الرعية ، ضاربا على أيدي العمال خاضدا شوكـة تعدّيهم ، لا يـكـاد يتجاوز في ذلك ولو للمقربين لديه زلفى من أصهاره وخاصته ، حتى خافه العمال واحترسوا من ان ينسب إليهم شـيء من أخذ المال ، حتى ان صهره على شقيقته المقرب لديه أبا الفداء اسماعيل صاحب الطابـع ، ازداد له مولود فبعث له اهل جربة ، وكان عاملاً عليهم ، بخمسين الف ريال ، على وجـه الهدية للمولود ، فتخوف من قبولها وردّها ، وطلب منـي أن أكـتب لهم على لسانه بمـا يجمل من الاعتذار ، ويزيل وحشة الردّ لما سموه هدية وكـرامة .

اشتـكى له قايد ناجعة من العربان برجل مسنّ ادّعى انه أفسد عليه [في عمله] ، وحاله تنافي الدعوى ، وقدم حجة من الزيوف التي لا [تروج ولا] (3) تنفق الا بمحكمة تونس .

(1) الـزيـادة فى الفقرة عن ع و ق .
(2) الـزيـادة عن ع و ق .
(3) الـزيـادة فى الفقرة عن ع و ق .

ولما قرأتها عليه اذا مضمونها ان افرادا شهدوا على هذا الرجل بأنه يفسد على القايد ، فقال للقايد : « بيّن لي إجمال الامور التي أفسد فيها » ، فتلجلج ، فعزله في الحين واولى المشتكى به عوضه ، بمحضر اعيان العرش في وقت الحكم بالوطق امام بستانه بالمرسى .

يكره الاسراف في فخامة المملكة بما لا تتحمله طاقتها ، ومن سعادة الجدّ الوقوف عند الحد ، غير جاهل بقدر المملكة ولا متجاهل ، والمتشبع بما ليس عنده كلابس ثوبي زور ، حتى انه أبطل نواشين الذهب المرصعة المميزة لخطط العسكر ، وأبدلها بنجوم من فضة يعلم بها مقام حاملها ، وأبطل نواشن الافتخار المرصعة ، الا عن آل بيته ، وجعل عوضها فضة مزجّجة من عمل البلاد ، إلا أنه محا اسم من ابتكرها وهو المشير احمد باشا باي واثبت فيها اسمه . غِرّ السجية ، والمؤمن غر كريم ، يقبل ما يسمع من غير إعمال فكر ، حسن الظن ، جريئا في أحكامه ، يستعجل في إنفاذها من غير ميل للتأني حتى في القتل ، يصعب عليه كظم الغيظ ، وربما يعقبه حِلْم .

يميل الى العادات المألوفة ويصعب عليه تركها لاي سبب كان ، حتى انه همّ بنقض ما أحكمه ابنُ عمّه من منع مِلْك الإنسان ، كما تقدم في الباب السادس ، فثبّطه الوزراء عن ذلك ، وقرّروا له خطره ، وبيّنوا له سياسة ابن عمّه وان الدول استحسنوا نظره في ذلك . وما زالوا به الى ان قال : « يبقى المنع عليكم وأنا أمْلِك » . ولما لم يجد من يأتي له بذلك من أرض السودان عاجلاً ، أخذ من أولاد الذين كانوا مملوكين في نواجع العربان ، وبالغ في الغصب على ذلك حتى أخذ بنات الاحرار المستولدات من الإماء السود ، بل أخذ المحصنات من تحت أزواجهن للخدمة بداره على حال فظيع ، واذا اتاه زوج المرأة شاكيا محتجّا برسم صداقه ، يأمر باش حانبه بتمزيقه قبل قراءته ويطرده .

وكلما مال خاصته الى ستر ذلك ، يميل الى اظهاره ويقول : « إن أقاصي العربان يملكون العبيد ، فمالي لا أملك وأنا سيد الناس ؟ » ، وقوفا مع العوائد السابقة ، ولو مع زوال المقتضي ووجود المانع .

يحب الانفراد بالمجد والاستئثار بنفائس الاشياء ، وإظهار النعمة عليه بظهورها في داره . وبالغ في ذلك الى ان تجاوز حدّ السّرَف وأثقل ظهر المملكة بشراء ما يشتهيه نسيئةً .

ذا شفقة ورأفة غريزية ، انكسر شقف من الافرنج على شاطىء حمام الانف ، وهو به يومئذ ، فركب جواده في يوم ماطر بارد عاصف الريح ، في أفراد من اتباعه ، حتى وصل الشاطىء وأعان الغرقى ، وحثّ الحاضرين على إنقاذهم وإعانتهم ، وهو معهم ، وكساهم وحملهم الى محل أعدّه لهم بما يلزمهم ضرورة من غطاء ووطاء وطعام ، وبعث لهم طبيبه ، وقابلهم مقابلة الكريم لضيفه المضطر . وأتاه في ذلك نيشان من السلطنة الفرنساوية ، ونواشن لمن أعان على ذلك ، كوزير البحر أبي محمد خير الدين ، وأبي الفداء اسماعيل صاحب الطابع ، فقد فعلا في ذلك ما يحسن خبره .

حَسَنَ التوكل على الله ، لا يتطير ولا يخشى العدوى بل ولا يحتمي ، وقوّى بذلك قلوب الناس لما وقع مرض الكوليرا في أيامه ، ووقع في داره فلم يكترث بذلك ، ولا حجز أولاده عن مباشرة المرضى ، كما فعل والده زمن الوباء بتونس .

وله من المآثر إتمام القنطرة البديعة على وادي مجردة في طريق بنزرت ، وقد ابتدأها والده وعاقه عن إتمامها الاجل المحتوم .

ومن أسباب النقص في بعض الممالك الاسلامية أن كل من ابتدأ شيئا ومات قبل إتمامه ، يتطير من يأتي بعده باكماله ، ولذلك ترى بعض الجوامع صوامعها غير تامّة ، ولما دالت الدولة له أمر باتمامها : غير مكترث بهذا الهوس ، ومن المقدور لا يغني الحذر .

ولمّا تمّت ركب لها بنفسه وعبّر عليها ، وهي من المصالح العامّة المعتبرة [انفع من بناء جامع بالحاضرة] (1) .

وبنى قنطرة ابي حميدة الضرورية ، ورمّ غيرها من القناطر [التي اشرفت على الخراب] (2) فسهّل بذلك العبور على الاودية .

وقصورَ بستانه في المرسى ، والدارَ التي انشأها باردو لسكناه (3) ، ولم يُبْنَ مثلُها في المملكة ، وهي الآن مسكن ملك العصر .

وله صدقات سرّية على من يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف .

(1) الزيادة عن ع و ق .
(2) الزيادة عن ع و ق ، وقنطرة ابى حميدة هى قنطرة الفحص .
(3) هى متحف باردو الآن .

قريبا الى الامية [جدا] (1) ، تشق عليه الكتابة والقراءة ، لعدم مزاولته الكتب .
والعيب في ذلك على أبيه ، حيث أرسله في مراتع الجهل ولم يختر له إنسانا يدلّه على أخلاق الكمال الانساني التي منها حركة الفكر في كل ما يسمع ، ولو تدرب على ذلك ما راجت عنده زيوف المخادعة في جلب ماء زغوان الذي هدم به ما بناه ، اذ ليس من العقل الثقة بالظن ، ومن امات شهوته أحيا مروءته . وربما يعذره من يعلم حاله من المنصفين ، باعتبار الحال في هذا القطر وأهله . وعلى كل حال فهو من البشر ، محلّ الخطإ والنسيان ، والاساءة والاحسان ، والكمال متعذر في غير المعصومين من نوع الانسان ، ويكفيه ما فعله من التخفيف واسباب العمران ، والضرب على ايدي العدوان ، وأعظِم بما تزوده لمعاده من منقبة عهد الامان ، الباقي بها ذكره على ممر الاحقاب والازمان ، وان كان ما كان ، فسبحان مَن كل يوم هو في شان .

تقبّل الله سعيه وقابله بما هو اهله من سعة الرحمة والغفران .

(1) الزيادة عن ع و ق .

فهـرس المـوضـوعـات

للمجلـد الـرابـع من كتـاب

« اتحاف أهل الزمان، بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان »

الـموضـوع — الصفحة

6) المشير احمد باشا باى

7) المشير محمد باشا باى

عهـد الأمـان

ISBN : 9973-10-189-8 (T.2)

الإنجاز الفني: مخابر الدار العربية للكتاب

4، شارع محيي الدين القليبي - المنار 2 - تونس

الهاتف: 255 888 - الفاكس: 365 888

طبع بالمطبعة الأساسية المنطقة الصناعية - بن عروس تونس

الهاتف : Tél. : 380.201

